

أَحْيَاءُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ

تصنيف

الإمام ميرزا أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار

في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

للمعلمة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسن العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٠ هـ

وتماما للنفع الحقنا بالكتاب في آخره ثلاثة كتب:

الأول: تعريف الأحياء ببعض أهل الإحياء، للمعلمة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله

ابن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي

الثاني: الإملاء عن إشكالات الإحياء، للإمام الغزالي، وذهب به اعتراضات

أوردتها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء.

الثالث: عوارف المعارف، للمعارف بالله تعالى الإمام السهروردي

الجزء الثاني

دار المعرفة

بيروت - لبنان

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الباب الأول : فيما لا بد للمنفرد منه

وهو ثلاثة أقسام : قسم قبل الأكل ، وقسم مع الأكل ؛ وقسم بعد الفراغ منه

القسم الأول : في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي

الأول : أن يكون الطعام بعد كونه حلالا في نفسه طيبا في جهة مكسبه موافقا للسنة والورع لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم هوى ومداهنة في دين - على ماسياتي في معنى الطيب المطلق في كتاب الحلال والحرام - وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيما لأمر الحرام وتعظيما لبركة الحلال فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية ، فالأصل في الطعام كونه طيبا وهو من الفرائض وأصول الدين .

الثاني : غسل اليد قال صلى الله عليه وسلم « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم »^(١) ، وفي رواية « ينفي الفقر قبل الطعام وبعده » ، ولأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة . ولأن الأكل لقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجرى منه مجرى الطهارة من الصلاة :

الثالث : أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بطعام وضعه على الأرض »^(٢) ، فهذا أقرب إلى التواضع فإن لم يكن فعلى السفرة فإنها تذكر السفر ويتذكر من السفر سفر الآخرة وساجته إلى زاد التقوى . وقال أنس بن مالك رحمه الله « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة »^(٣) ، قيل فعلى ماذا كنتم تأكلون ؟ قال على السفرة . وقيل : أربع أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الموائد والمناخل والأشنان والشبع واعلم أنا وإن قلنا الأكل على السفرة أولى فلسنا نقول الأكل على المائدة منهى عنه نهى كراهة أو تحريم إذا لم يثبت فيه نهى . وما يقال إنه أبدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس كل ما أبدع منهيا ، بل المنهى بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب وليس في المائدة إلا رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل وأمثال ذلك مما لا كراهة فيه . والأربع التي جمعت في أنها مبدعة ليست متساوية بل الأشنان حسن لما فيه من النظافة فإن الغسل مستحب للنظافة والأشنان أنم في التنظيف ، وكانوا لا يستعملونه لأنه ربما كان لا يعتاد عندهم أو لا يتيسر ، أو كانوا مشغولين بأجورهم من المبالغة في النظافة فقد كانوا لا يغسلون اليد أيضا ، وكانت مناديلهم أخص أقدامهم وذلك لا يمنع كون الغسل

الباب الأول

- (١) حديث « الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم » وفي رواية « ينفي الفقر قبل الطعام وبعده » أخرجه القضاة في مسند المشاهير من رواية موسى الرضا عن أبيه متصلا باللفظ الأول ، وقطرباني في الأوسط من حديث ابن عباس « الوضوء قبل الطعام وبعده » مما ينفي الفقر « ولأبي داود والترمذي من حديث سلمان « ركعة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » وكلها ضعيفة من حديث أبي هريرة نحوه وفي جماعة وثقه أحمد وضعه الدارقطني . (٢) حديث أنس « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ... » الحديث رواه البخاري .

مستحبا . وأما المنخل فالمقصود منه تطيب الطعام وذلك مباح ما لم ينته إلى التمتع المفرط . وأما المائدة فتيسر للأكل وهو أيضا مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعظيم . وأما الشبع فهو أشد هذه الأربعة فإنه يدعو إلى تهيج الشهوات وتحريك الأدواء في البدن فلتدرك التفرقة بين هذه المبدعات .

الرابع : أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديمها كذلك . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى ^(١) وكان يقول « لا آكل متكئا » ^(٢) إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد ^(٣) ، والشرب متكئا مكروه للمعدة أيضا ويكره الأكل نائما ومتكئا إلا ما ينتقل به من الحبوب . روى عن علي كرم الله وجهه أنه أكل كعكا على ترس وهو مضطجع ويقال منبطح على بطنه والعرب قد تفعله .

الخامس : أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالأكل ولا يقصد التلذذ والتنعيم بالأكل . قال إبراهيم بن شيان : منذ ثمانين سنة ما أكلت شيئا لشهوتي . ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا بأكل مادون الشبع فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوى عليها فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة وإثارة القناعة على الاتساع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم اقيعات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس » ^(٤) ، ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع فيكون الجوع أحب ما لا بد من تقديمه على الأكل . ثم ينبغى أن يرفع اليد قبل الشبع ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب - وسيأتى فائدة قلة الأكل وكيفية التدرج في التقليل منه في كتاب كسر شهوة الطعام من ربيع المهلكات .

السادس : أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام ولا يجتهد في التمتع وطلب الزيادة وانتظار الآدم بل من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الآدم وقد ورد الأمر بإكرام الخبز ^(٥) فكل ما يديم الرق ويقوى على العبادة فهو خير كثير لا ينبغى أن يستحقر بل لا ينتظر بالخبز الصلاة إن حضر وقتها إذا كان في الوقت متسع . قال صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء » ^(٦) ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشاءه . ومهما كانت النفس لا تنشق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة . فأما إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة وكان في التأخير ما يبرد الطعام أو يشوش أمره فتقديمه أحب عند اتساع الوقت ، ناقت النفس أو لم تنق ، لعموم الخبز ولأن القلب لا يخلو عن الالتفات إلى الطعام الموضوع وإن لم يكن الجوع غالبا .

(١) حديث « ربما جثا للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن بشر في أثناء حديث « أتوا تلك القصعة فالتفوا عليها فلما كثروا جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وله والنسائي من حديث أنس « رأيت به يأكل وهو مقنع من الجوع » وروى أبو الحسن بن المقرئ في النعمان من حديثه « كان إذا قدم على الطعام استوفى على ركبتيه اليسرى وأقام اليمنى ثم قال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وإسناده ضعيف . (٢) حديث « كان يقول لا آكل متكئا » أخرجه البخاري من حديث أبي جعفر .

(٣) حديث « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » تقدم قبله من حديث أنس بلفظ « وأفعل » بدل « وأجلس » ورواه البزار من حديث ابن عمر دون قوله « وأجلس » . (٤) حديث « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب . (٥) حديث « أكرموا الخبز » أخرجه البزار والبيهقي وابن قانع من حديث عبد الله بن أم حرام بإسناد ضعيف جدا وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٦) حديث « إذا حضر العشاء والعشاء فابدهوا بالعشاء » تقدم في الصلاة والمعروف « وأقيمت الصلاة » .

السابع : أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده . قال صلى الله عليه وسلم « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه ^(١) » وقال أنس رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي » .

القسم الثاني : في آداب حالة الأكل

وهو أن يبدأ بـ « بسم الله » في أوله وبـ « الحمد لله » في آخره . ولو قال مع كل لقمة « بسم الله » فهو حسن حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى ، ويقول مع اللقمة الأولى « بسم الله » ، ومع الثانية « بسم الله الرحمن » ، ومع الثالثة « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويجهر به ليندكر غيره . وبأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجتهد مضغها ومالم يبتلعها لم يمتد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل وأن لا يذم مأكولا . كان صلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولا كان إذا أعجبه أكله ولا تركه ^(٣) ، وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة فإن له أن يجيل يده فيها قال صلى الله عليه وسلم « كل مما يليك ^(٤) » ثم كان صلى الله عليه وسلم يدور على الفاكهة ، فقيل له في ذلك فقال : ليس هو نوعا واحدا ^(٥) ، وأن لا يأكل من دورة القصعة ولا من وسط الطعام بل يأكل من استدارة الرغيف إلا إذا قل الخبز فيكسر الخبز ولا يقطع بالسكين ^(٦) ولا يقطع اللحم أيضاً فقد نهى عنه وقال : انهشوه نهشا ^(٧) ولا يوضع على الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يأكل به قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء » ولا يمسح يده بالخبز . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة ^(٨) » ، ولا ينفخ في الطعام الحار ^(٩) فهو منهى عنه بل يصبر إلى أن يسهل أكله ويأكل من الترو ترأ سبعا أو إحدى عشرة أو إحدى وعشرين أو ما اتفق ولا يجمع بين الترو والنوى في طبق ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه ثم يلقبها ، وكذا كل ماله عجم ونفل . وأن لا يترك ما استردله من الطعام ويطره في القصعة بل يتركه مع النفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله . وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه فقد قيل إن ذلك مستحب في الطب وإنه دباغ المعدة .

وأما الشرب : فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه ويقول « بسم الله » ، ويشربه مصا لا عبا قال صلى الله عليه وسلم

- (١) حديث « اجتمعوا على طعامكم بيارك لكم فيه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشى بن حرب بإسناد حسن .
- (٢) حديث أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكل وحده » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .
- (٣) حديث أنس « كان لا يعيب مأكولا إن أعجبه أكله ولا تركه » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « كل مما يليك » متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة . (٥) حديث « كان يدور على الفاكهة وقال ليس هو نوعا واحدا » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عكراش بن دويب وفيه « وجالت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطبق فقال يا عكراش كل من حيث شئت فإنه غير لون واحد » قال الترمذى غريب ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٦) حديث « النهى عن قطع الخبز بالسكين » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هريرة وفيه « نوح ابن أبي هريرة وهو كذاب ورواه البيهقي في الشعب من حديث أم سلمة بسند ضعيف . (٧) حديث « النهى عن قطع اللحم بالسكين » أخرجه أبو داود من حديث عائشة وقال « فانهشوه نهشا » قال النسائي منكر . وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث صفوان بن أمية « وانهشوا اللحم نهشا » وسنده ضعيف .
- (٨) حديث « إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها الميط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة » أخرجه مسلم من حديث أنس وجابر . (٩) حديث « النهى عن النفخ في الطعام والمصراة » أخرجه أحمد في مسنده من حديث ابن عباس وهو عند أبي داود والترمذى وصححه ابن ماجه إلا أنهم قالوا « في الإناء » وأخرجه الترمذى وصححه من حديث أبي سعيد « نهى عن النفخ في المصراة » .

مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا فإن الكباد من العب^(١) ، ولا يشرب قائما ، ولا مضطجعا فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب قائما^(٢) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما^(٣) ، ولعله كان لعذر . ويراعى أسفل الكوز حتى لا يقطر عليه وينظر في الكوز قبل الشرب ولا يتجشأ ولا يتنفس في الكوز بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسمية . وقد قال صلى الله عليه وسلم بعد الشرب : الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا^(٤) ، والكوز وكل ما يدار على القوم يدار يمينه . وقد شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنا وأبو بكر رضي الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه وعمر ناحيته فقال عمر رضي الله عنه : أعط أبا بكر فناول الأعرابي وقال الأيمن فالأيمن ، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في أواخرها ويسمى الله في أوائها ويقول في آخر النفس الأول : الحمد لله ، وفي الثاني يزيد : رب العالمين ، وفي الثالث يزيد : الرحمن الرحيم ، فهذا قريب من عشرين أدبا في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار .

القسم الثالث : ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع ويلق أصابعه ثم يمسح بالمندبل ثم يغسلها ويلتقط فتات الطعام قال صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده^(٥) » ، ويتخلل ولا يبتلع كل ما يخرج من بين أسنانه بالخلال إلا ما يجمع من أصول أسنانه بلسانه أما المخرج بالخلال فيرميه وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام . وأن يلحق القصعة ويشرب ماءها . ويقال : من لعق القصعة وغسلها وشرب ماءها كان له عتق رقبة . وأن التقاط الفتات مهور الحور العين وأن يشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمة منه قال الله تعالى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ﴾ ومهما أكل حلالا قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا . وإن أكل شبة فليقل : الحمد لله على كل حال اللهم لا تجعله قوة لنا على مصيبتك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولا يلاف قريش . ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولا فإن أكل طعام الغير فليدع له وليقل : اللهم أكثر خيره وبارك له فيما رزقته ويسر له أن يفعل فيه خيرا وقعه بما أعطيته واجعلنا وإياه من الشاكرين . وإن أفطر عند قوم فليقل : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة . وليكثر الاستغفار والحزن على ما أكل من شبهة ليطفى بدموعه وحزنه حر النار التي تعرض لها لقوله صلى الله عليه وسلم : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به^(٦) ، وليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويلهو . وليقل إذا أكل لبنا : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه^(٧) فإن أكل غيره قال : اللهم بارك لنا فيما رزقنا وارزقنا خيرا

(١) حديث « مصوا الماء مصا ولا تعبوه عبا » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أسس بالفطر الأول ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح « إذا شربتم فاشربوا مصا » . (٢) حديث : « النهي عن الشرب قائما » أخرجه مسلم من حديث أسس وأبي سعيد وأبي هريرة . (٣) حديث « أنه صلى الله عليه وسلم شرب قائما » متفق عليه من حديث ابن عباس ، وذلك من زهم . (٤) حديث « كان يقول بعد الشرب الحمد لله الذي جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » أخرجه الطبراني في الدعاء مرسل من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين . (٥) حديث « من أكل ما سقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر بلفظ « أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحق » وله من حديث الحجاج بن علاط « أعطى سعة من الرزق ووقى في ولده » وكلاهما منكر جدا . (٦) حديث « كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به » هو في شعب الإيمان من حديث كعب بن عجرة بلفظ « سحت » وهو عند الترمذي وحسنه بلفظ « لا يربو اللحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به » (٧) حديث « القول عند أكل اللبن اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عباس « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه » ومن سقاء الله لبنا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه .

منه ، فذلك الدعاء مما خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين لعموم نفعه . ويستحب عقيب الطعام أن يقول : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا يا كافى من كل شيء ولا يكفى منه شيء أطعمت من جوع وآمنت من خوف فلك الحمد آويت من يتم وهديت من ضلالة وأغنيت من عيلة فلك الحمد حمداً كثيراً دائماً طيباً نافعاً مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه اللهم أطعمتنا طيباً فاستعملنا صالحاً واجعله عوناً لنا عن طاعتك ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك ، وأما غسل اليدين بالأشنان فكيفيته أن يجعل الأشنان في كفه اليسرى ويغسل الأصابع الثلاث من اليمين أولاً ، ويضرب أصابعه على الأشنان اليايس فيمسح به شفتيه ، ثم ينعم غسل الفم بأصبعه ويدلك ظاهر أسنانه وباطنها والحنك واللسان ، ثم يغسل أصابعه من ذلك بالماء ثم يدلك ببقية الأشنان اليايس أصابعه ظهره وبطنه ويستغنى بذلك عن إعادة الأشنان إلى الفم وإعادة غسله .

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهى سبعة

(الأول) أن لا يتدنى بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به فحينئذ ينبغى أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له (الثانى) أن لا يسكرتوا على الطعام فإن ذلك من سيرة العجم ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين فى الأطعمة وغيرها .

(الثالث) أن يرفق برفيقه فى القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادة على ما يأكله فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً . بل ينبغى أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين فى دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم . فإن قلل رفيقه نشاطه ورغبه فى الأكل وقال له : « كل ، ولا يزيد فى قوله » كل ، على ثلاث مرات فإن ذلك إلتحاح وإفراط . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خوطب فى شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث ^(١) وكان صلى الله عليه وسلم يكرر الكلام ثلاثاً ^(٢) فليس من الأدب الزيادة عليه . فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع قال الحسن بن على رضى الله عنهما : الطعام أهون من أن يحلف عليه (الرابع) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له : كل . قال بعض الأدباء : أحسن الآكلىن أكلاً من لا يحوج صاحبه إلى أن يتفقده فى الأكل وحل عن أخيه مؤنة القول . ولا ينبغى أن يدع شيئاً مما يشتهي لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع بل يجرى على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً فى الوحدة ، ولكن يعوّد نفسه حسن الأدب فى الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع . نعم لو قلل من أكله لإيثاراً لإخوانه ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن ، وإن زاد فى الأكل على نية المساعدة وتحرىك نشاط القوم فى الأكل فلا بأس به بل هو حسن . وكان ابن المبارك يقدم فاخر الرطب إلى إخوانه ويقول : من أكل أكثر أعطيته بكل نواة درهما . وكان يعد النوى ويعطى كل من له فضل نوى بعدده دراهم وذلك لدفع الحياء وزيادة النشاط فى الانبساط ، وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما . أحب إخوانى إلى أكثرهم أكلاً وأعظمهم لقمة وأثقلهم على من يحوجنى إلى تعهده فى الأكل . وكل هذا إشارة إلى الجرى على المعتاد وترك التصنع . وقال جعفر رحمه الله أيضاً : تبين جودة محبة الرجل لأخيه بجودة أكله فى منزله (الخامس) أن غسل اليد فى الطست لا بأس به وله أن يتنخم فيه

الباب الثانى : فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة فى الأكل

(١) حديث « كان إذا خوطب فى شيء ثلاثاً لم يراجع بعد ثلاث » أخرجه أحمد من حديث جابر فى حديث طويل ومن حديث أبى حنيفة أيضاً وإسنادهما حسن . (٢) حديث « كان يكرر الكلمة ثلاثاً » أخرجه البخارى من حديث أنس « كان يمد الكلمة ثلاثاً » .

إن أكل وحده وإن أكل مع غيره فلا ينبغي أن يفعل ذلك . فإذا قدم الطست إليه غيره لإكراما له فليقبله . اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني رضي الله عنهما على طعام فقدم أنس الطست إليه فامتنع ثابت فقال أنس : إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عز وجل . . . وروى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير فصب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية تدري من صب على يدك ؟ فقال لا ، قال : صبه أمير المؤمنين فقال . يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله وأكرمك كما أجلك العلم وأهله . ولا بأس أن يجتمعوا على غسل اليد في الطست في حالة واحدة فهو أقرب إلى التواضع وأبعد عن طول الانتظار . فإن لم يفعلوه فلا ينبغي أن يصب ماء كل واحد بل يجمع الماء في الطست قال صلى الله عليه وسلم « اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » (١) ، قيل إن المراد هذا . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار : لا يرفع الطست من بين يدي قوم إلا بملاوة ولا تشبهوا بالعجم . وقال ابن مسعود : اجتمعوا على غسل اليد في طست واحد ولا تستنوا بسنة الأعاجم . والخادم الذي يصب الماء على اليد كره بعضهم أن يكون قائما وأحب أن يكون جالسا لأنه أقرب إلى التواضع ، وكره بعضهم جلوسه فروى أنه صب الماء على يد واحد خادما جالسا فقام المصوب عليه فقيل له : لم قت ؟ فقال : أحذنا لا بد وأن يكون قائما . وهذا أولى لأنه أيسر للصب وللغسل وأقرب إلى تواضع الذي يصب وإذا كان له نية فيه فتمكينه من الخدمة ليس فيه تكبر فإن العادة جارية بذلك : ففي الطست إذا سبعة آداب : أن لا يزق فيه ، وأن يقدم به المتبوع ، وأن يقبل الإكرام بالتقديم ، وأن يدار يمنا ، وأن يجتمع فيه جماعة ، وأن يجمع الماء فيه وأن يكون الخادم قائما وأن يمج الماء من فيه ويرسله من يده برفق حتى لا يرش على الفراش وعلى أصحابه ، وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يده يضيفه ، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه وقال : لا يروحك ما رأيت مني نخدمة الضيف فرض . (السادس) أن لا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم ويشغل نفسه ولا يسلك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلا قليلا إلى أن يستوفوا فإن كان قليل الأكل توقف في الابتداء وقل الأكل حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيرا ، فقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم ، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعا للخجلة عنهم . (السابع) أن لا يفعل ما يستقذره غيره فلا ينفذ يده في القصعة ولا يقدم إياها رأسه عند وضع اللقمة في فيه ، وإن أخرج شيئا من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسومة فقد يكرهه غيره واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمس بقيتها في المرقة والخل ، ولا يتكلم بما يذكر المستقذرات .

الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير . قال جعفر بن محمد رضي الله عنهما : إذا قدمت مع الإخوان على المائدة فاطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم . وقال الحسن رحمه الله : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فن دونهم يحاسب عليها ألينة لا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإن الله يستحي أن يسأل عن ذلك . هذا مع ما ورد من الأخبار في الإطعام قال صلى الله عليه وسلم « لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة

(١) حديث « اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم » رواه القضاة في مسند المهذب من حديث أبي هريرة بإسناد لا بأس به وجعل ابن طاهر مكان أبي هريرة إبراهيم وقال أنه معضل وفيه نظر .

بين يديه حتى ترفع^(١) ، وروى عن بعض علماء خراسان : أنه كان يقدم إلى إخوانه طعاما كثيرا لا يقدر على أكل جميعه وكان يقول بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لم يحاسب من أكل فضل ذلك^(٢) » ، فأنا أحب أن أستكثر مما أقدمه إليكم لأكل فضل ذلك . وفي الخبر : لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه^(٣) ، وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك ويقتل إذا أكل وحده . وفي الخبر : « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان^(٤) » ، وقال علي رضي الله عنه : لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إلى من أن أعق رقبة . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه : وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق . وقيل اجتماع الإخوان على الكفاية مع الأنس والالفة ليس هو من الدنيا . وفي الخبر : يقول الله تعالى للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمتك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إذا جاءكم الزائر فأكرموه^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام^(٧) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : خيركم من أطعم الطعام^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار بسبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام^(٩) .

وأما آدابه : فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام . أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوما متربصا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة وقد نهى عنه قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعني منتظرين حينه ونفضجه . وفي الخبر من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما^(١٠) ، ولكن حق الداخل إذا لم يتربص وافترق أن صادفهم على طعام أن لا يأكل ما لم يؤذن له ، فإذا قيل له : كل . نظر فإن علم أنهم يقولونه على محبة لمساعدته فليساعد ، وإن

الباب الثالث : في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١) حديث « لا تزال الملائكة تصل على أحدكم مادامت مائدته موضوعة بين يديه حتى يرفع » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف . (٢) حديث « لمن الإخوان إذا رفعوا أيديهم عن الطعام لا يحاسب من أكل من فضل ذلك الطعام » لم أوف له على أصل . (٣) حديث « لا يحاسب العبد بما يأكله مع إخوانه » هو في الحديث الذي بعده بمعناه . (٤) حديث « ثلاثة لا يحاسب عليها العبد : أكلة السحور وما أفطر عليه وما أكل مع الإخوان » أخرجه الأزد في الضعفاء من حديث جابر « ثلاثة لا يسألون عن النعم : الصائم والمتسحر والرجل يأكل مع ضيفه » أورده في ترجمه سليمان بن داود الجزري وقال فيه : منكر الحديث ، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس نحوه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « يقول الله للعبد يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ « استطعمتك فلم تطعمني » . (٦) حديث « إذا جاءكم الزائر فأكرموه » أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس وهو حديث منكر قاله ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه . (٧) حديث « إن في الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها هي لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي من حديث علي وقال غريب لأنعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن إسحاق وقد تكلم فيه من قبل حفظه . (٨) حديث « خيركم من أطعم الطعام » أخرجه أحمد والحاكم من حديث صهيب وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث « من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقال ابن حبان ليس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الذهبي غريب منكر . (١٠) حديث « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما » أخرجه البيهقي من حديث عائشة نحوه وضمفه ولأبي داود من حديث ابن عمر « من دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مفيرا » لمسانده ضعيف .

كانوا يقولونه حياء منه فلا ينبغي أن يأكل ، بل ينبغي أن يتعلل ، أما إذا كان جائعا فقصده بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به . قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جاعا^(١) والدخول على مثل هذه الحالة إعانة لذلك المسلم على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف . كان عون بن عبد الله المسعودي له ثلاثمائة وستون صديقا يدور عليهم في السنة . ولاحر ثلاثون يدور عليهم في الشهر . ولاحرة سبعة يدور عليهم في الجمعة . فكان إخوانهم معلومهم بدلا عن كسبهم وكان قيام أولئك بهم على قصد التبرك عبادة لهم فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقا بصداقته عالما بفرحه إذا أكل من طعامه فله أن يأكل بغير إذن ، إذ المراد من الإذن الرضا لاسيا في الأطعمة وأسرهما على السعة . فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه . ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب . وقد قال تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان الطعام من الصدقة فقال ؛ بلغت الصدقة محلها^(٢) وذلك لعلمه بسرورها بذلك . لذلك يجوز أن يدخل الدار بغير استئذان اكتفاء بعلمه بالإذن ، فإن لم يعلم فلا بد من الاستئذان أو لائمه الدخول . وكان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن . وكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول : هكذا كنا . وروى عن الحسن رضي الله عنه أنه كان قائما يأكل من متاع يقال في السوق يأخذ من هذه الجونة تينة ومن هذه قسبة فقال له هشام مابدا لك يا أبا سعيد في الورع تأكل متاع الرجل بغير إذن ؟ فقال . يالكع اتل على آية الاكل فتلا إلى قوله تعالى ﴿ أو صدقكم ﴾ فقال . فمن الصديق يا أبا سعيد ؟ قال : من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب . ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول : ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا ، وزار قوم بعض التابعين ولم يكن عنده ما يقدمه إليهم فذهب إلى منزل بعض إخوانه فلم يصادفه في المنزل فدخل فنظر إلى قدر قد طبخها وإلى خبز قد خبزها وغير ذلك لحمله كله فقدمه إلى أصحابه وقال . كلوا فجاء رب المنزل فلم ير شيئا ففعل له . قد أخذ فلان ، فقال : قد أحسن ، فلما لقيه قال : يا أخى إن عادوا فعد . فهذه آداب الدخول .

وأما آداب التقديم : فترك التكلف أولا وتقديم ما حضر فإن لم يحضره شيء ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه . وإن حضره ما هو محتاج إليه لقوته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم . دخل بعضهم على زاهد وهو يأكل فقال : لولا أني أخذته بدين لأطعمتك منه ، وقال بعض السلف في تفسير التكلف . أن تطعم أخاك ما لا تأكله أنت بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة . وكان الفضيل يقول : إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه . وقال بعضهم . ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له إنما أقرب ما عندي ولو تكلفت له لكرهيت مجيئه ومللته ؟ وقال بعضهم : كنت أدخل على أخ لي فيتكلف لي فقلت له إنك لا تأكل وحدك هذا ولا أنا فما بالنا إذا اجتمعنا أكلناه ؟ فإما أن تقطع هذا التكلف أو أقطع المجيء ، فقطع

(١) حديث « قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه » أما قصة أبي الهيثم فرواها الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح والقصة عندهم ليس فيها ذكر لأبي الهيثم وإنما قال « رجل من الأنصار » وأما حديث قصدهم منزل أبي أيوب فرواها الطبراني في المعجم الصغير من حديث ابن عباس بسند ضعيف . (٢) حديث « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار بريرة وأكل طعامها وهي غائبة وكان من الصدقة فقال : بلغت الصدقة مكانها » متفق عليه من حديث عائشة « أهدى لبريرة لحم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو لها صدقة ولنا هدية » وأما قوله « بلغت محلها » فقله في الشاة التي أعطيتها نسبة من الصدقة وهو متفق عليه أيضاً من حديث أم عطية .

التكاف ودام اجتماعنا بسببه ، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجفف بعياله ويؤذى قلوبهم . روى أن رجلا دعا عليا رضي الله عنه فقال علي : أجيئك على ثلاث شرائط لا تدخل من السوق شيئا ولا تدخل بيتي ولا تجحف بعيالك . وكان بعضهم يقدم من كل ما في البيت فلا يترك نوعا إلا ويحضر شيئا منه . وقال بعضهم : دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال : لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم ^(١) وقال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر وإن استزرت فلا تبقي ولا تذري . وقال سلمان أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا ^(٢) وفي حديث يونس النبي صلى الله عليه وسلم : أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا وجزلهم بقل كان يزرعهم ثم قال لهم : كلوا لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفتم لكم . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه وغيره من الصحابة : أنهم كانوا يقدمون ما حضر من الكسر اليابسة وحشف التمر ويقولون : لا ندري أيهما أعظم وزرا الذي يحتقر ما يقدم إليه أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟ (الآداب الثاني) وهو الزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيره أخوة بين طعامين فليستخير أيسرهما عليه ؛ كذلك السنة . ففي الخبر أنه ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما ^(٣) وروى الأعمش عن أبي وائل أنه قال : مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبز شعير وملح جريشا ؛ فقال صاحبي : لو كان في هذا الملح سعتر كان أطيب ؛ فخرج - سلمان فرهن مطهرته وأخذ سعترا ، فلما أكلنا قال صاحبي : الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا ؛ فقال سلمان : لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة . هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح ، فعل الشافعي رضي الله عنه ذلك مع الزعفراني إذ كان نازلا عنده ببغداد وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة في بعض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر وقال : ما أمرت بهذا ؟ فعرضت عليه الرقعة ملحنا فيها خط الشافعي فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه . وقال أبو بكر السكفاني : دخلت على السري فجاء بفتيت وأخذ يجعل نصفه في القدح فقلت له : أي شيء تعمل وأنا أشربه كله في مرة واحدة ؟ فضحك وقال : هذا أفضل لك من حجة . وقال بعضهم : الأكل على ثلاثة أنواع ، مع الفقراء بالإيثار ومع الإخوان بالانبساط ومع أبناء الدنيا بالآداب (الآداب الثالث) أن يشهد المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جليل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صادف من أخيه شهوة غفر له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله تعالى ^(٤) » وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر « من لاذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف حسنة ومحى عنه ألف سيئة

(١) حديث « دخلنا على جابر بن عبد الله فقدم إلينا خبزا وخلا وقال لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفتم لكم » رواه أحمد دون قوله « لولا أنا نهينا » وهو من حديث سلمان الفارسي وسيأتي بعده وكلاهما ضعيف وللبخاري عن عمر بن الخطاب « نهينا عن التكلف » . (٢) حديث سلمان « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نتكلف للضيف ما ليس عندنا وأن نقدم إليه ما حضرنا » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، ولأحمد « لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا - أولولاً أنا نهينا - أن يتكلف أحدنا لصاحبه لتكلفنا لك » والطبراني « نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتكلف للضيف ما ليس عندنا » . (٣) حديث « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين شيئين إلا اختار أيسرهما » متفق عليه من حديث عائشة وزاد « ما لم يكن لأئمة » ولم يذكرها مسلم في بعض طرقه . (٤) حديث « من صادف من أخيه شهوة غفر الله له ومن سر أخاه المؤمن فقد سر الله عز وجل » أخرجه الزوار والطبراني من حديث أبي الدرداء « من وافق من أخيه شهوة غفر له » قال ابن الجوزي حديث موضوع وروى ابن حبان والعمري في الضعفاء من حديث أبي بكر الصديق « من سر مؤمنا فإنما سر الله .. الحديث » قال العقيلي باطل لأصل له .

ورفع له ألف ألف درجة وأطعمه الله من ثلاث جنات جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد ^(١) ، (الآداب الرابع) أن لا يقول له : هل أقدم لك طعاما ؟ بل ينبغي أن يقدم إن كان . قال الثوري : إذا زارك أخوك فلا تقل له : أتاأكل ؟ أو أقدم إليك ؟ ولكن قدم فإن أكل وإلا فارفع . وإن كان يريد أن يطعمهم طعاما فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو يصفه لهم . قال الثوري : إذا أردت أن لا تطعم عيالكم مما تأكله فلا تحدثهم به ولا يروونه معك . وقال بعض الصوفية : إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاما وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألة فإذا دخل القراء فدلوهم على المحراب .

الباب الرابع في آداب الضيافة

ومظان الآداب فيها ستة : الدعوة أولا ثم الإجابة ثم الحضور ثم تقديم الطعام ثم الأكل ثم الانصراف ولتقدم على شرحها إن شاء الله تعالى .

فضيلة الضيافة : قال صلى الله عليه وسلم « لا تسكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله أبغضه الله ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا خير فيمن لا يضيف ^(٣) » ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يضيفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له . فقال صلى الله عليه وسلم : انظروا إليهما إنما هذه الأخلاق بيد الله فمن شاء أن يمنحه خلقا حسنا فعل ^(٤) . وقال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزل به صلى الله عليه وسلم ضيف فقال : قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من الدقيق إلى رجب ، فقال اليهودي : والله ما أسلفه إلا برهن فأخبرته فقال : والله إنني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني لأدبته فأذهب بدرعي وارهنه عنده ^(٥) ، وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلا أو ميلين يلتمس من يتغدى معه وكان يكنى أبا الضيفان ، وصدق نيته فيه دامت ضيافته في مشهده إلى يومنا هذا ، فلا تنقض ليلة إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة . وقال قوام الموضع : إنه لن يخل إلى الآن ليلة عن ضيف ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ فقال : إطعام الطعام وبذل السلام ^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام ^(٧) »

(١) حديث جابر « من لفظ أخاه بما يشتمى كتب الله له ألف ألف حسنة ... الحديث » ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر وقال أحمد بن حنبل هذا باطل كسذب .

الباب الرابع : في آداب الضيافة

(٢) حديث « لا تسكفوا للضيف فتبغضوه فإنه من أبغض الله الضيف فقد أبغض الله أبغضه الله » أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان « لا تسكفن أحد أضيفه ، لا يقدر عليه » وفيه محمد بن الفرج الأزرق متكلم فيه . (٣) حديث « لا خير فيمن لا يضيف » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة . (٤) حديث « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل له إبل وبقر كثيرة فلم يصفه ومر بامرأة لها شويها فذبحت له ... الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية أبي المنهال مرسل .

(٥) حديث أبي رافع « أنه نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فقال قل لفلان اليهودي نزل بي ضيف فأسلمني شيئا من الدقيق إلى رجب ... الحديث » رواه إسحق بن راهويه في مسنده والخرائط في مكارم الأخلاق وابن مردويه في التمهيد بإسناد ضيف . (٦) حديث « مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان ؟ قال : إطعام الطعام وبذل السلام » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو باللفظ « أي الإسلام خير ؟ قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . (٧) حديث « قال صلى الله عليه وسلم في الكفارات والدرجات إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي مصححه والحاكم من حديث معاذ وقد تقدم بعضه في الباب الرابع من الأذكار وهو حديث « اللهم لأني أسألك فعل الخيرات » .

وسئل عن الحج المبرور فقال « إطعام الطعام وطيب الكلام »^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة . والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تحصى فلنذكر آدابها .

أما الدعوة : فينبغي للداعي أن يعتمد بدعوته الاتقياء دون الفساق قال صلى الله عليه وسلم « أكل طعامك الأبرار »^(٢) ، في دعائه لبعض من دعا له وقال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى »^(٣) ، ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص . قال صلى الله عليه وسلم « شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء »^(٤) ، وينبغي أن لا يهمل أقرابه في ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين . وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان والتسنى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إطعام الطعام وإدخال السرور على قلوب المؤمنين . وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب . وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته قال سفيان : من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإجابة فعليه خطيئة فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان . لأنه حمله على الأكل مع كراهة ولو علم ذلك لما كان يأكله . وإطعام التقى إعانة على الطاعة وإطعام الفاسق تقوية على الفسق . قال رجل خياط لابن المبارك : أنا أخيط ثياب السلاطين فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الخيط والإبرة أما أنت فمن الظلمة أنفسهم . وأما الإجابة فهي سنة مؤكدة وقد قيل بوجودها في بعض المواضع . قال صلى الله عليه وسلم « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت »^(٥) .

والإجابة خمسة آداب (الأول) أن لا يميز الغنى بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهى عنه ولاجل ذلك امتنع بعضهم عن أصل الإجابة وقال : انتظر المرققة ذل ، وقال آخر : إذا وضعت يدى في قصعة غبرى فقد ذلت له رقبتي ومن المتكبرين من يجيب الأغنياء دون الفقراء وهو خلاف السنة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين^(٦) ، ومر الحسن بن علي رضي الله عنهما بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطريق وقد نشروا كسرا على الأرض في الرمل وهم يأكلون وهو على بغلته فسلم عليهم فقالوا له : هلم إلى الغداء يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم إن الله لا يحب المتكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل ثم سلم عليهم وركب وقال : قد أجبتكم فأجيبوني ، قالوا : نعم ، فوعدهم وقتاً معلوماً فحضروا فقدم إليهم فاخر الطعام وجلس يأكل معهم . وأما قول القائل إن من وضعت يدى في قصعته فقد ذلت له رقبتي ؛ فقد قال بعضهم هذا خلاف السنة وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد منه وكان يرى ذلك يداً له على المدعو .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحضر لعليه أن الداعي له يتقلد منه ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة فهذا يختلف باختلاف الحال فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته^(٧) ، بل الأولى التعلل ، ولذلك قال بعض الصوفية . لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك وأنه

(١) حديث « سئل عن الحج المبرور فقال إطعام الطعام وطيب الكلام » تقدم في الحج . (٢) حديث « أكل طعامك الأبرار » أخرجه أبو داود من حديث أنس بإسناد صحيح . (٣) حديث « لا تأكل إلا طعام تقى ولا يأكل طعامك إلا تقى » تقدم في الزكاة . (٤) حديث « شر الطعام طعام الوليمة ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٥) حديث « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس ذكر المسكين وضعفه الترمذي وصححه الحاكم . (٧) حديث « ليس من السنة إجابة من يطعم مباهاة أو تكلفاً » أخرجه أبو داود من حديث =

سلم إليك ودبعة كانت لك عنده ويرى لك الفضل عليه في قول تلك الودبعة منه . وقال سري السقطي رحمه الله :
 أه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا مخلوق فيها منة . فإذا علم المدعو أنه لأمنة في ذلك فلا ينبغي أن يرد . وقال
 أبو تراب الدخشي رحمه الله عليه : عرض على طعام فامتنعت فابتليت بالجوع أربعة عشر يوما فعلمت أنه عقوبته .
 وقيل لمعروف الكرخي رضي الله عنه كل من دعاك تمر إليه فقال : أنا ضيف أنزل حيث أنزلوني . (الثاني) أنه
 لا ينبغي أن يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه ، بل كل مسافة يمكن احتياها في العادة
 لا ينبغي أن يمتنع لأجل ذلك . يقال في التوراة أو بعض الكتب سر ميلا عد مريضاً سر ميلين شيع جنازة سر ثلاثة
 أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخاً في الله . وإنما قدم لإجابة الدعوة والزيارة لأن فيه قضاء حق الحى فهو
 أولى من الميت وقال صلى الله عليه وسلم لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت ^(١) ، وهو موضع على أميال من المدينة
 أظفر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ^(٢) لما بلغه وقصر عنده في سفره ^(٣) (الثالث) أن لا يمتنع لكونه
 صائماً بل يحضر فإن كان يسر أخاه لإفطاره فليفطر وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه
 ما يمتسب في الصوم وأفضل وذلك في صوم التطوع وإن لم يتحقق سرور قلبه فليصدق به بالظاهر وليفطر وإن تحقق
 أنه متكلف فليتعلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لمن امتنع بعذر الصوم « تكلف لك أخوك » وتقول لى صائم ^(٤) ،
 وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار والإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق
 فتوابه فوق ثواب الصوم . ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب . وقد قيل الكحل والدهن
 أحد القرامين . (الرابع) أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو الموضع أو البساط المفروش من غير
 حلال ، أو كان يقام في الموضع منكر من فرش ديباج أو لناء فضة أو تصوير حيوان على سقف أو حائط أو سماع
 شيء من المزامير والملاهي أو التشاغل بنوع من اللهو والعزف والمزل واللعب واستماع الغيبة والتميمة والزور والبهتان
 والكذب وشبه ذلك مما يمتنع الإجابة واستجابها ويوجب تحريرها أو كراهيتها ، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً أو
 مبتدعاً أو فاسقاً أو شريكاً أو متكلفاً طلباً للباهة والفخر . (الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن
 فيكون عاملاً في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للأخرة وذلك بأن تكون نيته الاقتداء بسنة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « لو دعيت إلى كراع لأجبت » وينوى الحذر من معصية الله تعالى لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من لم يحجب الداعي فقد عصي الله ورسوله ^(٥) » وينوى إكرام أخيه المؤمن اتباعاً لقوله
 صلى الله عليه وسلم « من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله ^(٦) » وينوى إدخال السرور على قلبه امتثالاً لقوله

ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتبارزين « قال أبو داود من رواه عن جرير لم يذكر فيه ابن عباس
 والعقبلي في الضعفاء » نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن طعام المتباهين « والمتبارزان المتمازنان بفعلهما البهاة والرياء ، قاله أبو موسى
 المديني . (١) حديث « لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت » ذكر النعيم فيه ليعرف والمعروف « لو دعيت إلى كراع » كما
 تقدم قبله بثلاثة أحاديث ويرد هذه الزيادة ما رواه الترمذي من حديث أس « لو أهدى إلى كراع فقبلت » .

(٢) حديث « لإفطاره صلى الله عليه وسلم في رمضان لما بلغ كراع النعيم » رواه مسلم من حديث جابر في عام الفتح .

(٣) حديث « قصره صلى الله عليه وسلم في سفره عند كراع النعيم » لم أقف له على أصل للطبراني في الصغير من حديث
 ابن عمر « كان يقصر الصلاة بالعقيق » يريد إذا بانته وعدا يرد الأول لأن بين العقيق وبين المدينة ثلاثة أميال أو أكثر وكراع
 النعيم بين مكة وعسفان واهة أعلم . (٤) حديث « وقال لمن امتنع بعذر الصوم تكلف لك أخوك » وتقول لى صائم « أخرجه

البهيقي من حديث أبي سعيد الخدري « صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً وأنا في هو وأصحابه فلما وضع الطعام قال رجل من
 القوم : لى صائم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم أخوك وتكلموا بكم . الحديث « ولادارتاني نحوه من حديث جابر .
 (٥) حديث « من لم يحجب الداعي فقد عصي الله ورسوله » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من أكرم أخاه

المؤمن فإنما يكرم الله تعالى » ذكره الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث جابر والعقبلي في الضعفاء من حديث أبي بكر ولمسندهما ضعيف

صلى الله عليه وسلم « من سر مؤمنا فقد سر الله » ^(١) وينوى مع ذلك زيارته لىكون من المتحابين فى الله إذ شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التراور والتبادل لله ^(٢) وقد حصل البذل من أحد الجانبين فتحصل الزيارة من جانبه أيضاً ، وينوى صيانة نفسه عن أن يساء به الظن فى امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو مايجرى مجراه . فهذه ست نيات تلحق لإجابته بالقربات آحادها فكيف مجموعها ؟ وكان بعض السلف يقول : أنا أحب أن يكون لى فى كل عمل نية حتى فى الطعام والشراب وفى مثل هذا قال صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(٣) ، والنية إنما تؤثر فى المباحات والطاعات أما المنهيات فلا . فإنه لو نوى أن يسر لإخوانه بمساعدتهم على شرب الخمر أو حرام آخر لم تنفع النية ولم يحز أن يقال الأعمال بالنيات . بل لو قصد بالغزو الذى هو طاعة المباحة وطلب المال انصرف عن جهة الطاعة . وكذلك المباح المردد بين وجوه الخيرات وغيرها يلتحق بوجوه الخيرات بالنية فتؤثر النية فى هذين القسمين لا فى القسم الثالث .

وأما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدّر فىأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد ، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة فإنه قد يكون رتب فى نفسه موضع كل واحد فخالفته تشوش عليه وإن أشار إليه بعض الضيفان بالارتفاع إكراما فليتواضع قال صلى الله عليه وسلم « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » ^(٤) ، ولا ينبغي أن يجلس فى مقابلة باب الحجرة التى للنساء وسترهم . ولا يكثر النظر إلى الموضع الذى يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره . ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس . وإذا دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند الدخول القبلة وبيت المساء وموضع الوضوء ، كذلك فعل مالك بالشافعى رضى الله عنهما . وغسل مالك يده قبل الطعام قبل التوم وقال : الغسل قبل الطعام لرب البيت أولى : لأنه يدعو الناس إلى كرمه لحكمه أن يتقدم بالغسل وفى آخر الطعام يتأخر بالغسل لىتنتظر أن يدخل من يأكل فىأكل معه . وإذا دخل فرأى منكرا غيره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف . والمنكر فرش الديباج واستعمال أواني الفضة والذهب والتصوير على الحيطان وسماع الملاحى والمزامير وحضور النسوة المتكشفات الوجوه وغير ذلك من المحرمات حتى قال أحمد رحمه الله : إذا رأى مكحلة رأسها مفضض ينبغي أن يخرج ، ولم يأذن فى الجلوس إلا فى ضبة وقال : إذا رأى كفة فينبغى أن يخرج فإن ذلك تكلف لا فائدة فيه ولا تدفع حزا ولا ردا ولا تستر شيئا ؛ وكذلك قال : يخرج إذا رأى حيطان البيت مستورة بالديباج كما تستر الكعبة . وقال : إذا اكترى بيتا فيه صورة أو دخل الحمام ورأى صورة فينبغى أن يحكمها فإن لم يقدر خرج . وكل ما ذكره صحيح وإنما النظر فى السكّة وتزيين الحيطان بالديباج فإن ذلك لا ينتهى إلى التحريم إذ الحرير يحرم على الرجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها » ^(٥) ، وما على

(١) حديث « من سر مؤمنا فقد سر الله » تقدم فى الباب قبله . (٢) حديث « وجبت محبة المتراورين فى المباذلين فى » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة ولم يذكر المصنف هذا الحديث وإنما أشار إليه . (٣) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب . (٤) حديث « إن من التواضع لله الرضا بالدون من المجلس » أخرجه الخرائط فى مكارم الاخلاق وأبو نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث طلحة بن عبيد بسند جيد . (٥) حديث « هذان حرامان على ذكور أمتى » أخرجه أبو داود والذاهى وابن ماجه من حديث على وفيه أبو أفلح الهمدانى جهل ابن الفصان والذاهى والترهذى وصححه من حديث أبى موسى بنحوه . قلت الظاهر انقطاعه بين سعيد بن أبى هند وأبى موسى فأدخل أحد بينهما رجلا لم يسم .

الحائط ليس منسوباً إلى الذكور ولو حرّم هذا لحرم تزيين الكعبة بل الأولى لإباحته لموجب قوله ﴿ قل من حرّم زينة الله ﴾ لاسيما في وقت الزينة إذا لم يتخذ عادة للتفاخر . وإن تخيل أن الرجال ينتفعون بالنظر إليه ولا يحرم على الرجال الانتفاع بالنظر إلى الديباج مهما لبسه الجوارى والنساء . والحيطان في معنى النساء إذ لسن موصوفات بالذكورة .

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة (الأول) تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »^(١) ، ومهما حضر الآكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضر في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير ؛ إلا أن يكون المتأخر فقيرا أو ينكسر قلبه بذلك فلا بأس في التأخير وأحد المعنيتين في قوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أنهم أكرموا بتعجيل الطعام لإيهم دل عليه قوله تعالى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ وقوله ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ﴾ والروغان : الذهاب بسرعة وقيل في خفية وقيل جاء بفخذ من لحم وإنما سمى بعجلا لأنه عجله ولم يلبث . قال حاتم الأصم : العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإطعام الضيف وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب^(٢) ويستحب التعجيل في الولية قبل الولية في أول يوم سنة وفي الثاني معروف وفي الثالث رياء . (الثاني) ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولا . إن كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة . وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ثم قال ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد فقد قال عليه السلام « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات . ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم إذ أحضر العجل الحنيذ - أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه - وهو أحد معنى الإكرام أعنى تقديم اللحم . وقال تعالى في وصف الطيبات ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ المن : العسل ، والسلوى : اللحم ؛ سمي سلوى لأنه يتسلى به عن جميع الإدام ولا يقوم غيره مقامه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « سيد الإدام اللحم » ثم قال بعد ذكر المن والسلوى ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ فاللحم والحلاوة من الطيبات . قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله . وتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . قال المأمون : شرب الماء بثلج يخلص السكر . وقال بعض الأدباء : إذا دعوت لإخوانك فأطعمتهم حصرية وبورانية وسقيتهم ماء باردا فقد أكلت الضيافة . وأنفق بعضهم دراهم في ضيافة فقال بعض الحكماء : لم نكن نحتاج إلى هذا إذا كان خبزك جيدا وماؤك باردا وخلقك حامضا فهو كفاية . وقال بعضهم : الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان ، والتكثف على المائدة خير من زيادة لونين .

(١) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » متفق عليه من حديث أبي سريج .

(٢) حديث حاتم الأصم « العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لإطعام الطعام وتجهيز الميت وتزويج البكر وقضاء الدين والتوبة من الذنب » أخرجه الترمذي من حديث سهل بن سعد الأمانة من الله والعجلة من الشيطان « وسنده ضعيف وأما الاستثناء فروى أبو داود من حديث سعد بن أبي وقاص « للتؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة » قال الأعمش لأعلم إلا أنه رفعه وروى المزني في التهذيب في ترجمة محمد بن موسى بن نفع عن مشيخة من قومه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الأمانة في كل شيء إلا في ثلاث إذا صبح في خيل الله وإذا نودي بالصلاة وإذا كانت الجنابة ... الحديث » مرسل والترمذي من حديث علي « ثلاثة لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت والجنابة إذا حضرت والأيم إذا وجدت كفؤا » وسنده حسن .

ويقال إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل فذلك أيضا مستحب ولما فيه من التزين بالحضرة .
وفي الخبر : إن المائدة التي أنزلت على نبي إسرائيل كان عليها من كل البقول إلا الكراث . وكان عليها سمكة عند رأسها
خل وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل رغيف زيتون وحب رمان ، فهذا إذا اجتمع حسن للمرافقة (الثالث)
أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها من يريد ولا يكثر الأكل بعده وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف
حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده . وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل . وكان من سنة المتقدمين أن
يقوموا جملة الألوان دفعة واحدة ويصففون القصاع من الطعام على المائدة ليأكل كل واحد مما يشتهي . وإن لم يكن
عنده إلا لون واحد ذكره ليستوفوا منه ولا ينتظروا أطيب منه . ويحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان
يكتب نسخة بما يستحضر من الألوان ويعرض على الضيفان . وقال بعض الشيوخ : قدم إلى بعض المشايخ
لونا بالشام فقلت عندنا بالعراق إنما يقدم هذا آخرا ، فقال : وكذا عندنا بالشام ، ولم يكن
له لون غيره ففجئت منه . وقال آخر : كنا جماعة في ضيافة فقدم إلينا ألوان من الروس المشوية طيخا
وقديدا فكننا لا نأكل كل ننتظر بعدها لونا أو حملا ، فجاءنا بالطست ولم يقدم غيرها ، فنظر بعضنا إلى بعض
فقال بعض الشيوخ وكان مزاحا : إن الله تعالى يقدر أن يخلق رموسا بلا أبدان ، قال : وبتنا تلك الليلة
جوعا نطلب فتيتا إلى السحور . فلهذا يستحب أن يقدم الجميع أو يخبر بما عنده (الرابع) أن لا يبادر إلى رفع
الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فاعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده
مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتغضض عليه بالمبادرة ، وهي من التمكن على المائدة التي يقال إنها
خير من لونين فيحتمل أن يكون المراد به قطع الاستعجال ويحتمل أن يكون أراد به سعة المكان . حكى عن السجوري
وكان صوفيا مزاحا فحضر عند واحد من أبناء الدنيا على مائدة فقدم إليهم حل - وكان في صاحب المائدة بخل -
فلما رأى القوم مزقوا الحل كل ممزق ضاق صدره وقال : يا غلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحل إلى داخل الدار
فقام السجوري يعدو خلف الحل فقليل له : إلى أين ؟ فقال : آكل مع الصبيان فاستحيا الرجل وأمر برد الحل . ومن
هذا الفن أن لا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل ينبغي أن يكون آخرهم أكل . كان بعض
الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون فإذا قاربوا الفراغ جثا على ركبتيه ومد يده إلى الطعام وأكل
وقال . بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم ، وكان السلف يستحسنون ذلك منه (الخامس) أن يقدم من
الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع ومراعاة لاسيا إذا كانت نفسه
لا تسمح بأن يأكلوا الكل ، إلا أن يقدم الكثير وهو طيب النفس لو أخذوا الجميع ونوى أن يتبرك بفضلة طعامهم ،
إذ في الحديث لا يحاسب عليه . أحضر إبراهيم بن أدهم رحمه الله طعاما كثيرا على مائدته فقال له سفيان : يا أبا إسحق
أما تخاف أن يكون هذا سرفا ؟ فقال إبراهيم : ليس في الطعام سرف . فإن لم تكن هذه النية فالتكثير تكلف . قال
ابن مسعود رضي الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهى بطعامه وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباحة . ومن
ذلك كان لا يرفع من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة طعام قط لأنهم كانوا لا يقدمون إلا قدر الحاجة
ولا يأكلون تمام الشبع . وينبغي أن يعزل أولا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه
فاعله لا يرجع فتضيق صدورهم وتنطلق في الضيفان ألسنتهم ويكون قد أطمع الضيفان ما يتبعه كراهية قوم
وذلك خيانة في حقهم . وما بقي من الأطعمة فليس للضيفان أخذه وهو الذي تسميه الصوفية الزلة إلا إذا صرح

صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راض أو علم ذلك بقرينة حاله وأنه يفرح به ، فإن كان يظن كراهيته فلا ينبغي أن يؤخذ وإذا علم رضاه فينبغي مراعاة العدل والنصفة مع الرفقاء ؛ فلا ينبغي أن يأخذ الواحد إلا ما يخصه أو ما يرضى به رفيقه عن طوع لا عن حياء .

فأما الانصراف : فله ثلاثة آداب (الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف وقد أمر بإكرامه قال عليه الصلاة والسلام « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » وقال عليه السلام « إن من سنة الضيف أن يشيع إلى باب الدار » قال أبو قتادة ، قدم وفد النجاشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله فقال : كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم ، وتما الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة . قيل للأوزاعي رضي الله عنه ماكرامة الضيف ؟ قال طلاقة الوجه وطيب الحديث . وقال يزيد بن أبي زياد ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثا حسنا وأطعمنا طعاما حسنا (الثاني) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير ، فذلك من حسن الخلق والتواضع قال صلى الله عليه وسلم ، إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ودعى بعض السلف برسول فلم يصادفه الرسول فلما سمع حضر وكانوا قد تفرقوا وفرغوا وخرجوا فخرج إليه صاحب المنزل وقال : قد خرج القوم ، فقال : هل بقي بقية ؟ قال : لا ، قال فكسرة إن بقيت ؟ قال : لم تبق ، قال : فالتقدر أمسحها ؟ قال : قد غسلتها ؟ فأنصرف يحمد الله تعالى فقيل له في ذلك فقال : قد أحسن الرجل دعانا بنية وردنا بنية ، فهذا هو معنى التواضع وحسن الخلق . وحكى أن أستاذ أبي القاسم الجنيدي دعاه صبي إلى دعوة أيه أربع مرات فردده الأب في المرات الأربع وهو يرجع في كل مرة تطيبيا لقلب الصبي بالحضور ولقلب الأب بالانصراف ، فهذه نفوس قد ذلت بالتواضع لله تعالى والطمأنينة بالتوحيد وصارت تشاهد في كل رد وقبول عبرة فيما بينها وبين ربه ، فلا تتكسر بما يجرى من العباد من الإذلال كالا تستبشر بما يجرى منهم من الإكرام بل يرون الكل من الواحد القهار . ولذلك قال بعضهم : أنا لأجيب الدعوة إلا لاني أتذكر بها طعام الجنة أي هو طعام طيب يحمل عنا كده ومؤنته وحسابه . (الثالث) أن لا يخرج إلا برضا صاحب المنزل وإذنه ويراعى قلبه في قدر الإقامة ، وإذا نزل ضيفا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه قال صلى الله عليه وسلم « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة ^(١) » ، نعم لو ألح رب البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش للضيف النازل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان ^(٢) » ،

فصل يجمع آدابا ومناهى طيبة وشرعية متفرقة

(الأول) حكى عن إبراهيم النخعي أنه قال ، الأكل في السوق دناءة ^(٣) وأسندته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسناده قريب . وقد نقل ضده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : كنا تأكل عهد رسول الله صلى الله

(١) حديث « الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فصدقة » متفق عليه من حديث أبي شريح الخزاعي . (٢) حديث « فراش للرجل وفراش للمرأة وفراش للضيف والرابع للشيطان » أخرجه مسلم من حديث جابر (٣) « الأكل في السوق دناءة » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة وهو ضعيف ورواه ابن عدى في السكامل من حديثه وحديث أبي هريرة

عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام^(١) . ورؤى بعض المشايخ من المتصوفة المعروفين يأكل في السوق فقيل له في ذلك فقال : ويحك أجوع في السوق وآكل في البيت ؛ فقيل تدخل المسجد ؟ قال : أستحي أن أدخل بيته للأكل فيه . ووجه الجمع أن الأكل في السوق تواضع وترك تكلف من بعض الناس فهو حسن وخرق مروءة من بعضهم فهو مكروه ، وهو مختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص فمن لا يليق ذلك بسائر أعماله حل ذلك على قلة المروءة وفطر الشره ويقدر ذلك في الشهادة ومن يليق ذلك بجميع أحواله وأعماله في ترك التكلف كان ذلك منه تواضعا (الثاني) قال علي رضي الله عنه : من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعا من البلاء ، ومن أكل في يوم سبع تمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه ، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبينة حرام لم ير في جسده شيئا يكرهه واللحم ينبت اللحم والثريد طعام العرب والبسقارجات تعظم البطن وترخي الآليتين ، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمها دواء والشحم يخرج مثله من الداء ، وإن تستشفى النفساء بشيء أفضل من الرطب ، والسملك يذيب الجسد ، وقراءة القرآن والسواك يذهبان البلغم ، ومن أراد البقاء ولا بقاء فليباكر بالغداء وليكرر العشاء وليلبس الخداء ، ولن يتداوى الناس بشيء مثل السمن وليقل غشيان النساء وليخف الرداء وهو الدين (الثالث) قال الحجاج لبعض الأطباء : صف لي صنعة آخذ بها ولا أعدوها قال . لا تنكح من النساء إلا فتاة ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه ولا تشرب دواء إلا من علة ولا تأكل من الفسكهة إلا لنضيجها ، ولا تأكل طعاما إلا أجدت مضغه ، وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه فإذا شربت فلا تأكل عليه شيئا ، ولا تحبس الغائط والبول ، وإذا أكلت بالنهار فم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تمام ولومائة خطوة . وفي معناه قول العرب : تغد تمد تعش تمش يعني تمدد كما قال الله تعالى - ثم ذهب إلى أهله يتمطى - أي يتمطط . ويقال إن حبس البول يفسد الجسد كما يفسد النهر ما حوله إذا سد مجراه (الرابع) في الخبر « قطع العروق مسقمة وترك العشاء مهرة »^(٢) ، والعرب تقول ترك الغداء يذهب بشحم السكاذة - يعني الآلية - وقال بعض الحكماء لابنه : يا بني لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حليك أي تتعذى ، إذ به يبقى الحلم ويزول الطيش وهو أيضا أقل لشهوته لما يرى في السوق . وقال حكيم لسمين : أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فم هي ؟ قال من أكل لباب البروصغار المعز وأدهن بحام بنفسج وألبس الكتان . (الخامس) الحمية تضر بالصحيح كما يضر تركها بالمريض ، هكذا قيل . وقال بعضهم : من احتسب فهو على يقين من المكروه وعلى شك من العوائف ، وهذا حسن في حال الصحة ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال . أتأكل التمر وأنت رمد ؟ فقال : يا رسول الله إنما آكل بالشق الآخر^(٣) ، يعني جانب السليمة فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . (السادس) أنه يستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت ، ولما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال عليه السلام ، إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما ياكلون^(٤) ، فذلك سنة . وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه ما يباح للنوائح والمعينات عليه بالبكاء والجزع

(١) حديث ابن عمر « كنا نأكل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام » أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه وابن حبان . (٢) حديث « قطع العروق مسقمة وترك الغداء مهرة » أخرجه ابن عدى في السكامل من حديث عبد الله بن جراد بالشطر الأول والترمذي من حديث أنس بالشطر الثاني وكلاهما ضعيف وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث جابر . (٣) حديث « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صهيبا يأكل تمرًا وإحدى عينيه رمداء فقال له أتأكل التمر وأنت رمد فقال إنما أمضغ بالشق الآخر فضحك صلى الله عليه وسلم » أخرجه ابن ماجه من حديث صهيب بإسناد جيد . (٤) حديث « لما جاء نعي جعفر بن أبي طالب قال صلى الله عليه وسلم إن آل جعفر شغلوا بميتهم عن طعامهم فاحملوا إليهم ما ياكلون » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن جعفر نحوه بسند حسن ولا بن ماجه نحوه من حديث أسماء بنت ميس .

فلا ينبغي أن يؤكل معهم (السابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقل الأكل ولا يقصد الطعام الاطيب رد بعض المزيكين شهادة من حضر طعام سلطان فقال : كنت مكرها ، فقال : رأيتك تقصد الاطيب وتكبر اللقمة وما كنت مكرها عليه ؟ وأجبر السلطان هذا المزيكى على الأكل فقال : إما أن آكل وأخلى التزكية أو أركى ولا آكل فلم يجدوا بدا من تزكيته فتركوه . وحكى أن ذا النون المصرى حبس ولم يأكل أياما فى السجن فكانت له أخت فى الله فبعثت إليه طعاما من مغزها على يد السجن فامتنع فلم يأكل ، فعاتبته المرأة بعد ذلك فقال : كان حلالا ولكن جاءنى على طبق ظالم وأشار به إلى يد السجن وهذا غاية الورع . (الثامن) حكى عن فتح الموصلى رحمه الله أنه دخل على بشر الحافى زائرا فأخرج بشر درهما فدفعه لأحمد الجلاء خادمه وقال : اشتر به طعاما جيدا وأدما طيبا ، قال : فاشتريت خبزا لطيفا وقلت : لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ^(١) سوى اللبن فاشتريت اللبن واشتريت تمرا جيدا فقدمت إليه فأكل وأخذ الباقي . فقال بشر : أتدرون لم قلت اشتر طعاما طيبا ؟ لأن الطعام الطيب يستخرج خالص الشكر ، أتدرون لم لم يقل لى كل ؟ لأنه ليس للضيف أن يقول لصاحب الدار كل ، أتدرون لم حمل مابق ؟ لأنه إذا صح التوكل لم يضر الحمل . وحكى أبو على الروذبارى رحمه الله تعالى أنه اتخذ ضيافة فأوقد فيها ألف سراج فقال له رجل : قد أسرفت ، فقال له : ادخل فكل ما أوقدته لغير الله فأطفئه فدخل الرجل فلم يقدر على إطفاء واحد منها فانقطع . واشترى أبو على الروذبارى أحمالا من السكر وأمر الحلاويين حتى بنوا جدارا من السكر عليه شرف ومحاريب على أعمدة منقوشة كلها من سكر ثم دعا الصوفية حتى هدموها وانتهبوها . (التاسع) قال الشافعى رضى الله عنه « الأكل على أربعة أنحاء : الأكل بأصبع من المقت ، وبأصبعين من الكبر ، وبثلاث أصابع من السنة ^(٢) وبأربع وخمس من الشره وأربعة أشياء تقوى البدن : أكل اللحم وشم الطيب وكثرة الغسل من غير جماع ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع وكثرة اللحم وكثرة شرب الماء على الريق وكثرة أكل الحموضة . وأربعة تقوى البصر : الجلوس تجاه القبلة والكحل عند النوم والنظر إلى الخضرة وتنظيف الملابس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القدر والنظر إلى المصلوب والنظر إلى فرج المرأة والقعود فى استدبار القبلة . وأربعة تزيد فى الجماع : أكل العصافير وأكل الإطريفل الأكبر وأكل الفستق وأكل الجرجير . والنوم على أربعة أنحاء . فنوم على القفا وهو نوم الأنبياء عليهم السلام يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ونوم على اليمن وهو نوم العلماء والعباد ، ونوم على الشمال وهو نوم الملوك ليهضمهم طعامهم ، ونوم على الوجه وهو نوم الشياطين . وأربعة تزيد فى العقل : ترك الفضول من الكلام والسواك وبجاسة الصالحين والعلماء . وأربعة من من العبادة : لا يخطو خطوة إلا على وضوء وكثرة السجود ولزوم المساجد وكثرة قراءة القرآن ، وقال أيضا : عجبت لمن يدخل الحمام على الريق ثم يؤخر الأكل بعد أن يخرج كيف لا يموت ؟ وعجبت لمن احتجم ثم يبادر الأكل كيف لا يموت ؟ وقال : لم أر شيئا أنفع فى الوباء من البنفسج يدهن به ويشرب . والله أعلم بالصواب .

(١) حديث « اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه » قاله عند شرب اللبن تقدم فى آخر الباب الأول من آداب الأكل .

(٢) حديث « الأكل بثلاث أصابع من السنة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك « كان النبى صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع » وروى ابن الجوزى فى العلل من حديث ابن عباس موقوفا « كل بثلاث أصابع فإنه من السنة » .

كتاب آداب النكاح

وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تصادف سهام الأوهام في عجائب صنعه مجرى ولا ترجع العقول عن أوائل بدائعها إلا والهة حيرى ولا تزال لطائف نعمه على العالمين تترى فهي تتوالى عليهم اختيارا وقهرا . ومن بدائع الطافه أن خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وسلط على الخلق شهوة اضطرهم بها الحرائة جبها واستبق بهم نسلهم إقهارا وقسرا . ثم عظم أمر الانساب وجعل لها قدرا فحرم بسببها السفاح وبالغ في تقييده ردعا وزجرا وجعل اقتحامه جريمة فاحشة وأمر إمرأ ونذب إلى النكاح وحث عليه استجابا وأمر فسبحان من كتب الموت على عباده فأذلهم به هدماء وكسرا ثم بث بذور النطف في أراضى الأرحام وأنشأ منها خلقا وجعله لكسر الموت جبها تفتيحها على أن بحار المقادير فياضة على العالمين نفعاً وضراً وخيراً وشرّاً وعسراً ويسراً وطيباً ونشراً والصلاة والسلام على محمد المبعوث بالإنذار والبشرى وعلى آله وأصحابه صلاة لا يستطيع لها الحساب عدا ولا حصراً وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن النكاح معين على الدين ومهين للشياطين وحصن دون عدو الله حصين وسبب للتكثير الذى به مباهاة سيد المرسلين لسائر النبيين فما أحراه بأن تتحرى أسبابه وتحفظ سننه وآدابه وتشرح مقاصده وآرابه وتفصل فصوله وأبوابه . والقدر المهم من أحكامه ينكشف في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في الترغيب فيه وعنه . (الباب الثاني) في الآداب المرعية في العقد والعاقدين . (الباب الثالث) في آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق .

الباب الأول : في الترغيب في النكاح والترغيب عنه

اعلم أن العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل من التخلي لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله ، مهما لم تنق النفس إلى النكاح توقفاً يشوش الحال ويدعو إلى الوقاع . وقال آخرون : الأفضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل إذ لم تكن الأكساب محظورة وأخلاق النساء مذمومة . ولا ينكشف الحق فيه إلا بأن نقدم أولاً ما ورد من الأخبار والآثار في الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حق كل من سلم من غوائله أو لم يسلم منها .

الترغيب في النكاح

أما من الآيات : فقد قال الله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ وهذا أمر وقال تعالى ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ وهذا منع من العضل ونهى عنه . وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ فذكر ذلك في معرض الامتتان وإظهار الفضل . ومدح أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ الآية ويقال إن الله تعالى لم يذكر

في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا إن يحيى صلى الله عليه وسلم قد تزوج ولم يجامع قيل إنما فعل ذلك لنيل الفضل وإقامة السنة ، وقيل لغرض البصر ، وأما عيسى عليه السلام فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

وأما الأخبار فقوله صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن رغب عن سنّي فقد رغب عني » ، وقال صلى الله عليه وسلم « النكاح سنّي فمن أحب فطرني فليستن بسنّي ^(١) » ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم (تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط ^(٢)) وقال أيضاً عليه السلام (من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي ^(٣)) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا ^(٤)) وهذا ذم لعلة الامتناع لا لأصل الترك وقال صلى الله عليه وسلم (من كان ذا طول فليتزوّج ^(٥)) وقال (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء ^(٦)) وهذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج . والرجاء هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته ؛ فهو مستعار للضعف عن الوقاع في الصوم . وقال صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير ^(٧)) وهذا أيضاً لتبليغ الترغيب لخوف الفساد . وقال صلى الله عليه وسلم (من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله ^(٨)) وقال صلى الله عليه وسلم (من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني ^(٩)) وهذا أيضاً إشارة إلى أن فضيلته لأجل التحرز من المخالفة تحصناً من الفساد فكان المفسد لدين المرء في الأغلب فرجه وبطنه وقد كفي بالتزويج أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم (كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاث ولد صالح يدعو له ... ^(١٠)) الحديث . ولا يوصل إلى هذا إلا بالنكاح .

كتاب آداب النكاح

الباب الأول في الترغيب في النكاح

- (١) حديث « النكاح سنّي فمن أحب فطرني فليستن بسنّي » أخرجه أبو يعلى في مسنده مع تقدم وتأخير من حديث ابن عباس بسند حسن . (٢) حديث « تناكحوا تكثرُوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » أخرجه أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث ابن عمر قوله « حتى بالسقط » وإسناده ضعيف وذكره بهذه الزيادة البيهقي في المرفوعة عن الشافعي أنه بانه (٣) حديث « من رغب عن سنّي فليس مني وإن من سنّي النكاح فمن أحبني فليستن بسنّي » متفق على أوله من حديث أنس « من رغب عن سنّي فليس مني » وباقيه تقدم قبله بحديث . (٤) حديث « من ترك التزويج خوف العيلة فليس منا » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف وللدائري في مسنده والبيهقي في معجمه وأبو داود في المراسيل من حديث أبي نجيع « من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس منا » وأبو نجيع اختلف في صحبته . (٥) حديث « من كان ذا طول فليتزوّج » أخرجه ابن ماجه من حديث عائشة بسند ضعيف . (٦) حديث « من استطاع منكم الباءة فليتزوّج الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٧) حديث « إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ونقل عن البخاري أنه لم يعمده محفوفاً وقال أبو داود إنه خطأ ورواه الترمذي أيضاً من حديث أبي حاتم المزني وحسنه ورواه أبو داود في المراسيل وأعله ابن القطان بإرساله وضمه رواه . (٨) حديث « من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله عزوجل » أخرجه أحمد بسند ضعيف من حديث معاذ بن أنس « من أعطى لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » . (٩) حديث « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الآخر » أخرجه ابن الجوزي في الملل من حديث أنس بسند ضعيف وهو عند الطبراني في الأوسط بلفظ « فقد استكمل نصف الإيمان » وفي المستدرک وصححه إسناده بلفظ « من رزقه الله امرأة سالحة فقد أعانه على شطر دينه ... الحديث » . (١٠) حديث « كل عمل ابن آدم ينقطع إلا ثلاثة » فذكر فيه « وولد صالح يدعو له » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بنحوه .

وأما الآثار : فقال عمر رضى الله عنه لا يمنع من النكاح إلا عجز أو لجور . فبين أن الدين غير مانع منه وحصر المانع في أمرين مذمومين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج . يحتمل أن جعله من النسك وتنتمى له . ولكن الظاهر أنه أراد به أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج ولا يتم النسك إلا بفراغ القلب ، ولذلك كان يجمع غلبانه لما أدركوا عكرمة وكريبا وغيرهما ويقول : إن أردتم النكاح أنكحتم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكيلا ألقى الله عزبا ومات امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله عنه في الطاعون وكان هو أيضا مطعوناً فقال : زوجوني فإنى أكره أن ألقى الله عزبا . وهذا منهما يدل على أنهما رأيا في النكاح فضلا لامن حيث التحرز عن غائلة الشهوة . وكان عمر رضى الله عنه يكثر النكاح ويقول : ما أتزوج إلا لأجل الولد . وكان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقتة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تتزوج ؟ فقال يا رسول الله إني فقير لاشيء لى وأنقطع عن خدمتك فسكت . ثم عاد ثانيا فأعاد الجواب . ثم تفكر الصحابي وقال : والله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يصلحني في دنياي وآخري وما يقربني إلى الله منى ولئن قال لى الثالثة لأفعلن . فقال له الثالثة : ألا تتزوج ؟ قال : فقلت يا رسول الله زوجنى ، قال . اذهب لى بنى فلان فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تزوجوني ففانكم قال : فقلت يا رسول الله لاشيء لى ، فقال لأصحابه : اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب لجمعوا له فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه فقال له : أولم وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة ^(١) ، وهذا التكرير يدل على فضل في نفس النكاح ويحتمل أنه توسم فيه الحاجة إلى النكاح . وحكى أن بعض العباد في الأمم السالفة فاق أهل زمانه في العبادة فذكر لنبي زمانه حسن عبادته فقال : نعم الرجل هو لولا أنه تارك لاشيء من السنة فاغتم العابد لما سمع ذلك فسأل النبي عن ذلك فقال : أنت تارك للتزويج ، فقال : لست أحترمه ولكنى فقير وأنا عيال على الناس ، قال : أنا أزوجك ابنتى فوجه النبي عليه السلام ابنته . وقال بشر بن الحرث : فضل على أحمد بن حنبل ثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلبه لنفسى فقط ولا تساعه في النكاح وضيق عنه ولأنه نصب إماما للعامة . ويقال إن أحمد رحمه الله تزوج في اليوم الثانى لوفاة أم ولده عبد الله وقال : أكره أن أبيت عزبا . وأما بشر فإنه لما قيل له . إن الناس يتكلمون فيك تركك النكاح ويقولون هو تارك للسنة ، فقال : قولوا لهم هو مشغول بالفرض عن السنة . وعوتب مرة أخرى فقال : ما يمنعنى من التزويج إلا قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ فذكر ذلك لأحمد فقال : وأين مثل بشر ؟ إنه قعد على مثل حد السنن . ومع ذلك فقد روى أنه روى في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رفعت منازل فى الجنة وأشرف بى على مقامات الأنبياء ولم أبلغ منازل المتأهلين . وفى رواية قال لى : ما كنت أحب أن تلقانى عزبا قال : فقلنا له ، ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رفع فوق بسبعين درجة ، قلنا : بماذا فقد كنا نراك فوقه ؟ قال : بصره على بذياته والعيال . وقال سفيان بن عيينة : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية . فالنكاح سنة ماضيه وخلق من أخلاق الأنبياء . وقال رجل لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالمزوجة ! فقال : لروعة منك بسبب العيال : أفضل من جميع ما أنا فيه ، قال : فما الذى

(١) حديث « كان بعض الصحابة قد انقطع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت عنده لحاجة إن طرقتة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تتزوج ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث ربيعة الأسلمى في حديث طويل - وهو صاحب القصة - بإسناد حسن .

يمنعك من النكاح ، فقال : مالى حاجة فى امرأة وما أريد أن أغر امرأة بنفسى . وقد قيل : فضل المتأهل على العزب كفضل المجاهد على القاعد . وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب .

وأما ما جاء فى الترهيب عن النكاح : فقد قال صلى الله عليه وسلم « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق ، فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك ^(٢) » ، وفى الخبر « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين ^(٣) » ، وسئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقال أيضا : الوحيد يجد من حلاوة العمل وفراغ القلب ما لا يجد المتأهل . وقال مرة : ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته الأولى . وقال أيضا : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث . وقال الحسن رحمه الله : إذا أراد الله بعبد خيرا لم يشغله بأهل ولا مال ، وقال ابن أبي الحواري : تناظر جماعة فى هذا الحديث فاستقر رأيهم على أنه ليس معناه أن لا يكون له بل أن يكون له ولا يشغلانه وهو إشارة إلى قول أبي سليمان الداراني : ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشوم وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقا إلا مقرونا بشرط . وأما الترغيب فى النكاح فقد ورد مطلقا ومقرونا بشرط فلنكشف الغطاء عنه بحصر آفات النكاح وفوائده .

آفات النكاح وفوائده ، وفيه فوائد خمسة : الولد وكسر الشهوة ، وتديب المنزل . وكثرة العشيرة ، ومجاهدة النفس بالقيام بهن .

الفائدة الأولى : الولد ؛ وهو الأصل وله وضع النكاح . والمقصود بإبقاء النسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس . وإنما الشهوة خلقت باعثة مستحثة كالموكل بالفحل فى إخراج البذر وبالأنتى فى التكوين من الحرث تلتفقا بهما فى السيفاء إلى اقتناص الولد بسبب الوقاع ، كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق إلى الشبكة وكانت القدرة الأزلية غير قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ، ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الأسباب مع الاستغناء عنها إظهارا للقدرة وإثاما لعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم . وفى التوصل إلى الولد قرينة من أربعة أوجه هى الأصل فى الترغيب فيه عند الأمن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلتقى الله عزبا . (الأول) موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان (والثانى) طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من مباهاته . (والثالث) طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده (والرابع) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

أما الوجه الأول : فهو أدق الوجوه وأبعدها عن أفهام الجاهيل وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجارى حكمه . وبيانه أن السيد إذا سلم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيا له أرضا مهيأة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فإن تكاسل وعطل آلة الحرث وترك البذر ضائعا

(١) حديث « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لأهل له ولا ولد » أخرجه أبو يعلى من حديث حذيفة ورواه الخطابى فى الغزلة من حديثه وحديث أبي أمامة وكلاهما ضعيف . (٢) حديث يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعبرونه بالفقر ويكفونه مالا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك « أخرجه الخطابى فى الغزلة من حديث ابن مسعود نحوه والبيهقى فى الزهد نحوه فى حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف .

(٣) حديث « قلة العيال أحد اليسارين وكثرتهم أحد الفقيرين » أخرجه الفضاضى فى مسند المصنف من حديث على وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عبد الله بن عمر وابن هلال المزنى كلاهما بالشطر الأول بسندين ضعيفين .

حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للمقت والعتاب من سيده . والله تعالى خلق الزوجين وخلق الذكر والأنثيين وخلق النطفة في الفقار وهياً لها في الأنثيين عروقا ومجاري وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والأنثى ، فهذه الأفعال والآلات تشهد بلسان ذلق في الإعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الأبواب بتعريف ما أعدت له . هذا إن لم يصرح به الخالق تعالى على لسان رـوله صلى الله عليه وسلم بالمراد حيث قال « تناكحوا تناسلوا » فكيف وقد صرح بالأمر وباح بالسر ؟ فكل عمتع عن النكاح معرض عن الحرث مضيع للبذر معطل لما خلق الله من الآلات المعدة وجان على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في إدراك دقائق الحكمة الأزلية ، ولذلك عظم الشرع الأمر في القتل للأولاد وفي الوأد لأنه منع لتمام الوجود ، وإليه أشار من قال : العزل أحد الوأدين فالناكح ساع في إتمام ما أحب الله تعالى تمامه والمعرض معطل ومضيع لما كره الله ضياعه ، ولأجل محبة الله تعالى لبقاء النفوس أمر بالإطعام وحث عليه وعبر عنه بعبادة القرض فقال ﴿ من ذا الذي يقرض له قرضا حسنا ﴾ * فإن قلت : إن بقاء النسل والنفس محبوب يوم أن فناء ما كرهه عند الله ، وهو فرق بين الموت والحياة بالإضافة إلى إرادة الله تعالى ، ومعلوم أن الكل بمشيئة الله وأن الله غنى عن العالمين فمن أين يتميز عنده موتهم عن حياتهم أو بقاءهم عن فناءهم ؟ فاعلم أن هذه الكلمة حق أريد بها باطل فإن ما ذكرناه لا ينافي إضافة الكائنات كلها إلى إرادة الله خيرها وشرها ونفعها وضرها ، ولكن المحبة والكراهية يتضادان وكلاهما لا يضادان الإرادة ، فرب مراد مكروه ، ورب مراد محبوب ، فالمعاصي مكروهة وهي مع الكراهية مرادة ، والطاعات مرادة ومن مع كونها مرادة محبوبة ومرضية أما الكفر والشر فلا نقول إنه مرضى ومحبوب بل هو مراد . وقد قال الله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ فكيف يكون الفناء بالإضافة إلى محبة الله وكراهته كالبقاء ، فإنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم هو يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له من الموت ^(١) » فقله « لا بد له من الموت » إشارة إلى سبق الإرادة . والتقدير المذكور في قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ ولا منافضة بين قوله تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ وبين قوله « وأنا أكره مساءته » ، ولكن إيضاح الحق في هذا يستدعى تحقيق معنى الإرادة والمحبة والكراهية وبيان حقائقها ، فإن السابق إلى الأفهام منها أمور تناسب إرادة الخلق ومحبتهم وكراهتهم ، وهي صفات الله تعالى وصفات الخلق من البعد ما بين ذاته العزيز وذاتهم وكما أن ذوات الخلق جوهر وعرض وذات الله مقدس عنه ، ولا يناسب ما ليس بجوهر وعرض الجوهر والعرض ، فكذا صفاته لا تناسب صفات الخلق ، وهذه الحقائق داخلية في علم المكاشفة ، ووراء سر القدر الذى منع من إفشائه ، فلنقتصر عن ذكره ، ولنقتصر على ما نهينا عليه من الفرق بين الإقدام على النكاح والإحجام عنه ، فإن أحدهما مضيع نسل أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقبا بعد عقب إلى أن انتهى إليه ؛ فالممتنع عن النكاح قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم عليه السلام على نفسه فات أبت لا عقب له ، ولو كان الباعث على النكاح مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون : زوجونى لا ألقى الله عزيا . فإن قلت : فما كان معاذ يتوقع ولدا في ذلك الوقت فما وجه رغبته فيه ؟ فأقول : الولد يحصل بالوقاع

(١) حديث أنه تعالى يقول « ما ترددت في شيء كترددى في قبض روح عبدى المسلم يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه » أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ، انفرد به بخلة القطوانى وهو متكلم فيه .

بياعث الشهوة ، وذلك أمر لا يدخل في الاختيار ؛ وإنما المعلق باختيار العبد إحضار المحرك للشهوة ، وذلك متوقع في كل حال ؛ فمن عقد فقد أدى ما عليه وفعل ما إليه ، والباقي خارج عن اختياره ، ولذلك يستحب النكاح للعنين أيضاً ، فإن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى إن الممسوح الذي لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضاً في حقه على الوجه الذي يستحب للأصلح لمرار موسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالحين ، وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه أولاً إظهار الجلد للكفار . فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم ، ويضعف هذا الاستحباب بالإضافة إلى الاستحباب في حق القادر على الحرث وربما يزداد ضعفاً بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع إلى قضاء الوطر ، فإن ذلك لا يخلو عن نوع من الخطر ؛ فهذا المعنى هو الذي ينبه على شدة إنكارهم لترك النكاح مع فتور الشهوة .

الوجه الثاني : السعي في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاء بتكثير ماله مباهاة ، إذ قد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، ويدل على مراعاة أمر الولد جملة بالوجه كلها ما روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان ينكح كثيراً ويقول : إنما أنكح للولد . وما روى من الأخبار في مذمة المرأة العقيم ، إذ قال عليه السلام « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد »^(١) ، وقال خير نساءكم الولود الودود^(٢) ، وقال « سوداء ولود ، خير من حسناء لاتلد »^(٣) ، وهذا يدل على أن طلب الولد أدخل في اقتضاء فضل النكاح من طلب دفع غائلة الشهوة ، لأن الحسناء أصلح للتحصين وغض البصر وقطاع الشهوة .

الوجه الثالث : أن يبقى بعده ولدا صالحا يدعو له ، كما ورد في الخبر أن جميع عمل ابن آدم منقطع إلا ثلاثاً فذكر الولد الصالح . وفي الخبر « إن الادعية تعرض على الموتى على أطباق من نور »^(٤) ، وقول القائل : إن الولد ربما لم يكن صالحاً : لا يؤثر فإنه مؤمن ، والصالح هو الغالب على أولاد ذوى الدين لاسيما إذا عزم على تربيته وحمله على الصلاح ، وبالجملة دعاء المؤمن لأبويه مفيد برا كان أو فاجرا ، فهو مثاب على دعواته وحسناته فإنه من كسبه وغير مؤاخذ بسيئاته ، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولذلك قال تعالى ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أى ما نقصناهم من أعمالهم ، وجعلنا أولادهم مزيداً في إحسانهم .

الوجه الرابع : أن يموت الولد قبله فيكون له شفيعاً ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة »^(٥) ، وفي بعض الأخبار « يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك »^(٦) ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « إن المولود يقال أدخل الجنة فيقف على باب الجنة فيظل محبباً ، أى ممتلئاً غيظاً وغضباً ، ويقول لا أدخل الجنة إلا وأبواى معى ، فيقال : أدخلوا أبويه معه الجنة »^(٧) ، وفي خبر آخر « إن الأطفال

(١) حديث « لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لاتلد » أخرجه أبو عمر النوفلى في كتاب معاشره الأهلين موقوفاً على عمر بن الخطاب ، ولم أجده مرفوعاً .

(٢) حديث « خير نساءكم الولود الودود » أخرجه البيهقى من حديث ابن أبى أذية الصدقى ، وقال البيهقى : وروى بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مراسلاً . (٣) حديث « سوداء ولود خير من حسناء لاتلد » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح . (٤) حديث « إن الادعية تعرض على الموتى على أطباق من نور » رواه في الأربعين المشهورة من رواية أبى هدية عن أنس في الصدقة عن الميت ، وأبو هدية كذاب . (٥) حديث « إن الطفل يموت بأبويه إلى الجنة » أخرجه ابن ماجه من حديث على وقال « سقط » بدل « الطفل » وله من حديث معاذ « إن الطفل ليجر أمه بسرره إلى الجنة إذا هو احتسبته » وكلاهما ضعيف . (٦) حديث « إنه يأخذ بثوبه كما أنا الآن آخذ بثوبك » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . (٧) حديث « إن المولود يقال له أدخل الجنة » فيقف على باب الجنة فيظل محبباً أى ممتلئاً غيظاً وغضباً ، ويقول لا أدخل إلا وأبواى معى ... الحديث » أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ولا يصح ، والنسائي من حديث أبى هريرة « يقال لهم ادخلوا الجنة فيقولون حتى يدخل آباؤنا فيقال ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم » وإسناده جيد .

يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة : اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم : مرحبا بذراري المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم ، فيقولون : فأين آباؤنا وأمهاتنا ؟ فيقول الخزنة : إن آباءكم وأمهاتكم ليسوا مثلكم ، إنه كانت لهم ذنوب وسيئات فهم يحاسبون عليها ويطلبون . قال : فيتضاغون ويضجون على أبواب الجنة ضجة واحدة ، فيقول الله سبحانه وهو أعلم بهم : ماهذه الضجة ؟ فيقولون : ربنا أطفال المسلمين قالوا لا ندخل الجنة إلا مع آبائنا ؛ فيقول الله تعالى : تتخللوا الجمع فخذوا بأيدي آباءهم فأدخلوهم الجنة (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من مات له اثنان من الولد فقد احتضر بحظار من النار (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، قيل : يا رسول الله واثنان ؟ قال : واثنان (٣) ، وحكى أن بعض الصالحين كان يعرض عليه التزويج فيأبى برهة من دهره ، قال فأنقذه من نومه ذات يوم وقال : زوجوني زوجوني ، فزوجوه ، فسئل عن ذلك فقال : لعل الله يرزقني ولدا ويقبضه فيكون لي مقدمة في الآخرة ، ثم قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت وكأني في جملة الخلائق في الموقف ، وبني من العطش ما كاد أن يقطع عنقي ، وكذا الخلائق في شدة العطش والكرب ، فنحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع ، عليهم مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم يسقون الواحد بعد الواحد ، يتخللون الجمع ويتجاوزون أكثر الناس ، فددت يدي إلى أحدهم وقلت : اسقني فقد أجهدتني العطش ، فقال : لبس لك فينا ولد ، إنما نسق آباءنا ، فقلت : ومن أنتم ؟ فقالوا : نحن من مات من أطفال المسلمين . وأحد المعاني المذكورة في قوله تعالى ﴿ فَأَتُوا حُرْمَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لأنفُسِكُمْ ﴾ تقديم الأطفال إلى الآخرة ؛ فقد ظهر بهذه الوجوه الأربعة أن أكثر فضل النكاح لأجل كونه سبباً للولد .

الفائدة الثانية : التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : من نكح فقد حصن نصف دينه فليتق الله في الشطر الآخر ، وإليه الإشارة بقوله : عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء ، وأكثر ما نقلناه من الآثار والأخبار إشارة إلى هذا المعنى ، وهذا المعنى دون الأول ؛ لأن الشهوة موكلة بتقاضى تحصيل الولد ؛ فالتكاح كاف لشغله دافع لجمعله وصارف لشر سطوته ، وليس من يجيب مولاه رغبة في تحصيل رضاه ، كمن يجيب لطلب الخلاص عن غائلة التوكيل ؛ فالشهوة والولد مقدران بينهما ارتباط ، وليس يجوز أن يقال : المقصود اللذة ، والولد لازم منها كما يلزم مثلاً قضاء الحاجة من الأكل وليس مقصوداً في ذاته ، بل الولد هو المقصود بالفطرة والحكمة ، والشهوة باعثة عليه ؛ ولعمري في الشهوة حكمة أخرى سوى الإرهاق إلى الإيلاد ، وهو مافي قضائها من اللذة التي لا توازيها لذة لودامت ، فهي منه على اللذات الموعودة في الجنان ، إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذوقاً لا ينفع ، فلو رغب العنين في لذة الجماع أو الصبي في لذة

(١) حديث « من الأطفال يجتمعون في موقف القيامة عند عرض الخلائق للحساب فيقال للملائكة اذهبوا بهؤلاء إلى الجنة فيقفون على باب الجنة فيقال لهم مرحبا بذراري المسلمين ادخلوا لاحساب عليكم فيقولون أين آباؤنا وأمهاتنا ... » الحديث بطوله لم أجده أصلاً يعتمد عليه . (٢) حديث « من مات له اثنان من الولد احتضر بحظار من النار » أخرجه البزار والطبراني من حديث زهير بن أبي عقبة « جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إنه مات لي اثنان سوى هذا فقال : لقد احتضرت من دون النار بحظار شديد » . (٣) حديث « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » قيل : يا رسول الله واثنان ، قال : واثنان « أخرجه البخاري من حديث أسد بن زرارة ، وهو عند أحمد بهذه الزيادة من حديث معاذ ، وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد باللفظ « أيما امرأة » بنحو منه .

الملك والسلطنة لم ينفع التريغيب ، وإحدى فوائد لذات الدنيا الرغبة في دوامها في الجنة ، ليكون باعثا على عبادة الله . فانظر إلى الحكمة ، ثم إلى الرحمة ، ثم إلى التعبية الإلهية كيف عيبت تحت شهوة واحدة حياتان حياة ظاهرة وحياة باطنة ، فالحياة الظاهرة حياة المرء ببقاء نسله فإنه نوع من دوام الوجود ، والحياة الباطنة هي الحياة الآخروية ، فإن هذه اللذة الناقصة بسرعة الانصرام تحرك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام ، فيستحث على العبادة الموصلة إليها ، فيستفيد العبد بشدة الرغبة فيها تيسر المواظبة على ما يوصله إلى نعيم الجنان ، ومامن ذرة من ذرات بدن الإنسان باطنا وظاهرا ، بل ذرات ملكوت السموات والأرض ، إلا وتحتها من لطائف الحكمة وعجائبها مآثر العقول فيها ، ولكن إنما يكشف للقلوب الطاهرة بقدر صفاتها وبقدر رغبتها عن زهرة الدنيا وغرورها وغوائلها ، فالتكاح بسبب دفع غائلة الشهوة مهم في الدين لكل من لا يوثق عن عجز وعنة وهم غالب الخلق ، فإن الشهوة إذا غلبت ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش ، وإليه أشار بقوله عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ . وإن كان ملجما بلجام التقوى فغايتة أن يكف الجوارح عن إجابة الشهوة ، فيغض البصر ويحفظ الفرج ، فأما حفظ القلب عن الوسواس والفكر فلا يدخل تحت اختياره ، بل لا تزال النفس تجاذبه وتحذنه بأمر الواقع ولا يفرغه الشيطان الموسوس إليه في أكثر الأوقات ، وقد يعرض له ذلك في أثناء الصلاة حتى يجري على خاطره من أمور الواقع ما لو صرح به بين يدي أخس الخلق لاستحي منه ، والله مطلع على قلبه ، والقلب في حق الله كاللسان في حق الخلق ، ورأس الأمور للبريد في سلوك طريق الآخرة قلبه ، والمواظبة على الصوم لا تقطع مادة الوسوسة في حق أكثر الخلق إلا أن ينضاف إليه ضعف في البدن وفساد في المزاج ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح . وهذه محنة عامة قل من يتخلص منها . قال قتادة في معنى قوله تعالى ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ هو الغلبة . وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالا في معنى قوله تعالى ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ أنه لا يصبر عن النساء وقال فياض بن نجيع . إذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله . وبعضهم يقول : ذهب ثلث دينه . وفي نوادر التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال قيام الذكر ، وهذه بلية غالبية إذا هاجت لا يقاومها عقل ولا دين ، وهي مع أنها صالحة لأن تكون باعثة على الحياتين كما سبق فهي أقوى آلة الشيطان على بني آدم ، وإليه أشار عليه السلام بقوله « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكهن »^(١) ، وإنما ذلك لهيجان الشهوة . وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشرمني »^(٢) ، وقال « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي »^(٣) ، فاستعين منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحوز التساهل فيه لغيره ، وكان بعض الصالحين يكثر النكاح حتى لا يكاد يخلو من اثنتين وثلاث ، فأنكر عليه بعض الصوفية فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف بين يديه موقفا في معاملة فخطر على قلبه خاطر شهوة ، فقالوا : يصيبنا من ذلك كثير ، فقال : لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد لما تزوجت ، لكنني ما خطر على قلبي خاطر يشغلني عن حالي إلا نفذته فأستريح وأرجع إلى شغلي ، ومنذ أربعين سنة ما خطر على قلبي معصية . وأنكر بعض الناس حال الصوفية فقال له

(١) حديث « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكهن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، واتفقا عليه من حديث أبي سعيد ولم يسن مسلم لفظه . (٢) حديث « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر مني » تقدم في الدعوات . (٣) حديث « أسألك أن تطهر قلبي وتحفظ فرجي » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أم سلمة بإسناد فيه لين .

بعض ذوى الدين : ما الذى تنكر منهم ؟ قال : يا كلون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو جمعت كما يجوعون لاكلت كما يأكلون ، قال : ينكحون كثيرا . قال : وأنت أيضا لو حفظت عينيك وفرجك كما يحفظون لنكحت كما ينكحون . وكان الجنيد يقول : أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت ، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلب ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع نظره على امرأة فتأقت إليها نفسه أن يجامع أهله ^(١) : لأن ذلك يدفع الوسواس عن النفس . وروى جابر رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج . وقال صلى الله عليه وسلم : إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله معها مثل الذى معها ^(٢) ، وقال عليه السلام ، لا تدخلوا على المغيبات - وهى التى غاب زوجها عنها - فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ، قلنا : ومنك ؟ قال : ومنى ، ولكن الله أعانى عليه فأسلم ^(٣) ، قال سفيان بن عيينة : فأسلم معناه فأسلم أنا منه ، هذا معناه ، فإن الشيطان لا يسلم ، وكذلك حكى على ابن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم أنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل ، وربما أنه جامع ثلاثا من جواريه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة . وقال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرها نساء ^(٤) ولما كانت الشهوة أغلب على مزاج العرب كان استكثار الصالحين منهم للنكاح أشد ولأجل فراغ القلب أبيض نكاح الأمة عند خوف العنت مع أن فيه إرقاق الولد وهو نوع إهلاك ، وهو محترم على كل من قدر على حرة ، ولكن إرقاق الولد أهون من إهلاك الدين ، وليس فيه إلا تنقيص الحياة على الولد مدة ، وفي اقتحام الفاحشة تفويت الحياة الآخرة التى تستحق الأعمار الطويلة بالإضافة إلى يوم من أيامها . وروى أنه أنصرف الناس ذات يوم من مجلس ابن عباس وبقي شاب لم يبرح ، فقال له ابن عباس : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم أردت أن أسأل مسألة فاستحييت من الناس ، وأنا الآن أهالك وأجلك ، فقال ابن عباس : إن العالم بمنزلة الوالد ، فما كنت أفضيت به إلى أهلك فأفرض إلى به ، فقال : إني شاب لازوجة لى ، وربما خشيت العنت على نفسى ، فربما استمنيت بيدي ، فهل فى ذلك معصية ؟ فأعرض عنه ابن عباس ثم قال : أف وتف نكاح الأمة خير منه ، وهو خير من الزنا ، فهذا تنبيه على أن العزب المغتلم مرددين ثلاثة شرور أدناها نكاح الأمة ، وفيه إرقاق الولد ، وأشد منه الاستمناء باليد ، وأخفها الزنا ، ولم يطلق ابن عباس الإباحة فى شيء منه لأنها محذوران يفرع إليهما حذرا من الوقوع فى محذور أشد منه ، كما يفرع إلى تناول الميتة حذرا من هلاك النفس ، فليس ترجيح أهون الشرين فى معنى الإباحة المطلقة ولا فى معنى الخير المطلق ، وليس قطع اليد المتأكلة من الخيرات وإن كان يؤذن فيه عند إشراف النفس على الهلاك ، فإذا فى النكاح فضل من هذا الوجه ، ولكن هذا لا يعم الكل بل الأكثر ، فرب شخص فترت شهوته لكبر سن أو مرض أو غيره فينعدم هذا الباعث فى حقه ، ويبقى ماسبق من أمر الولد . فإن ذلك عام إلا للمسحوق

(١) حديث « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من وقع بصره على امرأة فتأقت نفسها إليها أن يجامع أهله » أخرجه أحمد من حديث أبى كعبشة الأنصارى ، حين مررت به امرأة فوقع فى قلبه شهوة النساء فدخل فأنى بعض أزواجه وقال : فكذلك فافعلوا ، فإنه من أمائل أفعالكم لتيان الحلال ، وإسناده جيد . (٢) حديث جابر « رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته » الحديث رواه مسلم والترمذى والألفاظ له وقال : حسن صحيح . (٣) حديث « لا تدخلوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث جابر وقال غريب ، وإسلم من حديث عبد الله بن عمر « ولا يدخل بعد يومى هذا على منية إلا ومعه رجل أو اثنان » . (٤) حديث ابن عباس « خير هذه الأمة أكثرها نساء » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم رواه البخارى .

وهو نادر ، ومن الطباع ماتغلب عليها الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع ، فإن يسر الله له مودة ورحمة واطمأن قلبه بهن وإلا فيستحب له الاستبدال ، فقد نكح على رضى الله عنه بعد وفاة فاطمة عليها السلام بسبع ليال ، ويقال : إن الحسن بن علي كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتي امرأة وكان ربما عقد على أربع في وقت واحد ، وربما طلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام للحسن : أشبهت خلقى وخلقى ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : حسن منى وحسين من على ^(٢) ، فقال إن كثرة نكاحه أحد ما أشبه به خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتزوج المغيرة بن شعبه بثمانين امرأة ، وكان في الصحابة من له الثلاث والأربع ، ومن كان له اثنتان لا يحصى ، ومهما كان الباعث معلوما فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة فالمراد تسكين النفس فليتنظر إليه في الكثرة والقلة .

الفائدة الثالثة : ترويح النفس وإيناسها بالجمالة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها ، فلو كافت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت ، وإذا روت بالذات في بعض الأوقات قويت ونشطت ، وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب ويرق القلب ، وينبغى أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ ليسكن إليها ﴾ وقال على رضى الله عنه : روتوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عجمت . وفي الخبر : على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه . فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات ^(٣) ، ومثله بلفظ آخر : لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو ولدة في غير محرم ^(٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : اسكل عامل شرة ولسكل شرة فترة فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى ^(٥) . والشرة الجد والمكابدة بجمدة وقوة ، وذلك في ابتداء الإرادة ، والفترة . الوقوف للاستراحة ، وكان أبو الدرداء يقول لى لأستجم نفسى بشيء من اللهو لأتقوى بذلك فيما بعد على الحق . وفي بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : شكوت إلى جبريل عليه السلام ضعفى عن الوقاع فدلتنى على الهريسة ^(٦) ، « هذا إن صح لا يحمل له إلا الاستعداد للاستراحة ، ولا يمكن تعليله بدفع الشهوة فإنه استشارة للشهوة ، ومن عدم الشهوة عدم الأكثر من هذا الأنس . وقال عليه الصلاة والسلام حجب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرعة عيني في الصلاة ^(٧) ، فهذه أيضاً فائدة لا ينكرها من جرب إعتاب نفسه في الأفكار والأذكار وصنوف الأعمال ، وهى خارجة عن

(١) حديث أنه قال للحسن بن علي « أشبهت خلقى وخلقى » قلت المعروف أنه قال هذا اللفظ لجمع بن أبي طالب ، كما هو متفق عليه من حديث البراء ، ولكن الحسن أيضاً كان يسميه النبي صلى الله عليه وسلم ، كما هو متفق عليه من حديث أبي جحيفة ، ولترمذى وصححه وابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الحسن » . (٢) حديث « حسن منى وحسين من على » رواه أحمد من حديث المقداد بن معديكرب بسند جيد . (٣) حديث « على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه » رواه ابن حبان من حديث أبي ذر في حديث طويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٤) حديث « لا يكون العاقل ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو ولدة في غير محرم » رواه ابن حبان من حديث أنس الطويل : أن ذلك في صحف إبراهيم . (٥) حديث « اسكل عامل شرة ، ولسكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى » رواه أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو . ولترمذى نحوه من هذا من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٦) حديث « شكوت إلى جبريل ضعفى عن الوقاع فدلتنى على الهريسة » أخرجه ابن عدى من حديث حذيفة ؛ وابن عباس ، والعقيلي من حديث معاذ وجابر بن سمرة ، وابن حبان في الضعفاء من حديث حذيفة ، والأزدى في الضعفاء من حديث أبي هريرة بطرف كلها ضعيفة . قال ابن عدى : موضوع ، وقال العقيلي : باطل . (٧) حديث « حجب إلى من دنياكم الطيب والنساء وقرعة عيني في الصلاة » رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه العقيلي .

الفائدتين السابقتين ، حتى إنها تطرد في حق المسوح ومن لا شهوة له ، إلا أن هذه الفائدة تجعل للنكاح فضيلة بالإضافة إلى هذه النية ، وقل من يقصد بالنكاح ذلك . وأما قصد الولد وقصد دفع الشهوة وأمثالها فهو مما يكثر ثم رب شخص يستأنس بالنظر إلى المساء الجاري والخضرة وأمثالها ولا يحتاج إلى ترويح النفس بمحادثة النساء وملاعبتهن . فيختلف هذا باختلاف الأحوال والأشخاص فليتنبه له .

الفائدة الرابعة : تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكسب والفرش وتطهير الأواني وتهيشة أسباب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للنزل عون على الدين بهذه الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للأخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ قال : المرأة الصالحة . وقال عليه الصلاة والسلام « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كرا وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته ^(١) » ، فانظر كيف جمع بينها وبين الذكر والشكر . وفي بعض التفاسير في قوله تعالى ﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾ قال الزوجة الصالحة ؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة ، وإن منهن غنياً لا يحدى منه ، ومنهن غللاً لا يفدى منه . وقوله : لا يحدى أن يعتاض عنه بعطاء . وقال عليه الصلاة والسلام « فضلت على آدم بخصلتين : كانت زوجته عوناً له على المعصية ، وأزواجى أعواناً لي على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بخير ^(٢) » ، فعد معاوتها على الطاعة فضيلة : فهذه أيضاً من الفوائد التي يقصدها الصالحون إلا أنها تخص بعض الأشخاص الذين لا كافل لهم ولا مدبر ، ولا تدعو إلى امرأتين بل الجمع ربما ينقص المعيشة ويضطرب به أمور المنزل ؛ ويدخل في هذه الفائدة قصد الاستسكثار بعشيرتها وما يحصل من القوة بسبب تداخل العشائر ، فإن ذلك مما يحتاج إليه في دفع الشرور وطلب السلامة ولذلك قيل : ذل من لناصر له ، ومن وجد من يدفع عنه الشرور سلم حاله وفرغ قلبه للعبادة ، فإن الذل مشوش للقلب والعز بالكثرة دافع بالذل .

الفائدة الخامسة : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلافهم واحتمال الأذى منهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيتهن لأولاده ، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فإنها رعاية وولاية ، والأهل والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم ، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقوقها ، وإلا فقد قال عليه الصلاة والسلام « يوم من وال » عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا لكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٣) » ، وليس من اشتغل

(١) حديث « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذا كرا وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته » أخرجه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه واللفظ له من حديث ، وفيه انقطاع . (٢) حديث « فضلت على آدم صلى الله عليه وسلم بخصلتين : كانت أزواجه عوناً له على المعصية وأزواجى أعواناً لي على الطاعة ، وكان شيطانه كافراً وشيطاني مسلم لا يأمر إلا بخير » رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن عمر ، وفيه محمد بن وليد بن أبان بن القلاسي قال ابن عدي كان يضع الحديث ، وسلم من حديث ابن مسعود « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن » قالوا : وليك يا رسول الله ؟ قال « وأنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ولا يأمرني إلا بخير » . (٣) حديث « يوم من وال عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » ثم قال « ألا لكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس ، وقد تقدم بلفظ « ستين سنة » دون ما بعده فإنه متفق عليه من حديث ابن عمر .

بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وأراحها ، فقاساة الأهل والوالد بمنزلة الجهاد في سبيل الله ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : إحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعهما إلى في امرأته ^(١) » ، وقال بعضهم لبعض العلماء : من كل عمل أعطاني الله نصيباً حتى ذكر الحج والجهاد وغيرهما فقال له : أين أنت من عمل الأبدان ؟ قال : وما هو ؟ قال كسب الحلال ، والنفقة على العيال . وقال ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : تعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نعلم ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا : فساها ؟ قال رجل متعفف ذو عائلة قام من الليل فنظر إلى صبيانه نياماً متكشفين فسترهم وغطاهم بثوبه ، فعمله أفضل مما نحن فيه . وقال صلى الله عليه وسلم من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم يقتب المسلمين كان معي في الجنة كهاتين ^(٢) ، وفي حديث آخر « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ^(٣) » ، وفي الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها عنه ^(٤) » ، وقال بعض السلف . من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الغم بالعيال ، وفيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة ألبتة ، إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له ^(٦) » ، وكان ابن عباس إذا حدث بهذا قال . والله هو من غرائب الحديث وغرره . وروى أن بعض المتعبدین كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت . فعرض عليه التزويج فامتنع وقال : الوحدة أروح لقلبي وأجمع لعمى ، ثم قال : رأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها كأن أبواب السماء فتحت وكأن رجالاً ينزلون ويسرون في الهواء يتبع بعضهم بعضاً ، فكلمنا نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المششوم ، فيقول الآخر نعم ، ويقول الثالث كذلك . ويقول الرابع نعم ، فخفت أن أسألهم هبة من ذلك إلى أن مر بي آخرهم وكان غلاماً ، فقلت له : يا هذا من هذا المششوم الذي تومنون إليه ؟ فقال : أنت . فقلت : ولم ذاك ؟ قال : كنا نرفع عملك في أعمال المجاهدين في سبيل الله ، فنذ جمعة أمرنا أن نضع عملك مع الخالفين ، فما ندري ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجوني زوجوني فلم يكن تفارقه زوجتان أو ثلاث . وفي أخبار الأنبياء عليهم السلام أن قوما دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم ، فكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فتمعجبوا من ذلك فقال : لا تعجبوا فإني سألت الله تعالى وقلت : ما أنت معاقب لي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال : إن عقوبتك بمنيت فلان ، تزوج بها ، فتزوجت بها وأنا صابر على ماترون منها ، وفي الصبر على ذلك رياضة النفس وكسر الغضب

(١) حديث « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في امرأته » متفق عليه من حديث ابن مسعود « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة » ولها من حديث سعد بن أبي وقاس « ومهما أنفقت فهو لك صدقة حتى اللقمة ترفعهما إلى في امرأتك » . (٢) حديث « من حسنت صلاته وكثر عياله وقل ماله ولم ينتب المسامير كان معي في الجنة كهاتين » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بسند ضعيف . (٣) حديث « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين بسند ضعيف . (٤) حديث « إذا كثرت ذنوب العبد ابتلاه الله بهم العيال ليكفرها » رواه أحمد من حديث عائشة إلا أنه قال « بالخرن » وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه . (٥) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو تميم في الحلية والخطيب في التلخيص المتشابه من حديث أبي هريرة بأسناد ضعيف . (٦) حديث « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن وأحسن إليهن حتى يغنيهن الله عنه أوجب الله له الجنة ألبتة ألبتة إلا أن يعمل عملاً لا يغفر له » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس بسند ضعيف ، وهو عنده بلفظ آخر : ولأبي داود واللفظ له والترمذي من حديث أبي سعيد « من عال ثلاث بنات فأدبهن وزوجهن وأحسن إليهن فله الجنة » ورجاله ثقات ، وفي سنده اختلاف .

وتحسين الخلق ؛ فإن المنفرد بنفسه أو المشارك لمن حسن خلقه لا ترشح منه خباثت النفس الباطنة ولا تكشف بواطن عيوبه ، فحق على سالك طريق الآخرة أن يجرب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المحركات واعتياد الصبر عليها ، لتعتدل أخلاقه وترتاض نفسه ويصفو عن الصفات الذميمة باطنه والصبر على العيال مع أنه رياضة ومجاهدة تكفل لهم وقيام بهم وعبادة في نفسها ، فهذه أيضاً من الفوائد ، ولكنه لا ينتفع بها إلا أحد رجلين ؛ إما رجل قصد المجاهدة والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق ، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة وترتاض به نفسه ، وإما رجل من العابدين ليس له سير بالباطن وحركة بالفكر والقلب ، وإنما عمله عمل الجوارح بصلاة أو حج أو غيره ، فعمله لأهله وأولاده بكسب الحلال لهم والقيام بتربيتهم أفضل له من العبادات اللازمة لبدنه التي لا يتعدى خيرها إلى غيره ، فأما الرجل المهذب الأخلاق إما بكفاية في أصل الخلقة أو بمجاهدة سابقة إذا كان له سير في الباطن وحركة بفكر القلب في العلوم والمكاشفات ، فلا ينبغي أن يتزوج لهذا الغرض ، فإن الرياضة هو مكنتي فيها . وأما العبادة في العمل بالكسب لهم فالعلم أفضل من ذلك ، لأنه أيضاً عمل ، وفائدته أكثر من ذلك وأعم وأشمل لسائر الخلق من فائدة الكسب على العيال ، فهذه فوائد النكاح في الدين التي بها يحكم له بالفضيلة .

أما آفات النكاح فثلاث : (الأولى) وهي أقواها العجز عن طلب الحلال فإن ذلك لا يتيسر لكل أحد ، لاسيما في هذه الأوقات مع اضطراب المعاش فيكون النكاح سبباً في التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وفيه هلاكة وهلاك أهله والمتعرب في أمن من ذلك ، وأما المتزوج ففي الأكثر يدخل في مداخل السوء فيتبع هوى زوجته ويبيع آخرته بدينياه . وفي الخبر : إن العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال فيسأل عن رعاية عائلته والقيام بهم ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، حتى يستغرق بتلك المطالبات كل أعماله ، فلا تبقى له حسنة ، فتنادى الملائكة : هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا وارتهن اليوم بأعماله ^(١) ، ويقال : إن أول ما يتعلق بالرجل في القيامة أهله وولده فيوقفونه بين يدي الله تعالى ويقولون : ياربنا خذ لنا بحقنا منه فإنه ما علنا مانجهل وكان يطعمنا الحرام ونحن لا نعلم ، فيقتصص لهم منه . وقال بعض السلف : إذا أراد الله بعبد شراً سلط عليه في الدنيا أنياباً تنهشه يعني العيال . وقال عليه الصلاة والسلام : لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله ^(٢) ، فهذه آفة عامة قل من يتخلص منها إلا من له مال موروث أو مكتسب من حلال يفي به وبأهله وكان له من القناعة ما يئمنه من الزيادة ، فإن ذاك يتخلص من هذه الآفة ، أو من هو محترف ومقتد على كسب حلال من المباحات باحتطاب أو اصطياد ، أو كان في صناعة لا تتعلق بالسلطين ويقدر على أن يعامل به أهل الخير ، ومن ظاهره السلامة وغالب ماله الحلال وقال ابن سالم رحمه الله - وقد سئل عن التزويج - فقال : هو أفضل في زماننا هذا لمن أدركه شبق غالب ، مثل الحاريري الأمان فلا ينتهي عنها بالضرب ولا يملك نفسه ، فإن ملك نفسه فتركه أولى .

الآفة الثانية : القصور عن القيام بحقهن والصبر على الأخلاق واحتمال الأذى منهن وهذه دون الأولى في العموم فإن القدرة على هذا أيسر من القدرة على الأولى ، وتحسين الخلق مع النساء والقيام بحظوظهن أهون من طلب الحلال وفي هذا أيضاً خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته . وقال عليه الصلاة والسلام : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول ^(٣)

(١) حديث « ان العبد ليوقف عند الميزان وله من الحسنات أمثال الجبال ويسأل عن رعاية عياله والقيام بهم ... الحديث » لم أقف له على أصل . (٢) حديث « لا يلقى الله أحد بذنب أعظم من جهالة أهله » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي سعيد ، ولم يجده ولده أبو منصور في مسنده . (٣) حديث « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » رواه أبو داود والنسائي بلفظ « من يقوت » وهو هند مسلم بلفظ آخر .

وروى أن الهارب من عياله بمنزلة العبد الهارب الآبق لا تقبل له صلاة ولا صيام حتى يرجع إليهم ، ومن يقصر عن القيام بحقهن وإن كان حاضرا فهو بمنزلة هارب ، فقد قال تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ أمرنا أن نقيم النار كما نقي أنفسنا ، والإنسان قد يعجز عن القيام بحق نفسه ، وإذا تزوج تضاعف عليه الحق وانضافت إلى نفسه نفس أخرى والنفس أماراة بالسوء ، إن كثرت عليها الحقوق كثر الأمر بالسوء غالبا ، ولذلك اعتذر بعضهم من التزويج وقال : أنا مبتلى بنفسي وكيف أضيف إليها نفسا أخرى ؟ كما قيل :

لن يسع الفأرة جحرها علق المكنس في دبرها

وكذلك اعتذر إبراهيم بن أدهم رحمه الله وقال : لا أغر امرأة بنفسي ولا حاجة لي فيهن : أى من القيام بحقهن وتحسينهن وإمتاعهن وأنا عاجز عنه ، وكذلك اعتذر بشر وقال : يمنعني من النكاح قوله تعالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن ﴾ وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة لخفت أن أصير جلادا على الجسر . ورؤى سفيان ابن عيينة رحمه الله على باب السلطان ف قيل له : ما هذا موقفك ؟ فقال : وهل رأيت ذا عيال أفلح ؟ وكان سفيان يقول :

ياحبذا العزة والمفتاح * ومسكن تحرقه الرياح * لاصخب فيه ولا صياح

فهذه آفة عامة أيضا وإن كانت دون عموم الأولى ، لا يسلم منها إلا حكيم عاقل ، حسن الاخلاق ، بصير بعبادات النساء ، صبور على لسانهن ، وقاف عن اتباع شهواتهن ، حريص على الوفاء بحقهن يتغافل عن زللن ، ويدارى بعقله أخلاقهن ، والأغلب على الناس السفه والفضاظة والحدة والطيش وسوء الخلق وعدم الإنصاف مع طلب تمام الإنصاف ومثل هذا يزداد بالنكاح فسادا من هذا الوجه لا محالة ، فالوحدة أسلم له .

الآفة الثالثة - وهى دون الأولى والثانية - : أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله تعالى وجاذبا له إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه ، ولست أعنى بهذا أن يدعو إلى محذور ، فإن ذلك مما اندرج تحت الآفة الأولى والثانية ، بل أن يدعو إلى التمتع بالمباح بل إلى الإغراق في ملاعبة النساء وموانستن والإمعان في التمتع بهن ، ويشور من النكاح أنواع من الشواغل من هذا الجنس تستغرق القلب ، فينقضى الليل والنهار ولا يتفرغ المرء فيهما للتفكير في الآخرة والاستعداد لها ، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : من تعود أخذ النساء لم ينجئ منه شيء . وقال أبو سليمان رحمه الله . من تزوج فقد ركن إلى الدنيا : أى يدعو ذلك إلى الركون إلى الدنيا ، فهذه مجامع الآفات والفوائد ، فالحكم على شخص واحد بأن الأفضل له النكاح أو العزوبة مطلقا قصور عن الإحاطة بمجامع هذه الأمور بل تتخذ هذه الفوائد والآفات معتبرا ومحكما ويعرض المرء عليه ننسه ، فإن انتفت في حقه الآفات واجتمعت الفوائد بأن كان له مال حلال وخلق حسن وجد في الدين تام لا يشغله النكاح عن الله ، وهو مع ذلك شاب محتاج إلى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج إلى تدبير المنزل والتحصن بالعشيرة ، فلا يمارى في أن النكاح أفضل له مع ما فيه من السعى في تحصيل الولد ، فإن انتفت الفوائد واجتمعت الآفات فالعزوبة أفضل له ، وإن تقابل الأمران وهو الغالب فينبغى أن يوزن بالميزان القسط حظ تلك الفائدة في الزيادة من دينه وحظ تلك الآفات في نقصان منه ، فإذا غلب على الظن رجحان أحدهما حكم به ، وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة ، وأظهر الآفات الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله ، فلنفرض تقابل هذه الأمور فنقول : من لم يكن في أذية من الشهوة وكانت فائدة نكاحه في السعى لتحصيل

الولد وكانت الآفة الحاجة إلى كسب الحرام والاشتغال عن الله فالعزوبة له أولى ، فلا خير فيما يشغل عن الله ، ولا خير في كسب الحرام ، ولا يفي بنقصان هذين الأمرين أمر الولد ، فإن النكاح للولد سعى في طلب حياة للولد موهومة ، وهذا نقصان في الدين ناجز ، لحفظه لحياة نفسه وصونها عن الهلاك أهم من السعى في الولد وذلك ربح والدين رأس مال . وفي فساد الدين بطلان الحياة الآخروية وذهاب رأس المال ، ولا تقاوم هذه الفائدة إحدى هاتين الآفتين . وأما إذا انضاف إلى أمر الولد حاجة كسر الشهوة لتوقان النفس إلى النكاح نظر : فإن لم يقو الجلم التقوى في رأسه وخاف على نفسه الزنا فالنكاح له أولى ، لأنه متردد بين أن يقتحم الزنا أو يأكل الحرام ، والكسب الحرام أهون الشرين ، وإن كان يثق بنفسه أنه لا يزني ولكن لا يقدر مع ذلك على غض البصر عن الحرام فترك النكاح أولى ، لأن النظر حرام والكسب من غير وجهه حرام ، والكسب يقع دائماً وفيه عصيانه وعصيان أهله ، والنظر يقع أحياناً وهو يخصه وينصرم على قرب ، والنظر زنا العين ولكن إذا لم يصدقه الفرج فهو إلى العفو أقرب من أكل الحرام ، إلا أن يخاف إفضاء النظر إلى معصية الفرج فيرجع ذلك إلى خوف العنت ؛ وإذا ثبت هذا فالحالة الثالثة : وهو أن يقوى على غض البصر ولكن لا يقوى على دفع الأفكار الشاغلة للقلب فذلك أولى بترك النكاح ، لأن عمل القلب إلى العفو أقرب ، إنما يراد فراغ القلب للعبادة ولا تتم عبادة مع الكسب الحرام وأكله وإطعمه ، فهكذا ينبغي أن توزن هذه الآفات بالفوائد ويحكم بحسبها ، ومن أحاط بهذا لم يشك عليه شيء مما نقلنا عن السلف من ترغيب في النكاح مرة ورغبة عنه أخرى ، إذ ذلك بحسب الأحوال صحيح .

• فإن قلت : فمن أمن الآفات فما الأفضل له . التخلي لعبادة الله ، أو النكاح ؟ • فأقول : يجمع بينهما ، لأن النكاح ليس مانعاً من التخلي لعبادة الله من حيث إنه عقد ، ولكن من حيث الحاجة إلى الكسب ، فإن قدر على الكسب الحلال فالنكاح أيضاً أفضل ، لأن الليل وسائر أوقات النهار يمكن التخلي فيه للعبادة ، والمواظبة على العبادة من غير استراحة غير ممكن ، فإن فرض كونه مستغرقاً بالكسب حتى لا يبقى له وقت سوى أوقات المكتوبة والنوم والأكل وقضاء الحاجة ، فإن كان الرجل ممن لا يسلك سبيل الآخرة إلا بالصلاة النافلة أو الحج وما يجري مجراه من الأعمال البدنية فالنكاح له أفضل ، لأن في كسب الحلال والقيام بالأهل والسعى في تحصيل الولد والصبر على أخلاق النساء أنواعاً من العبادات لا يقصر فضلها عن نوافل العبادات وإن كان عبادته بالعلم والفكر وسير الباطن ، والكسب يشوش عليه ذلك ، فترك النكاح أفضل .

• فإن قلت : فلم ترك عيسى عليه السلام النكاح مع فضله ؟ وإن كان الأفضل التخلي لعبادة الله فلم استكثر رسولنا صلى الله عليه وسلم من الأزواج ؟ فاعلم أن الأفضل الجمع بينهما في حق من قدر ومن قويت منته وعلمت همته فلا يشغله عن الله شاغل ، ورسولنا عليه السلام أخذ بالقوة ، وجمع بين فضل العبادة والنكاح ، ولقد كان مع تسع من النسوة ^(١) متخلياً لعبادة الله ، وكان قضاء الوطر بالنكاح في حقه غير مانع ، كما لا يكون قضاء الحاجة في حق المشغولين بتدبيرات الدنيا مانعاً لهم عن التدبير ، حتى يشتغلون في الظاهر بقضاء الحاجة وقلوبهم مشغوفة بهمهمهم غير غافلة عن مهماتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلز درجته لا يمتعه أمر هذا العالم عن حضور القلب مع الله تعالى ، فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته ^(٢) ، ومتى سلم مثل هذا المنصب لغيره فلا يبعد أن يغير السواقي

(١) حديث « جاءه صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة » أخرجه البخاري من حديث أنس ، وله من حديثه أيضاً « ومن إحدى عشرة » . (٢) حديث « كان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته » أخرجه البخاري من حديث أنس « بإسالة لا تؤذي في عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منسكن بغيرها » .

مالا يغير البحر الحضم ، فلا ينبغي أن يقاس عليه غيره . وأما عيسى صلى الله عليه وسلم فإنه أخذ بالحزم لا بالقوة ، واحتياط لنفسه ، ولعل حالته كانت حالة يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلي للعبادة فأثر التخلي للعبادة ، وهم أعلم بأسرار أحوالهم وأحكام أعصارهم في طيب المكاسب وأخلاق النساء ، وما على الناكح من غوائل النكاح وماله فيه ، ومهما كانت الأحوال منقسمة حتى يكون النكاح في بعضها أفضل وتركه في بعضها أفضل ؛ فحقنا أن ننزل أفعال الأنبياء على الأفضل في كل حال والله أعلم .

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشرط العقد

أما العقد فأركاناه وشروطه لينعقد ويفيد الحل أربعة : (الأول) إذن الولي ؛ فإن لم يكن فالسلطان (الثاني) رضا المرأة إن كانت ثيبا بالغاً أو كانت بكراً بالغاً ، ولكن يزوجه غير الأب والحد (الثالث) حضور شاهدين ظاهري العدالة ، فإن كانا مستورين حكماً بالانعقاد للحاجة (الرابع) إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة ، سواء كان هو الزوج أو الولي أو وكيلهما .

وأما آدابه . فتقديم الخطبة مع الولي لافي حال عدة المرأة ، بل بعد انقضائها إن كانت معتدة ، ولا في حال سبق غيره بالخطبة ، إذ نهى عن الخطبة على الخطبة ^(١) . ومن آدابه . الخطبة قبل النكاح ، ومنزج التحميد بالإيجاب والقبول فيقول المزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله زوجتك ابنتي فلانة . ويقول الزوج : الحمد لله والصلاة على رسول الله قبلت نكاحها على هذا الصداق . وليكن الصداق معلوماً خفيفاً ، والتحميد قبل الخطبة أيضاً مستحب . ومن آدابه . أن يلقى أمر الزوج إلى سمع الزوجة وإن كانت بكراً فذلك أخرى وأولى بالآلفة ؛ ولذلك يستحب النظر إليها قبل النكاح فإنه أخرى أن يؤدم بينهما . ومن الآداب : إحضار جمع من أهل الصلاح زيادة على الشاهدين اللذين هما ركنان للصحة ، ومنها : أن ينوى بالنكاح إقامة السنة وغض البصر وطلب الولد وسائر الفوائد التي ذكرناها ، ولا يكون قصده مجرد الهوى والتمتع ، فيصير عمله من أعمال الدنيا ، ولا يمنع ذلك هذه النيات ، فرب حق يوافق الهوى . قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إذا وافق الحق الهوى فهو الزبد بالترسيان ، ولا يستحيل أن يكون كل واحد من حظ النفس وحق الدين باعثاً معاً ، ويستحب أن يعقد في المسجد وفي شهر شوال . قالت عائشة رضي الله عنها : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ، وبني بي في شوال ^(٢) .

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نوعان : أحدهما للحل . والثاني لطيب المعيشة وحصول المقاصد :

النوع الأول ما يشتر فيها للحل : وهو أن تكون خلية عن موانع النكاح والموانع تسعة عشر : (الأول) أن تكون منكوحة للغير (الثاني) أن تكون معتدة للغير سواء كانت عدة وفاة أو طلاق أو وطء شبهة أو كانت في استبراء وطء عن ملك يمين (الثالث) أن تكون مرتدة عن الدين لجريان كلمة على لسانها من كلمات الكفر (الرابع) أن تكون مجوسية (الخامس) أن تكون وثنية أو زندقية لا تنسب إلى نبي وكتاب ومنهن المعتقدات لمذهب الإباضية فلا يحل نكاحهن وكذلك كل معتقدة مذهباً فاسداً يحكم بكفر معتقده (السادس) أن تكون كسائية قد دانت بدينهم بعد التبديل أو بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فليست من نسب بني إسرائيل ، فإذا عدمت كلتا الخصلتين

الباب الثاني : فيما يراعى حالة العقد

(١) حديث النهي عن الخطبة على الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخطاب قبله ويأذن له . (٢) حديث عائشة : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني أبي في شوال . رواه مسلم .

لم يحل نكاحها ، وإن عدمت النسب فقط ففيه خلاف (السابع) أن تكون رقيقة والناكح حراً قادراً على طول الحرة أو غير خائف من العنت ، (الثامن) أن تكون كلها أو بعضها مملوكاً للناكح ملك يمين (التاسع) أن تكون قريبة للزوج بأن تكون من أصوله أو فصوله ، أو فصول أول أصوله ، أو من أول فصل من كل أصل بعده أصل ، وأخى بالأصول : الأمهات والجدات ، وبفصوله : الأولاد والأحفاد ، وبفصول أول أصوله : الإخوة وأولادهم ، وبأول فصل من كل أصل بعده أصل : العمات والخالات دون أولادهن (العاشر) أن تكون محترمة بالرضاع ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب من الأصول والفصول كما سبق ، ولكن المحرم خمس رضعات وما دون ذلك لا يحرم (الحادى عشر) المحرم بالمصاهرة : وهو أن يكون النكاح قد نكح ابنتها أو جدتها أو ملك بعقد أو شبهة عقد من قبل ، أو وطنين بالشبهة في عقد أو وطى أمها أو إحدى جداتها بعقد أو شبهة عقد ؛ فبجرد العقد على المرأة يحرم أمهاتها ، ولا يحرم فروعهما إلا بالوطء ، أو يكون قد نكحها أبوه أو ابنه قبل (الثانى عشر) أن تكون المنكوحه خامسة أى يكون تحت النكاح أربع سواها إما في نفس النكاح أو في عدة الرجعة ، فإن كانت في عدة بينونة لم تمنع الخامسة . (الثالث عشر) أن يكون تحت النكاح أختها أو عماتها أو خالتها ، فيكون بالنكاح جامعا بينهما ، وكل شخصين بينهما قرابة لو كان أحدهما ذكراً والآخره أنثى لم يحز بينهما النكاح ، فلا يجوز أن يجمع بينهما (الرابع عشر) أن يكون هذا النكاح قد طلقها ثلاثاً فهي لا تحل له مالم يطأها زوج غيره في نكاح صحيح (الخامس عشر) أن يكون النكاح قد لاعنها فإنها تحرم عليه أبداً بعد اللعان (السادس عشر) أن تكون محرمة بحج أو عمرة أو كان الزوج كذلك فلا ينعقد النكاح إلا بعد تمام التحلل (السابع عشر) أن تكون ثيباً صغيرة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ . (الثامن عشر) أن تكون يتيمة فلا يصح نكاحها إلا بعد البلوغ (التاسع عشر) أن تكون من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن توفى عنها أو دخل بها فإنهن أمهات المؤمنين وذاتك لا يوجد في زماننا ؛ فهذه هي الموانع المحترمة .

أما الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده ثمانية : الدين ، والخلق ، والحسن ، وخفة المهر ، والولادة ، والبكارة ، والنسب ، وأن لا تكون قرابة قريبة (الأولى) أن تكون صالحة ذات دين ، فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء ، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها أزلت بزوجها وسودت بين الناس وجهه وشوشت بالغيرة قلبه وتتغص بذلك عيشه ، فإن سلك سبيل الحية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة ؛ وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومفسوباً إلى قلة الحية والألفة ، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد ، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها ، ويكون كالذى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إن لى امرأة لا ترد يد لاس . قال : طلقها . فقال : إني أحبها . قال : أمسكها^(١) وإنما أمره بامسكها خوفاً عليه بأنه إذا طلقها أتبعها نفسه وفسد هو أيضاً معها ؛ فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه من ضيق قلبه أولى ، وإن كانت فاسدة الذين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم يزل العيش مشوشاً معه . فإن سكنت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية بخالف لقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ وإن أنكر وخاصم تنغصص العمر ، ولهذا بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحريض على ذات الدين فقال « تنكح المرأة لما لها وجمالها وحسبها

(١) حديث « جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى امرأة لا ترد يد لاس ، قال : طلقها ... الحديث » رواه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس ؛ قال النسائي : ليس بثابت ، والمرسل أول بالصواب . وقال أحمد : حديث منكر ، وذكره ابن الجوزى في الموضوعات .

ودينها فعليك بذات الدين تربت يداك^(١) ، وفي حديث آخر « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم جمالها ومالها ، ومن نكحها لدينها رزقه الله مالها وجمالها^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها ، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها » وانكح المرأة لدينها^(٣) » وإنما بالغ في الحث على الدين لأن مثل هذه المرأة تكون عوناً على الدين ؛ فأما إذا لم تكن متدينة كانت شاغلة عن الدين ومشوشة له . (الثانية) حسن الخلق ، وذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين : فإنها إذا كانت سليطة بذية اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم ، كان الضرر منها أكثر من النفع ، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء . قال بعض العرب . لا تنكحوا من النساء ستة : لا أنانة . ولا منانة ، ولا حنافة ؛ ولا تنكحوا حذافة : ولا براقة ، ولا شداقة . أما الأنانة فهي التي تكثر الأنين والتشكي وتغضب رأسها كل ساعة ؛ فنكاح الممرضة أو نكاح المتارضة لا خير فيه ، والمنانة : التي تمن على زوجها فتقول : فعلت لأجلك كذا وكذا ، والحنافة : التي تحن إلى زوج آخر أو ولدها من زوج آخر ، وهذا أيضاً مما يجب اجتنابه ، والحداقة : التي ترمى إلى كل شيء بحداقتها فتشبهه وتكلف الزوج شراهه ، والبراقة تحتمل معنيين : أحدهما أن تكون طول النهار في تصقيل وجهها وتزيينه ليكون لوجهها بريق محصل بالصنع ، والثاني أن تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها وتستقل نصيبها من كل شيء ، وهذه لغة يمانية يقولون : برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده ، والشداقة : المتشدة بالكثرة الكلام ، ومنه قوله عليه السلام « إن الله تامل يبخس الثرائين المتشدقين^(٤) » ، وحكى أن السائح الأزدي لقي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره بالتزوج ونهاه عن التبتل ، ثم قال لا تنكح أربعاً : المختلة ، والمبارية ، والعاهرة ، والناشر ، فأما المختلة : فهي التي تطلب الخلع كل ساعة من غير سبب ، والمبارية : المباهية بغيرها المفاخرة بأسباب الدنيا ، والعاهرة : الفاسقة التي تعرف بخليل وخذن وهي التي قال الله تعالى ﴿ ولا متخذات أخدان ﴾ والناشر : التي تعلو على زوجها بالفعال والمقال . والنشر : العالى من الأرض ، وكان على رضى الله عنه يقول : شر خصال الرجال خير خصال النساء . البخل ، والزهو والجبن ؛ فإن المرأة إذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها ، وإذا كانت مزهقة استنكفت أن تكلم كل أحد بكلام لين مريب . وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء فلم تخرج من بيتها واتقت مواضع التهمة خيفة من زوجها ؛ فهذه الحكايات ترشد إلى مجامع الأخلاق المطلوبة في النكاح . (الثالثة) حسن الوجه ؛ فذلك أيضاً مطلوب ، إذ به يحصل التحصن والطبع لا يكتفى بالديممة غالباً ، كيف والغالب أن حسن الخلق والخلق لا يفترقان . وما نقلناه من الحث على الدين وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال ، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين ؛ فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الألفة والمودة تحصل به غالباً وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة ولذلك استحباب النظر فقال « إذا أوقع الله في نفس

(١) حديث « تنكح المرأة لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فعليك بذات الدين » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث « من نكح المرأة لمالها وجمالها حرم مالها وجمالها . . الحديث » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن ينفذ بصره ويعصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وباركها فيه » ورواه ابن حبان في الضعفاء . (٣) حديث « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يريدها » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله يبخس الثرائين المتشدقين » رواه الترمذى وحسنه من حديث جابر « وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني يوم القيامة الثنارون والتفهيون » ولأبي داود والترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو « إن الله ينفذ البليغ من الرجال الذي يتخال بلسانه تخال الباقرة بلسانها » .

أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما^(١) ، أى يؤلف بينهما ، من وقوع الأدمة على الأدمة : وهى الجلدة الباطنة . والبشرة ، الجلدة الظاهرة . وإنما ذكر ذلك للمبالغة فى الائتلاف . وقال عليه الصلاة والسلام : إن فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن^(٢) ، قيل كان فى أعينهن عشم . وقيل : صغر ، وكان بعض الورعين لا ينسكحون كراهمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور . قال الأعمش . كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم . ومعلوم أن النظر لا يعرف الخلق والدين والمال ، وإنما يعرف الجمال من القبح . وروى أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضى الله عنه وكان قد خضب فوصل خضابه ، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا : حسبناه شباباً : فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت القوم : وروى أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فغطبا إليهم فقبل لهما ، من أنتما فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كئنا ضالين فهدانا الله وكئنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكئنا عاملين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فبسبحان الله ، فقالوا بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اسكت فقد صدقت فأنسكحك الصدق . والغرور يقع فى الجمال والخلق جميعاً فليستحب إزالة الغرور فى الجمال بالنظر ، وفى الخلق بالوصف والاستيصال فينبغى أن يقدم ذلك على النكاح ، ولا يستوصف فى أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن ولا يميل إليها فيفرط فى الشاء ، ولا يحسدها فيقتصر ، فالطباع مائلة فى مبادئ النكاح ووصف المنكوحات إلى الإفراط والتفريط ، وقيل من يصدق فيه ويقصد ، بل الخداع والإغراء أغلب ، والاحتياط فيه مهم لمن يخشى على نفسه التشوق إلى غير زوجته . فأما من أراد من الزوجة مجرد السنة أو الولد أو تدبير المنزل ، فلو رغب عن الجمال فهو إلى الزهد أقرب لأنه على الجملة باب من الدنيا وإن كان قد يعين على الدين فى حق بعض الأشخاص . قال أبو سليمان الداراني : الزهد فى كل شيء حتى فى المرأة يتزوج الرجل العجوز ليثأراً للزهد فى الدنيا . وقد كان مالك بن دينار رحمه الله يقول . يترك أحدكم أن يتزوج بتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساهما تكون خفيفة المونة ترضى باليسير ويتزوج بنت فلان وفلان يعنى أبناء الدنيا فتشتهى عليه الشهوات وتقول اكسنى كذا وكذا واختار أحمد بن حنبل عوراء على أختها وكانت أختها جميلة ، فسأل : من أعقلهما ؟ فقيل : العوراء ، فقال : زوجنى إياها ، فهذا دأب من لم يقصد التمتع ، فأما من لا يأمن على دينه مالم يكن له مستمتع فيطلب الجمال ، فالتلذذ بالمباح حصن للدين . وقد قيل : إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق سوداء الحدة والشعر كبيرة العين بيضاء اللون محبة لزوجها قاصرة الطرف عليه فهى على صورة الحور العين ؛ فإن الله تعالى وصف نساء أهل الجنة بهذه الصفة فى قوله ﴿ خيرات حسان ﴾ أراد بالخيرات حسنات الأخلاق ، وفى قوله ﴿ قاصرات الطرف ﴾ وفى قوله ﴿ عرباً أتراباً ﴾ العروب : هى العاشقة لزوجها المشتتة للوقاع وبه تتم اللذة والحور : البياض والحوراء : شديدة بياض العين شديدة سوادها فى سواد الشعر والعيناء الواسعة العين . وقال عليه الصلاة والسلام : خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله^(٣) . وإنما يسر بالنظر إليها إذا كانت محبة للزوج (الرابعة) أن تكون خفيفة المهر .

(١) حديث « إذا أوقع الله فى نفس أحدكم من امرأة فليُنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف من حديث أحمد بن مسleme دون قوله « فإنه أحرى » وللترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه من حديث المغيرة بن شعبه : أنه خطب امرأة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينهما » (٢) حديث « إن فى أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهن فليُنظر إليهن » رواه مسلم من حديث أبى هريرة نحوه . (٣) حديث « خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » أخرجه النسائى من حديث أبى هريرة نحوه بسند صحيح وقال « ولا تخافه فى نفسها ولا مالها » وعند أحمد « فى نفسها وماله » ولأبى داود نحوه من حديث ابن عباس بسند صحيح .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا ^(١) ، وقد نهى عن المغالاة في المهر ^(٢) تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف ^(٣) وعلى ، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير ^(٤) وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق ^(٥) ، وكان عمر رضى الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعائة درهم ^(٦) ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق لإليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تزوج بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على نواة من ذهب قيمتها خمسة دراهم ^(٧) وزوج سعيد بن المسيب ابنته من أبي هريرة رضى الله عنه على درهمن ، ثم حملها هو إليه ليلا فأدخلها هو من الباب ثم انصرف ، ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها ولو تزوج على عشرة دراهم للخروج من خلاف العلماء فلا بأس به . وفي الخبر « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما » أى الولادة « ويسر مهرها » ^(٨) ، وقال أيضا « أبركهن أقلهن مهرا » ^(٩) وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل . ولا ينبغي أن ينسحب طمعا في المال . قال الثوري : إذا تزوج وقال : أى شئ للمرأة ، فاعلم أنه لص ، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدى ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه ، وكذلك إذا أهدوا إليه فنية طلب الزيادة نية فاسدة ؛ فأما التهادى فمستحب وهو سبب المودة . قال عليه السلام « تهادوا تحابوا » ^(١٠) ، وأما طلب الزيادة فداخل في قوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أى تعطى لتطلب أكثر ، وتحت قوله تعالى (وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس) فإن الربا هو الزيادة ، وهذا طلب زيادة على الجملة ، وإن لم يكن في الأموال الربوية فكل ذلك مكروه وبدعة في النكاح يشبه التجارة والقمار ويفسد مقاصد النكاح . (الخامسة) أن تكون المرأة ولودا ؛ فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها . قال عليه السلام « عليكم

(١) حديث « خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس « خيرهن أيسرهن صداقا » وله من حديث عائشة « من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها » وروى أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرته الأهلين « لمن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وصححه .

(٢) حديث « النهى عن المغالاة في المهر » رواه أصحاب السنن الأربعة موقوفا على عمر وصححه الترمذى . (٣) حديث « تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان رحي يدوجرة ووسادة من آدم حشوها ليف » رواه أبو داود الطيالسي والبرار من حديث أنس : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم . قال البرار : ورأيت في موضع آخر تزويجها على متاع بيت ورعى قيمته أربعون درهما . ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد وكلهما ضعيف . ولاحمد من حديث علي لما تزوجه فاطمة بنت معها بخميلة ووسادة آدم حشوها ليف ورجلين وسقاء وجرتين « ورواه الحاكم وصححه إسناده ، وابن حبان مختصرا . (٤) حديث « أولم على بعض نسائه بمدين من شعير » أخرجه البخارى من حديث عائشة . (٥) حديث « وأولم على أخرى بمدى تمر ومدى سويق » رواه الأربعة من حديث أنس : أولم على صفية بسويق وتمر . ولمسلم : فجعل الرجل يحسب بفضل التمر وبفضل السويق . وفي الصحيحين : التمر والأقط والسمن ، وليس في شئ من الأصول تقييد التمر والسويق بمدين . (٦) حديث : كان عمر ينهى عن المغالاة ويقول : ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعائة درهم . رواه الأربعة من حديث عمر . قال الترمذى : حسن صحيح .

(٧) حديث . تزوج بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب يقال قيمتها خمسة دراهم . متفق عليه من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على ذلك وتقوعها بخمسة دراهم . رواه البيهقي . (٨) حديث « من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحما » أى الولادة وتيسر مهرها . رواه أحمد والبيهقي من حديث عائشة « من يمن المرأة أن تيسر خطبتها وأن يتيسر صداقها وأن يتيسر رحما » قال عروة : معنى الولادة ، وإسناده جيد . (٩) حديث « أبركهن أقلهن مهرا » رواه أبو عمر التوفاني في معاشرته الأهلين من حديث عائشة « لمن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهرا » وقد تقدم ، ولاحمد والبيهقي « لمن أعظم النساء بركة أيسرهن صداقا » وإسناده جيد .

(١٠) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البخارى في كتاب الأدب المفرد ، والبيهقي من حديث أبي هريرة بسند جيد .

بالولود الودود ^(١) فإن لم يكن لها زوج ولم يعرف حالها فبراعى صحتها وشبابها ، فإنها تكون ولودا في الغالب مع هذين الوصفين (السادسة) أن تكون بكرأ قال عليه السلام لجابر : وقد نكح ثيبا د هلابكرأ تلاعبها وتلاعبك ^(٢) ، في البكارة ثلاث فوائد ، إحداها : أن تحب الزوج وتألفه فيؤثر في معنى الود ، وقد قال صلى الله عليه وسلم د عليكم بالودود ، والطباع مجبولة على الانس بأول مألوف . وأما التي اختبرت الرجال ومارست الأحوال فربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما ألفته فتقتل الزوج : الثانية : أن ذلك أكمل في مودته لها فإن الطبع ينفر عن التي مسها غير الزوج نفرة ما ، وذلك يثقل على الطبع مهما يذكر وبعض الطباع في هذا أشد نفورا . الثالثة : أنها لا تحن إلى الزوج الأول وآكد الحب ما يقع مع الحبيب الأول غالبا . (السابعة) أن تكون نسيبة أعنى أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربى بناتها وبنيها ، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية ، ولذلك قال عليه السلام د إياكم وخضراء الدمن ، فقيل : ما خضراء الدمن : قال د المرأة الحسناء في المنبت السوء ^(٣) ، وقال عليه السلام تخيروا لنطفكم فإن العرق نزاع ^(٤) ، الثامنة : أن لا تكون من القرابة القريبة ؛ فإن ذلك يقلل الشهوة : قال صلى الله عليه وسلم ، لا تنسكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاوبا ^(٥) ، أى نحيفا ، وذلك لتأثيره في تضعيف الشهوة ، فإن الشهوة إنما تنبعث بقوة الإحساس بالنظر واللمس وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد ، فأما المعهود الذي دام النظر إليه مدة فإنه يضعف الحس عن تمام إدراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة ، فهذه هي الخصال المرغوبة في النساء ، ويجب على الولي أيضا أن يراعى خصال الزوج ولينظر لكريمته فلا يزوجهما من ساء خلقه أو خلقه ، أو ضعف دينه ، أو قصر عن القيام بحقوقها أو كان لا يكافئها في نسبها ، قال عليه السلام د النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته ^(٦) ، والاحتياط في حقها أهم لأنها رقيقة بالنكاح لا يخلص لها ، والزوج قادر على الطلاق بكل حال ، ومهما زوج ابنته ظلما أو فاسقا أو مبتدعا أو شاربا خمر فقد جنى على دينه وتعرض لسخط الله لما قطع من حق الرحم وسوء الاختيار . وقال رجل للحسن : قد خطب ابنتي جماعة فن أزوجهما ؟ قال ، بمن يثق الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها . وقال عليه السلام د من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ^(٧) .

(١) حديث « عليكم بالودود الولود » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار « تزوجوا الودود الولود » وإسناده صحيح . (٢) حديث قال لجابر وقد نكح ثيبا د هلابكرأ تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديث جابر .

(٣) حديث د إياكم وخضراء الدمن ؛ فقيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » رواه الدارقطني في الأفراد ، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري ، قال الدارقطني : تفرد به الواقدي وهو ضعيف .

(٤) حديث « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » رواه ابن ماجه من حديث عائشة مختصرا دون قوله د فإن العرق » وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس » وروى أبو موسى المديني في كتاب تضييع العمر والأيام من حديث ابن عمر « وانظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس » وكلاما ضعيفا .

(٥) حديث « لا تنسكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاوبا » قال ابن الصلاح : لم أجده أصلا معتمدا . قلت : إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب د قد أضويتم فانسكحوا في النوابيع » رواه إبراهيم الحربي في غريب الحديث ، وقال : معناه تزوجوا الغرائب قال : ويقال : اغربوا لاتضووا .

(٦) حديث « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » رواه أبو عمر التوفاني في مباشرة الأهلين موقوفا على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر . قال البيهقي . وروى ذلك مرفوعا والموقوف أسح (٧) حديث « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها » رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ، ورواه في الثقات من قول الذهبي بإسناده صحيح .

الباب الثالث : في آداب المعاشرة وما يجرى في دوام النكاح

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة . أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والآداب في اثني عشر أمراً : في الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة . والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في الذشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

الآداب الأول : الوليمة ، وهي مستحبة ، قال أنس رضي الله عنه : « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال « ما هذا » فقال . تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال « بارك الله لك » أولم ولو بشاة ^(١) » وأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية بتمر وسويق ^(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به ^(٣) » ولم يرفعه إلا زياد بن عبد الله وهو غريب . وتستحب تهنيئة فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير ^(٤) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح . قال عليه السلام ، فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت ^(٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف ^(٦) » وعن الربيع بنت معوذ قالت « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل غداة بني بني فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندن من قتل من آبانى إلى أن قالت لحداهن « وفينا نبي يعلم ما في غد » فقال لها : اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها ^(٧) » .

الآداب الثاني . حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترهما عليهن لقصور عقولهن . وقال الله تعالى ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ وقال في تعظيم حقهن ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ وقال ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ قيل هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه : جعل يقول : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن ما لا يطيقون . الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - يعني أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ^(٨) » وقال عليه السلام « من صبر على سوء خلق امرأته

الباب الثالث : في آداب المعاشرة

(١) حديث أنس : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الرحمن بن عوف أثر الصفرة فقال : « هذا ؟ » قال : تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، فقال « بارك الله لك » ، أولم ولو بشاة « متفق عليه » (٢) حديث « أولم على صفية بسويق وتمر » رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه وفيه تقدم (٣) حديث « طعام أول يوم حق ، وطعام الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة ، ومن سمع سمع الله به » قال المصنف : لم يرفعه إلا زياد بن عبد الله . قلت . هكذا قال الترمذي بعد أن أخرجه من حديث ابن مسعود وضعفه (٤) حديث أبي هريرة في تهنيئة الزوج « بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه وتقدم في الدعوات (٥) حديث « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث محمد بن حاطب (٦) حديث « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدف » رواه الترمذي من حديث عائشة وحسنه وضعفه البيهقي (٧) حديث الربيع بنت معوذ : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على غداة بني بني فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفوفهن ... الحديث ، رواه البخاري وقال . يوم بدروقه في بعض نسخ الإحياء : يوم بعث ، وهو وهم .

(٨) حديث « آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث : كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه ، جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهن ما لا يطيقون ، الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم ... الحديث » أخرجه النسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الموت جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه ، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع . رواه مسلم من حديث جابر الطويل ، وفيه . « فآتوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ... » الحديث

أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ، ومن ضربت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون ^(١) . وأعلم أنه ليس حسن الخلق معها كفى الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل ^(٢) . وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال أتراجعيني بالكساء ؛ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك ^(٣) ؛ فقال عمر : خابت حفصة وخسرت إن راجعتي ؛ ثم قال لحفصة . لا تغتري بأبنة ابن أبي قحافة فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أنه دفعت لإحدها في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال عليه السلام : دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك ^(٤) . وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلها بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكما واستشهده ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا ، فلطمها أبو بكر حتى دمی فوها وقال : يا عذبة نفسها ، أويقول غير الحق ! فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا ^(٥) . وقالت له مرة في كلام غضبت عنده : أنت الذي تزعم أنك نبي الله ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكما ^(٦) . وكان يقول لها « إني لأعرف غضبك من رضاك » قالت : وكيف تعرفه ؟ قال « إذا رضيت قلت لا وإله محمد ، وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم » قالت : صدقت إنما أجهز اسمك ^(٧) ، ويقال إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها ^(٨) . وكان يقول لها : كنت لك كأبي زرع لأم زرع ، غير أني لا أطلقك ^(٩) ، وكان يقول للنساء « لا تؤذوني في عائشة ، فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكمن غيرها ^(١٠) » ، وقال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان ^(١١) .

(١) حديث « من صبر على سوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه ... الحديث » لم أقف له على أصل (٢) حديث : كان أزواجه صلى الله عليه وسلم يراجعنه الحديث وتهجره الواحدة منهن يوما إلى الليل . متفق عليه من حديث عمر في الحديث الطويل في قوله تعالى (فان تظاهرا عليه)

(٣) حديث : وراجعت امرأة عمر عمر في الكلام فقال : أتراجعيني بالكساء ؟ قالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك . الحديث ، هو الحديث الذي قبله وليس فيه قوله : بالكساء ، ولا قولها : هو خير منك .

(٤) حديث : دفعت لإحدها في صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك » لم أقف له على أصل (٥) حديث : جرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكما ... الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف (٦) حديث : قالت له عائشة مرة غضبت عنده : وأنت الذي تزعم أنك نبي ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه أبو يعلى في مسنده وأبو الشيخ في كتاب الأمثال من حديث عائشة ، وفيه ابن اسحق وقد عنعنه .

(٧) حديث : كان يقول لعائشة « إني لأعرف غضبك من رضاك » الحديث « متفق عليه من حديثها . (٨) حديث وأول حب وقع في الإسلام حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة » رواه الشيخان من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة ... الحديث » وأما كونه أول فرواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أنس ، ولعله أراد بالمدينة كما في الحديث الآخر أن ابن الزبير أول مولود ولد في الإسلام بريد بالمدينة ، ولذا فحبة النبي صلى الله عليه وسلم لحديجة أمر معروف تشهد له الأحاديث الصحيحة (٩) حديث : كان يقول لعائشة « كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك » متفق عليه من حديث عائشة دون الاستثناء ، ورواه بهذه الزيادة الزبير بن بكار والخطيب . (١٠) حديث « لا تؤذوني في عائشة فإنه والله ما أنزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكمن غيرها » رواه البخاري من حديث عائشة . (١١) حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان . رواه مسلم بالفظ . مارأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم زاد على بن عبد المزيز والبخاري : والصبيان .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزح والملاعبة ؛ فهي التي تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، حتى روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة في العدو فسبقتة يوما ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه السلام : « هذه بتلك » (١) . وفي الخبر : أنه كان صلى الله عليه وسلم من أفكك الناس مع نسائه (٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها « سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتجبن أن ترى لعبهم قالت قلت نعم ، فأرسل إليهم فجأوا ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومد يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حسبك » وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ، ثم قال « يا عائشة حسبك » فقلت نعم ، فأشار إليهم فانصرفوا (٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ولطفهم بأهلهم » (٤) ، وقال عليه السلام « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي » (٥) ، وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ؛ فإذا التمسوا ما عنده وجد رجلا . وقال لقمان رحمه الله : ينبغي للعقل أن يكون في أهله كالصبي ، وإذا كان في القوم وجد رجلا . وفي تفسير الخبر المروي « إن الله يبغض الجعظري الجواظ » (٦) ، قيل هو الشديد على أهله المتكبر في نفسه ؛ وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى ﴿ عتَل ﴾ قيل العتل : هو الفظ اللسان الغليظ القلب على أهله . وقال عليه السلام لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » (٧) ، ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكا إذا ولج سكيوتا إذا خرج ، آكلا ما وجد . غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والمواقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبتها عندها ، بل يراعى الاعتدال فيه فلا يدع الهية والانتقاض مهما رأى منكرا ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألينة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تتمر وامتنع . قال الحسن : والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه الله في النار . وقال عمر رضي الله عنه : خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة . وقد قيل : شاوروهن وخالفوهن . وقد قال عليه السلام « تعس عبد الزوجة » (٨) ، وإنما قال ذلك لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها

(١) حديث مسابته صلى الله عليه وسلم لعائشة فسبقتة ثم سبقها وقال « هذه بتلك » رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث عائشة بسند صحيح .

(٢) حديث : كان من أفكك الناس مع نسائه . رواه الحسن بن سفيان في مسنده من حديث أنس دون قوله : مع نسائه . ورواه الزوار والطبراني في الصغير والأوسط فقالا : مع صبي . وفي إسناده ابن لهيعة . (٣) حديث عائشة : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون يوم عاشوراء فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتجبن أن ترى لعبهم » الحديث ، متفق عليه مع اختلاف دون ذكر يوم عاشوراء ، وإنما قال : يوم عيد ، ودون قولها : اسكت . وفي رواية للنسائي في الكبرى : قلت : لا تعجل ، صريخ . وفيه فقال : يا حيراء ، وسنده صحيح . (٤) حديث « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ولطفهم بأهلهم » رواه الترمذي والنسائي واللفظ له ، والحاكم وقال : رواه ثقات على شرط الشيخين . (٥) حديث « خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي » أخرجه الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله « وأنا خيركم لنسائي » وله من حديث عائشة وصححه « خيركم خيركم لأهلهم وأنا خيركم لأهلهم » .

(٦) حديث « إن الله يبغض الجعظري الجواظ » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، وهو في الصحيحين من حديث جارية بن وهب الخزاعي بلفظ « ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » ولأبي داود « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » (٧) حديث قال لجابر « هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك » متفق عليه من حديثه ، وقد تقدم (٨) حديث « تعس عبد الزوجة » لم أقف له على أصل ، والمعروف « تعس عبد الدينار وعبد الدرهم ... الحديث » رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وقد تعس فإن الله ملكه المرأة فملكها نفسه فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال ﴿ ولأمرهم فليغيرن خلق الله ﴾ إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعا ، وقد سمي الله الرجال قوامين على النساء وسمى الزوج سيدا ، فقال تعالى ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فإذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا ، ونفس المرأة على مثال نفسك : إن أرسلت عنانها قليلا جمحت بك طويلا ، وإن أرخيت عذارها فتراها جذبتك ذراعا ، وإن كبحتها وشدت يدك عليها في محل الشدة ملكتها . قال الشافعي رضي الله عنه : ثلاثة إن أكرمهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك : المرأة ، والخدام ، والنبطي : أراد به إن محضت الإكرام ولم تخرج غاظك بليتك وفظاظتك برفقك . وكانت نساء العرب يعلمن بناتهن اختبار الأزواج ، وكانت المرأة تقول لابنتها : اختبري زوجك قبل الإقدام والجرامه عليه انزعى زج رحمة ، فإن سكت فقطعي اللحم على ترسه ، فإن سكت فكسري العظام بسيفه ، فإن سكت فاجعلي الإكاف على ظهره وامطيه فإنما هو حمارك . وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده ، فينبغي أن تسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم من شرهن ، فإن كيدهن عظيم وشرهن فاش ، والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل ، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف بمزوج بسياسة . وقال عليه السلام « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب ^(١) » ، والأعصم يعني الأبيض البطن . وفي وصية لقمان لابنه : يا بني اتق المرأة السوء فإنها تشيبك قبل الشيب ، واتق شرار النساء فإنهن لا يدعون إلى خير ، وكن من خيارهن على حذر . وقال عليه السلام « استعيذوا من الفواقر الثلاث ^(٢) » ، وعدمهن المرأة السوء فإنها المشيبة قبل الشيب . وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها سبتك ، وإن غبت عنها خانتك » وقد قال عليه السلام في خيرات النساء « إنكن صواحبات يوسف ^(٣) » ، يعني إن صرفكن أبا بكر عن التقدم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أي مالت وقال ذلك في خير أزواجه ^(٤) » وقال عليه السلام « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة ^(٥) » ، وقد زبر عمر رضي الله عنه امرأته لما راجعته وقال : ما أنت إلا لعبة في جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، فإذا فيهن شر وفيهن ضعف ؛ فالسياسة والحشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطيب الحاذق هو الذي يقدر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولا إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الخامس : الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في إسائة الظن والتعنّت وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء ^(٦) وفي لفظ آخر :

(٦) حديث « مثل المرأة الصالحة في النساء كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب » رواه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ولاحمد من حديث عمرو بن العاص : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر الظهران ، فإذا برهان كثيرة فيها غراب أعصم أحمر المنقار فقال « لا يدخل الجنة من النساء إلا مثل هذا الغراب في هذه الغراب » وإسناده صحيح ، وهو في السنن الكبرى للنسائي . (٢) حديث « استعيذوا من الفواقر الثلاث وعدمهن المرأة السوء ، فإنها المشيبة قبل الشيب » وفي لفظ آخر « إن دخلت عليها لسبتك ، وإن غبت عنها خانتك » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، واللفظ الآخر رواه الطبراني من حديث فضالة بن عبيد « ثلاث من الفواقر : وذكر منها وامرأه إن حضرت آذاك وإن غبت عنها خانتك » وسنده حسن . (٣) حديث « إنكن صواحبات يوسف » متفق عليه من حديث عائشة (٤) حديث نزول قوله تعالى ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ في خير أزواجه ، متفق عليه من حديث عمر ، والمرأتان عائشة وحفصة (٥) حديث « لا يفلح قوم تملكتهم امرأة » رواه البخاري من حديث أبي بكر بنحوه (٦) حديث : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتبع عورات النساء رواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر : نهى أن تتطلب عورات النساء ، والحديث عند مسلم بلفظ : نهى أن يطلع الرجل أهله ليلا =

أن تبغى النساء . ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره قال قبل دخول المدينة « لا تطرقوا النساء ليلا »
 فخالفه رجلان فسبقا ، فرأى كل واحد في منزله ما يكره ^(١) وفي الخير المشهور « المرأة كالضلع إن قومت كسرته ،
 فدعه تستمتع به على عوج ^(٢) ، وهذا في تهذيب أخلاقها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن من الغيرة غيرة يبغضها
 الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة ^(٣) ، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن
 لائم . وقال على رضى الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فترحم بالسوء من أجلك . وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي
 محمودة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يغار المؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن
 ما حرم الله عليه ^(٤) » وقال عليه السلام « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني ^(٥) » ولأجل
 غيرة الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ولذلك بعث المنذرين والمبشرين
 ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولأجل ذلك وعد الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بي
 في الجنة قصرا وبفنائها جارية ؛ فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر ؛ فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر :
 فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ^(٦) » وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم لينزحن العلوج في الأسواق
 قبض الله من لا يغار ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء
 ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، والغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير
 ريبة ، والاختيال الذي يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدمة ، والاختيال الذي يبغضه الله الاختيال
 في الباطل ^(٧) » وقال عليه الصلاة والسلام « إني لغيور ، ومامن امرئ لا يغار إلا منكوس القلب ^(٨) » والطريق المعنى
 عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة
 عليها السلام « أى شيء خير للمرأة ؟ » قالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، فضمها إليه وقال « ذرية بعضها
 من بعض ^(٩) » فاستحسن قولها . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدون الكوى والثقب في الحيطان لئلا
 تطلع النسوان إلى الرجال . ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضرها ، ورأى امرأته قد دفعت إلى غلامه تفاحة
 قد أكلت منها فضرها . وقال عمر رضى الله عنه : أعروا النساء يلزمن الحجال ، وإنما قال ذلك لأنهن لا يرغبن في

= يخونهم أو يطالب عثراتهم واقصر البخارى منه على ذكر النبي عن الطروق ليلا (١) حديث أنه قال قبل دخول المدينة « لا تطرقوا
 أهلكم ليلا » فخالفه رجلان فسبعا إلى منازلهما فرأى كل واحد في بيته ما يكره . رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند جيد .
 (٢) حديث « المرأة كالضلع إن أردت تقبها كسرته ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٣) حديث « غيرة
 يبغضها الله وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك .
 (٤) حديث « الله يغار المؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرم الله عليه » متفق عليه من حديث أبي هريرة
 ولم يقل البخارى : والمؤمن يغار (٥) حديث « أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه والله أغير مني ... الحديث »
 متفق عليه من حديث المنيرة بن شعبة .

(٦) حديث « رأيت ليلة أسرى بي في الجنة قصرا وبفنائها جارية ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ فقيل لعمر ... الحديث » متفق
 عليه من حديث جابر دون ذكر ليلة أسرى بي ولم يذكر الجارية ، وذكر الجارية في آخر متفق عليه من حديث أبي هريرة
 « بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ... الحديث » (٧) حديث « إن من الغيرة ما يحبه الله تعالى ومنها ما يبغضه الله تعالى ... الحديث »
 رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث جابر بن عتيك ، وهو الذي تقدم قبله بأربعة أحاديث . (٨) حديث « إني لغيور
 وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب » تقدم أوله . وأما آخره فرواه أبو عمر التوفاني في كتاب معاشرة الأهلين من رواية
 عبد الله بن محمد مرسلا . والظاهر أنه عبد الله بن الحنفية (٩) حديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة « أى شيء
 خير للمرأة ؟ » فقالت : أن لا ترى رجلا ... الحديث . رواه البزار والدارقطني في الأفراد من حديث علي بسند ضعيف .

الخروج في الهيئة الرثة . وقال عودوا نسائكم ، لا ، وكان قد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء في حضور المسجد ^(١) والصواب الآن المنع إلا العجائز ، بل استصوب ذلك في زمان الصحابة حتى قالت عائشة رضي الله عنها ، لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدثت النساء بعده لمنعهن من الخروج ^(٢) . ولما قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله لمنعهن ، فضربه وغضب عليه وقال تسمعي أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمنعوا » فتقول : بلى ^(٣) ، وإنما استجراً على المخالفة لعل به بتغير الزمان ، وإنما غضب عليه لإطلاقه اللفظ بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن لمن في الأعياد خاصة أن يخرجن ^(٤) ولكن لا يخرجن إلا برضا أزواجهن ، والخروج الآن مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم وينبغي أن لا تخرج إلا لهم ، فإن الخروج للنظارات والأمور التي ليست مهمة تقدر في المروءة وربما تفضي إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولنا نقول إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقها ، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا : إذ لم يزل الرجال على مر الزمان مكشوفى الوجوه والنساء يخرجن منتقبات ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتتقب أو منعهن من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتصر عليهن في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى ﴿ وكأوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك ^(٦) » ، وقيل : كان لعلي رضي الله عنه أربع نسوة ، فكان يشتري لكل واحدة في كل أربعة أيام لحماً بدرهم ، وقال الحسن رضي الله عنه : كانوا في الرجال مخاصيب ، والإناث والثياب مجاديب . وقال ابن سيرين : يستحب : للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة فالزوج ، وكأن الخلاوة وإن لم تكن من المهمات ولكن تركها بالسكينة تقتير في العادة ، وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لتركها فهذا أقل درجات الخير ، وللرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بما كوله طيب فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، فإن كان مزماً على ذلك فليأكله بخفية بحيث لا يعرف أهله ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته ، فقد قال سفيان رضي الله عنه : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون جماعة ، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لامرأته لها وقد أوردنا الأخبار الواردة في ذلك عند ذكر آفات النكاح .

(١) حديث الإذن للنساء في حضور المساجد . متفق عليه من حديث ابن عمر « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » .
(٢) حديث قالت عائشة : لو علم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج . متفق عليه . قال البخاري : لمنعهن من المساجد . (٣) حديث ابن عمر « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » فقال بعض ولده : بلى والله . . . الحديث متفق عليه .
(٤) حديث « الإذن لمن في الأعياد » متفق عليه من حديث أم عطية . (٥) حديث « خيركم خيركم لأهله » أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه ، وقد تقدم . (٦) حديث « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحتترز به الاحتراز الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى ، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ فعليه أن يلقتها اعتقاد أهل السنة ويرى عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه وعلم الاستحاضة يطول ؛ فأما الذي لابد من إرشاد النساء إليه في أمر الحيض بيان الصلوات التي تقضيها ، فإنها مهما انقطع دمها قبيلا المغرب بمقدار ركعة فعليها قضاء الظهر والعصر ، وإذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء ، وهذا أقل ما يراعيه النساء ، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها خروج ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل الإبرضاء ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها في الإثم .

الثامن : إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أفرغ بينهن ^(١) ، كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القسم وذلك يطول ذكره ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان له امرأتان فسال إلى إحداها دون الأخرى - وفي لفظ - ولم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل ^(٢) » وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار . قال الله تعالى ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أى أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ، ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن في العطاء والبيتوتة في الليالي ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك ^(٣) » يعنى الحب . وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نساءه إليه ^(٤) وسائر نساءه يعرفن ذلك . وكان يطاف به محمولا في مرضه في كل يوم وكل ليلة ، فبييت عند كل واحدة منهن ويقول : أين أنا غدا ، ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت : إنما يسأل عن يوم عائشة ؛ فقلن يا رسول الله قد أذننا لك أن تكون في بيت عائشة فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة ؛ فقال « وقد رضيتم بذلك ؟ فقلن : نعم . قال : فحولوني إلى بيت عائشة ^(٥) » ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ورضى الزوج بذلك ثبت الحق لها . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نساءه ، فقصد أن يطلق سودة بذت زمعة لما كبرت

(١) حديث القرعة بين أزواجه إذا أراد سفرأ : متفق عليه من حديث عائشة . (٢) حديث « من كان له امرأتان فال إلى إحداها دون الأخرى » وفي لفظ آخر « لم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة : قال أبو داود وابن حبان « قال مع إحداها » وقال الترمذي « فلم يعدل بينهما » . (٣) حديث : كان يعدل بينهن ويقول « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث عائشة نحوه . (٤) حديث : كانت عائشة أحب نساءه إليه : متفق عليه من حديث عمرو بن العاص أنه قال : أى الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال « عائشة » وقد تقدم . (٥) حديث : كان يطاف به محمولا في مرضه كل يوم وليلة فبييت عند كل واحدة ويقول « أين أنا غدا ... الحديث » رواه ابن سعد في الطبقات من رواية محمد بن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل في ثوب يطاف به على نساءه وهو مريض يقسم بينهن . وفي مرسل آخر له : لما نزل قال « أين أنا غدا ؟ » قالوا : عند فلانة . قال « فأين أنا بعد غد ؟ » قالوا عند فلانة ، فعرف أزواجه أنه يريد عائشة .. الحديث . ولبخاري من حديث عائشة : كان يعل في مرضه الذي مات فيه : « أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء . وفي الصحيحين : لما نزل استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له .

فوهبت ليلتها لعائشة وسألته أن يقرأها على الزوجية حتى تحشر في زمرة نساءه ، فتركها وكان لا يقسم لها ويقسم لعائشة ليلتين واسأثر أزواجه ليلة ليلة (١) ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لحسن عدله وقوته كان إذا تأقت نفسه إلى واحدة من النساء في غير نوبتها فجامعها طاف في يومه أوليلته على سائر نساءه ؛ فمن ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف على نساءه في ليلة واحدة (٢) . وعن أنس أنه عليه السلام طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار (٣) .

التاسع : في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما : فإن كان من جانبهما جميعا أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلا بد من حكين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) وقد بعث عمر رضي الله عنه حكما إلى زوجين ، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول (إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما) فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما . وإما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف ، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفرش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظام ولا يدمى لها جسم . ولا يضرب وجهها فذلك منهى عنه . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حق المرأة على الرجل ؟ قال : يطعمها إذا طعم . ويكسوها إذا اكتسى . ولا يقبض الوجه . ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح . ولا يهجرها إلا في البيت (٤) ، وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر . فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إلى زينب بهدية فردتها عليه . فقالت له التي هو في بيتها : لقد أقأتك إذ ردت عليك هديتك (٥) . أي أذلتك واستصغرتك . فقال صلى الله عليه وسلم : أنتن أهون على الله أن تقمثنني ، ثم غضب عليهن كلهن شهراً إلى أن عاد إليهن .

العاشر : في آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى ويقرأ قل هو الله أحد أولاً ويكبر ويهمل ويقول : بسم الله العلي العظيم . اللهم اجعلها ذرية طيبة إن كنت قدرت أن تخرج ذلك من صلبى . وقال عليه الصلاة والسلام : لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقته . فإن كان بينهما ولد لم يضره

(١) حديث : كان يقسم بين نساءه ، فقصده أن يطابق سودة بنت زمعة لما كبرت ، فوهبت ليلتها لعائشة ... الحديث رواه أبو داود من حديث عائشة : قالت سودة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله يومى لعائشة ... الحديث ، وللطبراني : فأراد أن يفارقها . وهو عند البخاري باللفظ : لما كبرت سودة وهبت يومها لعائشة وكان يقسم لها يوم سودة ، وللبهقي مرسل : طلق سودة فقالت : أريد أن أحشر في أزواجك ... الحديث . (٢) حديث عائشة : طاف على نساءه في ليلة واحدة . متفق عليه باللفظ : كنت أطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطوف على نساءه ثم يصبح بمريم ينضح طيباً (٣) حديث أنس : أنه طاف على تسع نسوة في ضحوة نهار ، رواه ابن عدى في السكامل ، وللبخاري : كان يطوف على نساءه في ليلة واحدة وله تسع نسوة . (٤) حديث : قيل له : ما حق المرأة على الرجل ؟ فقال : يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبض الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلا في البيت ، رواه أبو داود والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولا يضرب الوجه ولا يقبض . وفي رواية لأبي داود : ولا يقبض الوجه ولا تضرب . (٥) حديث هجرة صلى الله عليه وسلم لساءه شهراً لما أرسل بهدية إلى زينب فردتها فقالت له التي في بيتها : لقد أقأتك ... الحديث ، ذكره ابن الجوزي في الوفاء بغير أسناد . وفي الصحيحين من حديث عمر : كان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن . وفي رواية من حديث جابر : ثم اعتزلهن شهراً (٦) — لحياء علوم الدين — (٢)

الشیطان^(١) ، وإذا قربت من الإنزال فقل في نفسك ولا تحرك شفتيك : الحمد لله الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً . وكان بعض أصحاب الحديث يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته ، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع لإكراماً للقبلة ، وليغض نفسه وأهله بثوب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغطى رأسه ويغض صوته ويقول المرأة « عليك بالسكينة^(٢) » ، وفي الخبر « إذا جامع أحدكم أهله فلا يتجردان تجرد العيرين^(٣) » ، أى الحمارين ، وليقدم التلطف بالكلام والتقويل قال صلى الله عليه وسلم « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقعن البهيمة ، وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ؟ قال « القبلة والكلام^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاث من العجز فى الرجل : أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه ، والثانى : أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته ، والثالث : أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيضيها قبل أن يحدثها ويؤانسها ، ويضاجعها فيقتضى حاجته منها قبل أن تقضى حاجتها منه^(٥)) ويكره له الجماع فى ثلاث ليال من الشهر : الأول ، والآخر ، والنصف . يقال : إن الشيطان يحضر الجماع فى هذه الليالى ، ويقال : إن الشياطين يجامعون فيها ، وروى كراهة ذلك عن على ومعاوية وأبي هريرة رضى الله عنهم . ومن العلماء من استحجب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التاويلين من قوله صلى الله عليه وسلم (رحم الله من غسل واغتسل^(٦)) الحديث . ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضى هى أيضاً نهمتها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فيبهج شهوتها ، ثم القعود عنها لإيذاء لها ، والاختلاف فى طبع الإنزال يوجب التناثر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال ، والتوافق فى وقت الإنزال ألدعندها ليشغل الرجل نفسه عنها ، فإنها ربما تستحى . وينبغى أن يأتيا فى كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغى أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها فى التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه ، وإن كان لا يثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيا فى الحيض . ولا بعد انقضائه وقبل الغسل ، فهو محرم بنص الكتاب ، وقيل : إن ذلك يورث الجذام فى الولد ، وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيا فى غير المأتى ، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى ، والأذى غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض . وقوله تعالى ﴿ فأتوا حرائكم انى شئتم ﴾ أى أى وقت شئتم ، وله أن يستمنى بيديها ، وأن يستمتع بما تحت الإزار بما يشتهى سوى الوقاع . وينبغى أن تنزر المرأة بإزار من حقوها إلى فوق الركبة فى حال الحيض ، فهذا من الأدب ، وله أن يؤاكل الحائض ، ويخالطها فى المضاجعة وغيرها ، وليس عليه اجتنابها ، وإن أراد أن يجامع ثانياً بعد أخرى فليغسل فرجه أولاً ، وإن احتلم فلا يجامع حتى يغسل فرجه أو يبول ، ويكره الجماع فى أول الليل حتى لا ينام على غير طهارة ، فإن أراد النوم أو الأكل فليتوضأ أولاً وضوء الصلاة فذلك سنة . قال ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينا من أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ^(٧) » ولكن قد وردت فيه رخصة قالت عائشة رضى الله

(١) حديث « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبنا الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢) حديث . كان يغطى رأسه ويغض صوته ويقول للمرأة « عليك بالسكينة » رواه الخطيب من حديث أم سلمة بسند ضعيف .
 (٣) حديث « إذا جامع أحدكم امرأته فلا يتجردان تجرد العيرين » أخرجه ابن ماجه من حديث عتبة بن عبد بسند ضعيف .
 (٤) حديث « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقعن البهيمة ... الحديث . رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وهو منكر . (٥) حديث « ثلاث من العجز فى الرجل . أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعرف اسمه ... الحديث » رواه أبو منصور الديلمى من حديث أخضر منه وهو بعض الحديث الذى قبله . (٦) حديث « رحم الله من غسل واغتسل » تقدم فى الباب الخامس من الصلاة . (٧) حديث ابن عمر : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أينا من أحدنا وهو جنب ؟ قال « نعم إذا توضأ » متفق عليه من حديثه أن عمر سأل ، لأن هب الله هو السائل .

عنها « كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام جنباً لم يمس ماء »^(١) ، ومهما عاد إلى فراشه فليمسح وجهه فراشه أولينفضه ، فإنه لا يدري ما حدث عليه بعده ، ولا ينبغي أن يحلق أو يقلم أو يستحد أو يخرج الدم أو يبين من نفسه جزءاً وهو جنب ؛ إذ ترد إليه سائر أجزائه في الآخرة فيعود جنباً ، ويقال : إن كل شعرة تطالبه بجنباتها ومن الآداب أن لا يعزل ، بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث وهو الرحم ، فإمن نسمة قدر الله كونها لإلا وهي كائنة^(٢) هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن عزل فقد اختلف العلماء في إباحته وكراهته على أربع مذاهب ، فمن مبيح مطلقاً بكل حال ، ومن محرم بكل حال ، ومن قائل يحل برضاها ولا يحل دون رضاها ، وكأن هذا القائل يحرم الإيذاء دون العزل ، ومن قائل يباح في المملوكة دون الحرة . والصحيح عندنا أن ذلك مباح ، وأما الكراهية فإنها تطلق لنهي التحريم ونهي التنزيه وأترك الفضيلة ، فهو مكروه بالمعنى الثالث أى فيه ترك فضيلة ، كما يقال : يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً لا يشتغل بذكر أو صلاة ، ويكره للحاضر في مكة مقبائها أن لا يمسح كل سنة ، والمراد بهذه الكراهية ترك الأولى والفضيلة فقط ، وهذا ثابت لما بيناه من الفضيلة في الولد ، ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليجامع أهله فيسكتب له بجماعه أجر ولد ذكر قاتل في سبيل الله فقتل^(٣) » ، وإنما قال ذلك لأنه لو ولد له مثل هذا الولد لكان له أجر التسبب إليه ، مع أن الله تعالى خالقه وحبيه ومقربه على الجهاد ، والذي إليه من التسبب فقد فعله وهو الوقاع ، وذلك عند الإيماء في الرحم . وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه ، لأن إثبات النهي إنما يمكن بنص أو قياس على منصوص ولا نص ولا أصل يقاس عليه ، بل ههنا أصل يقاس عليه وهو ترك النكاح أصلاً أو ترك الجماع بعد النكاح أو ترك الإنزال بعد الإبلاج ، فكل ذلك ترك للأفضل وليس بارتكاب نهى ولا فرق ، إذ الولد يتكون بوقوع النطفة في الرحم ، ولها أربعة أسباب : النكاح ، ثم الوقاع ، ثم العصر إلى الإنزال بعد الجماع ، ثم الوقوف لينصب المنى في الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض ، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث ، وكذا الثالث كالثاني ، والثاني كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوآد ، لأن ذلك جناية على موجود حاصل ، وله أيضاً مراتب وأول مراتب الوجود أن تقع النطفة في الرحم وتختلط بماء المرأة وتستعد لقبول الحياة وإفساد ذلك جناية ، فإن صارت مضغة وعلقة كانت الجناية أخش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش في الجناية بعد الانفصال حياً . وإنما قلنا مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنى في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل ، لأن الولد لا يتخلق من منى الرجل وحده بل من الزوجين جميعاً إما من مائه ومائها أو من مائه ودم الحيض ، قال بعض أهل التشريح : إن المضغة تتخلق بتقدير الله من دم الحيض ، وإن الدم منها كاللبن من الرائب ، وإن النطفة من الرجل شرط في خور دم الحيض والنعقاده كالأنفحة للبن ، إذ بها ينعقد الرائب ، وكيفياً كان فماء المرأة ركن في الانعقاد فيجرب المآمان مجرى الإيجاب والقبول في الوجود الحكمي في العقود ، فمن أوجب ثم رجع قبل القبول لا يكون جانياً على العقد بالنقض والفسخ ، ومهما اجتمع الإيجاب والقبول كان الرجوع بعده رفعا وفسخا وقطعا ، وكما أن النطفة في الفقار لا يتخلق منها الولد فكذا بعد الخروج من الإحليل ما لم يمتزج بماء المرأة ودمها ، فهذا هو القياس الجلي .

(١) حديث عائشة : كان ينام جنباً لم يمس ماء رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . وقال يزيد بن هارون : إنه وهم ، وإنما البيهقي عن الحافظ الطعن فيه ، قال : وهو صحيح من جهة الرواية .

(٢) حديث « مامن نسمة قدر الله كونها لإلا وهي كائنة » متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث « إن الرجل ليجامع أهله فيسكتب له من جماعه أجر ولد ذكر يقاتل في سبيل الله » لم أجده أصلاً .

* فإن قلت : فإن لم يكن العزل مكروها من حيث إنه دفع لوجود الولد فلا يكره لأجل النية الباعثة عليه ، إذ لا يبعث عليه إلا نية فاسدة فيها شيء من شوائب الشرك الخفي * فأقول : النيات الباعثة على العزل خمس : الأولى في السرارى وهو حفظ الملك عن الهلاك باستحقاق العتاق وقصد استبقاء الملك بترك الإعتاق ودفع أسبابه ليس بمنهى عنه . الثانية : استبقاء جمال المرأة ومنعها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفا من خطر الطلق ، وهذا أيضا ليس منها عنه . الثالثة : الخوف من كثرة المخرج بسبب كثرة الأولاد والاحتراز من الحاجة إلى التعب في الكسب ودخول مداخل السوء ، وهذا أيضا غير منهى عنه ، فإن قلة المخرج معين على الدين ، نعم الكمال والفضل في التوكل والثقة بضمهان الله حيث قال ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ولا جرم فيه سقوط عن ذروة الكمال وترك الأفضل ، ولكن النظر إلى العواقب وحفظ المال وادخاره مع كونه منافضا للتوكل لا نقول إنه منهى عنه . الرابعة : الخوف من الأولاد الإناث لما يعتقد في تزويجهم من المرة كما كانت من عادة العرب في قتلهم الإناث ، فهذه نية فاسدة لو ترك بسببها أصل النكاح أو أصل الوقاع أثم بها لا بترك النكاح والوطء ، فكذا في العزل ، والفساد في اعتقاد المعرة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد ، وينزل منزلة امرأة تركت النكاح استنكافا من أن يعلوها رجل فكانت تتشبه بالرجال ، ولا ترجع الكراهة إلى عين ترك النكاح . الخامسة : أن تمتنع المرأة لتعززها ومباغتتها في النظافة والتحرز من الطلق والنفاس والرضاع ، وكان ذلك عادة نساء الخوارج لمباغتتهن في استعمال المياه ، حتى كن يقضين صلوات أيام الحيض ولا يدخلن الحلاء إلا عراة ، فهذه بدعة تخالف السنة ، فهي نية فاسدة ؛ واستأذنت واحدة منهن على عائشة رضی الله عنها لما قدمت البصرة فلم تأذن لها ، فيكون القصد هو الفساد دون منع الولادة .

* فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا ثلاثا »^(١) . قلت : فالعزل كترك النكاح . وقوله « ليس منا » أى ليس موافقا لنا على سنتنا وطريقتنا وسنتنا فعل الأفضل .

* فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الخفى ، قرأ : وإذا المودة سئلت »^(٢) ، وهذا في الصحيح . قلنا : وفي الصحيح أيضا أخبار صحيحة^(٣) في الإباحة ، وقوله « الوأد الخفى » كقوله (الشرك الخفى) وذلك يوجب كراهة لا تحريما .

* فإن قلت : فقد قال ابن عباس : العزل هو الوأد الأصغر ، فإن الممنوع وجوده به هو المودة الصغرى . قلنا : هذا قياس منه لدفع الوجود على قطعه وهو قياس ضعيف ، ولذلك أنكره عليه على رضى الله عنه ، لما سمعه قال : ولا تكون مودة إلا بعد سبع ، أى بعد الأخرى سبعة أطوار ، وتلا الآية الواردة في أطوار الخلقة وهي قوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ أى نفخنا فيه الروح ، ثم تلا قوله تعالى في الآية ﴿ وإذا المودة سئلت ﴾ وإذا نظرت إلى ما قدمناه في طريق القياس والاعتبار ، ظهر لك تفاوت منصب على وابن عباس رضى الله عنهما في الغوص على المعاني ودرك

(١) حديث « من ترك النكاح مخافة العيال فليس منا » تقدم في أوائل النكاح . (٢) حديث قال صلى الله عليه وسلم في العزل « ذاك الوأد الخفى » أخرجه مسلم من حديث جذاعة بنت وهب . (٣) أحاديث لإباحة العزل ، رواها مسلم من حديث أبي سعيد : أنهم سألوه عن العزل فقال « لا عليكم أن لا تنهوه » ورواه النسائي من حديث أبي هريرة ، ولاشعبي من حديث جابر : كنا لعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد مسلم : فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا . والنسائي من حديث أبي هريرة سئل عن العزل فقيل : اليهود تزعم أنها المودة الصغرى ؛ فقال : كذبت يهود . قال البيهقي : رواه الإباحة أكثر وأحفظ .

العلوم ، كيف وفي المتفق عليه في الصحيحين على جابر أنه قال (كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل) وفي لفظ آخر (كنا نعزل فبلغ ذلك نبي الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ^(١)) وفيه أيضا عن جابر أنه قال (إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ، فقال عليه الصلاة والسلام (اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها) فلبث الرجل ماشاء الله ثم أتاه فقال : إن الجارية قد حملت ، فقال (قد قلت سيأتيها ما قدر لها ^(٢)) كل ذلك في الصحيحين .

الحادي عشر : في آداب الولادة وهي خمسة : (الأول) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدرى الخيرة له في أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له ، أو يتمنى أن يكون بنتا ، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل قال صلى الله عليه وسلم (من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من التعمية التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة ^(٣)) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبهما إلا أدخلتاه الجنة ^(٤)) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين ^(٥)) وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه ^(٦)) وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم وليبدأ بالإناث قبل الذكور فإنه من فترح أنثى فكأنما بكى من خشية الله ومن بكى من خشية حرم الله بدنه على النار ^(٧)) وقال أبو هريرة : قال صلى الله عليه وسلم (من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : وثنتان ؟ قال : وثنتان . فقال رجل : أو واحدة ؟ فقال واحدة ^(٨)) (الأدب الثاني) . أن يؤذن في أذن الولد : روى رافع عن أبيه قال (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة رضي الله عنها ^(٩)) وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان ^(١٠)) ويستحب أن يلقنوه أول الإطلاق لسانه

- (١) حديث جابر المتفق عليه في الصحيحين : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، هو كما ذكر متفق عليه ، إلا أن قوله « فلم ينهنا » انفرد بها مسلم . (٢) حديث جابر : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لاني جارية وهي خادمتنا وساقيتنا في النخل وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل ؟ فقال : انزل عنها إن شئت . الحديث ، ذكر المصنف أنه في الصحيحين وليس كذلك ، وإنما انفرد به مسلم .
- (٣) حديث « من كانت له ابنة فأدبها وأحسن أدبها وغذاها فأحسن غذاها .. الحديث » أخرجه الطبراني في الكبير ، والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٤) حديث ابن عباس « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما يحبهما إلا أدخلتاه الجنة » أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٥) حديث أنس « من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليهما ما يحبهما كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » رواه الخراطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف . ورواه الترمذي بلفظ « من عال جارتين » وقال حسن غريب . (٦) حديث أنس « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين فاشتري شيئا فحمله إلى بيته فخص به الإناث دون الذكور نظر الله إليه ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه » أخرجه الخراطي بسند ضعيف .
- (٧) حديث أنس « من حمل طرفة من السوق إلى عياله فكأنما حمل إليهم صدقة » أخرجه الخراطي بسند ضعيف جدا ، وأخرجه ابن عدي في الكامل . وقال ابن الجوزي : حديث موضوع . (٨) حديث أبي هريرة « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن » الحديث « رواه الخراطي واللفظ له والحاكم ولم يقل : أو أخوات وقال . صحيح الإسناد .
- (٩) حديث أبي رافع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن في أذن الحسين حين ولدته فاطمة . أخرجه أحمد واللفظ له وأبو داود والترمذي وصححه ، إلا أنهما قالا « الحسن » مكبرا ، وضعفه ابن القطان . (١٠) حديث « من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في أذنه اليسرى دفعت عنه أم الصبيان » أبو يعلى الموصلي وابن السني في اليوم واليلة ، والبيهقي في شعب الإيمان =

لا إله إلا الله ، ليكون أول حديثه ، والختان في اليوم السابع ورد به خبر ^(١) (الآداب الثالث) : أن تسميه اسماً حسناً ؛ فذلك من حق الولد . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا سميتم فعبدوا » ^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ^(٣) ، وقال : « سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي » ^(٤) ، قال العلماء : كان ذلك في عصره صلى الله عليه وسلم إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس ، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي » ^(٥) ، وقيل : إن هذا أيضاً كان في حياته ، وتسمى رجل أبا عيسى فقال عليه السلام : « إن عيسى لأب له » ^(٦) ، فيكره ذلك ، والسقط ينبغي أن يسمى . قال عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية : بلغني أن السقط يصرخ يوم القيامة وراء أبيه فيقول : أنت ضيقتني وتركنتي لا اسم لي ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : كيف وقد لا يدري أنه غلام أو جارية فقال عبد الرحمن : من الأسماء ما يجمعهما حكمزة وعمارة وطلحة وعتبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » ^(٧) ، ومن كان له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله ^(٨) . وكان اسم زينب برة ، فقال عليه السلام : « تركي نفسها ، فسماها زينب » ^(٩) ، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ^(١٠) لأنه يقال : أثم بركة ؟ فيقال : لا (الرابع) العقيقة عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ذكر كان أو أنثى . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين ، وفي الجارية بشاة ^(١١) . وروى : أنه علق عن الحسن بشاة ^(١٢) وهذا رخصة في الاختصار على واحدة وقال صلى الله عليه وسلم : « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى » ^(١٣) ، ومن السنة أن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة ؛ فقد ورد فيه خبر : « أنه عليه السلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدق بزنة شعره فضة » ^(١٤) ،

= من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف . (١) حديث : الختان في اليوم السابع ، رواه الطبراني في الصغير من حديث جابر بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علق عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام ولإسناده ضعيف . واختلاف في إسناده فقيل : عبد الملك بن إبراهيم بن زهير عن أبيه عن جده . (٢) حديث « إذا سميتم فعبدوا » رواه الطبراني من حديث عبد الملك بن أبي زهير عن أبيه معاذ ، وصحح إسناده والبيهقي من حديث عائشة . (٣) حديث « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٤) حديث « سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي » متفق عليه من حديث جابر . وفي لفظ « سموا » . (٥) حديث « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي » رواه أحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة ، ولأبي داود والترمذي وحسنه وابن حبان من حديث جابر « من سمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي ، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي » . (٦) حديث « أن عيسى لأب له » أخرجه أبو عمر الثوفاني في كتاب معاشر الأهلين من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، ولأبي داود أن عمر ضرب ابنه تسمى أبا عيسى ، وأنكر على المنيرة بن شعبة تكتبه بأبي عيسى ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم كناناً ، وإسناده صحيح . (٧) حديث « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم » أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء . قال النووي : بإسناده جيد ، وقال البيهقي لأنه مرسل . (٨) حديث : بدل رسول الله صلى الله عليه وسلم اسم العاص بعبد الله ، رواه البيهقي من حديث عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبدي بسند صحيح . (٩) حديث قال صلى الله عليه وسلم لزَيْنَبَ وكان اسمها برة تركي نفسها فسماها زينب ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (١٠) حديث النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة ، أخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب إلا أنه جعل مكان بركة رباعاً ، وله من حديث جابر : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمي بعليل وبركة . الحديث (١١) حديث عائشة : أمر في الغلام بشاتين مكافئتين ، وفي الجارية بشاة ، أخرجه الترمذي وصححه (١٢) حديث : علق عن الحسن بشاة ، أخرجه الترمذي من حديث علي وقال : ليس إسناده بمتمثل ، ووصفه الحاكم ، لما أنه قال حسين . ورواه أبو داود من حديث ابن عباس لما أنه قال « كسبها » . (١٣) حديث « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى » أخرجه البخاري من حديث سلمان بن عاصم الضبي . (١٤) حديث : أمر فاطمة يوم سابع حسين أن تحلق شعره ويتصدق بزنة شعره فضة ، أخرجه الحاكم وصححه من حديث علي ، وهو عند الترمذي منقطع بلفظ « حسن » وقال : ليس إسناده بمتمثل ، ورواه أحمد من حديث أبي رافع .

قالت عائشة رضى الله عنهما : لا يكسر للعقيقة عظم . (الخامس) أن يخنكه بتمر أو حلاوة . وروى عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت : ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت في حجره ثم دعا بتمر ففضعها ثم نفل في فيه ^(١) ، فكان أول شيء دخل جوفه ربق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خنكه بتمر ثم دعاه وبرك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

الثاني عشر : في الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبها ، قال الله تعالى ﴿ فَإِنْ أَطَعْتُمْكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ أى لا تطلبوا حيلة للفراق وإن كرهها أبوه فليطلقها . قال ابن عمر رضى الله عنهما ، كان تحق امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ويأسرني بطلاقها ، فراجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن عمر طلق امرأتك ^(٢) ، فهذا يدل على أن حق الوالد مقدم ، ولكن والد يكرهها - لا لغرض فاسد - مثل عمر ، ومهما آذت زوجها وبذت على أهله فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه على المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدى ببذل مال ، يكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك لإجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) فرد ما أخذته فادونه لائق بالفداء . فان سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة ، قال صلى الله عليه وسلم : أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة ^(٣) ، وفي لفظ آخر ، فالجنة عليها حرام ، وفي لفظ آخر : أنه عليه السلام قال : المختلعات هن المناقات ^(٤) ، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور (الأول) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذى جامع فيه يدعى حرام وإن كان واقعاً ، لما فيه من تطويل العدة عليها ؛ فإن فعل ذلك فليراجعها : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء ^(٥) ، وإنما أمره بالصبر بعد الرجعة طهرين لئلا يكون مقصود الرجعة الطلاق فقط (الثاني) أن يقتصر على طلبة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، لأن الطلقة الواحدة بعد العدة تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة وتجديد النكاح إن أراد بعد العدة ، وإذا طلق ثلاثاً ربما ندم فيحتاج إلى أن يتزوجها محلل وإلى الصبر مدة ، وعقد المحلل منهي عنه ، ويكون هو الساعى فيه ثم يكون قلبه معلقاً بزوجة الغير وتطليقه - أعنى زوجة المحلل بعد أن زوج منه - ثم يورث ذلك تنقيراً من الزوجة ، وكل ذلك ثمرة الجمع ، وفي الواحدة

(١) حديث أسماء : ولدت عبد الله بن الزبير بقاء ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم دعا بتمر ففضعها ثم نفل في فيه ... الحديث : متفق عليه . (٢) حديث ابن عمر : كانت تحق امرأة أحبها وكان أبي يكرهها ، فأمرني بطلاقها ... الحديث . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذي : حسن صحيح . (٣) حديث : أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة « وفي لفظ » فالجنة عليها حرام « رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث ثوبان . (٤) حديث « المختلعات هن المناقات » رواه النسائي من حديث أبي هريرة وقال : لم يسمع الحسن من أبي هريرة . قال : ومع هذا لم أسمعه إلا من حديث أبي هريرة . قلت : رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف . (٥) حديث : طلق ابن عمر زوجته في الحيض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر « مره فليراجعها » ... الحديث « متفق عليه من حديث ابن عمر .

كفاية في المقصود من غير محذور ، ولست أقول بالجمع حرام ، لكنه مكروه بهذه المعاني ، وأعني بالكرهية تركه النظر لنفسه . (الثالث) أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطبيب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق . قال تعالى (ومتعوهن) وذلك واجب مهما لم يسم لها مهر في أصل النكاح . كان الحسن بن علي رضي الله عنهما مطلقا ومنكاحا ، ووجه ذات يوم بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال : قل لها اعتدا ، وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم ، ففعل ، فلما رجع إليه قال : ماذا فعلتا ؟ قال أما إحداها فنكست رأسها وتنكست ، وأما الأخرى فبكت وانتحبت وسمعتها تقول : متاع قليل من حبيب مفارق فأطرق الحسن وترحم لها وقال : لو كنت مراجعا امرأة بعد ما فارقتها لراجعتها ، ودخل الحسن ذات يوم على عبد الرحمن بن الحارث بن هشام - فقيه المدينة ورئيسها ولم يكن له بالمدينة نظير وبه ضربت المثل عائشة رضي الله عنها حيث قالت لولم أسر مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكون لي ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : فدخل عليه الحسن في بيته ، فعظمه عبد الرحمن وأجلسه في مجلسه وقال : ألا أرسلت إلى فكنت أجيئك ، فقال : الحاجة لنا . قال : وما هي ؟ قال جئتكم خاطبا ابنتك ، فأطرق عبد الرحمن ثم رفع رأسه وقال : والله ما على وجه الأرض أحد يمشي عليها أعز على منك ، ولكنك تعلم أن ابنتي بضعة مني يسوءني ماساها ويسرنى ماسرها ، وأنت مطلق ، فأخاف أن تطلقها ، وإن فعلت خشيت أن يتغير قلبي في محبتك وأكره أن يتغير قلبي عليك ، فأنت بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن شرطت أن لا تطلقها زوجتك ، فسكت الحسن وقام وخرج وقال بعض أهل بيته . سمعته وهو يمشي ويقول : ما أراد عبد الرحمن إلا أن يجعل ابنته طوقا في عنقي . وكان على رضي الله عنه يضجر من كثرة تطليقه ، فكان يعتذر منه على المنبر ويقول في خطبته ، إن حسنا مطلقا فلا تسكحوه ، حتى قام رجل من همدان فقال : والله يا أمير المؤمنين لنسكحنه ما شاء ، فإن أحب أمسك وإن شاء ترك ، فسر ذلك عليا وقال :

لو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وهذا تنبيه على أن من طعن في حبيبه من أهل وولد بنوع حياء فلا ينبغي أن يوافق عليه ، فهذه الموافقة قبيحة ، بل الأدب المخالفة ما أمكن ، فإن ذلك أسر لقلبه وأوفق لباطن ذاته ، والقصد من هذا بيان أن الطلاق مباح ، وقد وعد الله الغنى في الفراق والنكاح جميعا فقال (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال سبحانه وتعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) . (الرابع) أن لا يفشى سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم ^(١) . ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة ، فقليل له : ما الذي يرييك فيها ؟ فقال : العاقل : لا يهتك ستر امرأته ، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : مالي ولا امرأة غیری ، فهذا بيان ما على الزوج .

القسم الثاني من هذا الباب : النظر في حقوق الزوج عليها

والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رق ، فهي رقيقة له ، فعليها طاعة الزوج مطلقا في كل ما يطلب منها في نفسها عما لا معصية فيه ، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أيما امرأة

(١) حديث الوعيد في إفشاء سر المرأة . رواه مسلم من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة الرجل يفشى إلى امرأته وتفشى إليه ثم يفشى سرها » .

ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة ^(١) . . . وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في الأسفل ، فرض فأرسلت المرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن في النزول إلى أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أطيعي زوجك » فماتت فاستأمرت به فقال : « أطيعي زوجك » ، فدفن أبوها فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يخبرها أن الله قد غفر لأبيها بطاعتها لزوجها ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها ^(٣) » ، وأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام ؟ وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فقال : « حاملات والذات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يا رسول الله ؟ قال يكثرن اللعن ويكفرن العشير ^(٥) » ، يعني الزوج المعاشر . وفي خبر آخر : « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحران الذهب والزعفران ^(٦) » ، يعني الحلى ومصبغات الثياب : وقالت عائشة رضي الله عنها : أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إني فتاة أخطب فأكره التزويج ، فما حق الزوج على المرأة ؟ قال : لو كان من فرقه إلى قدمه صديد فلجسته ما أدت شكره ، قالت : أهلا أتزوج ؟ قال : « بلى تزوجي فإنه خير ^(٧) » ، قال ابن عباس : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن تزوج ، فالحق الزوج ؟ قال : إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بغير لا تمنعه ، ومن حقه أن لا يعطى شيئا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له ، ومن حقه أن لا تصوم نطوقا إلا بإذنه ، فإن فعلت جاءت وعطشت ولم يتقبل منها ، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب ^(٨) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ^(٩) » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قعر بيتها ، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها ، وصلاتها

(١) حديث « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه من حديث أم سلمة .

(٢) حديث : « كان رجل خرج إلى سفر وعهد إلى امرأته أن لا تنزل من العلو إلى السفلى وكان أبوها في السفلى فرض . . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف ، « لا أنه قال : غفر لأبيها . (٣) حديث « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها . . . الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة . (٤) حديث : « ذكر النساء فقال : حاملات والذات مرضعات . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمية دون قوله « مرضعات » وهي عند الطبراني في الصغير . (٥) حديث « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء . . . الحديث » متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٦) حديث « اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء ، فقلت : أين النساء ؟ قال : شغلهن الأحران الذهب والزعفران » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ، وقال « الحرير » بدل « الزعفران » ولمسلم من حديث عزة الأشجعية « ويل للنساء من الآخرين : الذهب والزعفران » وسنده ضعيف . (٧) حديث عائشة : « أتت فتاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا نبي الله ، إني فتاة أخطب ولني أكره التزويج فما حق الزوج على المرأة ؟ الحديث » أخرجه الحاكم وصححه إسناداه من حديث أبي هريرة دون قوله « بلى فتزوجي فإنه خير » ولم أره من حديث عائشة . (٨) حديث ابن عباس : « أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني امرأة أيم وأريد أن أتزوج فما حق الزوج ؟ الحديث » أخرجه البيهقي مقتصرًا على شطر الحديث ، ورواه بإتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف . (٩) حديث « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والولد لأبيه من عظم حقهما عليهما » أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة دون قوله « والولد لأبيه » فلم أره وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد ، وابن ماجه من حديث عائشة ، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى .

في مذهبها أفضل من صلاتها في بيتها ^(١) ، والمخدع : بيت في بيت ، وذلك للستر ، ولذلك قال عليه السلام « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » ^(٢) ، وقال أيضا « للمرأة عشر عورات ، فإذا تزوجت ستر الزوج عورة واحدة ؛ فإذا ماتت ستر القبر العشر عورات » ^(٣) ، لحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما : الصيانة والستر . والآخر : ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراما ، وهكذا كانت عادة النساء في السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإننا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . وهم رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره ، فقالوا لزوجته : لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقه ؟ فقالت : زوجي منذ عرفته عرفته أكالا وما عرفته رزاقا ، ولي رب رزاق : يذهب الأكال ويبقى الرزاق . وخطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها : والله مالي همة في النساء لشغلي بحالي ، فقالت : إني لأشغل بحالي منك ومالي شهوة ، ولكن ورثت مالا جزيلا من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقا إلى الله عز وجل ، فقال : حتى استأذن أستاذي ، فرجع إلى أبي سليمان الداراني ، قال : وكان ينهاني عن التزويج ويقول : ما تزوج أحد من أصحابنا إلا تغير ؛ فلما سمع كلامها قال : تزوج بها فإنها ولية الله ، هذا كلام الصديقين ، قال : فتزوجتها فكان في منزلنا كن من حص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل فضلا عن غسل بالأشنان . قال : وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات وتطيبني وتقول : اذهب بذشاطك وقوتك إلى أزواجك ، وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام رابعة العدوية بالبصرة . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرط في ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساد ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر ^(٤) ، ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روى أن أسماء بنت خزيمة الفزاري قالت لابنتها عند التزويج إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فكوني له أرضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له أمة يكن لك عبدا ، لا تلحن به فيقلاك ولا تباعدى عنه فينسأك إن دنا منك فأقرب منه ، وإن نأى فأبعدى عنه ، واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيبا ، ولا يسمع إلا حسنا ، ولا ينظر إلا جميلا . وقال رجل لزوجته :

خذى العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتى حين أغضب

(١) حديث « أقرب ما تكون المرأة من ربها إذا كانت في قعر بيتها فإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن الدار . ورواه البيهقي من حديث عائشة بلفظ « ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد » وإسناده حسن ؛ ولا ابن حبان من حديث أم حبيب عموه . (٢) حديث « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان » رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان من حديث ابن مسعود . (٣) حديث « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزوج عورة ... الحديث » أخرجه الحافظ أبو بكر محمد بن عمر الجمالي في تاريخ الطالبين من حديث علي بن سعيد ضعيف والمطهراني في الصغير من حديث ابن عباس « للمرأة ستران . قيل : وماهما ؟ قال : الزوج والقبر » . (٤) حديث « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام ... الحديث » أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي من حديث ابن عمر في حديث فيه « ولا تعطى من بيته شيئا إلا بإذنه ؛ فإن فعلت ذلك كان له الأجر وعليها الوزر » ولأبي داود من حديث سعد : قالت امرأة يارسول الله ، إنا ناكل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا ، فما يحل لنا من أموالهم ؟ قال « الرطب تأكلته وتمدينه » وصحح الدارقطني في الملل أن سعداً هذا رجل من الأنصار ليس ابن أبي وقاص ، واختاره ابن القطان ، وسلم من حديث عائشة « إذا أتفت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنعمت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

ولا تقربني نكر الدف مرة فإنك لا تدري كيف المغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فإني رأيت الحب في القلب والآذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لمفرها ، لا يكثُر صعودها وإطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلمها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محتززة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرف إلى صديق بعلمها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، همها صلاح شأنها وتدير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلمها على الباب وليس البعل حاضرا لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيره على نفسها وبعلمها ، وتكون قاذرة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، متعظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين في الجنة : امرأة آمت من زوجها وحبت نفسها على بناتها حتى ثابوا أو ماتوا ^(١) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « حرم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبل ، غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة فأقول : ما هذه تبادرنى ؟ فيقال لى : يا محمد ، هذه امرأة كانت حسناء جميلة وكان عندها يتامى لها ، فصبرت عليهن حتى بلغ أمرهن الذى بلغ فشكر الله لها ذلك ^(٢) » ومن آدابها : أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبه ، فقد روى أن الأصمعى قال : دخلت البادية فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس وجها تحت رجل من أقبح الناس وجها ، فقلت لها : يا هذه أترضين لنفسك أن تكونى تحت مثله ؟ فقالت : يا هذا اسكت فقد أسأت فى قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه ، أو لعل أسأت فيما بينى وبين خالقي فجعله عقوبتى ، أفلا أَرْضى بما رضى الله لى فأسكتنى . وقال الأصمعى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى محتضبة ويدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا ؟ فقالت :

ولله منى جانب لا أضيعه واللهم منى والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تترين له . ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانتباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذى زوجها بحال . روى عن معاذ ابن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخیل يوشك أن يفارقك إلينا ^(٣) » ، وما يحب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحب عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة فى هذه المدة ، قالت زينب بنت أبى سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان بن حرب ،

(١) حديث « أنا وامرأة سفهاء الخدين كهاتين .. الحديث » رواه أبو داود من حديث أبى مالك الأشجعى بسند ضعيف .

(٢) حديث « حرم الله على كل آدمي الجنة أن يدخل قبل غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرنى إلى باب الجنة » رواه

الحرايطى فى مكارم الأخلاق من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٣) حديث معاذ « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه .. الحديث » رواه الترمذى وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضيا ، ثم قالت : والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً^(١) ، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة ، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة . ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها ، فقد روى عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلث فرسخ حتى أرسل إلى أبو بكر بجمارية فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى^(٢) . ولقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ومعه أصحابه والنوى على رأسى فقال صلى الله عليه وسلم : أخ أخ ، لينبيخ ناقته ويحملني خلفه فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيره وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قد استحييت ، فجئت الزبير فحكيت له ما جرى ، فقال : والله لحملك النوى على رأسك أشد على من ركوبك معه .

تم كتاب آداب النكاح بحمد الله ومنه وصلى الله على كل عبد مصطفى

كتاب آداب الكسب والمعاش

وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد موحد انمحق في توحيد ما سوى الواحد الحق وتلاشر . ونمجده تمجيد من يصرح بأن كل شيء ما سوى الله باطل ولا يتحاشى . وأن كل من في السموات والأرض ان يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ولا فراشا . ونشكره إذ رفع السماء لعباده سقفا مبنيًا ، ومهد الأرض بساطا لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباسا والنهار معاشا . لينتشروا في ابتغاء فضله ويذتبعوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشا ، ونصلى على رسوله الذى يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا . وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا في نصرة دينه تشمرا وانسكاشا . وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب . جعل الآخرة دار الثواب والعقاب ، والدنيا دار التجل والاضطراب . والتشمر والاكتساب . وليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش ، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها . والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الفائزين ، والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذى شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . وإن ينال رتبة

(١) حديث أم حبيبة : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً ، متفق عليه . (٢) حديث أسماء : تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرس وناضح ، فكنت أعلف فرسه ... الحديث ، متفق عليه .

الاقتصاد من لم يلزم في طلب المعيشة منهج السداد ، ولن ينهض من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ، مالم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة وهما نحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتسابات وسننها ونشرحها في خمسة أبواب (الباب الأول) فضل الكسب والحث عليه (الباب الثاني) في علم صحيح البيع والشراء والمعاملات (الباب الثالث) في بيان العدل في المعاملة (الباب الرابع) في بيان الإحسان فيها (الباب الخامس) في شفق التاجر على نفسه ودينه .

الباب الأول : في فضل الكسب والحث عليه

أما من الكتاب فقوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ فذكره في معرض الامتنان . وقال تعالى ﴿ وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾ فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها . وقال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وأما الأخبار ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة ^(١) » وقال عليه الصلاة والسلام « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله وتعطفًا على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر ^(٣) » ، وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ؛ فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكشفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ! وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكشفهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس ، ويغض العبد يتعلم العلم يتخذ مهنة ^(٥) » ، وفي الخبر « إن الله تعالى يحب المؤمن المحترف ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم (أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور ^(٧))

كتاب آداب الكسب : الباب الأول في فضل الكسب والحث عليه

(١) حديث « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة في طلب المعيشة » تقدم في النسكاج . (٢) حديث « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث أبي سعيد . قال الترمذي : حسن ، وقال الحاكم : لأنه من مراسيل الحسن ، ولابن ماجه والحاكم نحوه من حديث ابن عمر . (٣) حديث « من طلب الدنيا حلالاً وتعففاً عن المسئلة وسعيًا على عياله . . . الحديث » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب ، وأبو نعيم في الحلية . والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٤) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ، لو كان جلده في سبيل الله . . . الحديث « أخرجه الطبراني في معاجم الثلاثة من حديث كعب بن عجرة بسند ضعيف . (٥) حديث « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس . . . الحديث » لم أجده هكذا ، وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي « إن الله يحب أن يرى عبده تآبياً في طلب الحلال » وفيه محمد بن سهل العطار قال الدارقطني : يضع الحديث . (٦) حديث « إن الله يحب المؤمن المحترف » أخرجه الطبراني وابن عدى وضفاه من حديث ابن عمر . (٧) حديث « أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور » أخرجه أحمد من حديث رافع بن خديج ، قيل : يا رسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل عمل مبرور . ورواه البزار والحاكم من رواية سعيد بن عمير عن عمه . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، قال : وذكر يحيى بن معين أن عم سعيد : البراء بن عازب . ورواه البيهقي من رواية سعيد بن عمير مرسلًا ، وقال : هذا هو المحفوظ ، وخطأ قول من قال عن عمه ، وحكام عن البخاري ، ورواه أحمد والحاكم من رواية جميع ابن عمير عن خاله أبي بردة ، وجميع ضعيف والله أعلم .

وفي خبر آخر (أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح ^(١)) وقال عليه الصلاة والسلام (عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق ^(٢)) وروى أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبد . قال : من يعولك ؟ قال أخى . قال : أخوك أعبد منك . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (إني لا أعلم شيئاً يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا أمرتكم به ، ولمن لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويقربكم من النار إلا نهيتكم عنه ، وإن الروح الأمين نفث في روعي : إن نكساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) أمر بالإجمال في الطلب ولم يقل اتركوا الطلب ، ثم قال في آخره (ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله تعالى ، فإن الله لا ينال ما عنده بمعصيته ^(٣)) وقال صلى الله عليه وسلم (الأسواق موائد الله تعالى ، فمن أتاها أصاب منها ^(٤)) وقال عليه السلام (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه ^(٥)) وقال (من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ^(٦)) . وأما الآثار ، فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يا بني ، استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث : استخفاف الناس به . وقال عمر رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وكان زيد بن مسلفة يغرس في أرضه فقال له عمر رضى الله عنه : أصبت ، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم ، كما قال صاحبكم أحبيحة :

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الإخوان ذو المال

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لافي أمر دنياه ولا في أمر آخرته . وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق ، أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة ؟ قال التاجر الصدوق أحب إلى لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجابهده ، وخالفه الحسن البصري في هذا . وقال عمر رضى الله عنه : مامن موضع يأتي الموت فيه أحب إلى من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري . وقال الهيثم : ربما يبلغني عن الرجل يقع في فأذكر استغنائى عنه فيهن ذلك على . وقال أيوب : كسب فيه شيء أحب إلى من سؤال الناس . وجاءت ريح عاصفة في البحر ، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم رحمه الله وكان معهم فيها : أما ترى هذه الشدة ؟ فقال : ماهذه الشدة ، وإنما الشدة الحاجة إلى الناس . وقال أيوب قال لي أبو قلابة : الزم السوق فإن الغنى من العافية ، يعنى الغنى عن الناس . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته

(١) حديث « أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح » رواه أحمد من حديث أبي هريرة « خير الكسب كسب العامل إذا نصح » وإسناده حسن . (٢) حديث « عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق » رواه إبراهيم الحرفى في غريب الحديث من حديث نعيم بن عبد الرحمن « تسعة أعشار الرزق في التجارة » ورجاله ثقات ، وذهب هذا قال فيه ابن مده : ذكر في الصحابة ولا يصح . وقال أبو حاتم الرازى وابن حبان : انه تابعى فالحديث مرسل . (٣) حديث « إني لا أعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا نهيتكم عنه فإن الروح الأمين نفث في روعي أن نكساً لن تموت حتى تستوفى رزقها ... الحديث » رواه ابن أبي الدنيا في الفتناء ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهداً لحديث أبي حميد وجابر وصحبهما على شرط الشيخين ، وهما مختصران ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : لأنه منقطع . (٤) حديث « الأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها » رواه في الطيوريات من قول الحسن البصري ، ولم أجده مرفوعاً . (٥) حديث « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) حديث « من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » رواه الترمذى من حديث أبي كبشة الأمارى « ولا تفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر » أو كلمة نحوها ، وقال : حسن صحيح .

أو مسجده وقال لأعمل شيئاً حتى يأتيني رزق؟ فقال أحد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله جعل رزقك تحت ظل رحمتي»^(١)، وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: «تغدو وخاصاً وتروح بطاناً»^(٢)، فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم والقدوة بهم. وقال أبو قلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد. وروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب؛ فقال له: يا أبا أسحق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك؟ فقال: دعني عن هذا يا أبا عمرو، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك؟ ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ينادى مناد يوم القيامة: أين بغضاء الله في أرضه؟ فيقوم سؤال المساجد، فهذه مذمة الشرع للسؤال والانسكال على كفاية الأغيار. ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة.

فإن قلت: فقد قال صلى الله عليه وسلم: «ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين»، ولكن أوحى إلى أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»^(٣)، وقيل لسلمان الفارسي: أوصنا؛ فقال: من استطاع منكم أن يموت حاجاً أو غزياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل، ولا يموت تاجراً ولا خائناً فالجواب: أن وجه الجمع بين هذه الأخبار تفصيل الأحوال؛ فنقول: لسنا نقول التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء، ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية أو الثروة أو الزيادة على الكفاية؛ فإن طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره لا يصرف إلى الخيرات والصدقات فهي مدمرة، لأنه إقبال على الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة، فإن كان مع ذلك ظالمًا خائناً فهو ظلم وفسق، وهذا ما أراد سلمان بقوله: لا تمت تاجراً ولا خائناً، وأراد بالتاجر: طالب الزيادة، فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففاً عن السؤال أفضل، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال وكان يعطى عن غير سؤال فالكسب أفضل، لأنه إنما يعطى لأنه سائل بلسان حاله ومناد بين الناس بفقره، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة، بل من الاشتغال بالعبادات البدنية وترك الكسب أفضل لأربعة: عابد بالعبادات البدنية؛ أو رجل له سير بالباطن وعمل بالقلب في علوم الأحوال والمكاشفات، أو عالم مشغول بتربية علم الظاهر مما ينتفع الناس به في دينهم كالمفتي والمفسر والمحدث وأمثالهم، أو رجل مشغول بمصالح المسلمين وقد تكفل بأمرهم كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء أو العلماء. فأقبلهم على ما هم فيه أفضل من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين ولم يوحى إليه أن كن من التاجرين لأنه كان جامعاً لهذه المعاني الأربعة إلى زيادات لا يحيط بها الوصف، ولهذا أشار الصحابة على أبي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لمساوئ الخلافة إذ كان ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح: ورأى ذلك أولى ثم لما توفي أوصى برده إلى بيت المال، ولكنه رآه في الابتداء أولى، ول هؤلاء الأربعة حالتان أخريان: (أحدهما)

(١) حديث «إن الله جعل رزقك تحت ظل رحمتي» رواه أحمد من حديث ابن عمر «جعل رزقك تحت ظل رحمتي» وإسناده صحيح. (٢) حديث: ذكر الطير فقال «تغدو وخاصاً وتروح بطاناً» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذي: حسن صحيح. (٣) حديث «ما أوحى إلى أن اجمع المال وكن من التاجرين» ولكن أوحى إلى أن سبّح بحمد ربك وكن من الساجدين» رواه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند فيه ابن.

أن تكون كفايتهم عند ترك المكسب من أيدي الناس وما يتصدق به عليهم من زكاة أو صدقة من غير حاجة إلى سؤال ، فترك الكسب والاشتغال بمأهم فيه أولى ، إذ فيه إغاثة الناس على الخيرات وقبول منهم لما هو حق عليهم وأفضل لهم . (الحالة الثانية) الحاجة إلى السؤال ، وهذا في محل النظر ، والتشديدات التي رويها في السؤال وذمه تدل ظاهرا على أن التعفف عن السؤال أولى وإطلاق القول فيه من غير ملاحظة الأحوال والأشخاص عسير ، بل هو موكل إلى اجتهد العبد ونظره لنفسه بأن يقابل ما يلقى في السؤال من المذلة وهتك المروعة والحاجة إلى التثقل والإلحاح بما يحصل من اشتغاله بالعلم والعمل من الفائدة له ولغيره ، فرب شخص تكثرت فائدة الخلق وفائدته في اشتغاله بالعلم أو العمل ، ويهون عليه بأدنى تعريض في السؤال تحصيل الكفاية ، وربما يكون بالعكس ، وربما يتقابل المطلوب والحذور ، فينبغي أن يستفتي المريد فيه قلبه وإن أفتاه المفتون ، فإن الفتاوى لا تحيط بتفاصيل الصور ودقائق الأحوال ولقد كان في السلف من له ثلثمائة وستون صديقا ينزل على كل واحد منهم ليلة ومنهم من له ثلاثون ، وكانوا يشتغلون بالعبادة لعلهم بأن المتكلفين بهم يتقلدون مئة من قبولهم لمبراتهم ، فكان قبولهم لمبراتهم خيرا مضافا لهم إلى عباداتهم ، فينبغي أن يدقق النظر في هذه الأمور فإن أجر الآخذ كأجر المعطى مهما كان الآخذ يستعين به على الدين والمعطى يعطيه عن طيب قلب . ومن اطلع على هذه المعاني أمكنه أن يتعرف حال نفسه ويستوضح من قلبه ما هو الأفضل له بالإضافة إلى حاله ووقته ، فهذه فضيلة الكسب ، وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعا لأربعة أمور : الصحة ، والعدل ، والإحسان ، والشفقة على الدين . ونحن نعتقد في كل واحد بابا ، ونبتدئ بذكر أسباب الصحة في الباب الثاني .

الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع والربا والسلم والإجارة والقراض والشركة

وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب ، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه ، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب ، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتيقها ، وما شذ عنه من الفروع المشككة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل ، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال ، ولو قال لا أقدم العلم ولكنني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أعلم وأستفتي ، فيقال له : وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جل مفسدات العقود ، فإنه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة ، فلا بد له من هذا القدر من علم التجارة ليميز له المباح عن المحظور ، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح : ولذلك روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول : لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه ، وإلا أكل الربا شاء أم أبى ، وعلم العقود كثير ولكن هذه العقود الستة لا تنفك المكاسب عنها : وهي البيع والربا والسلم والإجارة والشركة والقراض ، فلنشرح شروطها :

العقد الأول : البيع

وقد أحله الله تعالى وله ثلاثة أركان : العاقد . والمعقود عليه ، واللفظ .

الركن الأول : العاقد ، ينبغى للتاجر أن لا يعامل بالبيع أربعة : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والأعمى ، لأن الصبي غير مكلف ، وكذا المجنون ، ويبيعهما باطل ، فلا يصح بيع الصبي وإن أذن له فيه الولي عند الشافعي ، وما أخذه منهما مضمون عليه لهما

وماسله في المعاملة لإيهما فضاخ في أيديهما فهو المضيع له . وأما العبد العاقل فلا يصح بيعه وشراؤه إلا باذن سيده فعلى البقال والخباز والقصاب وغيرهم أن لا يعاملوا العبيد مالم تأذن لهم السادة في معاملتهم ، وذلك بأن يسمعه صريحا أو ينشر في البلد أنه مأذون له في الشراء لسيدته وفي البيع له ، فيقول على الاستفاضة أو على قول عدل يخبره بذلك ، فإن عامله بغير إذن السيد فعقده باطل ، وما أخذه منه مضمون عليه لسيدته ، وماتسله إن ضاع في يد العبد لا يتعلق برقبته ولا يضمنه سيده ، بل ليس له إلا المطالبة إذا عتق . وأما الأعمى فإنه يبيع ويشترى ما لا يرى فلا يصح ذلك ، فليأمره بأن يوكل وكيلا بصيرا ليشتري له أو يبيع ، فيصح توكله ويصح بيعه وكيله ، فإن عامله التاجر بنفسه فالمعاملة فاسدة ، وما أخذه منه مضمون عليه بقيمته . وما سلبه إليه أيضا مضمون له بقيمته . وأما الكافر فتجوز معاملته لكن لا يباع منه المصحف ولا العبد المسلم ، ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب ، فإن فعل ففي معاملات مردودة وهو عاص بها ربه . وأما الجندي من الأتراك والتركيانية والعرب والأكراد والسراق والخنوة وأكلة الربا والظلمة وكل من أكثر ماله حرام ، فلا ينبغي أن يتملك مما في أيديهم شيئا لأجل أنها حرام إلا إذا عرف شيئا بعينه أنه حلال ، وسيأتى تفصيل ذلك في كتاب الحلال والحرام .

الركن الثاني في العقود عليه : وهو المال المقصود نقله من أحد العاقلين إلى الآخر ثمنا كان أو مئنا فيعتبر فيه ستة شروط . (الأول) أن لا يكون نجسا في عينه فلا يصح بيع كلب وخنزير ، ولا بيع زبل وعذرة ، ولا بيع العاج والأواني المتخذة منه ، فإن العظم ينجس بالموت ، ولا يظهر الفيل بالدج ، ولا يظهر عظمه بالتذكية ، ولا يجوز بيع الخمر ولا بيع الودك النجس المستخرج من الحيوانات التي لا تؤكل ، وإن كان يصلح للاستصباح أو طلاء السفن ، ولا بأس ببيع الدهن الطاهر في عينه الذي نجس بوقوع نجاسة أو موت فأرة فيه ، فإنه يجوز الانتفاع به في غير الأكل ، وهو في عينه ليس بنجس ، وكذلك لا أرى بأسا ببيع بزر القز ، فإنه أصل حيوان ينتفع به ، وتشبيهه بالبيض وهو أصل حيوان أولى من تشبيهه بالروث . ويجوز بيع فأرة المسك ويقضى بطهارتها إذا انفصلت من الظبية في حالة الحياة . (الثاني) أن يكون منتفعا به فلا يجوز بيع الحشرات ولا الفأرة ولا الحية ، ولا التفات إلى انتفاع المشعبد بالحية ، وكذا لا التفات إلى انتفاع أصحاب الخلق بإخراجها من السلة وعرضها على الناس ، ويجوز بيع الهرة والنحل وبيع الفهد والأسد وما يصلح لصيد أو ينتفع بجلده ، ويجوز بيع الفيل لأجل الحمل ، ويجوز بيع الطوطى وهي الببغاء والطاوس والطيور المليحة الصور وإن كانت لا تؤكل ، فإن التفرج بأصواتها والنظر إليها غرض مقصود مباح ، وإنما الكلب هو الذي لا يجوز أن يقتنى إعجابا بصورته لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ^(١) . ولا يجوز بيع العود والصنج والمزامير والملاهي فإنه لا منفعة لها شرعا ، وكذا بيع الصور المصنوعة من الطين كالحيوانات التي تباع في الأعياد للعب الصبيان فإن كسرها واجب شرعا ، وصور الأشجار متسامح بها ، وأما الثياب والأطباق وعليها صور الحيوانات فيصح بيعها وكذا الستور ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « اتخذي منها نمارق ^(٢) » ولا يجوز استعمالها منصوبة ، ويجوز موضوعة ، وإذا جاز الانتفاع من وجه صح البيع لذلك الوجه . (الثالث) أن يكون المتصرف فيه مملوكا للعاقدة أو مأذونا من جهة المالك ، ولا يجوز أن يشتري من غير المالك انتظارا للإذن من المالك ، بل لو رضى بعد ذلك وجب استئناف العقد ، ولا ينبغي أن يشتري من الزوجة مال

الباب الثاني : في علم الكسب

(١) حديث : النهى عن اقتناء الكلب : متفق عليه من حديث ابن عمر « من اقتنى كلبا إلا كلب ماشية أو ضاريا نفس من عمله كل يوم قيراطان » . (٢) حديث « اتخذي منها نمارق » يقوله لعائشة : متفق عليه من حديثها .

الزوج ولا من الزوج مال الزوجة ، ولا من الوالد مال الولد ولا من الولد مال الوالد . اعتمادا على أنه لو عرف لرضى ، فإنه إذا لم يكن الرضا متقدماً لم يصح البيع ، وأمثال ذلك مما يجري في الأسواق ؛ فواجب على العبد المتدين أن يحترز منه . (الرابع) أن يكون المعقود عليه مقدورا على تسليمه شرعا وحسا ؛ فما لا يقدر على تسليمه حسا لا يصح بيعه كالآبق والسملك في الماء والجذين في البطن وعصب الفحل ؛ وكذلك بيع الصوف على ظهر الحيوان ، واللبن في الضرع لا يجوز ، فإنه يتعذر تسليمه لاختلاط غير المبيع بالمبيع ، والمعجز عن تسليمه شرعا كالمرهون والموقوف ، والمستولدة فلا يصح بيعها أيضا ، وكذا بيع الأم دون الولد إذا كان الولد صغيرا ، وكذا بيع الولد دون الأم ؛ لأن تسليمه تفريق بينهما وحرام ، فلا يصح التفريق بينهما بالمبيع . (الخامس) أن يكون المبيع معلوم العين والقدر والوصف ، أما العلم بالعين فبأن يشير إليه بعينه ، فلو قال : بعثك شاة من هذا القطيع أى شاة أردت ، أو ثوبا من هذه الثياب التى بين يديك ، أو ذراعا من هذا الكرباس ، وخذه من أى جانب شئت ، أو عشرة أذرع من هذه الأرض ، وخذه من أى طرف شئت ، فالبيع باطل ، وكل ذلك مما يعتاده المتساهلون في الدين إلا أن يبيع شائعا ، مثل أن يبيع نصف الشيء أو عشره ، فإن ذلك جائز . وأما العلم بالقدر فأنما يحصل بالكيل أو الوزن أو النظر إليه ، فلو قال بعثك هذا الثوب بما باع به فلان ثوبه وهما لا يدريان ذلك فهو باطل ، ولو قال : بعثك بزنة هذه الصنجة فهو باطل ، إذا لم تكن الصنجة معلومة ، ولو قال : بعثك هذه الصبرة من الخنطة فهو باطل : أو قال : بعثك بهذه الصرة من الدراهم أو بهذه القطعة من الذهب وهو يراها . صح البيع وكان تخمينه بالنظر كافيا في معرفة المقدار . وأما العلم بالوصف فيحصل بالرؤية في الأعيان ، ولا يصح بيع الغائب إلا إذا سبقت رؤيته مدة لا يغلب التغير فيها ، والوصف لا يقوم مقام العيان . هذا أحد المذهبين ، ولا يجوز بيع الثوب في المنسج اعتمادا على الرقوم ، ولا بيع الخنطة في سنبليها ، ويحوز بيع الأرز في قشرته التى يدخرفها ، وكذا بيع الجوز واللوز في القشرة السفلى ، ولا يجوز في القشرتين ، ويجوز بيع البافلاء الرطب في قشرته للحاجة ، ويتسامح ببيع الفقاع لجريان عادة الأولين به ولكن نجعله إباحة بعوض ، فإن اشتراه لبيعهه فالقياس بطلانه لأنه ليس مستترا ستر خلقه ، ولا يبعد أن يتسامح به ، إذ في إخراجهم لإفساده كالرمان وما يستر بستر خلق موه . (السادس) أن يكون المبيع مقبوضا إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة ، وهذا شرط خاص ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع ما لم يقبض ^(١) ويستوى فيه العقار والمنقول ، فكل ما اشتراه أو باعه قبل القبض فبيعه باطل ، وقبض المنقول بالنقل ، وقبض العقار بالتخلية ، وقبض ما ابتاعه بشرط الكيل لا يتم إلا بأن يكتاله ، وأما بيع الميراث والوصية والوديعة وما لم يكن الملك حاصلا فيه بمعاوضة ، فهو جائز قبل القبض .

الركن الثالث : لفظ العقد ، فلا بد من جريان إيجاب وقبول متصل به بلفظ دال على المقصود ، مفهوم إما صريح أو كناية ، فلو قال : أعطيتك هذا بذاك ، بدل قوله : بعثك ، فقال : قبلته ، جاز مهما قصدا به البيع ، لأنه قد يتحمل الإعارة إذا كان في ثوبين أو دابتين ، والنية تدفع الاحتمال ، والصريح أقطع للخصومة ، ولكن الكناية تفيد الملك أيضا والحل فيما يختاره ، ولا ينبغي أن يقرر بالبيع شرطا على خلاف مقتضى العقدة ، فلو شرط أن يزيد شيئا آخر ، وأن يحمل المبيع إلى داره ، أو اشتري الحطب بشرط النقل إلى داره : كل ذلك فاسد إلا إذا أفرد استجاره على النقل بأجرة معلومة منفردة عن الشراء للمنقول ، ومهما لم يجر بينهما إلا المعاطاة بالفعل دون التلطف باللسان لم يتعقد البيع

(١) حديث النهى عن بيع ما لم يقبض : متفق عليه من حديث ابن عباس .

عند الشافعي أصلاً ، وانعقد عند أبي حنيفة إن كان في المحقرات ثم ضبط المحقرات عسير ؛ فإن رد الأمر إلى العادات فقد جاوز الناس المحقرات في المعاطاة ، إذ يتقدم الدلال إلى البزاز يأخذ منه ثوبا ديباجا قيمته عشرة دنانير مثلاً ويحمله إلى المشتري ويعود إليه بأنه ارتضاه ، فيقول له ؛ خذ عشرة ، فيأخذ من صاحبه العشرة ويحملها ويسلمها إلى البزاز ، فيأخذها ويتصرف فيها ، ومشتري الثوب يقطعه ولم يجر بينهما إيجاب وقبول أصلاً ، وكذلك يجتمع المجهزون على حانوت البيع ، فيعرض متاعاً قيمته مائة دينار مثلاً فيمن يزد ، فيقول أحدهم ؛ هذا على بتسعين ، ويقول الآخر ؛ هذا على بخمسة وتسعين ، ويقول الآخر ؛ هذا بمائة ، فيقال له زن ، فيزن ويسلم ويأخذ المتاع من غير إيجاب وقبول ؛ فقد استمرت به العادات ، وهذه من المعضلات التي ليست تقبل العلاج ، إذ الاحتمالات ثلاثة ؛ إما فتح باب المعاطاة مطلقاً في الحقيق والنفيس - وهو محال ، إذ فيه نقل الملك من غير لفظ دال عليه ، وقد أحل الله البيع ، والبيع اسم للإيجاب والقبول ، ولم يجر ولم ينطلق اسم البيع على مجرد فعل بتسليم وتسلم ، فبإذا يحكم بانتقال الملك من الجانيين ، لاسيما في الجوارى والعبيد والعقارات والدواب النفيسة وما يكثر التنازع فيه ؛ إذ للمسلم أن يرجع ويقول ؛ قد ندمت وما بعته ، إذ لم يصدر مني إلا مجرد تسليم ، وذلك ليس ببيع . (الاحتمال الثاني) أن نسد الباب بالسكينة كما قال الشافعي رحمه الله من بطلان العقد ، وفيه إشكال من وجهين ، أحدهما ؛ أنه يشبه أن يكون ذلك في المحقرات معتاداً في زمن الصحابة ؛ ولو كانوا يتكفون الإيجاب والقبول من البقال والخباز والقصاب لثقل عليهم فعله ، ولنقل ذلك نقلاً منتشراً ، ولما كان يشتهر وقت الإعراض بالسكينة عن تلك العادة ؛ فإن الأعصار في مثل هذا تتفاوت . والثاني ؛ أن الناس الآن قد انهمكوا فيه فلا يشتري الإنسان شيئاً من الأطعمة وغيرها إلى ويعلم أن البائع قد ملكه بالمعاطاة ، فأى فائدة في تلفظه بالعقد إذا كان الأمر كذلك ، (الاحتمال الثالث) أن يفصل بين المحقرات وغيرها كما قاله أبو حنيفة رحمه الله ، وعند ذلك يتعسر الضبط في المحقرات ، ويشكل وجه نقل الملك من غير لفظ يدل عليه ، وقد ذهب ابن سريج إلى تخريج قول للشافعي رحمه الله على وفقه وهو أقرب الاحتمالات إلا الاعتدال ، فلا بأس لو ملنا إليه لمسيس الحاجات ، ولعموم ذلك بين الخلق ، ولما يغلب على الظن بأن ذلك كان معتاداً في الأعصار الأولى . فأما الجواب عن الإشكاليين ؛ فهو أن نقول ؛ أما الضبط في الفصل بين المحقرات وغيرها فليس علينا تكلفه بالتقدير ، فإن ذلك غير ممكن ، بل له طرفان واضحان إذ لا ينبغي أن شراء البقل وقليل من الفواكه والخنز واللحم من المحدود من المحقرات التي لا يمتد فيها إلا المعاطاة ، وطالب الإيجاب والقبول فيه يعد مستقصياً ويستبد تكليفه لذلك ويستقل وينسب إلى أنه يقيم الوزن لأمر حقير ولى وجهه هذا طرف الحقارة ، والطرف الثاني الدواب والعبيد والعقارات والثياب النفيسة فذلك مما لا يستبعد تكلف الإيجاب والقبول فيها ؟ وبينهما أوساط متشابهة يشك فيها في محل الشبهة ؛ فحق ذو الدين أن يميل فيها إلى الاحتياط وجميع ضوابط الشرع فيما يعلم بالعادة كذلك ينقسم إلى أطراف واضحة وأوساط مشككة . وأما الثاني - وهو طلب سبب لنقل الملك ، فهو أن يجعل الفعل باليد أخذاً وتسليماً سبباً لعينه بل لدلالته ، وهذا الفعل قد دل على مقصود البيع دلالة مستمرة في العادة ، وانضم إليه لمسيس الحاجة وعادة الأولين وأطراف جميع العادات بقبول الهدايا من غير إيجاب وقبول مع التصرف فيها ، وأي فرق بين أن يكون فيه عوض أو لا يكون ، إذ الملك لا بد من نقله في الهبة أيضاً ، إلا أن العادة السالفة لم تفرق في الهدايا بين الحقيق والنفيس ، بل كان طلب الإيجاب والقبول يستتبع فيه كيف كان ، وفي المبيع لم يستتبع في غير المحقرات هذا ما نراه أعدل الاحتمالات وحق الورع المتدين أن لا بدع الإيجاب والقبول للخروج عن شبهة الخلاف ، فلا ينبغي أن يمتنع من ذلك لأجل

أن البائع قد تملكه بغير إيجاب وقبول ؛ فإنّ ذلك لا يعرف تحقيقاً ؛ فربما اشتراه بقبول وإيجاب ، فإن كان حاضراً عند شرائه أو أقتر البائع به فيمتنع منه وليشتر من غيره ، فإن كان الشيء محقراً وهو إليه محتاج فليستلفظ بالإيجاب والقبول فإنه يستفيد به قطع الخصومة في المستقبل معه ، إذ الرجوع من اللفظ الصريح غير ممكن ، ومن الفعل ممكن .

فإن قلت : فإن أمكن هذا فيما يشتره ، فكيف يفعل إذا حضر في ضيافة أو على مائدة وهو يعلم أن أصحابها يكتفون بالمعاطاة في البيع والشراء أو سمع منهم ذلك أو رآه ؟ أوجب عليه الامتناع من الأكل ! فأقول : يجب عليه الامتناع من الشراء إذا كان ذلك الشيء الذي اشتروه مقداراً نفيساً ولم يكن من المحقرات . وأما الأكل ، فلا يجب الامتناع منه ، فإنني أقول ؛ إن تردنا في جعل الفعل دلالة على نقل الملك ، فلا ينبغي أن لانجعله دلالة على الإباحة ، فإن أمر الإباحة أوسع ، وأمر نقل الملك أضيق ، فكل مطعم جرى فيه بيع معاطاة فتسلم البائع إذن في الأكل يعلم ذلك بقرينة الحال ، كما إذن الحامى في دخول الحمام ، والإذن في الإطعام لمن يريده المشتري فينزل منزلة مالو قال : أبحث لك أن تأكل هذا الطعام ، أو تطعم من أردت ؛ فإنه يحل له ولو صرح وقال : كل هذا الطعام ثم أغرم لي عوضه ، حل الأكل ويلزمه الضمان بعد الأكل ، هذا قياس الفقه عندى ، ولكنه بعد المعاطاة آكل ملكه ومثلها له فعليه الضمان وذلك في ذمته ، والثمن الذي سلمه إن كان مثل قيمته فقد ظفر المستحق بمثل حقه ، فله أن يملكه مهما عجز عن مطالبة من عليه ، وإن كان قادراً على مطالبته فإنه لا يملك ما ظفر به من ملكه ، لأنه ربما لا يرضى بتلك العين أن يصرفها إلى دينه فعليه المراجعة . وأما ههنا فقد عرف رضاه بقرينة الحال عند التسليم ، فلا يبعد أن يجعل الفعل دلالة على الرضاء بأن يستوفى دينه مما يسلم إليه فيأخذه بحقه ، لكن على كل الأحوال جانب البائع أغرض لأن ما أخذه قد يريد المالك ليتصرف فيه ولا يمكنه التملك إلا إذا أنلف عين طعامه في يد المشتري ، ثم ربما يفتقر إلى استئشاف قصد التملك ، ثم يكون قد تملك بمجرد رضا استفادته من الفعل دون القول . وأما جانب المشتري للطعام وهو لا يريد إلا الأكل فهين ، فإنّ ذلك يباح بالإباحة المفهومة من قرينة الحال ، ولكن ربما يلزم من مشاورته أن الضيف يضمن ما أنلفه ، وإنما يسقط الضمان عنه إذا تملك البائع ما أخذه من المشتري فيسقط ، فيكون كالمقاضي دينه والمتحمل عنه ، فهذا ما نراه في قاعدة المعاطاة على غموضها ، والعلم عند الله وهذه احتمالات وظنون رددناها ، ولا يمكن بناء الفتوى إلا على هذه الظنون ، وأما الورع فإنه ينبغي أن يستفتى قلبه ويتق مواضع الشبه .

العقد الثانى : عقد الربا

وقد حرّمه الله تعالى وشدّد الأمر فيه ، ويجب الاحتراز منه على الصياقة المتعاملين على النقدين ، وعلى المتعاملين على الأطعمة ، إذ لا ربا إلا في نقد أو في طعام . وعلى الصيرفى أن يحترز من النسيئة والفضل . أما النسيئة فأن لا يبيع شيئاً من جواهر النقدين بشيء من جواهر النقدين إلا يداً بيد : وهو أن يجرى التقابض في المجلس ، وهذا احتراز من النسيئة ، وتسليم الصيارفة الذهب إلى دار الضرب وشراء الدنانير المضروبة حرام من حيث النساء ، ومن حيث إن الغالب أن يجرى فيه تفاضل ، إذ لا يرد المضروب بمثل وزنه . وأما الفضل ، فيحترز منه في ثلاثة أمور : في بيع المكسر بالصحيح ، فلا تجوز المعاملة فيهما إلا مع المماثلة . وفي بيع الجيد بالردىء ، فلا ينبغي أن يشتري رديئاً بجيد دونه في الوزن ، أو يبيع رديئاً بجيد فوقيه في الوزن ، أعنى إذا باع الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، فإن اختلف الجنس فلا حرج في الفضل . والثالث في المركبات من الذهب والفضة كالذنانير المخلوطة من الذهب والفضة : إن كان

مقدرا الذهب مجهولا لم تصح المعاملة عليها أصلا إلا إذا كان ذلك نقدا جاريا في البلد فإنما نرخص في المعاملة عليه إذا لم يقابل بالنقد ، وكذا الدراهم المغشوشة بالنحاس إن لم تكن رائجة في البلد لم تصح المعاملة عليها ، لأن المقصود منها النقرة وهي مجهولة ، وإن كان نقدا رائجا في البلد رخصنا في المعاملة لأجل الحاجة وخروج النقرة عن أن يقصد استخراجها ، ولكن لا يقابل بالنقرة أصلا ، وكذلك كل حلي مركب من ذهب وفضة فلا يجوز شراؤه لا بالذهب ولا بالفضة ، بل ينبغي أن يشتري بمتاع آخر إن كان قدر الذهب منه معلوما ، إلا إذا كان بموها بالذهب تمويها لا يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار ، فيجوز بيعها بثمنها من النقرة بما أريد من غير النقرة ، وكذلك لا يجوز للصيرفي أن يشتري قلادة فيها خرز وذهب بذهب ، ولا أن يبيعه ، بل بالفضة إذا بيد إن لم يكن فيها فضة ولا يجوز شراء ثوب منسوج بذهب يحصل منه ذهب مقصود عند العرض على النار بذهب . ويجوز بالفضة غيرها وأما المتعاملون على الأطعمة فعليهم التقابض في المجلس ، اختلف جنس الطعام المبيع والمشتري أو لم يختلف ؛ فإن اتحد الجنس فعليهم التقابض ومراعاة المماثلة ، والمعتاد في هذا معاملة القصاب بأن يسلم إليه الغنم ويشترى بها اللحم نقدا أو نسيئة فهو حرام ، ومعاملة الخباز بأن يسلم إليه الخنطة ويشترى بها الخبز نسيئة أو نقدا فهو حرام ، ومعاملة العصار بأن يسلم إليه البزر والسمسم والزيتون ليأخذ منه الأدهان فهو حرام ، وكذا اللبان يعطى اللبن ليؤخذ منه الجبن والسمن والزبد وسائر أجزاء اللبن ، فهو أيضا حرام ، ولا يباع الطعام بغير جنسه من الطعام إلا نقدا ، وبجنسه إلا نقدا ومتائلا ، وكل ما يتخذ من الشيء المطعوم فلا يجوز أن يباع به متائلا ولا متفاضلا ، فلا يباع بالخنطة دقيق وخبز وسويق ، ولا بالعنب والتمر دبس وخل وعصير ، ولا باللبن سمن وزبد ومخيض ومصل وجبن ، والمماثلة لانقيد إذا لم يكن الطعام في حال كمال الادخار ، فلا يباع الرطب بالرطب والعنب بالعنب متفاضلا ومتائلا ، فهذه جمل مقنعة في تعريف البيع والتنبيه على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتى فيها إذا تشكك والتبس عليه شيء منها ، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال ، واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري .

العقد الثالث : السلم

وليراع التاجر فيه عشرة شروط : (الأول) أن يكون رأس المال معلوما على مثله حتى لو تعذر تسليم المسلم فيه أمكن الرجوع إلى قيمة رأس المال : فإن أسلم كفا من الدراهم جزافا في كثر حنطة لم يصح في أحد القولين . (الثاني) أن يسلم رأس المال في مجلس العقد قبل التفرق فلو تفرقا قبل القبض انفسخ السلم . (الثالث) أن يكون المسلم فيه مما يمكن تعريف أوصافه كالحبوب والحيوانات والمعادن والقطن والصوف والإبريسم والألبان واللحوم ومتاع العطارين وأشباهها ، ولا يجوز في المعجنات والمركبات وما تختلف أجزاؤه كالقسي المنوعة والنبل المعمول والخفاف والنعال المختلفة أجزاؤها وصنعتها وجلود الحيوانات . ويجوز السلم في الخبز . وما يتطرق إليه من اختلاف قدر الملح والماء بكثرة الطبخ وقلته يعفى عنه ويتسامح فيه . (الرابع) أن يستقصى وصف هذه الأمور القابلة للوصف . حتى لا يبق وصف تتفاوت به القيمة فتفاوتا لا يتغابن بمثله الناس إلا ذكره . فإن ذلك الوصف هو القائم مقام الرؤية في البيع . (الخامس) أن يجعل الاجل معلوما إن كان مؤجلا فلا يؤجل إلى الحصاد ولا إلى إدراك الثمار بل إلى الأشهر والأيام فإن الإدراك قد يتقدم وقد يتأخر . (السادس) أن يكون المسلم فيه مما يقدر على تسليمه وقت المحل ويؤمن فيه وجوده غالبا . فلا ينبغي أن يسلم في العنب إلى أجل لا يدرك فيه . وكذا سائر الفواكه ، فإن كان الغالب وجوده وجاء المحل وعجز عن التسليم بسبب آفة . فله أن يمهله إن شاء أو يفسخ ويرجع في رأس المال

إن شاء . (السابع) أن يذكر مكان التسليم فيما يختلف الغرض به كي لا يثير ذلك نزاعاً (الثامن) أن لا يعلقه بمعين فيقول : من حنطة هذا الزرع ، أو ثمرة هذا البستان ، فإن ذلك يبطل كونه ديناً . نعم لو أضاف إلى ثمرة بلد أو قرية كبيرة ، لم يضر ذلك . (التاسع) أن لا يسلم في شيء نفيس عزيز الوجود مثل درة موصوفة يعز وجود مثلها ، أو جارية حسناء معها ولدها ، أو غير ذلك مما لا يقدر عليه غالباً . (العاشر) أن لا يسلم في طعام مهما كان رأس المال طعاماً سواء كان من جنسه أو لم يكن ، ولا يسلم في نقد إذا كان رأس المال نقداً ، وقد ذكرنا هذا في الربا .

العقد الرابع : الإجارة

وله ركنان : الأجرة ، والمنفعة . فأما العاقد واللفظ فيعتبر فيه ما ذكرناه في البيع والأجرة كائناً ، فينبغي أن يكون معلوماً وموصوفاً بكل ما شرطناه في المبيع إن كان عيناً ، فإن كان ديناً فينبغي أن يكون معلوم الصفة والقدر ، وليحتز فيه عن أمور جرت العادة بها ، وذلك مثل كراء الدار بعارتها فذلك باطل ، إذ قدر العمارة مجهول . ولو قدر دراهم وشرط على المكتري أن يصرفها إلى العمارة لم يحز ، لأن عمله في الصرف إلى العمارة مجهول . ومنها استئجار السلاح على أن يأخذ الجلد بعد السلخ ، واستئجار حمال الجيف بجلد الجيفة ، واستئجار الطحان بالنخالة أو بعض الدقيق فهو باطل ، وكذلك كل ما يتوقف حصوله وانفصاله على عمل الأجير ، فلا يجوز أن يجعل أجرة . ومنها : أن يقدر في إجارة الدور والحوانيت مبلغ الأجر ، فلو قال لكل شهر دينار ولم يقدر أشهر الإجارة كانت المدة مجهولة ولم تتعقد الإجارة .

الركن الثاني : المنفعة المقصودة بالإجارة وهي العمل وحده إن كان عمل مباح معلوم يلحق العامل فيه كلفة ويتطوع به الغير عن الغير ، فيجوز الاستئجار عليه ؛ وجملة فروع الباب تدرج تحت هذه الرابطة ، وسكنا لا نطول بشرحها فقد طولنا القول فيها في الفقهيات ، وإنما نشير إلى ما تعم به البلوى ، فليراع في العمل المستأجر عليه خمسة أمور : (الأول) أن يكون متقوماً ، بأن يكون فيه كلفة وتعب . فلو استأجر طعاماً ليزين به الدكان . أو أشجاراً ليحفف عليها الثياب ؛ أو دراهم ليزين بها الدكان . لم يحز ، فإن هذه المنافع تجري مجرى حبة سمسم وحبة بر من الأعيان وذلك لا يجوز بيعه ، وهي كالنظر في مرآة الغير ، والشرب من بئر ، والاستئجار بجداره ، والافتباس من ناره ولهذا لو استأجر يباعاً على أن يتكلم بكلمة يروج بها سلعته لم يحز . وما يأخذه البائعون عوضاً عن حشمتهم وجاههم وقبول قولهم في ترويج السلع فهو حرام ، إذ ليس يصدر منهم إلا كلفة لا تعب فيها ولا قيمة لها ، وإنما يحل لهم ذلك إذ تعبوا بكثرة التردد أو بكثرة الكلام في تأليف أمر المعاملة . ثم لا يستحقون إلا أجرة المثل ، فأما ما تواطأ عليه الباعة فهو ظلم وليس مأخوذاً بالحق . (الثاني) أن لا تتضمن الإجارة استيفاء عين مقصودة فلا يجوز إجارة الكرم لارتفاعه . ولا إجارة المواشي للبهنا . ولا إجارة البساتين لثمارها . ويجوز استئجار المرضعة ويكون اللبن تابعا : لأن أفراد غير ممكن . وكذا يتسامح بحجر الورق وخيط الخياط . لأنهما لا يقصدان على حيالهما . (الثالث) أن يكون العمل مقدوراً على تسليمه حسناً وشرعاً . فلا يصح استئجار الضعيف على عمل لا يقدر عليه . ولا استئجار الأخرس على التعاليم ونحوه وما يحرم فعله فالشرع يمنع من تسليمه . كالأستئجار على قلع سن سليمة أو قطع عضو لا يرخص الشرع في قطعه ؛ أو استئجار الحائض على كذب المسجد . أو المعلم على تعليم السحر أو الفحش . أو استئجار زوجة الغير على الإرضاع دون إذن زوجها . أو استئجار المصور على تصوير الحيوانات . أو استئجار الصائغ على صيغة الأواني من الذهب والفضة فكل ذلك باطل . (الرابع) أن لا يكون العمل واجباً على الأجير . أو لا يكون بحيث لا تجرى

النيابة فيه عن المستأجر . فلا يجوز أخذ الأجرة على الجهاد ولا سائر العبادات التي لا نيابة فيها . إذ لا يقع ذلك عن المستأجر . ويجوز عن الحج وغسل الميت وحفر القبور ودفن الموق وحمل الجنازة . وفي أخذ الأجرة على إمامة صلاة التراويح وعلى الأذان وعلى التصدي للتدريس وإقراء القرآن خلاف . أما الاستئجار على تعليم مسألة بعينها أو تعليم سورة بعينها لشخص معين فصحيح . (الخامس) أن يكون العمل والمنفعة معلوما . فالخياط يعرف عمله بالثوب . والمعلم يعرف عمله بتعيين السورة ومقدارها . وحمل الدواب يعرف بمقدار المحمول وبمقدار المسافة . وكل ما يثير خصومة في العادة فلا يجوز إهماله . وتفصيل ذلك يطول . وإنما ذكرنا هذا القدر ليعرف به جليات الأحكام ويتفطن به لمواقع الإشكال . فيسأل . فإن الاستقصاء شأن المفتي لا شأن العوام .

العقد الخامس : القراض

وليراع فيه ثلاثة أركان :

الركن الأول : رأس المال ، وشرطه أن يكون نقدا معلوما مسلما إلى العامل ؛ فلا يجوز القراض على الفلوس ولا على العروض ؛ فإن التجارة تضيق فيه . ولا يجوز على صرة من الدراهم ، لأن قدر الربح لا يتبين فيه ، ولو شرط مالك اليد لنفسه لم يجوز ، لأن فيه تضيق طريق التجارة .

الركن الثاني : الربح ، وليكن معلوما بالجزئية بأن يشترط له الثلث أو النصف أو ما شاء ، فلو قال : على أن لك من الربح مائة والباقي لي ، لم يجوز إذ ربما لا يكون الربح أكثر من مائة فلا يجوز تقديره بمقدار معين بل بمقدار شائع .

الثالث : العمل الذي على العامل ، وشرطه أن يكون تجارة غير مضيقه عليه بتعيين وتأقيت ، فلو شرط أن يشتري بالمال ماشية ليطالب نسلها فيتقاسمان النسل ، أو حنطة فيخبزها ويتقاسمان الربح ، لم يصح ، لأن القراض مأذون فيه في التجارة وهو البيع والشراء وما يقع من ضرورتهما فقط ، وهذا حرف - أعنى الخبز ورعاية المواشي ، ولو ضيق عليه وشرط أن لا يشتري إلا من فلان أو لا يتجر إلا في الحز الأحمر ، أو شرط ما يضيق باب التجارة فسد العقد ، ثم مهما انعقد فالعامل وكيل فيتصرف بالعهدة تصرف الوكلاء ، ومهما أراد المالك الفسخ فله ذلك ، فإذا فسخ في حالة والمال كله فيها نقد لم يخف وجه القسمة وإن كان عروضاً ولا ربح فيه رد عليه ولم يكن للمالك تكليفه أن يرده إلى النقد ، لأن العقد قد انفسخ وهو لم يلتزم شيئا ، وإن قال العامل : ابيعه ، وأبى المالك ، فالتبوع رأى المالك ، إلا إذا وجد العامل زبونا يظهر بسببه ربح على رأس المال ، ومهما كان ربح فعلى العامل بيع مقدار رأس المال بجنس رأس المال لا بنقد آخر ، حتى يتميز الفاضل ربحا فيشتركان فيه ، وليس عليهم بيع الفاضل على رأس المال ، ومهما كان رأس السنة فعليهم تعرف قيمة المال لأجل الزكاة : فإذا كان قد ظهر من الربح شيء فالأفيس أن زكاة نصيب العامل على العامل وأنه يملك الربح بالظهور ، وليس للعامل أن يسافر بمال القراض دون إذن المالك ، فإن فعل صححت تصرفاته ، ولكنه إذا فعل ضمن الأعيان والأثمان جميعا ، لأن عدوانه بالنقل يتعدى إلى ثمن المنقول ، وإن سافر بالإذن جاز ونفقة النقل وحفظ المال على مال القراض ، كما أن نفقة الوزن والكيل والحمل الذي لا يعتاد التاجر مثله على رأس المال ، فأما نشر الثوب وطيه والعمال اليسير المعتاد فليس له أن يبذل عليه أجرة . وعلى العامل نفقته وسكنه في البلد ، وليس عليه أجرة الحانوت . ومهما تجرد في السفر لمال القراض فنفقته في السفر على مال القراض ، فإذا رجع فعليه أن يرد بقايا آلات السفر من المطهرة والسفرة وغيرها .

العقد السادس : الشركة

وهي أربعة أنواع : ثلاثة منها باطلة : (الأول) شركة المفاوضة : وهو أن يقولوا : تفاوضنا لشترك في كل مالنا وعلينا ومالاها ممتازان ، فهي باطلة ، (الثاني) شركة الأبدان : وهو أن يتشارطا الاشتراك في أجرة العمل فهي باطلة . (الثالث) شركة الوجوه : وهو أن يكون لأحدهما حشمة وقول مقبول فيكون من جهته التسهيل ومن جهة غيره العمل ، فهذا أيضا باطل . وإنما الصحيح العقد الرابع المسمى شركة العنان : وهو أن يختلط مالاها بحيث يتعذر التمييز بينهما إلا بقسمه ، وبأذن كل واحد منهما لصاحبه في التصرف ، ثم حكهما توزيع الربح والخسران على قدر المسالين ، ولا يجوز أن يغير ذلك بالشرط ، ثم بالعزل يمتنع التصرف عن المعزول ، وبالقسمة يفصل الملك عن الملك ، والصحيح أنه يجوز عقد الشركة على العروض المشتراة ، ولا يشترط النقد ، بخلاف القراض .

فهذا القدر من علم الفقه يجب تعلمه على كل مكتسب ، ولإلا اقتحم الحرام من حيث لا يدري . وأما معاملة القصاب والخباز والبقال فلا يستغنى عنها المكتسب وغير المكتسب ، والخلل فيها من ثلاثة وجوه : من إهمال شروط البيع ، أو إهمال شروط السلم ، أو الاقتصار على المعاطاة ، إذ العادات جارية بكتبه الخطوط على هؤلاء بحاجات كل يوم ، ثم المحاسبة في كل مدة ، ثم التقويم بحسب ما يقع عليه التراضي ، وذلك مما نرى القضاء بإباحته للحاجة ، ويحمل تسليمهم على إباحة تناول مع انتظار العوض فيحل أكله ، ولكن يجب الضمان بأكله وتلزم قيمته يوم الإلتلاف ، فتجتمع في الذمة تلك القيم ، فإذا وقع التراضي على مقدار ما فينبغي أن يلتزم منهم الإبراء المطلق لا تبقى عليه عهدة إن تطرق إليه تفاوت في التقويم ، فهذا ما تجب القناعة به ، فإن تكليف وزن الثمن لسكل حاجة من الحوائج في كل يوم وكل ساعة تكليف شطط ، وكذا تكليف الإيجاب والقبول وتقدير ثمن كل قدر يسير منه فيه عسر ، وإذا كثر كل نوع سهل تقويمه ، والله الموفق .

الباب الثالث : في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجرى على وجه يحكم المفتي بصحتها وانعقادها ولكنها تشتمل على ظلم يتعترض به المعامل اسخط الله تعالى ، إذ ليس كل نهى يقتضى فساد العقد ، وهذا الظلم يعنى به ما استضر به الغير ، وهو منقسم إلى ما يعم ضرره وإلى ما يخص المعامل .

القسم الأول : فيما يعم ضرره . وهو أنواع :

النوع الأول : الاحتكار فبائع الطعام يتدخر الطعام ينتظر به غلاء الأسعار ، وهو ظلم عام ، وصاحبه مذموم في الشرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره ^(١) » ، وروى ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه ^(٢) » ، وقيل : فكأنما قتل الناس جميعا ، وعن علي رضي الله عنه : من احتكر الطعام أربعين يوما

الباب الثالث : في بيان العدل

(١) حديث « من احتكر الطعام أربعين يوما ثم تصدق به لم تكن صدقته كفارة لاحتكاره » رواه أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس من حديث علي ، والخطيب في التاريخ من حديث أنس بن مالك بن عبد بن حنيفة . (٢) حديث ابن عمر « من احتكر الطعام أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » رواه أحمد والحاكم بسند جيد ، وقال ابن عدي : ليس بحفظ من حديث ابن عمر .

قسا قلبه . وعنه أيضا أنه أحرق طعام محتكر بالنار . وروى في فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » ، وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة ^(١) » ، وقيل في قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ إن الاحتكار من الظلم وداخل تحته في الوعيد . وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهر سفينة حنطة إلى البصرة وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد ؛ فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك ؛ فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين فقد جنيت علينا جذابة ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافا لآعلى ولألى . واعلم أن النهي مطلق ويتعلق النظر به في الوقت والجنس ، أما المجلس فيطرد النهي في أجناس الأوقات ، أما ما ليس بقوت ولا هو معين على القوت كالأدوية والعقاقير والزعفران وأمثاله ، فلا يتعدى النهي إليه وإن كان مطعوما . وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يستد مسدا يغني عن القوت في بعض الأحوال وإن كان لا يمكن المداومة عليه ، فهذا في محل النظر ؛ فمن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ وأما الوقت فيحتمل أيضا طرد النهي في جميع الأوقات ، وعليه تدل الحكاية التي ذكرنا في الطعام الذي صادف بالبصرة سعة في السعر ، ويحتمل أن يخص بوقت قلة الأطعمة وحاجة الناس إليه حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما ؛ فأما إذا اتسعت الأطعمة وكثرت واستغنى الناس عنها ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة فانتظر صاحب الطعام ذلك ولم ينتظر قحطا ؛ فليس في هذا إضرار . وإذا كان الزمان زمان قحط كان في ادخار العسل والسمن والشيرج وأمثالها إضرار ؛ فينبغي أن يقضى بتحريمه ويعول في نفي التحريم وإثباته على الضرر فإنه مفهوم قطعا من تخصيص الطعام ، وإذا لم يكن ضرر فلا يخلو احتكار الأوقات عن كراهية ، فإنه ينتظر مبادئ الضرر وهوار ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر محذور كانتظار عين الضرر ولكنه دونه ، وانتظار عين الضرر أيضا هودون الإضرار ، فبقد درجات الإضرار تتفاوت درجات الكراهية والتحريم . وبالجملة التجارة في الأوقات بما لا يستحب لانه طلب ربح ، والأوقات أصول خلقت قواما ، والربح من المزايا ، فينبغي أن يطلب الربح فيما خلق من جملة المزايا التي لا ضرورة للخلق إليها ولذلك أوصى بعض التابعين رجلا وقال : لاتسلم ولدك في بيعتين ولا في صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الأكفان فإنه يتمنى الغلاء وموت الناس . والصنعتان . أن يكون جزارا فإنها صنعة تقسى القلب ، أو صواغا فإنه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

النوع الثاني : ترويح الزيف من الدراهم في أثناء النقد فهو ظلم ، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف ، وإن عرف فسيروجه على غيره ، فكذلك الثالث والرابع ، ولا يزال يتردد في الأيدي ويمع الضرر ويتسع الفساد ويكون وزر الشكل ووباله راجعا عليه ، فإنه هو الذي فتح هذا الباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ^(٢) » . وقال بعضهم : إنفاق درهم

(١) حديث « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » وفي لفظ آخر « فكأنما أعتق رقبة » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف : « ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » وللحاكم من حديث الشيخ بن المغيرة « من الجالب إلى سوقا كالجاهد في سبيل الله » وهو مرسل (٢) حديث « من سن سنة سيئة فعمل بها من بعده كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء » أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله .

زيف أشد من سرقة مائة درهم ، لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين وسنة سيئة يعمل بها من بعده فيكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة ، أو مائتي سنة .. إلى أن يفنى ذلك الدرهم ، ويكون عليه مافسد من أموال الناس بسنته ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة أو أكثر يعذب بها في قبره ويستل عنها إلى آخر انقراضها ، وقال تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه ، وفي مثله قوله تعالى ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وإنما آخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره . وليعلم أن في الزيف خمسة أمور : (الأول) أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا يمتد إليه اليد ، وإياه أن يروجه في بيع آخر . وإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز . (الثاني) أنه يجب على التاجر تعلم النقد لا ليستقصى لنفسه ولكن لئلا يسلم إلى مسلم زيفا وهو لا يدري فيكون آثما بتقصيره في تعلم ذلك العلم . فكل علم عمل به يتم نصيح المسلمين . فيجب تحصيله ومثل هذا كان السلف يتعلمون علامات النقد نظراً لدينهم لا لدنياهم . (الثالث) أنه إن سلم وعرف المعامل أنه زيف لم يخرج عن الإثم . لأنه ليس يأخذه إلا ليروجه على غيره ولا يخبره ، ولو لم يعزم على ذلك لكان لا يرغب في أخذه أصلا . فإنما يتخلص من إثم الضرر الذى يخص معامله فقط . (الرابع) أن يأخذ الزيف ليعمل بقوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء »^(١) ، فهو داخل في بركة هذا الدعاء إن عزم على طرحه في بئر . وإن كان عازما على أن يروجه في معاملة فهذا شر روجه الشيطان عليه في معرض الخير فلا يدخل تحت من تساهل في الاقتضاء . (الخامس) أن الزيف نعى به مالا نقرة فيه أصلا بل هو بموه . أو مالا ذهب فيه أغنى في الدناير . أما مافيه نقرة فإن كان مخلوطا بالنحاس وهو نقد البلد فقد اختلف العلماء في المعاملة عليه ، وجل رأينا الرخصة فيه إذا كان ذلك نقد البلد ، سواء علم مقدار النقرة أو لم يعلم . وإن لم يكن هو نقد البلد لم يجز إلا إذا علم قدر النقرة ، فإن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر به معامله ، وأن لا يعامل به إلا من لا يستحل الترويع في جملة النقد بطريق التليس ، فأما من يستحل ذلك فتسليمه إليه تسليط له على الفساد ، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خمرآ ، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه ، وسلوك طريق الحق بمثل هذا في التجارة أشد من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها ، ولذلك قال بعضهم : التاجر الصدوق أفضل عند الله من المتعبد ، وقد كان السلف يحتاطون في مثل ذلك حتى روى عن بعض الغزاة في سبيل الله أنه قال : حملت على فرسى لأقتل عِلجا ، فقصر في فرسى فرجعت ثم دنا مني العليج فحملت ثمانية فقصر فرسى فرجعت ، ثم حملت الثالثة فنفر مني فرسى وكنت لا أعتاد ذلك منه ، فرجعت حزينا وجلست منكسر الرأس منكسر القلب لما فاتني من العليج وما ظهر لي من خلق الفرس ، فوضعت رأسي على عمود الفسقاط وفرسى قائم فرأيت في النوم كأن الفرس يخاطبني ويقول لي : بالله عليك أردت أن تأخذ على العليج ثلاث مرات وأنت بالأمس اشتريت لي علفا ودفعت في ثمنه درهما زائفا لا يكون هذا أبدا . قال : فانتبهت فزعا فذهبت إلى العلاف وأبدلت ذلك الدرهم ، فهذا مثال ما يعمر ضرره وليقس عليه أمثاله .

القسم الثاني : ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم ، وإنما العدل لا يضر بأخيه المسلم ، والضابط السكلى فيه : أن لا يجب

(١) حديث « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » أخرجه البخارى من حديث جابر .

لأخيه إلا ما يجب لنفسه ؛ فكل مالو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به ؛ بل يذبحى أن يستوى عنده درهمه ودرهم غيره . قال بعضهم : من باع أخاه شيئا بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوائق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، هذه جملة .

فأما تفصيله ففي أربعة أمور . أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا أصلا ، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا ، وأن لا يكتم من سعرها مالو عرفه المعامل لا تمتنع عنه :

أما الأول ، فهو ترك الثناء ؛ فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب ، فإن قبل المشتري ذلك فهو تليس وظلم مع كونه كذبا ، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة ، إذ الكذب الذي لا يروج قد لا يقدح في ظاهر المروءة ، وإن أثنى على السلعة بما فيها فهو هذيان وتكلم بكلام لا يعنيه . وهو محاسب على كل كلمة تصدر منه أنه لم تكلم بها . قال الله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ إلا أن يثنى على السلعة بما فيها بما لا يعرفه المشتري مالم يذكره ، كما يصنفه من خفي أخلاق العبيد والجواري والدواب ؛ فلا بأس بذكر القدر الموجود منه من غير مبالغة وإطناب ، وليكن قصده منه أن يعرفه أخوه المسلم فيرغب فيه وتتقضى بسببه حاجته ، ولا ينبغي أن يحلف عليه ألبته ؛ فإنه إن كان كاذبا فقد جاء باليمين الغموس وهى من الكبائر التى تذر الديار بلاقع ، وإن كان صادقا فقد جعل الله تعالى عرضه لآيمانه ، وقد أساء فيه ، إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة ، وفى الخبر « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد » (١) وفى الخبر « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة محقة للبركة » (٢) وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . عتل مستكبر ، ومنان بعطيته ، ومنفق سلعته بيمينه » (٣) فإذا كان الثناء على السلعة مع الصدق مكروها من حيث إنه فضول لا يزيد فى الرزق فلا يخفى التغليظ فى أمر اليمين ؛ وقد روى عن يونس بن عبيد وكان خزازا : أنه طلب منه خز للشراء ، فأخرج غلامه سقط الحزن ونشره ونظر إليه وقال : اللهم ارزقنا الجنة ، فقال لغلامه : رده إلى موضعه ولم يبعه ، وخاف أن يكون ذلك تعريضا بالثناء على السلعة ، فقل هؤلاء الذين اتجروا فى الدنيا ولم يضيّعوا دينهم فى تجاراتهم ، بل علموا أن ربح الآخرة أولى بالطلب من ربح الدنيا .

الثانى : أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها ولا يكتم منها شيئا ، فذلك واجب ، فإن أخفاه كان ظالما غاشا والغش حرام ، وكان تاركا للنصح فى المعاملة والنصح واجب ، ومهما أظهر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشا ، وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخلف أو النعل وأمثاله ويدل على تحريم الغش ما روى : أنه مر عليه الصلاة والسلام برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال : « ما هذا ؟ » قال : أصابته السماء ، فقال « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا » (٤) ، ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريرا على الإسلام ذهب

(١) حديث « ويل للتاجر من بلى والله ولا والله ، وويل للصانع من غد وبعد غد » لم آت له على أصل ، وذكر صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك نحوه . (٢) حديث « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة محقة للبركة » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « الحلف » وهو عند البيهقي بلفظ المصنف . (٣) حديث أبي هريرة « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عائل مستكبر ، ومنان بعطيته . ومتفق سلعته بيمينه » أخرجه مسلم من حديثه إلا أنه لم يذكر فيها إلا : عائل مستكبر ، ولها « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم : رجل حلف على سلعة لقد أعطى فيها أكثر مما أعطى وهو كاذب ... الحديث » ولمسلم من حديث أبي ذر : « المنان ، والمسبل لمزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . (٤) حديث : مر برجل يبيع طعاما فأعجبه فأدخل يده فرأى بللا فقال « ما هذا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

لينصرف لجذب ثوبه واشترط عليه النصح لكل مسلم ^(١) ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصبر عيوبها ثم خيره وقال : إن شئت نخذ وإن شئت فأترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم تنفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وكان وائلة بن الأسقع واقفا فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم ، ففعل وائلة وقد ذهب الرجل بالناقة ، فسمى وراءه وجعل يصيح به : يا هذا ، اشتريتها للحم أو للظهر ؟ فقال : بل للظهر ، فقال : إن بخفها نقبا قد رأيته ، ولما لا تتابع السير ، فعاد فردها فنقصها البائع مائة درهم وقال لوائلة : رحلك الله أفسدت على بيعي ، فقال : إنا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم ، وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا أن يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبينه » ^(٢) . فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه ، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات ، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم ، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق ، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس ، لأن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون ، وإن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين : (أحدهما) أن تليسه العيوب وتروى بوجه السلع لا يزيد في رزقه ، بل يحقه ويذهب ببركته ، وما يجمعه من مفرقات التليسات يهلكه الله دفعة واحدة ، فقد حكى أن واحدا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه ، فجاء سيل فغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة التي صبيناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم « السبعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما ، وإذا كتما وكذبا نزع بركة بيعهما » ^(٣) ، وفي الحديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » ^(٤) ، فإذا لا يزيد مال من خيانة ، كما لا ينقص من صدقة ، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث . ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببا لسعادة الإنسان في الدنيا والدين ، والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها حتى تكون سببا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض أحواله ، فيعرف معنى قولنا : إن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه (والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده لئتم له النصح ويتيسر عليه : أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا ، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستهين العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، والخير كله في سلامة الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم » ^(٥) ، وفي لفظ آخر « ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم بسلامة دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا : لا إله إلا الله ، قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين ، وفي حديث آخر « من قال لا إله إلا الله غلصا دخل الجنة . قيل . وما إخلاصه ؟ قال . أن يحزه عما حرم الله » ^(٦) ، وقال أيضا . ما آمن بالقرآن من استحله محارمه ، ومن علم

(١) حديث جرير بن عبد الله : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . متفق عليه . (٢) حديث وائلة « لا يحل لأحد يبيع بيعا إلا يبين آفته ، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبينه » أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي . (٣) حديث « البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما » الحديث « متفق عليه من حديث حكيم بن حزام . (٤) حديث « يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا ، فإذا تخاونا رفع يده عنهما » رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقاله : صحيح الإسناد . (٥) حديث « لا تزال لاله إلا الله تدفع عن الخلق سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على آخرتهم ... الحديث » رواه أبو داود والبيهقي في الشعب من حديث أس بن سند ضعيف . وفي رواية للترمذي الحكيم في النوادر « حتى إذا نزلوا بالمثل الذي لا يبالون ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم . » الحديث « وللعبراني في الأوسط نحوه من حديث عائشة ، وهو ضعيف أيضا . (٦) حديث « من قال لا إله إلا الله غلصا دخل الجنة » قيل : وما إخلاصها ؟ قال « تهجر ما حرم الله » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم في معجمه الكبير والأوسط بإسناد حسن .

أن هذه الأمور قاذحة في إيمانه ، وأن إيمانه رأس ماله في الآخرة لم يضع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له بسبب ربح ينتفع به أياما معدودة . وعن بعض التابعين أنه قال : لودخلت الجامع ومع وهو غاص بأهله وقيل لي : من خير هؤلاء ؟ قلت : من أنصحهم لهم ؟ فإذا قالوا : هذا ، قلت : هو خيرهم . ولو قيل لي : من شرهم ؟ قلت : من أغشهم لهم ؟ فإذا قيل : هذا ، قلت : هو شرهم . والغش حرام في البيوع والصنائع جميعا ، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لوعامله به غيره لما ارتضاء لنفسه ، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها ، ثم بين عيوبها إن كان فيها عيب ، فبذلك يتخلص . وسأل رجل حذاء بن سالم فقال : كيف لي أن أسلم في بيع النعال ؟ فقال : اجعل الوجهين سواء ، ولا تفضل البني على الأخرى ، وجود الحشو ، وليكن شيئا واحدا تاما ، وقارب بين الخرز ، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى . ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين ، قال : لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه ، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع .

* فإن قلت : فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع ؟ فأقول : ليس كذلك ، إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير ، فيبارك الله له فيه ، ولا يحتاج إلى تلبيس ، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير ، وليس يسلم الكثير إلا بتلبيس ، فمن تعود هذا لم يشتري المعيب ، فإن وقع في يده معيب نادرا فليذكره وليقنع بقيمته . باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري : أبرأ إليك من عيب فيها إنما تقلب العلف برجلها . وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري : إنما تنخمت مرة عندنا دما ، فهكذا كانت سيرة أهل الدين ، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة .

الثالث : ألا يكتم في المقدار شيئا وذلك بتعديل الميزان والاحتياط فيه وفي الكيل ، فينبغي أن يكيل كما يكتال قال الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا اكسأوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى ، وينقص إذا أخذ ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور ، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان ، فإن من استقصى حقه بكاله يوشك أن يتعده . وكان بعضهم يقول : لا أشتري الويل من الله بحبة ، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة ، وإذا أعطى زاد حبة ، وكان يقول : ويل لمن باع بحبة جنة عرض السموات والأرض ؛ وما أخسر من باع طوبى بويل . وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها ، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدى حقوقهم ، ولذلك لما اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قال للوزان لما كان يزن ثمنه « زن وأرجح »^(١) ، ونظر فضيل إلى ابنه وهو يغسل دينارا يريد أن يصرفه ويزيل تكحيله وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال : يا بني فعلك هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة . وقال بعض السلف : عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو ، يزن ويحلف بالنهار ، وينام بالليل . وقال سليمان عليه السلام لابنه : يا بني كما تدخل الحبة بين الحجرين ، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين . وصلى بعض الصالحين على خنث ؛ فقيل له : إنه كان فاسقا ، فسكت ، فأعيد عليه فقال : كأنك قلت لي : كان صاحب ميزانين يعطى بأحدهما ويأخذ بالآخر ، أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى ، وهذا من مظالم العباد ، والمساحة والعفو فيه أبعد ، والتشديد في أمر الميزان عظيم ، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة . وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ لا تظنوا في الميزان ﴾ وأقيموا الوزن باللسان ولا تحسروا الميزان ﴿ أى لسان الميزان ، فإن النقصان والرجحان

(١) حديث : قال للوزان « زن وأرجح » رواه أصحاب السنن والحاكم من حديث سويد بن قيس . قال الترمذي : حسن صحيح وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

يظهر بمبلة ، وبالجملة كل من ينتصف لنفسه من غيره ولو في كفة ولا ينصف بمثل ما ينتصف ، فهو داخل تحت قوله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ الذين إذا ائتمروا على الناس يستوفون ﴾ الآيات ، فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكيلا ، بل لكونه أمرا مقصودا ترك العدل والنصفة فيه ، فهو جار في جميع الأعمال ، فصاحب الميزان في خطر الويل ، وكل مكلف فهو صاحب موازين في أفعاله وأقواله وخطراته ، فالويل له إن عدل عن العدل ومال عن الاستقامة ، ولو لا تعذر هذا واستحالته لما ورد قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾ فلا ينفك عبد ليس معصوما عن الميل عن الاستقامة ، إلا أن درجات الميل تتفاوت تفاوتا عظيما ، فلذلك تتفاوت مدة مقامهم في النار إلى أوان الخلاص ، حتى لا يبق بعضهم إلا بقدر تحلة القسم ، ويبقى بعضهم ألفا وألوف سنين ، فنسأل الله تعالى أن يقربنا من الاستقامة والعدل ، فإن الاشتداد على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه ، غير مطمئنه فيه ، فإنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، ولولاه لكان المستقيم عليه لا يقدر على جواز الصراط الممدود على متن النار الذي من صفته أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف ، وبقدر الاستقامة على هذا الصراط المستقيم يخف العبد يوم القيامة على الصراط ، وكل من خلط بالطعام ترابا أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل ، وكل قصاب وزن مع اللحم عظام لم يجر العادة بمثله ، فهو من المطففين في الوزن ، وقس على هذا سائر التقديرات ، حتى في الذرع الذي يتعاطاه البزاز ، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمدده مدا ، وإذا باعه مده في الذرع ليظهر تفاوتا في القدر ، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل .

الرابع : أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفى منه شيئا ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان^(١) ونهى عن النجش^(٢) ، أما تلقى الركبان ، فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تتلقوا الركبان ، ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق ، وهذا الشراء منعقد ، ولكنه إن ظهر كذبه ثبت للبائع الخيار ، وإن كان صادقا ففي الخيار خلاف لتعارض عموم الخبر مع زوال التلبيس ، ونهى أيضا أن يبيع حاضر لباد^(٣) : وهو أن يقدم البدوى البدومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه ، فيقول له الخضرى أتركه عندي حتى أغلى في ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره ، وهذا في القوت محرم ، وفي سائر السلع خلاف ، والأظهر تحريمه لعموم النهى ، ولأنه تأخير للتضييق على الناس على الجملة من غير فائدة للفضولى المضيق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النجش . وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد ، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها ، فهذا إن لم يجر مواطاة مع البائع فهو فعل حرام من صاحبه والبيع منعقد ، وإن جرى مواطاة في ثبوت الخيار خلاف ، والأولى إثبات الخيار لأنه تغير بفعل يضاهى التغير في المصرة وتلقى الركبان ، فهذه المناهى تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت ويكتم منه أمرا لو علمه لما أقدم على العقد ، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب ، فقد حكى عن رجل من التابعين أنه كان بالبصرة وله غلام بالسوس يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة ، فاشترى السكر ، قال : فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفا ، فأنصرف إلى منزله فأفكر

(١) حديث النهى عن تلقى الركبان : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة : (٢) حديث النهى عن النجش : متفق عليه من حديث ابن عمر وأبي هريرة . (٣) حديث النهى عن بيع الحاضر للبادى : متفق عليه من حديث ابن عباس وأبي هريرة وأنس .

ليلته وقال : ربحت ثلاثين ألفا وخسرت نصبح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر فدفعت إليه ثلاثين ألفا وقال : بارك الله لك فيها ، فقال : ومن أين صارت لي ؟ فقال : إني كتبتك حقيقة الحال وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت ، فقال : رحمك الله قد أعلمتني الآن وقد طيبتها لك ، قال : فرجع بها إلى منزله وتفكر وبات ساهرا وقال : ما نصحتني ، فلعله استحياني فتركها لي فبكرت إليه من الغد وقال : عافاك الله ، خذ مالك إليك فهو أطيب لقلبي ، فأخذ منه ثلاثين ألفا . فهذه الأخبار في المناهي والحكايات تدل على أنه ليس له أن يغتنم فرصة ويقتنر غفلة صاحب المتاع ويخفي من البائع غلاء السعر أو من المشتري تراجع الأسعار ، فإن فعل ذلك كان ظالما تاركا للعدل والنصح للمسلمين ، ومهما باع مراححة بأن يقول : بيعت بما قام على أو بما اشتريته ، فعليه أن يصدق ، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان ، ولو اشترى إلى أجل وجب ذكره ، ولو اشترى مساححة من صديقه أو ولده يجب ذكره . لأن المعامل يقول على عادته في الاستقصاء أنه لا يترك النظر لنفسه ، فإذا تركه بسبب من الأسباب فيجب إخباره ، إذا الاعتماد فيه على أمانته .

الباب الرابع : في الإحسان في المعاملة

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً ، والعدل سبب النجاة فقط ، وهو يجري من التجارة يجري رأس المال . والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة ، وهو يجري من التجارة يجري الربح ، ولا يعد من الغفلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله ، فكنا في معاملات الآخرة ، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان ، وقد قال الله ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ وقال عز وجل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ وقال سبحانه ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ ولغنى بالإحسان : فعل ما ينتفع به المعامل ، وهو غير واجب عليه ، ولكنه تفضل منه ، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه ، وتعال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور .

الاول : في المغالبة ، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغبن به في العادة ، فأما أصل المغالبة فما ذون فيه : لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب ، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه ، فينبغي أن يمتنع من قبوله ، فذلك من الإحسان . ومهما لم يكن تلبس لم يكن أخذ الزيادة ظلماً وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يريد على الثلث يوجب الخيار ، ولستأ نرى ذلك ، ولكن من الإحسان أن يحيط ذلك الغبن . يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان : ضرب قيمة كل حلة منها أربع مائة ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربع مائة فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها فمضى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلتها ، فقال للأعرابي : بكمت اشتريت ؟ فقال : بأربع مائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين فارجع حتى تردها ، فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسمائة وأنا أرتضيها ، فقال له يونس : انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم ، وخاصم ابن أخيه في ذلك وقتله وقال : أما استحييت ، أما اتقيت الله ، تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ، فقال : والله ما أخذها إلا وهو راض بها . قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ، وهذا إن كان فيه إخفاء سعر وتلبس ، فهو من

باب الظلم وقد سبق ، وفي الحديث « غبن المسترسل حرام »^(١) ، وكان الزبير بن عدى يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة ما منهم أحد يحسن يشترى لحما بدرهم ، فغبن مثل هؤلاء المسترسلين ظلم : إن كان من غير تلبيس فهو من ترك الإحسان ، وقلنا يتم هذا إلا بنوع تلبيس وإخفاء سعر الوقت .

ولمّا الإحسان المحض ما نقل عن السرى السقطى أنه اشترى كثر لوز بستين ديناراً وكتب في روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار ، فصار اللوز بتسعين ، فأثناء الدلال وطلب اللوز فقال : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ، فقال الدلال وكان من الصالحين : فقد صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاثة وستين ، فقال الدلال : وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلماً ، لست آخذ منك إلا بتسعين . قال : فلا الدلال اشترى منه ، ولا السرى باعه ، فهذا محض الإحسان من الجانبين ، فإنه مع العلم بحقيقة الحال .

وورى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضها بخمسة وبعضها بعشرة ، فباع غلامه في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة ، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجده ، فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة ، فقال : يا هذا قد رضيت ، فقال : وإن رضيت فإننا لانرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، فاختر إحدى ثلاث خصال : إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك ، وإما أن نرد عليك خمسة ، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك ، فقال : أعطني خمسة ، فرد عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول : من هذا الشيخ ؟ فقيل له : هذا محمد بن المنكدر ، فقال لا إله إلا الله ، هذا الذي نستسقى به في البوادي إذا قحطنا . فهذا إحسان في أن لا يربح على العشرة إلا نصفاً أو واحداً على ما جرت به العادة في مثل ذلك المتساع في ذلك المكان ، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته واستفاد من تكررها ربها كثيراً ، وبه تظهر البركة .

كان على رضى الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدرة ويقول : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، لاتردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

قيل لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، مارددت ربحاً قط ، ولا طلب منى حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعث بنفسه . ويقال : إنه باع ألف ناقة فما ربح إلا عقلها : باع كل عقل بدرهم فربح فيها ألفاً وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً .

الثاني : في احتمال الغبن ، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف أو شيئاً من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل ، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه السلام « رحم الله امرأً سهل البيع سهل الشراء ، فأما إذا اشترى من غنى تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته ، فاحتمال الغبن منه ليس محموداً ، بل هو تصيير مال من غير أجر ولا حمد ، فقد ورد في حديث من طريق أهل البيت « المنقبون في الشراء لا محمود ولا مأجور »^(٢) ، وكان إياس ابن معاوية بن قرّة قاضي البصرة وكان من عقلاء التابعين يقول : لست بخب والخب لا يغبننى ولا يغبن ابن سيرين ولكن يغبن الحسن ويغبن أبى - يعنى معاوية بن قرّة ، والكمال في أن لا يغبن ولا يغبن ، كما وصف بعضهم عمر

الباب الرابع : الإحسان في المعاملة

(١) حديث « غبن المسترسل حرام » أخرجه الطبراني من حديث أبى أمامة بسند ضعيف ، والبيهقي من حديث جابر بسند جيد ، وقال « ربا » بدل « حرام » . (٢) حديث « المنقبون في الشراء لا محمود ولا مأجور » أخرجه الترمذى المحكم في النوادر من رواية عبيد الله بن الحسن عن أبيه عن جده ، ورواه أبو يعلى من حديث الحسين بن على يرفعه . قال الذهبي : هو منكسر .

رضي الله عنه فقال : كان أكرم من أن يخدع ، وأعقل من أن يخدع . وكان الحسن والحسين وغيرهما من خيار السلف يستقصون في الشراء ثم يهبون مع ذلك الجربيل من المال ، فقليل لبعضهم : تستقصي في شرائك على اليسير ثم تهب الكثير ولا تبالي ! فقال : إن الواهب يعطى فضله وإن المغبون يغبن عقله . وقال بعضهم : إنما أغبن عقلى وبصرى فلا أمكن الغابن منه ، وإذا وهبت أعطى الله ولا أستكثر منه شيئاً .

الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمساحة وحط البعض ، ومرة بالإمهال والتأخير ، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد ، وكل ذلك مندوب إليه ومحث عليه : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء سهل الاقتضاء »^(١) ، فليقتنم دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم « اسمع يسمع لك »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً » وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »^(٣) . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً كان مسرفاً على نفسه : حوسب فلم يوجد له حسنة ، فقليل له : هل عملت خيراً قط ؟ فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا الموسر وأنظروا المعسر »^(٤) . وفي لفظ آخر « وتجاوزوا عن المعسر » فقال الله تعالى : نحن أحق بذلك منه ، فتجاوز الله عنه وغفر له ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله ، فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة »^(٥) ، وقد كان من السلف من لا يحب أن يقضى غريمه الدين لأجل هذا الخبر ، حتى يكون كالمصدق بجميعه في كل يوم . وقال صلى الله عليه وسلم « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمان عشرة »^(٦) ، فقليل في معناه : إن الصدقة تقع في يد المحتاج وغير المحتاج ، ولا يحتمل ذل الاستقراض إلا محتاج . ونظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل يلزم رجلاً بدين ، فأومأ إلى صاحب الدين بيده أن يضع الشرط ففعل ، فقال للديون : قم فأعطه »^(٧) ، وكل من باع شيئاً وترك ثمنه في الحال ولم يرهق إلى طلبه فهو في معنى المقرض .

وروى أن الحسن البصرى باع بغلة له بأربعمائة درهم ، فلما استوجب المال قال له المشتري : اسمع يا أبا سعيد . قال : قد أسقطت عنك مائة ، قال له : فأحسن يا أبا سعيد ، فقال : قد وهبت لك مائة أخرى ، فقبض من حقه مائتي درهم . فقليل له : يا أبا سعيد ، هذا نصف الثمن ، فقال : هكذا يكون الإحسان وإلا فلا . وفي الخبر « خذ حقك في كفاف وعفاف واف أو غير واف ، يحاسبك الله حساباً يسيراً »^(٨) .

(١) حديث « رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء » تهمد في الباب قبله . (٢) حديث « اسمع يسمع لك » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس ورجاله ثقات .

(٣) حديث « من أنظر معسراً أو ترك له حاسبه الله حساباً يسيراً » وفي لفظ آخر « أظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله » رواه مسلم باللفظ الثاني من حديث أبي اليسر كعب بن عمرو . (٤) حديث : ذكر رجلاً كان مسرفاً على نفسه حوسب فلم يوجد له حسنة ، هيل له : هل عملت خيراً قط ، فقال : لا إلا أني كنت رجلاً أداين الناس فأقول لفتيانى : ساعوا الموسر ... الحديث . رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصارى ، وهو متفق عليه بنحوه من حديث حذيفة . (٥) حديث « من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله . فإذا حل الأجل فأنظره بعده فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة » أخرجه ابن ماجه من حديث بريدة « من أنظر معسراً كان له كل يوم صدقة ؛ ومن أنظره بعد أجله كان له مثله في كل يوم صدقة » وسنده ضعيف ، ورواه أحمد والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٦) حديث « رأيت على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمان عشرة » أخرجه ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف . (٧) حديث « أومأ إلى صاحب الدين بيده ضع الشرط » متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

(٨) حديث « خذ حقك في عفاف » الحديث أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن دون قوله « يحاسبك الله حساباً يسيراً » وله ولابن حبان والحاكم وصححه نحوه من حديث ابن عمر وعائشة .

الرابع : في توفية الدين . ومن الإحسان فيه حسن القضاء ، وذلك بأن يمشى إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشى إليه . فقد قال صلى الله عليه وسلم ، خيركم أحسنكم قضاء ^(١) ، ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن ، وإن عجز فليؤن قضاءه مهما قدر . قال صلى الله عليه وسلم « من أذن ديناً وهو ينوي قضاءه وكل الله به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه ^(٢) » ، وكان جماعة من السلف يستقرضون من غير حاجة لهذا الخبر ، ومهما كلبه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله وليقابله باللطف ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : إذ جاءه صاحب الدين عند حلول الأجل ولم يكن قد اتفق قضاؤه ، فجعل الرجل يشدد الكلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم به أصحابه فقال : دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً ^(٣) ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض ، فالإحسان أن يكون الميل الأكثر للمتوسطين إلى من عليه الدين ، فإن المقرض يقرض عن غنى والمستقرض يستقرض عن حاجة ، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر ؛ فإن البائع راغب عن السلعة يرغب في ترويحها ، والمشتري محتاج إليها : هذا هو الأحسن ، إلا أن يتعدى من عليه الدين حده ، فعند ذلك نصرته في منعه عن تعذبه وإعانة صاحبه ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقيل : كيف تنصره ظالماً ؟ فقال : منعك إياه من الظلم نصرة له ^(٤) » .

الخامس : أن يقبل من يستقبله ، فإنه لا يستقبل إلا متتدماً مستضر بالبيع ، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه : قال صلى الله عليه وسلم « من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ^(٥) » ، أو كما قال .

السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة ، فقد كان في صالحى السلف من له دفتران للحساب : أحدهما ترجمته بجهولة ، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء ، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أرطال مثلاً من هذا وليس معي ثمنه ، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار ، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلاً ولا يجعله ديناً ، لكن يقول : خذ ما تريد ، فإن يسر لك فاقض ، وإلا فأنت في حل منه وسعة : فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست ، والقائم به محي لهذه السنة ، وبالجمل : التجارة محك الرجال ، وبها يمتحن دين الرجل وورعه ، ولذلك قيل :

لا يغرنك من المر * مقيص رقعته أو لزار فوق كفه * ب الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه * أثر قد قلعه ولدى درهم فانظر * غيه أو ورعه

ولذلك قيل : إذا أتى على الرجل جيرانه في الحضر وأصحابه في السفر ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في صلاحه .

وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال : ائني بمن يعرفك ، فأناه برجل فأئني عليه خيراً ، فقال عمر : أنت

(١) حديث « خيركم أحسنكم قضاء » ، متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) حديث « من أذن ديناً وهو ينوي قضاءه وكل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتى يقضيه » أخرجه أحمد من حديث عائشة « مامن عبد كانت له نيقق أداء دينه إلا كان معه من الله عون وحافظ » وفي رواية له « لم يزل معه من الله حارس » وفي رواية للطبراني في الأوسط « ملاكان معه عون من الله عليه حتى يقضيه عنه » . (٣) حديث « دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس . (٥) حديث « من أقال نادماً صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ؛ فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ فقال : لا ، قال : فعاملته بالدينار والدرهم الذى يستبين به ورع الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائما فى المسجد يهيمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فليست تعرفه . وقال للرجل . اذهب فائتنى بمن يعرفك .

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، فيكون عمره ضائعا وصفقته خاسرة ، وما يفوته من الربح فى الآخرة لا يبنى به ما ينال فى الدنيا ، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه ، وشفقته على نفسه يحفظ رأس ماله ، ورأس ماله دينه وتجارته فيه . قال بعض السلف : أولى الأشياء بالعاقل أحوج به إليه فى العاجل ، وأحوج شئ إليه فى العاجل أحده عاقبة فى الآجل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه فى وصيته : إنه لا بد لك من نصيبك فى الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج فابدأ بنصيبك من الآخرة ، فخذ فإنك ستمت على نصيبك من الدنيا فتتظلم . قال الله تعالى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى لا تنس فى الدنيا نصيبك منها للآخرة ، فإنها مزرعة الآخرة ، وفيها تكتسب الحسنات . وإثما تم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور :

الاول : حسن النية والعقيدة فى ابتداء التجارة ، فلينبها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس استغناء بالخلال عنهم ، واستعانة بما يكسبه على الدين ، وقيامه بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين به ، ولينب النصح للمسلمين ، وأن يحب لسائر الخلق ما يحب لنفسه ، ولينب اتباع طريق العدل والإحسان فى معاملته كاذكرناه ، ولينب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كل ما يراه فى السوق ، فإذا أضمر هذه العقائد والنيات كان عاملا فى طريق الآخرة ، فإن استفاد مالا فهو مزيد ، وإن خسر فى الدنيا ربح فى الآخرة .

الثانى : أن يقصد القيام فى صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات ، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعاش وهلك أكثر الخلق . فانتظام أمر الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل ، ولو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقي وهلكوا ، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمتى رحمة ^(١) » أى اختلاف مهمهم فى الصناعات والحرف . ومن الصناعات ما هى مهمة ، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب النعم والتزين فى الدنيا ، فلا يشتغل بصناعة مهمة ليكون فى قيامه بها كافيا عن المسلمين مهما فى الدين ، وليجتنب صناعة النقش والصبغة وتشبيد البنيان بالحص وجميع ما تزخر به الدنيا ، فكل ذلك كرمه ذوو الدين ، فأما عمل الملاهى والآلات التى يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم ، ومن جملة ذلك خياطة الخياط القباء من الإبريسم للرجال ، وصياغة الصائغ مراكب الذهب أو خواتيم الذهب للرجال فكل ذلك من المعاصى والأجرة المأخوذة عليه حرام ، ولذلك أوجبنا الزكاة فيها وإن كنا لانوجب الزكاة فى الحلى ، لأنها إذا قصدت للرجال فهى محرمة ، وكونها مهياة للنساء لا يلحقها بالحلى المباح ، مالم يقصد ذلك بها فيكتسب حكمها من القصد . وقد ذكرنا أن يبيع الطعام ويبيع الأكفان مكروه لأنه يوجب انتظار موت الناس وحاجتهم بغلاء السعر ،

الباب الخامس : فى شفقة التاجر على دينه

(١) حديث « اختلاف أمتى رحمة » تقدم فى العلم .

ويكره أن يكون جزارا ، لما فيه من قساوة القلب ، وأن يكون حجاما أو كناسا لمسافيه من مخامرة النجاسة ، وكذا الدباغ وما في معناه ، وكره ابن سيرين الدلالة ، وكره قتادة أجرة الدلال ، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال عن الكذب والإفراط في الشاء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر فقد يقل وقد يكثر ، ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب ، هذا هو العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغي أن ينظر إلى قدر التعب ، وكرهوا شراء الحيوان للتجارة ، لأن المشتري يكره قضاء الله فيه وهو الموت الذي يصدده لاحالة وحلوله . وقيل : بيع الحيوان واشترى الموتان ، وكرهوا الصرف ، لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير ، ولأنه طلب لدقائق الصفات فيما لا يقصد أعيانها وإنما يقصد رواجها ، وقلنا يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معاملته بدقائق النقد ، فقلنا يسلم الصيرفي وإن احتاط ، ويكره للصيرفي وغيره كسر الصحيح والدنانير إلا عند الشك في جودته أو عند ضرورة . قال أحمد بن حنبل رحمه الله : وردني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) وعن أصحابه في الصياغة من الصحاح ، وأبناأ كره الكسر ، وقال : يشتري بالدنانير دراهم ثم يشتري بالدرهم ذهبا ويصوغه ، واستحبوا تجارة البز . قال سعيد بن المسيب : ما من تجارة أحب إلى من البز ، ما لم يكن فيها أيمان . وقد روى « خير تجارتكم البز وخير صناعتكم الخرز » ^(٢) ، وفي حديث آخر « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البز ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف » ^(٣) ، وقد كان غالب أعمال الأخيار من السلف عشر صنائع : الخرز ، والتجارة ، والحل ، والحياطة ، والحذو ، والقصارة ، وعمل الخفاف وعمل الحديد ، وعمل المغازل ، ومعالجة صيد البر والبحر ، والوراقة : قال عبد الوهاب الوراق . قال لي أحمد بن حنبل : ما صنعتك ؟ قلت : الوراقة . قال : كسب طيب ، ولو كنت صانعا بيدي لصنعت صنعتك ، ثم قال لي : لا تكتب إلا بواسطة ، واستبق الخواشي وظهور الأجزاء . وأربعة من الصنائع موسومون عند الناس بضعف الرأي : الحاك ، والقطنون ، والمغاليون ، والمعلمون . ولعل ذلك لأن أكثر مخالطتهم مع النساء والصبيان ، ومخالطة ضعفاء العقول تضعف العقل ، كما أن مخالطة العقلاء تزيد في العقل . وعن مجاهد : أن مريم عليها السلام مرت في طلبها لعيسى عليه السلام بحاكة ، فطلبت الطريق فأرشدوها غير الطريق ، فقالت : اللهم انزع البركة من كسبهم ، وأمتهم فقراء ، وحقهم في أعين الناس ، فاستجيب دعاؤها . وكره السلف أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات كفصل الموتى ودفنهم ، وكذا الأذان وصلاة التراويح ، وإن حكم بصحة الاستئجار عليه ، وكذا تعليم القرآن وتعليم علم الشرع ، فإن هذه أعمال حقها أن يتجر فيها للأخرة ، وأخذ الأجرة عليها استبدال بالدنيا عن الآخرة ولا يستحب ذلك .

الثالث ، أن يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد . قال الله تعالى ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ وقال الله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته فيلازم المسجد ويواظب على الأوراد . كان عمر رضي الله عنه يقول للتجار : اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم وما بعده لديناكم . وكان صالحو السلف يجعلون أول

(١) حديث النهي عن كسر الدينار والدرهم ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم من رواية علقمة بن عبد الله عن أبيه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . زاد الحاكم : أن يكسر الدرهم فيجعل فضة ، ويكسر الدينار فيجعل ذهبا ، وضعفه ابن حبان . (٢) حديث « خير تجارتكم البز وخير صناعتكم الخرز » لم أقف له على إسناده ، وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب . (٣) حديث « لو اتجر أهل الجنة لا تجروا في البز ، ولو اتجر أهل النار لا تجروا في الصرف » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف . وروى أبو يعلى والمقبلي في الضعفاء الشطر الأول من حديث أبي بكر الصديق .

النهار وآخره الآخرة والوسط للتجارة ، ولم يكن يبيع الهريسة والرموس بكرة إلا الصبيان وأهل الذمة ، لأنهم كانوا في المساجد بعد . وفي الخبر « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد وفيها في أول النهار وفي آخره ذكر الله وخير : كفر الله عنهما ما بينهما من سيئ الأعمال »^(١) ، وفي الخبر « تلتقي ملائكة الليل والنهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله تعالى وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وجئناهم وهم يصلون ؛ فيقول الله سبحانه وتعالى : أشهدكم أني قد غفرت لهم »^(٢) ، ثم مهما سمع الأذان في وسط النهار للأولى والعصر ، فينبغي أن لا يعرج على شغل ، وينزعج عن مكانه ، ويدع كل ما كان فيه ، فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها ، ومهما لم يحضر الجماعة عصي عند بعض العلماء . وقد كان السلف يتبدرون عند الأذان ويخلون الأسواق للصبيان وأهل الذمة ، وكانوا يستأجرون بالقراريط لحفظ الحوانيت في أوقات الصلوات ، وكان ذلك معيشة لهم . وقد جاء في تفسير قوله تعالى ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ أنهم كانوا حذادين وخرازين ؛ فكان أحدهم إذا رفع المطرقة أو غرز الإشتي فسمع الأذان لم يخرج الإشتي من المغرز ولم يوقع المطرقة ورمى بها وقام إلى الصلاة . الرابع . أن لا يقتصر على هذا بل يلزم ذكر الله سبحانه في السوق ويشتغل بالتهليل والتسبيح ، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل . قال صلى الله عليه وسلم « ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل خلف الفارين ، وكالحى بين الأموات » ، وفي لفظ آخر « كالشجرة الخضراء بين الهشيم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة »^(٣) ، وكان ابن عمر وسالم بن عبد الله ومحمد بن واسع وغيرهم يدخلون السوق قاصدين لنيل فضيلة هذا الذكر . وقال الحسن : ذاكر الله في السوق يحى يوم القيامة له ضوء كضوء القمر ، وبرهان كبرهان الشمس . ومن استغفر الله في السوق غفر الله له بعدد أهلها . وكان عمر رضى الله عنه إذا دخل السوق قال : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاطت به السوق ، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة . وقال أبو جعفر الفرغانى : كنا يوماً عند الجنيد ، فخرى ذكر ناس يجلسون في المساجد ويتشبهون بالصوفية ويقصرون عما يجب عليهم من حق الجلوس ويعيرون من يدخل السوق ؛ فقال الجنيد : كم بمن هو في السوق حكمة أن يدخل المسجد ؟ ويأخذ بأذن بعض من فيه فيخرجه ويجلس مكانه ، وإني لأعرف رجلاً يدخل السوق ورده كل يوم ثلثمائة ركعة وثلثون ألف تسبيحة . قال : فسبق إلى وهمى أنه يعنى نفسه ، فهكذا كانت تجارة من يتجر لطلب الكفاية لا للتنعم في الدنيا ؛ فإن من يطلب الدنيا للاستعانة بها على الآخرة كيف يدع ربح الآخرة ، والسوق والمسجد والبيت له حكم واحد ، وإنما النجاة بالتقوى . قال صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت »^(٤) ، فوظيفة التقوى لا تنقطع عن المتجوزين للدين كيفما تقلبت بهم الأحوال ، وبه تكون حياتهم وعيشتهم ، إذ فيه يرون تجارتهم وربحهم . وقد قيل : من أحب الآخرة عاش ، ومن أحب الدنيا طاش ، واللاحق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن عيوب نفسه فتاش .

(١) حديث « إن الملائكة إذا صعدت بصحيفة العبد في أول النهار وآخره ذكر وخير كفر الله ما بينهما من سيئ الأعمال » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بمعناه . (٢) حديث « تلتقي ملائكة الليل وملائكة النهار عند طلوع الفجر وعند صلاة العصر ، فيقول الله وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ .. الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفداة وصلاة العصر ... الحديث » . (٣) حديث « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... الحديث » تقدم في الأذكار .

(٤) حديث « اتق الله حيثما كنت » أخرجه الترمذى من حديث أبي ذر وصححه .

الخامس : أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج ، وبأن يركب البحر في التجارة ، فهما مكروهان ، يقال إن من ركب البحر فقد استقصى في طلب الرزق . وفي الخبر « لا يركب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو »^(١) ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : لا تكن أول داخل في السوق ولا آخر خارج منها ، فإن بها باض الشيطان وفرخ . روى عن معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر : أن إبليس يقول لولده زئبور : سر بكتائبك فأت أصحاب الأسواق ، زين لهم الكذب والخلف والخديعة والمكر والخيانة ، وكن مع أول داخل وآخر خارج منها . وفي الخبر « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً »^(٢) ، وتما هذا الاحتراز أن يراقب وقت كفايته ، فإذا حصل كفايته وقته انصرف واشتغل بتجارة الآخرة هكذا كان صالحو السلف ، فقد كان منهم من إذا ربح دانقاً انصرف قناعة به . وكان حماد بن سبله يبيع الخبز في سبط بين يديه ، فكان إذا ربح حبتين رفع سبطه وانصرف . وقال إبراهيم بن بشار : قلت لإبراهيم بن أدهم رحمه الله : أمر اليوم أعمل في الطين فقال : يا ابن بشار ، إنك طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته وتطلب ما قد كفيته ! أما رأيت حريصاً محروماً وضعيفاً مرزوقاً ؟ فقلت : إن لي دانقاً عند البقال ؛ فقال عز على بك ، تملك دانقاً وتطلب العمل ؟ وقد كان فيهم من ينصرف بعد الظهر ، ومنهم بعد العصر ، ومنهم من لا يعمل في الأسبوع إلا يوماً أو يومين وكانوا يكتفون به .

السادس : أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواقع الشبهات ومظان الريب ولا ينظر إلى الفتاوى بل يستفتي قلبه ، فإذا وجد فيه حزاة اجتنبه ، وإذا حل إليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف وإلا أكل الشبهة . وقد حمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لبن ، فقال « من أين لكم هذا ؟ » فقالوا : من الشاة ، فقال « ومن أين لكم هذه الشاة ؟ » فقبل : من موضع كذا ، فشرب منه ثم قال « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً »^(٣) ، وقال « إن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ »^(٤) فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصل الشيء وأصل أصله ولم يزد ، لأن ما وراء ذلك يتعذر . وسنبين في كتاب الحلال والحرام موضع وجوب هذا السؤال ، فإنه كان عليه السلام لا يسأل عن كل ما يحمل إليه^(٥) ، وإنما الواجب أن ينظر التاجر إلى من يعامله ، فكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو ربا فلا يعامله ، وكذا الأجناد والظلة لا يعاملهم البتة ولا يعامل أصحابهم وأعاونهم ، لأنه معين بذلك على الظلم . وحكى عن رجل أنه تولى عمارة سور لثغر من الثغور . قال : فوقع في نفسي من ذلك شيء - وإن كان ذلك العمل من الخيرات بل من فرائض الإسلام ، ولكن كان الأمير الذي تولى في محلته من الظلمة . قال : فسألت سفيان رضي الله

(١) حديث « لا تترك البحر إلا لحجة أو عمرة أو غزو » أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو ، وقيل له منقطع .
(٢) حديث « شر البقاع الأسواق ، وشر أهلها أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » تقدم صدر الحديث في الباب السادس من العلم . وروى أبو نعيم في كتاب حرمة المساجد من حديث ابن عباس « أبغض البقاع إلى الله الأسواق وأبغض أهلها إلى الله أولهم دخولا وآخرهم خروجاً » .
(٣) حديث سؤاله عن اللبن والشاة ، وقوله « إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن لا نأكل إلا طيباً ولا نعمل إلا صالحاً » رواه الطبراني من حديث أم عبد الله أخت شداد بن أوس بسند ضعيف .
(٤) حديث « إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
(٥) حديث : كان لا يسأل عن كل ما يحمل إليه . رواه أحمد من حديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مروا بإمرأة فذبحت لهم شاة ... الحديث ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم أقمعة فلم يستطع أن يسيئها ، فقال : هذه شاة ذبحت بنير أذن أهلها ... الحديث ، وله من حديث أبي هريرة : كان إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه . . الحديث ، واستأذنها جدي . وفي هذا أنه كان لا يسأله عما أتى به من عند أهله ، والله أعلم .

عنه فقال : لا تكن عوناً لهم على قليل ولا كثير ؛ فقلت : هذا سور في سبيل الله للمسلمين ! فقال نعم ، ولكن أقل ما يدخل عليك أن تحب بقاءهم ليو فوق أجرك ؛ فتكون قد أحببت بقاء من يعصى الله . وقد جاء في الخبر « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »^(١) ، وفي الحديث « إن الله ليفضب إذا مدح الفاسق »^(٢) ، وفي حديث آخر « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام »^(٣) ، ودخل سفيان على المهدي وبه درج أبيض ، فقال : ياسفيان أعطني الدواة حتى أكتب ، فقال : أخبرني أي شيء تكتب ، فإن كان حقاً أعطيتك . وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين عنده أن يناوله طيناً ليختم به الكتاب ، فقال : ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر ما فيه ، فهكذا كانوا يحتزون عن معاونة الظلمة ومعاملتهم أشد أنواع الإعانة : فينبغي أن يحتذوا ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً . وبالجمل فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لا يعامل ، وليكن من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان . قال بعضهم : أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول : من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال له : عامل من شئت . ثم أتى زمان آخر كانوا يقولون : عامل من شئت إلا فلانا وفلانا ثم أتى زمان آخر فكان يقال : لا تعامل أحداً إلا فلانا وفلانا ، وأخشى أن يأتي زمان يذهب هذا أيضاً . وكأنه قد كان الذي كان يحذر أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

السابع : ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته مع واحد من معامليه ، فإنه مراقب ومحاسب ، فليعدّ الجواب ليوم الحساب والعقاب في كل فعلة وقولة لأنه لم أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟ فإنه يقال : إنه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعاً شيئاً وفتة ، ويحاسب عن كل واحد فهو محاسب على عدد من عامله . قال بعضهم : رأيت بعض التجار في النوم ، فقلت : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : نشر على خمسين ألف صحيفة ، فقلت : هذه كلها ذنوب ، فقال ، هذه معاملات الناس بعدد كل إنسان عاملته في الدنيا : لكل إنسان صحيفة مفردة فيما بيني وبينه من أول معاملته إلى آخرها فهذا ما على المكتسب في عمله من العدل والإحسان والشفقة على الدين ، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين ، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين ، وإن راعى مع ذلك وظائف الدين كما ذكر في الباب الخامس كان من الصديقين والله أعلم بالصواب .

تم كتاب الكسب والمعيشة بحمد الله ومنه

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » لم أجده مرفوعاً ، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت من قول الحسن ، وقد ذكره المصنف هكذا على الصواب في آفات اللسان . (٢) حديث « إن الله ليفضب إذا مدح الفاسق » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ، وابن عدي في الكامل ، وأبو يعلى والبيهقي في الشعب . من حديث أنس بسند ضعيف . (٣) حديث « من أكرم فاسقاً فقد أعان على هدم الإسلام » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « من وقع صاحب بدعة ... الحديث » رواه ابن عدي من حديث عائدة ، والضبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية . من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي : كلها موضوعة .

كتاب الحلال والحرام

وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الإنسان من طين لازب وصلصال ، ثم ركب صورته فى أحسن تقويم وأتم اعتدال ، ثم غذاه فى أول نشوئه بلبن استصفاه من بين فرث ودم سائغا كالماء الزلال ، ثم حماه بما آتاه من طيبات الرزق عن دواعى الضعف والانحلال ، ثم قيد شهوته المعادية له عن السطوة والصيال وقهرها بما افترضه عليه من طلب القوت الحلال ، وهزم بكسرهما جند الشيطان المتشمر للإضلال ، ولقد كان يجرى من ابن آدم مجرى الدم السيل ، فضيق عليه عزة الحلال المجرى والمجمال ، إذ كان لا يبدركه إلى أعماق العروق إلا الشهوة المسائلة إلى الغلبة والاسترسال ؛ فبقى لما زمت بزمام الحلال خائبا خاسرا ماله من ناصر ولا وال . والصلاة على محمد الهادى من الضلال وعلى آله خير آل ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد فقد قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة على كل مسلم »^(١) ، رواه ابن مسعود رضى الله عنه ، وهذه الفريضة من بين سائر الفرائض : أعصاها على العقول فهما ، وأثقلها على الجوارح فعلا ، ولذلك اندرس بالكلية علما وعملا ، وصار غموض علمه سببا لاندراس عمله ، إذ ظن الجهال أن الحلال مفقود ، وأن السبيل دون الوصول إليه مسدود ، وأنه لم يبق من الطيبات إلا الماء الفرات ، والحشيش التابت فى الموت ، وما عداه فقد أخبثته الأيدى العادية ، وأفسدته المعاملات الفاسدة ، وإذا تعذرت القناعة بالحشيش من النبات لم يبق وجه سوى الاتساع فى المحرمات ؛ فرفضوا هذا القطب من الدين أصلا ، ولم يدركوا بين الأموال فرقا وفصلا ، وهيئات هيئات ، فالحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات ! ولا تزال هذه الثلاثة مقترنات كيفما تقلبت الحالات . ولما كانت هذه بدعة عم فى الدين ضررها ، واستطار فى الخلق شررها ، وجب كشف الغطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة على وجه التحقيق والبيان ، ولا يخرجها التضييق عن حيز الإمكان .

ونحن نوضح ذلك فى سبعة أبواب : (الباب الأول) فى فضيلة طلب الحلال ومذمة الحرام ودرجات الحلال والحرام . (الباب الثانى) فى مراتب الشبهات ومشاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام . (الباب الثالث) فى البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانها فى الحلال والحرام . (الباب الرابع) فى كيفية خروج التائب عن المظالم المسالية (الباب الخامس) فى إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم . (الباب السادس) فى الدخول على السلاطين ومخالطتهم . (الباب السابع) فى مسائل متفرقة .

كتاب الحلال والحرام

(١) حديث ابن مسعود « طلب الحلال فريضة على كل مسلم » تخدم فى الزكاة دون قوله « على كل مسلم » ولطبرانى فى الأوسط من حديث أنس « واجب على كل مسلم » وإسناده ضعيف .

الباب الأول : في فضيلة الحلال ومذمة الحرام

وبيان أصناف الحلال ودرجاته وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه

فضيلة الحلال ومذمة الحرام

قال الله تعالى ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل . وقيل : إن المراد به الحلال . وقال تعالى ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ وقال تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾ الآية . وقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ ثم قال ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ ثم قال ﴿وإن تبتم فلكم رموس أموالكم﴾ ثم قال ﴿ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ جعل أكل الربا أول الأمر مؤذنا بمحاربة الله ، وفي آخره متعرضا للنار ، والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى . وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « طلب الحلال فريضة على كل مسلم ، ولما قال صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم »^(١) ، قال بعض العلماء : أراد به طلب علم الحلال والحرام ، وجعل المراد بالحديثين واحدا .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من سعى على عياله من حله فهو كالجهاد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا في عفاف كان في درجة الشهداء »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »^(٣) ، وفي رواية « زهده الله في الدنيا » ، وروى : أن سعدا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله تعالى أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له : « أطب طعمتك تستجيب دعوتك »^(٤) ، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم الحريص على الدنيا قال « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام ، يرفع يديه فيقول : يارب يارب ، فأني يستجاب لذلك »^(٥) ، وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل »^(٦) ، فقيل : الصرف النافلة ، والعدل الفريضة . وقال صلى الله عليه وسلم « من اشترى ثوبا

(١) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » تقدم في العلم . (٢) حديث « من سعى على عياله من حله فهو كالجهاد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا في عفاف كان في درجة الشهداء » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « من سعى على عياله في سبيل الله » ولأبي منصور في مسند الفردوس « من طلب مكسبة من باب حلال يكف بها وجهه عن مسئة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين » ولمسندهما ضعيف . (٣) حديث « من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب « من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ولأبي عبدى نحوه من حديث أبي موسى ، وقال : حديث منكر . (٤) حديث . أن سعدا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله أن يجعله مجاب الدعوة ، فقال له « أطب طعمتك تستجيب دعوتك » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا يعرفه . (٥) حديث « رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ : ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ... الحديث . (٦) حديث ابن عباس « إن لله ملكا على بيت المقدس ينادى كل ليلة : من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل » لم أقف له على أصل ؛ ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود « من أكل اقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة ... الحديث » وهو منكر .

بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شيء ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل لحم نبت من حرام فالنار أولاه » ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « العبادة عشرة أجزاء : تسعة منها في طلب الحلال » ^(٤) ، روى هذا مرفوعاً وموقوفاً على بعض الصحابة أيضاً . وقال صلى الله عليه وسلم « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » ^(٥) وقال صلى الله عليه وسلم « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » ^(٦) ، وقال عليه السلام « خير دينكم الورع » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كله » ^(٨) ، ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : وأما الورعون فأنا أستحي أن أحاسبهم . وقال صلى الله عليه وسلم « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام » ^(٩) ، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه « المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة ، وإذا سقمت صدرت بالسقم » ^(١٠) ، ومثل الطعنة من الدين مثل الأساس من البنيان ، فإذا ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع ، وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع . وقال الله عز وجل ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ﴾ الآية . وفي الحديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه ، وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » ^(١١) ، وقد ذكرنا جملة من الأخبار في كتاب آداب الكسب تكشف عن فضيلة الكسب الحلال .

وأما الآثار : فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال : تكهنت لقوم فأعطوني ، فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم قال : اللهم إني أعتذر إليك بما حملت العروق وخالط الأمعاء ^(١٢) . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : أوعلمتم . أن الصديق

(١) حديث « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته وعليه منه شيء » رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٢) حديث « كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به » أخرجه الترمذي من حديث كعب بن عجرة وحسنه ، وقد تقدم (٣) حديث « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر . قال ابن العربي في عارضة الأحوذى شرح الترمذي : لأنه باطل لم يصح ولا يصح . (٤) حديث « العبادة عشرة أجزاء ، تسعة منها في طلب الحلال » رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس ، لا أنه قال « تسعة منها في الصمت والعاشرة كسب اليد من الحلال » وهو منكر . (٥) حديث « من أمسى وانياً من طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راض » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس « من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وفيه ضعف . (٦) حديث « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفق في سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه في النار » رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخبيرة مرسل . (٧) حديث « خير دينكم الورع » تقدم في العلم . (٨) حديث « من لقي الله ورعاً أعطاه ثواب الإسلام كله » لم أقب له على أصل . (٩) حديث « درهم من ربا أشد عند الله من ثلاثين زنية في الإسلام » رواه أحمد والدارقطني من حديث عبد الله بن حنظلة وقال : « ستة وثلاثين » ورجاله ثقات ، وقيل : عن حنظلة الزاهد عن كعب مرفوعاً ، وللطبراني في الصغير من حديث ابن عباس « ثلاثة وثلاثين » وسنده ضعيف . (١٠) حديث أبي هريرة « المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط ، والعقيلي في الضعفاء وقال : باطل لأصله . (١١) حديث « من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه » وإن تركه ورأه كان زاده إلى النار » رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف ؛ ولابن حبان من حديث أبي هريرة « من جمع مالا من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان لمصره عليه » . (١٢) حديث : إن أبا بكر شرب لبنا من كسب عبده ثم سأل فقال : تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصابعه في فيه وجعل يقيء . وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وسلم لما أخبر بذلك قال : أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً . رواه البخاري من حديث عائشة : كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ؛ فقال له الدلام : أتدري ما هذا؟ فقال : وما هو؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية . فذكره ، دون المرفوع منه ، فلم أجده .

لا يدخل جوفه إلا طيباً ؛ وكذلك شرب عمر رضى الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً ، فأدخل أصبعه وتقيأ . وقالت عائشة رضى الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العباداة ، هو الورع . وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنه : لو صليتم حتى تكونوا كالحنانيا ، وصتمتم حتى تكونوا كالأوتار ، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجر . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه . وقال الفضيل : من عرف ما يدخل جوفه كتبته الله صديقاً ، فأنظر عند من تفطر يامسكين . وقيل لإبراهيم بن آدم رحمه الله : لم لا تشرب من ماء زمزم ؟ فقال : لو كان لي دلو شربت منه . وقال سفيان الثوري رضى الله عنه : من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول والثوب النجس لا يطهر إلا بالماء ، والذنب لا يكفره إلا بالحلال . وقال يحيى بن معاذ الطاعة خزائن من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء ، وأسنانه لقم الحلال . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقبل الله صلاة امرئ في جوفه حرام ، وقال سهل التستري : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى من الظاهر والباطن ، والصبر على ذلك إلى الموت . وقال : من أحب أن يكشف بآيات الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة . ويقال : من أكل الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه ، وهو تأويل قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال ابن المبارك : رد درهم من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ، حتى بلغ إلى ستمائة ألف . وقال بعض السلف : إن العبد يأكل أكله فيقلب قلبه ، فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبداً . وقال سهل رضى الله عنه : من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم . ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه وفقت للخيرات وقال بعض السلف : إن أول لقمة يأكلها العبد من حلال يغفر له ما سلف من ذنوبه ، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كتساقط ورق الشجر . وروى في آثار السلف أن الواعظ كان إذا جلس للناس قال العلماء : تفقدوا منه ثلاثاً ، فإن كان معتقداً لبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق ، وإن كان سىء الطعمة فعن الهوى ينطق ، فإن لم يكن مكنين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح فلا تجالسوه . وفي الأخبار المشهورة عن علي عليه السلام وغيره : إن الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب . وزاد آخرون : وشبهتها عتاب . وروى أن بعض الصالحين دفع طعاماً إلى بعض الأبدال فلم يأكل ؛ فسأله عن ذلك فقال : نحن لا نأكل إلا حلالاً ، فلذلك تستقيم قلوبنا ويدوم حالنا ونكاشف المملوك ونشاهد الآخرة ، ولو أكلنا بما تأكلون ثلاثة أيام لما رجعنا إلى شيء من علم اليقين ولذهب الخوف والمشاهدة من قلوبنا ؛ فقال له الرجل : فإنى أصوم الدهر وأختم القرآن في كل شهر ثلاثين مرة ، فقال له البذل : هذه الشربة التي رأيتى شربتها من الليل أحب إلى من ثلاثين ختمة في ثلثمائة ركعة من أعمالك ، وكانت شربته من لبن ظبية وحشية . وقد كان بين أحمد بن حنبل ويحيى بن معين صحبة طويلة ، فهجره أحمد إذ سمعه يقول : إني لأسأل أحداً شيئاً ، ولو أعطاني الشيطان شيئاً لأكلته ، حتى اعتذر يحيى وقال : كنت أمزح ، فقال : تمزح بالدين ؛ أما علمت أن الأكل من الدين قدمه الله تعالى على العمل الصالح فقال ﴿ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ وفي الخبر : أنه مكتوب في التوراة : من لم يبال من أين مطعمه لم يبال الله من أى أبواب النيران أدخله ، وعن علي رضى الله عنه أنه لم يأكل بعد قد قتل عثمان ونهب الدار طعاماً إلا محتوماً حذراً من الشبهة . واجتمع الفضيل بن عياض وابن عيينة وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة ، فذكروا الرطب ، فقال وهيب : هو من أحب الطعام إلى ، إلا أنى لا آكله لاختلاط رطب مكة ببساتين زبيدة وغيرها ، فقال له

ابن المبارك : إن نظرت في مثل هذا ضاق عليك الخبز . قال : وما سببه ؟ قال : إن أصول الضياع قد اختلط بالصوافي ، فغشى على وهيب ؛ فقال سفيان : قتلت الرجل ؛ فقال ابن المبارك : ما أردت إلا أن أهون عليه ؛ فلما أفاق قال : لله على أن لا أكل خبزا أبدا حتى ألقاه . قال : فكان يشرب اللبن ، قال فأتته أمه بلبن فسألها فقالت : هو من شاة بني فلان ، فسأل عن ثمنها وأنه من أين كان لهم فذكرت : فلما أدناه من فيه قال : بقي أنها من أين كانت ترعى ؟ فسكتت ، فلم يشرب لأنها كانت ترعى من موضع فيه حق للسليين ؛ فقالت أمه : اشرب فإن الله يغفر لك ؛ فقال ، ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنا لم مغفرته بمعصيته . وكان بشر الحافي رحمه الله من الورعين ؛ فقيل له : من أين تأكل ، فقال : من حيث تأكلون ، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي كمن يأكل وهو يضحك . وقال : يد أقصر من يد ولقمة أصغر من لقمة ، وهكذا كانوا يحتزون من الشبهات .

أصناف الحلال ومداخله

اعلم أن تفصيل الحلال والحرام إنما يتولى بيانه كتب الفقه ، ويستغنى المريد عن تطويله بأن يكون له طعمة معينة يعرف بالفتوى حلها لا يأكل من غيرها ؛ فأما من يتوسع في الأكل من وجوه متفرقة فيستقر إلى علم الحلال والحرام كله كما فصلناه في كتب الفقه .
ونحن الآن نشير إلى مجامعه في سياق تقسيم : وهو أن المال إنما يحرم إما لمعنى في عينه أو لخلل في جهة اكتسابه .

القسم الأول : الحرام لصفة في عينه كالخمر والخنزير وغيرهما

وتفصيله أن الأعيان المأكولة على وجه الأرض لا تعدو ثلاثة أقسام ، فإنها إما أن تكون من المعادن كالملح والطين وغيرهما ، أو من النبات ، أو من الحيوانات .
أما المعادن : فهي أجزاء الأرض وجميع ما يخرج منها ، فلا يحرم أكله إلا من حيث إنه يضر بالآكل ، وفي بعضها ما يجري مجرى السم ، والخبز لو كان مضرا لحرم أكله ، والطين الذي يعتاد أكله لا يحرم إلا من حيث الضرر . وقائدة قولنا : إنه لا يحرم مع أنه لا يؤكل ، أنه لو وقع شيء منها في مرقة أو طعام مائع لم يصربه محرما .
وأما النبات : فلا يحرم منه إلا ما يزيل العقل أو يزيل الحياة أو الصحة ؛ فزيل العقل : البنج والخمر وسائر المسكرات ، ومزيل الحياة ؛ السموم ؛ ومزيل الصحة : الأدوية في غير وقتها ، وكأن مجموع هذا يرجع إلى الضرر إلا الخمر والمسكرات ؛ فإن الذي لا يسكر منها أيضا حرام مع قلته لعينه واصفته ، وهي الشدة المطربة . وأما السم فإذا خرج عن كونه مضرا لقلته أو لمعجنه بغيره فلا يحرم

وأما الحيوانات : فتقسم إلى ما يؤكل وإلى ما لا يؤكل ، وتفصيله في كتاب الأطعمة ، والنظر يطول في تفصيله ، لاسيما في الطيور الغريبة وحيوانات البر والبحر ، وما يحل أكله منها فإني محل إذا ذبح ذبحا شرعيا روعى فيه شروط الذابح والآلة والذبح ، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبايح ؛ وما لم يذبح ذبحا شرعيا أو مات فهو حرام ، ولا يحل إلا ميتتان : السمك والجراد ، وفي معنهما ما يستحيل من الأطعمة كدود التفاح والخل والجبن ، فإن الاحتراز منهما غير ممكن ؛ فأما إذا أفردت وأكأت لحكمها حكم الذباب والخنفساء والعقرب وكل ما ليس له نفس سائلة : لاسبب في تحريمها إلا الاستقذار ، ولو لم يكن لكان لا يكره ، فإن وجد شخص لا يستقذره لم يلتفت إلى خصوص طبعه فإنه التحق بالخبائث لعموم الاستقذار ، فيكره أكله ، كالوجع الخاط وشربه كره

ذلك ، وليست الكراهة لنجاستها فإن الصحيح أنها لا تنجس بالموت ، إذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه ^(١) ، وربما يكون حارا ويكون ذلك سبب موته ، ولو تهرت نملة أو ذبابة في قدر لم يجب إراقتهما ، إذ المستقدر هو جرمه إذا بقي له جرم ، ولم ينجس حتى يحرم بالنجاسة ، وهذا يدل على أن تحريمه للاستقذار ، ولذلك نقول : لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن ذائق حرم السكل لالنجاسته ، فإن الصحيح أن الآدمي لا ينجس بالموت ، ولكن لأن أكله محرم احتراماً لاستقذاراً . وأما الحيوانات المأكولة إذا ذبحت بشرط الشرع فلا تحل جميع أجزائها بل يحرم منها الدم والفرث وكل ما يقضى بنجاسته منها ، بل تناول النجاسة مطلقاً محرم ، ولكن ليس في الأعيان شيء محرم نجس إلا من الحيوانات . وأما من النبات فالمسكرات فقط دون ما يزيل العقل ولا يسكر كالبنج ، فإن نجاسة المسكر تغليظ للزجر عنه لكونه في مغلة التشوف ، ومهما وقعت قطرة من النجاسة أو جزء من نجاسة جامدة في مرقة أو طعام أو دهن حرم أكل جميعه ، ولا يحرم الانتفاع به لغير الأكل ، فيجوز الاستصباح بالدهن النجس ، وكذا طلاء السفن والحيوانات وغيرها ، فهذه مجامع ما يحرم لصفة في ذاته .

القسم الثاني : ما يحرم لحلال في جهة لإثبات اليد عليه

وفية يتسع النظر فنقول : أخذ المال إما أن يكون باختيار المالك أو بغير اختياره فالذي يكون بغير اختياره كالإرث ، والذي يكون باختياره إما أن لا يكون من مالك كنبيل المعادن ، أو يكون من مالك ، والذي أخذ من مالك فيما أن يؤخذ قهراً أو يؤخذ تراضياً ، والمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك كالغنائم ، أو لاستحقاق الأخذ كزكاة الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم ، والمأخوذ تراضياً إما أن يؤخذ بعوض كالبيع والصدق والأجرة ، وإما أن يؤخذ بغير عوض كالهبة والوصية ، فيحصل من هذا السياق ستة أقسام :

الأول : ما يؤخذ من غير مالك : كنبيل المعادن ، وإحياء الموات ، والاصطياد ، والاحتطاب ، والاستقاء من الأنهار ، والاحتشاش ، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذى حرمة من الآدميين ، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها أخذها . وتفصيل ذلك في كتاب إحياء الموات .

الثاني : المأخوذة قهراً من لحرمة له وهو النعم والغنيمة وسائر أموال الكفار والمحاربين ، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الجنس وقسموها بين المستحقين بالعدل ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد . وتفصيل هذه الشروط في كتاب السير من كتاب النعم والغنيمة وكتاب الجزية .

الثالث : ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه ، فيؤخذ دون رضاه ، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه واقتصر على القدر المستحق ، واستوفاه من يملك الاستيفاء من قاض أو سلطان أو مستحق : وتفصيل ذلك في كتاب تفريق الصدقات وكتاب الوقف وكتاب النفقات ، إذ فيها النظر في صفة المستحقين للزكاة والوقف والنفقة وغيرها من الحقوق ، فإذا استوفيت شرائطها كان المأخوذ حلالاً .

الرابع : ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة ، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين : أعني الإيجاب والقبول ، مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة . وبيان ذلك في كتاب البيع والسلم والإجارة والحوالة والضمان والقراض والشركة والمساقاة والشفعة والصلح والخلع والكتابة والصدق

(١) حديث الأمر بأن يقل الذباب في الطعام إذا وقع فيه . رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

وسائر المعاوضات .

الخامس : ما يؤخذ عن رضا من غير عوض ، وهو حلال إذا روعى فيه شرط المعقود عليه وشرط العاقدين وشرط العقد ولم يؤد إلى ضرر بوارث أو غيره وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات .

السادس . ما يحصل بغير اختيار كالميراث ، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال ، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا وتعديل القسمة بين الورثة وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجبا ، وذلك مذكور في كتاب الوصايا والفرائض : فهذه مجامع مداخل الحلال والحرام أو مانا إلى جعلها ليعلم المرید أنه إن كانت طعمته متفرقة لامن جهة معينة فلا يستغنى عن علم هذه الأمور ؛ فكل ما يأكله من جهة من الجهات ينبغى أن يستفتى فيه أهل العلم ولا يقدم عليه بالجهل ، فإنه كما يقال للعالم : لم خالفت علمك ؟ يقال للجاهل : لم لازمت جهلك ولم تتعلم بعد أن قبل لك طلب العلم فريضة على كل مسلم ؟

درجات الحلال والحرام

اعلم أن الحرام كله خبيث ، لكن بعضه أخبث من بعض ، والحلال كله طيب ، ولكن بعضه أطيب من بعض وأصنى من بعض ، وكما أن الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكن يقول : بعضها حار في الدرجة الأولى كالسكر ، وبعضها حار في الثانية كالفانيذ ، وبعضها حار في الثالثة كالدبس ، وبعضها حار في الرابعة كالعسل . كذلك الحرام بعضه خبيث حار في الدرجة الأولى ، وبعضه في الثانية أو الثالثة أو الرابعة : وكذا الحلال تتفاوت درجات صفاته وطيبه ، فلنقتد بأهل الطب في الاصطلاح على أربع درجات تقريبا . وإن كان التحقيق لا يوجب هذا الحصر ، إذ يتطرق إلى كل درجة من الدرجات أيضا تفاوت لا ينحصر ، فإن من السكر ما هو أشد حرارة من سكر آخر ، وكذا غيره ، فلذلك نقول : الورع عن الحرام على أربع درجات :

الأولى : ورع العدول ، وهو الذى يحجب الفسق باقتحامه وتسقط العدالة به ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه : وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء .

الثانية : ورع الصالحين ، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، ولكن المفتى يرخص في التناول بناء على الظاهر ، فهو من مواقع الشبهة على الجملة ، فلنقسم التخرج عن ذلك ورع الصالحين وهو في الدرجة الثانية .

الثالثة : مالا تحزمه الفتوى ولا شبهة في حله ، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم ، وهو ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس ، وهذا ورع المتقين . قال صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ماله بأس ^(١) » .

الرابعة : مالا بأس به أصلا ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ماله بأس ، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوى به على عبادة الله ، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية ، والامتناع منه ورع الصديقين ، فهذه درجات الحلال جملة إلى أن نفصلها بالأمثلة والشواهد .

وأما الحرام الذى ذكرناه في الدرجة الأولى وهو الذى يشترط التورع عنه في العدالة وإطراح سمة الفسق ، فهو أيضا على درجات في الخبث ، فالأخوذ بعقد فاسد كالمعاطاة مثلا فيما لا يجوز فيه المعاطاة حرام ، ولكن ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر ، بل المغصوب أغلظ ، إذ فيه ترك طريق الشرع في الاكتساب وإيذاء الغير ،

(١) حديث « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ماله بأس » رواه ابن ماجه ، وقد تقدم .

وليس في المعاطاة إيذاء ، وإنما فيه ترك طريق التعبد فقط ، ثم ترك طريق التعبد بالمعاطاة أهون من تركه بالربا ، وهذا التفاوت يدرك بتشديد الشرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي ، على ما سيأتي في كتاب التوبة عند ذكر الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، بل المأخوذ ظلماً من فقير أو صالح أو من يتيم أخبت وأعظم من المأخوذ من قوى أو غنى أو فاسق ، لأن درجات الإيذاء تختلف باختلاف درجات المؤذى ، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائث لا ينبغي أن يذهل عنها ، فلو لا اختلاف درجات العصاة لما اختلفت درجات النار ولذا عرفت مشارات التغليظ فلا حاجة إلى حصره في ثلاث درجات أو أربعة ، فإن ذلك جار مجرى التحكم والتشهي ، وهو طلب حصر فيما لا حصر له ، ويدل على اختلاف درجات الحرام في الحب ما سيأتي في تعارض المحذورات وترجيح بعضها على بعض ، حتى إذا اضطر إلى أكل ميتة أو أكل طعام الغير أو أكل صيد الحرم فإننا نقدم بعض هذا على بعض .

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا

أما الدرجة الأولى : وهي ورع العدول ، فكل ما اقتضى الفتوى تحريمه مما يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام لفقد شرط من الشروط ، فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية ، وهو الذي نريده بالحرام المطلق ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لا توجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها كما سيأتي في باب الشبهات إذ من الشبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام ، ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين ، كن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملسه ، وهذا وسواس . ومنها ما يستحب اجتنابها ولا يجب وهو الذي ينزل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) ، ونحمله على نهى التنزيه ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « كل ما أصميت ودع ما أنميت »^(٢) ، والإنماء : أن يجرى الصيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتاً ، إذ يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، والذي نخشاه كما سيأتي : أن هذا ليس بحرام ولكن تركه من وزع الصالحين . وقوله « دع ما يريبك » أمر تنزيه ، إذ ورد في بعض الروايات « كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثراً غير سهمك » ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في الكلب المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإن أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، على سبيل التنزيه لأجل الخوف . إذ قال لأبي ثعلبة الخشني « كل منه » فقال : وإن أكل منه ؟ فقال « وإن أكل »^(٣) ، وذلك لأن حالة أبي ثعلبة وهو فقير مكتسب لا تحتمل هذا الورع ، وحال عدي كان يحتمله . يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء ، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به ، فأمثله هذه الدرجة نذكرها في التعرض لدرجات الشبهة فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة

أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين ، فيشهد لها قوله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » ، وقال عمر رضي الله عنه . كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام .

(١) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه النسائي والترمذي والحاكم وصحاحه من حديث الحسن بن علي .

(٢) حديث « كل ما أصميت ودع ما أنميت » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس والبيهقي موقوفاً عليه وقال : لأن المرفوع ضعيف . (٣) حديث قال لأبي ثعلبة « كل منه » ؟ فقال : « وإن أكل ؟ » قال : « وإن أكل » رواه أبو داود من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ومن حديث أبي ثعلبة أيضاً مختصراً وإسنادهما جيد ، والبيهقي موقوفاً عليه وقال : لأن المرفوع ضعيف .

وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقى العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، ولهذا كان لبعضهم مائة درهم على إنسان ، فحملها إليه ، فأخذ تسعة وتسعين وتوزع عن استيفاء الكل خيفة الزيادة . وكان بعضهم يتحزّز ، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة وما يعطيه يوفيه بزيادة حبة ، ليكون ذلك حاجزا من النار ، ومن هذه الدرجة الاحتراز عما يتساح به الناس ، فإنّ ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجز إلى غيره وتآلف النفس الاسترسال وترك الورع : فمن ذلك ما روى عن علي بن معبد أنه قال : كنت ساكنا في بيت بكرام ، فكتبت كتابا وأردت أن أخذ من تراب الحائط لأتربه وأجففه ، ثم قلت : الحائط ليس لي ، فقالت لي نفسي : وما قدر تراب من حائط ، فأخذت من التراب حاجتي ، فلما نمت فإذا أنا بشخص واقف يقول : يا علي بن معبد ، سيعلم غدا الذي يقول : وما قدر تراب من حائط ، ولعل معنى ذلك أنه يرى كيف يحط من منزلته ، فإن للتقوى درجة تفوت بفوات ورع المتقين ، وليس المراد به أن يستحق عقوبة على فعله . ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه وصله مسك من البحرين فقال : وددت لو أنّ امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين ، فقالت امرأته عائكة : أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب ، فقال : لا أحببت أن تضعيه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين . وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين . فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال : وهل ينفع منه إلا بريجه لما استبعد ذلك منه . وأخذ الحسن رضى الله عنه تمر من تمر الصدقة وكان صغيرا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ »^(١) ، أي ألقها . ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فات ليلا فقال : أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق في الدهن . وروى سليمان التيمي عن نعيمة العطاراة قالت : كان عمر رضى الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه ، فباعته طيباً فجعلت تقوم وتريد وتنقص وتكسر بأبنائها ، فتعلق بأصبعها شيء منه فقالت به هكذا بأصبعها ، ثم مسحت به خمارها فدخل عمر رضى الله عنه فقال : ماهذه الرائحة ؟ فأخبرته فقال : طيب المسلمين تأخذينه ، فانتزع الخمار من رأسها وأخذ جرة من الماء فجعل يصب على الخمار ثم يدهلك في التراب ويشمه ، ثم يصب الماء ثم يدهلك في التراب ويشمه ، حتى لم يبق له ريح ، قالت : ثم أتيتها مرة أخرى فلما وزنت عني منه شيء بأصبعها ، فأدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت به التراب ، فهذا من عمر رضى الله عنه ورع التقوى ، لخوف أداء ذلك إلى غيره ، وإلا ففصل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين ، ولكن أثلفه عليها زجرا وردعا واتقاء من أن يتعدى الأمر إلى غيره . ومن ذلك ما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل يكون في المسجد يحمل بحمرة لبعض السلاطين ويبخر المسجد بالعود فقال : ينبغى أن يخرج من المسجد ، فإنه لا ينتفع من العود إلا برائحته ، وهذا قد يقارب الحرام ، فإنّ القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يقصد وقد يبخل به ، فلا يدرى أنه يتساح به أم لا . وسئل أحمد بن حنبل عن سقطت منه ورقة فيها أحاديث ، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها ؟ فقال : لا بل يستأذن ثم يكتب ، وهذا أيضا قديشك في أن صاحبها هل يرضى به أم لا ، فإما هو في محل الشك والأصل تحريمه فهو حرام ، وتركه من الدرجة الأولى . ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها - وإن كانت الزينة مباحة في نفسها . وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبئية فقال : أما أنا فلا أستعملها ولكن إن كان للطين فأرجو ، وأما من أراد الزينة فلا ، ومن ذلك أن عمر

(١) حديث : أخذ الحسن بن علي تمر من الصدقة وكان صغيراً فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كخ كخ » ، ألقها ، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

رضى الله عنه لما ولى الخلافة كانت له زوجة يحبها ، فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعته في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وهذا من ترك مالا بأس به مخافة مما به البأس : أى مخافة من أن يفضى إليه ، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات ، حتى استكثر الأكل واستعمال الطيب للتعزب فإنه يحترك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره ، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم ، مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله ، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحدوث ثانياً ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر ، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر ، حتى كره أحمد بن حنبل تجصيص الحيطان وقال : أما تجصيص الأرض فيمنع التراب ، وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه ، حتى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها ، واستدل بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه سئل أن يكحل المسجد ، فقال « لا ، عريش كعريش موسى ^(١) » ، وإنما هو شيء مثل الكحل يطلى به ، فلم يرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رق ثوبه رق دينه ، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحظور والمباح تشتييهما النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت ، فافتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله ، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة ، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألينة .

أما الدرجة الرابعة : وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل ما لا تتقدم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال المال قضاء وطر ، بل يتناول الله تعالى فقط وللتقوى على عبادته واستبقاء الحياة لأجله ، وهؤلاء هم الذين يرون كل ما ليس لله حراماً ، امثالاً لقوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهذه رتبة الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم ، المنفردين لله تعالى بالقصد ، ولا شك في أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية : فمن ذلك ما روى عن يحيى بن كثير أنه شرب الدواء ، فقالت له امرأته : لوتمشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء ، فقال : هذه مشية لأعرفها ، وأنا أحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة ، فكأنه لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين ، فلم يجز الإقدام عليها . وعن سري رحمه الله أنه قال : انتهيت إلى حشيش في جبل وماء يخرج منه ، فتناولت من الحشيش وشربت من الماء ، وقلت في نفسي : إن كنت قد أكلت يوماً حلالاً طيباً فهو هذا اليوم ، فهتف بي هاتف : إن القوة التي أوصلتك إلى هذا الموضع من أين هي ؟ فرجعت وندمت . ومن هذا ما روى عن ذى النون المصري أنه كان جائعاً محبوساً ، فبعثت إليه امرأة صالحة طعاماً على يد السجان ، فلم يأكل ، ثم اعتذر وقال : جاءني على طبق ظالم ، يعنى أن القوة التي أوصلت الطعام إلى لم تكن طيبة ، وهذه الغاية القصوى في الورع . ومن ذلك أن بشراً رحمه الله كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء ، فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه وإن كان الماء مباحاً في نفسه فيكون كالمستفح بالنهر المحفور بأعمال الأجراء وقد أعطوا الأجرة من الحرام ؛ ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال ، وقال لصاحبه : أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة ، وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء ، لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء . وكان بعضهم إذا مر في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة ، مع أن الماء مباح ، ولكنه بقي محفوظاً

(١) حديث : أنه سئل أن يكحل المسجد فقال « لا ، عريش كعريش موسى » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أبي الدرداء وقال : غريب .

بالمصنع الذى عمل به بمال حرام ، فكأنه انتفاع به . وامتناع ذى النون من تناول الطعام من يد السجناء أعظم من هذا كله ؛ لأن يد السجناء لا توصف بأنها حرام ، بخلاف الطبق المصنوب إذا حمل عليه ، ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة مع أنه شر به عن جهل ، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين ، ومن ذلك ؛ التورع من كسب حلال اكتسبه خياط يخطط فى المسجد ؛ فإن أحد رحمه الله كره جلوس الخياط فى المسجد . وسئل عن المغازلى يجلس فى قبة فى المقابر فى وقت يخاف من المطر ؛ فقال : إنما هى من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفالاً بعضهم سراجاً أسرجه غلامه من قوم يكره ما لهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقى فيه جمر من حطب مكروه . وامتنع بعضهم من أن يحكم شمع نعله فى مشعل السلطان ، فهذه دقائق الورع عند سالكى طريق الآخرة

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرّمته الفتوى وهو ورع العدول وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه ، أو اتصل بسببه مكروه وبينهما درجات فى الاحتياط ، فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط ، وأبعد عن أن ترجع كفة سيئاته على كفة حسناته ، وتتفاوت المنازل فى الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات فى الورع ، كما تتفاوت درجات النار فى حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام فى الخبث ، وإذا علمت حقيقة الأمر فالإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص ، والسلام .

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات ومشاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام ، كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه (١) ، فهذا الحديث نص فى إثبات الأقسام الثلاثة ، والمشكل منها القسم المتوسط الذى لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ، فلا بد من بيانها وكشف الغطاء عنها ، فإن ما لا يعرفه الكثير فقد يعرفه القليل ، فنقول :

الحلال المطلق : هو الذى خلا عن ذاته الصفات الموجبة للتحريم فى عينه ، وانحل عن أسبابه ما تطرق إليه تحريم أو كراهية ، ومثاله الماء الذى يأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على ملك أحد يكون هو واقفاً عند جمعه وأخذه من الهواء فى ملك نفسه أو فى أرض مباحة :

والحرام المحض : هو ما فيه صفة محرمة لا يشك فيها ، كالشدّة المطربة فى الخمر ، والنجاسة فى البول . أو حصل بسبب منهى عنه قطعاً كالحصل بالظلم والربا ونظائره ؛ فهذان طرفان ظاهران ، ويلتحق بالطرفين ما تحقق أمره ولكنه احتمال تغيره ، ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه ؛ فإنّ صيد البر والبحر حلال ؛ ومن أخذ ظبية فيحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم افلست منه ، وكذلك السمك يحتمل أن يكون قد تزلق من الصياد بعد وقوعه فى يده وخريطته ؛ فثل هذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المحتطف من الهواء ، ولكنه فى معنى ماء المطر ،

الباب الثانى : فى مراتب الشبهات

(١) حديث « الحلال بين والحرام بين ... الحديث » متفق عليه من حديث الزهمان بن بشير .

والاحتراز منه وسواس ، ولنسم هذا الفن ورع الموسوسين ، حتى تلتحق به أمثاله وذلك لأن هذا وهم مجرد لادلالة عليه ، نعم لو دل عليه دليل : فإن كان قاطعاً كما لو وجد حلقة في أذن السمكة ، أو كان محتملاً كما لو وجد على الظلية جراحة يحتمل أن يكون كذا لا يقدر عليه إلا بعد الضبط . ويحتمل أن يكون جرحاً ، فهذا موضع الورع ، وإذا انتفت الدلالة من كل وجه فالاحتمال المعلوم دلالتة كلاحتمال المعلوم في نفسه ، ومن هذا المجلس من يستعير داراً فيغيب عنه المعبر فيخرج ويقول : لعله مات وصار الحق للوارث ؛ فهذا وسواس إذ لم يدل على موته سبب قاطع أو مشكك إذ الشبهة المحذورة ما تنشأ من الشك ، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نشأ عن سببين ، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوى العقد المقابل له فيصير شكاً ، ولهذا نقول : من شك أنه صلى ثلاثاً أو أربعاً أخذ بالثلاث إذ الأصل عدم الزيادة . ولوسئل إنسان أن صلاة الظهر التي أداها قبل هذا بعشر سنين كانت ثلاثاً أو أربعاً لم يتحقق قطعاً أنها أربعة ، وإذا لم يقطع جواز أن تكون ثلاثة ، وهذا التجويز لا يكون شكاً ، إذ لم يحضره سبب أو وجب اعتقاد كونها ثلاثاً ، فلتفهم حقيقة الشك حتى لا يشتبه الوهم والتجويز بغير سبب فهذا يلتحق بالحلال المطلق . ويلتحق بالحرام المحض ما تحقق تحريمه وإن أمكن طريان محل ولكن لم يدل عليه سبب ، كمن في يدل طعام لمورثه الذي لا وارث له سواء ، فغاب عنه فقال : يحتمل أنه مات وقد انتقل الملك إلى فآ كله ، فأقدمه عليه إقدام على حرام محض ، لأنه احتمال لامستند له ، فلا يلغى أن يعد هذا النمط من أقسام الشبهات ، وإنما الشبهة لغى بها ما اشتبه علينا أمره بأن تعارض لنا فيه اعتقادان صدرا عن سببين مقتضيين للاعتقادين . ومشارت الشبهة خمسة :

المثار الأول : الشك في السبب المحلل والمحرم

وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً ، أو غلب أحد الاحتمالين ، فإن تعادل الاحتمالين كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب ولا يترك بالشك ، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه بأن صدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب ، ولا يتبين هذا إلا بالأمثال والشواهد ، فلنقسمه إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : أن يكون التحريم معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل ، فهذه شبهة يجب اجتنابها ويحرم الإقدام عليها . مثاله أن يرمى إلى صيد فيجرحه ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدرى أنه مات بالغرق أو بالجرح ، فهذا حرام لأن الأصل التحريم ، إلا إذا مات بطريق معين وقد وقع الشك في الطريق فلا يترك اليقين بالشك ، كما في الأحداث والنجاسات وركعات الصلاة وغيرها ، وعلى هذا ينزل قوله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم « لا تأكله فلعله قتله غير كلبك »^(١) ، فلذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هدية سأل عنه حتى يعلم أيهما هو^(٢) . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أرق ليلة فقالت له بعض نسائه : أرق يا رسول الله ، فقال : أجل ، وجدت تمره غشيت أن تكون من الصدقة »^(٣) ، وفي رواية « فأكلتها غشيت أن تكون من الصدقة » ومن ذلك ما روى عن بعضهم أنه قال : « كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابنا الجوع ، فزلنا منزلاً

(١) حديث « لا تأكله فلعله قتله غير كلبك » قاله لعدي بن حاتم متفق عليه من حديثه . (٢) حديث « كان إذا أتى بشيء اشتبه عليه أنه صدقة أو هبة يسأل عنه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٣) حديث : « أنه أرق ليلة فقال له بعض نسائه . أرق يا رسول الله ! فقال : « أجل ، وجدت تمره غشيت أن تكون من الصدقة » أخرجه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

كثير الضباب فبينما القدور تغلي بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة مسخت من بني إسرائيل أخشى أن تكون هذه ، فأكفأنا القدور ^(١) ، ثم أعلمه الله بعد ذلك أنه لم يمسح الله خلقا لجعل له نسلا ^(٢) . وكان امتناعه أولا لأن الأصل عدم الحل وشك في كون الذبح محلا .

القسم الثاني أن يعرف الحل ويشك في المحرم ، فالأصل الحل وله الحكم . كما إذا نكح امرأتين رجلان وطار طائر ، فقال أحدهما : إن كان هذا غرابا فامرأتي طالق ، وقال الآخر : إن لم يكن غرابا فامرأتي طالق . والتبس أمر الطائر فلا يقضى بالتحريم في واحدة منهما ولا يلزمهما اجتنابهما ، ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما حتى يحلا لسائر الأزواج ، وقد أمر مكحول بالاجتناب في هذه المسئلة ، وأقوى الشعبي بالاجتناب في رجلين كانا قد تنازعا ، فقال أحدهما للآخر : أنت حسود ، فقال الآخر : أحسدنا زوجته طالق ثلاثا ، فقال الآخر : نعم ، وأشكل الأمر ، وهذا إن أراد به اجتناب الورع فصحيح ، وإن أراد التحريم المحقق فلا وجه له ، إذ ثبت في المياه والنجاسات والأحداث والصلوات أن اليقين لا يجب تركه بالشك ، وهذا في معناه .

« فإن قلت : وأي مناسبة بين هذا وبين ذلك ؟ فاعلم أنه لا يحتاج إلى المناسبة ، فإنه لازم من غير ذلك في بعض الصور ، فإنه مهما تيقن طهارة الماء ثم شك في نجاسته جاز له أن يتوضأ به ، فكيف لا يجوز أن يشربه ؟ وإذا جوز الشرب فقد سلم أن اليقين لا يزال بالشك ، إلا أن ههنا دقيقة : وهو أن وزان الماء أن يشك في أنه طلق زوجته أم لا ؟ فيقال : الأصل أنه مطلق ووزان مسئلة الطائر أن يتحقق نجاسة أحد الإناءين ويشكبه عينه ؛ فلا يجوز أن يستعمل أحدهما بغير اجتهاد ، لأنه قابل يقين النجاسة ييقين الطهارة فيبطل الاستصحاب ، فكذلك ههنا قد وقع الطلاق على إحدى الزوجين قطعا ، والتبس عين المطلقة بغير المطلقة ، فنقول : اختلف أصحاب الشافعي في الإناءين على ثلاثة أوجه ، فقال قوم : يستصحب بغير اجتهاد ، وقال قوم : بعد حصول يقين النجاسة في مقابلة يقين الطهارة يجب الاجتناب ولا يغني الاجتهاد . وقال المقتصدون : يجتهد وهو الصحيح ، ولكن وزانه أن تكون له زوجتان فيقول إن كان غرابا فزنب طالق ، وإن لم يكن فعمرة طالق ، فلا جرم لا يجوز له غشيانهما بالاستصحاب ولا يجوز الاجتهاد ، إذ لا علامة ، ونحوهما عليه لأنه لو وطئهما كان مقتحما للحرام قطعا ، وإن وطئ إحداها وقال : أقصر على هذه ، كان متحكما بتعيينها من غير ترجيح . ففي هذا افتراق حكم شخص واحد أو شخصين ، لأن التحريم على شخص واحد متحقق ، بخلاف الشخصين . إذ كل واحد شك في التحريم في حق نفسه .

فإن قيل : فلو كان الإناءان لشخصين فينبغي أن يستغنى عن الاجتهاد ويتوضأ كل واحد بإيمانه لأنه تيقن طهارته وقد شك الآن فيه ، فنقول . هذا محتمل في الفقه والأرجح في ظني المنع ، وإن تعدد الشخصين ههنا كاتحاده ، لأن صحة الوضوء لا تستدعي ملكا ، بل وضوء الإنسان بماء غيره في رفع الحدث كوضوئه بماء نفسه ، فلا يتبين لاختلاف الملك واتحاده أثر ، بخلاف الوطء لزوجته الغير فإنه لا يحل ، ولأن للعلامات مدخلا في النجاسات ، والاجتهاد فيه ممكن بخلاف الطلاق ، فوجب تقوية الاستصحاب بعلامة ليدفع بها قوة يقين النجاسة المقابلة ليقين الطهارة ، وأبواب الاستصحاب والترجيحات من غوامض الفقه ودقائقه ، وقد استقصيناها في كتب الفقه ، ولسنا نقصد الآن إلا التنبيه على قواعدها .

(١) حديث : كما في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابنا الجوع ، ففرأنا من لا كثير الضباب ، فبينما القدور تغلي بها إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمة من بني إسرائيل مسخت فأخاف أن تكون هذه » فأكفأنا القدور . أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث عبد الرحمن وحسنه . وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه حديث ثابت بن زيد نحوه مع اختلاف قال البخاري : وحديث ثابت أصح . (٢) حديث : أنه لم يمسح الله خلقا لجعل له نسلا . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

القسم الثالث : أن يكون الأصل التحريم ، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب ، فهو مشكوك فيه ، والغالب حله ؛ فهذا ينظر فيه ؛ فإن استند غلبة الظن إلى سبب معتبر شرعا فالذى تختار فيه أنه يحل ، واجتنابه من الورع . مثاله : أن يرى إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتا وليس عليه أثر سوى سهمه ، ولكن يحتمل أنه مات بسقطة أو بسبب آخر ، فإن ظهر عليه أثر صدمة أو جراحة أخرى التحق بالقسم الأول . وقد اختلف قول الشافعى رحمه الله في هذا القسم ، واختار أنه حلال ، لأن الجرح سبب ظاهر وقد تحقق ، والأصل أنه لم يطرأ غيره عليه ، فطريانه مشكوك فيه ، فلا يدع اليقين بالشك .

فإن قيل : فقد قال ابن عباس : كل ما أصميت ودغ ما أنميت . وروى عائشة رضى الله عنها : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال : أصميت أو أنميت ؟ ، فقال : بل أنميت ، قال : « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذى خلقه ، فلعله أعان على قتله شيء ^(١) » ، وكذلك قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم في كلبه المعلم « وإن أكل فلا تأكل ، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ^(٢) » ، والغالب أن السكب المعلم لا يسمى خلقه ولا يمسك إلا على صاحبه ، ومع ذلك نهى عنه ، وهذا التحقيق : وهو أن الحل إنما يتحقق إذا تحقق تمام السبب ، وتتمام السبب بأن يفضى إلى الموت سليما من طريان غيره عليه ، وقد شك فيه فهو شك في تمام السبب حتى اشتبه أن موته على الحل أو على الحرمة ، فلا يكون هذا في معنى ما تحقق موته على الحل في ساعته ثم شك فيما يطرأ عليه . فالجواب : أن نهى ابن عباس ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم محمول على الورع والتنزيه ، بدليل ما روى في بعض الروايات أنه قال « كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثرا غير سهمك ^(٣) » ، وهذا تنبيه على المعنى الذى ذكرناه : وهو أنه إن وجد أثرا آخر فقد تعارض السببان بتعارض الظن ، وإن لم يجد سوى جرحه حصل غلبة الظن فيحكم به على الاستصحاب ، كما يحكم على الاستصحاب بخبر الواحد والقياس المظنون والعمومات المظنونة وغيرها . وأما قول القائل : إنه لم يتحقق موته على الحل في ساعة فيكون شكا في السبب فليس كذلك ، بل السبب قد تحقق ، إذ الجرح سبب الموت ، فطريان الغير شك فيه ، ويدل على صحة هذا : الإجماع ، على أن من جرح وغاب فوجد ميتا فيجب القصاص على جرحه ، بل إن لم يرغب يحتمل أن يكون موته بهيجان خلط في باطنه ، كما يموت الإنسان فجأة ، فينبغى أن لا يجب القصاص إلا بحر الرقبة والجرح المذفف ، لأن العلل القائلة في الباطن لا تؤمن ، ولاجلها يموت الصحيح فجأة ، ولا قائل بذلك ، مع أن القصاص مبناه على الشبهة ، وكذلك جنين المذكاة حلال ، ولعله مات قبل ذبح الأصل لا بسبب ذبحه أو لم ينفخ فيه الروح ، وغزة الجنين تجب ، ولعل الروح لم ينفخ فيه ، أو كان قد مات قبل الجنابة بسبب آخر ، ولكن يبنى على الأسباب الظاهرة ، فإن الاحتمال الآخر إذا لم يستند إلى دلالة تدل عليه التحق بالوهم والوسواس كما ذكرناه ، فكذلك هذا . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه ، فللشافعى رحمه الله

(١) حديث عائشة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب فقال : رميتى عرفت فيها سهمى ، فقال : « أصميت أو أنميت ؟ » قال : بل أنميت . قال : « إن الليل خلق من خلق الله لا يقدر قدره إلا الذى خلقه لعله أعان على قتله شيء » . ليس هذا من حديث عائشة ، وإنما روى موسى بن أبى عائشة عن أبى رزين قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصيد فقال : « لاني رميته من الليل فأعياني ، ووجدت سهمى فيه من الند وعرفت سهمى » فقال : « الليل خلق من خلق الله عظيم ، لعله أعانك عليها شيء » . روى أبو داود في المراسيل ، والبيهقي وقال : أبو رزين اسمه مسعود ، والحديث مرسل ، قال البخارى . (٢) حديث : قال لعدي بن حاتم المعلم « وإن أكل فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه » . متفق عليه من حديثه .

(٣) حديث « كل منه وإن غاب عنك ما لم تجد فيه أثر سهم غيرك » . متفق عليه من حديث عدي بن حاتم .

في هذه الصورة قولان ، والذي نختاره بالحكم بالتحريم : لأن السبب قد تعارض ، إذ السبب المعلم كالألة والوكيل يمسك على صاحبه فيحل ، ولو استرسل المعلم بنفسه فأخذ ، لم يحل ؛ لأنه يتصور منه أن يصطاد لنفسه ، ومهما أنبعث بإشارته ثم أكل دل ابتداء أنبعثه على أنه نازل منزلة آله وأنه يسعى في وكالته ونيابته ، ودل أكله آخر على أنه أمسك لنفسه للصاحبه ، فقد تعارض السبب الدال فيتعارض الاحتمال ، والأصل التحريم فيستصحب ، ولا يزال بالشك ، وهو كما لو وكل رجلا بأن يشتري له جارية فاشترى جارية ومات قبل أن يبين أنه اشتراها لنفسه أو لموكله يحل للموكل وطؤها ، لأن للموكل قدرة على الشراء لنفسه ولموكله جميعا ، ولا دليل مرجح والأصل التحريم ؛ فهذا يلتحق بالقسم الأول لا بالقسم الثالث .

القسم الرابع : أن يكون الحل معلوما ولكن يغلب على الظن طريان محرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعا ، فيرفع الاستصحاب ويقضى بالتحريم ، إذ بان لنا أن الاستصحاب ضعيف ولا يبق له حكم مع غالب الظن ، ومثاله أن يؤدي اجتهاده إلى نجاسة أحد الإناءين بالاعتقاد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه كما أوجب منع الوضوء به ، وكذا إذا قال : إن قتل زيد عمرأ أو قتل زيد صيدا منفردا بقتله فامرأى طالق فخرجه وغاب عنه فوجد ميتا : حرمت زوجته ، لأن الظاهر أنه منفرد بقتله كما سبق ، وقد نص الشافعي رحمه الله أن من وجد في الغدران ماء متغيرا احتمل أن يكون تغيره بطول المكث أو بالنجاسة فيستعمله ، ولو رأى ظبية بالت فيه ثم وجده متغيرا واحتمل أن يكون بالبول أو بطول المكث لم يحز استعماله ، إذ صار البول المشاهد دالة مغلبة لاحتمال النجاسة وهو مثال ما ذكرناه وهذا في غلبة ظن استند إلى علامة متعلقة بعين الشيء ، فأما غلبة الظن لامن جهة علامة تتعلق بعين الشيء فقد اختلف قول الشافعي رضي الله عنه في أن أصل الحل هل يزال به إذ اختلف قوله في التوضؤ من أواني المشركين ، ومدمن الخمر والصلاة في المقابر المنبوشة والصلاة مع طين الشوارع ، أعنى المقدار الزائد على ما يتعذر الاحتراز عنه ، وعبر الأصحاب عنه بأنه إذا تعارض الأصل والغالب فأيهما يعتبر ، وهذا جار في حل الشرب من أواني مدمن الخمر والمشركين ، لأن النجس لا يحل شربه ، فإذا أخذ النجاسة والحل واحد ، فالتردد في أحدهما يوجب التردد في الآخر ، والذي أختاره أن الأصل هو المعتبر ، وأن العلامة إذا لم تتعلق بعين المتناول لم توجب رفع الأصل ، وسيأتي بيان ذلك وبرهانه في المثار الثاني للشبهة وهي شبهة الخلط ، فقد اتضح من هذا حكم حلال شك في طريان محرم عليه أو ظن ، وحكم حرام شك في طريان محال عليه أو ظن ، وبان الفرق بين ظن يستند إلى علامة في عين الشيء وبين ما لا يستند إليه ، وكل ما حكنا في هذه الأقسام الأربعة بحله فهو حلال في الدرجة الأولى والاحتياط تركه ، فالمقدم عليه لا يكون من زمرة المتقين والصالحين بل من زمرة العدول الذين لا يقضى في فتوى الشرع بفسقهم وعصيانهم واستحقاقهم العقوبة ، إلا ما ألحقناه برتبة الوسواس فإن الاحتراز عنه ليس من الورع أصلا .

المثار الثاني للشبهة : شك منشؤه الاختلاط

وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال ويشبه الأمر ولا يتميز ، والخلط لا يخلو : إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما ، أو بعدد محصور ، فإن اختلط بمحصور فلا يخلو : إما أن يكون اختلاط امتزاج بحيث لا يتميز بالإشارة كاختلاط المسائعات . أو يكون اختلاط استيهام مع التميز للأعيان كاختلاط الأعبد والدور والأفراس ، وأندى يختلط بالاستيهام فلا يخلو : إما أن يكون مما يقصد عينه كالعروض ، أو لا يقصد كالنقود ،

فيخرج من هذا التقسيم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن تستبهم العين بعدد محصور ، كالمو اختلطت الميتة بمذكاة أو بعشر مذكيات ، أو اختلطت رضيعة بعشر نسوة ، أو يتزوج إحدى الأختين ثم تلتبس ، فهذه شبهة يجب اجتنابها بالإجماع ، لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا ، وإذا اختلطت بعدد محصور صارت الجملة كالشيء الواحد ، فتقابل فيه يقين التحريم والتحليل ، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فيطراً اختلاطاً بمحرم ، كما لو أوقع الطلاق على إحدى زوجتين في مسئلة الطائر ، أو يختلط قبل الاستحلال كما لو اختلطت رضيعة بأجنبية فأراد استحلال واحدة ، وهذا قد يشكل في طريان التحريم كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب . وقد نهينا على وجه الجواب : وهو أن يقين التحريم قابل يقين الحل فضعف الاستصحاب وجانب الحظر أغلب في نظر الشرع ، فلذلك ترجح ، وهذا إذا اختلط حلال محصور بحرام محصور . فإن اختلط حلال محصور بحرام غير محصور ، فلا يخفى أن وجوب الاجتناب أولى .

القسم الثاني : حرام محصور بحلال غير محصور ، كما لو اختلطت رضيعة أو عشر رضائع بنسوة بلد كبير ، فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح نساء أهل البلد ، بل له أن ينكح من شاء منهن ، وهذا لا يجوز أن يعمل بكثرة الحلال ، إذ يلزم عليه أن يجوز النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال ولا فائز به ، بل العله الغلبة والحاجة جميعا ، إذ كل من ضاع له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرة أو سبب من الأسباب فلا يمكن أن يستد عليه باب النكاح ، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لا يلزمه ترك الشراء والأكل ؛ فإن ذلك حرج ، ومافى الدين من حرج . ويعلم هذا بأنه لما سرق في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بجن (١) وغل واحد في الغنيمة عبادة (٢) ، لم يتمتع أحد من شراء المجان والعباء في الدنيا ، وكذلك كل ماسرق ، وكذلك كان يعرف أن في الناس من يربي في الدراهم والدنانير . وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم والدنانير بالسككية (٣) . وبالجمله إنما تنفك الدنيا عن الحرام إذا عصم الخلق كلهم عن المعاصي ، وهو محال . وإذا لم يشترط هذا في الدين لم يشترط أيضا في بلد إلا إذا وقع بين جماعة محصورين ، بل اجتناب هذا من ورع الموسوسين ، إذ لم ينقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا يتصور الوفاء به في ملة من الملل ولا في عصر من الأعصار .

• فإن قلت : فكل عدد محصور في علم الله ، فما حد المحصور ؟ ولو أراد الإنسان أن يحصر أهل بلد لقدر عليه أيضا إن تمكن منه • فاعلم أن تحديد أمثال هذه الأمور غير ممكن ، وإنما يضبط بالتقريب . فنقول : كل عدد لو اجتمع على صعيد واحد لعسر على الناظر عددهم بمجرد النظر ، كالألف والالفين فهو غير محصور ، وما سهل كالعشرة والعشرين فهو محصور ، وبين الطرفين أوساط متشابهة تلحق بأحد الطرفين بالظن ، وما وقع الشك فيه استفتى فيه القلب ، فإن الإثم حراز القلوب . وفي مثل هذا المقام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ابصرت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك (٤) ، وكذا الأقسام الأربعة التي ذكرناها في المثال الأول يقع فيها أطراف متقابلة واضحة في النفي والإثبات وأوساط متشابهة ، فلمفتى يفتى بالظن ، وعلى المستفتى أن يستفتى

(١) حديث سرقه الجني في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع سارقاً في بجن قيمته ثلاثة دراهم . (٢) حديث « غل واحد من الغنائم عبادة » رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر ، واسم النال : كركرة . (٣) حديث : إن في الناس من كان يربي في الدراهم والدنانير • وماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الناس الدراهم بالسككية ، هذا معروف ، وسيأتي حديث جابر بعده بحديث . وهو يدل على ذلك . (٤) حديث « استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك » قاله لو ابصرت قلبك .

قلبه ، فإن حاك في صدره شيء فهو الإثم بيته وبين الله ، فلا ينجليه في الآخرة فتوى المفتي ، فإنه يفتى بالظاهر والله يتولى السرائر .

القسم الثالث : أن يختلط حرام لا يحصر بجلال لا يحصر ، تحكم الأموال في زماننا هذا ، فالذي يأخذ الأحكام من الصور قد يظن أن نسبة غير المحصور إلى غير المحصور كنسبة المحصور إلى المحصور ، وقد حكمتنا ثم بالتحريم ، فلنحكم هنا به : والذي نختاره خلاف ذلك : وهو أنه لا يحرم بهذا الاختلاط أن يتناول شيء بعينه احتمال أنه حرام وأنه حلال ، إلا أن يقرن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام ، فإن لم يكن في العين علامة تدل على أنه من الحرام فتوركه ورع وأخذه حلال لا يفسق به آكله : ومن العلامات : أن يأخذه من يد سلطان ظالم ، إلى غير ذلك من العلامات التي سيأتي ذكرها ، ويدل عليه الأثر والقياس ، فأما الأثر . فما علم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بعده ، إذ كانت أئمان الخمر ودرهم الربا من أيدي أهل الذمة مختلطة بالأموال ، وكذا غلول الأموال ، وكذا غلول الغنيمة ، ومن الوقت الذي نهى صلى الله عليه وسلم عن الربا إذ قال : « أول ربا أضعه ربا العباس ^(١) » ، مترك الناس الربا بأجمعهم كما لم يتركوا شرب الخمر وسائر المعاصي ، حتى روى أن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باع الخمر ، فقال عمر رضي الله عنه . لعن الله فلانا هو أول من سن بيع الخمر ، إذ لم يكن قد فهم أن تحريم الخمر تحريم لثمنها . وقال صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يجر في النار عبادة قد غلها ^(٢) » ، وقتل رجل فقتلوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوي درهمين قد غلها ^(٣) ، وكذلك أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة ولم يمتنع أحد منهم عن الشراء والبيع في السوق بسبب نهب المدينة وقد نهبها أصحاب يزيد ثلاثة أيام ، وكان من يمتنع من تلك الأموال مشارا إليه في الورع ، والا كثرون لم يمتنعوا مع الاختلاط وكثرة الأموال المنهوبة في أيام الظلمة . ومن أوجب مالم يوجبه السلف الصالح وزعم أنه تفتن من الشر مالم يتفطنوا له فهو موسوس مختل العقل ولو جاز أن يزداد عليهم في أمثال هذا لجاز مخالفتهم في مسائل لا مستند فيها سوى اتفاقهم كقولهم « إن الجدة كالأم في التحريم وابن الابن كالابن وشعر الخنزير وشحمه كاللحم المذكور تحريمه في القرآن ، والربا جار فيما عدا الأشياء الستة . وذلك محال فإنهم أولى بفهم الشرع من غيرهم . وأما القياس فهو أنه لو فتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات وخرب العالم إذ الفسق يقلب على الناس ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود ويؤدي ذلك لاحتالة إلى الاختلاط .

« فإن قيل . فقد نقلتم أنه صلى الله عليه وسلم امتنع من الضرب وقال « أخشى أن يكون مما مسخه الله » وهو في اختلاط غير المحصور ؟ قلنا يحمل ذلك على التنزه والورع أو نقول الضرب شكل غريب ربما يدل على أنه من المسخ فهي دلالة في عين المتناول .

« فإن قيل هذا معلوم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة بسبب الربا والمرقة والنهب وغلول الغنيمة وغيرها ولكن كانت هي الأقل بالإضافة إلى الحلال فماذا تقول في زماننا وقد صار الحرام أكثر مافي أيدي الناس لفساد المعاملات وإهمال شروطها وكثرة الربا وأموال السلاطين الظلمة ، فمن أخذ مالا لم يشهد

(١) حديث « أول ربا أضعه ربا العباس » أخرجه مسلم من حديث جابر .

(٢) حديث « إن فلانا في النار يجر عبادة قد غلها » رواه البخاري من حديث عبدالله بن عمر ، وتقدم قبله بثلاثة أحاديث .

(٣) حديث : قتل رجل فقتلوا متاعه فوجدوا فيه خمرات من خمر اليهود لا تساوي درهمين قد غلها . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث زيد بن خالد الجهني .

عليه علامة معينة في عينه للتحريم فهل هو حرام أم لا ؟ فأقول ليس ذلك حراما وإنما الورع تركه وهذا الورع أهم من الورع إذا كان قليلا .

ولكن الجواب عن هذا أن قول القائل أكثر الأموال حرام في زماننا غلط محض ومنشؤه الغفلة عن الفرق بين الكثير والأكثر فأكثر الناس بل أكثر الفقهاء يظنون أن ماليس بنادر فهو الأكثر ويتوهمون أنهما قسمان متقابلان ليس بينهما ثالث وليس كذلك بل الأقسام ثلاثة قليل وهو النادر وكثير وأكثر ومثاله أن الخنثى فيما بين الخلق نادر وإذا أضيف إليه المريض وجد كثيرا وكذا السفر حتى يقال المرض والسفر من الأعذار العامة والاستحاضة من الأعذار النادرة ، ومعلوم أن المرض ليس بنادر وليس بالأكثر أيضاً بل هو كثير . والفقهاء إذا تساهل وقال المرض والسفر غالب وهو عذر عام أراد به أنه ليس بنادر فإن لم يرد هذا فهو غلط والصحيح والمقيم هو الأكثر والمسافر والمريض كثير والمستحاضة والخنثى نادر . فإذا فهم هذا فنقول : قول القائل الحرام أكثر باطل لأن مستند هذا القائل إما أن يكون كثرة الظلمة والجندية أو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة أو كثرة الأيدي التي تكثرت من أول الإسلام إلى زماننا هذا على أصول الأموال الموجودة اليوم . أما المستند الأول فباطل فإن الظالم كثير وليس هو بالأكثر فإنهم الجندية إذ لا يظلم إلا ذو غلبة وشوكة وهم إذا أضيفوا إلى كل العالم لم يبلغوا عشر عشيرهم ، فكل سلطان يجتمع عليه من الجنود مائة ألف مثلاً فيملك إقليماً يجمع ألف ألف وزيادة ولعل بلدة واحدة من بلاد مملكته يزيد عددها على جميع عسكره ، ولو كان عدد السلاطين أكثر من عدد الرعايا لهلك الكل إذ كان يجب على كل واحد من الرعية أن يقوم بعشرة منهم مثلاً مع تنعمهم في المعيشة ولا يتصور ذلك بل كفاية الواحد كان منهم تجتمع من ألف من الرعية وزيادة ، وكذا القول في السراق فإن البلدة الكبيرة تشتمل منهم على قدر قليل . وأما المستند الثاني وهو كثرة الربا والمعاملات الفاسدة فهي أيضاً كثيرة وليست بالأكثر إذ أكثر المسلمين يتعاملون بشروط الشرع فعدد هؤلاء أكثر والذي يعامل بالربا أو غيره فلو عددت معاملاته وحده لكان عدد الصحيح منها يزيد على الفاسد إلا أن يطلب الإنسان بوجهه في البلد مخصوصا بالجناة والخبث وقلة الدين حتى يتصور أن يقال معاملاته الفاسدة أكثر ، ومثل ذلك المخصوص نادر وإن كان كثيراً فليس بالأكثر لو كان كل معاملاته فاسدة كيف ولا يخلو هو أيضاً عن معاملات صحيحة تساوى الفاسدة أو تزيد عليها وهذا مقطوع به لمن تأمله وإنما غلب هذا على النفوس لاستكثار النفوس الفساد واستعبادها إياه واستعظامها له وإن كان نادراً حتى ربما يظن أن الربا وشرب الخمر قد شاع كما شاع الحرام فيتهيّل أنهم الأكثرون وهو خطأ فإنهم الأقلون وإن كان فيهم كثرة . وأما المستند الثالث وهو أخيلها أن يقال الأموال إنما تحصل من المعادن والنبات والحيوان ، والنبات والحيوان حاصلان بالتوالد ، فإذا نظرنا إلى شاة مثلاً وهي تلد في كل سنة فيكون عدد أصولها إلى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من خمسمائة ولا يخلو هذا أن يتطرق إلى أصل من تلك الأصول غضب أو معاملة فاسدة فكيف يقدر أن تسلم أصولها عن تصرف باطل إلى زماننا هذا ؟ وكذا بذور الحبوب والفواكه تحتاج إلى خمسمائة أصل أو ألف أصل مثلاً إلى أول زمان الشرع ولا يكون هذا حلالاً ما لم يكن أصله وأصل أصله كذلك إلى أول زمان النبوة حلالاً وأما المعادن فهي التي يمكن نيلها على سبيل الابتداء وهي أقل الأموال وأكثر ما يستعمل منها الدراهم والدنانير ولا تخرج إلا من دار الضرب وهي في أيدي الظلمة مثل المعادن في أيديهم يمنعون الناس منها ويلزمون الفقراء استخراجها بالأعمال الشاقة ثم يأخذونها منهم غصباً فإذا نظر إلى هذا علم أن بقاء دينار واحد بحيث لا يتطرق إليه عقد فاسد

ولا ظلم وقت النيل ولا وقت الضرب في دار الضرب ولا بعده في معاملات الصرف والربا بعيد نادر أو محال فلا يبقى إذن حلال إلا الصيد والحشيش في الصحارى الموات والمفاوز والخطب المباح ثم من يحصله لا يقدر على أكله فيفتقر إلى أن يشتري به الحبوب والحيوانات التي لا تحصل إلا بالاستنابات والتوالد فيكون قد بذل حلالا في مقابلة حرام فهذا هو أشد الطرق تخيلا . والجواب أن هذه الغلبة لم تنشأ من كثرة الحرام المخلوط بالحلال فخرج عن النمط الذى نحن فيه والتحق بما ذكرناه من قبل وهو تعارض الأصل والغالب إذا الأصل في هذه الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضى عليها وقد عارضه سبب غالب يخرج عن الصلاح له فيصاهى هذا محل القولين للشافعى رضى الله عنه في حكم النجاسات ، والصحيح عندنا أنه تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم يجد فيها نجاسة فإن طين الشوارع طاهر وأن الوضوء من أواني المشركين جائز وأن الصلاة في المقابر المنبوشة جائزة فنبت هذا أولا ثم نقيس ما نحن فيه عليه ، ويدل على ذلك توضؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة ، وتوضؤ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع أن مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحتزون عما نجسه شرعا ، فكيف تسلم أوانيهم من أيديهم ؟ بل نقول نعلم قطعا أنهم كانوا يلبسون الفراء المدبوغة والثياب المصبوغة والمقصورة ، ومن تأمل أحوال الدباغين والقصارين والصباغين علم أن الغالب عليهم النجاسة ، وأن الطهارة في تلك الثياب محال أو نادر ، بل نقول نعلم أنهم كانوا يأكلون خبز البر والشعير ولا يغسلونه مع أنه يداس بالبقر والحيوانات وهي تبول عليه وتروث وقلبا يخلص منها وكانوا يركبون الدواب وهي تعرق وما كانوا يغسلون ظهورها مع كثرة تمرغها في النجاسات بل كل دابة تخرج من بطن أمها وعليها رطوبات نجسة قد تزيلها الأمطار وقد لا تزيلها وما كان يحتز عنها ، وكانوا يمشون حفاة في الطرق وبالنعال ويصلون معها ويجلسون على التراب ويمشون في الطين من غير حاجة ، وكانوا لا يمشون في البول والعدرة ولا يجلسون عليهما ويستنزهن منه ، ومتى تسلم الشوارع عن النجاسات مع كثرة الكلاب وأبوالها وكثرة الدواب وأرواثها ؟ ولا ينبغي أن نظن أن الأعصار أو الأمصار تختلف في مثل هذا حتى يظن أن الشوارع كانت تغسل في عصرهم أو كانت تحرس من الدواب هيئات فذلك معلوم استحالته بالعادة قطعا فدل على أنهم لم يحتزوا إلا من نجاسة مشاهدة أو علامة على النجاسة دالة على العين . فأما الظن الغالب الذى يستثار من رد الدراهم إلى مجارى الأحوال فلم يعتبروه وهذا عند الشافعى رحمه الله وهو يرى أن الماء القليل ينجس من غير تغير واقع إذ لم يزل الصحابة يدخلون الحمامات ويتوضئون من الحياض وفيها المياه القليلة والأيدى المختلفة تغمس فيها على الدوام ، وهذا قاطع في هذا الغرض ومهما ثبت جواز التوضؤ من جرة نصرانية ثبت جواز شربه والتحق حكم الحل بحكم النجاسة .

* فإن قيل : لا يجوز قياس الحل على النجاسة إذ كانوا يتوسعون في أمور الطهارات ويحتزون من شبهات الحرام غاية التحز فكيف يقاس عليها ؟ قلنا إن أريد به أنهم صلوا معها مع النجاسة والصلاة معصية وهي عماد الدين فبئس الظن بل يجب أن نعتقد فيهم أنهم احتزوا عن كل نجاسة وجب اجتنابها وإنما تسامحوا حيث لم يجب وكان في محل تسامحهم هذه الصورة التي تعارض فيها الأصل والغالب فبان أن الغالب الذى لا يستند إلى علامة تتعلق بعين ما فيه النظر مطرح ، وأما تورعهم في الحلال فكان بطريق التقوى وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس لأن أمر الأموال مخوف والنفس تميل إليها إن لم تضبط عنها ، وأمر الطهارة ليس كذلك فقد امتنع طائفة منهم عن الحلال المحض خيفة أن يشغل قلبه . وقد حكى عن واحد منهم أنه احتز من الوضوء بماء البحر وهو الطهور المحض ، فالافتراق في ذلك لا يقدح في الغرض الذى أجمعنا فيه ، على أننا نجرى في هذا المستند

على الجواب الذى قدّمنا فى المستندين السابقين ولا نسلم ما ذكره من أنّ الأكثر هو الحرام لأنّ المال وإن كثرت أصوله فليس بواجب أن يكون فى أصوله حرام بل الأموال الموجودة اليوم بما تطرق الظلم إلى أصول بعضها دون بعض ، وكما أن الذى يبتدأ غصبه اليوم هو الأقل بالإضافة إلى ما لا يغصب ولا يسرق فهكذا كل مال فى كل عصر وفى كل أصل فالمغصوب من مال الدنيا والمتناول فى كل زمان بالفساد بالإضافة إلى غيره أقل ، ولسنا ندرى أنّ هذا الفرع بعينه من أى القسمين ؟ فلا نسلم أن الغالب تحريمه فإنه كما يزيد المغصوب بالتوالد يزيد غير المغصوب بالتوالد فيكون فرع الأكثر لا محالة فى كل عصر وزمان أكثر ، بل الغالب أن الحبوب المغصوبة تغصب للأكل لا للبذر وكذا الحيوانات المغصوبة أكثرها يؤكل ولا يقتنى للتوالد فكيف يقال إن فروع الحرام أكثر ولم تزل أصول الحلال أكثر من أصول الحرام ؟ وليتفهّم المسترشد من هذا طريق معرفة الأكثر فإنه منزلة قدم وأكثر العلماء يغلطون فيه فكيف العوام ؟ هذا فى المتولدات من الحيوانات والحبوب فأما المعادن فإنها مخلقة مسبلة يأخذها فى بلاد الترك وغيرها من شاء ولكن قد يأخذ السلاطين بعضها منهم أو يأخذون الأقل لا محالة لا الأكثر ، ومن حاز من السلاطين معدنا فظلمه يمنع الناس منه فأما ما يأخذه الآخذ منه فيأخذه من السلطان بأجرة والصحيح أنه يجوز الاستنابة فى إثبات اليد على المباحات والاستئجار عليها ، فالمستأجر على الاستقاء إذا حاز الماء دخل فى ملك المستقى له واستحق الأجرة فكذلك النيل فإذا فرغنا على هذا لم تحرم عين الذهب إلا أن يقدر ظلمه بنقصان أجرة العمل وذلك قليل بالإضافة ثم لا يوجب تحريم عين الذهب بل يكون ظلما ببقاء الأجرة فى ذمته ، وأما دار الضرب فليس الذهب الخارج منها من أعيان ذهب السلطان الذى غصبه وظلم به الناس بل التجار يحملون إليهم الذهب المسبوك أو النقد الرديء ويستأجرونهم على السبك والضرب ويأخذون مثل وزن ماسلوه إليهم إلا شيئا قليلا يتركونه أجرة لهم على العمل وذلك جائز ، وإن فرض دنائير مضروبة من دنائير السلطان فهو بالإضافة إلى مال التجار أقل لا محالة ، نعم السلطان يظلم أجراء دار الضرب بأن يأخذ منهم ضريبة لأنه خصصهم بها من بين سائر الناس حتى توفر عليهم مال بحشمة السلطان فما يأخذه السلطان عوض من حشمة وذلك من باب الظلم وهو قليل بالإضافة إلى ما يخرج من دار الضرب فلا يسلم لأهل دار الضرب والسلطان من جملة ما يخرج منه من المائة واحد وهو عشر العشير فكيف يكون هو الأكثر ؟ فهذه أغاليط سبقت إلى القلوب بالوهم وتشمر لتزيينها جماعة ممن رق دينهم حتى قبحوا الورع وسدوا بابه واستتبعوا تمييز من يميز بين مال ومال وذلك عين البدعة والضلال .

• فإن قيل : فلو قدر غلبة الحرام وقد اختلط غير محصور بغير محصور فماذا تقولون فيه إذا لم يكن فى العين المتناولة علامة خاصة ؟ فنقول الذى نراه أن تركه ورع وأن أخذه ليس بحرام لأن الأصل الحل ولا يرفع إلا بعلامة معينة كما فى طين الشوارع ونظائرها . بل أزيد وأقول : لو طبق الحرام الدنيا حتى علم يقينا أنه لم يبق فى الدنيا حلال لكنت أقول نستأنف تمهيد الشروط من وقتنا ونعفو عما سلف ونقول ما جاوز حده انعكس إلى ضده فهما حرم الكل حل الكل : وبرهانه أنه إذا وقعت هذه الواقعة فالاحتمالات خمسة (أحدها) أن يقال يدع الناس الأكل حتى يموتوا من عند آخرهم . (الثانى) أن يقتصروا منها على قدر الضرورة وسد الرق يزجون عليها إياما إلى الموت . (الثالث) أن يقال يتناولون قدر الحاجة كيف شاءوا سرقة وغصبا وتراضيا من غير تمييز بين مال ومال وجهة وجهة . (الرابع) أن يتبعوا شروط الشرع ويستأنفوا قواعده من غير اقتصار على قدر الحاجة . (الخامس)

أن يقتصروا مع شروط الشرع على قدر الحاجة . أما الأول فلا يخفى بطلانه . وأما الثاني فباطل قطعاً لأنه إذا اقتصر الناس على سد الرمق وزجوا أوقاتهم على الضعف فشا فيهم الموتان وبطلت الأعمال والصناعات وخربت الدنيا بالكلية - وفي خراب الدنيا خراب الدين لأنها مزرعة الآخرة - وأحكام الخلافة والقضاء والسياسات بل أكثر أحكام الفقه مقصودها حفظ مصالح الدنيا لئتم بها مصالح الدين . وأما الثالث وهو الاقتصار على قدر الحاجة من غير زيادة عليه مع التسوية بين مال ومال بالغصب والسرقة والتراخي وكيفما اتفق فهو رفع لسد الشرع بين المفسدين وبين أنواع الفساد فتمتد الأيدي بالغصب والسرقة وأنواع الظلم ولا يمكن زجرهم منه إذ يقولون ليس يتميز صاحب اليد باستحقاق عنا فإنه حرام عليه وعلينا وذواليد له قدر الحاجة فقط فإن كان هو محتاجاً فإننا أيضاً محتاجون وإن كان الذي أخذته في حق زائداً على الحاجة فقد سرقة من هو زائد على حاجته يومه وإذا لم يراع حاجته اليوم والسنة فما الذي نراعى وكيف يضبط ؟ وهذا يؤدي إلى بطلان سياسة الشرع وإغراء أهل الفساد بالفساد ، فلا يبقى إلا الاحتمال الرابع وهو أن يقال كل ذي يد على ما في يده وهو أولى به لا يجوز أن يؤخذ منه سرقة وغصبا بل يؤخذ برضاه والتراخي هو طريق الشرع وإذا لم يحز إلا بالتراخي فللتراخي أيضاً منهاج في الشرع تتعلق به المصالح ، فإن لم يعتبر فلم يتعين أصل التراخي وتعطل تفصيله ؟ وأما الاحتمال الخامس وهو الاقتصار على قدر الحاجة مع الاكتساب بطريق الشرع من أصحاب الأيدي فهو الذي نراه لا نقا بالورع لمن يريد سلوك طريق الآخرة ولكن لا وجه لإيجابه على الكافة ولا لإدخاله في فتوى العامة لأن أيدي الظلمة تمتد إلى الزيادة على قدر الحاجة في أيدي الناس وكذا أيدي السراق ، وكل من غلب سلب وكل من وجد فرصة سرق ويقول لا حق له إلا في قدر الحاجة وأنا محتاج ولا يبقى إلا أن يجب على السلطان أن يخرج كل زيادة على قدر الحاجة من أيدي الملاك ويستوعب بها أهل الحاجة ويدر على الكل الأموال - يوماً فيوماً أو سنة فسنة - وفيه تكليف شطط وتضييع أموال ، أما تكليف الشطط فهو أن السلطان لا يقدر على القيام بهذا مع كثرة الخلق بل لا يتصور ذلك أصلاً وأما التضييع فهو أن مافضل عن الحاجة من الفواكه واللحوم والحبوب ينبغى أن يلقي في البحر أو يترك حتى يتعفن فإن الذي خلقه الله من الفواكه والحبوب زائد عن قدر توسع الخلق وترفعهم فكيف على قدر حاجتهم ؟ ثم يؤدي ذلك إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية وكل عبادة نيطة بالغنى عن الناس إذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم وهو في غاية القبح ، بل أقول لو ورد نبي في مثل هذا الزمان لوجب عليه أن يستأنف الأمر ويمهد تفصيل أسباب الأملاك بالتراخي وسائر الطرق ويفعل مايفعله لو وجد جميع الأموال حلالاً من غير فرق . وأعني بقولي : يجب عليه ، إذا كان النبي ممن بعث لمصلحة الخلق في دينهم ودنياهم إذ لا يتم الإصلاح برد الكافة إلى قدر الضرورة والحاجة إليه فإن لم يبعث للإصلاح لم يجب هذا . ونحن نجهز أن يقدر الله سبباً يهلك به الخلق عن آخرهم فيفوت دنياهم ويضلون في دينهم فإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويميت من يشاء ويحيى من يشاء ولكننا نقدر الأمر جارياً على ما ألف من سنة الله تعالى في بعثة الأنبياء لإصلاح الدين والدنيا . ومالي أقدر هذا وقد كان ما أقدره ، فلقد بعث الله نبينا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وكان شرع عيسى عليه السلام قد مضى عليه قريب من ستمائة سنة والناس منقسمون إلى مكذبين له من اليهود وعبداء الأوثان وإلى مصدقين له قدشاع الفسق فيهم كما شاع في زماننا الآن والكفار مخاطبون بفروع الشريعة . والأموال كانت في أيدي المكذبين له والمصدقين ، أما المكذبون فكانوا يتعاملون بغير شرع عيسى عليه السلام وأما المصدقون فكانوا يتساهلون مع أصل التصديق

كما يتساهل الآن المسلمون مع أن العهد بالنبوة أقرب فكانت الأموال كلها أو أكثرها أو كثير منها حراما . وعفا صلى الله عليه وسلم عما سلف ولم يتعرض له وخصص أصحاب الأيدي بالأموال ومهد الشرع وما ثبت تحريره في شرع لا ينقلب حلالا لبعثته رسول ولا ينقلب حلالا بأن يسلم الذي في يده الحرام ، فإننا لا نأخذ في الجزية من أهل الذمة ما نعرفه بعينه أنه ثمن خمر أو مال ربا فقد كانت أموالهم في ذلك الزمان كأموالنا الآن ، وأمر العرب كان أشد لعموم النهب والغارة فيهم . فبان أن الاحتمال الرابع متعين في الفتوى ، والاحتمال الخامس هو طريق الورع ، بل تمام الورع الاقتصار في المباح على قدر الحاجة وترك التوسع في الدنيا بالكلية وذلك طريق الآخرة . ونحن الآن نتكلم في الفقه المنوط بمصالح الخلق وفتوى الظاهر له حكم ومنهاج على حسب مقتضى المصالح وطريق الدين الذي لا يقدر على سلوكه إلا الآحاد ولو اشتغل الخلق كلهم به لبطل النظام وخرب العالم فإن ذلك طلب ملك كبير في الآخرة ولو اشتغل كل الخلق بطلب ملك الدنيا وتركوا الحرف الدنيئة والصناعات الخسيسة لبطل النظام ثم يبطل ببطالانه الملك أيضا . فالمحترفون إنما سخروا لينتظم الملك للملوك وكذلك المقبولون على الدنيا سخروا ليسلم طريق الدين لذوى الدين وهو ملك الآخرة ولولاه لما سلم لذوى الدين أيضا دينهم فشرط سلامة الدين لهم أن يعرض الأكثرون عن طريقهم ويشتغلوا بأموال الدنيا وذلك قسمة سبقت بها المشيئة الأزلية وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ .

* فإن قيل : لا حاجة إلى تقدير عموم التحريم حتى لا يبقى حلال فإن ذلك غير واقع وهو معلوم ولا شك في أن البعض حرام وذلك البعض هو الأقل أو الأكثر فيه نظر ، وما ذكرتموه من أنه الأقل بالإضافة إلى الكل جلي ولكن لا بد من دليل محصل على تجويزه ليس من المصالح المرسلة وما ذكرتموه من التقسيمات كلها مصالح مرسلة فلا بد لها من شاهد معين تقاس عليه حتى يكون الدليل مقبولا بالاتفاق فإن بعض العلماء لا يقبل المصالح المرسلة ؟ * فأقول : إن سلم أن الحرام هو الأقل فيكفينا برهانا عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة مع وجود الربا والسرقه والغلول والنهب وإن قدر زمان يكون الأكثر الحرام هو فيجمل التناول أيضا فبرهانة ثلاثة أمور : (الأول) التقسيم الذي حصرناه وأبطلناه منه أربعة وأثبتنا القسم الخامس فإن ذلك إذا أجرى فيما إذا كان الكل حراما كان أخرى فيما إذا كان الحرام هو الأكثر أو الأقل ، وقول القائل : هو مصلحة مرسلة : هوس ، فإن ذلك إنما تخيل من تخيله في أمور مظنونة وهذا مقطوع به فإننا لا نشك في أن مصلحة الدين والدنيا مراد الشرع وهو معلوم بالضرورة ، وليس بمظنون ولا شك في أن رد كافة الناس إلى قدر الضرورة أو الحاجة أو إلى الخشيش والصيد مخرب للدنيا أولا وللدين بواسطة الدنيا ثانيا ، فما لا يشك فيه لا يحتاج إلى أصل يشهد له وإنما يستشهد على الخيالات المظنونة المتعلقة بأحاد الأشخاص . (البرهان الثاني) أن يعلل بقياس محرر مردود إلى أصل يتفق الفقهاء الآنسون بالافيسة الجزئية عليه وإن كانت الجزئيات مستحقة عند المحصلين بالإضافة إلى مثل ما ذكرناه من الأمر الكلى الذى هو ضرورة النبي لوبعث في زمان عم التحريم فيه حتى لو حكم بغيره لخرب العالم ، والقياس المحرر الجزئى هو أنه قد تعارض أصل وغالب فيما انقطعت فيه العلامات المعينة من الأمور التي ليست محصورة فيحكم بالأصل لا بالغالب قياسا على طين الشوارع وجرة النصرانية وأوانى المشركين ، وذلك قد أثبتناه من قبل بفعل الصحابة ، وقولنا : انقطعت العلامات المعينة ، احتراز عن الأوانى التي يتطرق الاجتهاد إليها . وقولنا : ليست محصورة ، احتراز عن التباس الميتة والرضيعة بالذكية والاجنبية .

* فإن قيل : كون الماء طهورا مستيقن وهو الأصل ومن يسلم أن الأصل في الأموال الحل بل الأصل فيها التحريم ؟
 * فنقول : الأمور لا تحرم لصفة في عينها حرمة الخمر والخنزير خلقت على صفة تستعد لقبول المعاملات بالتراضى كما خلق الماء مستعدا للوضوء وقد وقع الشك في بطلان هذا الاستعداد منهما فلا فرق بين الأمرين فإنها تخرج عن قبول المعاملة بالتراضى بدخول الظلم عليها كما يخرج الماء عن قبول الوضوء بدخول النجاسة عليه ولا فرق بين الأمرين . والجواب الثاني : أن اليد دلالة ظاهرة دالة على الملك نازلة منزلة الاستصحاب وأقوى منه بدليل أن الشرع أحق به إذ من ادعى عليه دين فالقول قوله لأن الأصل براءة ذمته وهذا استصحاب . ومن ادعى عليه ملك في يده فالقول أيضا قوله إقامة لليد مقام الاستصحاب فكل ما وجد في يد إنسان فالأصل أنه ملكه ما لم يدل على خلافه علامة معينة .

(البرهان الثالث) هو أن كل ما دل على جنس لا يحصر ولا يدل على معين لم يعتبر وإن كان قطعاً فبأن لا يعتبر إذا دل بطريق الظن أولى وبيانه أن ما علم أنه ملك زيد حقه يمنع من التصرف فيه بغير إذنه ولو علم أن له مالكا في العالم ولكن وقع اليأس عن الوقوف عليه وعلى وارثه فهو مال مرصود لمصالح المسلمين يجوز التصرف فيه بحكم المصلحة ولو دل على أن له مالكا محصورا في عشرة مثلا أو عشرين امتنع التصرف فيه بحكم المصلحة فالذى يشك في أن له مالكا سوى صاحب اليد أم لا ؟ لا يزيد على الذى يتيقن قطعاً أن له مالكا ولكن لا يعرف عينه فليجوز التصرف فيه بالمصلحة والمصلحة ما ذكرناه في الأقسام الخمسة ، فيكون هذا الأصل شاهدا له وكيف لا وكل مال ضائع فقد مالكة يصرفه السلطان إلى المصالح ومن المصالح الفقراء وغيرهم ، فلو صرف إلى فقير ملكه ونفذ فيه تصرفه فلو سرقه منه سارق قطعت يده فكيف نفذ تصرفه في ملك الغير ليس ذلك إلّا لحكمتنا بأن المصلحة تقتضى أن ينتقل الملك إليه ويحل له فقضينا بموجب المصلحة .

* فإن قيل : ذلك يختص بالتصرف فيه السلطان ؟ فنقول : والسلطان لم يجوز له التصرف في ملك غيره بغير إذنه لأسباب له إلا المصلحة وهو أنه لو ترك لصناع فهو مردد بين تضيقه وصرفه إلى مهم والصرف إلى مهم أصلح من التضيق فرجع عليه والمصلحة فيما يشك فيه ولا يعلم تحريره أن يحكم فيه بدلالة اليد ويترك على أرباب الأيدي إذ انتزاعها بالشك وتكليفهم الافتصار على الحاجة يؤدي إلى الضرر الذى ذكرناه ، وجهات المصلحة تختلف فإن السلطان تارة يرى أن المصلحة أن يبني بذلك المال قنطرة وتارة أن يصرفه إلى جند الإسلام وتارة إلى الفقراء ويدور مع المصلحة كيفما دارت ، وكذلك الفتوى في مثل هذا تدور على المصلحة وقد خرج من هذا أن الخلق غير مأخوذون في أعيان الأموال بظنون لا تستند إلى خصوص دلالة في ملك الأعيان كما لم يؤخذ السلطان والفقراء الآخذون منه بعلمهم أن المال له مالك حيث لم يتعلق العلم بعين مالك مشار إليه ، ولا فرق بين عين المالك وبين عين الأملاك في هذا المعنى فهذا بيان شبهة الاختلاط ولم يبق إلّا النظر في امتزاج المسائعات والدرام والعروض في يد مالك واحد وسيأتى بيانه في باب تفصيل طريق الخروج من المظالم .

المثار الثالث للشبهة : أن يتصل بالسبب المحلل معصية

إما في قرائنه وإما في لواحقه وإما في سوابقه أو في عوضه وكانت من المعاصي التي لا توجب فساد العقد وإبطال السبب المحلل .

مثال المعصية في القرائن : البيع في وقت النداء يوم الجمعة والذبح بالسكين المغصوبة والاحتطاب بالقدوم المغصوب

والبيع على بيع الغير والسوم على سومه فكل نهى ورد في العقود ولم يدل على فساد العقد فإن الامتناع من جميع ذلك ورع ، وإن لم يكن المستفاد بهذه الأساليب محكوماً بتحريمه . وتسمية هذا النظم شبهة فيه تسامح لأن الشبهة في غالب الأمر تطلق لإرادة الاشتباه والجهل ولا اشتباه ههنا بل العصيان بالذبح بسكين الغير معلوم وحل الذبيحة أيضاً معلوم ولكن قد تشتق الشبهة من المشابهة ، وتناول الحاصل من هذه الأمور مكروه والكراهة تشبه التحريم فإن أريد بالشبهة هذا قسمية هذا شبهة له وجه وإلا فينبغي أن يسمى هذا كراهة لا شبهة ، وإذا عرف المعنى فلا مشاحة في الأسامي فعادة الفقهاء التسامح في الاطلاقات . ثم اعلم أن هذه الكراهة لها ثلاث درجات : الأولى منها تقرب من الحرام والورع عنه مهم والأخيرة تلتزم إلى نوع من المبالغة تكاد تلتحق بورع الموسوسين وبينهما أوساط نازعة إلى الطرفين ، فالكراهة في صيد كلب مغضوب أشد منها في الذبيحة بسكين مغضوب أو المقتنص بسهم مغضوب إذ الكلب له اختيار وقد اختلف في أن الحاصل به لمالك الكلب أو للصياد ، ويليه شبهة البذر المزروع في الأرض المغصوبة فإن الزرع لمالك البذر ولكن فيه شبهة ولو أثبتنا حق الحبس لمالك الأرض في الزرع لكان كالثمن الحرام ، ولكن الأفيس أن لا يثبت حق حبس كما لو طحن بطاحونة مغصوبة واقتنص بشبكة مغصوبة إذا لا يتعلق حق صاحب الشبكة في منفعتها بالصيد ، ويليه الاحتطاب بالقدوم المغضوب ثم ذبحه ملك نفسه بالسكين المغضوب إذ لم يذهب أحد إلى تحريم الذبيحة ، ويليه البيع في وقت النداء فإنه ضعيف يتعلق بمقصود العقد وإن ذهب قوم إلى فساد العقد إذ ليس فيه إلا أنه اشتغل بالبيع عن واجب آخر كان عليه ، ولو أفسد البيع بمثله لأفسد بيع كل من عليه درهم زكاة أو صلاة فائتة وجوبها على الفور أو في ذمته مظلمة دائقة فإن الاشتغال بالبيع مانع له عن القيام بالواجبات فليس للجمعة إلا الوجوب بعد النداء ، وينجز ذلك إلى أن لا يصح نكاح أولاد الظلمة وكل من في ذمته درهم لأنه اشتغل بقوله عن الفعل الواجب عليه ؛ إلا من حيث ورد في يوم الجمعة نهى على الخصوص ربما سبق إلى الأفهام خصوصية فيه فتكون الكراهة أشد ولا بأس بالحذر منه ولكن قد ينجر إلى الوسواس حتى يتخرج عن نكاح بنات أرباب المظالم وسائر معاملاتهم . وقد حكى عن بعضهم أنه اشترى شيئاً من رجل فسمع أنه اشتراه يوم الجمعة ، فردّه خيفة أن يكون ذلك مما اشتراه وقت النداء وهذا غاية المبالغة أنه رد بالشك . ومثل هذا الورع في تقدير المناهي أو المفسدات لا ينقطع عن يوم السبت وسائر الأيام والورع حسن والمبالغة فيه أحسن ولكن إلى حده معلوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون »^(١) ، فليحذر من أمثال هذه المبالغات فإنها وإن كانت لا تضر صاحبها ربما أوهم عند الغير أن مثل ذلك مهم ثم يعجز عما هو أيسر منه فيترك أصل الورع وهو مستند أكثر الناس في زماننا هذا إذ ضيق عليهم الطريق فأيسوا عن القيام به فاطرحوه ، فكما أن الموسوس في الطهارة قد يعجز عن الطهارة فيتركها فكذا بعض الموسوسين في الحلال سبق إلى أوهامهم أن مال الدنيا كله حرام فتوسعوا فتركوا التمييز وهو عين الضلال .

وأما مثال اللواحق : فهو كل تصرف يفضى في سياقه إلى معصية وأعلاه بيع العنب من الخمار وبيع الغلام من المعروف بالفجور بالغلمان وبيع السيف من قطاع الطريق . وقد اختلف العلماء في صحة ذلك وفي حل الثمن المأخوذ منه . والأقيس أن ذلك صحيح والمأخوذ حلال والرجل عاص بعقده كما يعصى بالذبح بالسكين المغضوب والذبيحة حلال ولكنه يعصى عصيان الإغانة على المعصية إذ لا يتعلق ذلك بعين العقد فالمأخوذ من هذا مكروه كراهية شديدة وتركه من الورع المهم وليس بجرام ، ويليه في الرتبة بيع العنب ممن يشرب الخمر ولم يكن خماراً وبيع السيف ممن

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود ، وتقدم في قواعد العقائد .

يغزو ويظلم أيضاً لأن الاحتمال قد تعارض . وقد كره السلف بيع السيف في وقت الفتنة خيفة أن يشتره ظالم فهذا ورع فوق الأول والكراهية فيه أخف ، ويليه ما هو مبالغة ويكاد يلتحق بالوسواس وهو قول جماعة أنه لا يجوز معاملة الفلاحين بآلات الحارث لأنهم يستعينون بها على الحراثة ويبيعون الطعام من الظلمة ولا يبيع منهم البقر والفدان وآلات الحارث وهذا ورع الوسوسة إذ ينجر إلى أن لا يبيع من الفلاح طعام لأنه يتقوى به على الحراثة ولا يسقى من الماء العام لذلك ، ويذهب هذا إلى حد التنطع المنهى عنه . وكل متوجه إلى شيء على قصد خير لا بد وأن يسرف إن لم يذمه العلم المحقق ، وربما يقدم على ما يكون بدعة في الدين ليستضر الناس بعده بها وهو يظن أنه مشغول بالخير ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي »^(١) ، والمتطعون هم الذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ وبالجمل لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن فإنه إذا جاوز ما رسم وتصرف بذمته من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه . وقد روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه أحرق كرمه خوفاً من أن يباع العنب ممن يتخذة خمرا . وهذا لا أعرف له وجهاً إن لم يعرف هو سببها خاصا يوجب الإحراق ؟ إذا ما أحرق كرمه ونخله من كان أرفع قدراً منه من الصحابة . ولوجاز هذا لجاز قطع الذكر خيفة من الزنا وقطع اللسان خيفة من الكذب إلى غير ذلك من الإلتفات .

وأما المقدمات : فلتطرق المعصية إليها ثلاث درجات : (الدرجة العليا) التي يشتد الكراهة فيها : ما بقي أثره في المتناول كالأكل من شاة علفت بعلف مغصوب أو رعت في مرعى حرام فإن ذلك معصية وقد كان سبباً لبقائها وربما يكون الباقي من دمه ولحمها وأجزاءها من ذلك العلف ، وهذا الورع مهم وإن لم يكن واجبا ، ونقل ذلك عن جماعة من السلف . وكان لأبي عبد الله الطوسي التروغندي شاة يحملها على رقبتة كل يوم إلى الصحراء ويرعاها وهو يصلي وكان يأكل من لبنها فغفل عنها ساعة فتناولت من ورق كرم على طرف بستان فتركها في البستان ولم يستحل أخذها .

* فإن قيل : فقد روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله أنهما اشتريا إبلا فبعثاها إلى الحمى فرعته إبلهما حتى سممت ؛ فقال عمر رضي الله عنه : أرعيتها في الحمى ؟ فقالا : نعم ؛ فشاطرهما . فهذا يدل على أنه رأى اللحم الحاصل من العلف لصاحب العلف فليوجب هذا تحريماً ؟ قلنا : ليس كذلك فإن العلف يفسد بالأكل واللحم خلق جديد وليس عين العلف فلا شركة لصاحب العلف شرعا ولكن عمر غرمهما قيمة السكلا ورأى ذلك مثل شطر الإبل فأخذ الشطر بالاجتهاد ، كما شاطر سعد بن أبي وقاص ماله لما أن قدم من الكوفة ، وكذلك شاطر أبا هريرة رضي الله عنه إذ رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافيا على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهدا .

(الرتبة الوسطى) ما نقل عن بشر بن الحارث من امتناعه عن الماء المساق في نهر احتفزه الظلمة لأن النهر موصل إليه وقد عصي الله بحفره . وامتنع آخر عن عنب كرم يسقى بماء يجري في نهر حفر ظلما وهو أرفع منه وأبلغ في الورع . وامتنع آخر من الشرب من مصانع السلاطين في الطرق . وأعلى من ذلك امتناع ذى النون من طعام حلال أوصل إليه على يد بيجان ، وقوله : إنه جامف على يد ظالم ، ودرجات هذه الرتبة لا تنحصر . (الرتبة الثالثة) وهي قريب من الوسواس والمبالغة : أن يمتنع من حلال وصل على يد رجل عصي الله بالزنا أو القذف وليس هو كالموعدة على كل

(١) حديث « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » تقدم في العلم .

الحرام فإن الموصل قوته الحاصلة من الغذاء الحرام والزنا والقذف لا يوجب قوة يستعان بها على الحمل بل الامتناع من أخذ حلال وصل على يد كافر وسواس ، بخلاف أكل الحرام إذ الكفر لا يتعلق بحمل الطعام وينجر هذا إلى أن لا يؤخذ من يد من عصى الله ولو بغية أو كذبة وهو غاية التطوع والإسراف فليضبط ماعرف من ورع ذي النون وبشر بالمعصية في السبب الموصل كالنهر وقوة اليد المستفادة بالغذاء الحرام . ولو امتنع عن الشرب بالكوز لأن صانع الفخار الذي عمل الكوز كان قد عصى الله يوما بضرب إنسان أو شتمه لكان هذا وسواسا . ولو امتنع من لحم شاة ساقها أكل حرام فهذا أبعد من يد السجان لأن الطعام يسوقه قوة السجان والشاة تمشى بنفسها والسائق يمنعها عن العدول في الطريق فقط فهذا قريب من الوسواس . فانظر كيف تدرجنا في بيان ما تتداعى إليه هذه الأمور . واعلم أن كل هذا خارج عن فتوى علماء الظاهر فإن فتوى الفقيه تختص بالدرجة الأولى التي يمكن تكليف عامة الخلق بها ولو اجتمعوا عليه لم يخرب العالم دون ماعده من ورع المتقين والصالحين . والفتوى في هذا ما قاله صلى الله عليه وسلم لو ابصه إذ قال : استفت قلبك وإن أفنوك وأفنوك وأفنوك ، وعرف ذلك إذ قال : الإثم حزاز القلوب (١) ، وكل ما حاك في صدر المريد من هذه الأسباب فلو أقدم عليه مع حزازة القلب استضربه وأظلم قلبه بقدر الحزازة التي يجدها بل لو أقدم على حرام في علم الله وهو يظن أنه حلال لم يؤثر ذلك في قساوة قلبه ، ولو أقدم على ما هو حلال في فتوى علماء الظاهر ولكنه يجد حزازة في قلبه فذلك يضره . وإنما الذي ذكرناه في النهي عن المبالغة أردنا به أن القلب الصافي المعتدل هو الذي لا يجد حزازة في مثل تلك الأمور فإن مال قلب موسوس عن الاعتدال ووجد الحزازة فأقدم مع ما يجد في قلبه فذلك يضره لأنه مأخوذ في حق نفسه بينه وبين الله تعالى بفتوى قلبه . وكذلك يشدد على الموسوس في الطهارة ونية الصلاة فإنه إذا غلب على قلبه أن المساء لم يصل إلى جميع أجزائه بثلاث مرات لغلبة الوسوسة عليه فيجب عليه أن يستعمل الرابعة وصار ذلك حكما في حقه وإن كان مخطئا في نفسه ، أولئك قوم شددوا فشدد الله عليهم ، وإن ذلك شدد على قوم موسى عليه السلام لما استقصوا في السؤال عن البقرة ولو أخذوا أولا بعموم لفظ البقرة وكل ما ينطلق عليه الاسم لأجزأهم ذلك . فلا تغفل عن هذه الدقائق التي رددناها نفيا وإثباتا فإن من لا يطالع على كنه الكلام ولا يحيط بمجماعه يوشك أن يزل في درك مقاصده .

وأما المعصية في العوض فله أيضاً درجات (الدرجة العليا) التي تشتد الكراهة فيها أن يشتري شيئا في الذمة ويقضى ثمنه من غصب أو مال حرام فينظر فإن سلم إليه البائع الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلبه فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال وتركه ليس بواجب بالإجماع أعني قبل قضاء الثمن ولا هو أيضا من الورع المؤكد فإن قضى الثمن بعد الأكل من الحرام فكانه لم يقض الثمن ، ولو لم يقضه أصلا لكان متقلدا للمظلة بترك ذمته مرتبة بالدين ولا ينقلب ذلك حراما . فإن قضى الثمن من الحرام وأبرأه البائع مع العلم بأنه حرام فقد برئت ذمته ولم يبق عليه إلا مظلة تصرفه في الدراهم الحرام بصرفها إلى البائع وإن أبرأه على ظن أن الثمن حلال فلا تحصل البراءة لأنه يبرئه مما أخذه إبراء استيفاء ولا يصلح ذلك للإيفاء . هذا حكم المشتري والأكل منه وحكم الذمة وإن لم يسلم إليه بطيب قلبه ولكن أخذه فأكله حرام سواء أكله قبل توفية الثمن من الحرام أو بعده لأن الذي توى الفتوى به ثبوت حق الحبس للبائع حتى يتعين ملكه بإقباض النقد كما تعين ملك المشتري ، وإنما يبطل حق حبسه إما بالإبراء

أو الاستيفاء ولم يجر شيء منهما ولكنه أكل ملك نفسه وهو عاص به عصيان الراهن للطعام إذا أكله بغير إذن المرتن ، وبينه وبين أكل طعام الغير فرق ولكن أصل التحريم شامل ، هذا كله إذا قبض قبل توفية الثمن إما بطيبة قلب البائع أو من غير طيبة قلبه . فأما إذا وفي الثمن الحرام أولا ثم قبض فإن كان البائع عالما بأن الثمن حرام ومع هذا أقبض المبيع بطل حق حبسه وبقي له الثمن في ذمته إذا ما أخذه ليس بشمن ولا يصير أكل المبيع حراما بسبب بقاء الثمن فأما إذا لم يعلم أنه حرام وكانت بحيث لو علم لما رضى به ولا أقبض المبيع لحق حبسه لا يبطل بهذا التليس فأكله حرام تحريم أكله المرهون إلى أن يبرئه أو يوفى من حلال أو يرضى هو بالحرام ويبرئ فيصح إبراؤه ولا يصح رضاه بالحرام فهذا مقتضى الفقه وبيان الحكم في الدرجة الأولى من الحلال والحرمه فأما الامتناع عنه فمن الورع المهم لأن المعصية إذا تمكنت من السبب الموصل إلى الشيء تشتد الكراهية فيه - كما سبق - وأقوى الأسباب الموصلة للثمن ولولا الثمن الحرام لما رضى الله البائع بتسليمه إليه فرضاه لا يخرج عنه كونه مكروها كراهية شديدة ولكن العدالة لا تنخرم به وتزول به درجة التقوى والورع . ولو اشترى سلطان مثلا ثوبا أو أرضا في الذمة وقبضه برضا البائع قبل توفية الثمن وسله إلى فقيه أو غيره صلة أو خلعة وهو شاك في أنه سيقضى ثمنه من الحلال أو الحرام فهذا أخف إذ وقع الشك في تطرق المعصية إلى الثمن وتفاوت خفته بتفاوت كثرة الحرام وقلته في مال ذلك السلطان وما يغلب على الظن فيه وبعضه أشد من بعض والرجوع فيه إلى ما ينقدح في القلب (الرتبة الوسطى) أن لا يكون العوض غصبا ولا حراما ولكن يتهيأ لمعصية ، كما لو سلم عوضا عن الثمن عنبا والآخذ شارب الخمر أو سيفا وهو قاطع طريق فهذا لا يوجب تحريما في مبيع اشتراه في الذمة ولكن يقتضى فيه كراهية دون الكراهية التي في الغصب . وتتفاوت درجات هذه الرتبة أيضا بتفاوت غلبة المعصية على قابض الثمن وندوره ومهما كان العوض حراما فبذله حرام وإن احتمل تحريمه ولكن أبيع بظن فبذله مكروه وعليه ينزل عندى النهى عن كسب الحجام وكراهته ^(١) إذ نهى عنه عليه السلام مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ^(٢) وما سبق إلى الوهم من أن سببه مباشرة النجاسة والقذر فاسد إذ يجب طرده في الدباغ والكناس ولا قائل به وإن قيل به فلا يمكن طرده في القصاب إذ كيف يكون كسبه مكروها وهو بدل عن اللحم واللحم في نفسه غير مكروه ومخامرة القصاب النجاسة أكثر منه للحجام والفصاد فإن الحجام يأخذ الدم بالحجمة ويمسحه بالقطن ، ولكن السبب أن في الحجامة والفصد تخريب بنية الحيوان وإخراجها لدمه وبه قوام حياته والأصل فيه التحريم وإنما يحل بضرورة وتعلم الحاجة والضرورة بحدس واجتهاد وربما يظن نافعا ويكون ضارا فيكون حراما عند الله تعالى ولكن يحكم بحله بالظن والحدس . ولذلك لا يجوز للفصاد فصد صبي وعبد ومعتوه إلا بإذن وليه وقول طيب ولولا أنه حلال في الظاهر لما أعطى عليه السلام أجرة الحجام ^(٣) ولولا أنه يحتمل التحريم لما نهى عنه فلا يمكن الجمع بين إعطائه ونهيه إلا باستنباط هذا المعنى . وهذا كان ينبغي أن نذكره في القرائن المقرونة بالسبب فإنه أقرب إليه . (الرتبة السفلى) وهي درجة الموسوسين وذلك أن يحلف لإنسان على

(١) حديث النهى عن كسب الحجام وكراهته : رواه ابن ماجه من حديث أبي مسعود الأنصاري ، والنسائي من حديث أبي هريرة بإسنادين صحيحين : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ، ولبخاري من حديث أبي جحيفة : نهى عن ثمن الدم ، وسلم من حديث رافع بن خديج « كسب الحجام خبيث » . (٢) حديث : نهى عنه مرات ثم أمر بأن يعلف الناضح ، رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه من حديث حميدة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أجرة الحجام ، فنهاه عنها ، فلم يزل يسأل ويستأذن حتى قال : أغلفه ناضحك وأطعمه رقيقك . وفي رواية لأحمد أنه زجره عن كسبه فقال : ألا أطعمه أيتامالي ؟ قال . لا ؟ قال : أفلا أتصدق به ؟ قال : لا ، فرخص له أن يعلفه ناضحه . (٣) حديث : أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرة الحجام . متفق عليه من حديث ابن عباس .

أن لا يلبس من غزل أمه فباع غزلها واشترى به ثوباً فهذا لا كراهية فيه والورع عنه وسوسة . وروى عن المغيرة أنه قال في هذه الواقعة : لا يجوز ، واستشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله اليهود حرمت عليهم الخمر فباعوها وأكلوا أثمانها ^(١) ، وهذا غلط لأن بيع الخمر باطل إذ لم يبق للخمر منفعة في الشرع وثمن البيع الباطل حرام ، وليس هذا من ذلك بل مثال هذا أن يملك الرجل جارية هي أخته من الرضاع فتباع بجارية أجنبية فليس لأحد أن يتورع منه وتشبيه ذلك ببيع الخمر غاية السرف في هذا الطرف . وقد عرفنا جميع الدرجات وكيفية التدرج فيها وإن كان تفاوت هذه الدرجات لا ينحصر في ثلاث أو أربع ولا في عدد ولكن المقصود من التعدد التقريب والتفهم .

* فإن قيل : فقد قال صلى الله عليه وسلم من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه ^(٢) ، ثم أدخل ابن عمر أصبعيه في أذنيه وقال : صمتا إن لم أكن سمعته منه . قلنا ذلك محمول على ما لو اشترى بعشرة بعينها لا في الذمة وإذا اشترى في الذمة فقد حكمتا بالتحريم في أكثر الصور فليحمل عليها ، ثم كم من ملك يتورع عليه بمنع قبول الصلاة لمعصية تطرقت إلى سببه وإن لم يدل ذلك على فساد العقد كالمشترى في وقت النداء وغيره .

المشار الرابع : الاختلاف في الأدلة

فإن ذلك كالاختلاف في السبب لأن السبب سبب لحكم الحل والحرم . والدليل سبب لمعرفة الحل والحرم فهو سبب في حق المعرفة ولم يثبت في معرفة الغير فلا فائدة لثبوتها في نفسه وإن جرى سببه في علم الله ، وهو إما أن يكون لتعارض أدلة الشرع أو لتعارض العلامات الدالة أو لتعارض التشابه .

القسم الأول : أن تتعارض أدلة الشرع مثل تعارض عموميين من القرآن أو السنة أو تعارض قياسيين أو تعارض قياس وعموم . وكل ذلك يورث الشك ويرجع فيه إلى الاستصحاب أو الأصل المعلوم قبله إن لم يكن ترجيح ، فإن ظهر ترجيح في جانب الحظر وجب الأخذ به وإن ظهر في جانب الحل جاز الأخذ به ولكن الورع تركه . واتقاء مواضع الخلاف مهم في الورع في حق المفتي والمقلد . وإن كان المقلد يجوز له أن يأخذ بما أفتى له مقلده الذي يظن أنه أفضل علماء بلده ويعرف ذلك بالتسامع كما يعرف أفضل أطباء البلد بالتسامع والقراءن وإن كان لا يحسن الطب . وليس للمستفتي أن ينتقد من المذاهب أو سمعها عليه ؛ بل عليه أن يبحث حتى يغلب على ظنه الأفضل ثم يتبعه فلا يخالفه أصلاً ، نعم إن أفتى له إمامه بشيء وإمامه فيه مخالف فالفرار من الخلاف إلى الإجماع من الورع المؤكد وكذا المجتهد إذا تعارضت عنده الأدلة ورجح جانب الحل بحسب وتحمين وظن فالورع له الاجتناب . فلقد كان المفتون يفتون بكل أشياء لا يقدمون عليها قط تورعاً منها وحذراً من الشبهة فيها فلنقسم هذا أيضاً على ثلاث مراتب (الرتبة الأولى) ما يتأكد الاستحباب في التورع عنه وهو ما يقوى فيه دليل المخالف ويدق وجه ترجيح المذهب الآخر عليه . فن المهمات التورع عن فريسة السكب المعلم إذاً كل منها وإن أفتى المفتي بأنه حلال لأن الترجيح فيه غامض ، وقد اخترنا أن ذلك حرام وهو أفتى الشافعي رحمه الله . ومهما وجد للشافعي

(١) حديث المنيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن اليهود إذ حرمت عليهم الخمر فباعوها : لم أجده هكذا ، والمعروف أن ذلك في الشحوم ؛ ففي الصحيحين من حديث جابر « قاتل الله اليهود لأن الله لما حرم عليهم شحومها جلوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » .
(٢) حديث « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم . . الحديث » تقدم في الباب قبله .

قول جديد موافق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله أو غيره من الأئمة كان الورع فيه مهما وإن أفقى المفتى بالقول الآخر . ومن ذلك الورع عن متروك التسمية وإن لم يختلف فيه قول الشافعي رحمه الله لأن الآية ظاهرة في إيجابها والأخبار متواترة فيه فإنه صلى الله عليه وسلم قال لكل من سأله عن الصيد ، إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر عليه اسم الله فكل ^(١) ، ونقل ذلك على التكرار وقد شهر الذبح بالبسملة ^(٢) وكل ذلك يقوى دليل الاشتراط ولكن لما صح قوله صلى الله عليه وسلم : المؤمن يذبح على اسم الله تعالى سمي أو لم يسم ^(٣) ، واحتمل أن يكون هذا عاما موجبا لعرف الآية وسائر الأخبار عن ظواهرها ويحتمل أن يخص هذا بالناسي ويترك الظواهر ولا تأويل ، وكان حمله على الناسي ممكنا تمهيدا لعذره في ترك التسمية بالنسيان وكان تعميمه وتأويل الآية ممكنا إمكاننا أقرب رجحنا ذلك ولا ننكر رفع الاحتمال المقابل له فالورع عن مثل هذا مهم واقع في الدرجة الأولى .

(الرتبة الثانية) وهي مزاحمة لدرجة الوسواس أن يتوَرَّع الإنسان عن أكل الجنين الذي يصادف في بطن الحيوان المذبوح وعن الضب . وقد صح في الصحاح من الأخبار حديث الجنين ؛ إن ذكاته ذكاة أمه ^(٤) صحة لا يتطرق احتمال إلى مثته ولا ضعف إلى سنده وكذلك صح أنه أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥) وقد نقل ذلك في الصحيحين . وأظن أن أبا حنيفة لم تبلغه هذه الأحاديث ولو بلغته لقال بها وإن أنصف وإن لم ينصف فيه كان خلافه غلطا لا يعتد به ولا يورث شبهة كما لو لم يخالف وعلم الشيء بخبر الواحد .

(الرتبة الثالثة) أن لا يشتبه في المسألة خلاف أصلا ولكن يكون الحل معلوما بخبر الواحد فيقول القائل قد اختلف الناس في خبر الواحد فثم من لا يقبله فأنا أتوَرَّع . فإن الثقله وإن كانوا عدولا فالغلط جائز عليهم والكذب لغرض خفي جائز عليهم ، لأن العدل أيضاً قد يكذب والوهم جائز عليه فإنه قد يسبق إلى سمعهم خلاف ما يقوله القائل وكذا إلى فهمهم فهذا ورع لم ينقل مثله عن الصحابة فيما كانوا يسمعون من عدل تسكن نفوسهم إليه . وأما إذا تطرقت شبهة بسبب خاص ودلالة معينة في حق الراوي فالتوقف وجه ظاهر وإن كان عدلا . وخلاف من خالف في أخبار الآحاد غير معتمد به وهو خلاف النظام في أصل الإجماع . وقوله إنه ليس بحجة ولو جاز مثل هذا الورع لكان من الورع أن يمتنع الإنسان من أن يأخذ ميراث الجد أبي الأب ويقول ليس في كتاب الله ذكر إلا للبنتين وإلحاق ابن الابن بالابن بإجماع الصحابة وهم غير معصومين والغلط عليهم جائز إذ خالف النظام فيه ، وهذا هوس ويتداعى إلى أن يترك ما علم بعمومات القرآن إذ من المتكلمين من ذهب إلى أن

(١) حديث « إذا أرسلت كلبك وذكر اسم الله فكل » متفق عليه من حديث عدي بن حاتم ، ومن حديث أبي نعيم الحاشي

(٢) حديث التسمية على الذبح : متفق عليه من حديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ، ليس السن والظفر »

(٣) حديث « المؤمن يذبح على اسم الله سمي أو لم يسم » قال المصنف إنه صح . قلت : لا يعرف بهذا اللفظ فضلا عن صحته ؛ ولأبي داود في المراسيل من رواية الصلت مرفوعا « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر » وللعطبراني في الأوسط ، والدارقطني ، وابن عدي ، والبيهقي من حديث أبي هريرة . قال رجل : يا رسول الله ، الرجل هنا يذبح وينسى أن يسمي الله ؛ فقال « اسم الله على كل مسلم » قال ابن عدي : منكر ، والدارقطني والبيهقي من حديث ابن عباس « المسلم يكفيه اسمه ؛ فإن نسي أن يسمي حين يذبح فليسم وليذكر اسم الله ثم ليأكل » فيه محمد بن سنان ، ضعفه الجمهور . (٤) حديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه » قال المصنف : إنه صححة لا يتطرق احتمال إلى مثته ولا ضعف إلى سنده ، وأخذ هذا من إمام الحرمين ؛ فإنه كذا قال في الأساليب ، والحديث رواه أبو داود والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان من حديث أبي سعيد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد ، وليس كذلك . وللعطبراني في الصغير من حديث ابن عمر بسند جيد . وقال عبد الحقي : لا يحتج بأسانيد أهلها (٥) حديث أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال المصنف : هو في الصحيحين ، وهو كما ذكره من حديث ابن عمر وابن عباس وخالد بن الوليد .

العمومات لاصيغة لها وإنما يحتج بما فهمه الصحابة منها بالقرائن والدلالات وكل ذلك وسواس ؛ فإذا ن لا طرف من أطراف الشبهات إلا وفيها غلو وإسراف فليفهم ذلك . ومهما أشكل أمر من هذه الأمور فليستفت فيه القلب وليدع الورع ما يريه إلى مالا يريه وليترك حزاز القلوب وحكاكات الصدور وذلك يختلف بالأشخاص والوقائع ولكن ينبغي أن يحفظ قلبه عن دواعي الوسواس حتى لا يحكم إلا بالحق فلا ينطوى على حزازة في مظان الوسواس ولا يخلو عن الحزازة في مظان الكراهة ؛ وما أعز مثل هذا القلب ولذلك لم يرد عليه السلام كل أحد إلى فتوى القلب وإنما قال ذلك لوابصة لما كان قد عرف من حاله (١) .

القسم الثاني : تعارض العلامات الدالة على الحل والحزمة فإنه قد ينهب نوع من المتاع في وقت ويندر وقوع مثله من غير النهب فيرى مثلاً في يد رجل من أهل الصلاح ، فيدل صلاحه على أنه حلال ويدل نوع المتاع وندوره من غير المنهوب على أنه حرام فيتعارض الامران . وكذلك يخبر عدل أنه حرام وآخر أنه حلال أو تعارض شهادة فاسقين أو قول صبي وبالغ ، فإن ظهر ترجيح حكمه والورع الاجتناب ، وإن لم يظهر ترجيح وجب التوقف وسيأتى تفصيله في باب التعرف والبحث والسؤال .

القسم الثالث : تعارض الأشباه في الصفات التي تناط بها الأحكام . مثاله أن يوصى بمال للفقهاء فيعلم أن الفاضل في الفقه داخل فيه وأن الذي ابتدأ التعلم من يوم أو شهر لا يدخل فيه وبينهما درجات لا تخصي يقع الشك فيها ، فالمفتي يفتي بحسب الظن والورع الاجتناب ، وهذا أغضض ماثرات الشبهة فإن فيها صوراً يتحير المفتي فيها تحيراً لازماً لاحيلة له فيه إذ يكون المتصف بصفة في درجة متوسطة بين الدرجتين المتقابلتين لا يظهر له ميله إلى أحدهما . وكذلك الصدقات المصروفة إلى المحتاجين فإن من لاشئ له معلوم أنه محتاج ومن له مال كثير معلوم أنه غني ويتصدى بينهما مسائل غامضة كمن له دار وأثاث وثياب وكتب فإن قدر الحاجة منه لا يمنع من الصرف إليه والفاضل يمنع والحاجة ليست محدودة وإنما تدرك بالتقريب ، ويتعدى منه النظر في مقدار سرعة الدار وأبنيتها ومقدار قيمتها لكونها في وسط البلد ووقوع الاكتفاء بدار دونها ، وكذلك في نوع أثاث البيت إذا كان من الصفر لامن الخزف وكذلك في عددها وكذلك في قيمتهما وكذلك فيما لا يحتاج إليه كل يوم وما يحتاج إليه كل سنة من آلات الشتاء ومالا يحتاج إليه إلا في سنين ، وشئ من ذلك لاحد له . والوجه في هذا ما قاله عليه السلام « دع ما يريك إلى مالا يريك » (٢) ، كل ذلك في محل الريب إن توقف المفتي فلا وجه إلا التوقف وهو أهم مواقع الورع . وكذلك ما يجب بقدر الكفاية من نفقة الأقارب وكسوة الزوجات وكفاية الفقهاء والعلماء على بيت المال إذ فيه طرفان يعلم أن أحدهما قاصر وأن الآخر زائد وبينهما أمور متشابهة تختلف باختلاف الشخص والحال . والمطلع على الحاجات هو الله تعالى وليس للبشر وقوف على حدودها ، فما دون الرطل المكي في اليوم قاصر عن كفاية الرجل الضخم وما فوق ثلاثة أربال زائد على الكفاية وما بينهما لا يتحقق له حد . فليدع الورع ما يريه وهذا جار في كل حكم نيط بسبب يعرف ذلك السبب بلفظ العرب ، إذ العرب وسائر أهل اللغات لم يقدروا متضمنات اللغات بحدود محدودة تنقطع أطرافها عن مقابلاتها كلفظ الستة فإنه لا يحتمل مادونها وما فوقها من الأعداد وسائر ألفاظ الحساب والتقديرات ، فليست الألفاظ اللغوية كذلك فلا لفظ في كتاب الله وسنة رسول الله

(١) حديث : لم يرد كل أحد إلى فتوى قلبه وإنما قال ذلك لوابصة ، وتقدم حديث وابصة ، وروى الطبراني من حديث وائلة أنه قال ذلك لوائلة أيضاً ، وفيه الملاء بن ثعلبة مجهول . (٢) حديث « دع ما يريك إلى مالا يريك » تقدم في الباب قبله

صلى الله عليه وسلم إلا ويتطرق الشك إلى أوساط في مقتضياتها تدور بين أطراف متقابلة فتعظم الحاجة إلى هذا الفن في الوصايا والأوقاف على الصوفية مثلاً مما يصح ومن الداخل تحت موجب هذا اللفظ هذا من الغوامض فكذلك سائر الألفاظ . وسنشير إلى مقتضى لفظ الصوفي على الخصوص ليعلم به طريق التصرف في الألفاظ وإلا فلامطمع في استيفائها ، فهذه اشتباهاً تنور من علامات متعارضة تجذب إلى طرفين متقابلين ، وكل ذلك من الشبهات يجب اجتنابها إذا لم يترجح جانب الحل بدلالة تغلب على الظن أو باستصحاب بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وبموجب سائر الأدلة التي سبق ذكرها . فهذه مشاركات الشبهات وبعضها أشد من بعض ولو تظاهرت شبهات شتى على شيء واحد كان الأمر أغلظ مثل أن يأخذ طعاماً مختلفاً فيه عوضاً عن عنب باعه من خمار بعد النداء يوم الجمعة والبائع قد خالط ماله حرام وليس هو أكثر ماله ولكنه صار مشتبهاً به فقد يؤدي ترادف الشبهات إلى أن يشتد الأمر في اقتحامها ، فهذه مراتب عرفنا طريق الوقوف عليها وليس في قوة البشر حصرها فما اتضح من هذا الشرح أخذ به وما التبس فليجتنب فإن الإثم حزاز القلب . وحيث قضينا باستفتاء القلب أردنا به حيث أباح المفتي أما حيث حرمه فيجب الامتناع . ثم لا يعول على كل قلب فرب موسوس ينفر عن كل شيء ورب شره متساهل يطمئن إلى كل شيء ولا اعتبار بهذين القلبين وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق المراقب لدقائق الأحوال وهو المحك الذي يمتحن به خفايا الأمور ، وما أعز هذا القلب في القلوب فمن لم يثق بقلب نفسه فليتمس بالنور من قلب بهذه الصفة وليعرض عليه واقعته ، وجاء في الزبور « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : قل لبي إسماعيل إني لأنظر إلى صلاتكم ولا صيامكم ولكن أنظر إلى من شك في شيء فتركه لأجل فذاك الذي أنظر إليه وأقريده بنصري وأباهي به ملائكتي .

الباب الثالث : في البحث ، والسؤال ، والهجوم . والإهمال ومظاهرها

اعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية أو أردت أن تشتري منه أو تهيب فليس لك أن تفتش عنه وتسال وتقول : هذا مما لا أتحقق حله فلا آخذه بل أفتش عنه . وليس لك أيضاً أن تترك البحث فتأخذ كل ما لا تيقن تحريمه بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة فلا بد من تفصيله ، والقول الشافي فيه هو أن مظنة السؤال مواقع الريبة . ومنشأ الريبة ومثارها إما أمر يتعلق بالمال أو يتعلق بصاحب المال .

المثار الأول : أحوال المسالك

وله بالإضافة إلى معرفتك ثلاثة أحوال : إما أن يكون مجهولاً أو مشكوكاً فيه أو معلوماً بنوع ظن يستند إلى دلالة . الحالة الأولى : أن يكون مجهولاً والمجهول هو الذي ليس معه قرينة تدل على فساده وظلمه كزى الأجناد ، ولا ما يدل على صلاحه كشياب أهل التصوف والتجارة والعلم وغيرها من العلامات . فإذا دخلت قرية لا تعرفها فرأيت رجلاً لا تعرف من حاله شيئاً ولا عليه علامة تنسبه إلى أهل صلاح أو أهل فساد فهو مجهول ؛ وإذا دخلت بلدة غريباً ودخلت سوقاً ووجدت رجلاً خبازاً أو قصاباً أو غيره ولا علامة تدل على كونه مريباً أو خائناً ولا ما يدل على نفيه فهو مجهول ولا يدري حاله ، ولانقول إنه مشكوك فيه لأن الشك عبارة عن اعتقادين متقابلين لهاسببان متقابلان ، وأكثر الفقهاء لا يدركون الفرق بين ما لا يدري وبين ما يشك فيه ؛ وقد عرفت مما سبق أن الورع ترك ما لا يدري . قال يوسف بن أسباط : منذ ثلاثين سنة ما حاك في قلبي شيء إلا تركته . وتكلم جماعة في أشق الأعمال

فقالوا : هو الورع ؛ فقال لهم حسان بن أبي سنان : ما شئ عندى أسهل من الورع ، إذا حاك في صدرى شئ تركته . فهذا شرط الورع ، وإنما نذكر الآن حكم الظاهر ، فنقول : حكم هذه الحالة أن المجهول إن قدم إليك طعاما أو حمل إليك هدية أو أردت أن تشتري من دكانه شيئا فلا يلزمك السؤال بل يده وكونه مسلما دلالتان كافيتان في الهجوم على أخذه . وليس لك أن تقول الفساد والظلم غالب على الناس فهذه وسوسة وسوء ظن بهذا المسلم بعينه وإن بعض الظن إثم . وهذا المسلم يستحق بإسلامه عليك أن لا تسمي الظن به فإن أسأت الظن به في عينه لأنك رأيت فسادا من غيره فقد جنيت عليه وأثمت به في الحال نقدا من غير شك ، ولو أخذت المال لكان كونه حراما مشكوكا فيه . ويدل عليه أنا نعلم أن الصحابة رضی الله عنهم في غزواتهم وأسفارهم كانوا ينزلون في القرى ولا يردون القرى ويدخلون البلاد ولا يحتزون من الأسواق ، وكان الحرام أيضا موجودا في زمانهم وما نقل عنهم سؤال إلا عن ربة إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يسأل عن كل ما يحمل إليه بل سأل في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه : أصدقة أم هدية ^(١) ؟ لأن قرينة الحال تدل وهو دخول المهاجرين المدينة وهم فقراء فغلب على الظن أن ما يحمل إليهم بطريق الصدقة ، ثم لإسلام المعطى ويده لا يدلان على أنه ليس بصدقة . وكان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل : أصدقة أم لا ^(٢) ؟ إذ العادة ما جرت بالتصدق بالضيافة . ولذلك دعت أم سليم ^(٣) ودعاها الخياط ^(٤) كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وقدم إليه طعاما فيه قرع ، ودعاها الرجل الفارسي فقال عليه الصلاة والسلام أنا وعائشة ؟ فقال : لا ، فقال : فلا . ثم أجابه بعد فذهب هو وعائشة يتساوقان فقرب إليهما إهالة ^(٥) ، ولم ينقل السؤال في شئ من ذلك ، وسأل أبو بكر رضي الله عنه عبده عن كسبه لما رآه من أمره ، وسأل عمر رضي الله عنه الذي سقاه من لبن إبل الصدقة إذ رآه وكان أعجبه طعمه ولم يكن على ما كان يألفه كل مرة . وهذه أسباب الريبة وكل من وجد ضيافة عند رجل مجهول لم يكن عاصيا بإجابته من غير تفتيش ، بل لورأى في داره تجملا ومالا كثيرا فليس له أن يقول الحلال عزيز وهذا كثير فمن أين يجتمع هذا من الحلال ؟ بلى هذا الشخص بعينه يحتمل أن يكون ورث مالا أو اكتسبه فهو بعينه يستحق إحسان الظن به ، وازيد على هذا واقول : ليس له أن يسأله بل إن كان يتورع فلا يدخل جوفه إلا ما يدرى من أين هو فهو حسن فليتلفظ في الترك ، وإن كان لا بدله من أكله فليأكل بغير سؤال إذ السؤال إيذاء وهتك ستر وإحشاش وهو حرام بلا شك .

« فإن قلت : لعله لا يتأذى ؟ فأقول . لعله يتأذى فإن تسأل حذرا من د لعل ، فإن قمعت فلعل ماله حلال وليس الإثم المحذور في إيذاء مسلم بأقل من الإثم في أكل الشبهة والحرام ، والغالب على الناس الاستيحاش بالتفتيش ولا يجوز له أن يسأل من غيره من حيث يدرى هو به لأن الإيذاء في ذلك أكثر ، وإن سأل من حيث لا يدرى هو ففيه إساءة ظن وهتك ستر وفيه تجسس وفيه تشبث بالغيبة وإن لم يكن ذلك صريحا . وكل ذلك منهي عنه في آية

الباب الثالث : في البحث والسؤال

(١) حديث سؤاله في أول قدومه إلى المدينة عما يحمل إليه أصدقة أم هدية : رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتاه سلمان بطعام ، فسأله عنه أصدقة أم هدية ... الحديث ، تقدم في الباب قبله من حديث أبي هريرة . (٢) حديث كان يدعى إلى الضيافات فيجيب ولا يسأل أصدقة أم لا : هذا معروف مشهور ، من ذلك في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري في صنيع أبي شبيب طعاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها خمس خمسة (٣) حديث دعت أم سليم : متفق عليه من حديث أنس . (٤) حديث أنس : أن خيطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم إليه طعاما فيه قرع : متفق عليه . (٥) حديث دعا الرجل الفارسي فقال « أنا وعائشة ... الحديث » رواه مسلم عن أنس .

واحدة قال الله تعالى ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ وكم زاهد جاهل يوحش القلوب في التفتيش ويتكلم الكلام الحشن المؤذى وإنما يحسن الشيطان ذلك عنده طلبا للشهرة بأكل الحلال ، ولو كان باعته محض الدين لكان خوفه على قلب مسلم أن يتأذى أشد من خوفه على بطنه أن يدخله ما لا يدرى وهو غير مؤاخذ بما لا يدرى إذ لم يكن ثم علامة توجب الاجتناب فليعلم أن طريق الورع الترك دون التجسس ، وإذا لم يكن بدمن الأكل فالورع الأكل وإحسان الظن ؛ هذا هو المألوف من الصحابة رضى الله عنهم ومن زاد عليهم في الورع فهو ضال مبتدع وليس بمتبع فلن يبلغ أحدهم أحدهم ولا نصيفه ولو انفق ما في الأرض جميعا كيف وقد أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام بريرة فقيل : إنه صدقة ؛ فقال : هو لها صدقة ولنا هدية ^(١) ، ولم يسأل على المتصدق عليها فكان مجهولا عنده ولم يمتنع .

الحالة الثانية : أن يكون مشكوكا فيه بسبب دلالة أورثت ريبة فلنذكر صورة ريبة ثم حكمها .

أما الحلقة : فبأن يكون على خلقه الأتراك والبوادي والمعروفين بالظلم وقطع الطريق ، وأن يكون طويل الشارب ، وأن يكون الشعر مفرقا على رأسه على دأب أهل الفساد . وأما الثياب : فالقباء والقلنسوة وزى أهل الظلم والفساد من الأجناد وغيرهم . وأما الفعل والقول : فهو أن يشاهد منه الإقدام على ما لا يحل ؛ فإن ذلك يدل على أنه يتساهل أيضاً في المال ويأخذ ما لا يحل ؛ فهذه مواضع الريبة . فإذا أراد أن يشتري من مثل هذا شيئا ويأخذ منه هدية أو يجيئه إلى ضيافة وهو غريب مجهول عنده لم يظهر له منه إلا هذه العلامات ؛ فيحتمل أن يقال إن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعيفة فالإقدام جائز والترك من الورع . ويحتمل أن يقال إن اليد دلالة ضعيفة وقد قابلها مثل هذه الدلالة فأورثت ريبة فالهجوم غير جائز ، وهو الذي نختاره ونفتي به لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ^(٢) ، فظاهره أمر وإن كان يحتمل الاستحباب لقوله صلى الله عليه وسلم « الإثم حزاز القلوب » ^(٣) ، وهذا له وقع في القلب لا ينكر ولأن النبي صلى الله عليه وسلم سأل : أصدقة هو أو هدية ؟ وسأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه . وسأل عمر رضى الله عنه . وكل ذلك كان في موضع الريبة وحله على الورع وإن كان ممكنا ولكن لا يحمل عليه إلا بقياس حكيم والقياس ليس يشهد بتحليل هذا فإن دلالة اليد والإسلام وقد عارضتها هذه الدلالات أورثت ريبة فإذا تقابلا فالاستحلال لا مستند له . وإنما لا يترك حكم اليد والاستصحاب بشك لا يستند إلى علامة كما إذا وجدنا الماء متغيرا واحتمل أن يكون بطول المكث فإن رأينا ظبية بالث فيه ثم احتمل أن التغير به تركنا الاستصحاب وهذا قريب منه . ولكن بين هذه الدلالات تفاوت فإن طول الشوارب ولبس القباء وهيئة الأجناد يدل على الظلم بالمال . أما القول والفعل المخالفان للشرع إن تعلقا بظلم المال فهو أيضا دليل ظاهر كما لو سمعه يأمر بالغصب والظلم أو يعقد عقد الربا . فأما إذا رآه قد شتم غيره في غضبه أو اتبع نظره امرأة مرت به فهذه الدلالة ضعيفة فكم من إنسان يتحرج في طلب المال ولا يكتسب إلا الحلال ومع ذلك فلا يملك نفسه عند هيجان الغضب والشهوة ؟ فليتبه لهذا التفاوت ولا يمكن أن يضبط هذا بحد فليستفت العبد في مثل ذلك قلبه . وأقول إن هذا إن رآه من مجهول فله حكم وإن رآه من عرفه بالورع في الطهارة والصلاة وقراءة القرآن فله حكم آخر إذ تعارضت

(١) حديث أسكه طعام بريرة فقيل لأنها صدقة فقال « هو لها صدقة ولنا هدية » متفق عليه من حديث أنس (٣) حديث « دع ما يريبك » تقدم في البابين قبله . (٣) حديث « الإثم حزاز القلوب » تقدم في العلم .

الدلالات بالإضافة إلى المال وتساقطنا وعاد الرجل كالمجهول إذ ليست إحدى الدالتين تناسب المال على الخصوص فكم من متخرج في المال لا يتخرج في غيره وكم من محسن للصلاة والوضوء والقراءة ويأكل من حيث يحد فالحكم في هذه المواقع ما يميل إليه القلب فإن هذا أمر بين العبد وبين الله فلا يبعد أن ينأى بسبب خفي لا يطلع عليه إلا هو ورب الأرباب وهو حكم حرازة القلب . ثم ليتنبه لدقيقة أخرى وهو أن هذه الدلالة ينبغي أن تكون بحيث تدل على أن أكثر ماله حرام بأن يكون جندياً أو عامل سلطان أو نائمة أو مغنية فإن دل على أن في ماله حراماً قليلاً لم يكن السؤال واجباً بل كان السؤال من الورع .

الحالة الثالثة : أن تكون الحالة معلومة بنوع خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظناً في حل المال أو تحريره مثل أن يعرف صلاح الرجل وديانته وعدالته في الظاهر وجوز أن يكون الباطن بخلافه فهنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما في المجهول ؛ فالأولى الإقدام . والإقدام هنا أبعد عن الشبهة من الإقدام على طعام المجهول فإن ذلك بعيد عن الورع وإن لم يكن حراماً . وأما أكل طعام أهل الصلاح فدأب الأنبياء والأولياء قال صلى الله عليه وسلم « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي »^(١) ، فأما إذا علم بالخبرة أنه جندي أو مغن أو مرب واستغنى عن الاستدلال عليه بالهيئة والشكل والثياب ، فهنا السؤال واجب لاحتالة كما في موضع الرية بل أولى .

المشار الثاني : ما يستند الشك فيه إلى سبب المال لا في حال المالك

وذلك بأن يختلط الحلال بالحرام كما إذا طرح في سوق أحوال من طعام غضب واشتراها أهل السوق فليس يجب على من يشتري في تلك البلدة وذلك السوق أن يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام فغند ذلك يجب السؤال ، فإن لم يكن هو الأكثر فالتفتيش من الورع وليس بواجب . والسوق الكبير حكمه حكم بلد . والدليل على أنه لا يجب السؤال والتفتيش إذا لم يكن الأغلب الحرام أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشراء من الأسواق وفيها دراهم الربا وغلول الغنيمة وغيرها ، وكانوا لا يسألون في كل عقد ، وإنما السؤال نقل عن آحادهم نادراً في بعض الأحوال وهي محال الرية في حق ذلك الشخص المعين ، وكذلك كانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين كانوا قد قاتلوا المسلمين ، وربما أخذوا أموالهم واحتمل أن يكون في تلك الغنائم شيء مما أخذوه من المسلمين وذلك لا يحل أخذه بجنا بالاتفاق بل يرد على صاحبه عند الشافعي رحمه الله ، وصاحبه أولى به بالثمن عند أبي حنيفة رحمه الله ، ولم ينقل قط التفتيش عن هذا . وكتب عمر رضي الله عنه إلى أذريجيان : إنكم في بلاد تدبج فيها الميتة فانظروا ذكياه من ميتة . أذن في السؤال وأمر به ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود وإن كانت هي أيضاً تباع وأكثر الجلود كان كذلك . وكذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم في بلاد أكثر قصايها المجوس فانظروا الذكي من الميتة فخص بالأكثر الأمر بالسؤال . ولا يتضح مقصود هذا الباب إلا بذكر صور وفرض مسائل يكثُر وقوعها في العادات فلنفرضها :

مسألة : شخص معين خالط ماله الحرام مثل أن يباع على دكان طعام مغصوب أو مال منسوب ، ومثل أن يكون القاضي أو الرئيس أو العامل أو الفقيه الذي له إدرار على سلطان ظالم له أيضاً مال موروث ودهقنة أو تجارة أو رجل

(١) حديث : لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي . تقدم في الزكاة .

تاجر يعامل بعمليات صحيحة ويرى أيضا . فإن كان الأكثر من ماله حراما لا يجوز الأكل من ضيافته ولا قبول هديته ولا صدقته إلا بعد التفتيش ، فإن ظهر أن المأخوذ من وجه حلال فذاك وإلا ترك ، وإن كان الحرام أقل والمأخوذ مشتبها فهذا في محل النظر لأنه على رتبة بين الرتبين ، إذ قضينا بأنه لو اشتبه ذكية بعشر مبيعات مثلا وجب اجتناب الكل وهذا يشبهه من وجه من حيث إن مال الرجل الواحد كالمحصور لاسيما إذا لم يكن كثير المال مثل السلطان ، ويخالفه من وجه إذ الميئة يعلم وجودها في الحال يقينا والحرام الذي خالط ماله يحتمل أن يكون قد خرج من يده وليس موجودا في الحال وإن كان المال قليلا ، وعلم قطعا أن الحرام موجود في الحال فهو مسألة اختلاط الميئة واحد . وإن كثر المال واحتمل أن يكون الحرام غير موجود في الحال فهذا أخف من ذلك ويشبه من وجه الاختلاط بغير محصور كما في الأسواق والبلاد ولكنه أغلظ منه لاختصاصه بشخص واحد ، ولا يشك في أن الهجوم عليه بعيد من الورع جدا ولكن النظر في كونه فسقا مناقض للعدالة ، وهذا من حيث النقل أيضا غامض لتجاذب الأشياء ، ومن حيث النقل أيضا غامض لأن ما ينقل فيه عن الصحابة من الامتناع في مثل هذا وكذا عن التابعين يمكن حله على الورع ولا يصادف فيه نص على التحريم . وما ينقل من إقدام على الأكل كالأكل أبي هريرة رضي الله عنه طعام معاوية مثلا إن قدر في جملة ما في يده حرام فذلك أيضا يحتمل أن يكون إقدامه بعد التفتيش واستبانة أن عين ما يأكله من وجه مباح . فالأفعال في هذا ضعيفة الدلالة ومذاهب العلماء المتأخرين مختلفة حتى قال بعضهم : لو أعطاني السلطان شيئا لاخذته وطرده الإباحة فيما إذا كان الأكثر أيضا حراما مهما لم يعرف عين المأخوذ واحتمل أن يكون حلالا ، واستدل بأخذ بعض السلف جوائز السلاطين - كما سيأتي في باب بيان أموال السلاطين فأما إذا كان الحرام هو الأقل واحتمل أن لا يكون موجودا في الحال لم يكن الأكل حراما ، وإن تحقق وجوده في الحال - كما في مسألة اشتباه الذكية بالميئة - فهذا مما لا أدري ما أقول فيه وهو من المتشابهات التي يتحير المفتي فيها لأنها مترددة بين مشابهة المحصور وغير المحصور . والرضيعة إذا اشتبهت بقرية فيها عشر نسوة وجب الاجتناب وإن كانت ببلدة فيها عشرة آلاف لم يجب . ويدينهما أعداد ، ولو شئت عنها لكنت لا أدري ما أقول فيها ، ولقد توقف العلماء في مسائل هي أوضح من هذه إذ سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن رجل رمى صيدا فوقه في ملك غيره أيا كان الصيد للرأى أو لملك الأرض ؟ فقال : لا أدري ، فروجع فيه مرات فقال : لا أدري . وكثيرا من ذلك حكيناه عن السلف في كتاب العلم فليقطع المفتي طمعه عن درك الحكم في جميع الصور . وقد سأل ابن المبارك صاحبه من البصرة عن معاملته قوما يعاملون السلاطين ، فقال : إن لم يعاملوا سوى السلطان فلا تعاملهم وإن عاملوا السلطان وغيره فعاملهم . وهذا يدل على المساحة في الأقل ويحتمل المساحة في الأكثر أيضا . وبالجمل فليقطع عن الصحابة أنهم كانوا يهجرون بالكلية معاملة القصاب والخباز والتاجر لتعاطيه عقدا واحدا فاسدا أو لمعاملة السلطان مرة ؛ وتقدير ذلك فيه بعد والمسألة مشكلة في نفسها .

* فإن قيل : فقد روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رخص فيه وقال : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر من الحرام . وسئل ابن مسعود رضي الله عنه ذلك فقال له السائل : إن لي جارا لأعلمه إلا خبيثا يدعوننا أو نحتاج فنستسلفه فقال : إذا دعاك فأجبه وإذا احتجت فاستسلفه فإن لك المهنة وعليه المأثم . وأفتى سلمان بمنثل ذلك . وقد علل على بالكثرة وعلل ابن مسعود رضي الله عنه بطريق الإشارة بأن عليه المأثم لأنه يعرفه ولك المهنة أي أنت لا تعرفه . وروى أنه قال رجل لابن مسعود

رضى الله عنه . إن لي جارا يأكل الربا فيدعونا إلى طعامه أفأنتيه ؟ فقال : نعم . وروى في ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه روايات كثيرة مختلفة وأخذ الشافعي ومالك رضي الله عنهما جوائز الخلفاء والسلطين مع العلم بأنه قد خالط ما لهم الحرام ؟ قلنا : أما ما روى عن علي رضي الله عنه فقد اشتهر من ورعه ما يدل على خلاف ذلك فإنه كان يمتنع من مال بيت المال حتى يبيع سيفه ولا يكون له إلا قيص واحد في وقت الفسل لا يجد غيره . ولست أنكر أن رخصته صريح في الجواز وفعله محتمل للورع ولكنه لو صح فالسلطان له حكم آخر فإنه بحكم كثرته يكاد يلتحق بما لا يحصر . وسيأتي بيان ذلك . وكذا فعل الشافعي ومالك رضي الله عنهما متعلق بمال السلطان . وسيأتي حكمه . وإنما كلامنا في آحاد الخلق وأموالهم قريبة من الحصر . وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه فقيل إنه إنما نقله خوات التيمى وإنه ضعيف الحفظ والمشهور عنه ما يدل على توقي الشبهات إذ قال : لا يقولن أحدكم أخاف وأرجو فإن الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتهرات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك . وقال : اجتنبوا الحساكات ففيها الإثم .

• فإن قيل : فلم قلتم إذا كان الأكثر حراما لم يجوز الأخذ مع أن المأخوذ ليس فيه علامة تدل على تحريمه على الخصوص ، واليد علامة على الملك حتى إن من سرق مال مثل هذا الرجل قطعت يده والكثرة توجب ظنا مرسلا لا يتعلق بالعين فليكن كغالب الظن في طين الشوارع وغالب الظن في الاختلاط بغير محصور إذا كان الأكثر هو الحرام ، ولا يجوز أن يستدل على هذا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، لأنه مخصوص ببعض المواضع بالاتفاق وهو أن يريبه بعلامة في عين الملك بدليل اختلاط القليل بغير المحصور فإن ذلك يوجب ريبه ومع ذلك قطعتم بأنه لا يحرم ؟ فالجواب أن اليد دلالة ضعيفة كالاستصحاب وإنما تؤثر إذا سلمت عن معارض قوى . فإذا تحققنا الاختلاط وتحققنا أن الحرام المخاط موجود في الحال ، والمال غير خال عنه ، وتحققنا أن الأكثر هو الحرام وذلك في حق شخص معين يقرب ماله من الحصر ظهر وجوب الإعراض عن مقتضى اليد وإن لم يحمل عليه قوله عليه السلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، لا يبقى له يحمل إذ لا يمكن أن يحمل على اختلاط قليل بحلال غير محصور إذ كان ذلك موجودا في زمانه وكان لا يدعه . وعلى أى موضع حل هذا كان هذا في معناه . وحمله على التنزيه صرف له عن ظاهره بغير قياس فإن تحريم هذا غير بعيد عن قياس العلامات والاستصحاب ، والكثرة تأثير في تحقيق الظن وكذا للحصر وقد اجتمعا حتى قال أبو حنيفة رضي الله عنه : لا تجتهد في الأواني إلا إذا كان أظاهر هو الأكثر . فاشتراط اجتماع الاستصحاب والاجتهاد بالعلامة وقوة الكثرة : ومن قال يأخذ أى آنية أراد بلا اجتهاد بناء على مجرد الاستصحاب فيجوز الشرب أيضا فيلزمه التجويز ههنا بمجرد علامة اليد . ولا يجرى ذلك في بول اشتبه بماء إذ لا استصحاب فيه ولا نظرده أيضا في ميتة اشتبهت بذكية إذ لا استصحاب في الميتة ، واليد لا تدل على أنه غير ميتة وتدل في الطعام المباح على أنه ملك . فههنا أربع متعلقات . استصحاب ، وقلة في المخلوط أو كثرة ، وانحصار أو اتساع في المخلوط ، وعلامة خاصة في عين الشيء يتعلق بها الاجتهاد . فمن يغفل عن مجموع الأربعة ربما يغلط فيشبه بعض المسائل بما لا يشبهه . فحصل مما ذكرناه أن المختلط في ملك شخص واحد إما أن يكون الحرام أكثره أو أقله وكل واحد إما أن يعلم بيقين أو بظن عن علامة أو توهم . فالسؤال يجب في موضعين : وهو أن يكون الحرام أكثر يقينا أو ظنا كما لو رأى تركيا مجهولا يحتمل أن يكون كل ماله من غنيمة وإن كان الأقل معلوما باليقين فهو محل التوقف وتكاد تسير سير أكثر السلف وضرورة الأحوال إلى الميل إلى الرخصة . وأما الأقسام الثلاثة الباقية

فالسؤال واجب فيها أصلا .

مسألة : إذا حضر طعام لإنسان علم أنه دخل في يده حرام من إدارار كان قد أخذه أو وجه آخر ولا يدري أنه بقى إلى الآن أم لا ، فله الأكل ولا يلزمه التفتيش وإنما التفتيش فيه من الورع ، ولو علم أنه قد بقى منه شيء ولكن لم يدرك أنه الأقل أو الأكثر فله أن يأخذ بأنه الأقل . وقد سبق أن أمر الأقل مشكل وهذا يقرب منه .

مسألة : إذا كان يد المتولى للخيرات أو الأوقاف أو الوصايا مالان يستحق هو أحدهما ولا يستحق الثاني لأنه غير موصوف بتلك الصفة فهل له أن يأخذ ما يسلمه إليه صاحب الوقف ؟ نظر ، فإن كانت تلك الصفة ظاهرة يعرفها المتولى وكان المتولى ظاهر العدالة فله أن يأخذ بغير بحث لأن الظن بالمتولى أنه لا يصرف إليه ما يصرفه إلا من المال الذى يستحقه ، وإن كانت الصفة خفية وإن كان المتولى ممن عرف حاله أنه يخلط ولا يبالي كيف يفعل فعليه السؤال ، إذ ليس ههنا يد ولا استصحاب يعول عليه ، وهو وزان سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة والهدية عند تردده فيهما لأن اليد لا تخصص الهدية عن الصدقة ولا الاستصحاب فلا ينبغى منه إلا السؤال ، فإن السؤال حيث أسقطناه في المجهول أسقطناه بعلامة اليد والإسلام ، حتى لو لم يعلم أنه مسلم وأراد أن يأخذ من يده لحما من ذبيحته واحتمل أن يكون مجوسيا لم يحرم له ما لم يعرف أنه مسلم إذ اليد لا تدل في الميتة ولا الصورة تدل على الإسلام إلا إذا كان أكثر أهل البلدة مسلمين ، فيجوز أن يظن بالذى ليس عليه علامة الكفر أنه مسلم وإن كان الخطأ بمكنافيه فلا ينبغى أن تلتبس المواضع التى تشهد فيها اليد والحال بالتى لا تشهد .

مسألة : له أن يشتري في البلد دارا وإن علم أنها تشتمل على دور مغصوبة لأن ذلك الاختلاط بغير محصور ولكن السؤال احتياط وورع . وإن كان في سكة عشر دور مثلا إحداها مغصوب أو وقف لم يحز الشراء ما لم يتميز ويوجب البحث عنه . ومن دخل بلدة وفيها رباطات خصص بوقفها أرباب المذاهب وهو على مذهب واحد من جملة تلك المذاهب فليس له أن يسكن أيها شاء ويأكل من وقفها بغير سؤال لأن ذلك من باب اختلاط المحصور فلا بد من التمييز ، ولا يجوز الهجوم مع الإيهام لأن الرباطات والمدارس في البلد لابد أن تكون محصورة .

مسألة : حيث جعلنا السؤال من الورع فليس له أن يسأل صاحب الطعام والمال إذا لم يأمن غضبه وإنما أوجبنا السؤال إذا تحقق أن أكثر ماله حرام وعند ذلك لا يبالي بغضب مثله ، إذ يجب إيداء الظالم بأكثر من ذلك . والغالب أن مثل هذا لا يغضب من السؤال . نعم إن كان يأخذ من يد وكيله أو غلامه أو تلميذه أو بعض أهله من هو تحت رعايته فله أن يسأل مهما استراب لأنهم لا يغضبون من سؤاله ، ولأن عليه أن يسأل ليعلمهم طريق الحلال ولذلك سأل أبو بكر رضى الله عنه غلامه ، وسأل عمر من سقاه من إبل الصدقة ، وسأل أبا هريرة رضى الله عنه أيضا لما أن قدم عليه بهال كثير فقال : ويحك أكل هذا طيب ؟ من حيث إنه تعجب من كثرته وكان هو من رعيته لاسيما وقد رفق في صيغة السؤال ، وكذلك قال على رضى الله عنه : ليس شيء أحب إلى الله تعالى من عدل إمام ورفقه ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه .

مسألة . قال الحارث المحاسبي رحمه الله : لو كان له صديق أو أخ وهو يأمن غضبه لو سأله فلا ينبغى أن يسأله لأجل الورع ، لأنه ربما يبدو له ما كان مستورا عنه فيكون قد حمله على هتك السترة ثم يؤدي ذلك إلى البغضاء ، وما ذكره حسن لأن السؤال إذا كان من الورع لآمن الوجوب فالورع في مثل هذه الأمور الاحتراز عن هتك السترة ، وإثارة البغضاء أهم . وزاد على هذا فقال : وإن رآه منه شيء أيضا لم يسأله ويظن به أنه يطعمه من الطيب

ويجنبه الخبيث فإن كان لا يطمئن قلبه إليه فيحترز متلطفا ولا يهتك ستره بالسؤال ، قال : لأنى لم أر أحدا من العلماء فعله ، فهذا منه مع ما اشتهر به من الزهد يدل على مسامحة فيما إذا خالط المال الحرام القليل ولكن ذلك عند التوهم لا عند التحقيق لأن لفظ الريبة يدل على التوهم بدلالة تدل عليه ولا يوجب اليقين فليراع هذه الدقائق بالسؤال .

مسألة : ربما يقول القائل : أى فائدة فى السؤال من بعض ماله حرام ومن يستحل المال الحرام ربما يكذب فإن وثق بأمانته فليثق بديانته فى الحلال ؟ فأقول : مهما علم مخالطة الحرام لمال إنسان وكان له غرض فى حضورك ضيافته أو قبولك هديته فلا تحصل الثقة بقوله فلا فائدة للسؤال منه ، فينبغى أن يسأل من غيره ، وكذا إن كان يباعا وهو يرغب فى البيع لطلب الربح فلا تحصل الثقة بقوله إنه حلال ولا فائدة فى السؤال منه وإنما يسأل من غيره . وإنما يسأل من صاحب اليد إذا لم يكن متهما كما يسأل المتولى على المال الذى يسلمه أنه من أى جهة وكما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الهدية والصدقة فإن ذلك لا يؤذى ولا يتهم القائل فيه ، وكذلك إذا اتهمه بأنه ليس يدرى طريق كسب الحلال ؛ فلا يتهم فى قوله إذا أخبر عن طريق صحيح ، وكذلك يسأل عبده وخادمه ليعرف طريق اكتسابه . فههنا يفيد السؤال فإذا كان صاحب المال متهما فليسأل من غيره فإذا أخبره عدل واحد قبله وإن أخبره فاسق يعلم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه جاز قبوله لأن هذا أمر بينه وبين الله تعالى والمطلوب ثقة النفس ، وقد يحصل من الثقة بقول فاسق ما لا يحصل بقول عدل فى بعض الأحوال ، وليس كل من فسق يكذب ولا كل من ترى العدالة فى ظاهره يصدق . وإنما نيطت الشهادة بالعدالة الظاهرة لضرورة الحكم فإن البواطن لا يطلع عليها وقد قبل أبو حنيفة رحمه الله شهادة الفاسق . وكمن شخص تعرفه وتعرف أنه قد يقتحم المعاصى ثم إذا أخبرك بشئ وثقت به . وكذلك إذا أخبر به صبي يميز من عرفته بالتثبت فقد تحصل الثقة بقوله فيحل الاعتماد عليه . فأما إذا أخبر به مجهول لا يدرى من حاله شئ أصلا فهذا ممن جوزنا الأكل من يده لأن يده دلالة ظاهرة على ملكه .

وربما يقال لإسلامه دلالة ظاهرة على صدقه ؛ وهذا فيه نظر ، ولا يخلو قوله عن أثر ما فى النفس حتى لو اجتمع متهم جماعة تفيد ظنا قويا إلا أن أثر الواحد فيه فى غاية الضعف فليُنظر إلى حد تأثيره فى القلب فإن المفتى هو القلب فى مثل هذا الموضع والقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق فليستأمل فيه . ويدل على وجوب الالتفات إليه ما روى عن عقبة بن الحارث « أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة ، فقال : دعها ، فقال : إنها سوداء - يصغر من شأنها - فقال عليه السلام : فكيف وقد زعمت أنها قد أرضعتنا ؟ لا خير لك فيها دعها عنك ^(١) - وفى لفظ آخر - كيف وقد قيل ، ومهما لم يعلم كذب المجهول ولم تظهر أماره غرض له فيه كان له وقع فى القلب لا محالة ؛ فلذلك يتأكد الأمر بالاحتراز فإن اطمأن إليه القلب كان الاحتراز حتما واجبا .

مسألة : حيث يجب السؤال فلو تعارض قول عدلين تساقطا وكذا قول فاسقين ، ويجوز أن يترجح فى قلبه قول أحد العدلين أو أحد الفاسقين ، ويجوز أن يرجح أحد الجانبين بالكثرة أو بالاختصاص بالخبرة والمعرفة وذلك بما يتشعب تصويره .

مسألة : لو نهب متاع مخصوص فصادف من ذلك النوع متاعا فى يد إنسان وأراد أن يشتريه واحتمل أن لا يكون

(١) حديث عقبة : لمتى تزوجت امرأة لجماء أمة سوداء فرعمت أنها قد أرضعتنا وهى كاذبة . رواه البخارى من حديث عقبة ابن الحارث .

من المغصوب فإن كان ذلك الشخص ممن عرفه بالصلاح جاز الشراء وكان تركه من الورع . وإن كان الرجل مجهولاً لا يعرف منه شيئاً فإن كان يكثر نوع ذلك المتاع من غير المغصوب فله أن يشتري . وإن كان لا يوجد ذلك المتاع في تلك البقعة إلا نادراً وإنما كثر بسبب الغصب فليس يدل على الحل إلا الاليد وقد عارضته علامة خاصة من شكل المتاع ونوعه ، فالامتناع عن شرائه من الورع المهم ، ولكن الوجوب فيه نظر فإن العلامة متعارضة . ولست أقدر على أن أحكم فيه بحكم إلا أردته إلا قلب المستفتي لينظر ما الأقوى في نفسه فإن كان الأقوى أنه مغصوب لزمه تركه وإلا حل له شراؤه . وأكثر هذه الوقائع يلتبس الأمر فيها فهي من المتشابهات التي لا يعرفها كثير من الناس فمن توقاها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن اقتحمها فقد حام حول الحى وخاطر بنفسه .

مسألة : لو قال قائل : قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن قدم إليه فذكر أنه من شاة فسأل عن الشاة من أين هي فذكر له فسكت عن السؤال ^(١) فيجب السؤال عن أصل المال أم لا ، وإن وجب فعن أصل واحد أو اثنين أو ثلاثة وما الضبط فيه ؟ فأقول : لا ضبط فيه ولا تقدير بل ينظر إلى الرتبة المقتضية للسؤال إما وجوباً أو ورعاً . ولا غاية للسؤال إلا حيث تنقطع الرتبة المقتضية له وذلك يختلف باختلاف الأحوال فإن كانت التهمة من حيث لا يدري صاحب اليد كيف طريق الكسب الحلال فإن قال : اشتريت ، انقطع بسؤال واحد ، وإن قال : من شاتي ، وقع الشك في الشاة . فإذا قال : اشتريت ، انقطع وإن كانت الرتبة من الظلم وذلك مما في أيدي العرب ويتوالد في أيديهم المغصوب فلا تنقطع الرتبة بقوله : إنه من شاتي ، ولا بقوله : إن الشاة ولدتها شاتي ، فإن أسنده إلى الورثة من أبيه وحالة أبيه مجهولة انقطع السؤال ، وإن كان يعلم أن جميع مال أبيه حرام فقد ظهر التحريم وإن كان يعلم أن أكثره حرام فبكثرة التوالد وطول الزمان وتطرق الإرث إليه لا يغير حكمه فليُنظر في هذه المعاني .

مسألة : سئلت عن جماعة من سكان خانقاه الصوفية وفي يد خادهم الذي يقدم لإيهم الطعام وقف على ذلك المسكن ووقف آخر على جهة أخرى غير هؤلاء ، وهو يخلط الكل وينفق على هؤلاء وهؤلاء فأكل طعامه حلال أو حرام أو شبهة ؟ فقلت : إن هذا يلتفت إلى سبعة أصول : (الأصل الأول) أن الطعام الذي يقدم لإيهم في الغالب يشتريه بالمعاطاة والذي اخترناه صحة المعاطاة لاسيما في الأطعمة والمستحقات فليس في هذا إلا شبهة الخلاف . (الأصل الثاني) أن ينظر أن الخادم هل يشتريه يعين المال الحرام أو في الذمة ؟ فإن اشتراه بعين المال الحرام فهو حرام ، وإن لم يعرف فالغالب أنه يشتري في الذمة ويجوز الأخذ بالغالب ، ولا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال بعيد وهو شراؤه بعين مال حرام . (الأصل الثالث) أنه من أين يشتريه فإن اشترى من أكثر ماله حرام لم يحز وإن كان أقل ماله ففيه نظر قد سبق ؛ وإذا لم يعرف جاز له الأخذ بأنه يشتريه من ماله حلال أو ممن لا يدري المشتري حاله بيقين كالمجهول ، وقد سبق جواز الشراء من المجهول لأن ذلك هو الغالب فلا ينشأ من هذا تحريم بل شبهة احتمال . (الأصل الرابع) أن يشتريه لنفسه أو للقوم فإن المتولى والخادم كالنائب وله أن يشتريه لنفسه ولكن يكون ذلك بالنية أو صريح اللفظ وإذا كان الشراء يجري بالمعاطاة فلا يجري اللفظ ، والغالب أنه لا ينوي عند المعاطاة ، والقصاب والخباز ومن يعامله يعول عليه ويقصد البيع منه لا ممن لا يحضرون فيقع عن جبهته ويدخل في ملكه وهذا الأصل ليس فيه تحريم ولا شبهة ولكن ثبت أنهم يأكلون من ملك الخادم .

(١) حديث : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن قدم إليه ... الحديث ، تقدم في الباب الخامس من آداب الكسب والمعايش .

(الأصل الخامس) أن الخادم يقدم الطعام لإيهم فلا يمكن أن يجعل ضيافة وهدية بغير عوض فإنه لا يرضى بذلك وإنما يقدم اعتماداً على عوضه من الوقف ، فهو معاوضة ولكن ليس ببيع ولا إقراض لأنه لو انتهض لمطالبهم بالثمن استبعد ذلك وقرينة الحال لا تدل عليه . فأشبه أصل ينزل عليه هذه الحالة الهبة بشرط الثواب - أعني هدية لالفظ فيها من شخص تقتضي قرينة حاله أنه يطعم في ثواب - وذلك صحيح والثواب لازم وههنا ما طمع الخادم في أن يأخذ ثواباً فيما قدمه إلا حقهم من الوقف ليقضى به دينه من الخبز والقصاب والبقال ، فهذا ليس فيه شبهة إذ لا يشترط لفظ في الهدية ولا في تقديم الطعام وإن كان مع انتظار الثواب ، ولا مبالاة بقول من لا يصحح هدية في انتظار ثواب . (الأصل السادس) أن الثواب الذي يلزم فيه خلاف ، فقليل إنه أقل متمول وقيل قدر القيمة وقيل ما يرضى به الواهب حتى له أن لا يرضى بأضعاف القيمة ، والصحيح أنه يتبع رضاه فإذا لم يرض لم يرد عليه وههنا الخادم قد رضى بما يأخذ من حق السكان على الوقف ، فإن كان لهم من الحق بقدر ما أكلوه فقد تم الأمر وإن كان ناقصاً ورضى به الخادم صح أيضاً ، وإن علم أن الخادم لا يرضى لولا أن في يده الوقف الآخر الذي يأخذه بقوة هؤلاء السكان فكأنه رضى في الثواب بمقدار بعضه حلال وبعضه حرام ، والحرام لم يدخل في أيدي السكان ، فهذا كالحلال المتطرق إلى الثمن - وقد ذكرنا حكمه من قبل - وأنه متى يقتضى التحريم ومتى يقتضى الشبهة؟ وهذا لا يقتضى تحريماً على ما فصلناه فلا تنقلب الهدية حراماً يتوصل المهدى بسبب الهدية إلى حرام . (الأصل السابع) أنه يقضى دين الخبز والقصاب والبقال من ريع الواقفين فإن وفي ما أخذ من حقهم بقيمة ما أطعمهم فقد صح الأمر ، وإن قصر عنه فرضى القصاب والخباز بأى ثمن كان حراماً أو حلالاً ، فهذا خلل تطرق إلى ثمن الطعام أيضاً فليلتفت إلى ما قدمنا من الشراء في الذمة ثم قضاء الثمن من الحرام ، هذا إذا علم أنه قضاء من حرام ، فإن احتمل ذلك واحتمل غيره فالشبهة أبعد ، وقد خرج من هذا أن أكل هذا ليس بحرام ولكنه أكل شبهة وهو بعيد من الورع ، لأن هذه الأصول إذا كثرت وتطرق إلى كل واحد احتمال صار احتمال الحرام بكثرته أقوى في النفس كما أن الخبر إذا طال إسناده صار احتمال الكذب والغلط فيه أقوى مما إذا قرب إسناده . فهذا حكم هذه الواقعة وهي من الفتاوى وإنما أوردناها ليعرف كيفية تخريج الوقائع الملتفة الملتبسة وأنها كيف ترد إلى الأصول فإن ذلك مما يعجز عنه أكثر المفتين .

الباب الرابع : في كيفية خروج التأنيب عن المظالم المالية

اعلم أن من تاب وفي يده محتلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما .

النظر الأول : في كيفية التمييز والإخراج

اعلم أن كل من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غصب أو ودعة أو غيره فأمره سهل ؛ فعليه تمييز الحرام . وإن كان ملتبساً محتلطاً فلا يخلو إما أن يكون في مال هو من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان وإما أن يكون في أعيان متمايزة كالعييد والدور والثياب . فإن كان في المتمايزات أو كان شائعاً في كله كمن اكتسب المال بتجارة يعلم أنه قد كذب في بعضها في المراجعة وصدق في بعضها ، أو من غصب دهنًا وخطه بدهن نفسه ، أو فعل ذلك في الحبوب ، أو الدراهم والدنانير فلا يخلو ذلك إما أن يكون معلوم القدر أو مجهولاً . فإن كان معلوم القدر

مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام فعليه تمييز النصف . وإن أشكل فله طريقان أحدهما : الأخذ باليقين والآخر : الأخذ بغالب الظن ، وكلاهما قد قال به العلماء في اشتباه ركعات الصلاة . ونحن لا نجوز في الصلاة إلا الأخذ باليقين فإن الأصل اشتغال الذمة فيستصحب ولا يغير إلا بعلامة قوية وليس في أعداد الركعات علامات يوثق بها ، وأما ههنا فلا يمكن أن يقال : الأصل أن مافي يده حرام ، بل هو مشكل فيجوز له الأخذ بغالب الظن اجتهدا ، ولكن الورع في الأخذ باليقين . فإن أراد الورع فطريق التحري والاجتهاد أن لا يستبقى إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال . وإن أراد الأخذ بالظن فطريقه مثلا أن يكون في يده مال تجارة فسد بعضها فيتيقن أن النصف حلال وأن الثلث مثلا حرام ويبقى سدس يشك فيه فيحكم فيه بغالب الظن . وهكذا طريق التحري في كل مال وهو أن يقتطع القدر المتيقن من الجانبين في الحل والحرم . والقدر المتردد فيه إن غلب على ظنه التحريم أخرجه وإن غلب الحل جاز له الإمساك والورع إخراجه . وهذا الورع أكد لأنه صار مشكوكا فيه ، وجاز إمساكه اعتمادا على أنه في يده فيكون الحل أغلب عليه وقد صار ضعيفا بعد يقين اختلاط الحرام . ويحتمل أن يقال الأصل التحريم ولا يأخذ إلا ما يغلب على ظنه أنه حلال وليس أحد الجانبين بأولى من الآخر وليس يثبت في الحال ترجيح وهو من المشكلات .

* فإن قيل : هب أنه أخذ باليقين لكن الذي يخرج له ليس يدري أنه عين الحرام ففعل الحرام مابقي في يده فكيف يقدم عليه ؟ ولو جاز هذا لجاز أن يقال : إذا اختلطت ميتة بتسع مذكاة فهي العشر فله أن يطرح واحدة أى واحدة كانت - ويأخذ الباقي ويستحله ولكن يقال : لعل الميتة فيما استبقاه بل لو طرح التسع واستبقى واحدة لم تحل لاحتمال أنها الحرام ؟ فنقول : هذه الموازنة كانت تصح لولا أن المال يحل بإخراج البديل لتطرق المعاوضة إليه ، وأما الميتة فلا تطرق المعاوضة إليها فليكشف الغطاء عن هذا الإشكال بالفرض في درهم معين اشتبه بدرهم آخر فيمن له درهمان أحدهما حرام قد اشتبه عينه ، وقد سئل أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن مثل هذا فقال : يدع الكل حتى يتبين ، وكان قد رهن آنية فلما قضى الدين حل إليه المرتن آنيتين وقال : لا أدري أيتهما آنيتك؟ فتركهما فقال المرتن : هذا الذى هو لك وإنما كنت اختبرك ؟ فقضى دينه ولم يأخذ الرهن وهذا ورع ولكننا نقول إنه غير واجب . فلنفرض المسألة في درهم له مالك معين حاضر فنقول : إذا رد أحد الدرهمين عليه ورضى به مع العلم بحقيقة الحال حل له الدرهم الآخر ، لأنه لا يخلو إما أن يكون المردود في علم الله هو المأخوذ فقد حصل المقصود وإن كان غير ذلك فقد حصل لكل واحد درهم في يد صاحبه ، فالاحتياط أن يتبايعا باللفظ وإن لم يفعلا وقع التقاص والتبادل بمجرد المعاوضة ، وإن كان المخصوب منه قد فات له درهم في يد الغاصب وعسر الوصول إلى عينه واستحق ضمانه فلما أخذه وقع عن الضمان بمجرد القبض وهذا في جانبه واضح ، فإن المضمون له يملك الضمان بمجرد القبض من غير لفظ والإشكال في الجانب الآخر أنه لم يدخل في ملكه . فنقول : لأنه أيضا إن كان قد تسلم درهم نفسه فقد فات له أيضا درهم في يد الآخر فليس يمكن الوصول إليه فهو كالفائب فيقع هذا بدلا عنه في علم الله إن كان الأمر كذلك ، ويقع هذا التبادل في علم الله كما يقع التقاص لو أتلّف رجلان كل واحد منهما درهما على صاحبه ، بل في عين مسألتنا لو ألقى كل واحد مافي يده في البحر أو أحرقه كان قد أتلّفه ولم يكن عليه عهدة للآخر بطريق التقاص ، فكذا إذا لم يتلف فإن القول بهذا أولى من المصير إلى أن من يأخذ درهما حراما ويطرحه في ألف ألف درهم لرجل آخر يصير كل المال محجورا عليه لا يجوز التصرف

فيه وهذا المذهب يؤدى إليه ، فانظر ما فى هذا من البعد وليس فيما ذكرناه إلا ترك اللفظ . والمعاطاة بيع ومن لا يجعلها بيعا بحيث يتطرق إليها احتمال إذ الفعل يضعف دلالة وحيث يمكن التلطف ، وههنا هذا التسليم والتسليم للبداية قطعا والبيع غير ممكن لأن المبيع غير مشار إليه ولا معلوم فى عينه وقد يكون مما لا يقبل البيع كما لو خلط رطل دقيق بألف رطل دقيق لغيره وكذا الدبس والرطب وكل مالا يباع البعض منه بالبعض .

* فإن قيل : فأتم جوزتم تسليم قدر حقه فى مثل هذه الصورة وجعلتموه بيعا ؟ قلنا : لانجعله بيعا بل نقول هو بدل عما فات فى يده فيملكه كما يملك المتلف عليه من الرطب إذا أخذ مثله ؛ هذا إذا ساعده صاحب المال فإن لم يساعده وأضر به وقال : لا أخذ درهما أصلا إلا عين ملكي فإن استتم فأتركه ولا أهبه وأعطي عليك ماله . فأقول على القاضى أن ينوب عنه فى القبض حتى يطيب للرجل ماله فإن هذا محض التعتى والتضييق والشرع لم يرد به فإن عجز عن القاضى ولم يحده فليحكم رجلا متدينا ليقبض عنه فإن عجز فيتولى هو بنفسه ويفرد على نيه الصرف إليه درهما ويتعين ذلك لهو يطيب له الباقي ، وهذا فى خطط المسائعات أظهر وأزهر .

* فإن قيل فينبغى أن يحل له الأخذ وينتقل الحق إلى ذمته فأى حاجة إلى الإخراج أولا ثم التصرف فى الباقي ؟ قلنا : قال قائلون يحل له أن يأخذ مادام يبقى قدر الحرام ولا يجوز أن يأخذ الكل ولو أخذ لم يحز له ذلك . وقال آخرون : ليس له أن يأخذ ما لم يخرج قدر الحرام بالتوبة وقصد الإبدال ، وقال آخرون يجوز للأخذ فى التصرف أن يأخذ منه وأما هو فلا يعطى فإن أعطى عصي هو دون الأخذ منه ، وما جوز أحد أخذ الكل وذلك لأن المالك لو ظهر فله أن يأخذ حقه من هذه الجملة إذ يقول لعل المصروف إلى يقع عين حق . وبالتعيين وإخراج حق الغير وتمييزه يندفع هذا الاحتمال فهذا المال يرجع بهذا الاحتمال على غيره وما هو أقرب إلى الحق مقدم كما يقدم المثل على القيمة والعين على المثل فكذلك ما يحتمل فيه رجوع المثل مقدم على ما يحتمل فيه رجوع القيمة وما يحتمل فيه رجوع العين يقدم على ما يحتمل فيه رجوع المثل ولو جاز لهذا أن يقول ذلك لجاز لصاحب الدرهم الآخر أن يأخذ الدرهمين ويتصرف فيهما ويقول على قضاء حقتك من موضع آخر ؛ إذ الاختلاط من الجانبين وليس ملك أحدهما بأن يقدر فائتا بأولى من الآخر إلا أن ينظر إلى الأقل فيقدر أنه فائت فيه أو ينظر إلى الذى خلط فيجعل بفعله متلفا لحق غيره وكلاهما بعيدان جدا . وهذا واضح فى ذوات الأمثال فإنها تقع عوضا فى الإتلافات من غير عقد فأما إذا اشتبه دار بدور أو عبد بعبيد فلا سبيل إلى المصلحة والتراضى فإن أبى أن يأخذ إلا عين حقه ولم يقدر عليه وأراد الآخر أن يعوق عليه جميع ملكه ، فإن كانت متماثلة القيم فالطريق أن يبيع القاضى جميع الدور ويوزع عليهم الثمن بقدر النسبة وإن كانت متفاوتة أخذ من طالب البيع قيمة أنفس الدور وصرف إلى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ، ويوقف قدر التفاوت إلى البيان أو الإصلاح لأنه مشكل ، وإن لم يوجد القاضى فللذى يريد الخلاص وفى يده الكل أن يتولى ذلك بنفسه ، هذه هى المصلحة وما عداها من الاحتمالات ضعيفة لاختيارها وفيما سبق تنبيه على العلة ، وهذا فى الخطة ظاهر ، وفى النقود دونه ، وفى العروض أغمض ، إذ لا يقع البعض بدلا عن البعض ، فلذلك احتجج إلى البيع ولترسم مسائل يتم بها بيان هذا الأصل :

مسألة : إذا ورث مع جماعة وكان السلطان قد غصب ضيعة لمورثهم فرد عليه قطعة معينة فهى لجميع الورثة . ولو رد من الضيعة نصفها وهو قدر حقه ساهمه الورثة ، فإن النصف الذى له لا يتميز حتى يقال : هو المردود ، والباقي هو المغصوب ، ولا يصير يمزا بنية السلطان ، وقصده حصر النصب فى نصيب الآخرين .

مسألة . إذا وقع في يده مال أخذه من سلطان ظالم ثم تاب والمال عقار وكان قد حصل منه انتفاع ؛ فينبغي أن يحسب أجر مثله لطول تلك المدة ، وكذلك كل مغصوب له منفعة أو حصل منه زيادة ، فلا تصح توبته ما لم يخرج أجره المغصوب ، وكذلك كل زيادة حصلت منه وتقدير أجره العبيد والشياب والآواني وأمثال ذلك مما لا يعتاد إيجارها مما يعسر ولا يدرك ذلك إلا باجتهاد وتخمين ، وهكذا كل التقويمات تقع بالاجتهاد وطريق الورع الأخذ بالأنفى ، وماربحة على المال المغصوب في عقود عقدها على الذمة وقضى الثمن منه ، فهو ملك له ولكن فيه شبهة ، إذ كان ثمنه حراما كما سبق حكمه ، وإن كان بأعيان تلك الأموال فالعقود كانت فاسدة ، وقد قيل : تنفذ بإجازة المغصوب منه للصلحة فيكون المغصوب منه أولى به ، والقياس أن تلك العقود تفسخ وتسترد الثمن وترد الأعواض فإن عجز عنه لكثرتة فهي أموال حرام حصلت في يده فللمغصوب منه قدر رأس ماله ، والفضل حرام يجب إخراجه لتصدق به ، ولا يحل للغاصب ولا للمغصوب منه ، بل حكمه حكم كل حرام يقع في يده .

مسألة : من ورث مالا ولم يدر أن مورثه من أين اكتسبه أمن حلال أم من حرام ولم يكن ثم علامة ، فهو حلال باتفاق العلماء ، وإن علم أن فيه حراما وشك في قدره أخرج مقدار الحرام بالتحري ، فإن لم يعلم ذلك ولكن علم أن مورثه كان يتولى أعمالا للسلطين واحتمل أنه لم يكن يأخذ في عمله شيئا ، أو كان قد أخذ ولم يبق في يده منه شيء لطول المدة ، فهذه شبهة يحسن التورع عنها ولا يجب ، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر بالاجتهاد . وقال بعض العلماء : لا يلزمه والإثم على المورث ، واستدل بما روى أن رجلا من ولى عمل السلطان مات ، فقال صحابي : الآن طاب ماله : أى لوارثه ، وهذا ضعيف ، لأنه لم يذكر اسم الصحابي ولعله صدر من متساهل ، فقد كان في الصحابة من يتساهل ، ولكن لا نذكره لحرمة الصحبة ، وكيف يكون موت الرجل مبيحا للحرام المتيقن المختلط ومن أين يؤخذ هذا ؟ نعم إذا لم يتيقن يجوز أن يقال : هو غير مأخوذ بما لا يدري ، فيطيب لوارث لا يدري أن فيه حراما يقينا .

النظر الثاني : في المصرف

فإذا أخرج الحرام فله ثلاثة أحوال :

إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه ، وإن كان غائبا فينتظر حضوره أو الإيصال إليه ، وإن كانت له زيادة ومنفعة فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره .

وإما أن يكون لمالك غير معين وقع اليأس من الوقوف على عيبه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا ، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه ، وربما لا يمكن الرد لكثرة الملاك ، كقول الغنيمه فإنها بعد تفرق الغزاة ، كيف يقدر على جمعهم ، وإن قدر فكيف يفرق دينارا واحدا مثلا على ألف أو ألفين ، فهذا ينبغي أن يتصدق به .

وإما من مال الفئ والاموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك إلى القناطر والمساجد والرباطات ومصانع طريق مكة ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها كل من يمر بها من المسلمين ، ليكون عاما للمسلمين ، وحكم القسم الاول لاشبهة فيه . أما التصديق وبناء القناطر فينبغي أن يتولاه القاضى فيسلم إليه المال إن وجد قاضيا متدينا ، وإن كان القاضى مستحلا فهو بالتسليم إليه ضامن لو ابتدأ به فيما لا يضمنه ، فكيف يسقط عنه به ضمان قد استقر عليه ، بل يحكم من أهل البلد عالما متدينا ، فإن التحكيم أولى من الانفراد ، فإن عجز فليتول

ذلك بنفسه ، فإن المقصود الصرف . وأما عين الصارف فإنما نطلبه لمصارف دقيقة في المصالح ، فلا يترك أصل الصرف بسبب العجز عن صارف هو أولى عند القدرة عليه .

* فإن قيل : ما دليل جواز التصديق بما هو حرام ؟ وكيف يتصدق بما لا يملك ؟ وقد ذهب جماعة إلى أن ذلك غير جائز لأنه حرام . وحكى عن الفضيل أنه وقع في يده درهمان فلما علم أنهما من غير وجههما رماه بين الحجارة وقال : لا أتصدق إلا بالطيب ولا أرضى لغيري ما لا أرضاه لنفسى . * فنقول : نعم ، ذلك له وجه واحتمال . وإنما اخترنا خلافه للخبر والاثار والقياس : أما الخير فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام ، إذ قال صلى الله عليه وسلم أطعموها الأسارى ^(١) ولما نزل قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون ﴾ كذبه المشركون وقالوا للصحابه : ألا ترون ما يقول صاحبكم ، يزعم أن الروم ستغلب ، فخطبهم أبو بكر رضى الله عنه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حقق الله صدقه وجاء أبو بكر رضى الله عنه بما قامهم به قال عليه الصلاة والسلام : هذا سحت ، فتصدق به وفرح المؤمنون بنصر الله ، وكان قد نزل تحريم القمار بعد لإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم له في المخاطرة مع الكفار ^(٢) وأما الأثر فإن ابن مسعود رضى الله عنه اشترى جارية فلم يظفر بمالكها لينقده الثمن ، فطلبه كثيرا فلم يجده ، فتصدق بأثنى وقال : اللهم هذا عنه إن رضى وإلا فالأجرى . وسئل الحسن رضى الله عنه عن توبة الغال وما يؤخذ منه بعد تفرق الجيش ، فقال يتصدق به . وروى أن رجلا سئلت له نفسه فغل مائة دينار من الغنيمة ، ثم أتى أميره ليردها عليه فأبى أن يقبضها وقال له : تفرق الناس ، فأبى أن يقبض ، فأبى بعض الناس فقال : ادفع خمسها إلى معاوية ، وتصدق بما بقي ، فبلغ معاوية قوله ، فتلهف إذ لم يخطر له ذلك ، وقد ذهب أحمد بن حنبل والحارس المحاسبي وجماعة من الورعين إلى ذلك .

وأما القياس فهو أن يقال : إن هذا المال مردد بين أن يضيع وبين أن يصرف إلى خير ، إذ قد وقع اليأس من مالكة ، وبالضرورة يعلم أن صرفه إلى خير أولى من إلقائه في البحر ، فإنما إن رميناه في البحر فقد قوتناه على أنفسنا وعلى المالك ولم تحصل منه فائدة : وإذا رميناه في يد فقير يدعو لمالكه حصل للمالك بركة دعائه وحصل للفقير سد حاجته ، وحصول الأجر للمالك بغير اختياره في التصديق لا ينبغي أن ينكر . فإن في الخبر الصحيح « إن للزارع والغارس أجرا في كل ما يصيبه الناس والطيور من ثماره وزرعه » ^(٣) ، وذلك بغير اختياره ، وأما قول القائل : لا تتصدق إلا بالطيب ، فذلك إذا طلبنا الأجر لأنفسنا ونحن الآن نطلب الخلاص من المظلمة لا الأجر

الباب الرابع : في كيفية خروج التائب عن المظالم

(١) حديث : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتصدق بالشاة المصلية التي قدمت بين يديه وكلته بأنها حرام ، إذ قال « أطعموها الأسارى » رواه أحمد من حديث رجل من الأنصار قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فلما رجعنا لقينا راعي أسراة من قريش فقال : إن فلانة تدعوك ومن معك إلى طعام . . . الحديث ، وفيه : فقال « أحد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها » وفيه فقال « أطعموها الأسارى » وإسناده جيد . (٢) حديث : مخاطرة أبي بكر المشركين بإذنه صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم ﴾ وفيه فقال صلى الله عليه وسلم « هذا سحت » فتصدق به . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن عباس ، وليس فيه أن ذلك كان بإذنه صلى الله عليه وسلم ، والحديث عند الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه دون قوله أيضا « هذا سحت » فتصدق به .

(٣) حديث « أجر الزارع والغارس في كل ما يصيب الناس والطيور » أخرجه البخاري من حديث أنس « ما من مسلم يفرس غرسا أو يزرع زرعاً فبأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

وتردنا بين التضييع وبين التصدق ورجحنا جانب التصدق على جانب التضييع . وقول القائل : لارضى لغيرنا مالا نرضاه لأنفسنا ، فهو كذلك ولكنه علينا حرام لاستغنائنا عنه وللفقير حلال إذ أحله دليل الشرع ، وإذا اقتضت المصلحة التحليل وجب التحليل وإذا حل فقد رضىنا له الحلال ونقول إن له أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيرا . أما عياله وأهله فلا يخفى لأن الفقر لا يلتقي عنهم بكونهم من عياله وأهله بل هم أولى من يتصدق عليهم ، وأما هو فله أن يأخذ منه قدر حاجته لأنه أيضا فقير ولو تصدق به على فقير لجاز وكذا إذا كان هو الفقير ، ولنرسم في بيان هذا الأصل أيضا مسائل

مسألة : إذا وقع في يده مال من يد سلطان قال قوم : يرد إلى السلطان فهو أعلم بما تولاه فيقلده بما تقلده وهو خير من أن يتصدق به ، واختار المحاسبي ذلك وقال : كيف يتصدق به فلعن له مالكا معينا ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يسرق من السلطان ويتصدق به ، وقال قوم : يتصدق به إذا علم أن السلطان لا يرده إلى المالك لأن ذلك إغارة للظالم وتكثير لأسباب ظلمه فالرد إليه تضييع لحق المالك ، والمختار أنه إذا علم من عادة السلطان أنه لا يرده إلى مالكة فيتصدق به عن مالكة فهو خير للمالك إن كان له مالكة معين من أن يرد على السلطان لأنه ربما لا يكون له مالكة معين ويكون حق المسلمين فردة على السلطان تضييع فإن كان له مالكة معين فالرد على السلطان تضييع وإغارة للسلطان الظالم وتفويت لبركة دعاء الفقير على المالك وهذا ظاهر ، فإذا وقع في يده من ميراث ولم يتعد هو بالأخذ من السلطان فإنه شبيه باللقطة التي أيس عن معرفة صاحبها إذ لم يكن له أن يتصرف فيها بالتصدق عن المالك ولكن له أن يملكها ثم . وإن كان غنيا من حيث أنه اكتسبه من وجه مباح وهو الالتقاط وههنا لم يحصل المال من وجه مباح فيؤثر في منعه من التملك ولا يؤثر في المنع من التصدق .

مسألة : إذا حصل في يده مال لا مالكة له وجوزنا له أن يأخذ قدر حاجته لفقره في قدر حاجته نظر ذكرناه في كتاب أسرار الزكاة ، فقد قال قوم : يأخذ كفاية سنة لنفسه وعياله وإن قدر على شراء ضيعة أو تجارة يكتبها للعائلة فعل ، وهذا ما اختاره المحاسبي ولكنه قال : الأولى أن يتصدق بالكل إن وجد من نفسه قوة التوكل ويفتقر لطف الله تعالى في الحلال ، فإن لم يقدر فله أن يشتري ضيعة أو يتخذ رأس مال يتعيش بالمعروف منه وكل يوم وجد فيه حلالا أمسك ذلك اليوم عنه ، فإذا فنى عاد إليه ، فإذا وجد حلالا معينا تصدق بمثل ما أنفق من قبل ويكون ذلك قرضا عنده ، ثم إنه يأكل الخبز ويترك اللحم إن قوى عليه وإلا أكل اللحم من غير تنعم وتوسع ، وما ذكره لا مزيد عليه ولكن جعل ما أنفق قرضا عنده فيه نظر ولا شك في أن الورع أن يجعله قرضا ، فإذا وجد حلالا تصدق بمثله . ولكن مهما لم يجب ذلك على الفقير الذي يتصدق به عليه فلا يبعد أن لا يجب عليه أيضا إذا أخذه لفقره لاسيما إذا وقع في يده من ميراث ولم يكن متعديا بغصبه وكسبه حتى يغلط الأمر عليه .

مسألة : إذا كان في يده حلال وحرام أو شبهة وليس يفضل الكل عن حاجته فإذا كان له عيال فليخص نفسه بالحلال لأن الحاجة عليه أوكد في نفسه منه في عبده وعياله وأولاده الصغار والكبار من الأولاد يحرسهم من الحرام إن كان لا يفيض بهم إلى ما هو أشد منه فإن أفضى فيطعمهم بقدر الحاجة . وبالجمله كل ما يحذره في غيره فهو محذور في نفسه وزيادة وهو أنه يتناول مع العلم والعيال ربما تعذر إذا لم تعلم إذ لم تتول الأمر بنفسها فليبدأ بالحلال بنفسه ثم بمن يعول ، وإذا تردد في حق نفسه بين ما يخص قوته وكسوته وبين غيره من المؤن كأجرة الحجام والصباغ والقصار والحال والاطلاء بالنورة والدهن وعمارة المنزل وتعمد الدابة وتسجير الثور وثمان الحطب ودهن السراج فليخص

بالحلال قوته ولباسه ، فإن ما يتعلق ببدنه - ولاغنى به عنه - هو أولى بأن يكون طيباً وإذا دار الأمر بين القوت واللباس فيحتمل أن يقال يخص القوت بالحلال لأنه متميز بلحمه ودمه ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . وأما الكسوة ففائدتها ستر عورته ودفع الحر والبرد والأبصار عن بشرته وهذا هو الأظهر عندي . وقال الحارث المحاسبي يقدم اللباس لأنه يبقى عليه مدة والطعام لا يبقى عليه لما روى أنه « لا يقبل الله صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم فيها درهم حرام ^(١) » ، وهذا محتمل ولكن أمثال هذا قد ورد فيمن في بطنه حرام ونبت لحمه من حرام ^(٢) فمراعاة اللحم والعظم أن ينبت من الحلال أولى ، ولذلك تقياً الصديق رضى الله عنه ما شربه مع الجهل حتى لا يثبت منه لحم يثبت ويبقى .

* فإن قيل : فإذا كان الكل منصرفاً إلى أغراضه فأى فرق بين نفسه وغيره وبين جهة وجهة ومأمورك هذا الفرق ؟ قلنا : عرف ذلك بما روى أن رافع بن خديج رحمه الله مات وخلف ناضحاً وعبداً حجلاً فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنهى عن كسب الحجام فروجع مرات فنع منه فقيل : إن له أيتاماً فقال : أعلفوه الناضح ^(٣) فهذا يدل على الفرق بين ما يأكله هو أو دابته فإذا انفتح سبيل الفرق فقس عليه التفصيل الذى ذكرناه .

مسألة : الحرام الذى فى يده لو تصدق به على الفقراء فله أن يوسع عليهم وإذا أنفق على نفسه فليضيّق ما قدر وما أنفق على عياله فليقتصد ، وإسكن وسطاً بين التوسيع والتضيّق فيكون الأمر على ثلاث مراتب . فإن أنفق على ضيف قدم عليه وهو فقير فليوسع عليه ، وإن كان غنياً فلا يطعمه إلا إذا كان فى برية أو قدم ليلاً ولم يجد شيئاً فإنه فى ذلك الوقت فقير ، وإن كان الفقير الذى حضر ضيفاً تقياً لو علم ذلك لتورّع عنه فليعرض الطعام وليخبره جمعاً بين حق الضيافة وترك الخداع فلا ينبغي أن يكرم أخاه بما يكره ، ولا ينبغي أن يعول على أنه لا يدري فلا يضره فإن الحرام إذا حصل فى المعدة أثر فى مساواة القلب وإن لم يعرفه صاحبه ، ولذلك تقياً أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وكانا قد شربا على جهل ، وهذا وإن أفتينا بأنه حلال للفقراء أحلناه بحكم الحاجة إليه فهو كالخنزير والخنزير إذا أحلناها بالضرورة فلا يلتحق بالطيبات .

مسألة : إذا كان الحرام أو الشبهة فى يد أبويه فليمتنع عن مؤاكلتهما فإن كانا يسخطان فلا يوافقهما على الحرام المحض بل ينهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله تعالى ، فإن كان شبهة وكان امتناعه للورع فهذا قد عارضه أن الورع طلب رضاها بل هو واجب فليتلطف فى الامتناع ، فإن لم يقدر فليوافق وليقل الأكل بأن يصغر اللقمة ويطيل المضغ ولا يتوسع فإن ذلك عدوان والأخ والأخت قريبان من ذلك لأن حقهما أيضاً مؤكد ، وكذلك إذا ألبسته أمه ثوباً من شبهة وكانت تسخط برده فليقبل وليلبس بين يديها ولينزع فى غيبتها وليجتهد أن لا يصلى فيه إلا عند حضورها فيصلّى فيه صلاة المضطر ، وعند تعارض أسباب الورع ينبغي أن يتفقد هذه الدقائق . وقد حكى عن بشر رحمه الله أنه سلمت إليه أمه رطبة وقالت : بحق عليك أن تأكلها وكان يكرهه فأكل ثم صعد غرفة فصعدت

(١) حديث « لا تقبل صلاة من عليه ثوب اشتراه بعشرة دراهم وفيها درهم حرام » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٢) حديث الجسد نبت من الحرام تقدم . (٣) حديث : أن رافع بن خديج مات وخلف ناضحاً وعبداً حجلاً ... الحديث . وفيه « أعلفوه الناضح » أخرجه أحمد والطبرانى من رواية عباية بن رفاعة بن خديج : أن جده حين مات ترك جارية وناضحاً وغلاماً حجلاً ... الحديث . وليس المراد بمجده رافع بن خديج فإنه بقى إلى سنة أربع وسبعين فيحتمل أن المراد جده الأعلى وهو خديج ولم أره ذكراً فى الصحابة وفى رواية للطبرانى عن عباية بن رفاعة عن أبيه قال « مات أبى » وفى رواية له عن عباية قال « مات رفاعة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وهو مضطرب .

أمه ورائه فرأته يتقياً ، وإنما فعل ذلك لأنه أراد أن يجمع بين رضاها وبين صيانة المعدة . وقد قيل لأحمد بن حنبل : سئل بشر هل للوالدين طاعة في الشبهة ؟ فقال : لا . فقال أحمد : هذا شديد . فقيل له : سئل محمد بن مقاتل العباداني عنها فقال : بر والدك ؛ فماذا تقول ؟ فقال للسائل : أحب أن تعفيني فقد سمعت ما قالاً ثم قال : ما أحسن أن تداريها .

مسألة : من في يده مال حرام محض فلا حج عليه ولا يلزمه كفارة مالية لأنه مفلس ولا تجب عليه الزكاة إذ معنى الزكاة وجوب إخراج ربع العشر مثلاً ، وهذا يجب عليه لإخراج الكل إما رداً على المالك إن عرفه أو صرفاً إلى الفقراء إن لم يعرف المالك ، وأما إذا كان مال شبهة يحتل أنه حلال فإذا لم يخرج منه من يده لزمه الحج لأن كونه حلالاً يمكن ولا يسقط الحج إلا بالفقر ولم يتحقق فقره وقد قال الله تعالى ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ وإذا وجب عليه التصديق بما يزيد على حاجته حيث يغلب على ظنه تحريمه فالزكاة أولى بالوجوب ، وإن لزمته كفارة فليجمع بين الصوم والإعتاق ليتخلص بيقين . وقد قال قوم : يلزمه الصوم دون الإطعام إذ ليس له يسار معلوم . وقال المحاسبي : يكفيه الإطعام . والذي نختاره : أن كل شبهة حكمنا بوجوب اجتنابها والزمناه إخراجها من يده لكون احتمال الحرام أغلب على ما ذكرناه فعليه الجمع بين الصوم والإطعام ، أما الصوم فلأنه مفلس حكماً ، وأما الإطعام فلأنه قد وجب عليه التصديق بالجمع ويحتل أن يكون له فيكون اللزوم من جهة الكفارة .

مسألة : من في يده مال حرام أمسكه للحاجة فأراد أن يتطوع بالحج فإن كان ماشياً فلا بأس به لأنه سياً كل هذا المال في غير عبادة فأكله في عبادة أولى . وإن كان لا يقدر على أن يمشي ويحتاج إلى زيادة للمركوب فلا يجوز الأخذ لمثل هذه الحاجة في الطريق كما لا يجوز شراء المركوب في البلد . وإن كان يتوقع القدرة على حلال لو أقام بحيث يستغنى به عن بقية الحرام فالإقامة في انتظاره أولى من الحج ماشياً بالمال الحرام .

مسألة : من خرج لحج واجب بمال فيه شبهة فليجتهد أن يكون قوته من الطيب ، فإن لم يقدر فمن وقت الإحرام إلى التحلل ، فإن لم يقدر فليجتهد يوم عرفة أن لا يكون قيامه بين يدي الله ودعاؤه في وقت مطعمه حرام وملبسه حرام ؛ فليجتهد أن لا يكون في بطنه حرام ولا على ظهره حرام فإنما وإن جاوزنا هذا بالحاجة فهو نوع ضرورة ، وما ألحقناه بالطيبات ، فإن لم يقدر فليلازم قلبه الخوف والغم لما هو مضطر إليه من تناول ما ليس بطيب فعساه ينظر إليه بعين الرحمة ويتجاوز عنه بسبب حزنه وخوفه وكراهته .

مسألة : سئل أحمد بن حنبل رحمه الله فقال له قائل : مات أبي وترك مالا وكان يعامل من تكره معاملته ، فقال : تدع من ماله بقدر ما ربح ، فقال : له دين وعليه دين ، فقال : تقضى وتقضى ، فقال : أفترى ذلك ؟ فقال : أفنديه محتسباً بدينه ؟ وما ذكره صحيح وهو يدل على أنه رأى التحريم بإخراج مقدار الحرام إذ قال : يخرج قدر الربح ، وأنه رأى أن أعيان أمواله ملك له بدلاً عما بذله في المعامضات الفاسدة بطريق التقاص والتقابل مهما كثر التصرف وعسر الرد ، وعول في قضاء دينه على أنه يقين فلا يترك بسبب الشبهة .

الباب الخامس : في إدارات السلاطين وصلاتهم وما يحل منها وما يحرم

اعلم أن من أخذ مالا من سلطان فلا بد له من النظر في ثلاثة أمور : في مدخل ذلك إلى يد السلطان من أين هو ؟ وفي صفته التي بها يستحق الأخذ . وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ؟ .

النظر الأول : في جهات الدخل للسلطان

وكل ما يحل للسلطان سوى الإحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان :

مأخوذ من الكفار - وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر - والفيء ، وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال ، والجزية وأموال المصالحة ، وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاهدة .

والقسم الثاني : المأخوذ من المسلمين - فلا يحل منه إلا قسمان : الموارث وسائر الأمور الضائعة التي لا يتعين لها مالك ، والأوقاف التي لا متولى لها . أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان . وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام .

فإذا كتب لفقهاء أو غيره إدار أو صلة أو خلعة على جهة فلا يخلو من أحوال ثمانية : فإنه إما أن يكتب له ذلك على الجزية ، أو على الموارث ، أو على الأوقاف ، أو على ملك أحياء السلطان ، أو على ملك اشتراه ، أو على عامل خراج المسلمين ، أو على بيع من جملة التجار ، أو على الخزانة .

فالأول : هو الجزية وأربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة . فسا يكتب على الخمس من تلك الجهات أو على الأبخماس الأربعة لما فيه مصلحة وروعى فيه الاحتياط في القدر فهو حلال ، بشرط أن لا تكون الجزية إلا مضروبة على وجه شرعى ليس فيها زيادة على دينار أو على أربعة دنانير ، فإنه أيضا في محل الاجتهاد وللسلطان أن يفعل ما هو في محل الاجتهاد ، وبشرط أن يكون الذي يؤخذ الجزية منه مكتسبا من وجه لا يعلم تحريمه فلا يكون عامل سلطان ظالما ولا يبيع خمر ولا صيبا ولا امرأة ، إذ لا جزية عليهما . فهذه أمور تراعى في كيفية ضرب الجزية ومقدارها وصفة من تصرف إليه ومقدار ما يصرف فيجب النظر في جميع ذلك .

الثاني : الموارث والأموال الضائعة فهي للمصالح والنظر أن الذي خلفه هل كان ماله كله حراما أو أكثره أو أقله وقد سبق حكمه ، فإن لم يكن حراما بقى النظر في صفة من يصرف إليه بأن يكون في الصرف إليه مصلحة ثم في المقدار المصروف .

الثالث : الأوقاف ، وكذا يجرى النظر فيها كما يجرى في الميراث مع زيادة أمر وهو شرط الموافقة حتى يكون المأخوذ موافقا له في جميع شرائطه .

الرابع : ما أحياء السلطان ، وهذا لا يعتبر فيه شرط إذ له أن يعطى من ملكه ما شاء لمن شاء أى قدر شاء . وإنما النظر في أن الغالب أنه أحياء يكره الأجراء أو بأداء أجرتهم من حرام . فإن الإحياء يحصل بحفر القناة والأنهار وبناء الجدران وتسوية الأرض ولا يتولاه السلطان بنفسه . فإن كانوا مكرهين على الفعل لم يملكه السلطان وهو حرام وإن كانوا مستأجرين ثم قضيت أجورهم من الحرام فهذا يورث شبهة قد نهينا عليها في تعلق الكراهة بالأعواض .

الخامس : ما اشتراه السلطان في الذمة من أرض أو ثياب خلعة أو فرس أو غيره فهو ملكه وله أن يتصرف فيه ولكنه سيقضى ثمنه من حرام وذلك يوجب التحريم تارة والشبهة أخرى . وقد سبق تفصيله .

السادس : أن يكتب على عامل خراج المسلمين أو من يجمع أمواله القسمة والمصادرة وهو الحرام السحت الذي لاشبهة فيه ، وهو أكثر الإدارات في هذا الزمان إلا ما على أراضي العراق فإنها وقفت عند الشافعي رحمه الله على مصالح المسلمين .

السابع : ما يكتب على يبايع يعامل السلطان فإن كان لا يعامل غيره فما له كمال خزانة السلطان . وإن كان يعامل غير السلاطين أكثر فما يعطيه قرض على السلطان وسيأخذ بدله من الخزانة فالخلل يتطرق إلى العوض . وقد سبق حكم الثمن الحرام .

الثامن : ما يكتب على الخزانة أو على عامل يجتمع عنده من الحلال والحرام فإن لم يعرف للسلطان دخل إلا من الحرام فهو سحت محض . وإن عرف يقينا أن الخزانة تشتمل على مال حلال ومال حرام واحتمل أن يكون ما يسلم إليه بعينه من الحلال احتمالا قريباً له وقع في النفس ، واحتمل أن يكون من الحرام وهو الأغلب لأن أغلب أموال السلاطين حرام في هذه الأعصار والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز فقد اختلف الناس في هذا فقال قوم : كل ما لا يتيقن أنه حرام فلي أن آخذه ، وقال آخرون : لا يحل أن يؤخذ ما لم يتحقق أنه حلال فلا تحل شبهة أصلاً . وكلاهما إسراف ، والاعتدال ما قدمنا ذكره وهو الحكم بأن الأغلب إذا كان حراماً حرم وإن كان الأغلب حلالاً وفيه يقين حرام فهو موضع توقفنا فيه كما سبق .

ولقد احتج من جاوز أخذ أموال السلاطين إذا كان فيها حرام وحلال - مهما لم يتحقق أن عين المأخوذ حرام - بما روى عن جماعة من الصحابة أنهم أدركوا أيام الأئمة الظلمة وأخذوا الأموال : منهم أبو هريرة وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وجابر وأنس بن مالك والمصور بن عزمه . فأخذ أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد بن عبد الملك . وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج . وأخذ كثير من التابعين منهم كالشعبي وإبراهيم والحسن وابن أبي ليلى . وأخذ الشافعي من هرون الرشيد ألف دينار في دفعة . وأخذ مالك من الخلفاء أموالاً جمة وقال على رضى الله عنه : خذ ما يعطيك السلطان فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر . وإنما ترك من ترك العطاء منهم تورعاً مخافة على دينه أن يحمل على ما لا يحل . ألا ترى قول أبي ذر للأخنف بن قيس : خذ العطاء ما كان نحلة فإذا كان أثمان دينكم فدعوه ؟ وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إذا أعطينا قبلنا وإذا منعنا لم نسأل . وعن سعيد بن المسيب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان إذا أعطاه معاوية سكت وإن منعه وقع فيه . وعن الشعبي عن مسروق : لا يزال العطاء بأهل العطاء حتى يدخلهم النار - أى يحمله ذلك على الحرام لا أنه في نفسه حرام - وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن المختار كان يبعث إليه المال فيقبله ثم يقول : لا أسأل أحداً ولا أرد ما رزقني الله . وأهدى إليه ناقة فقبلها وكان يقال لها ناقة المختار ، ولكن هذا يعارضه ما روى أن ابن عمر رضى الله عنهما لم يرد هدية أحد إلا هدية المختار ، والإسناد في رده أثبت . وعن نافع أنه قال : بعث ابن معمر إلى ابن عمر بستين ألفاً فقسمها على الناس ، ثم جاءه سائل فاستقرض له من بعض من أعطاه وأعطى السائل . ولما قدم الحسن بن علي رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال : لا أجيزك بجائزة لم أجزها أحداً قبلك من العرب ولا أجيزها أحداً بعدك من العرب ، قال : فأعطاء أربعمائة ألف درهم فأخذها . وعن حبيب

ابن أبي ثابت قال : لقد رأيت جائزة المختار لابن عمر وابن عباس فقبلاها فقيل ماهي ؟ قال : مال وكسوة . وعن الزبير بن عدى أنه قال : قال سلمان إذا كان لك صديق عامل أو تاجر يقارف الربا فدعاك إلى طعام أو نحوه أو أعطاك شيئا فاقبل فإن المهنة لك وعليه الوزر . فإن ثبت هذا في المربي فالظالم في معناه . وعن جعفر عن أبيه أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا يقبلان جوائز معاوية . وقال حكيم بن جبير : مررنا على سعيد بن جبير وقد جعل عاملا على أسفل الفرات فأرسل إلى العشارين أطعمونا بما عندكم فارسلوا بطعام فأكل وأكلنا معه . وقال العلاء بن زهير الأزدي : أتى إبراهيم أبي - وهو عامل على حلوان - فأجازه فقبل وقال إبراهيم : لا بأس بجائزة العمال إن للعمال مؤنة ورزقا . ويدخل بيت ماله الخبيث والطيب فما أعطاك فهو من طيب ماله . فقد أخذ هؤلاء كلهم جوائز السلاطين الظلمة وكلهم طعنوا على من أطاعهم في معصية الله تعالى . وزعمت هذه الفرقة أن ما ينقل من امتناع جماعة من السلف لا يدل على التحريم بل على الورع كالخلفاء الراشدين وأبي ذر وغيرهم من الزهاد فإنهم امتنعوا من الحلال المطلق زهدا ومن الحلال الذي يخاف إفضاؤه إلى محذور ورعا وتقوى . فإقدام هؤلاء يدل على الجواز وامتناع أولئك لا يدل على التحريم . وما نقل عن سعيد بن المسيب أنه ترك عطاءه في بيت المال حتى اجتمع بضعة وثلاثين ألفا وما نقل عن الحسن من قوله لا أتوضأ من ماء صيرفي ولو ضاق وقت الصلاة لأنى لأدرى أصل ماله : كل ذلك ورع لا ينكر ، واتباعهم عليه أحسن من اتباعهم على الاتساع ولكن لا يحرم اتباعهم على الاتساع أيضا . فهذه هي شبهة من يجوز أخذ مال السلطان الظالم .

والجواب ، أن ما نقل من أخذ هؤلاء محصور قليل بالإضافة إلى ما نقل من ردهم وإنكارهم ، وإن كان يتطرق إلى امتناعهم احتمال الورع فيتطرق إلى أخذ من أخذ ثلاثة احتمالات متفاوتة في الدرجة بتفاسوتهم في الورع فإن للورع في حق السلاطين أربع درجات .

الدرجة الأولى : أن لا يأخذ من أموالهم شيئا أصلا كما فعله الورعون منهم ، وكما كان يفعله الخلفاء الراشدون حتى أن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال ، وحتى إن عمر رضى الله عنه كان يقسم مال بيت المال يوما فدخلت ابنة له وأخذت درهما من المال فنهض عمر في طلبها حتى سقطت الملحفة من أحد منكبيه ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكي وجعلت الدرهم في فيها فأدخل عمر أصبعه فأخرجه من فيها وطرحه على الخراج وقال : أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم . وكسح أبو موسى الأشعري بيت المال فوجد درهما فربى لعمر رضى الله عنه فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك في يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال . يا أبا موسى ما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أحد إلا طلبنا بمظلمة ، ورد الدرهم إلى بيت المال . هذا مع أن المال كان حلالا ولكن خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرئ لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »^(١) ، ولقوله « ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه »^(٢) ، ولما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشديدات في الأموال السلطانية حتى قال صلى الله عليه وسلم حين

الباب الخامس : في إدارات السلاطين

(١) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » تقدم في الباب الأول من الحلال والحرام . (٢) حديث « من تركها فقد استبرأ لدينه وعرضه » متفق عليه من حديث الثعالب بن بشير وقد تقدم أوله في أول الباب الثاني من الحلال والحرام . (١٨ — أحياء علوم الدين — ٢)

بعث عبادة بن الصامت إلى الصدقة ، اتق الله يا أبا الوليد لا تجئ يوم القيامة ببيعين تحمله على رقبتك له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تواج فقال يارسول الله أهكذا يكون ؟ قال نعم والذي نفسي بيده إلا من رحم الله . قال فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على شيء أبدا ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا ^(٢) ، وإنما خاف التنافس في المال . ولذلك قال عمر رضى الله عنه في حديث طويل يذكر فيه مال بيت المال : إني لم أجد نفسى فيه إلا كالوالى مال اليتيم ؛ إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف . وروى أن ابنا لطاوس افتعل كتابا عن لسانه إلى عمر بن عبدالعزيز فأعطاه ثلثمائة دينار ؛ فباع طاوس ضيعة له وبعث من ثمنها إلى عمر بثلثمائة دينار ، هذا مع أن السلطان ليس مثل عمر بن عبد العزيز . فهذه الدرجة العليا في الورع .

الدرجة الثانية : هو أن يأخذ مال السلطان ولكن إنما يأخذ إذا علم أن ما يأخذه من جهة حلال فاشتال يد السلطان على حرام آخر لا يضره ، وعلى هذا ينزل جميع ما نقل من الآثار أو أكثرها أو ما اختص منها بأكبر الصحابة والورعين منهم مثل ابن عمر فإنه كان من المبالغين في الورع فكيف يتوسع في مال السلطان ، وقد كان من أشدهم إنكارا عليهم وأشداهم ذما لأموالهم ؟ وذلك أنهم اجتمعوا عند ابن عامر - وهو في مرضه وأشفق على نفسه من ولايته وكونه مأخوذا عند الله تعالى بها - فقالوا له : إنا لنرجو لك الخير ، حضرت الآبار وسقيت الحاج وصنعت ... وصنعت ... وابن عمر ساكت ، فقال : ماذا تقول يا ابن عمر ؟ فقال : أقول ذلك إذا طاب المكسب وزكت النفقة وسترى فترى . وفي حديث آخر أنه قال إن الخبيث لا يكفر الخبيث وإنك قد وليت البصرة ولا أحسبك إلا قد أصبت منها شرا . فقال له ابن عامر : ألا تدعولى ، فقال : ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول ^(٣) ، وقد وليت البصرة فهذا قوله فيما صرفه إلى الخيرات . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال في أيام الحجاج : ما شبع من الطعام منذ انتهيت الدار إلى يومى هذا وروى عن علي رضى الله عنه أنه كان له سويق في إناء مختوم يشرب منه فقيل : أتفعل هذا بالعراق مع كثرة طعامه ؟ فقال : أما إني لأختمه بخلاجه ولكن أكره أن يجعل فيه مالميس منه واكره أن يدخل بطنى غير طيب ، فهذا هو المألوف منهم وكان ابن عمر لا يعجبه شيء إلا خرج عنه فطلب منه نافع بثلاثين ألفا فقال : إني أخاف أن تقتنى دراهم ابن عامر وكان هو الطالب اذهب فأنت حر . وقال أبو سعيد الخدرى : ما من أحد إلا مالت به الدنيا إلا ابن عمر ؟ فهذا يتضح أنه لا يظن به وبين كان في منصبه أنه أخذ مالا يدرى أنه حلال .

الدرجة الثالثة : أن يأخذ مأخذه من السلطان ليتصدق به على الفقراء أو يفرقه على المستحقين ، فإن مالا يتعين ماله هذا حكم الشرع فيه . فإذا كان السلطان إن لم يأخذ منه لم يفرقه واستعان به على ظلم فقد نقول أخذه منه وتفرقته أولى من تركه في يده ، وهذا قد رآه بعض العلماء وسيأتى وجهه . وعلى هذا ينزل مأخذه أكثرهم ولذلك قال ابن المبارك : إن الذين يأخذون الجوائز اليوم ويحتجون بابن عمر وعائشة ما يقتدون بهما ؟ لأن ابن عمر فرق مأخذه حتى استقرض في مجلسه بعد تفرقته ستين ألفا ، وعائشة فعلت مثل ذلك ، وجابر بن زيد جاءه مال فتصدق به وقال : رأيت أن أخذه منهم وأتصدق أحب إلى من أن أدعها في أيديهم ، وهكذا فعل الشافعى رحمه الله بما قبله

(١) حديث « قل لعبادة بن الصامت حين بعثه إلى الصدقة اتق الله يا أبا الوليد لا تجئ يوم القيامة ببيعين تحمله على رقبتك . . . الحديث » أخرجه الشافعى في المسند من حديث طاوس بن سلا ولا يبي يعلى في المعجم من حديث ابن عمر مختصرا أنه قاله لسعد بن عبادة وإسناده صحيح . (٢) حديث « إني لأخاف عليكم أن تشركوا بعدى إنما أخاف عليكم أن تنافسوا » متفق عليه من حديث عتبة بن عامر . (٣) حديث « لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر

من هرون الرشيد فإنه فرقه على قرب حتى لم يمسك لنفسه حبة واحدة .

الدرجة الرابعة : أن لا يتحقق أنه حلال ولا يفرق بل يستبقى ولكن يأخذ من سلطان أكثر ماله حلال ، وهكذا كان الخلفاء في زمان الصحابة رضی الله عنهم ، والتابعين بعد الخلفاء الراشدين ولم يكن أكثر مالهم حراماً . ويدل عليه تعليل على رضی الله عنه حيث قال : فإن ما يأخذه من الحلال أكثر . فهذا مما قد جوزته جماعة من العلماء تعويلاً على الأكثر . ونحن إنما توقفنا فيه في حق آحاد الناس ، ومال السلطان أشبه بالخروج عن الحصر فلا يبعد أن يؤدي اجتهد مجتهد إلى جواز أخذ ما لم يعلم أنه حرام اعتماداً على الأغلب ، وإنما منعه إذا كان إلا أكثر حراماً فإذا فهمت هذه الدرجات تحققت أن إدارات الظلمة في زماننا لا تجرى مجرى ذلك وأنها تفرقه من وجهين قاطعين أحدهما : أن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها ، وكيف لا والحلال هو الصدقات والنفى والغنيمة لا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ؟ ولم يبق إلا الجزية وأنها تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به فإنهم يحاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ، ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصب إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادر والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشرين .

والوجه الثاني : أن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم ومتشفين إلى استئالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبولهم عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يكثر جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ولم يكن يأخذهم بأس ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعبودية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكسب بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم . فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً ، وبالتردد في الخدمة ثانياً ، وبالثناء والدعاء ثالثاً ، بالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامساً ، وبإظهار الحب والمواودة والمناصرة له على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوى أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً ؛ فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فن استجراً على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين . ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عملهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية - على ما سنبين في الباب الذي يلي هذا - فإذا قد تبين مما تقدم مداخل أموالهم وما يحل منها وما لا يحل . فلو تصور أن يأخذ الإنسان منها ما يحل بقدر استحقاقه وهو جالس في بيته يساق إليه ذلك - لا يحتاج فيه إلى تفقد عامل وخدمته ولا إلى الثناء عليهم وتركيتهم ولا إلى مساعدتهم - فلا يحرم الأخذ ولكن يكره لمعان سذنبه عليها في الباب الذي يلي هذا .

النظر الثاني من هذا الباب : في قدر المأخوذ وصفة الأخذ

ونفرض المال من أموال المصالح كأربعة أخماس النية والمواريث فإن ما عداها مما قد تعين مستحقه إن كان من وقف أو صدقة أو خمس في أو خمس غنيمة ، وما كان من ملك السلطان مما أحياه أو اشتراه فله أن يعطى

ما شاء لمن شاء . وإنما النظر في الأموال الضائعة ومال المصالح فلا يجوز صرفه إلا إلى من فيه مصلحة عامة أو هو محتاج إليه عاجز عن الكسب ، فأما الغنى الذى لا مصلحة فيه فلا يجوز صرف مال بيت المال إليه ، هذا هو الصحيح وإن كان العلماء قد اختلفوا فيه . وفى كلام عمر رضى الله عنه ما يدل على أن لكل مسلم حقا فى بيت المال لكونه مسلما مكثرا جمع الإسلام ولكنه مع هذا ما كان يقسم المال على المسلمين كافة بل على مخصوصين بصفات . فإذا ثبت هذا فكل من يتولى أمرا يقوم به تتعدى مصلحته إلى المسلمين ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه ، فله فى بيت المال حق الكفاية . ويدخل فيه العلماء كلهم ؛ أعنى العلوم التى تتعلق بمصالح الدين من علم الفقه والحديث والتفسير والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون والمؤذنون . وطلبة هذه العلوم أيضا يدخلون فيه ، فإنهم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب . ويدخل فيه العمال ، وهم الذين ترتبط مصالح الدنيا بأعمالهم وهم الاجناد المرتزقة الذين يحرصون المملكة بالسيوف عن أهل العداوة وأهل البغى وأعداء الإسلام . ويدخل فيه الكتاب والحساب والوكلاء وكل من يحتاج إليه فى ترتيب ديوان الخراج ، أعنى العمال على الأموال الحلال لا على الحرام ، فإن هذا المال للمصالح . والمصلحة إما أن تتعلق بالدين أو بالدنيا فبالعلماء حراسة الدين وبالأجناد حراسة الدنيا . والدين والملك توأمان فلا يستغنى أحدهما عن الآخر . والطبيب وإن كان لا يرتبط بعلمه أمر ديني ولكن يرتبط به صحة الجسد والدين يتبعه ؛ فيجوز أن يكون له ولمن يجرى مجراه فى العلوم المحتاج إليها فى مصلحة الأبدان أو مصلحة البلاد إدار من هذه الأموال ليتفرغوا لمعالجة المسلمين ، أعنى من يعالج منهم بغير أجر ، وليس يشترط فى هؤلاء الحاجة بل يجوز أن يعطوا مع الغنى . فإن الخلفاء الراشدين كانوا يعطون المهاجرين والأنصار ولم يعرفوا بالحاجة . وليس يتقدر أيضا بمقدار بل هو إلى اجتهاد الامام وله أن يوسع ويغنى وله أن يقتصر على الكفاية على ما يقتضيه الحال وسعة المال . فقد أخذ الحسن عليه السلام من معاوية فى دفعة واحدة أربعمئة ألف درهم . وقد كان عمر رضى الله عنه يعطى لجماعة اثني عشر ألف درهم نقرة فى السنة . وأثبت عائشة رضى الله عنها فى هذه الجريدة وجماعة عشرة آلاف وجماعة ستة آلاف وهكذا . فهذا مال هؤلاء فيوزع عليهم حتى لا يبقى منه شيء . فإن خص واحدا منهم بمال كثير فلا بأس . وكذلك للسلطان أن يخص من هذا المال ذوى الخصائص بالخلع والجوائز فقد كان يفعل ذلك فى السلف ولكن ينبغى أن يلتفت فيه إلى المصلحة . ومهما خص عالم أو شجاع بصلة كان فيه بعث للناس وتحريض على الاشتغال والتشبه به فهذه فائدة الخلع والصلوات وضروب التخصيصات وكل ذلك منوط باجتهاد السلطان . وإنما النظر فى السلاطين الظلمة فى شيئين (أحدهما) أن السلطان الظالم عليه أن يكف عن ولايته ، وهو إما معزول أو واجب العزل فكيف يجوز أن يأخذ من يده وهو على التحقيق ليس بسلطان ؟ (والثاني) أنه ليس يعمم بماله جميع المستحقين فكيف يجوز للأحد أن يأخذوا ؟ أفيجوز لهم الآخذ بقدر حصصهم أم لا يجوز أصلا ؟ أم يجوز أن يأخذ كل واحد ما أعطى ؟

أما الأول : فالذى نراه أنه لا يمنع أخذ الحق ، لأن السلطان الظالم الجاهل مهما ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة نائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له كما تجب طاعة الأمراء ، إذ قد ورد فى الأمر بطاعة الأمراء^(١) والمنع من سل اليد عن مساعدتهم^(٢) أوامر وزواجر . فالذى نراه : أن الخلافة منعقدة للمتكفل

(١) حديث « الأمر بطاعة الأمراء » أخرجه البخارى من حديث أنس « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عيسى عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » وسلم من حديث أبي هريرة « عليك بالطاعة فى مشطك ومكرهك ... الحديث » وله من حديث أبي ذر « أوصاني النبي صلى الله عليه وسلم أن أسمع وأطيع ولولم يبدع الأطراف » . (٢) حديث « المنع من سل اليد عن مساعدتهم » =

بها من بنى العباس رضى الله عنه ، وأن الولاية نافذة للسلطين في أقطار البلاد والمبايعين للخليفة - وقد ذكرنا في كتاب المستظهرى المستنبط من كتاب كشف الأسرار وهتك الاستار تأليف القاضى أبى الطيب فى الرد على أصناف الروافض من الباطنية ما يشير إلى وجه المصلحة فيه - والقول الوجيز أنا نراعى الصفات والشروط فى السلطين تشوفا إلى مزايا المصالح . ولو قضينا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأسا فكيف يفوت رأس المال فى طلب الربح ؟ بل الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة . فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة . ومن استبد بالشوكة وهو مطيع للخليفة فى أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الحسك والقضاء فى أقطار الأرض ولاية نافذة الأحكام . وتحقيق هذا قد ذكرناه فى أحكام الإمامة من كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد فلسنا نطول الآن به .

وأما الإشكال الآخر وهو أن السلطان إذا لم يعمم بالعطاء كل مستحق فهل يجوز للواحد أن يأخذ منه ؟ فهذا مما اختلف العلماء فيه على أربع مراتب فعلا بعضهم وقال : كل ما يأخذه فالمسلمون كلهم فيه شركاء ولا يدرى أن حصته منه دائق أو حبة فليترك الكل وقال قوم : له أن يأخذ قدر قوت يومه فقط ، فإن هذا القدر يستحقه لحاجته على المسلمين . وقال قوم : له قوت سنة ، فإن أخذ الكفاية كل يوم عسير وهو ذو حق فى هذا المال فكيف يتركه ؟ وقال قوم : إنه يأخذ ما يعطى والمظلوم هم الباقون . وهذا هو القياس لأن المال ليس مشتركا بين المسلمين كالغنيمة بين الغانمين ولا كالميراث بين الورثة لأن ذلك صار ملكا لهم . وهذا لو لم يتفق قسمه حتى مات هؤلاء لم يجب التوزيع على ورثتهم بحكم الميراث . بل هذا الحق غير متعين وإنما يتعين بالقبض . بل هو كالصدقات ومهما أعطى الفقراء حصتهم من الصدقات وقع ذلك ملكا لهم ولم يتمتع بظلم المالك بقية الأصناف بمنع حقهم ، هذا إذا لم يصرف إليه كل المال بل صرف إليه من المال ما لو صرف إليه بطريق الإيثار والتفضيل مع تعميم الآخرين لجاز له أن يأخذه والتفضيل جائز فى العطاء . سوى أبو بكر رضى الله عنه فراجع عمر رضى الله عنه فقال : إنما فضله عند الله وإنما الدنيا بلاغ . وفضل عمر رضى الله عنه فى زمانه فأعطى عائشة اثنى عشر ألفا وزينب عشرة آلاف وجويرية ستة آلاف وكذا صفية . وأقطع عمر لعلى خاصة رضى الله عنهما . وأقطع عثمان أيضا من السواد خمس جنات ، وأثر عثمان عليا رضى الله عنهما بها فقبل ذلك منه ولم ينكر . وكل ذلك جائز فى محل الاجتهاد وهو من المجتهديات التى أقول فيها : إن كل مجتهد مصيب ، وهى كل مسألة لا نص على عينها ولا على مسألة تقرب منها فتكون فى معناها بقياس جلى كهذه المسألة ومسألة حد الشرب فإنهم جلدوا أربعين وثمانين والكل سنة وحق وأن كل واحد من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مصيب باتفاق الصحابة رضى الله عنهم ، إذ المفضل وارد فى زمان عمر شيئا إلى الفاضل مما قد كان أخذه فى زمان أبى بكر ، ولا الفاضل امتنع من قبول الفضل فى زمان عمر ، واشترك فى ذلك كل الصحابة واعتقدوا أن كل واحد من الرايين حق . فلا يؤخذ هذا المجلس دستورا للخلافات التى يصوب فيها كل مجتهد . فأما كل مسألة شذ عن مجتهد فيها نص أو قياس جلى - بغفلة أو سوء رأى وكان فى القوة بحيث ينقض حكم المجتهد - فلا نقول فيها إن كل واحد مصيب بل المصيب من أصاب النص أو ما فى معنى النص . وقد تحصل من مجموع هذا أن من وجد من أهل الخصوص الموصوفين بصفة تتعلق بها مصالح الدين أو الدنيا وأخذ من السلطان خلعة أو إدارا على التركات أو الجزية لم يصرفا سقا بمجرد أخذه ، وإنما يفسق بخدمته لهم ومعاذته لإياهم ودخوله

= أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « ليس أحد يفارق الجماعة شيئا فيموت إلا مات ميتة جاهلية » ولسلم من حديث أبى هريرة « من خرج من الجماعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية » وله من حديث ابن عمر « من خلع يدا من طاعة لى الله يوم القيامة ولا حجة له » .

عليهم وثنائه وإطرائه لهم إلى غير ذلك من لوازم ما لا يسلم المال غالبا إلا بها كما سنبينه .

الباب السادس : فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم

وحكم غشيان مجالسهم والدخول عليهم والاكرام لهم

اعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال (الحالة الأولى) وهي شرها أن تدخل عليهم (والثانية) وهي دونها أن يدخلوا عليك (والثالثة) وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك .

أما الحالة الأولى : وهي الدخول عليهم فهو مذموم جدا في الشرع وفيه تغليظات وتشديدات تواردت بها الاخبار والآثار ، فتنقلها لتعرف ذم الشرع له ، ثم نتعرض لما يحرم منه وما يباح وما يكره على ما تقتضيه الفتوى في ظاهر العلم .

أما الاخبار : فإنه لما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراء الظلمة قال « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم ^(١) » وذلك لأن من اعتزلهم سلم من إهمهم ولكن لم يسلم من عذاب يعمه معهم إن نزل بهم لتركه المناذرة والمنازعة . وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون من بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض ^(٢) » ، وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « أبغض القراء إلى الله تعالى الذين يزورون الأمراء ^(٣) » ، وفي الخبر « خير الأمراء الذين يأنون العلماء وشر العلماء الذين يأتون الأمراء » ، وفي الخبر « العلماء أمناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فأحذروهم واعتزلوهم ^(٤) » ، رواه أنس رضى الله عنه .

وأما الآثار : فقد قال حذيفة : إياكم ومرافق الفتن ! قيل : وماهى قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدق الكذب ويقول ما ليس فيه . وقال أبو ذر لسلمة : ياسلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وقال سفيان : فى جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك . وقال الأوزاعى : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا . وقال سمعون : ما أسمع بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال عند الأمير . وكنت أسمع أنه يقال : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك مع ما أواجههم به من الغلظة والمخالفة لهواهم . وقال عبادة بن الصامت : حب القارئ الناسك الأمراء نفاق وحبه الأغنياء رياء . وقال أبو ذر : من كثر سواد قوم فهو منهم أى من كثر سواد الظلمة . وقال ابن مسعود رضى الله عنه إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج ولا دين له ، قيل له : ولم ؟ قال لأنه يرضيه بسخط الله . واستعمل عمر بن

الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين

(١) حديث « فن نابذهم نجا ومن اعتزلهم سلم أو كاد أن يسلم ومن وقع معهم في دنياهم فهو منهم » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف وقال « ومن خالطهم هلك » . (٢) حديث « سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ولم يرد على الخوض » أخرجه النسائي والترمذي وصححه والحاكم من حديث كعب ابن بجرة . (٣) حديث أنى هريرة « أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يأتون الأمراء » تقدم في العلم . (٤) حديث أنس « العلماء أمناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلطان ... الحديث » أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة حفص الأبري وقال حديثه غير محفوظ تقدم في العلم .

عبد العزيز رجلا فقيل : كان عاملا للحجاج ، فعزله ، فقال الرجل : إنما عملت له شيء يسير ، فقال له عمر : حسبك بصحبته يوما أو بعض يوم شؤما وشرا . وقال الفضيل : ما ازداد رجل من ذى سلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا . وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول إن في هذا لغى عن هؤلاء السلاطين . وقال وهيب : هؤلاء الذين يدخلون على الملوك لهم أضر على الأمة من المقامر . وقال محمد بن سلة : الذباب على العذرة أحسن من قارىء على باب هؤلاء . ولما خالط الزهرى السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن فقد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك ، أصبحت شيخا كبيرا قد أثقلتك نعم الله لما فهمك من كتابه وعلبك من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء قال الله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) واعلم أن أيسر ما ارتكبت واخف ما احتملت أنك آنت وحشة الظالم وسهلت سبيل البغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك قطبا تدور عليك رضى ظلمهم وجسرا يعبرون عليك إلى بلادهم وسلماء يصعدون فيه إلى ضلالهم ويدخلون بك الشك على العلماء ، ويصادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ الآية وإنك تعامل من لا يجهد ويحفظ عليك من لا يغفل فداو دينك فقد دخله سقم وهي رادك فقد حضر سفر بعيد ﴿ وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ والسلام

فهذه الأخبار والآثار تدل على ما في مخالطة السلاطين من الفتن وأنواع الفساد ولكن نفصل ذلك تفصيلا فقهيا تميز فيه المحذور عن المكروه والمباح . فنقول : الداخلة على السلطان متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور .

أما الفعل : فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون إلى دور مغصوبة وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام ؛ ولا يغزئك قول القائل : إن ذلك مما يتسامح به الناس كتمرة أو فتات خبز ذلك صحيح في غير المغصوب ، أما المغصوب فلا . لأنه إن قيل : إن كل جلسة خفيفة لا تنقص الملك فهي في محل التسامح ؛ وكذلك الاجتياز فيجوز هذا في كل واحد فيجوز أيضا في المجموع والغصب إنما تم بفعل الجميع ، وإنما يتسامح به إذا انفرد إذ لو علم المالك به ربما لم يكرهه ، فأما إذا كان ذلك طريقا إلى الاستغراق بالاشتراك فحكم التحريم ينسحب على الكل ، فلا يجوز أن يؤخذ ملك الرجل طريقا اعتادا على أن كل واحد من المأزبين إنما يخطو خطوة لا تنقص الملك ، لأن المجموع مفتوت للملك وهو كضربة خفيفة في التعليم تباح ولكن بشرط الانفراد ، فلو اجتمع جماعة بضربات توجب القتل وجب القصاص على الجميع مع أن كل واحدة من الضربات لو انفردت لكانت لا توجب قصاصا . فإن فرض كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلا وإن كان تحت خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام ، والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستغلال به . فإن فرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله : السلام عليكم ، ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قاءا في سلام ، وخدمته كان مكرما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية . بل من تواضع لغنى ليس يظالم لأجل غناه - للمعنى آخر اقتضى التواضع - نقص ثلثا دينه فكيف إذا تواضع للظالم ؟ فلا يباح إلا مجرد السلام . فأما تقبيل اليد والانحناء في الخدمة فهو معصية إلا عند الخوف ، أو الإمام عادل أو لعالم أو لمن يستحق ذلك بامر ديني . قبل

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يد على كرم الله وجهه لما أن لقيه بالشام فلم ينكر عليه . وقد بالغ بعض السلف حتى امتنع عن رد جوابهم في السلام والإعراض عنهم استحقاقا لهم وعد ذلك من محاسن القربات . فأما السكوت عن رد الجواب ففيه نظر ، لأن ذلك واجب فلا ينبغي أن يسقط بالظلم . فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان أغلب أموالهم حراما فلا يجوز الجلوس على فرشهم ؛ هذا من حيث الفعل .

فأما السكوت : فهو أنه سيري في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ماهو حرام . وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة . بل يسمع من كلامهم ماهو لحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع لك حرام . بل يراهم لابسين الثياب الحرام واكئين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز . فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله .

• فإن قلت : إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت ؟ فهذا حق ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر ، فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه العذر . وعند هذا أقول من علم فسادا في موضع وعلم أنه لا يقدر على إزالته فلا يجوز له أن يحضر ليجرى ذلك بين يديه وهو يشاهده ويسكت ، بل ينبغي أن يحتزن عن مشاهدته .

وأما القول : فهو أن يدعو للظالم أو يثنى عليه أو يصدق فيه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه ، أو يظهر له الحب والمودة والاشتياق إلى لقائه والحرص على طول عمره وبقائه ، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام .

أما الدعاء له : فلا يحل إلا أن يقول : أصلحك الله أو وفقك الله للخيرات أو طول الله عمرك في طاعته أو ما يجري هذا المجرى . فأما الدعاء بالحراسة وطول البقاء وإسباغ النعمة مع الخطاب بالمولى وما في معناه فغير جائز قال صلى الله عليه وسلم « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه »^(١) ، فإن جاوز الدعاء إلى الثناء فسينذكر ما ليس فيه فيكون به كاذبا ومنافقا ومكرما لظالم ، وهذه ثلاث معاص . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق »^(٢) ، وفي خبر آخر « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام »^(٣) ، فإن جاوز ذلك إلى التصديق له فيما يقول ، والتزكية والثناء على ما يعمل : كان عاصيا بالتصديق وبالإعانة ؛ فإن التزكية والثناء إعانة على المعصية وتحريك للرغبة فيه كما أن التكذيب والمذمة والتقييح زجر عنه وتضعيف لدواعيه . والإعانة على المعصية معصية ولو بشرط كلية . ولقد سئل سفيان الثوري رضى الله عنه عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له . وقال غيره يسقى إلى أن تثوب إليه نفسه ثم يعرض عنه . فإن جاوز ذلك إلى إظهار الحب والشوق إلى لقائه وطول بقاءه : فإن كان كاذبا عصى معصية الكذب والنفاق ، وإن كان صادقا عصى بحبه بقاء الظالم وحقه أن يبغضه في الله ويمقتة . فالبغض في الله واجب ، ومحبة المعصية والراضى بها عاص . ومن أحب ظالما فإن أحبه لظلمه فهو عاص لمحبهته وإن أحبه لسبب آخر فهو عاص من حيث إنه لم يبغضه وكان الواجب عليه أن يبغضه . وإن اجتمع في شخص خير وشر وجب أن يحب لأجل ذلك الخير ويبغض لأجل ذلك الشر . وسيأتي

(١) حديث « من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه » تقدم . (٢) حديث « إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق » تقدم . (٣) حديث « من أكرم فاسقا فقد أعان على هدم الإسلام » تقدم أيضا .

في كتاب الإخوة والمتحابين في الله وجه الجمع بين البغض والحب . فإن سلم من ذلك كله وهيات ! فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه ويكون مقتحماً نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة الرزق ^(١) » ، وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثيره سواد الظلمة بنفسه وتحميله إياهم إن كان ممن يتجمل به ، وكل ذلك إما مكروهات أو محظورات . دعى سعيد بن المسيب إلى البيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان فقال : لأبابع اثنين ماختلف الليل والنهار فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين ^(٢) فقال : ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر ، فقال : لا والله لا يقتدى بي أحد من الناس ، فجلد مائة وألبس المسوح .

ولا يجوز الدخول عليهم إلا بعذرين (أحدهما) أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام وعلم أنه لو امتنع أودى أو فسد عليهم طاعة الرعية واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية . (والثاني) أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم ، فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولاً فهذا حكم الدخول .

الحالة الثانية : أن يدخل عليك السلطان الظالم زائراً لجواب السلام لا بد منه . وأما القيام والإكرام له فلا يحرم مقابلة له على إكرامه . فإنه بإكرام العلم والدين مستحق للإحسان كما أنه بالظلم مستحق للإبعاد . فلا إكرام بالإكرام والجواب بالسلام . ولكن الأولى أن لا يقوم إن كان معه في خلوة ليظهر له بذلك عز الدين وحقارة الظلم ، ويظهر غضبه للدين وإعراضه عن الله فأعرض الله تعالى عنه . وإن كان الداخل عليه في جمع فراءة حشمة أرباب الولايات فيما بين الرعايا مهم فلا بأس بالقيام على هذه النية . وإن علم أن ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله أذى من غضبه فترك الإكرام بالقيام أولى . ثم يجب عليه بعد أن وقع اللقاء أن ينصحه فإن كان يقارف ما لا يعرف تحريره وهو يتوقع أن يتركه إذا عرف فليعرفه فذلك واجب . وأما ذكر تحريره ما يعلم تحريره من السرف والظلم فلا فائدة فيه بل عليه أن يخوفه فيما يرتكبه من المعاصي مهما ظن أن التخويف يؤثر فيه . وعليه أن يرشده إلى طريق المصلحة إن كان يعرف طريقاً على وفق الشرع بحيث يحصل بها غرض الظالم من غير معصية ليصده بذلك عن الوصول إلى غرضه بالظلم . فإذا يجب عليه التعريف في محل جهله والتخويف فيما هو مستعرج عليه والإرشاد إلى ما هو غافل عنه مما يغنيه عن الظلم ، فهذه ثلاثة أمور تلزمه إذا توقع للكلام فيه أثراً ، وذلك أيضاً لازم على كل من اتفق له دخول على السلطان بعذر أو بغير عذر . وعن محمد بن صالح قال : كنت عند حماد بن سلمة وإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علبه ومطهرة يتوضأ منها ؟ فيينا أنا عنده إذ دق داق الباب فإذا هو محمد بن سليمان فأذن له فدخل وجلس بين يديه ثم قال له : مالي إذا رأيتك امتلأت منك وعبا ؟ قال حماد : لأنه قال عليه السلام « إن العالم إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء » وإن أراد أن يكتنزه الكنوز هاب من كل شيء ^(٣) ، ثم عرض عليه أربعين ألف درهم وقال : تأخذها وتستعين بها قال : ارددها على من ظلمتها ،

(١) حديث « يا معشر المهاجرين لا تدخلوا على أهل الدنيا فإنها مسخطة الرزق » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الفضير أفلوا الدخول على الأغنياء فإنه أجدر أن لا تردوا نعم الله عز وجل » وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « دعى ابن المسيب إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال : لأبابع اثنين ماختلف الليل والنهار فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن بيعتين » أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح من رواية يحيى بن سعيد . (٣) حديث حماد بن سلمة مرفوعاً « إذا أراد بعلبه وجه الله هابه كل شيء وإذا أراد أن يكتنزه الكنوز هاب من كل شيء » وهذا معضل وروى أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث واثة بن الأسقع « من خاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله خوفه الله من كل شيء » وقام قتل في الضعفاء نحوه من حديث أبي هريرة وكلامه منكسر (١٩ - إحياء علوم الدين - ٢)

قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته ، قال : لا حاجة لي بها : فتأخذها فتقسمها ، قال : لعل إن عدلت في قسمتها أخاف أن يقول بعض من لم يرزق منها إنه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عني .

الحالة الثالثة : أن يعتزلهم فلا يراهم ولا يرونه وهو الواجب إذ لاسلامة إلا فيه ؛ فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم ولا يجب بقاءهم ولا يثنى عليهم ولا يستخبر عن أحوالهم ولا يتقرب إلى المتصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوت بسبب مفارقتهم ؛ وذلك إذا خطر بباله أمرهم ، وإن غفل عنهم فهو الأحسن . وإذا خطر بباله تنعمهم فليذكر ما قاله حاتم الأصم : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد فأما أمس فلا يجدون لذته وإني وإلياهم في غد لعل وجل وإنما هو اليوم وما عسى أن يكون في اليوم ، وما قاله أبو الدرداء إذ قال : أهل الأموال يأكلون ونأكل ويشربون ونشرب ويلبسون ونلبس ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر معهم إليها وعليهم حسابها ونحن منها براء . وكل من أحاط عليه بظلم ظالم ومعصية عاص فينبغي أن يحط ذلك من درجته في قلبه . فهذا واجب عليه لأن من صدر منه ما يكره نقص ذلك من رتبته في القلب لا محالة . والمعصية ينبغي أن تكره فإنه إما أن يغفل عنها أو يرضى بها أو يكره ولا غفلة مع العلم ولا وجه للرضا فلا بد من الكراهة ، فليكن جنابة كل أحد على حق الله بجنابته على حقه .

هـ فإن قلت : الكراهة لا تدخل تحت الاختيار فكيف تجب ؟ قلنا : ليس كذلك فإن المحب يكره بضرورة الطبع ما هو مكروه عند محبوبه ومخالف له فإن من لا يكره معصية الله لا يجب الله وإنما لا يجب الله من لا يعرفه والمعرفة واجبة والمحبة لله واجبة . وإذا أحبه كره ما كرهه وأحب ما أحبه وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة والرضا .

و فإن قلت : فقد كان علماء السلف يدخلون على السلاطين ؟ فأقول : نعم تعلم الدخول منهم ثم ادخل ؛ كما حكى أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى مكة فلما دخلها قال اثتوني برجل من الصحابة فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفانوا فقال : من التابعين ، فأتى بطاوس اليماني فلما دخل عليه خلع فعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين ولكن قال : السلام عليك يا هشام ، ولم يكنه وجلس بإزائه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا حتى هم بقتله ؛ فقيل له : أنت في حرم الله وحرم رسوله ولا يمكن ذلك ، فقال : يا طاوس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فإزداد غضبا وغيظا ؛ قال : خلعت فعليك بحاشية بساطي ولم تقبل يدي ولم تسلم علي بإمرة المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذني وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ قال : أما ما فعلت من خلعت نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعهما بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب علي ، وأما قولك لم تقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة ، وأما قولك لم تسلم علي بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك ففكرت أن أكذب ، وأما قولك لم تكنني فإني سمعت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام . فقال له هشام : عظمي ، فقال سمعت من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يقول : إن في جهنم حيات كالقلال وعقارب كالبنغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته . ثم قام وهرب . وعن سفيان الثوري رضي الله عنه قال : أدخلت على أبي جعفر المنصور بمنى فقال لي : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا . قال فطأطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا

حاجتك ، فقلت : إنما أنزلت هذه المنزلة بسيف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم ، فطأ رأسه ثم رفعه فقال : ارفع إلينا حاجتك ، فقلت : حج عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لحازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهماً ، وأرى ههنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها ، وخرج فهكذا كانوا يدخلون على السلاطين إذا ألزموا وكانوا يغزرون بأرواحهم الانتقام لله من ظلمهم . ودخل ابن أبي شميعة على عبد الملك بن مروان فقال له : تسكلم ، فقال له : إن الناس لا ينجون في القيامة من غصصها ومراراتها ومعاناة الردى فيها إلا من أَرْضَى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك وقال : لأجعلن هذه الكلمة مثلاً نصب عينى ما عشت . ولمال استعمل عثمان بن عفان رضى الله عنه عبد الله بن عامر أمته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبطأ عنه أبو ذر . وكان له صديقاً - فمات به ؛ فقال أبو ذر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عنه ^(١) ، ودخل مالك بن دينار على أمير البصرة فقال : أيها الأمير قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول ما أحق من سلطان وما أجهل من عصاة ؛ ومن أعز بمن اعتزى ؟ أيها الراعى السوء دفعت إليك غنماً سماها صحاحاً فأكلت اللحم وابست الصوف وتركها عظاماً تتقعقع ، فقال له والى البصرة : أندرى ما الذى يجرئك علينا ويحببنا عنك ؟ قال لا ، قال : قلة الطمع فينا وترك الإمساك لما فى أيدينا . وكان عمر بن عبد العزيز واقفاً مع سليمان بن عبد الملك ؛ فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدمة الرحل ، فقال له عمر : هذا صوت رحمتي فكيف إذا سمعت صوت عذابه ؟ ثم نظر سليمان إلى الناس فقال : ما أكثر الناس ، فقال عمر : خصاؤك يا أمير المؤمنين فقال له سليمان : ابتلاك الله بهم . وحكى أن سليمان بن عبد الملك قدم المدينة وهو يريد مكة فأرسل إلى أبي حازم فدعاه فلما دخل عليه قال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نذكره الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فسكرتهم أن تفتقلوا من العمران إلى الخراب فقال : يا أبا حازم كيف القدوم على الله ؟ قال يا أمير المؤمنين أما المحسن فكان للغائب يقدم على أهله وأما المسمى فكان لا يقدر على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليتنا شعرى مالى عند الله ؟ قال أبو حازم اعرض نفسك على كتاب الله تعالى حيث قال ﴿ إن الأبرار لى نعيم وإن الفجار لى جحيم ﴾ قال : فأين رحمة الله قال : قريب من المحسنين ثم قال سليمان : يا أبا حازم أى عباد الله أكرم ؟ قال : أهل البر والتقوى قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال : فأى الكلام أسمع ؟ قال قول الحق عند من تخاف وترجوا قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : رجل عمل بطاعة الله ودعا الناس إليها ، قال : فأى المؤمنين أخسر ؟ قال : رجل خطا فى هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره ، قال سليمان : ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : أو تعفينى ؟ قال : لا بد فإنها نصيحة تلقىها إلى ، قال : يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقدارتحلوا ، فلو شعرت مما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال له رجل من جلسائه : بئسما قلت : قال أبو حازم : إن الله قد أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه . قال : وكيف لنا أن نصلح هذا الفساد ؟ قال : أن تأخذه من حله فتضعه فى حقه ، فقال سليمان : ومن يقدر على ذلك ؟ فقال : من يطلب الجنة ويخاف من النار . فقال سليمان : ادع لى . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة وإن كان عدوك تغذ بناصيته إلى ماتحب وترضى ، فقال سليمان : أوصنى ، فقال : أوصيك وأوجز ، عظم ربك ونزهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك . وقال عمر

(١) حديث أبي ذر « إن الرجل إذا ولي ولاية تباعد الله عز وجل عنه » لم أوف له على أصل .

ابن عبد العزيز لأبي حازم : عظمي ، فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ثم أفطر إلى ماتحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن ، فلعل تلك الساعة قريبة . ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك ، فقال : تكلم يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين إني مكلّمك بكلام فاحتمله وإن كرهته فإن وراءه ماتحب إن قبلته ، فقال : يا أعرابي إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه ولا تأمن غشه فكيف بمن تأمن غشه ونرجو نصحه ؟ فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين إنه قد تكفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى ولم يخافوا الله فيك ، حرب الآخرة سلم الدنيا فلا تأتمنهم على ما اتتمنك الله تعالى عليه فإنهم لم يألو في الأمانة تضییعا وفي الأمانة خسفا وعسفا وأنت مسئول عما اجتزحوا وليسوا بمسؤولين عما اجتزحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غنا من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : يا أعرابي أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع سيفيك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ولكن لك لا عليك . وحكى أن أبا بكر دخل على معاوية فقال : اتق الله يا معاوية واعلم أنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدا ومن الآخرة إلا قربا ، وعلى أثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علما لا تجوزه فما أسرع ما تبلغ العلم وما أوشك ما يلحق بك الطالب ولما نحن فيه زائل وفي الذي نحن إليه صائرون باق إن خيرا فخير وإن شرا فشر . فهكذا كان دخول أهل العلم على السلاطين أعنى علماء الآخرة فأما علماء الدنيا فيدخلون ليتقربوا إلى قلوبهم فيدلونهم على الرخص ويستنبطون لهم بدقائق الحيل طرق السعة فيا يوافق أغراضهم . وإن تكلموا بمثل ما ذكرناه في معرض الوعظ لم يكن قصدهم الإصلاح بل اكتساب الجاه والقبول عندهم . وفي هذا غروران يغتر بهما الحق (أحدهما) أن يظهر أن قصدي في الدخول عليهم لإصلاحهم بالوعظ . وربما يلبسون على أنفسهم بذلك وإنما الباعث لهم شهوة خفية للشهرة وتحصيل المعرفة عندهم ، وعلامة الصدق في طلب الإصلاح أنه لو تولى ذلك الوعظ غيره ممن هو من أقرانه في العلم ووقع موقع القبول وظهر به أثر الإصلاح فينبغي أن يفرح به ويشكر الله تعالى على كفايته هذا المهم ، كمن وجب عليه أن يعالج مريضا ضائعا فقام بمعالجته غيره فإنه يعظم به فرحه . فإن كان يصادف في قلبه ترجيحا لكلامه على كلام غيره فهو مغرور (الثاني) أن يزعم أني أقصد الشفاعة لمسلم في دفع ظلامه . وهذا أيضا مظنة الغرور . ومعياره ما تقدم ذكره .

وإذا ظهر طريق الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطة السلاطين ومباشرة أموالهم مسائل :

مسألة : إذا بعث إليك السلطان مالا لتفرقه على الفقراء فإن كان له مالك معين فلا يحل أخذه وإن لم يكن بل كان حكمه أنه يجب التصديق به على المساكين - كما سبق - فلك أن تأخذه وتتولى التفرقة ولا تعصى بأخذه ولكن من العلماء من امتنع عنه فعند هذا ينظر في الأولى فنقول :

الأولى أن تأخذه إن أمنت ثلاث غوائل .

الغائلة الأولى : أن يظن السلطان بسبب أخذك أن ماله طيب ولولا أنه طيب لما كنت تمتد يدك إليه ولا تدخله في ضمانك ؛ فإن كان كذلك فلا تأخذه ، فإن ذلك محذور ولا يبي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لك من الجراءة على كسب الحرام .

الغائلة الثانية : أن ينظر إليك غيرك من العلماء والجهال فيعتقدون أنه حلال فيقتدون بك في الأخذ ويستدلون به

على جوارزه ثم لا يفرقون ، فهذا أعظم من الأول . فإن جماعة يستدلون بأخذ الشافعي رضي الله عنه على جواز الأخذ ويغفلون عن تفرقة وأخذه على نية التفرقة ؛ فالمتدعي والمنشبه به ينبغي أن يحتز عن هذا غاية الاحتراف فإنه يكون فعله سبب ضلال خلق كثير . وقد حكى وهب بن منبه أن رجلاً أتى به إلى ملك بمشهد من الناس ليكرمه على أكل خُم الخنزير فلم يأكل ، فقدم إليه لحم غنم وأكرهه بالسيف فلم يأكل ، فقيل له في ذلك فقال : إن الناس قد اعتقدوا أني طوبت بأكل لحم الخنزير ؛ فإذا خرجت سالماً وقد أكلت فلا يعلمون ماذا أكلت فيضلون . ودخل وهب ابن منبه وطاوس على محمد بن يوسف - أخى الحجاج - وكان عاملاً وكان في غداة باردة في مجلس بارز فقال لغلّامه : هلم ذلك الطيلسان وألقه على أبي عبد الرحمن - أي طاوس - وكان قد قعد على كرسي فألقى عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى ألقى الطيلسان عنه ، فغضب محمد بن يوسف فقال وهب : كنت غنياً عن أن تفضيه لو أخذت الطيلسان وتصدقت به قال : نعم لولا أن يقول من بعدى إنه أخذه طاوس - ولا يصنع به ما صنع به - إذن لفعلت .

الغائلة الثانية : أن يتحرك قلبك إلى حبك لتخصيصه إياك وإثارة لك بما أنفذه إليك ، فإن كان كذلك فلا تقبل ذلك هو السم القاتل والداء الدفين أعنى ما يحجب الظلمة إليك ، فإن من أحببته لابد أن تحرص عليه وتداهن فيه . قالت عائشة رضي الله عنها : جبلت النفوس على حب من أحسن إليهما . وقال عليه السلام : اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً فيحبه قلبي ^(١) بين صلى الله عليه وسلم أن القلب لا يكاد يمتنع من ذلك . وروى أن بعض الأمراء أرسل إلى مالك بن دينار بعشرة آلاف درهم فأخرجها كلها فأتاه محمد بن واسع فقال : ما صنعت بما أعطاك هذا المخلوق ؟ قال : سل أصحابي ؟ فقالوا . أخرجهم كله ، فقال . أنشدك الله أقبلتك أشد حباله الآن أم قبل أن أرسل إليك ؟ : لا بل الآن ، قال : إنما كنت أخاف هذا . وقد صدق فإنه إذا أحبه أحب بقاءه وكره وعزله ونكبته وموته وأحب اتساع ولايته وكثرة ماله ، وكل ذلك حب لأسباب الظلم وهو مذموم . قال سليمان وابن مسعود رضي الله عنهما : من رضى بأمر وإن غاب عنه كان كمن شهده قال تعالى ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ قيل لا ترضوا بأعمالهم فإن كنت في القوة بحيث لا ترداد حبالهم بذلك فلا بأس بالأخذ . وقد حكى عن بعض عباد البصرة أنه كان يأخذ أموالاً ويفترقها فقيل له : ألا تخاف أن تحبهم ؟ فقال : لو أخذ رجل يدي وأدخلني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قلبي ، لأن الذي سخره للأخذ بيدي هو الذي أبغضه لأجله شكراً له على تصغيره إياه . وبهذا تبين أخذ المال الآن منهم وإن كان ذلك المال بعينه من وجه حلال محذور ومذموم لأنه لا ينفك عن هذه القوائيل .

مسألة : إن قال قائل : إذا جاز أخذ ماله وتفرقة فهل يجوز أن يسرق ماله أو تخفي وديعته وتسكر وتفرق على الناس ؟ فنقول : ذلك غير جائز لأنه ربما يكون له مالك معين وهو على عزم أن يرده عليه ، وليس هذا كما لو بعته إليك ؛ فإن العاقل لا يظن به أنه يتصدق بما لم يعلم مالكة فيدل تسليمه على أنه لا يعرف مالكة فإن كان ممن يشكل عليه مثله فلا يجوز أن يقبل منه المال مالم يعرف ذلك ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ملكه قد حصل له بشراء في ذمته ؟ فإن اليد دلالة على الملك . فهذا لا سبيل إليه بل لو وجد لقطة وظهر أن صاحبها جندي واحتمل أن تكون له بشراء في الذمة أو غيره وجب الرد عليه . فإذا لا يجوز سرقة ما لهم ولا من أودع عنده . ولا يجوز إنكار وديعتهم ويجب الحد على سارق ما لهم إلا إذا ادعى السارق أنه ليس ملكاً لهم فعند ذلك يسقط الحد بالدعوى .

(١) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً فيحبه قلبي » أخرجه ابن مردويه في التفسير من رواية كثير بن عطية عن رجل لم يسم ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وأبو موسى المديني في كتاب : تنبيه العبر والأيام مرسلات وأسانيدها كلها ضعيفة .

مسألة : المعاملة معهم حرام لأن أكثر ما لهم حرام فإيؤخذ عوضاً فهو حرام ، فإن أدى الثمن من موضع يعلم حله فيبقى النظر فيما سلم إليهم ، فإن علم أنهم يعصون الله به كبيع الديباج منهم وهو يعلم أنهم يلبسونه فذلك حرام كبيع العنب من الخمار ، وإنما الخلاف في الصحة وإن أمكن ذلك وأمكن أن يلبسها نسائه فهو شبهة مكروهة ، هذا فيما يعصى في عينه من الأموال . وفي معناه بيع الفرس منهم ، لاسيما في وقت ركوبهم إلى قتال المسلمين أو جباية أموالهم فإن ذلك إعانة لهم بفرسه وهي محظورة . فأما بيع الدراهم والدنانير منهم وما يجري مجراها مما لا يعصى في عينه بل يتوصل بها فهو مكروه لما فيه من إعانتهم على الظلم لأنهم يستعينون على ظلمهم بالأموال والدواب وسائر الأسباب ، وهذه الكراهة جارية في الإهداء إليهم وفي العمل لهم من غير أجره حتى في تعليمهم وتعليم أولادهم الكفاية والترسل والحساب ، وأما تعليم القرآن فلا يكره إلا من حيث أخذ الأجرة فإن ذلك حرام إلا من وجه يعلم حله ، ولو انتصب وكيلاً لهم يشتري لهم في الأسواق من غير جعل أو أجره فهو مكروه من حيث الإعانة ، وإن اشترى لهم ما يعلم أنهم يقصدون به المعصية كالغلام والديباج للعرش واللبس والفرس للركوب إلى الظلم والقتل فذلك حرام . فهما ظهر قصد المعصية بالمبتاع حصل التحريم ومهما لم يظهر واحتتمل بحكم الحال ودلالاتها عليه حصلت الكراهة .

مسألة : الأسواق التي بنوها بالمال الحرام تحرم التجارة فيها ولا يجوز سكناها ، فإن سكنها تاجر واكتسب بطريق شرعي لم يحرم كسبه وكان عاصياً بسكنائه ، وللناس أن يشتروا منهم ، ولكن لو وجدوا سوقاً أخرى فالأولى الشراء منها فإن ذلك إعانة لسكنائهم وتكثير لكراء حوانيتهم ، وكذلك معاملة السوق التي لاخراج لهم عليها أحب من معاملة سوق لهم عليها خراج ، وقد بالغ قوم حتى تحزروا من معاملة الفلاحين وأصحاب الأراضي التي لهم عليها الخراج فإنهم ربما يصرفون ما يأخذون إلى الخراج فيحصل به الإعانة ، وهذا غلو في الدين وخرج على المسلمين فإن الخراج قد عم الأراضي ولاغنى بالناس عن ارتفاع الأرض ولا معنى للنع منه ، ولو جاز هذا لحرم على المالك زراعة الأرض حتى لا يطلب خراجها . وذلك مما يطول ويتداعى إلى حسم باب المعاش .

مسألة : معاملة قضائهم وعمالهم وخدمهم حرام كعاملتهم بل أشد . أما القضاة فلأنهم يأخذون من أموالهم الحرام الصريح ويكثرون جمعهم ويغرون الخلق يزعمهم على زى العلماء ويختلطون بهم يأخذون من أموالهم والطباع مجبولة على التشبه والاقتران بذوى الجاه والحشمة . فهم سبب انقياد الخلق إليهم . وأما الخدم والحشم فأكثر أموالهم من الغصب الصريح ولا يقع في أيديهم مال مصلحة وميراث وجزية ولا وجه حلال حتى تضعف التشبه باختلاط الحلال بمالهم . قال طاوس : لأشهد عندهم وإن تحققت لأنى أخاف تعديهم على من شهدت عليه . وبالجملة إنما فسدت الرعية بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفاً من إنكارهم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قواؤها أمراءها ^(١) ، وإنما ذكر القراء لأنهم كانوا هم العلماء وإنما كان علمهم بالقرآن ومعانيه المفهومة بالسنة . وما وراء ذلك من العلوم فهي محدثة بعدهم . وقد قال سفيان : لا تغالط السلطان ولا من يخالطه . وقال : صاحب القلم وصاحب الدواة وصاحب القرطاس وصاحب الليطة بعضهم شركاء بعض . وقد صدق فإن رسول الله

(١) حديث « لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما يمالئ قواؤها أمراءها » أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب الفتن من رواية الحسن مرسل ورواه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ثلى وابن عمر بلفظ « ما يعظم أبرارها لخارها ويداهن خيارها شرارها » وإسنادها ضعيف .

صلى الله عليه وسلم لعن في الخبر عشرة حتى العاصر والمعتصر ^(١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » ^(٢) وكذا رواه جابر وعمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) وقال ابن سيرين : لا تحمل للسلطان كتابا حتى تعلم ما فيه ، وامتنع سفيان رحمه الله من مناولة الخليفة في زمانه دواة بين يديه وقال : حتى أعلم ما تكتب بها فكل من حو اليهم من خدمهم وأتباعهم ظلمة مثلهم يجب بغضهم في الله جميعا . روى عن عثمان بن زائدة أنه سأله رجل من الجند وقال : أين الطريق ؟ فسكت وأظهر الصمم وخاف أن يكون متوجها إلى ظلم فيكون هو بإرشاده إلى الطريق معينا . وهذه المبالغة لم تنقل عن السلف مع الفساق من التجار والحاكمة والحجامين وأهل الحمامات والصاغة والصباغين وأرباب الحرف مع غلبة الكذب والفسق عليهم ، بل مع الكفار من أهل الذمة ، وإنما هذا في الظلمة خاصة الآكلين لأموال اليتامى والمساكين والمواظين على إيداء المسلمين الذين تعاونوا على طمس رسوم الشريعة وشعائرها . وهذا لأن المعصية تنقسم إلى لازمة ومتعدية ، والفسق لازم لا يتعدى ، وكذا الكفر وهو جنائية على حق الله تعالى وحسابه على الله وأمام معصية الولاية بالظلم وهو متعد فإينما يغلظ أمرهم لذلك وبقدر عموم الظلم وعموم التعدى يزدادون عند الله مقتا فيجب أن يزداد منهم اجتنابا ومن معاملتهم احترازا فقد قال صلى الله عليه وسلم ، يقال للشرطى دع سوطك وادخل النار ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر ^(٥) ، فهذا حكمهم ومن عرف بذلك منهم فقد عرف ومن لم يعرف فعلامته القباء وطول الشوارب وسائر الهيئات المشهورة . فمن روى على تلك الهيئة تعين اجتنابه ولا يكون ذلك من سوء الظن لأنه الذى جنى على نفسه إذ تريا بزيهم ، ومساواة الزى تدل على مساواة القلب ولا يتجانن إلا مجنون ولا يتشبه بالفساق إلا فاسق ، نعم الفاسق قد يلتبس بأهل الصلاح فأما الصالح فليس له أن يتشبه بأهل الفساد لأن ذلك تكثير لسوادهم وإينما نزل قوله تعالى ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ في قوم من المسلمين كانوا يكثرون جماعة المشركين بالمخالطة ، وقد روى أن الله تعالى أوحى إلى يوشع ابن نون إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : ما بال الأخيار ؟ قال : لأنهم لا يغضبون لغضبى فكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم . وبهذا يتبين أن بعض الظلمة والغضب لله عليهم واجب ، وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لعن علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم ^(٦) » .

(١) حديث « أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لعن في الخبر عشرة حتى العاصر والمعتصر » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس قال الترمذى حديث غريب . (٢) حديث ابن مسعود « آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » رواه مسلم وأصحاب السنن واللفظ للنسائى دون قوله « وشاهداه » ولأبى داود لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه » قال الترمذى وصححه وابن ماجه وشاهديه . (٣) حديث جابر لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه وشاهديه قال هم سواء » أخرجه مسلم من حديثه ، وأما حديث عمر فأشار إليه الترمذى بقوله وفى الباب ولابن ماجه من حديثه « إن آخر ما أنزلت آية الربا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة » وهو من رواية ابن المسيب عنه والجمهور على أنه لم يسمع منه . (٤) حديث « يقال للشرطى دع سوطك وادخل النار » أخرجه أبو يعلى من حديث أسس بسند ضعيف . (٥) حديث « من أشرط الساعة رجال معهم سياط كأذناب البقر » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث أبى أمامة « يكون في آخر الزمان رجال معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث » ولمسلم من حديث أبى هريرة « يوشك أن ترى قوما في أيديهم مثل أذناب البقر » وفى رواية له صفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر ... الحديث .

(٦) حديث ابن مسعود « لعن الله علماء بنى إسرائيل إذ خالطوا الظالمين في معاشهم » أخرجه أبوداود والترمذى وابن ماجه « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصى : نهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجاءهم قوم في مجالسهم وواكلهم وشاربهم فغضب الله قلوب بعضهم بعضا ولمنعهم على لسان داود وعيسى ابن مريم » لفظ الترمذى وقال حسن غريب .

مسألة : المواضع التي بناها الظلمة كالقناطر والرباطات والمساجد والسقايات ينبغي أن يحتاط فيها وينظر أما القنطرة فيجوز العبور عليها للحاجة ، والورع الاحترام ما أمكن وإن وجد عنه معدلاً تأكيد الورع . وإنما يجوزنا العبور وإن وجد معدلاً لأنه إذا لم يعرف الأعيان مالكا كان حكمها أن ترصد للخيرات وهذا خير ، فأما إذا عرف أن الآجر والحجر قد نقل من دار معلومة أو مقبرة أو مسجد معين فهذا لا يحل العبور عليه أصلاً إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مال الغير ، ثم يجب عليه الاستحلال من المالك الذي يعرفه . وأما المسجد فإن بئى في أرض مغموصة أو بخشب مغموص من مسجد آخر أو ملك معين فلا يجوز دخوله أصلاً ولا للجمعة بل لو وقف الإمام فيه فليصل هو خلف الإمام وليقف خارج المسجد فإن الصلاة في الأرض المغموصة تسقط الفرض وتتعقد في حق الاقتداء ، فلذلك يجوزنا للبقية الاقتداء بمن صلى في الأرض المغموصة وإن عصي صاحبه بالوقوف في الغصب . وإن كان من مال لا يعرف مالكة فالورع العدول إلى مسجد آخر إن وجد فإن لم يجد غيره فلا يترك الجمعة والجماعة به لأنه يحتمل أن يكون من الملك الذي بناه ولو على بعد وإن لم يكن له مالك معين فهو لمصالح المسلمين . ومهما كان في المسجد الكبير بناء لسلطان ظالم فلا عذر لمن يصلي فيه مع اتساع المسجد ، أعني في الورع ، قيل لأحمد بن حنبل : ما حجتك في ترك الخروج إلى الصلاة في جماعة ونحن بالعسكر ؟ فقال . حجتى أن الحسن وإبراهيم التيمي خافا أن يفتنهما الحجاج وأنا أخاف أن أفتن أيضاً . وأما الخلق والتجسيص فلا يمنع من الدخول لأنه غير منتفع به في الصلاة وإنما هو زينة والأولى أنه لا ينظر إليه . وأما البوارى التي فرشوها فإن كان لها مالك معين فيحرم الجلوس عليها وإلا فبعد أن أرصدت لمصلحة عامة جاز اقتراشها ، ولكن الورع العدول عنها فإنها محل شبهة . وأما السقاية لحكمها ما ذكرناه وليس عن الورع الوضوء والشرب منها والدخول إليها إذا كان يخاف فوات الصلاة فيتوضأ وكذا مصانع طريق مكة . وأما الرباطات والمدارس فإن كانت رقة الأرض مغموصة أو الآجر منقولا من موضع معين يمكن الرد إلى مستحقه فلا رخصة للدخول فيه وإن التبس المالك فقد أرصد لجهة من الخير ، والورع اجتنابه ولكن لا يلزم الفسق بدخوله . وهذه الابنية إن أرصدت من خدم السلاطين فالأمر فيها أشد إذ ليس لهم صرف الأموال الضائعة إلى المصالح ولأن الحرام أغلب على أموالهم إذ ليس لهم أخذ مال المصالح وإنما يجوز ذلك للولاء وأرباب الأمر .

مسألة : الأرض المغموصة إذا جعلت شارعا لم يحز أن يتخطى فيه ألبنة وإن لم يكن له مالك معين جاز ، والورع العدول إن أمكن ، فإن كان الشارع مباحا وفوقه سابات جاز العبور وجاز الجلوس تحت السابات على وجه لا يحتاج فيه إلى السقف كما يقع في الشارع لشغل ، فإذا انتفع بالسقف في دفع حر الشمس أو المطر أو غيره فهو حرام لأن السقف لا يراد إلا لذلك ، وهكذا حكم من يدخل مسجدا أو أرضا مناحة سقف أو حوط بغصب فإنه بمجرد التخطى لا يكون منتفعا بالحيطان والسقف إلا إذا كان له فائدة في الحيطان والسقف لحر أو برد تستر عن بصر أو غيره فذلك حرام لأنه انتفاع بالحرام إذالم يحرم الجلوس على الغصب لما فيه من الماسة بل الانتفاع ، والأرض تراد للاستقرار عليها والسقف للاستظلال به فلا فرق بينهما .

الباب السابع

في مسائل متفرقة يسكت مسيس الحاجة إليها وقد سئل عنها في الفتاوى

مسألة : سئل عن خادم الصوفية يخرج إلى السوق ويجمع طعاما أو نقدا ويشتري به طعاما فن الذي يحل له أن يأكل منه ؟ وهل يختص بالصوفية أم لا ؟ فقلت : أما الصوفية فلا شبهة في حقهم إذا أكلوه وأما غيرهم فيحل لهم إذا أكلوه برضا الخادم ولكن لا يخلو عن شبهة ، أما الحل فلأن ما يعطى خادم الصوفية إنما يعطى بسبب الصوفية وله أن يطعم غير العيال إذ يبعد أن يقال لم يخرج عن ملك المعطى ولا يتسلط الخادم على الشراء به التصرف فيه ؟ لأن ذلك مصير إلى أن المعاطاة لا تكفى وهو ضعيف ، ثم لا صائر إليه في الصدقات والهدايا ، ويبعد أن يقال زال الملك إلى الصوفية الحاضرين الذين هم وقت سؤاله في الخانقاه إذ لا خلاف أن له يطعم منه من يقدم بعدهم ولو ماتوا كلهم أو واحد منهم لا يجب صرف نصيبه إلى وارثه ، ولا يمكن أن يقال إنه وقع لجهة التصوف ولا يتعين له مستحق لأن إزالة الملك إلى الجهة لا توجب تسليط الآحاد على التصرف فإن الداخلين فيه لا ينحصرون بل يدخل فيه من يولد إلى يوم القيامة ، وإنما يتصرف فيه الولاة ، والخادم لا يجوز له أن ينتصب نائباً عن الجهة فلا وجه إلا أن يقال هو ملكه وإنما يطعم الصوفية بوفاء شرط التصوف والمروءة فإن منعهم عنه منعه عن أن يظهر نفسه في معرض التكفل بهم حتى ينقطع وقفه كما ينقطع عن مات عياله .

مسألة : سئل عن مال أوصى به للصوفية فن الذي يجوز أن يصرف إليه ؟ فقلت : التصوف أمر باطن لا يطلع عليه ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العرف في إطلاق اسم الصوفى ، والضابط الكلى أن كل من هو بصفة إذا نزل في خانقاه الصوفية لم يكن نزوله فيها واختلاطه بهم منكراً عندهم فهو داخل في غناهم . والتفصيل أن يلاحظ فيه خمس صفات الصلاح والفقر وزى الصوفية وأن لا يكون مشتغلاً بحرفة وأن يكون مخالطاً لهم بطريق المساكنة في الخانقاه . ثم بعض هذه الصفات مما يوجب زوالها زوال الاسم وبعضها ينجبر بالبعض فالفسق يمنع الاستحقاق لأن الصوفى بالجملة عبارة عن رجل من أهل الصلاح بصفة مخصوصة ، فالذى يظهر فسقه وإن كان على زيه لا يستحق ما أوصى به للصوفية ولسنا نعتبر فيه الصغائر . وأما الحرفة والاشتغال بالكسب فإنه يمنع هذا الاستحقاق فالدهقان والعامل والتاجر والصانع في حانوته أو داره والأجير الذى يتخدم بأجرة كل هؤلاء لا يستحقون ما أوصى به للصوفية ولا ينجبر هذا بالزى والمخالطة ، فأما الوراقة والخياطة وما يقرب منهما مما يليق بالصوفية تعاطيها ، فإذا تعاطاها لافى حانوت ولا على جهة اكتساب وحرفة فذلك لا يمنع الاستحقاق وكان ذلك ينجبر بمساكنته إياهم مع بقية الصفات ، وأما القدرة على الحرف من غير مباشرة فلا تمنع ، وأما الرعظ والتدريس فلا ينافى اسم التصوف إذا وجدت بقية الخصال من الزى والمساكنة والفقر إذ لا يتناقض أن يقال صوفى مقرأ وصوفى واعظ وصوفى عالم أو مدرس ، ويتناقض أن يقال صوفى تاجر وصوفى عامل ، وأما الفقر فإن زال بغنى مفرط ينسب الرجل إلى الثروة الظاهرة فلا يجوز معه أخذ وصية الصوفية ، وإن كان له مال ولا ينفى دخله بخرجه لم يبطل حقه ، وكذا إذا كان له مال قاصر عن وجوب الزكاة وإن لم يكن له خرج وهذه أمور لا دليل لها إلا العادات . وأما المخالطة لهم ومساكنتهم فلها أثر ولكن من لا يخالطهم وهو فى داره أوفى مسجد على زيه ومتخلق بأخلاقهم فهو شريك في سهمهم وكان ترك المخالطة يجبرها ملازمة الزى فإن لم يكن على زيه ووجد فيه بقية الصفات

فلا يستحق إلا إذا كان ساكنا لهم في الرباط فينسحب عليه حكمهم بالتبعية . فالخاطلة والزى ينوب كل واحد منهما عن الآخر . والفقيه الذى ليس على زيهم هذا حكمه فإن كان خارجا لم يعد صوفيا وإن كان ساكنا معهم ووجدت بقية الصفات لم يبعد أن ينسحب بالتبعية عليه حكمهم . وأما لبس المرقعة من يد شيخ من مشايخهم فلا يشترط ذلك في الاستحقاق ، وعدمه لا يضره مع وجود الشرائط المذكورة . وأما المتأهل المتردد بين الرباط والمسكن فلا يخرج بذلك عن جملتهم .

مسألة : ما وقف على رباط الصوفية وسكانه فالامر فيه أوسع مما أوصى لهم به لأن معنى الوقف الصرف إلى مصالحهم ؛ فلغير الصوفى أن يأكل معهم برضاهم على مائدتهم مرة أو مرتين فإن أمر الاطعمة مبناه على التسامح حتى جاز الانفراد بها في الغنائم المشتركة ، وللقوال أن يأكل معهم في دعوتهم من ذلك الوقف وكان ذلك من مصالح معاشهم ، وما أوصى به للصوفية لا يجوز أن يصرف إلى قوال الصوفية بخلاف الوقف ، وكذلك من أحضره من العمال والتجار والقضاة والفقهاء من لهم غرض في استئالة قلوبهم يحل لهم الأكل برضاهم ، فإن الواقف لا يقف إلا معتقدا فيه ما جرت به عادات الصوفية فينزل على العرف ولكن ليس هذا على الدوام ، فلا يجوز لمن ليس صوفيا أن يسكن معهم على الدوام ويأكل وإن رضوا به إذ ليس لهم تغيير شرط الواقف بمشاركه غير جنسهم . وأما الفقيه إذا كان على زيهم وأخلاقهم فله النزول عليهم ، وكونه فقيها لا ينافى كونه صوفيا ، والجهل ليس بشرط في التصوف عند من يعرف التصوف ، ولا يلتفت إلى خرافات بعض الحقى بقولهم : إن العلم حجاب فإن الجهل هو الحجاب . وقد ذكرنا تأويل هذه الكلمة في كتاب العلم ، وأن الحجاب هو العلم المذموم دون المحمود ، وذكرنا المحمود والمذموم وشرحهما . وأما الفقيه إذا لم يكن على زيهم وأخلاقهم فلم يمنع من النزول عليهم فإن رضوا بنزوله فيحل له الأكل معهم بطريق التبعية فكان عدم الزى تجبره المساكنة ولكن برضا أهل الزى ، وهذه أمور تشهد لها العادات وفيها أمور متقابلة لا يخفى أطرافها في النقي والإثبات ومتشابهة أو ساطها فن احترز في مواضع الاشتباه فقد استبرأ لدينه كما نهينا عليه في أبواب الشبهات .

مسألة : سئل عن الفرق بين الرشوة والهدية مع أن كل واحد منهما يصدر عن الرضا ولا يخلو عن غرض وقد حرمت إحداها دون الأخرى . فقلت : باذل المال لا يبذله قط إلا لغرض ، ولكن الغرض إما أجل كالثواب وإما عاجل ، والعاجل إما مال وإما فعل وإعانة على مقصود معين وإما تقرب إلى قلب المهدي إليه بطلب محبته إما المحبة في عينها وإما للتوصل بالمحبة إذ غرض وراءها فالأقسام الحاصلة من هذه خمسة .

الأول : ما غرضه الثواب في الآخرة وذلك إما أن يكون لكون المصروف إليه محتاجا أو عالما أو منتسبا بنسب ديني أو صالحا في نفسه متدينا . فما علم الآخذ أنه يعطاه لحاجته لا يحل له أخذه إن لم يكن محتاجا ، وما علم أنه يعطاه لشرف نسبه لا يحل له إن علم أنه كاذب في دعوى النسب ، وما يعطى لعلمه فلا يحل له أن يأخذه إلا أن يكون في العلم كما ينتقده المعطى ، فإن كان خيل إليه كالا في العلم حتى بعثه بذلك على التقرب ولم يكن كاملا لم يحل له ، وما يعطى لدينه وصلاحه لا يحل له أن يأخذه إن كان فاسقا في الباطن فسقا لو علمه المعطى ما أعطاه . وقلما يكون الصالح بحيث لو انكشف باطنه لبقيت القلوب مائلة إليه وإنما ستر الله الجليل هو الذى يحب الخلق إلى الخلق . وكان المتورعون يوكلون في الشراء من لا يعرف أنه وكيلهم حتى لا يتساعخوا في المبيع خيفة من أن يكون ذلك أكلا بالدين فإن ذلك خطر والتقى خفى لا كالعلم والنسب والفقير فينبغى أن يحتنب الآخذ بالدين ما أمكن .

القسم الثاني : ما يقصد به في العاجل غرض معين كالفقير يهدى إلى الفنى طمعا في خلعتة فهذه هبة بشرط الثواب لا يخفى حكمها وإنما تحل عند الوفاء بالثواب المطموع فيه وعند وجود شروط العقود .

الثالث : أن يكون المراد إعانة بفعل معين كالمحتاج إلى السلطان يهدى إلى وكيل السلطان وخاصته ومن له مكانة عنده فهذه هدية بشرط ثواب يعرف بقرينة الحال ؛ فليست في ذلك العمل الذى هو الثواب فإن كان حراما كالسعى في تنجيز إدرار حرام أو ظلم لإنسان أو غيره حرم الأخذ ، وإن كان واجبا كدفع ظلم متعين على كل من يقدر عليه أو شهادة متعينة فيحرم عليه ما يأخذه وهى الرشوة التى لا يشك في تحريمها ، وإن كان مباحا لا واجبا ولا حراما وكان فيه تعب بحيث لو عرف لجاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال مهما وفى بالفرض ، وهو جار مجرى الجعالة كقوله أوصل هذه القصة إلى يد فلان أو يد السلطان ولك دينار وكان بحيث يحتاج إلى تعب وعمل متقوم ، أو قال اقترح على فلان أن يعيننى فى غرض كذا أو ينعم على بكذا وافترق في تنجيز غرضه إلى كلام طويل ، فذلك جعل كما يأخذه الوكيل بالخصومة بين يدي القاضى فليس بحرام إذا كان لا يسعى فى حرام ، وإن كان مقصود يحصل بكلمة لا تعب فيها ولكن تلك الكلمة من ذى الجاه أو تلك الفعلة من ذى الجاه تفيد كقوله للبواب لا تغلق دونه باب السلطان أو كوضعه قصة بين يدي السلطان فقط ، فهذا حرام لأنه عوض من الجاه ، ولم يثبت فى الشرع جواز ذلك بل ثبت ما يدل على النهى عنه - كما سيأتى فى هدايا الملوك - وإذا كان لا يجوز العوض عن إسقاط الشفعة والرد بالعيب ودخول الأغصان فى هواء الملك وجملة من الأغراض مع كونها مقصودة فكيف يؤخذ عن الجاه ؟ ويقرب من هذا أخذ الطبيب العوض على كلبة واحدة يذبه بها على دواء ينفرد بمعرفته كواحد ينفرد بالعلم بنبت يقلع البواسير أو غيره فلا يذكره إلا بعوض فإن عمله بالتلفظ به غير متقوم كحبة من سمسم فلا يجوز أخذ العوض عليه ولا على غيره ، إذ ليس ينتقل عمله إلى غيره وإنما يحصل لغيره مثل عمله ويبقى هو عالما به ، ودون هذا : الحاذق فى الصناعة كالصيقلى مثلا الذى يزيل اعوجاج السيف أو المرأة بدقة واحدة لحسن معرفته بموضع الخلل ، ولحذقه بإصابته فقد يزيد بدقة واحدة مال كثير فى قيمة السيف والمرأة فهذا لا أرى بأسا بأخذ الأجرة عليه ، لأن مثل هذه الصناعات يتعب الرجل فى تعلمها ليكتسب بها ويخفف عن نفسه كثرة العمل .

الرابع : ما يقصد به المحبة وجلبها من قبل المهدي إليه لا لغرض معين ولكن طلبا للاستئناس وتأكيد للصحة وتوددا إلى القلوب فذلك مقصود للعقلاء ومندوب إليه فى الشرع قال صلى الله عليه وسلم « تهادوا تحابوا »^(١) ، وعلى الجملة فلا يقصد الإنسان فى الغالب أيضا محبة غيره لعين المحبة بل لفائدة فى محبته ولكن إذا لم تتعين تلك الفائدة ولم يمثّل فى نفسه غرض معين يبعثه فى الحال أو المآل سمي ذلك هدية وحل أخذها .

الخامس : أن يطلب التقرب إلى قلبه وتحصيل محبته لالمحبة ولا للأنس به من حيث إنه أنس فقط بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض له ينحصر جنسها وإن لم ينحصر عينها وكان لولا جاهه وحشمته لكان لا يهدى إليه ، فإن كان جاهه لأجل علم أو نسب فالأمر فيه أخف وأخذه مكروه فإن فيه مشابهة الرشوة ولكنها هدية فى ظاهرها ، فإن كان جاهه بولاية تولّاها من قضاء أو عمل أو ولاية صدقة أو جباية مال أو غيره من الأعمال السلطانية حتى ولاية الأوقاف مثلا ، وكان لولا تلك الولاية لكان لا يهدى إليه فهذه رشوة هرصت فى معرض الهدية إذ قصد

الباب السابع : فى مسائل متفرقة

(١) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبى هريرة ، وضعفه ابن عدى .

بها في الحال طلب التقرب واكتساب المحبة ولكن الأمر ينحصر في جنسه إذ ما يمكن التوصل إليه بالآيات لا يخفى وأية أنه لا ينبغي المحبة أنه لو ولى في الحال غيره لسلم المال إلى ذلك الغير ، فهذا مما اتفقوا على أن الكراهة فيه شديدة واختلفوا في كونه حراما ، والمعنى فيه متعارضا فإنه دأب بين الهدية المحضنة وبين الرشوة المبذولة في مقابلة جاء في غرض معين ، وإذا تعارضت المشابهة القياسية وعصدت الأخبار والآثار أحدهما تعين الميل إليه ، وقد دلت الأخبار على تشديد الأمر في ذلك قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة يقتل البريء » لتوعظ به العامة ^(١) ، وسئل ابن مسعود رضي الله عنه عن السحت فقال : يقضى الرجل الحاجة فتهدى له الهدية ولعله أراد قضاء الحاجة بكلمة لا تعب فيها أو تبرع بها لآعلى قصد أجرة ، فلا يجوز أن يأخذ بعده شيئا في معرض العوض ، شفع مسروق شفاعا فأهدى إليه المشفوع له جارية فغضب وردها وقال : لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك ولا أتكلم فيما بقي منها . وسئل طاوس عن هدايا السلطان فقال : سحت . وأخذ عمر رضي الله عنه ربح مال القراض الذي أخذه ولده من بيت المال وقال : إنما أعطيتا لمكانكما مني إذ علم أنهما أعطيا لأجل جاء الولاية . وأهدت امرأة أبي عبيدة بن الجراح إلى خاتون ملكة الروم خلوقا فكافأتهما بجوهر فأخذه عمر رضي الله عنه فباعه وأعطاهما ثمن خلوقها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين . وقال جابر وأبو هريرة رضي الله عنهما : هدايا الملوك غلول . ولما رد عمر بن عبد العزيز الهدية قيل له « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية فقال : كان ذلك له هدية وهو لنا رشوة ^(٢) » أي كان يتقرب إليه لنبوته لالولايته ونحن إنما نعطي للولاية . وأعظم من ذلك كله ما روى أبو حميد الساعدي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا على صدقات الأزدياء جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ماله وقال : هذا لكم وهذا لي هدية ، فقال عليه السلام : ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ، ثم قال : مالي أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لي هدية ألا جلست في بيت أمه لهدى له والذي نفسي بيده لا يأخذ منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى الله يحمله فلا يأتين أحدكم يوم القيامة يبيع له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأيت بباض لإبطيه ، ثم قال : اللهم هل بلغت ^(٣) » وإذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضي والولي ينبغي أن يقدر نفسه في بيت أمه وأبيه فما كان يعطى بعد العزل وهو في بيت أمه يجوز له أن يأخذه في ولايته ، وما يعلم أنه ، إنما يعطاه لولايته لحرام أخذه ، وما أشكل عليه في هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولا ؟ فهو شبهة فليجتنبه .

تم كتاب الحلال والحرام بحمد الله ومنه وحسن توفيقه والله أعلم

(١) حديث « يأتي على الناس زمان يستحل فيه السحت بالهدية والقتل بالموعظة ، يقتل البريء » لتوعظ به العامة « لم أقف له على أصل . (٢) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية . أخرجه البخاري من حديث عائشة . (٣) حديث أبي حميد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث واليا إلى صدقات الأزدياء لما جاء قال : هذا مالكم وهذا هدية لي . الحديث متفق عليه .

كتاب آداب الألفة والاخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق

وهو الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتانا . وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا . ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخذانا . وفي الآخرة رفقاء وخلانا .
والصلاة والسلام على محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولاً وفعلًا وعدلاً وإحساناً .
أما بعد : فإنّ التحاب في الله تعالى والاخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجارى العادات . ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الاخوة عن شوائب الكدورات وزغات الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله زلنى وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى ، ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب في ثلاثة أبواب (الباب الأول) في فضيلة الألفة والاخوة في الله تعالى وشروطها ودرجاتها وفوائدها . (الباب الثاني) في حقوق الصحبة وآدابها وحقيقتها ولوازمها . (الباب الثالث) في حق المسلم والرحم والجوار والملك وكيفية المعاشرة مع من قد بلى بهذه الأسباب .

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها

فضيلة الألفة والاخوة

أعلم أنّ الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يشمر التباعد والتحاسد والتدابر ، ومهما كان المشر محمداً كانت الثمرة محمودة . وحسن الخلق لا يتجنى في الدين فضيلته وهو الذى مدح الله سبحانه به نبيه عليه السلام إذ قال ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ^(١) ، وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بعثت لأتمم محاسن الإخلاق ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فيطعمه النار ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق ،

كتاب آداب الصحبة

الباب الأول : في فضيلة الألفة والاخوة

(١) حديث « أول ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق » أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أبي هريرة وقال : صحيح الإسناد وقد تقدم . (٢) حديث أسامة بن شريك : يا رسول الله ، ما خير ما أعطى الإنسان ؟ قال « خلق حسن » أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه أحمد والبيهقى ، والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن » رواه أبو داود والترمذى من حديث أبي الدرداء وقال : حسن صحيح . (٥) حديث « ما حسن الله خلق امرئ وخلقته فتطعمه النار » أخرجه ابن عدى والطبرانى في مكارم الأخلاق وفي الأوسط ، والبيهقى في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة . قال ابن هدى : في لمسانده بعض التكررة .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال : تصل من قطعك وتعفو عن ظلمك وتعطي من حرمك ^(١) ، ولا يخفى أن ثمره الخلق الحسن الالفه وانقطاع الوحشة ومهما طاب المشر طابت انثرة ، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الالفه سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والاخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع ، قال الله تعالى مظهرها عظيم منته على الخلق بنعمة الالفه ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقال ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ أى بالالفه ، ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال عز من قائل ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا - إلى - لعلمكم تهتدون ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم في الثناء على الاخوة في الدين « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعاهه ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداها الأخرى وما التقى مؤمنان قط إلا أفاد الله أحدهما من صاحبه خيرا ^(٥) » وقال عليه السلام في الترغيب في الاخوة في الله « من آخى أخا في الله رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله ^(٦) » ، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة ، وجوهمهم كالقمر ليلة البدر ، يفرح الناس وهم لا يفرعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله تعالى ^(٧) » ، ورواه أبو هريرة رضى الله عنه وقال فيه « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور وجوهمهم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا ، يا رسول الله صفهم لنا ؛ فقال : هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله »

(١) حديث « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق » قال : وما حسن الخلق ؟ قال « تصل من قطعك ، وتعفو عن ظلمك ، وتعطي من حرمك » رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه . (٢) حديث « إن أقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » رواه الطبراني في معارج الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف .

(٣) حديث « المؤمن ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد ، والحاكم من حديث أبي هريرة وصححه . (٤) حديث « من أراد الله به خيرا رزقه أخا صالحا لمن نسي ذكره وإن ذكر أعاهه » غريب بهذا اللفظ ، والمعروف أن ذلك في الأمير . ورواه أبو داود من حديث عائشة « إذا أراد الله بالأمر خيرا جعل له وزير صدق لمن أسمى ذكره وإن ذكر أعاهه ... الحديث » ضعفه ابن عدى ، ولأبي عبد الرحمن السلمى في آداب الصحة من حديث علي « من سعادة المرء أن يكون لخوانه صالحين » . (٥) حديث « مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداها الأخرى » الحديث رواه السلمى في آداب الصحة ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس ، وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي كذاب ، وهو من قول سلمان الفارسي في الأول من الحزبيات . (٦) حديث « من آخى أخا في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان من حديث أنس « ما أحدث عبد أخا في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنة » واصفاده ضعيف . (٧) حديث قال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تنصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة .. الحديث » أخرجه أحمد والحاكم في حديث طويل : إن أبا إدريس قال : قلت والله إني لأحبك في الله قال : فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن المتحابين بجلال الله في ظل عرشه يوم لا ظل الا ظه » قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذي من رواية أبي مسلم الخولاني عن معاذ بلفظ « المتحابون في جلال لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » قال حديث حسن صحيح ، ولأحمد من حديث أبي مالك الأشعري « إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ... الحديث » وفيه « تحابوا في الله وتصافوا به يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فتجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً يفرح الناس يوم القيامة ولا يفرعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وفيه شهر بن حوشب مخلف فيه .

والمتراورون في الله ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ماتحباب اثنان الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه ^(٢) ، ويقال : إن الآخرين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل ﴿ ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي وحقت محبتي للذين يتبادلون من أجلي وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقالت إني أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما زار رجل رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة ^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن رجلا زار أخا له في الله ، فأرصد الله له مملكا فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبغمة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فهم ؟ قال أحبه في الله قال . فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ^(٨) ، فهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله . وبروي أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة وأما انقطاعك إلى فقد تعززت بي ولكن هل عادت في عدوا أو هل واليت في وليا ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تجعل لفاجر على منة فترزقه مني محبة ^(٩) ، ويروي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام : لو أنك عبدتني بعبادة أهل السماوات والأرض وحب في الله ليس وبغض في الله ليس ما أغني عنك ذلك شيئا ، وقال عيسى عليه السلام : تحببوا إلى الله ببغض أهل المعاصي وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم واتمسوا رضا الله بسخطهم ، قالوا : يا روح الله فمن نجالس ؟ قال : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ومن يزيد في عملكم كلامه ومن يربكم في الآخرة عمله . وروي في الأخبار السالفة أن الله عز وجل أوحى إلى موسى

(١) حديث أبي هريرة « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ... الحديث » أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات . (٢) حديث « ماتحباب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه » أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح الإسناد .

(٣) حديث « إن الله يقول : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث عمرو بن عبسة وحديث عبادة بن الصامت ، ورواه الحاكم وصححه . (٤) حديث « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » أخرجه مسلم . (٥) حديث أبي هريرة « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل : الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم . (٦) حديث « ما زار رجلا رجلا في الله شوقا إليه ورغبة في لقائه إلا ناداه ملك من خلقه طبت وطابت لك الجنة » أخرجه ابن هدى من حديث أنس دون قوله « شوقا إليه ورغبة في لقائه » وللتزمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة « من عاد صريضا أو زار أخا في الله ناداه مناد من السماء ، طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا » قال الترمذي : غريب . (٧) حديث « إن رجلا زار أخا له في الله فأرصد الله له مملكا فقال : أين تريد ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد من حديث البراء بن عازب ، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه . والحرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (٩) حديث « اللهم لا تجعل لفاجر على منة ... الحديث » تقدم في الكتاب الذي قبله .

عليه السلام . يا ابن عمران كن يقظانا وارثا لنفسك لإخواننا وكل خدن وصاحب لا يوازرك على مسرق فهو لك عدو وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : يا داود مالى أراك منتبذا وحيدا ؟ قال : إلهى قليت الخلق من أجلك ، فقال : يا داود كن يقظانا وارثا لنفسك أخذانا وكل خدن لا يوافقك على مسرق فلا تصاحبه فإنه لك عدو يقس قلبك وياعدك منى . وفى أخبار داود عليه السلام أنه قال : يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم وأسلم فيما بينى وبينك ؟ قال : خائق الناس بأخلاقهم وأحسن فيما بينى وبينك . وفى بعضها : خائق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا وخائق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، إن أحبكم لى الله الذين يألفون ويؤلفون وإن أبغضكم لى الله المشامون بالنميمة المفرقون بين الإخوان ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الجنة يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين ^(٢) ، وقال أيضا ، ما أحدث عبد أخافى الله إلا أحدث له درجة فى الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم ، المتحاربون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة يشرفون على أهل الجنة يضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة : انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين فى الله فيضىء حسنهم لأهل الجنة كما تضىء الشمس ، عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم : المتحاربون فى الله ^(٤) .

الآثار : قال على رضى الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة فى الدنيا والآخرة ألا تسمع لى قول أهل النار ﴿ فالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : والله لو صمت النهار لا أفطره وقت الليل لا أنامه وأنفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله أموت يوم أموت وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله مانفعتنى ذلك شيئا . وقال ابن السباك عند موته : اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قرابة لى إليك . وقال الحسن - على ضده - يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول المرء مع من أحب فإنه لى تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة فى بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل فى بعض كلامه : هاهنا تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن فى داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأى عمل عملته ؟ بأى شهوة تركتها ؟ بأى غيظ كظمتها ؟ بأى رحم قاطع وصلتها ؟ بأى زلة لأخيك غفرتها ؟ بأى قريب باعدته فى الله ؟ بأى بعيد قاربته فى الله ؟ ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : هل عملت لى عملا قط ؟ فقال : إلهى لى صليت لك وصمت وتصدقت وزكيت ، فقال : إن الصلاة لك برهان والصوم جنة والصدقة ظل والزكاة نور فأى عمل عملت لى قال موسى إلهى دلنى على عمل هو لك ؟ قال : يا موسى هل واليت لى ولما قط ؟ وهل عادت فى عدو قط ؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب فى الله والبغض فى الله . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لو أن رجلا قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضى الله عنه : مصارمه الفاسق قربان لى الله وقال رجل لمحمد بن واسع : انى لأحبك فى الله ، فقال : أحببك الذى أحببتنى له . ثم حوّل وجهه وقال : اللهم انى

(١) حديث « إن أحبكم لى الله الذين يألفون ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط والصغير من حديث أبى هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث « إن لله ملكا نصفه من النار ونصفه من الجنة يقول : اللهم كما ألفت بين الثلج والنار كذلك ألفت بين قلوب عبادك الصالحين » رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث معاذ بن جبل والرياض بن سارية بسند ضعيف . (٣) حديث « ما أحدث عبد أخافى الله تعالى إلا أحدث الله له درجة فى الجنة » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان من حديث أنس وقد تقدم . (٤) حديث « المتحابون فى الله على عمود من ياقوتة حمراء فى رأس العمود سبعون ألف غرفة ... الحديث » رواه الحسكيم الترمذى فى النوادر من حديث ابن مسعود بسند ضعيف .

أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لى مبغض . ودخل رجل على داود الطائي فقال له : ما حاجتك ؟ فقال : زيارتك ، فقال : أما أنت فقد عملت خيرا حين زرت ، ولكن انظر ماذا ينزل في أنا إذا قيل لى : من أنت فتزار ؟ أمن الزهاد أنت ؟ لا والله ، أمن العبادات ؟ لا والله أمن الصالحين أنت ؟ لا والله . ثم أقبل يوبخ نفسه ويقول : كنت في الشبهة فاسقا فلما شئت صرت مرائيا والله للمرائى شر من الفاسق وقال عمر رضى الله عنه : إذا أصاب أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك . وقال مجاهد : المتحابون في الله إذا التقوا فكشروا بعضهم إلى بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس . وقال الفضيل : نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من الأخوة في الدنيا

اعلم أن الحب في الله والبغض في الله غامض وينكشف الغطاء عنه نمائذ كره : وهو أن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار أو بسبب الاجتماع في المكتب أو في المدرسة أو في السوق أو على باب السلطان أو في الأسفار ، وإلى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو الذى نريد بيانه إذ الأخوة في الدين واقعة في هذا القسم لاحالة إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية ولا ترغيب إلا فيها . والصحبة عبارة عن المجالسة والمجازرة . وهذه الأمور لا يقصد الإنسان بها غيره إلا إذا أحبه فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته ، والذى يجب فإما أن يحب لذاته لا ليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه وإما أن يحب للتوصل به إلى مقصود ، وذلك المقصود إما أن يكون مقصورا على الدنيا وحظوظها وإما أن يكون متعلقا بالآخرة وإما أن يكون متعلقا بالله تعالى فهذه أربعة أقسام :

أما القسم الأول وهو حبك الإنسان لذاته فذلك ممكن وهو أن يكون في ذاته محبوبا عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيد في حق من أدرك جماله وكل لذيد محبوب . واللذة تتبع الاستحسان والاستحسان يتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع ، ثم ذلك المستحسن إما أن يكون هو الصورة الظاهرة أعنى حسن الخلقة وإما أن يكون هو الصورة الباطنة أعنى كمال العقل وحسن الأخلاق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لاحالة ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند الطبع السليم والعقل المستقيم ، وكل مستحسن فستلذ به ومحبوب ، بل في اتلاف القلوب أمر أغض من هذا فإنه قد تستحکم المودة بين شخصين من غير ملاحظة في صورة ولا حسن في خلق وخلق ولكن لمناسبة توجب الألفة والموافقة فإن شبه الشيء يجذب إليه بالطبع ، والأشياء الباطنة خفية ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حيث قال : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ^(١) » ، فالتناكر نتيجة التباين والائتلاف نتيجة التناسب الذى عبر عنه بالتعارف . وفي بعض الألفاظ « الأرواح جنود مجندة تلتقي فتتشام في الهواء ^(٢) » وقد كنى بعض العلماء عن هذا بأن قال : إن الله تعالى خلق الأرواح ففلق بعضها فلقا وأطافها حول العرش فأى روحين من فلقتين تعارفا هناك فالتقيا توأما في الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط ^(٣) » ، وروى « أن امرأة بمكة كانت تضحك

(١) حديث « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة البخارى تعليقا من حديث عائشة . (٢) حديث « الأرواح تلتقي فتتشام في الهواء » أخرجه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث علي « أن الأرواح في الهواء جند مجندة تلتقي فتتشام ... الحديث » . (٣) حديث « أن أرواح المؤمنين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ « تلتقي » وقال « أحدهم » وفيه إن لهجة عن دراج يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . (٢١ - لحياء علوم الدين - ٢)

النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدينة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأضحكتها ، فقالت : أين نزلت ؟ فذكرت لها صاحبها ، فقالت : صدق الله ورسوله ^(١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأرواح جنود مجنونة ... الحديث ، والحق في هذا أن المشاهدة والتجربة تشهد للاتلاف عند التناسب والتناسب في الطباع والأخلاق باطنا وظاهرا أمر مفهوم . وأما الأسباب التي أوجبت تلك المناسبة فليس في قوة البشر الاطلاع عليها ، وغاية هذيان المنجم أن يقول ، إذا كان طالعه على تسديس طالع غيره أو تنليته فهذا نظر الموافقة والمودة فتقتضى التناست والتواد ، وإذا كان على مقابلته أو تريعه اقتضى التباغض والعداوة . فهذا لو صدق بكونه كذلك في مجارى سنة الله في خلق السموات والأرض لكن الإشكال فيه أكثر من الإشكال في أصل التناسب ، فلا معنى للخوض فيما لم يكشف سره للبشر فما أوتينا من العلم إلا قليلا ، وكيفينا في التصديق بذلك التجربة والمشاهدة فقد ورد الخبر به قال صلى الله عليه وسلم « لو أن مؤمنا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق ومؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقا دخل إلى مجلس فيه مائة مؤمن ومنافق واحد لجاء حتى يجلس إليه » ^(٢) ، وهذا يدل على أن شبه الشيء منجذب إليه بالطبع وإن كان هو لا يشعر به وكان مالك بن دينار يقول : لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر ، وإن أجناس الناس كأجناس الطير ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة ، قال فرأى يوما غرابا مع حمامة فعجب من ذلك فقال : اتفقا وليسا من شكل واحد ، ثم طارا فإذا هما أعرجان فقال : من ههنا اتفقا ؛ ولذلك قال بعض الحكماء : كل إنسان يأنس إلى شكله كما أن كل طير يطير مع جنسه ، وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يفترقا ، وهذا معنى خفي تفتن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل كيف تفارقتما فقلت قولاً فيه إنصاف

لم يلك من شكلى ففارقة والناس أشكال وألاف

فقد ظهر من هذا أن الإنسان قد يحب لذاته لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل بل لمجرد المجانسة والمدة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية . ويدخل في هذا القسم الحب للجمال إذا لم يكن المقصود قضاء الشهوة فإن الصور الجميلة مستلذة في عينها وإن قدر فقد أصل الشهوة حتى يستلذ النظر إلى الفواكه والأنوار والأزهار والتفاح المشرب بالحمرة وإلى الماء الجارى والخضرة من غير غرض سوى عينها . وهذا الحب لا يدخل فيه الحب لله بل هو حب بالطبع وشهوة النفس ، ويتصور ذلك ممن لا يؤمن بالله إلا أنه إن اتصل به غرض مذموم صار مذموما كحب الصورة الجميلة لقضاء الشهوة حيث لا يحل قضاؤها . وإن لم يتصل به غرض مذموم فهو مباح لا يوصف بحمد ولا ذم « إذا الحب إما محمود وإما مذموم وإما مباح لا يحمده ولا يذمه .

القسم الثانى : أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته فيكون وسيلة إلى محبوب غيره والوسيلة إلى المحبوب محبوب ، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة . ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب ولذلك أحب الناس الذهب

(١) حديث : ان امرأة بمكة كانت تضحك النساء وكانت بالمدينة أخرى فنزلت المكية على المدينة فدخلت على عائشة فذكرت حديث « الأرواح جنود مجنونة » أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده بالقصة بسند حسن ، وحديث عائشة عند البخارى تعليقا مختصرا أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفا على ابن مسعود ، وذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ بن جبل ، ولم يخرج له ولده في المسند .

والفضة ولا غرض فيهما إذ لا يطعم ولا يلبس ولكنهما وسيلة إلى المحبوبات فمن الناس من يحب كما يحب الذهب والفضة من حيث إنه وسيلة إلى المقصود إذ يتوصل به إلى نيل جاه أو مال أو علم كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله أو جاهه ويحب خواصه لتحسين حاله عنده وتمهيد أمره في قلبه ، فالتوصل إليه إن كان مقصور الفائدة على الدنيا لم يكن حبه من جملة الحب في الله ، وإن لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ولكنه ليس يقصد به إلا الدنيا كحب التلميذ لأستاذه فهو أيضا خارج عن الحب لله فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه فحجوبه العلم ، فإذا كان لا يقصد العلم للتقرب إلى الله بل لينال به الجاه والمسال والقبول ، عند الخلق فحجوبه الجاه والقبول ، والعلم وسيلة إليه والاستاذ وسيلة إلى العلم ، فليس في شيء من ذلك حب لله إذ لا يتصور كل ذلك من لا يؤمن بالله تعالى أصلا . ثم ينقسم هذا أيضا إلى مذموم ومباح فإن كان يقصد به التوصل إلى مقاصد مذمومة من قهر الأقران وحيازة أموال اليتامى وظلم الرعاة بولاية القضاء أو غيره كان الحب مذموما ، وإن كان يقصد به التوصل إلى مباح وإنما تكتسب الوسيلة الحكم والصفة من المقصد المتوصل إليه فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها .

القسم الثالث : أن يحبه لالذاته بل لغيره وذلك الغير ليس راجعا إلى حظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حظوظه في الآخرة فهذا أيضا ظاهر لا غموض فيه ، وذلك كمن يحب أستاذه وشيخه لأنه يتوصل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز في الآخرة فهذا من جملة المحبين في الله ، وكذلك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء ، إذ قال عيسى صلى الله عليه وسلم من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء . ولا يتم التعليم إلا بتعلم فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في ملكوت السماء فهو محب في الله ، بل الذي يتصدق بأمواله الله ويجمع الضيفان ويهيئ لهم الأطعمة اللذيذة الغريبة تقربا إلى الله فأحب طبأحا لحسن صنعته في الطبخ فهو من جملة المحبين في الله ، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصدقة إلى المستحقين فقد أحبه في الله ، بل نزيد على هذا ونقول : إذا أحب من يخدمه بنفسه في غسل ثيابه وكسب بيته وطبخ طعامه ويفرغه بذلك للعلم أو العمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله ، بل نزيد عليه ونقول : إذا أحب من ينفق عليه من ماله ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع أغراضه التي يقصدها في دنياه ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل المقرب إلى الله فهو محب في الله . فقد كان جماعة من السلف تكفل بكفائتهم جماعة من أولى الثروة وكان المواسى والمواسى جميعا من المتحابين في الله ، بل نزيد عليه ونقول : من نكح امرأة سالحة ليتحصن بها عن وسواس الشيطان يصون بها دينه أو ليولد منها له ولد صالح يدعو له وأحب زوجته لأنها آلة إلى هذه المقاصد الدنيوية فهو محب في الله . ولذلك وردت الأخبار بوفور الأجر والثواب على الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته ^(١) بل نقول : كل من استهتر بحب الله وحب رضاه وحب لقائه في الدار الآخرة فإذا أحب غيره كان محبا في الله لأنه لا يتصور أن يحب شيئا إلا لمناسبته لما هو محبوب عنده وهو رضا الله عز وجل ، بل أزيد على هذا وأقول : إذا اجتمع في قلبه محبتان محبة الله ومحبة الدنيا واجتمع في شخص واحد المعنيين جميعا حتى صالح لأن يتوصل به إلى الله وإلى الدنيا فإذا أحبه لصلاحه للأمرين فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المسال فأحبه من حيث إن في طبعه طلب الراحة في الدنيا

(١) حديث « الأجر في الإنفاق على العيال حتى اللقمة يضعها الرجل في فم امرأته » تقدم .

والسعادة في الآخرة فهو وسيله لإليهما فهو محب في الله ، وليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظا ألبته إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة ومن ذلك قولهم ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ وقال عيسى عليه السلام في دعائه : اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسوئني صديق ولا تجعل مصيبتى لدينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا ، ولم يقل : ولا تجعل الدنيا أصلا من همى ، بل قال : لا تجعلها أكبر همى . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه : اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة (١) ، وقال : اللهم عافني من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (٢) ، وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضا لحب الله تعالى لحب السلامة والضحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضا لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداها أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غدا ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبا غدا لأن الغد سيصير حالا راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضا ، إلا أن الحظوظ العاجلة منقسمة إلى ما يصاد حظوظ الآخرة ويمنع منها وهي التي احتز عنها الأنبياء والأولياء وأمروا بالاحتراز عنها وإلى ما لا يصاد وهي التي لم يمتنعوا منها كالنكاح الصحيح وأكل الحلال وغير ذلك ، فما يصاد حظوظ الآخرة فحق العاقل أن يكرهه ولا يحبه أعنى أن يكرهه بعقله لا بطبعه ، كما يكره التناول من طعام لذيذ الملك من الملوك يعلم أنه لو أقدم عليه لقطعته يده أو حزت رقبته لا بمعنى أن الطعام اللذيذ يصير بحيث لا يشتهي بطبعه ولا يستلذه لو أكله فإن ذلك محال ، ولكن على معنى أنه يزرجه عقله عن الإقدام عليه وتحصل فيه كراهة الضرر المتعلق به . والمقصود من هذا أنه لو أحب أستاذه لأنه يواسيه ويعله أو تليذه لأنه يتعلم منه ويخدمه وأحدهما حظ عاجل والآخر أجل لكان في زمرة المتحابين في الله ، ولكن بشرط واحد وهو أن يكون بحيث لو منعه العلم مثلا أو تعذر عليه تحصيله منه لنقص حبه بسببه فالحظ الذي ينقص بسبب فقدده هو الله تعالى ، وله على ذلك القدر ثواب الحب في الله وليس بمستكر أن يشتد حبك لإنسان جملة أغراض ترتبط لك به فإن امتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب ، فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة ، فإذا زيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله . وحده هو أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يتصور وجوده فهو حب في الله ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله لم تكن تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في الله فذلك وإن دق فهو عزيز . قال الجريري : تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتى رق الدين وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء وفي الثالث بالمرءة حتى ذهبت المرءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة .

القسم الرابع : أن يحب لله وفي الله لئلا ينال منه علما أو عملا أو يتوسل به إلى أمر وراء ذاته وهذا أعلى الدرجات وهو أدقها وأغضها ، وهذا القسم أيضا ممكن فإن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثنى عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، حتى قال بقرية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه ؛ وهو كما قال : ويشهد له التجربة في أحوال العشاق ويدل عليه أشعار الشعراء ولذلك يحفظ

(١) حديث « اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس في الحديث الطويل في دعائه صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الليل وقد تقدم . (٢) حديث « اللهم عافني من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة » أخرجه أحمد من حديث بشر بن أبي أرطاة نحوه بسند جيد .

ثوب المحبوب ويخفيه تذكرة من جهته ويحب منزله ومحلته وجيرانه حتى قال مجنون بني عامر :

أمر على الديار ديار لى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وماحب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فإذن المشاهدة والتجربة تدل على أن الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط به ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولو من بعد ؛ ولكن ذلك من خاصية فرط المحبة فأصل المحبة لا يسكن فيه ويكون اتساع الحب في تعديده من المحبوب إلى ما يكتنفه ويحيط به ويتعلق بأسبابه بحسب إفراط المحبة وقوتها ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى إذا قوى وغلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى إلى حد الاستهتار فيتعدى إلى كل موجود سواء ، فإن كل موجود سواء أثر من آثار قدرته ومن أحب إنسانا أحب صنعته وخطه وجميع أفعاله ، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال : إنه قريب العهد برئنا ^(١) وحب الله تعالى تارة يكون لصدق الرجاء في مواعيده وما يتوقع في الآخرة من نعيمه ، وتارة لما سلف من أياديه وصنوف نعمته ، وتارة لذاته لا لأمر آخر وهو أدق ضرب المحبة وأعلاها - وسيأتى تحقيقها في كتاب المحبة من ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى - وكيفما اتفق حب الله فإذا قوى تعدى إلى كل متعلق به ضربا من التعلق حتى يتعدى إلى ما هو في نفسه مؤلم مكروه واسكن فرط الحب يضعف الإحساس بالألم والفرح بفعل المحبوب وقصده ليأبه بالإيلام يغمر إدراك الألم ، وذلك كالفرح بضربة من المحبوب أو قرصة فيها نوع معاتبة فإن قوة المحبة تثير فرحا يغمر إدراك الألم فيه وقد انتهت محبة الله بقوم إلى أن قالوا لا نفرق بين البلاء والنعمة فإن الكل من الله ولا نفرح إلا بما فيه رضاه حتى قال بعضهم لا أريد أن أنال مغفرة الله بمغصية الله . وقال سمنون :

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختربنى

وسيأتى تحقيق ذلك في كتاب المحبة . والمقصود أن حب الله إذ قوى أثر حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل وأثر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع . وما من محب للآخرة ومحب لله إلا إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخرة جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلا إلى العالم العابد ، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته وهذا الميل حاصل وإن كانا غائبين عنه بحيث يعلم أنه لا يصيبه منهما خير ولا شر في الدنيا ولا في الآخرة ، فذلك الميل هو حب في الله والله من غير حظ فإنه إنما يحبه لأن الله يحبه ولأنه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولأنه مشغول بعبادة الله تعالى إلا أنه إذا ضعف لم يظهر أثره ولا يظهر به ثواب ولا أجر ، فإذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والذب بالنفس والمال واللسان وتتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم في حب الله عز وجل ، ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال من المحبوب في الحال أو المال لما تصور حب الموق من العلماء والعباد ومن الصحابة والتابعين بل من الأنبياء المنقرضين صلوات الله عليهم وسلامه ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن أعدائهم في واحد منهم ويفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم وكل ذلك حب لله لأنهم خواص عباد الله

(١) حديث : كان إذا حمل إليه باكورة من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال إنها قريب عهد برئنا . أخرجه الطبراني في المعجم من حديث ابن عباس ، وأبو داود في المراسيل ، والبيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة دون قوله « وأكرمها .. الخ » وقال : لأنه غير محفوظ ، وحديث أبي هريرة في الباكورة عند بقية أصحاب السنن دون : مسح عينيه بها وما بعده ، وقال الترمذي حسن صحيح .

ومن أحب ملكا أو شخصا جميلا أحب خواصه وخدمه وأحب من أحبه إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظ إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر قول من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال : وما لجرح إذا أرضاكم ألم ؟ وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض كمن تسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله أو في ثلثه أو في عشره فقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته ؛ فمن استغرق الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواه فلا يمسك لنفسه شيئا مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يترك لنفسه أهلا ولا مالا فلم يثبتته التي هي قرة عينه وبذل جميع ماله . قال ابن عمر رضي الله عنهما « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه عن الله السلام وقال له : يا رسول الله ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها على صدره بخلال ؟ فقال : أنفق ماله على قبل الفتح ، قال : فأقره من الله السلام وقل له يقول لك ربك أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وقال : يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك السلام من الله ويقول أراض أنت عني في ففرك هذا أم ساخط ؟ قال : فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال : أعلى ربي أسخط أنا عن ربي راض ^(١) . فحصل من هذا أن كل من أحب عالما أو عابدا أو أحب شخصا راغبا في علم أو في خير فأنما أحبه في الله والله وله فيه من الأجر والثواب بقدر قوة حبه ، فهذا شرح الحب في الله ودرجاته وبهذا يتضح البغض في الله ولكن نزيد بياناً .

بيان البغض في الله

اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله فإنك إن أحببت إنسانا لأنه مطيع لله ومحسوب عند الله فإن عصاه فلا بد أن تبغضه لأنه عاص لله وعمقوت عند الله ، ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده وهذا من متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر وهو مطرد في الحب والبغض في العادات ولكن كل واحد من الحب والبغض داء ذفين في القلب ، وإنما يترشح عند الغلبة ويترشح بظهور أفعال المحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة وفي المخالفة والموافقة فإذا ظهر في الفعل سمي موالاته ومعاداة ، ولذلك قال الله تعالى : هل واليت في وليا وهل عاديت في عدوا ؟ كما نقاه ، وهذا واضح في حق من لم يظهر لك إلا طاعاته تقدر على أن تحبه أو لم يظهر لك إلا فسقه وفجوره وأخلاقه السيئة فتقدر على أن تبغضه ، وإنما المشكل إذا اختلطت الطاعات بالمعاصي فإنك تقول كيف أجمع بين البغض والمحبة وهما متناقضان ؟ وكذلك تتناقض ثمرتهما من الموافقة والمخالفة والموالاتة والمعاداة وأقول ذلك غير متناقض في حق الله تعالى كما لا يتناقض في الحظوظ البشرية ؛ فإنه مهما اجتمع في شخص واحد خصال يحب بعضها ويكره بعضها فإنك تحبه من وجهه وتبغضه من وجهه ، فمن زوجة حسناء فاجرة أو ولد ذكي خديم ولكنه فاسق فإنه يحبه من وجهه ويبغضه من وجهه ويكون معه على حالة بين حالتين ، إذ لو فرض له ثلاثة أولاد أحدهم ذكي بار والآخر بليد عاق والآخر بليد بار أو ذكي عاق فإنه يصادف نفسه معهم على ثلاثة أحوال متفاوتة بحسب تفاوت خصالهم ، فكذلك ينبغي أن تكون حالك بالإضافة إلى من غلب عليه الفجور ومن غلبت

(١) حديث ابن عمر : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خللها على صدره بخلال فنزل جبريل فأقرأه من ربه السلام . الحديث . أخرجه ابن حبان والعليل في الضعفاء ، قال الذهبي في الميزان : هو كذب .

عليه الطاعة ومن اجتمع فيه كلاهما متفاوتة على ثلاث مراتب ، وذلك بأن تعطى كل صفة حظها من البغض والحب والإعراض والإقبال والصحة والقطيعة وسائر الأفعال الصادرة منه .

• فإن قلت : كل مسلم فإسلامه طاعة منه فكيف أبغضه مع الإسلام ؟ فأقول : تحبه لإسلامه وتبغضه لمعصيته وتكون معه على حالة لو قسيتها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما وتلك التفرقة حب للإسلام وقضاء لحقه وقدر الجناية على حق الله والطاعة له كالجناية على حقتك والطاعة لك . فمن وافقك على غرض وخالفتك في آخر فكن معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال وبين الإقبال والإعراض وبين التودد إليه والتوحش عنه ، ولا تبالغ في إكرامه مبالغتك في إكرام من يوافقك على جميع أغراضك ، ولا تبالغ في إهانتك مبالغتك في إهانة من خالفك في جميع أغراضك . ثم ذلك التوسط تارة يكون ميله إلى طرف الإهانة عند غلبة الجناية وتارة إلى طرف المجاملة والإكرام عند غلبة الموافقة ؛ فهكذا ينبغي أن يكون فيمن يطيع الله تعالى ويعصيه ويتعرض لرضاه مرة ولسخطه أخرى .

• فإن قلت : فيماذا يمكن إظهار البغض ؟ فأقول أما في القول فكيف اللسان عن مكائده ومحادثته مرة وبالاستخفاف والتغليظ في القول أخرى . وأما في الفعل فبقطع السعى في إعانتة مرة وبالسعى في إساءته وإفساد مآربه أخرى . وبعض هذا أشد من بعض وهي بحسب درجات الفسق والمعصية الصادرة منه . أما ما يجري مجرى الهفوة التي يعلم أنه متقدم عليها ولا يصير عليها فالأولى فيه السر والإغماض . أما ما أصر عليه من صغيرة أو كبيرة فإن كان ممن تأكدت بينك وبينه مودة وصحة وأخوة فله حكم آخر - وسيأتي وفيه خلاف بين العلماء - وأما إذا لم تتأكد أخوة وصحة فلا بد من إظهار أثر البغض إما في الإعراض والتباعد عنه وقلة الالتفات إليه وإما في الاستخفاف وتغليظ القول عليه . وهذا أشد من الإعراض وهو بحسب غلظ المعصية وخفتها ، وكذلك في الفعل أيضا رتبتان ؛ إحداهما : قطع المعونة والرفق والنصرة عنه وهو أقل الدرجات ، والأخرى : السعى في إفساد أغراضه عليه كفعل الأعداء المبغضين ، وهذا لا بد منه ولكن فيما يفسد عليه طريق المعصية . أما ما لا يؤثر فيه فلا ، مثاله رجل عصي الله بشرب الخمر وقد خطب امرأة لو تيسر له نسكاها لكان مغبوطا بها بالمال والجمال والجاه إلا أن ذلك لا يؤثر في منعه من شرب الخمر ولا في بعث وتحريرض عليه ، فإذا قدرت على إعانتة ليتم له غرضه ومقصوده وقدرت على تشويشه ليفوته غرضه فليس لك السعى في تشويشه . أما الإعانة فلو تركتها لإظهارا للغضب عليه في فسقه فلا بأس ، وليس يجب تركها إذ ربما يكون لك نية في أن تتلطف بإعانتة وإظهار الشفقة عليه ليعتقد مودتك ويقبل نصحتك فهذا حسن ، وإن لم يظهر لك ولكن رأيت أن تعينه على غرضه قضاء لحق إسلامه فذلك ليس بممنوع بل هو الأحسن إن كانت معصيته بالجناية على حقتك أو حق من يتعلق بك . وفيه نزل قوله تعالى ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ إذ تكلم مسطح بن أثانة في واقعة الإفك ^(١) خلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقته - وقد كان يواسيه بالمال - فنزلت الآية مع عظم معصية مسطح ، وأية معصية تزيد على التعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وإطالة اللسان في مثل عائشة رضي الله عنها ، إلا أن الصديق رضي الله عنه كان كالجنى عليه في نفسه بتلك الواقعة والعفو عن ظلم والإحسان إلى من أساء من أخلاق الصديقين . وإنما يحسن الإحسان إلى من ظلمك ، فأما من ظلم غيرك وعصى الله به فلا يحسن إحسانك إليه لأن في الإحسان إلى الظالم إساءة إلى المظلوم

(١) حديث : كلام مسطح في الإفك وهجر أبي بكر له حتى نزلت : ولا يأتل أولوا الفضل منكم . الآية . متفق عليه من حديث عائشة .

وحق المظلوم أولى بالمراعاة وتقوية قلبه بالإعراض عن الظالم أحب إلى الله من تقوية قلب الظالم فأما إذا كنت أنت المظلوم فالأحسن في حقتك العفو والصفح وطرق السلف قد اختلفت في إظهار البغض مع أهل المعاصي وكلهم اتفقوا على إظهار البغض للظلمة والمبتدعة وكل من عصى الله بمعصية متعدية منه إلى غيره ، فأما من عصى الله في نفسه فمنهم من نظر بعين الرحمة إلى العصاة كلهم ، ومنهم من شدد الإنكار واختار المهاجرة . فقد كان أحمد بن حنبل يهجر الأكابر في أدنى كلمة ، حتى هجر يحيى بن معين لقوله : إني لا أسأل أحدا شيئا ولو حمل السلطان إلى شيئا لأخذته . وهجر الحارث المحاسب في تصديفه في الرد على المعتزلة وقال : إنك لا بد تورث أولاداً شبهتهم وتحمل الناس على التفكير فيها ثم ترد عليهم ، وهجر أبانور في تأويله قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته ^(١) » ، وهذا أمر يختلف باختلاف النية وتختلف النية باختلاف الحال ، فإن كان الغالب على القلب النظر إلى اضطراب الخلق وعجزهم وأنهم مسخرون لما قدروا له أورث هذا تساهلا في المعادة والبغض وله وجه ولكن قد تلبس به المداينة فأكثر البواغث على الإغضاء عن المعاصي المداينة ومراعاة القلوب والخوف من وحشتها ونفارها ، وقد يلبس الشيطان ذلك على الغبي الأحمق بأنه ينظر بعين الرحمة ويحك ذلك أن ينظر إليه بعين الرحمة إن جنى على خاص حقه ويقول إنه قد سخر له والقدر لا ينفع منه الخذر ، وكيف لا يفعله وقد كتب عليه فثل هذا قد تصح له نية في الإغضاء عن الجنابة على حق الله وإن كان يقتطع عند الجنابة على حقه ويترحم عند الجنابة على حق الله فهذا مDAHن مغرور بمكيده من مكايده الشيطان فليتب به .

* فإن قلت : فأقل الدرجات في إظهار البغض الهجر والإعراض وقطع الرفق والإعانة فهل يجب ذلك حتى يعصى العبد بتركه ؟ فأقول : لا يدخل ذلك في ظاهر العلم تحت التكليف والإيجاب فإننا نعلم أن الذين شربوا الخمر وتعاطوا الفواحش في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة ما كانوا يهجون بالسكينة بل كانوا منقسمين فيهم إلى من يغلظ القول عليه ويظهر البغض له ، وإلى من يعرض عنه ولا يتعرض له ، وإلى من ينظر إليه بعين الرحمة ولا يؤثر المقاطعة والتباعد . فهذه دقائق دينية تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته ، ومقتضى الأحوال في هذه الأمور إما مكروهة أو مندوبة فتكون في رتبة الفضائل ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب فإن الداخل تحت التكليف أصل المعرفة لله تعالى وأصل الحب وذلك قد لا يتعدى من المحبوب إلى غيره وإنما المتعدى إفراط الحب واستيلاؤه ، وذلك لا يدخل في الفتوى وتحت ظاهر التكليف في حق عوام الخلق أصلا .

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم

* فإن قلت : إظهار البغض والعداوة بالفعل إن لم يكن واجبا فلا شك أنه مندوب إليه والعصاة والفساق على مراتب مختلفة فكيف ينال الفضل بمعاملتهم وهل يسلك بجميعهم مسلكا واحدا أم لا ؟ فأعلم أن المخالف لأمر الله سبحانه لا يخلو إما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد إما مبتدع أو كافر والمبتدع إما داع إلى بدعته أو ساكت والساكت إما بعجزه أو باختياره : فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة :

الأول : الكفر ؛ فالكافر إن كان محاربا فهو يستحق القتل والإرقاق وليس بعد هذين إهانة ، وأما الذي فإنه لا يجوز لبدأه إلا بالإعراض عنه والتحقير له بالاضطرار إلى أضييق الطرق وترك المفاخرة بالسلام ، فإذا قال :

(١) حديث «إن الله خلق آدم على صورته» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

السلام عليك ، قلت : وعليك . والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته ومواكلته . وأما الانبساط معه والاسترسال إليه كما يسترسل إلى الأصدقاء فهو مكروه كراهة شديدة يكاد ينتهى ما يقوى منها إلى حد التحريم قال الله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ﴾ الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : المسلم والمشرک لا تراءى ناراهما ^(١) ، وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوتكم أولياء ﴾ الآية .

الثاني : المبتدع الذي يدعو إلى بدعته . فإن كانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره أشد من الذمى لأنه لا يقتر بجزية ولا يسأح بعقد ذمة وإن كان ممن لا يكفر به فأمره بينه وبين الله أخف من أمر الكافر لاحالة ولكن الأمر في الإنكار عليه أشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فلا يلتفتون إلى قوله إذ لا يدعى لنفسه الإسلام واعتقاد الحق . أما المبتدع الذي يدعو إلى البدعة ويزعم أن ما يدعو إليه حق فهو سبب لغواية الخلق فشره متعد ، فالاستحباب في إظهار بغضه ومعاداته والانتقاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه ببذعته وتغيير الناس عنه أشد ، وإن سلم في خلوة فلا بأس برد جوابه ، وإن علمت أن الإعراض عنه والسكوت عن جوابه يقع في نفسه بدعته ويؤثر في زجره فترك الجواب أولى لأن جواب الإسلام وإن كان واجبا فيسقط بأذى غرض فيه مصلحة حتى يسقط بكون الإنسان في الحمام أو في قضاء حاجته وغرض الزجر أهم من هذه الأغراض ، وإن كان في ملا فترك الجواب أول تغييرا للناس عنه وتقييحا لبدعته في أعينهم وكذلك الأولى كف الإحسان إليه والإعانة له لاسيما فيما يظهر للخلق قال عليه السلام : من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ومن أهان صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر ومن ألان له وأكرمه ألقاه ببشر فقد استخف بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ^(٢) .

الثالث : المبتدع العامي الذي لا يقدر على الدعوة ولا يخاف الاقتداء به فأمره أهون فالأولى أن لا يقابح بالتغليظ والإهانة بل يتلطف به في النصيح فإن قلوب العوام سريعة التقلب ، فإن لم ينفع النصيح وكان في الإعراض عنه تقييح لبدعته في عينه تأكد الاستحباب في الإعراض ، وإن علم أن ذلك لا يؤثر فيه لجود طبعه ورسوخ عقده في قلبه فالإعراض أولى لأن البدعة إذا لم يبالغ في تقييحها شاعت بين الخلق وعم فسادها . وأما العاصي بفعله وعمله لابعتناده فلا يخلو إما أن يتكبر بحيث يتأذى به غيره كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والتضريب بين الناس والمشى بالنميمة وأمثاله . أو كان مما لا يقتصر عليه ويؤذى غيره وذلك ينقسم إلى ما يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد أو لا يدعو غيره إلى فعله كالذي يشرب ويترى ، وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عصيانه بكبيرة أو بصغيرة ، وكل واحد فإما أن يكون مصرا عليه أو غير مصر ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثة أقسام ولكل قسم منها رتبة وبعضها أشد من بعض ولانسلك بالكل مسلسكا واحدا .

(القسم الأول) وهو أشدها : ما يتضرر به الناس كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة فهؤلاء الأولى الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانباض عن معاملتهم لأن المعصية شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخلق . ثم هؤلاء

(١) حديث « المؤمن والمشرک لا تراءى ناراهما » رواه أبو داود والترمذي من حديث جرير « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشرکین » قالوا : يا رسول الله ولم ؟ قال « لا تراءى ناراهما » ورواه النسائي مرسلًا وقال البخاري : الصحيح أنه مرسل (٢) حديث « من اتهم صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والهروى في ذم الكلام من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

ينقسمون إلى من يظلم في الدماء وإلى من يظلم في الأموال وإلى من يظلم في الأعراض وبعضها أشد من بعض فالاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مؤكد جدا ومهما كان يتوقع من الإهانة زجرا لهم أو لغيرهم كان الأمر فيه أكد وأشد . (الثاني) صاحب الماخور الذي يهيئ أسباب الفساد ويسهل طريقه على الخلق فهذا لا يؤذي الخلق في دنياهم ولكن يختلس بفعله دينهم ، وإن كان وفق رضاهم فهو قريب من الأول ولكنه أخف منه فإن المعصية بين العبد وبين الله تعالى إلى العفو أقرب ولكن من حيث إنه متعمد على الجملة إلى غيره فهو شديد ، وهذا أيضا يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة وترك جواب السلام إذا ظن أن فيه نوعا من الزجر له أو لغيره . (الثالث) الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب أو مقارفة محذور يخصه فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته إن صودف يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف فإن النهي عن المنكر واجب ، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح وإن لم يتحقق ولكنه كان يرجو فالأفضل النصح والزجر بالتلطف أو بالتغليظ إن كان هو الأنفع ، فأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يضر وأن النصح ليس ينفعه ، فهذا فيه نظر وسير العلماء فيه مختلفة ، والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف نية الرجل فعند هذا يقال ، الأعمال بالنيات إذ في الرفق والنظر بعين الرحمة إلى الخلق نوع من التواضع وفي العنف والإعراض نوع من الزجر والمستفتى فيه القلب فما يراه أميل إلى هواه ومقتضى طبعه فالأولى ضده إذ قد يكون استخفافه وعنفه عن كبر وعجب والتذاذ بإظهار العلو والإدلال بالصلاح ، وقد يكون رفقته عن مداهنة واستمالة قلب للوصول به إلى غرض أو الخوف من تأثير وحشته ونفرتة في جاء أموال بظن قريب أو بعيد وكل ذلك مردد على إشارات الشيطان وبعيد عن أعمال أهل الآخرة وكل راغب في أعمال الدين مجتهد مع نفسه في التفتيش عن هذه الدقائق ومراقبة هذه الأحوال ، والقلب هو المفتى فيه وقد يصيب الحق في اجتهاده وقد يخطئ وقد يقدم على اتباع هواه وهو عالم به وقد يقدم وهو بحكم الغرور ظان أنه عامل لله وسالك طريق الآخرة . وسيأتى بيان هذه الدقائق في كتاب الغرور من ربيع المملكات . ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روى أن شارب خمر ضرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعود ، فقال واحد من الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يشرب ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك »^(١) ، أو لفظا هذا معناه وكان هذا إشارة إلى أن الرفق أولى من العنف والتغليظ .

بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته

اعلم أنه لا يصلح للصحة كل إنسان . قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله فلينظر أحداً من يخال »^(٢) ، ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحة إذ معنى الشرط ما لا بد منه للوصول إلى المقصود فبالإضافة إلى المقصود تظهر الشروط . ويطلب من الصحة فوائد دينية ودنيوية : أما الدنيوية فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا . وأما الدينية فيجتمع فيها أيضا أغراض مختلفة إذ منها الاستفادة من العلم والعمل ، ومنها الاستفادة من الجاه تحصنانه عن إبداء من يشوش القلب ويصدّ عن العبادة ، ومنها الاستفادة المال للاكتفاء نه عن تبذير الأوقات

(١) حديث « ان شارب خمر ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث » وفيه « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث « المرء على دين خليله .. الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح ان شاء الله .

في طلب القوت ، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال ، ومنها التبرك بمجرد الدعاء ، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة فقد قال السلف : استكثروا من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل في شفاعة أخيك . وروى في غريب التفسير في قوله تعالى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ قال يشفعهم في إخوانهم فيدخلهم الجنة معهم . ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه ؛ ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والآلفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد ؛ فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطا لا تحصل إلا بها ، ونحن نفصلها : أما على الجملة فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا . أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فالإلحقة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طال . قال علي رضي الله عنه :

فلا تصحب أبا الجهل وإياك وإياه فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دلائل حين يلتاه

كيف والأحق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري ولذلك قال الشاعر :

إني لآمن من عدو عاقل وأخاف خلا يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه أدرى فأرصدوا الجنون فنون

ولذلك قيل : مقاطعة الأحق قربان إلى الله . وقال الثوري : النظر إلى وجه الأحق خطيئة مكتوبة ، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنفسه وإما إذا فهم . وأما حسن الخلق فلا بد منه لإذ رب عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده لمعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه فلا خير في صحبته . وأما الفاسق المصروع على الفسق فلا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة ومن لا يخاف الله لا يؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض . وقال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه ﴾ وقال تعالى ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ وقال ﴿ واتبع سبيلا من أناب إلى ﴾ وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق . وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدى شؤمها إليه فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ؟ وقد قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق فيا رواء سعيد بن المسيب قال : عليك يا أخوان الصدق تعش في أكنافهم فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء رضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحينك ما يغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ولا أمين إلا من خشى الله فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطعه على شرك واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى . وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة الطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك وإن قعدت بك مؤنة مانك ، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها وإن رأى منك حسنة عدّها وإن رأى سيئة سدّها ، اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قالت صدق قولك وإن حاولت ما أمرا أمرك وإن تنازعنا آثرك ؛ فسكانه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها . قال ابن أكرم : قال المأمون فأبن هذا ؟ فقيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال

لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدا . وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكتفرك ويستر عيبك فيكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسنتك ويطوى سيئتك فإن لم تجده فلا تصحب إلا نفسك . وقال علي رضي الله عنه :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك شدت فيه شمله ليجمعك

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئا في أمر دينك فينفعك ، أو رجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلو كله فلا يشيع منه . وآخر مر كله فلا يؤكل منه ، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط . وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة : الكذاب فإنه يفسدك ، والخبيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة ، والفاسق فإنه يبيعك بأكله أو أقل منها ، فقيل : وما أقل منها ؟ قال : الطمع فيها ثم لا ينالها . وقال الجنيد : لأن يصحبني فاسق حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبني قارىء سيء الخلق . وقال ابن أبي الحواري : قال لي أستاذي أبو سليمان : يا أحمد لا تصحب إلا أحد رجلين : رجلا ترتفع به في أمر دينك ، أو رجلا تزيد معه وتنتفع به في أمر آخرتك ، والاشتغال بغير هذين خلق كبير . وقال سهل بن عبد الله اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجارية الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين . واعلم أن هذه الكلمات أكثرها غير محيط بجميع أغراض الصحبة ، والمحيط ما ذكرناه من ملاحظة المقاصد ومراعاة الشروط بالإضافة إليها فليس ما يشترط للصحبة في مقاصد الدنيا مشروطا للصحبة في الآخرة والأخوة كما قال بشر : الإخوان ثلاثة : أخ لآخرتك وأخ لدنياك وأخ لتأنس به . وقبلما تجتمع هذه المقاصد في واحد بل تتفرق على جمع فتتفرق الشروط فيهم لا محالة . وقد قال المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط : ولكن العبد قد يبتلى به وهو الذي لا تأنس فيه ولا نفع . وقد قيل : مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات ، فمنها ماله ظل وليس له ثمر وهو مثل الذي ينتفع به في الدنيا دون الآخرة فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ، ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا ، ومنها ماله ثمر وظل جميعا ، ومنها ما ليس له واحد منهما كأم غيلان تمزق الثياب ولا طعم فيهما ولا شراب ، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب ، كما قال تعالى ﴿ يدعون لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ وقال الشاعر .

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوى الشجر
هذا له ثمر حلو مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

فإذا لم يجد رفيقا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به . قال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة ، ويروى مرفوعا . وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى ﴿ واتبع سبيل من أناب الى ﴾ ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها . قال سعيد بن المسيب : لا تنظروا إلى الظلمة فتجبط أعمالكم الصالحة بل هؤلاء لاسلامتهم في مخالطتهم وانما

السلامة في الانقطاع عنهم . قال الله تعالى ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى سلامة والآلاف بدل من الهاء ، ومعناه إنا سلمنا من إثمكم وأنتم سلمتم من شرنا ، فهذا ما أردنا أن نذكره من معاني الأخوة وشروطها وفوائدها فلنرجع في ذكر حقوقها ولوازمها وطرق القيام بحقوقها . وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل لأن الطباع مجبولة على التشبه والافتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه ، فجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص ومجالسة الزاهد ترهد في الدنيا فلذلك تنكره صحة طلاب الدنيا ويستحب صحة الراغبين في الآخرة . قال على عليه السلام : أحيوا الطاعات بمجالسة من يستحيا منه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أوقعنى في بلية إلا لصحبة من لأحتشمه . وقال لقمان : يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب لتتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر .

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقا يجب الوفاء بها قياما بحق النكاح - كما سبق ذكره في كتاب آداب النكاح - فكذا عقد الأخوة ، فلاخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل الأخوين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى (١) » ، وإنما شبههما باليدين لابل يد الرجل لأنهما يتعاونان على غرض واحد فكذا الأخوان إنما يتم أخوتهما إذا توافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضى المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المال والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار . والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب .

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم توجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة . الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضا ، كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم وفيهم أبو الحسين النورى فبادر السيف ليكون هو أول مقتول فقيل له في ذلك فقال : أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاتهم جميعهم في حكاية طويلة ، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينشأ بعد في الباطن وإنما الجارى بينكما مخالطة رسمية لاوقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضى من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضا مرضية عند ذوى الدين ، روى أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل

الباب الثاني : في حقوق الأخوة والصحة

(١) حديث « مثل الأخوين مثل اليدين .. الحديث » تقدم في الباب قبله .

كان قد آخاه فقال أحتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال خذ ألفين فأعرض عنه وقال آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعى الأخوة في الله وتقول هذا ، ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون ﴾ أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلي ، لأنه أضافه إلى نفسه . وجاء فتح الموصلي إلى منزل لآخ له وكان غائبا ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته فأخبرت الجارية مولاهما فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سرورا بما فعل . وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال : إني أريد أن أواخيك في الله فقال : أتدرى ما حق الإخاء ؟ قال : عرفني ، قال : أن لا تكون أحق بدنيارك ودرهمك مني ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ؟ قال : فاذهب عني . وقال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال لا . قال فليستم بإخوان . ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أصليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتهجب منه . وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم رحمه الله وهو يريد بيت المقدس فقال : إني أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيئك منك : قال : لا ، قال : أعجبني صدقتك ، قال : فكان إبراهيم بن أدهم رحمه الله إذا رافقه رجل لم يخالفه وكان لا يصحب إلا من يوافقه وصحبه رجل شراك فأهدى رجل إلى إبراهيم في بعض المنازل قصعة من ثريد ففتح جراب رفيقه وأخذ حزمة من شراك وجعلها في القصعة وردها إلى صاحب الهدية ، فلما جاء رفيقه قال : أين الشراك ؟ قال : ذلك الثريد الذي أكلته إيش كان ؟ قال : كنت تعطيه شراكين أو ثلاثة . قال : إسمع يسمع لك . وأعطى مرة حمارا كان لرفيقه - بغير إذنه - رجلا رآه راجلا فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك . قال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال : أخي فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة . وروى أن مسروقا ادان دينًا ثقيلا وكان على أخيه خيشمة دين قال : فذهب مسروق فقضى دين خيشمة وهو لا يعلم وذهب خيشمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم ولما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عند الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمسال والنفس فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فيهما (١) فآثره بما آثره به ، وكأنه قبله ثم آثره به وذلك مساواة وبالدابة إيشاروا لإيثار أفضل من المساواة . وقال أبو سليمان الداراني : لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقلت لها . وقال أيضا : إني لألقم اللقمة أخا من إخواني فأجد طعمها في حلق . كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء قال علي رضي الله تعالى عنه : لعشرون درهما أعطيا أخى في الله أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضا : لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلى من أن أعشق رقبة . واقتهام الكل في الإيثار برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني فقال : ما من صاحب يصحب صاحبا ولو ساعة من النهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه (٢) ، فأشار بهذا إلى أن الإيثار

(١) حديث « لما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع آثره بالمسال والنفس فقال عبد الرحمن بارك الله فيهما » رواه البخاري من حديث أنس . (٢) حديث « أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين =

هو القيام بحق الله في الصحبة . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر يغتسل عندهما فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعل فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه^(٢) ، وروى أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك : كف يدك حتى يحىء صاحب البيت : فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل ، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقا فدخل الحسن وقال : يامويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتى ظهرت أنت وأصحابك . وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى ﴿ أو صديقكم ﴾ وقال ﴿ أو ماملكتكم مفاتيحه ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد ، وكان أخوه يتخرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وإذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضا لها درجات كما للمواساة بالمال فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة : قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسى فإن لم يقضها فكبر عليه وأقرأ هذه الآية ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية ، فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديتته إلى ؛ فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتى . قال جعفر بن محمد : إني لآتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردمهم فيستغنوا عني : هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمسحونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال ميمون ابن مهران : من لم تلتفت بصداقة لم تضرك عداوته . وقال صلى الله عليه وسلم : ألا وإن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها ، أصفاها من الذنوب وأصلبها في الدين وأرقها على الإخوان^(٣) ، وبالجمله فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل

= أحدهما معوج والآخر مستقيم إلى صاحبه ... الحديث « لم أقف له على أصل (١) حديث « ستر حذيفة للنبي صلى الله عليه وسلم بثوب حتى اغتسل ثم ستره صلى الله عليه وسلم لحذيفة حتى اغتسل » لم أجده أيضا (٢) حديث « ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحدهما إلى الله أرفقهما بصاحبه » تقدم في الباب قبله بلفظ « أحدهما حبا لصاحبه » .

(٣) حديث « إن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله أصفاها وأصلبها » أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني لما أنه قال « أليها وأرقها » ولسانه جيد .

تقوم بحاجته كأنك لاتدرى أنك قت بها ، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتقصد منه بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ؛ لأنّ أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة . وقال الحسن : من شيع أخاه في الله بعث الله ملائكة من تحت عرشه يوم القيامة يشيعونه إلى الجنة . وفي الأثر « مازار رجل أخا في الله شوقاً إلى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة ^(١) » ، وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغل فاعينوهم أو كانوا نسوا فذكروهم . وروى « إن ابن عمر كان يلتفت يمينا وشمالا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن ذلك فقال : أحببت رجلاً فأنا أطلبه ولا أراه فقال : إذا أحببت أحداً فسله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فإن كان مريضاً عدته وإن كان مشغولاً أعتنه ^(٢) » ، وفي رواية : وعن اسم جدّه وعشيرته . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول أعرف وجهه ولا أعرف اسمه : تلك معرفة النوكي . وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسي ، وقال : ما اختلفت رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة له إلى فعلت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسي على ثلاث : إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى ﴿ رحماء بينهم ﴾ إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيقه أو بحضور في مسرة دونه بل يتنخض لرفاقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : في اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى

أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فرجاً يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، وليسكت عن أسرار التي بها إليه ولا يبثها إلى غيره ألبتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح في إجابته وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإنّ الذي سببك من بلغك . وقال أنس « كان صلى الله عليه وسلم لا يواجه أحداً بشيء يكرهه ^(٣) » ، والتأذى يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل ، نعم لا ينبغي أن يخفى ما يسمع من الشاء عليه فإنّ السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد . وبالجملة فليسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر معروف أو نهى عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذا ذاك لا يبالي بكراهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .

أما ذكر مساوية وعبوبه ومساوى أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويزجر عنه أمران : أحدهما : أن تطالع أحوال نفسك فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهو على نفسك ما تراه من أخيك

(١) حديث « مازار رجل أخا في » الحديث « تقديم في الباب قبله . (٢) حديث ابن عمر « إذا أحببت أحداً فأسأله عن اسمه واسم أبيه ومنزله وعشيرته ... الحديث » أخرجه الحارثي في مكارم الأخلاق والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه الترمذي من حديث يزيد بن نامة وقال غريب ، ولا يعرف يزيد بن نامة سماع من النبي صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنس « كان لا يواجه أحداً بشيء يكرهه » أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم والليلة بسند ضعيف .

وقدر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأى الرجال المهذب ؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حَقُّك عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثاني : أنك تعلم أنك لو طلبت منزها عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساو فإذا غلبت المحاسن المساوى فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبدا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدا يلاحظ المساوى والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : القوة العفو عن زلات الإخوان ولذلك قال عليه السلام : استعينوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره ^(١) ، وما من شخص إلا ويمكن تحسين حاله بخصال فيه ويمكن تقييحه أيضا . روى أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه فقال عليه السلام : أنت بالأمس تثني عليه واليوم تذمه ؟ فقال : والله لقد صدقت عليه بالأمس وما كذبت عليه اليوم إنه أرضاني بالأمس فقلت أحسن ما علمت فيه وأغضبني اليوم فقلت أقبح ما علمت فيه فقال عليه السلام : إن من البيان لسحرا ^(٢) ، وكأنه كره ذلك فشبهه بالسحر ، ولذلك قال في خبر آخر : البذاء والبيان شعبتان من النفاق ^(٣) ، وفي الحديث الآخر : إن الله يكره لكم البيان كل البيان ، وكذلك قال الشافعي رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصى الله ولا يطيعه . فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل وإذا جعل مثل هذا عدلا في حق الله فبأن تراه عدلا في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضا ، وحده أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن ، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمى تفرسا وهو الذي يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكا ضروريا لا يقدر على دفعه ، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حتى يصدر منه فعل له وجهان ، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأدنى من غير علامة تخصه به ، وذلك جنابة عليه بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن . إذ قال صلى الله عليه وسلم : إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ^(٥) ، وسوء الظن

(١) حديث « استعينوا بالله من جار السوء الذي إن رأى خيرا ستره وإن رأى شرا أظهره » أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف والسنائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح « أمدوا بالله من جار السوء في دار المقام » . (٢) حديث أن رجلا أتى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد ذمه ... الحديث « وفيه » فقال صلى الله عليه وسلم : إن من البيان لسحرا ... أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک من حديث أبي بكرة إلا أنه ذكر المدح والذم في مجلس واحد لا يومين ورواه الحاكم من حديث ابن عباس أطول منه بسند ضعيف أيضا .

(٣) حديث « البذاء والبيان شعبتان من النفاق » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين من حديث أبي أمامة بسند ضعيف . (٤) حديث « إن الله حرم من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء » أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله « وعرضه » ورجاله ثقات إلا أن أبا علي النيسابوري قال : ليس هذا عندى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لأنما هو عندى من كلام ابن عباس . ولا بن ماجه نحوه من حديث ابن عمر ، ولمسلم من حديث أبي هريرة « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . (٥) حديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

يدعو إلى التجسس والتحسس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا »^(١) ، والتجسس في تطلع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين . ويكفيك تزيها على كمال الرتبة في ستر القبيح وإظهار الجليل أن الله تعالى وصف به في الدعاء فقيل : يا من أظهر الجليل وستر القبيح . والمرضى عند الله من تخلق بأخلاقه فإنه ستر العيوب وغفار الذنوب ومتجاوز عن العيب فكيف لا تتجاوز أنت عن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك ؟ وقد قال عيسى عليه السلام للحواريين : كيف تصنعون إذا رأيتم أحاكم نائما وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، قال : بل تكشفون عورته ! قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟ فقال : أحدكم يسمع بالكلمة في أخيه فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها . واعلم أنه لا يتم إيمان المرء ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأقل درجات الاخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورة والسكوت على المساوى والعيوب ، ولو ظهر له منه نقىض ما ينتظره اشتد عليه غيظه وغضبه فما أبعد إذا كان ينتظر منه مالا يضره له ولا يعزم عليه لأجله ، وويل له في نص كتاب الله تعالى حيث قال (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية . ومنشأ التقصير في ستر العورة أو السعى في كشفها الداء الدفين في الباطن وهو الحقد والحسن فإن الحقد الحسود يملأ باطنه بالخبث ولكن يحبس في باطنه ويخفيه ولا يبديه مهما لم يجد له مجالا وإذا وجد فرصة انحلت الرابطة وارتفع الحياء وبترشح الباطن بخبثه الدفين . ومهما انطوى الباطن على حقد وحسد فلا نقطاع أولى ، قال بعض الحكماء : ظاهر العتاب خير من مسكون الحقد ، ولا يزيد لطف الحقد إلا وحشة منه ، ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله . وقد روى عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أنه قال : كنت باليمن ولى جار يهودى يخبرنى عن التوراة فقدم على اليهودى من سفر فقلت إن الله قد بعث فينا نبيا فدعانا إلى الإسلام فأسلمنا وقد أنزل علينا كتابا مصدقا للتوراة ، فقال اليهودى صدقت ولكنكم لا تستطيعون أن تقوموا بما جاءكم به ، إنا نجد نعتة ونعت أمتة في التوراة : إنه لا يحل لامرئ أن يخرج من عتبة بابه وفي قلبه سخيمة على أخيه المسلم . ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذى استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذبا فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفى عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الاخوة وكذلك لا يكون بالعمل بين يديه مرائيا وخارجا عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه السلام « من ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٢) ، وفي خبر آخر « فكأنما أحيا موءودة »^(٣) ، وقال عليه السلام « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة »^(٤) ، وقال « المجالس بالأمانة

(١) حديث « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » متفق عليه من حديث أبي هريرة وهو بعض الحديث الذى قبله . (٢) حديث « من ستر عورة أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقال « يوم القيامة » ولم يقل « في الدنيا » ولمسلم من حديث أبي هريرة « من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة » ولم يبخين من حديث ابن عمر « من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . (٣) حديث « فكأنما أحيا موءودة من قبرها » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم من حديث عقبة بن عامر « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » زاد الحاكم « من قبرها » وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث جابر وقال حسن .

إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ومجلس يستحل فيه فرج حرام ومجلس يستحل فيه مال من غير حله (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره (٢) ؛ قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قهره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه ، أى لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبيده من حيث لا يدري به . فمن هذا يجب مقاطعة الحمق والتوق عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم . وقد قيل آخر . كيف تحفظ السر ؟ قال : أجدد المخبر وأحلف للمستخير . وقال آخر : أستره واستر أنى أستره وعبر عنه ابن المعتز فقال :

ومستودعى سرا تبوأ كتمه . فأودعته صدرى فصار له قبرا

وقال آخر وأراد الزيادة عليه :

وما السر فى صدرى كشوا بقبره لأنى أرى المقبور ينتظر النشر
ولكننى أنساه حتى كأتى بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بينى وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرا له إلى أخيه ثم قال له . حفظت ؟ فقال : بل نسيت . وكان أبو سعيد الثورى يقول : إذا أردت أن تواخى رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيرا وكتم سر كفاصحه . وقيل لأبى يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله ثم يستر عليك كما يستره الله . وقال ذو النون : لاخير فى صحبة من لا يجب أن يراك إلا معصوما ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قال بعض الحكماء . لا تصحب من يتغير عليك عند أربع : عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه . بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال ولذلك قيل :

وترى الكريم إذا تصرم وصله يخفى القبيح ويظهر الإحسانا
وترى اللئيم إذا تقضى وصله يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل - يعنى عمر رضى الله عنه - يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمسا : لا تفشين له سرا ولا تغتاب عنده أحدا ولا تجرين عليه كذبا ، ولا تعصين له أمرا ، ولا يطلعن منك على خيانة فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف . ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة فى كل ما يتكلم به أخوك قال ابن عباس : لا تمار سفيها فيؤذيك ولا حليما فيقلبك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة (٣) ، هذا مع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر النصب . وأشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع

(١) حديث « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه

(٢) حديث « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة لا يحل لأحدهما أن يفشى على صاحبه ما يكره » أخرجه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية أبى بكر بن حزم مرسلًا والحاكم وصححه من حديث ابن عباس « أنكم تجالسون بينكم بالأمانة » .

(٣) حديث « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ... الحديث » تقدم فى العلم .

يقع أولا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان . وقال عليه السلام « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ^(١) » ، وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامه فقد نسبته إلى الجهل والحق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وإيقار للصدر وإيحاش . وفي حديث أبي أمامة الباهلي قال « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تمارى ففضب وقال : ذروا المراء لقله خيره وذروا المراء فإن نفعه قليل وإنه يهيج العداوة بين الإخوان ^(٢) » ، وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله ابن الحسن إياك ومسارة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظمير به منهم وكثرة المماراة توجب التضییع والقطيعة وتورث العداوة وقد قال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتيم بالحق والجهل ولا معنى للعبادة إلا هذا فكيف تضامنه الأخوة والمصافاة ؟ فقد روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه ^(٣) » ، وقد قال عليه السلام « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق ^(٤) » ، والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حد لم يروا السؤال أصلا . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغى أن يقرم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الناداني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في الثواب فأقول : أعطني من مالك شيئا ، فكان يلقي إلى كيسه فأخذ منه ما أريد ، لجنته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة لإخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالا فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإغاء . وأعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيري موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضى السكوت عن المسكاره تقتضى أيضا النطق بالمحباب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم ، والسكوت معناه كف الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقدها فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغى أن يظهر بلسانه وأفعاله كراحتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغى أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء وقد

(١) حديث « لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس وقد تقدم بعضه قل هذا بسبعة أحاديث (٢) حديث أبي أمامة « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن تمارى ففضب وقال ذروا المراء لقله خيره فإن نفعه قليل فإنه يهيج العداوة بين الإخوان » أخرجه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة وأبي الدرداء وائلة وأنس دون ما بعد قوله « لقله خيره » ومن هنا إلى آخر الحديث رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة فقط واسنادهما ضعيف .

(٣) حديث ابن عباس « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه » أخرجه الترمذي وقال غريب لا يعرفه إلا من هذا الوجه يعنى من حديث ليث بن أبي سليم وضعفه الجمهور . (٤) حديث « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » أخرجه أبو يعلى الموصلي والطبراني في معارج الأئمة وابن عدى في الكامل وضعفه الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة .

قال عليه السلام « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ^(١) » وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحببك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضا يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحجوب في الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال « تهادوا تحابوا ^(٢) » ومن ذلك أن يدعو به بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره . قال عمر رضي الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيتة أولا ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه . ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعتة وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لا بد منه وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثني عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال على رضي الله عنه : من لم يحمدا أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنعة . وأعظم من ذلك تأثيرا في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض لحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكي المتعنت وتعليق القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة . وإنما شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخوين باليدين تغسل إحداهما الأخرى لينصر أحدهما الآخر وينوب عنه ^(٣) . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يثله ^(٤) » ، وهذا من الائتلاف والخذلان فإن إهماله لتزريق عرضه كإهماله لتزريق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحرك الشفقة والحمية للدفع عنك ! وتمزق الاعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » والملك الذي يمثله في المنام ما تطالعه الروح من اللوح المحفوظ بالأمثلة المحسوسة يمثل الغيبة بأكل لحوم الميتة ، حتى إن من يرى أنه يأكل لحم ميتة فإنه يعتاب الناس لأن ذلك الملك في تمثيله يراعى المشاركة والمناسبة بين الشيء وبين مثاله في المعنى الذي يجري من المثل مجرى الروح ؛ لا في ظاهر الصور . فإذا ن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعننت المتعننين واجب في عقد الأخوة . وقد قال مجاهد : لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك . فإذا لك فيه معياران ؛ أحدهما : أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضرا ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به . والثاني : أن تقدر أنه حاضرا من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره ؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بسمع منه ومراى ؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك فقد قال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيث إلا تصورت في صورته فقلت فيه ما يجب أن يسمعه لو حضر : وقال آخر : ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال في . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه . وقد نظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدان فوقف أحدهما يحك جسمه فوق الآخر ؛ فبكى وقال : هكذا الإخوان في الله يعملان لله فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر . وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصا في إخمائه فهو منافق . والإخلاص استواء الغيب والشهادة

(١) حديث « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والحاكم من حديث المقدم بن معديكرب . (٢) حديث « تهادوا تحابوا » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة وقد تقدم غير مرة .

(٣) حديث « تشبيه الأخوين باليدين » تقدم في الباب قبله . (٤) حديث « المسلم أخو المسلم » تقدم في أثناء حديث قبله بسبعة أحاديث .

واللسان والقلب والسر والعلانية والجماعة والخلوة والاختلاف ، والتفاوت في شيء من ذلك بمداخلة في المودة وهو دخل في الدين ووليعة في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المواخاة والمصاحبة فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق . ولذلك قال عليه السلام « أباهر أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمناً »^(١) ، فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة . فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم . ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال : فإن كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائده تركه وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن مرآة المؤمن »^(٢) ، أى يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولوانفرد لم يستفد كما يستفيد بالمرآة الرقوف على عيوب صورته الظاهرة . وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسر : أنتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحتني فيما بيني وبينه فنعم وإن قرعني بين الملأ فلا . وقد صدق ، فإن النصيح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله محتوماً إلى الملائكة الذين يحفون به إلى الجنة ، فإذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب محتوماً ليقرأه ، وأما أهل المقت فينادون على رمس الأشهاد وتستنطق جوارحهم بفضائحهم فيزدادون بذلك خزيًا وافتضاحًا ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر . فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المدارة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

« فإن قلت : فإذا كان في النصيح ذكر العيوب ففيه إيجاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيجاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استئالة القلوب ، أعنى قلوب العقلاء ، وأما الحق فلا يلتفت إليهم فإن من ينهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك ، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حقك ! والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه

(١) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً » أخرجه الترمذي وابن ماجه واللفظه من حديث أبي هريرة بالشرط الأول فقط وقال الترمذي « مؤمناً » قال « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً » وقال ابن ماجه « مؤمناً » قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القضاعي في مسند الشهاب بلفظ المصنف .

(٢) حديث « المؤمن مرآة المؤمن » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

يستهدى ذلك من إخوانه ويقول : رحم الله امرأاً أهدى إلى أخيه عيوبه ، ولذلك قال عمر لسلمان وقد قدم عليه : ما الذى بلغك عنى مما تكره ؟ فاستعفى ، فألح عليه فقال : بلغنى أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل وبلغنى أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة ، فقال عمر رضى الله عنه : أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما ؟ فقال : لا . وكتب حذيفة المرعشى إلى يوسف بن أسباط : بلغنى أنك بعث دينك بحبتين : وقفت على صاحب لبن فقلت : بكم هذا ؟ فقال : بسدس ، فقلت له : لا ... بشمن ! فقال : هو لك ، وكان يعرفك . اكشف عن رأسك قناع الغافلين وانتبه عن رقدة الموتى واعلم أن من قرأ القرآن ولم يستغن وآثر الدنيا لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين ، وقد وصف الله تعالى السكاذبين ببغضهم للناسحين إذ قال ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وهذا في عيب هو غافل عنه فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصيح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاء ، فإن علمت أن النصيح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالكسوت عنه أولى ، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه ، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعاضى عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصيح فى شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك لإصلاح نفسك برأعائك إياه وقيامك بحقه واحتمالك تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه . قال أبو بكر الكتاني : صحبتني رجل وكان على قلبي ثقبلا فوهبت له يوما شيئاً على أن يزول ما في قلبي فلم يزول ، فأخذت بيده يوماً إلى البيت وقلت له : ضع رجلك على خدي ، فأبى ، فقلت : لا بد ، ففعل ، فزال ذلك من قلبي . وقال أبو علي الرباطي : صحبت عبدالله الرازي وكان يدخل البادية فقال على أن تكون أنت الأمير أو أنا فقلت بل أنت فقال وعليك الطاعة فقلت نعم فأخذ مخلاة ووضع فيها الزاد وحملها على ظهره فإذا قلت له أعطني قال ألسنت قلت أنت الأمير ؟ فعليك الطاعة فأخذنا المطر ليلة فوقف على رأسي إلى الصباح وعليه كساء وأنا جالس يمنع عني المطر فكنت أدول مع نفسي ليتني مت ولم أقل أنت الأمير .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تغلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة . أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله . فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في لإدامة حق مؤدته أو مقاطعته . فذهب أبو ذر رضى الله عنه إلى الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته ، ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله . وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه ؛ فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً . وقال أيضاً : لا تتحدثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزول الزلة ثم يتركها . وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تنقطعوه وانتظروا فيئته ^(١) » . وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه وقال :

(١) حديث « اتقوا زلة العالم ولا تنقطعوه وانتظروا فيئته » رواه البوصي في المعجم وابن عدى في الكامل من حديث عمرو بن عوف المزني وضمفاء .

ما فعل أخى ؟ قال : ذلك أخو الشيطان قال : مه ، قال : إنه قارف الكبار حتى وقع في الخمر . قال : إذا أردت الخروج فأذني فكتب عند خروجه إليه . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ الآية ، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله . فلما قرأ الكتاب بكى وقال : صدق الله ونصح لي عمر قتات ورجع . وحكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه وقال : إني قد اعتللت فإن شئت أن لا تنقد على صحبتي لله فافعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد أخوتك لأجل خطيئتك أبدا ، ثم عقد أخوه بينه وبين الله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافى الله أخاه من هواه ، فطوى أربعين يوما في كلها يسأله عن هواه فكان يقول : القلب مقيم على حاله . وما زال هو ينحل من النعم والجوع حتى زال الهوى عن قلب أخيه بعد الأربعين فأخبره بذلك فأكل وشرب بعد أن كاد يتلف هزالا وضرا . وكذلك حكى عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ، فقال : أخرج ما كان إلى في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه . وروى في الإسرائيليات أن أخوين عابدين كانا في جبل نزل أحدهما ليشتري من المصر لحما بدرهم فرأى بغيا عند اللحام فرمقها وعشقها واجتذبا إلى خلوة وواقعا ، ثم أقام عندهما ثلاثا واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائيه . قال : فافتقده أخوه واهتم بشأنه فنزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دل عليه فدخل إليه وهو جالس معها فاعتقه وجعل يقبله ويلتمزه وأنكر الآخر أنه يعرفه قط لفرط استحيائه منه فقال : قم يا أخى فقد علمت شأنك وقصتك وما كنت قط أحب إلى ولا أعز من ساعتك هذه ، فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه . فهذه طريقة قوم وهي ألطف وأفقه من طريقة أبي ذر رضي الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم .

• فإن قلت : ولم قلت هذا ألطف وأفقه ومقارف هذه المعصية لاتبجوز مؤاخذته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاه لأن الحكم إذا ثبت بعلّة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلّة عقد الأخوة التعاون في الدين ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية فأقول : أما كونه ألطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضى إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع طمعه عن الصحبة أصر واستمر . وأما كونه أفقه فن حيث إن الأخوة عقد ينزل منزلة القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء ؛ ووجب العقد ، ومن الوفاء أن لا يهمل أيام حاجته وفقره وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة وألمت به آفة اقترب سببها في دينه فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك الوقعة التي ألمت به . فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أشد التوائب ، والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه ومدامته فسيرجع على قرب ويستحي من الإصرار بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياء منه . قال جعفر بن سليمان : مهما فترت في العمل نظرت إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة فيرجع إلى نشاط في العبادة وفارقتي الكسل وعملت عليه أسبوعا وهذا التحقيق وهو أن الصداقة لحمة كالجمجمة النسب والقريب لا يجوز أن يهجر بالمعصية ، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في عشيرته ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ ولم يقل إني بريء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب . وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة . ولذلك قيل للحكيم : أيما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقا لي . وكان الحسن يقول : كم من أخ لم تلده أمك ؟ ولذلك قيل :

القرابة تحتاج إلى مودة والمودة لا تحتاج إلى قرابة وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : مودة يوم صلة ومودة شهر قرابة ومودة سنة رحم مائة من قطعها قطع الله . فإذا الوفاء بعقد الأخوة إذا سبق انعقادها واجب . وهذا جوابنا عن ابتداء المؤاخاة مع الفاسق فإنه لم يتقدم له حق فإن تقدمت له قرابة فلا جرم لا ينبغي أن يقطع بل يجامل . والدليل عليه أن ترك المؤاخاة والصحبة ابتداء ليس مذموما ولا مكروها بل قال قائلون : الانفراد أولى ؛ فأما قطع الأخوة عن دوامها فنهى عنه ومذموم في نفسه ونسبته إلى تركها ابتداء كنسبة الطلاق إلى ترك النكاح ، والطلاق أبغض إلى الله تعالى من ترك النكاح قال صلى الله عليه وسلم : شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ^(١) ، وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان : ود الشيطان أن يلقى على أخيك مثل هذا حتى تهجره وتقطعوه ، فإذا اتقيتم من حجة عدوكم . وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مفارقة العصيان من محابه ؛ فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، ولما هذا أشار عليه السلام في الذي شتم الرجل الذي أتى فاحشة إذ قال : مه ، وزبره وقال : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك ^(٢) ، فهذا كله يتبين الفرق بين الدوام والابتداء لأن مخالطة الفساق محذورة ، ومفارقة الأحباب والإخوان أيضا محذورة ، وليس من سلم عن معارضة غيره كالذي لم يسلم وفي الابتداء قد سلم فرأينا أن المهاجرة والتباعد هو الأولى وفي الدوام تعارضا فكان الوفاء بحق الأخوة أولى ، هذا كله في زلته في دينه .

أما زلته في حقه بما يوجب إيجاشه فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذره فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرا ؛ فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذرا فلا تقبله ، فأنت المعيب لأخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ، ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حمارا ولا شيطانا ، واسترض قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانا إن لم تقبل . قال الاحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر : ما شتمت أحدا قط : لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أو لثيم فلا أجعل عرضي له غرضا ثم تمثل وقال :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللثيم تكرها

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معا تبة الخليل على الغير

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبا كان أو صادقا فاقبل عذره . قال عليه السلام : من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لثم صاحب المكس ^(٣) ، وقال عليه السلام : المؤمن سريع الغضب سريع الرضا ^(٤) ، فلم يصفه بأنه

(١) حديث « شرار عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة » رواه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بسند ضعيف
(٢) حديث « لا تكونوا أعوانا للشيطان على أخيك » رواه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في الباب قبله .
(٣) حديث « من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل عذره فعليه مثل لثم صاحب مكس » أخرجه ابن ماجه وأبو داود في المراسيل من حديث جودان واختلف في صحته وجهله أبو حاتم وباقي رجاله ثقات ورواه الطبراني في الأوسط من حديث جابر بسند ضعيف .
(٤) حديث « المؤمن سريع الغضب سريع الرضا » لم أجده هكذا ولا ترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري « ألان بني آدم خلقوا على طبعات شتى . . . الحديث » وفيه « ومنهم سريع النى فتلك بتلك »
(٢٤ — لمحياء علوم الدين — ٢)

لا يفضى . وكذلك قال الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ولم يقل والفاقدين الغيظ ، وهذا لأن العادة لا تنتهي إلى أن يجرح الإنسان فلا يتألم ، بل تنتهي إلى أن يصبر عليه ويحتمل ، وكما أن التألم بالجرح مقتضى طبع البدن فالتألم بأسباب الغضب طبع القلب ، ولا يمكن قلعه ولكن ضبطه وكظمه والعمل بخلاف مقتضاه ، فإنه يقتضى التشفى والانتقام والمكافأة ، وترك العمل بمقتضاه ممكن ، وقد قال الشاعر :

ولست بمستبق أحدا لا تله على شعث أى الرجال المهذب ؟

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : إذا واخيت أحدا في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول ، قال : لخبرته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على منقض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبه خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقعة . ويذهب أن لا يبلغ في البغضة عند الوقعة . قال تعالى ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ وقال عليه السلام : أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغضك يوما ما : وأبغض بغضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما ^(١) ، وقال عمر رضي الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا : وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق السادس

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم : إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك ^(٢) ، وفي لفظ آخر : يقول الله تعالى بك أبدا يا عبدي ^(٣) ، وفي الحديث : يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه ^(٤) ، وفي الحديث : دعوة الرجل لأخته في ظهر الغيب لا ترد ^(٥) ، وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهمم بما قدمت وما صرت إليه ، يدعوك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى ، وكأن الأخ الصالح يقتدى بالملائكة ، إذ جاء في الخبر : إذا مات العبد قال الناس : ما خلفت ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ ^(٦) ، يفرحون له بما قدم ويسألون عنه ويشفقون عليه ، ويقال : من بلغه موت أخيه فترحم عليه واستغفر له كتب له كأنه شهد جنازته وصلى عليه . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ^(٧) ، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال . وقال بعض السلف الدعاء للأموات بمنزلة الهدايا للأحياء ، فيدخل الملك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول : هذه

(١) حديث « أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغضك يوما ما ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال غريب قلت رجاله ثقات رجال مسلم لسكن الراوى تردد في رفعه .

(٢) حديث « إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك » أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء

(٣) حديث « الدعاء للأخ بظهر الغيب » وفيه « يقول الله بك أبدا يا عبدي » لم أجده هذا اللفظ (٤) حديث « يستجاب للرجل في أخيه ما لا يستجاب له في نفسه » لم أجده بهذا اللفظ ولأبي داود والترمذى وضعفه من حديث عبد الله بن عمرو « لأن أسرع الدعاء إجابة دعوة غائب لنا » (٥) حديث « دعوة الأخ لأخيه في الغيب لا ترد » أخرجه الدارقطني في المثل من حديث أبي الدرداء وهو عند مسلم لما أنه قال « مستجابة » مكان « لا ترد » (٦) حديث « إذا مات العبد قال الناس ما خلفت وقالت الملائكة ما قدم » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٧) حديث « مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ينتظر دعوة من ولد أو والد . . . الحديث » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة قال انتهى في الميزان أنه خبر منكر جدا .

هدية لك من عند أخيك فلان ، من عند قريبك فلان . قال : فيفرح بذلك كما يفرح الحى بالهدية .

الحق السابع : الوفاء والاخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للأخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعى ، ولذلك قال عليه السلام « فى السبعة الذين يظلمهم الله فى ظله » ورجلان تحابا فى الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه ^(١) ، وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره فى حال الحياة ، ولذلك روى أنه صلى الله عليه وسلم أكرم عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين ^(٢) » ، فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع فى قلب الصديق من مراعاة الأخ فى نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذى على باب داره ينبغى أن يميز فى القلب عن سائر الكلاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخين فى الله ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما قال الله تعالى ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ وقال نخبرا عن يوسف ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ﴾ ويقال ماتواخى اثنان فى الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك لأن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : أذال الأشياء بحالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية ، والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة فى الله أن لا تكون مع حسد فى دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته ؟ وبه وصف الله تعالى الحيين فى الله تعالى فقال ﴿ ولا يجحدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ﴾ ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله فى التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الحشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بنى لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغثت عنه لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولى أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير . وحكى الربيع : أن الشافعى رحمه الله أخى رجلا بيغداد ثم إن أخاه ولى السيدين فتغير له عما كان عليه ، فكتب إليه الشافعى بهذه الأبيات :

أذهب فودك من فؤادى طالق أبدا وليس طلاق ذات البين
فإن أروعيت فإنها تطليقة ويدوم ودك لى على ثنتين
وإن امتنعت شفعتها بمثابة فتكون تطليقتين فى حيزين
وإذا التلث أتلثك منى بته لم تغن عنك ولاية السييين

(١) حديث « سبعة يظلمهم الله فى ظله ... الحديث » تقدم غير مرة .

(٢) حديث « لأكرامه صلى الله عليه وسلم عجوز دخلت عليه » وقوله لأنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان ، أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة .

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخر فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي رضي الله عنه أخى محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره ؛ فاعتل محمد فعاده الشافعي رحمه الله تعالى فقال :

مرض الحبيب فعدته فرضت من حذرى عليه
وأقى الحبيب يعودنى فبرئت من نظرى إليه

وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفرض أمر حلقتة إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه : إلى من تجلس بعدك يا أبا عبد الله ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئذ إليه ؛ فقال الشافعي : سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي ؟ فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمدا كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع . فنصح الشافعي لله وللسلمين وترك المداينة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى . فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتب مالك رحمه الله ، وهو من كبار أصحاب مالك رحمه الله . وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة واشتغل بالعبادة وصنف كتاب الام ، الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنفه البويطي ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرف وأظهره . والمقصود أن الوفاء بالحجة من تمامها النصح لله . قال الأحنف : الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها سوى فرقة الاحباب هيئة الخطب

وأشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواما فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إلى أن حسرتهم ذهبت من قلبي . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لاسيما من يظهر أولا أنه محب لصديقه - كيلا يتهم - ثم يلقي الكلام عرضا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يحتز منه لم تدم مودته أصلا . قال واحد الحكماء : قد جئت خاطبا لمودتك ، قال : إن جعلت مهرها ثلاثا فعلت ، قال : وما هي ؟ قال : لا تسمع على بلاغة ولا تخالفني في أمر ولا توطئني عشوة . ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه . قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروح سره من مهماته وحاجاته ويرفقه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاء ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركا بدعائه واستئناسا ببقائه واستعانة به على دينه وتقربا إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقضونه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم مثل ما يقضونه فقد آتاهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وآتاهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا وتام التخفيف بطل بساط التكليف

حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه . وقال الجنيد : ماتواخي اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعله في أحدهما . وقال على عليه السلام : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : المؤمن أخو المؤمن لا يفتنمه ولا يحتشمه . وقال الجنيد : صحبت أربع طبقات من هذه الطائفة - كل طبقة ثلاثون رجلا - حارثا المحاسبي وطبقته ، وحسنا المسوحى وطبقته ، وسريا السقطي وطبقته ، وابن الكربي وطبقته ، فأتواخي اثنان في الله واحتشم أحدهما من صاحبه أو استوحش إلا لعله في أحدهما . وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني على من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي . وقال بعض الصوفية : لا تعاشر من الناس إلا من لا تزيد عنده بهر ولا تنقص عنده يائمه يكون ذلك لك وعليك وأنت عنده سواء ، وإنما قال هذا لأن به يتخلص عن التكلف والتحفظ . وإلا فالطبع يحمله على أن يتحفظ منه إذا علم أن ذلك ينقصه عنده . وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ومع أبناء الآخرة بالعلم ومع العارفين كيف شئت ! وقال آخر : لا تصحب إلا من يتوب عنك إذا أذنبت ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه . وقائل هذا قد ضيق طريق الأخوة على الناس وليس الأمر كذلك بل ينبغي أن يواخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مواخيا في الله وإلا كانت مواخاته لحملواظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عز الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله ؟ فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثا ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخا يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخا في الله تحمل أنت مؤنته وتبصر على أذاه فعندي جماعة أعرفهم لك . فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرره ولكن لا تنتفع به . ورجل لا تقدر أيضا على أن تنفعه وتتضرر به وهو الآخر أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه ، فأما الثاني فلا تتجنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به ، وقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إن أعطيتي فما أكثر إخوانك أي إن واسيتهم واحتملت منهم ولم تحسدهم . وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فواقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيمته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض في نوافل العبادات . كان طائفة من الصوفية يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم ؟ وإن صلى الليل كله لم يقل له : نيم ، وتستوى حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأن ذلك إن تفاوت حرك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت ألفته من خفت مؤنته دامت مودته . وقال بعض الصحابة : إن الله لمن المتكلفين وقال صلى الله عليه وسلم : أنا وأمتي برآء من التكلف ^(١) ، وقال بعضهم : إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به ^(٢) إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى . ونام . فذكر ذلك لبعض المشايخ فقال : بقيت خامسة وهو أن يحضر مع الأهل في بيت أخيه ويحاجها ، لأن البيت يتخذ للاستخفاف في الأمور الخس ،

(١) حديث « أنا وأمتي برآء من التكلف » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث الزبير بن العوام « ألا لي برىء من التكلف وصالحو أمتي » وأسناده ضعيف (٢) حديث « إذا صنع الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به » الحديث لم أجده أصلا .

ولإلا فالمساجد أرواح لقلوب المتعبدين ، فإذا فعل هذه الخمس فقد تم الإخاء وارتفعت الحشمة وتأكد الانبساط . وقول العرب في تسليمهم يشير إلى ذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : مرحبا وأهلا وسهلا ، أى لك عندنا مرحب وهو السعة في القلب والمكان ، ولك عندنا أهل تأنس بهم بلا وحشة لك منا ، ولك عندنا سهولة في ذلك كله ، أى لا يشتد علينا شيء مما تريد . ولا يتم التخفيف وترك التكلف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسعى الظن بنفسه فإذا رآهم خيرا من نفسه فعند ذلك يكون هو خيرا منهم وقال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضلتني على نفسه فهو خير مني وقد قال صلى الله عليه وسلم « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له »^(١) ، فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والسكال في رؤية الفضل للأخ . ولذلك قال سفيان : إذا قيل لك ياشتر الناس فغضبت فأنت شر الناس أى ينبغي أن تكون معتقدا ذلك في نفسك أبدا . وسيأتى وجه ذلك في كتاب الكبر والعجب . وقد قيل في معنى التواضع ورؤية الفضل للإخوان أبيات :

تذلل لمن إن تذلت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لا يرا ل على الأصدقاء يرى الفضل له
وقال آخر : كم صديق عرفته بصديق صار أخطى من الصديق العتيق
ورفيق رأيته في طريق صار عندي هو الصديق الحقيقي

ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه وهذا في عموم المسلمين مذموم . قال صلى الله عليه وسلم « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٢) ، ومن تنمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وينبغي أن لا يخفى عنهم شيئا من أسرارهم كما روى أن يعقوب ابن أخي معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمي معروف وكان مواخيا له فقال : إن شر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحى أن يشافهك بذلك وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوة يحتسبها ويعتد بها إلا أنه يشترط فيها شروطا : لا يجب أن يشتهر بذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقة فإنه يكره كثرة الالتقاء ، فقال معروف : أما أنا لو آخيت أحدا لم أحب مفارقتة ليلا ولا نهارا ولزرتة في كل وقت وآثرته على نفسي في كل حال ، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها . وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فشاركه في العلم^(٣) وقاسمه في البدن^(٤) وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه وخصه بذلك لمؤاخاته^(٥) وأنا

(١) حديث « المرء على دين خليله ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » تقدم الشطر الأول منه في الباب قبله وأما الشطر الثاني فرواه ابن عدى في الكامل من حديث أنس بسند ضعيف (٢) حديث « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في أثناء حديث « لاتدابروا » في هذا الباب (٣) حديث « آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وشاركه في العلم » أخرجه النسائي في الخصائص من سننه الكبرى من حديث علي قال « جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني عبد المطلب ... الحديث » وفيه « فأيسكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يغم إليه أحد فقامت إليه » وفيه « حتى إذا كان في الثالثة ضرب بيده على يدي » وله ولأحماكم من حديث ابن عباس « أن عليا كان يقول في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لاني لأخوه ووليه ووارث علمه ... الحديث » وكل ماورد في أخوته ضعيف لا يصح منه شيء ولا ترمذى من حديث ابن عمر « وانت أخي في الدنيا والآخرة » ولأحماكم من حديث ابن عباس « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وقال صحيح الإسناد وقال ابن حبان لأصل له وقال ابن طاهر أنه موضوع ولترمذى من حديث علي « أنا دار الحكمة وعلي بابها » وقال غريب (٤) حديث « مقاسمته عليا للبدن » أخرجه مسلم في حديث جابر الطويل « ثم أعطى عليا فنحر ماعبر وأشركه في هديه » (٥) حديث « أنه أنكح عليا أفضل بناته وأحبهم إليه » هذا معلوم مشهور في الصحيحين من حديث علي « لما أردت أن أبني بفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعدت رجلا سواها ... الحديث » ولأحماكم من حديث =

أشهدك أني قد عقدت له أخوة بيني وبينه وعقدت لإخاءه في الله لرسالتك ولمسألته على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكنني أزوره متى أحببت ، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها ، ومره أن لا يخفي علي شيئا من شأنه وأن يطلقني على جميع أحواله ، فأخبر ابن سالم بشرا بذلك فرضي وسر به . فهذا جامع حقوق الصحبة وقد أجملناه مرة وفصلناه أخرى ، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر فبأن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك وتنتظر إلى محاسنهم وتتعاى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه ^(١) وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه السلام أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعبجا عما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسيم اقتداء منهم بفعله وتوقيرا له عليه السلام .

وأما السمع فبأن تسمع كلامه مثلثا بسامعه ومصدقا به ومظهرا للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمراة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرهاقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما سكرهون .
وأما اللسان فقد ذكرنا حقوقه فإن القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدين فأن لا يقبضنهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد .

وأما الرجلان فأن يمشي بهما وراهم مشى الاتباع لا مشى المتبعين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعا حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة وفي ضمنها نوع من الأجنبة والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالسكينة فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغنى عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلى صحة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهرا وباطنا وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة .

= أم أيمن « زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة عليها ... الحديث » وقال صحيح الاسناد وفي الصحيحين من حديث عائشة عن فاطمة « يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين . . . الحديث » (١) حديث « كان يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه » ... الحديث » أخرجه الترمذي في المعاجل من حديث علي في أثناء حديث فيه « يعطى كل جلسائه نصيبه لا يحجب جلسيه أن أحدا أكرم عليه ممن جالسه ومن سأله حاجة لم يرددها لها أو يمسور من القول » ثم قال « مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة » وفيه « يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه » وللترمذي من حديث عبد الله بن حارث بن جزء « ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال غريب .

خاتمة لهذا الباب

نذكر فيها جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق
ملتقطة من كلام بعض الحكماء

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع في غير مذلة . وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم . ولا تنظر في عطائيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وغامتك وتحليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصافك وتنخملك وطرده الباب من وجهك وكثرة التطلى والتشاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هاديا وحديثك منظوما مرتبا واصغ إلى الكلام الحسن من حديثك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، واسكت عن المضاحك والحكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك ، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تبدل تبدل العبد وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن ، ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحدا على الظلم ولا تعلم أهلك وولدك فضلا عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلا هنت عندهم وإن كان كثيرا لم تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب مجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتيك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قربك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهي مالم يكن معصية ، ولا يحملنك لطمه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقا عنده فإن سقطه الداخل بين الملك وبين أهله سقطه لا تتعش وزلة لا تقال ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلسا فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحي بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على الطريق ، فإن جلست فأدبه غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتداد لموضع البصاق ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عنده ، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم .

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألقاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أن تمازح ليديا أو غير لبيب فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجرئ عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب بحلاوة الود ويشين فقه الفقيه ويجرئ

السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمتقته المتقون ، وهو يمت القلب ويباعد عن الرب تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاج إلا من يخف أو بطر . ومن بلى في مجلس بمزاج أو لفظ فليذكر الله عند قيامه قال النبي صلى الله عليه وسلم « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك (١) » .

الباب الثالث : في حق المسلم والرحم والجوار والمملك

وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه الأسباب

اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففي مخالطته أدب والآداب هي قدر حقه وحقه على قدر رابطة التي بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم أكد ، وللحرم حق ولكن حق الوالدين أكد . وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدى في بلاد الغربة يجرى مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل أكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها كحق الصحبة في الدرس والمكتب أكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة ، والخليل أقرب من الحبيب ؛ فالحبة ما تتمكن من حبة القلب والخلة ما تتخلل سر القلب ؛ فكل خليل حبيب وليس كل حبيب خليل ، وتفاوت درجات الصداقة لا يخفى بحكم المشاهدة والتجربة فأما كون الخلة فوق الأخوة فمعناه أن لفظ الخلة عبارة عن حالة هي أتم من الأخوة وتعرفه من قوله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ولكن صاحبكم خليل الله (٢) » ، إذ الخليل هو الذي يتخلل الحب جميع أجزاء قلبه ظاهرًا وباطنًا ويستوعبه ولم يستوعب قلبه عليه السلام سوى حب الله وقد منعه الخلة عن الاشتراك فيه مع أنه اتخذ عليًا رضي الله عنه أخًا فقال « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا النبوة (٣) » ، فعُدل بعلى عن النبوة كما عدل بأبي بكر عن الخلة ، فشارك أبا بكر رضي الله عنه في الأخوة وزاد عليه بمقاربة الخلة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلة مجال ، فإنه نبه عليه بقوله « لاتخذت أبا بكر خليلًا ، وكان صلى الله عليه وسلم حبيب الله و خليله ، وقد روى أنه صعد المنبر يوما مستبشرا فرحا فقال « إن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ، فأنا حبيب الله وأنا خليل الله تعالى (٤) » ، فإذا ليس قبل

(١) حديث « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك .. الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وصححه .

الباب الثالث : في حقوق المسلم والرحم والجوار

(٢) حديث « لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدرى

(٣) حديث « على منى بمنزلة هارون من موسى إلا النبوة » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٤) حديث « ان الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا ... » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف ،

دون قوله « فأنا حبيب الله وأنا خليل الله »

المعرفة رابطة ولا بعد الخلّة درجة ، وما سواهما من الدرجات بينهما . وقد ذكرنا حق الصّحبة والأخوة ويدخل فيهما ما وراءهما من المحبة والخلّة ، وإنما تتفاوت الرتب في تلك الحقوق كما سبق بحسب تفاوت المحبة والأخوة ، حتى ينتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنفس والمال ، كما أثر أبو بكر رضي الله عنه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكما أثره طلحة بيده إذ جعل نفسه وقاية لشخصه العزيز صلى الله عليه وسلم ، فنحن الآن نريد أن نذكر حق أخوة الإسلام وحق الرحم وحق الوالدين ، وحق الجوار ، وحق الملك - أعني ملك اليمين - فإن ملك النكاح قد ذكرنا حقوقه في كتاب آداب النكاح .

حقوق المسلم

هي : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتحييه إذا دعاك ، وتشمتة إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ماتحب لنفسك وتكره له ماتكره لنفسك ^(١) ورد جميع ذلك في أخبار وآثار . وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من حق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمذنبهم وأن تحب تأثمهم » ^(٢) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى ﴿ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ قال : يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، فإذا نظر الطالح إلى الصالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبتته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم أهده وتب عليه واغفر له عثرته . ومنها أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائرُه بالحي والسهر » ^(٣) ، وروى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ^(٤) ، ومنها أن لا يؤذى أحدا من المسلمين بفعل ولا قول ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل : « فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » ^(٦) ، وقال أيضا : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم أتدرون من المسلم ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : من أئمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ، قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر السوء واجتنبه ^(٨) ، وقال رجل يارسول الله ما الإسلام

الأخبار الواردة في حقوق المسلم على المسلم

(١) هو أن يسلم عليه إذا لقيه فذكر عشر خصال . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، وإتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، ونشيت العاطس » وفي رواية لمسلم « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته تسلم عليه » وزاد « وإذا استنصحك فانصح له » وللترمذي وابن ماجه من حديث علي « للمسلم على المسلم ست » فذكر منها « ويحب له ما يحب لنفسه » وقال « وينصح له إذا غاب أو شهد » ولأحمد من حديث معاذ « وأن تحب للناس ماتحب لنفسك وتكره لهم ماتكره لنفسك » وفي الصحيحين من حديث البراء : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع فذكر منها « وإبرار القسم ونصر المظلوم » (٢) حديث أنس « أربع من حقوق المسلمين عليك : أن تعين محسنهم ، وأن تستغفر لمذنبهم ، وأن تدعو لمذنبهم وأن تحب تأثمهم » ذكره صاحب الفردوس ولم أجده لإسنادا (٣) حديث النعمان بن بشير « مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كمثل الجسد ... الحديث » متفق عليه (٤) حديث أبي موسى « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه

(٥) حديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

(٦) حديث « فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بها على نفسك » متفق عليه من حديث أبي ذر

(٧) حديث « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده » متفق عليه من حديث أبي موسى (٨) حديث « أتدرون من المسلم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الطبراني والحاكم وصححه من حديث

فضالة بن عبيد « ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أئمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمجاهد من

قال : أن يسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ، وقال مجاهد : يسلم على أهل النار الجرب فيحتكون حتى يبدو عظم أحدهم من جلده ، فينادى : يا فلان : هل يؤذيك هذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : هذا بما كنت تؤذى المؤمنين . وقال صلى الله عليه وسلم : لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين ^(١) ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه ؟ يارسول الله ، علمني شيئا أنتفع به . قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخيه بنظرة تؤذيه ، وقال : لا يحل لمسلم أن يرقع مسلما ^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يكره أذى المؤمنين ^(٥) ، وقال الربيع ابن خثيم : الناس رجلان ، مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله . ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ^(٦) ، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وعن ابن أبي أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ^(٧) ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة قتات ^(٨) ، وقال الخليل بن أحمد : من نم لك نم عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك . ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب الأنصاري : قال صلى الله عليه وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام ^(٩) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة ^(١٠) ، قال عكرمة قال الله تعالى ليوسف بن يعقوب ، بعفوك عن إخوانك رفعت ذكرك في الدارين . قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله ^(١١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلة إلا زاده الله بها عزا . وقال

= جاهد نفسه في طاعة الله ، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب ، ورواه ابن ماجه مقتصرا على « المؤمن والمهاجر » وللحاكم من حديث أنس وقال : على شرط مسلم ، والمهاجر من هجر السوء ؛ ولأحمد بإسناد صحيح من حديث عمر بن عبسة : قال رجل يارسول الله ما الاسلام ؟ قال : أن تسلم قلبك لله ويسلم المسلمون من لسانك ويدك ^(١) . حديث « لقد رأيت رجلا في الجنة يتقلب في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ^(٢) . حديث أبي هريرة : يارسول الله ، علمني شيئا أنتفع به ، قال : اعزل الأذى عن طريق المسلمين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال : قلت ياني الله . . . فذكره ^(٣) . حديث « من زحزح عن طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له بها حسنة ، ومن كتب الله له حسنة أوجب له بها الجنة » رواه أحمد من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ^(٤) . حديث « لا يحل لمسلم أن ينظر إلى أخيه بنظر يؤذيه » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية حمزة بن عبيد مرسل بسند ضعيف ، وفي البر والصلة له من زيادات الحسين المروزي حمزة بن عبد الله بن أبي سمى وهو الصواب ^(٥) . حديث « إن الله تعالى يكره أذى المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في الزهد من رواية عكرمة بن خالد مرسل بإسناد جيد ^(٦) . حديث « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له من حديث عياض بن جاز ورجاله رجال الصحيح ^(٧) . حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، أخرجه النسائي بإسناد صحيح ، والحاكم وقال : على شرط الشيخين .

(٨) حديث « لا يدخل الجنة قتات » متفق عليه من حديث أبي أيوب ^(٩) « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. الحديث » متفق عليه ^(١٠) . حديث « من أقال مسلما عشرته أقاله الله يوم القيامة » أخرجه أبو داود والحاكم ، وقد تقدم ^(١١) . حديث عائشة : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط ، إلا أن تصاب حرمة الله فينتقم لله . متفق عليه بلفظ : إلا أن تنتهك .

صلى الله عليه وسلم « مانقص مال من صدقة وما زاد الله رجلا بعفو لإعزاً ومامن أحد تواضع لله إلا رفعه الله »^(١) ، ومنها أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم ما استطاع لايميز بين الأهل وغير الأهل . روى علي بن الحسين على أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله »^(٢) ، وعنه بإسناده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر »^(٣) ، قال أبو هريرة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركة جليسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه »^(٤) ، ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاستئذان ثلاث فإولى يستصتتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون »^(٥) ، ومنها أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب طريقته فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمر بالفقه والعبي بالبيان آذى وتأذى . ومنها أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لإجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم »^(٧) ، ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم فقال صلى الله عليه وسلم : مه فأين الكبير »^(٨) ؟ ، وفى الخبر « ما وقر شاب شيخاً إلا تبيض الله له فى سنة من يوقره »^(٩) ، وهذه بشارة بدوام الحياة فليتنبه لها فلا يوفق لتوقير المشايخ إلا من قضى الله له بطول العمر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً وتفيض اللثام فيضاً وتفيض الكرام غيظاً ويحترئ الصغير على الكبير والشم على الكريم »^(١٠) ، « والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(١١) . « كان صلى الله عليه وسلم يقدم من السفر فيلتقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه

(١) حديث « مانقص مال من صدقة ، وما زاد الله رجلاً بعفو لإعزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « اصنع المعروف إلى أهله ، فإن لم تصب أهله فأنت أهله » ذكره الدارقطني فى العلل وهو ضعيف ، ورواه القضاعى فى مسند الشباب من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلًا بسند ضعيف (٣) حديث علي بن الحسين عن أبيه عن جده « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، والخطابى فى تاريخ الطالبين ، وعند أبو نعيم فى الحلية دون قوله « واصطناع ... » إلى آخره . وقال الطبرانى « التحجب » (٤) حديث أبي هريرة : « كان لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها ... الحديث » أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن . ولأبى داود والترمذى وابن ماجه نحوه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث أبي هريرة « الاستئذان ثلاث ! فالأولى يستصتتون ، والثانية يستصلحون ، والثالثة يأذنون أو يردون » أخرجه الدارقطني فى الأفراد بسند ضعيف . وفى الصحيحين من حديث أبي موسى « الاستئذان ثلاث ؟ فإن أذن لك وإلا فارجع . » (٦) حديث جابر « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف ، وهو عند أبى داود ، والبخارى فى الأدب من حديث عبد الله بن عمرو بسند حسن (٧) حديث « من لإجلال الله لإكرام ذى الشبهة المسلم » أخرجه أبو داود من حديث أبي موسى الأشعرى بإسناد حسن (٨) حديث جابر : « قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام غلام ليتكلم ، فقال صلى الله عليه وسلم « مه فأين الكبير ؟ » أخرجه الحاكم وصححه (٩) حديث « ما وقر شاب شيخاً إلا تبيض الله له فى سنة من يوقره » وفى بعض النسخ حسن ، وفيه أبو الرجال وهو ضعيف (١٠) حديث « لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظاً والمطر قيظاً ... الحديث » رواه الحرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبرانى من حديث ابن مسعود . وإسنادهما ضعيف (١١) حديث التلطف بالصبيان أخرجه البزار من حديث أنس : « كان من أفسكه الناس مع صبي ، وقد تقدم فى النكاح . وفى الصحيحين « يا أبا عمير ما فذل النير » وغير ذلك

ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم^(١) ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حلتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه وحملك أنت وراه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراهم ، وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه أثلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده^(٢) ، ومنها أن يكون مع كافة الخلق مستبشرا طلق الوجه رفيقا . قال صلى الله عليه وسلم : أتدرون على من حرم النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : على اللين الهين السهل القريب^(٣) ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب السهل الطلق الوجه^(٤) ، وقال بعضهم : يا رسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، فقال : إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام^(٥) ، وقال عبد الله بن عمر : إن البر شيء هين ؛ وجه طليق وكلام لين وقال صلى الله عليه وسلم : اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن فى الجنة لغرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ؛ فقال أعرابي : لمن هى يا رسول الله ؟ قال لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام^(٧) ، وقال معاذ بن جبل : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح^(٨) ، وقال أنس رضى الله عنه : عرضت لنبي الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت : لى معك حاجة ؛ وكان معه ناس من أصحابه ، فقال : اجلسى فى أى نواحي السكك شئت أجلس إليك ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها^(٩) ، وقال وهب بن منبه : إن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين سنة يفطر فى كل سبعة أيام ، فسأل الله تعالى أنه يريه كيف يغوى الشيطان الناس ؟ فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال : لو اطلعت على خطيئتي وذنبى

(١) حديث : كان يقدم من السفر فتتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمرهم برفعون إليه ... الحديث . رواه مسلم من حديث عبد الله بن جعفر : كان إذا قدم من سفر تلقى بآ . قال : فيلقى بنى وبالحسن ، وقال : لحمل أحدنا بين يديه والآخر خلفه وفى رواية : تلقى بصبيان أهل بيته وأنه قدم من سفر فسبق بنى إليه لحمل بين يديه ثم جرى بأحد ابني فاطمة فأردف خلفه . وفى الصحيحين أن عبد الله بن جعفر قال لابن الزبير : أتذكر إذ تلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأنت وابن عباس ؟ قال : نعم لحملنا وتركك ، لفظ مسلم . وقال البخارى : إن ابن الزبير قال لابن جعفر ، فأنه أعلم (٢) حديث : كان يؤتى بالصبي الصغير ليدعوه بالبركة ويسميه فيأخذه ويضعه فى حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من رآه . الحديث . رواه مسلم من حديث عائشة كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحسبهم فأتى بصبي فبال عليه فدعا بماء فأبعه بوله ولم ينسله . وأصله متفق عليه . وفى رواية لأحمد : فيدعو لهم ، وفيه « صبوا عليه الماء صبا وللدارقة طنى : بال ابن الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذه أخذ عنيقا ... الحديث ، وفيه الحجاج بن أرطاة ضعيف ولأحمد بن منيع من حديث حسن بن على عن امرأة منهم : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستلقيا على ظهره يلعب صبيا إذ بال ، فقامت لتأخذه وتضربه فقال : « دعيه ، انتوى بكوز من ماء ... الحديث » وإسناده صحيح (٣) حديث « أتدرون على من حرم النار ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال على الهين اللين السهل القريب » أخرجه الترمذى من حديث ابن مسعود ولم يقل « اللين » وذكرها الخرائطى من رواية محمد بن أبى معيقب عن أمه قال الترمذى حسن غريب

(٤) حديث أبى هريرة « إن الله يحب السهل الطلق » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان بسند ضعيف ورواه من رواية موري العجلي مرسل (٥) حديث « إن من واجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » أخرجه ابن أبى شبة فى مصنفه والطبرانى والخرائطى فى مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث هانى بن يزيد بإسناد جيد (٦) حديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... الحديث » متفق عليه من حديث عدى بن حاتم وتقدم فى الزكاة (٧) حديث « إن فى الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث على وقال حديث غريب . قلت وهو ضعيف (٨) حديث « ما أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى كتاب الزهد وأبو نعيم فى الحلية ولم يقل البيهقى « وخفض الجناح » وإسناده ضعيف (٩) حديث أنس « عرضت لرسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وقالت لى معك حاجة فقال اجلسى فى أى نواحي السكك شئت أجلس إليك ... الحديث » رواه مسلم

يبنى وبين ربى لكان خيرا الى من هذا الامر الذى طلبته ، فأرسل الله إليه ملكا فقال له : إن الله أرسلنى إليك وهو يقول لك : إن كلامك هذا الذى تسكمت به أحب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد فتح الله بصرك فانظر ، فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض وإذا ليس أحد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب فقال : أى رب من ينجو من هذا ؟ قال : الورع اللين . ومنها أن لا يعدم مسلما بوعده إلا ويبنى به قال صلى الله عليه وسلم « العدة عطية ^(١) » ، وقال « العدة دين ^(٢) » ، وقال « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ^(٣) » ، وقال « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى ^(٤) » ، وذكر ذلك ومنها أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتى إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام ^(٥) » ، وقال عليه السلام « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنا وأحب للناس ما نحب لنفسك تكن مسلما ^(٧) » ، قال الحسن : أوحى الله تعالى إلى آدم صلى الله عليه وسلم بأربع خصال وقال : فيهن جماع الأمر لك ولولدك ، واحدة لى واحدة لك وواحدة بينى وبينك وواحدة بينك والخلق ، فأما التى لى : تعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك : فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه ، وأما التى بينى وبينك : فعليك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين الناس فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به وسأل موسى عليه السلام الله تعالى فقال : أى رب أى عبادك أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه . ومنها أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم . روى أن عائشة رضى الله عنها كانت فى سفر فنزلت منزلا فوضعت طعامها ، فجاء سائل فقالت عائشة : ناولوا هذا المسكين قرصا ، ثم مر رجل على دابة فقالت : ادعوه إلى الطعام . فقيل لها : تعطين المسكين وتدعين هذا الغنى ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لا بد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل ، هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطى هذا الغنى على هذه الهيئة قرصا . وروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غص المجلس وامتلأ ؛ فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكانا فقعده على الباب فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضع على وجهه وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به إلى النبی صلى الله عليه وسلم وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ؛ أكرمك الله كما أكرمتنى ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم يمينا وشمالا ثم قال « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ^(٨) » ، وكذلك كل من له عليه حق قديم

(١) حديث « العدة عطية » أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث فبات بن أشيم بسند ضعيف (٢) حديث « العدة دين »

رواه الطبرانى فى معجميه الأوسط والأصغر من حديث على وابن مسعود بسند فيه جهالة ورواه أبو داود فى المراسيل

(٣) حديث « ثلاث فى المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

(٤) حديث « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى » رواه البخارى من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه ولفظ مسلم

« وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وهذا ليس فى البخارى

(٥) حديث « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام »

أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخارى عليه (٦) حديث « من سره أن يزحزح عن

النار فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » أخرجه مسلم من حديث

عبد الله بن عمرو بن العاص نحوه والخرائطى فى مكارم الأخلاق بلفظه (٧) حديث « يا أبا الدرداء أحسن مجاورة من جاورك

تسكن مؤمنا وأحب للناس ما نحب نفسك تسكن مسلما » أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق بسند ضعيف والمعروف أنه قاله

لأبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وفى أوله قصة فى قدوم جرير بن عبد الله أخرجه الحاكم

من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وتقدم فى الزكاة مختصرا .

فليكرمه . روى أن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها مرحبا بأبي ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها اشفعي تشفعي وسلي تعطى فقالت : قومي فقال : أما حق وحق بني هاشم فهو ذلك ؛ فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقتا يا رسول الله . ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بجنين ^(١) ، فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضى الله عنه بمائة ألف درهم ، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل ^(٢) ، ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلا . قال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا : بلى قال : إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين ^(٤) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذى أضحكك ؟ قال : رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذلى مظلتي من هذا ، فقال الله تعالى : رد على أخيك مظلته . فقال : يارب لم يبق لي من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ فقال : يارب فليحمل عني من أوزاري . ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال : فيقول الله تعالى - أى للمتظلم - ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ ولأى نبي هذا أو لأى صديق أو لأى شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن قال : يارب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال . بماذا يارب ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال : يارب قد عفوت عنه ، فيقول الله تعالى : خذ يد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة ^(٥) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ^(٦) ، وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكد منه قال صلى الله عليه وسلم : كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب ^(٧) . فإن الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها ، ومنها أن يستر عورات المسلمين كلهم قال صلى الله عليه وسلم ، من ستر على مسلم ستره الله

(١) حديث « مات ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه .. الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي الطفيل مختصرا في بسط ردائه لها دون ما بعده

(٢) حديث « نزع صلى الله عليه وسلم وسادته ووضعها تحت الذى يجلس إليه » أخرجه أحمد عن حديث ابن عمرو « أنه دخل عليه صلى الله عليه وسلم فألقى إليه وسادة من آدم حشوها ليف .. الحديث » وإسناده صحيح والطبراني من حديث سلمان « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على وسادة فألقاه إلى .. الحديث » وسنده ضعيف قال صاحب الميزان هذا خبر ساقط

(٣) حديث « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة » رواه أبو داود والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء (٤) حديث « أفضل الصدقة لإصلاح ذات البين » أخرجه الطبراني في الكبير والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ضعفه الجمهور .

(٥) حديث أنس « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه بأبي وأمي ما الذى أضحكك ؟ قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذلى مظلتي من هذا .. الحديث » أخرجه الخراطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال صحيح الإسناد وكذا أبو يعلى الموصلي أخرجه بطول وضعفه البخاري وابن حبان

(٦) حديث « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نعى خيرا » متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

(٧) حديث « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب .. الحديث » أخرجه الخراطي في مكارم الأخلاق من حديث النواس بن سميان وفيه انقطاع وضعف ولمسلم نحوه من حديث أم كلثوم بنت عقبة .

تعالى في الدنيا والآخرة ^(١) ، وقال « لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة ^(٢) » ، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى المؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم لما أخبره « لو سترته بثوبك كان خيرا لك ^(٤) » ، فإذا على المسلم أن يستر عورة نفسه بحق إسلامه واجب عليه بحق إسلام غيره . قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله . وروى أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : رأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال على رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، إذا أقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ماشاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مقالته الأولى ، فقال على رضي الله عنه : مثل مقالته الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان مترددا في أن الوالي هل له أن يقضى بعله في حدود الله ؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بإخباره ، ومال رأي على إلى أنه ليس له ذلك . وهذان أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أخفها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول - يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمروء في المكحلة - وهذا قط لا يتفق . وإن عليه القاضي تحقيقا لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات . ثم انظر إلى كيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ؟ فترجو أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر : ففي الحديث « إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى ^(٥) » ، وعن عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه قال : خرجت مع عمر رضي الله عنه ليلة في المدينة فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولخط فأخذ عمر بيدي وقال : أتدرى بيت من هذا ؟ قلت : لا ، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فسا ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر رضي الله عنه وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاوية « إنك إن تتبع عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم ^(٦) » ، وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع عورة الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته ^(٧) » ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لو رأيت أحدا على حد من حدود الله تعالى

(١) حديث « من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وللشيعين من حديث ابن عمر من ستر مسلما ستره الله يوم القيامة (٢) حديث « لا يستر عبد عبدا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضا (٣) حديث أبي سعيد الخدري « لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة » رواه الطبراني في الأوسط والصغير والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له بسند ضعيف (٤) حديث « لو سترته بثوبك كان خيرا لك » رواه أبو داود والنسائي من حديث نعيم بن هزال والحاكم من حديث هزال نفسه وقال صحيح الإسناد ونعم مختلف في صحته (٥) حديث « لمن الله إذا ستر على عبده عورة في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفه في الآخرة .. الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث علي « من أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فأنه أكرم من أن يرجع في شيء قديم عنه ومن أذنب ذنبا في الدنيا فموجب عليه فأنه أهدل من أن يثنى العقوبة على عبده » أفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولمسلم من حديث أبي هريرة « لا ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره يوم القيامة » (٦) حديث « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم » قاله لمعاوية أخرجه أبو داود بأسناد صحيح من حديث معاوية (٧) حديث « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم .. الحديث » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بأسناد جيد وللترمذي من حديث ابن عمر وحسنه .

مأخذته ولا دعوت له أحدا حتى يكون معنى غيرى . وقال بعضهم : كنت قاعدا مع عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إذ جاءه رجل بآخر ، فقال : هذا نشوان ، فقال عبدالله بن مسعود : استنكوهه فاستنكوهه فوجدته نشوانا فحبسه حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد : اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده وعليه قباء أو مرط : فلما فرغ قال للذى جاء به : ما أنت منه ؟ قال : عمه ، قال عبدالله : ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة لأنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ ثم قال : إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : وما يمنعني ! لا تكفروا عونا للشياطين على أخيكم ؟ فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه إن الله عفو يحب العفو وقرأ ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) ، وفي رواية فكأنما سنى في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد لشدة غيظه وروى أن عمر رضى الله عنه كان يحس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل في بيت يتغنى فتسور عليه فوجدته عنده امرأة وعنده خمر ، فقال : يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على مصيئته ؟ فقال : وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإن كنت قد عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاثا قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست وقال الله تعالى ﴿ وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقد تسورت على وقد قال الله تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ﴾ الآية وقد دخلت بيتي بغير إذن ولا سلام ، فقال عمر رضى الله عنه . هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عنى لأعود إلى مثلها أبدا فعفا عنه وخرج وتركه . وقال رجل لعبدالله بن عمر . يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في التجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول : إن الله ليدنى منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول : نعم يارب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له : يا عبدى إني لم أسترها عليك في الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون ﴿ فتقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) وقال صلى الله عليه وسلم : كل أمتى معافى إلا المجاهرين (٣) ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل سوءا سرا ثم يخبر به وقال صلى الله عليه وسلم : من استمع خبر قوم وهو له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة (٤) ، ومنها أن يتقى مواضع أتهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولا لستهم عن العيبة فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكا قال الله تعالى ﴿ ولا نسبوا الذى يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم : كيف ترون من يسب أبويه فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : نعم يسب أبوى غيره فيسبون أبويه (٥) ، وقد روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نسائه فتر به رجل فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا فلان هذه زوجتى صفية فقال :

(١) حديث ابن مسعود : « إني لأذكر أول رجل قطعه النبي صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطعه فكأنما أسف وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرأ على في مكارم الأخلاق : فكأنما سنى في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رماد ... الحديث (٢) حديث ابن عمر : « إن الله عز وجل ليدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول أتعرف ذنب كذا ... الحديث عليه (٣) حديث : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث : « من استمع من قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الآنك يوم القيامة » رواه البخارى من حديث ابن عباس مرفوعا وموقوفا عليه وعلى أبي هريرة أيضا . (٥) حديث : « كيف ترون من سب أبويه فقالوا وهل من أحد يسب أبويه ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو نحوه .

يارسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ^(١) ، وزاد في رواية : إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفة ^(٢) ... الحديث ، وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان : وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء به الظن . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها امرأتى فقال : هلاحيث لا يراك أحد من الناس ؟ ومنها أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه قال صلى الله عليه وسلم : إني أوتي وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ويقضى الله على يدي نبيه ما أحب ^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشفعوا إلى لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخره كي تشفعوا إلى فتؤجروا ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان قيل وكيف ذلك ؟ قال : الشفاعة يحقن بها الدم وتجربها المنفعة إلى آخر ويدفع بها المكروه عن آخر ^(٤) ، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى انظر إليه خلفها وهو يبكي ودموعه تسيل على لحيته ، فقال صلى الله عليه وسلم للعباس : ألا تعجب من شدة حب مغيث لبريرة وشدة بغضها له ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لوراجعته فإنه أبو ولدك ، فقالت : يارسول الله أنا مرنى فافعل ؟ فقال : لا إنما أنا شافع ^(٥) ، ومنها أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام قال صلى الله عليه وسلم : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام ^(٦) ، وقال بعضهم : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل ^(٧) ، وروى جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته ^(٨) ، وقال أنس رضي الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي : يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك ^(٩) ، وقال أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسع وستون لأحسنهما بشرا . وقال تعالى ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال عليه السلام : والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا . بلى يارسول الله ،

(١) حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم إحدى نساءه فر به رجل فدعاه فقال يا فلان هذه زوجتي فلانة ... الحديث . وفيه : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . رواه مسلم . (٢) حديث : إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا وقال على رسلكما إنها صفة . متفق عليه من حديث صفة . (٣) حديث : إني أوتي وأسأل وتطلب إلى الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا لتؤجروا ... الحديث . متفق عليه من حديث أبي موسى نحوه . (٤) حديث : ما من صدقة أفضل من صدقة اللسان .. الحديث . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له في الكبير من حديث سمرة بن جندب ضعيف . (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس : أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كآنى انظر إليه خلفها يبكي ... الحديث . رواه البخاري . (٦) حديث : من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في اليوم واليلة واللفظ له من حديث ابن عمر بسند فيه لين . (٧) حديث : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال صلى الله عليه وسلم : ارجع فقل السلام عليكم أأدخل . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث كلدة بن الحنبل وهو صاحب القصة . (٨) حديث جابر : إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه ضعف .

(٩) حديث أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثمان حجج فقال لي : يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيته من أمتي تكثر حسناتك وإذا دخلت بيتك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وإسناده ضعيف والترمذي وصححه . إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك .

قال : أفشوا السلام بينكم ^(١) ، وقال أيضا : إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه ^(٣) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم واحد أجزأ عنهم ^(٤) ، وقال قنادة : كانت تحية من كان قسركم السجود فأعطى الله تعالى هذه الأمانة السلام وهي تحية أهل الجنة . وكان أبو مسلم الخولاني يمر على قوم فلا يسلم عليهم ويقول : ما يمنعني إلا أني أخشى أن لا يردوا فتلعنهم الملائكة . والمصاحفة أيضا سنة مع السلام وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فقال عليه السلام : عشر حسنات ، فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله فقال عشرون حسنة ، فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : ثلاثون ^(٥) ، وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٦) ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد ابن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية ^(٧) . فقال عليه السلام : لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه ^(٨) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تصالحوا أهل الذمة ولا تبدءوهم بالسلام فإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطرق .

قالت عائشة رضى الله عنها : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عليكم ، قالت عائشة رضى الله عنها : فقلت بل عليكم السلام واللعة فقال عليه السلام : يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء ، قالت عائشة : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : فقد قلت عليكم ^(٩) ، وقال عليه السلام : يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير ^(١٠) ، وقال عليه السلام : لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف ^(١١) ، قال أبو عيسى إسناده ضعيف .

وقال عليه السلام : إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست

(١) حديث « والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث « إذا سلم المسلم على المسلم فرد عليه صلت عليه الملائكة سبعين مرة » ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة ولم يسنده ولده في المسند (٣) حديث : الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم فلا يسلم عليه . لم أقبله على أصل (٤) حديث « يسلم الراكب على الماشي وإذا سلم من القوم أحد أجزأ عنهم » رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم مرسلًا ولأبي داود من حديث علي « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « يسلم الراكب على الماشي ... الحديث » وسيأتي في بقية الباب (٥) حديث : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال سلام عليك فقال صلى الله عليه وسلم : عشر حسنات ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عمران ابن حصين قال الترمذي حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن (٦) حديث أنس : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ورفعهم متفق عليه (٧) حديث عبد الحميد بن بهرام : أنه صلى الله عليه وسلم مر في المسجد يوما وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام وأشار عبد الحميد بيده أخرجه الترمذي من رواية عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وقال حسن وابن ماجه من رواية ابن أبي حنبل عن شهر ورواه أبو داود وقال أحمد لا بأس به (٨) حديث « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ... الحديث » رواه مسلم من حديث أبي هريرة

(٩) حديث عائشة : إن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليكم ... الحديث « متفق عليه (١٠) حديث « يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يقل مسلم « والصغير على الكبير » (١١) حديث « لا تشبهوا باليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالأكف » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال إسناده ضعيف

الأولى بأحق من الأخيرة^(١) ، وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المؤمنان فتصالحا قسمت بينهما سبعون مغفرة تسعة وستون لأحسنهما بشرا^(٢) » ، وقال عمر رضي الله عنه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا التقى المسلمان وسلم كل واحد منهما على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة للبادئ تسعون وللصافح عشرة^(٣) » ، وقال الحسن : المصافحة تزيد في الود . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمام تحياتكم المصافحة^(٤) » ، وقال عليه السلام « قبله المسلم أخاه المصافحة^(٥) » ، ولا بأس بقبلة يده المعظم في الدين تبركا به وتوقيرا له . وروى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم^(٦) ، وعن كعب بن مالك قال : لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده^(٧) ، وروى أن أعرابيا قال : يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال : فأذن له ففعل^(٨) ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصالحه وقبل يده وتنحيا يبكيان وعن البراء بن عازب رضي الله عنه : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومد يده إليه فصالحه فقال : يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المسلمين إذا التقيا فتصالحا تحاتت ذنوبهما^(٩) » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملا خير منهم وأطيب - أو قال وأفضل -^(١٠) » ، والانحناء عند السلام منهى عنه قال أنس رضي الله عنه : قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا لبعض ؟ قال « لا » ، قال : فيقبل بعضنا بعضا ؟ قال « لا » ، قال : فيصافح بعضنا بعضا ؟ قال « نعم^(١١) » ، والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر^(١٢) وقال أبو ذر رضي الله عنه : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ، وطلبتني يوما فلم أكن في البيت فلما أخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود^(١٣) .

(١) حديث « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بداله أن يجلس فليجالس » ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أنس « إذا التقى المسلمان فتصالحا قسمت بينهما سبعون رحمة .. الحديث » أخرجه الحرائطي بسند ضعيف والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « مائة رحمة وتسعون لأحسنهما وأطلقهما وأبرهما وأحسنهما مسألة لأخيه » وفيه الحسن بن كستير بن يحيى بن أبي كثير مجهول (٣) حديث عمر بن الخطاب « إذا التقى المسلمان فليسلم كل واحد على صاحبه وتصالحا نزلت بينهما مائة رحمة ... الحديث » أخرجه البزار في مسنده والحرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له والبيهقي في الشعب وفي إسناده نظر (٤) حديث أبي هريرة « تمام تحياتكم بينكم المصافحة » أخرجه الحرائطي في مكارم الأخلاق وهو عند الترمذي من حديث أبي أمامة وضعفه (٥) حديث « قبله المسلم أخاه المصافحة » أخرجه الحرائطي وابن عدى من حديث أنس وقال غير محفوظ (٦) حديث ابن عمر : قبلنا يد رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجه أبو داود بسند حسن (٧) حديث كعب بن مالك : « لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبلت يده » أخرجه أبو بكر بن المقرئ في كتاب الرخصة في تقبيل اليد . بسند ضعيف (٨) حديث : أن أعرابيا قال يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك فأذن له ففعل . أخرجه الحاكم من حديث بريدة لما أنه قال « رجلك » موضع « يدك » وقال صحيح الإسناد . (٩) حديث البراء بن عازب : أنه سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ومد يده إليه فصالحه .. الحديث . رواه الحرائطي بسند ضعيف وهو عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصرا « ما من مسلمين يلتقيان فيتصالحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » قال الترمذي حسن غريب من حديث أبي إسحق عن البراء (١٠) حديث « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملا خير منهم وأطيب » أخرجه الحرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعا وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفا عليه بسند صحيح (١١) حديث أنس : قلنا يا رسول الله أينحنى بعضنا بعض ؟ قال « لا » الحديث . أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه أحمد والبيهقي (١٢) حديث : « الالتزام والتقبيل عند القدوم من السفر » أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت : قدم زيد بن حارثة ... الحديث « وفيه » فاعتنقه وقبله » وقال حسن غريب (١٣) حديث أبي ذر : ما لقيته صلى الله عليه وسلم إلا صافحي ... الحديث . أخرجه أبو داود وفيه رجل من عزة لم يسم وسماء البيهقي في الشعب عبد الله

والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر فعل ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت ^(١) وأخذ عمر يفرز زيد حتى رفعه وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام قال أنس : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك ^(٢) وروى أنه عليه السلام قال مرة : « إذا رأيتموني فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم » ^(٣) ، وقال عليه السلام : من سره أن يمثل له الرجال قياما فليستبوا مقعده من النار ^(٤) ، وقال عليه السلام : لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا ^(٥) ، وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته فإنما هي كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فليتنظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه » ^(٦) ، وروى أنه سلم رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب ^(٧) فيكره السلام على من يقضى حاجته ، ويكره أن يقول ابتداء : عليك السلام ، فإنه قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : « إن عليك السلام تحية الموتى ، قالها ثلاثا ، ثم قال : « إذا لقي أحدكم أخاه فليقل السلام عليكم ورحمة الله » ^(٨) ، ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلسا أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبا ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحميا فاستحميا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه » ^(٩) ، وقال صلى الله عليه وسلم : ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا ^(١٠) ، وسليت أم هاني* على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من هذه ؟ ، فقيل له : أم هاني* فقال عليه السلام : « مرحبا بأم هاني* » ^(١١) .

ومنها أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء : أن رجلا نال من رجل - ند رسول الله صلى الله عليه وسلم -

(١) حديث : أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت . تقدم في العلم

(٢) حديث أنس : ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك . أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح . (٣) حديث : « إذا رأيتموني فلا تقوموا كما يصنع الأعاجم » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة وقال « كما يقوم الأعاجم » وفيه أبو الدرداء مجهول (٤) حديث : من سره أن يمثل له الرجال قياما فليستبوا مقعده من النار . أخرجه أبو داود والترمذى من حديث معاوية وقال حسن

(٥) حديث : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا » متفق عليه من حديث ابن عمر

(٦) حديث : « إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا رجل أخاه فأوسع - يعني له - فليجلس فإنه كرامة من الله عز وجل ... الحديث » أخرجه البهقي في معجم الصحابة من حديث ابن شبة ورجاله ثقات وابن شبة هذا ذكره أبو موسى المديني في ذيله في الصحابة وقد رواه الطبراني في الكبير من رواية مصعب بن شبة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أخضر منه ، وشيبة بن جبيرة والدمصور ليست له حجة (٧) حديث : أن رجلا سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول فلم يجب . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر بلفظ : فلم يرد عليه (٨) حديث : قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليك السلام فقال « إن عليك السلام تحية الميت ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائي في اليوم واللييلة من حديث ابن جري الهجيمي وهو صاحب القصة قال الترمذى حسن صحيح (٩) حديث : كان صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها .. الحديث . متفق عليه من حديث أبي واقد الليثي

(١٠) حديث : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث البراء بن عازب (١١) حديث : سالت أم هاني* عليه فقال « مرحبا بأم هاني* » أخرجه مسلم من حديث أم هاني*

عليه وسلم فرد عنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »^(٢) ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره أذله الله بها في الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة »^(٣) ، وقال عليه السلام « من حرم عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله تعالى له ملكا يحميه يوم القيامة من النار »^(٤) ، وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضع ينتهك فيه عرصه ويستحل حرمة إلا أنصره الله في موطن يحب فيه نصره وما من امرئ خذل مسلما في موطن ينتهك فيه حرمة إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته »^(٥) .

ومنها تسميت العاطس . قال عليه الصلاة والسلام في العاطس « يقول . الحمد لله على كل حال ، ويقول الذي يشمته : يرحمك الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح بالكم »^(٦) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا يقول « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين ، فإذا قال ذلك فليقل من عنده : يرحمك الله فإذا قالوا ذلك فليقل : يغفر الله لي ولكم »^(٧) ، وسمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام »^(٩) . وروى أنه شمت عاطسا ثلاثا فعطس أخرى فقال « إنك مزكوم »^(١٠) ، وقال أبو هريرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عطس غضض صوته واستتر بثوبه أو يده »^(١١) . وروى : خمر وجهه . وقال أبو موسى الأشعري : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمك الله فكان يقول « يهديكم الله »^(١٢) . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقال : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال ،

(١) حديث أبي الدرداء « من رد عن عرض أخيه كان له حجابا من النار » أخرجه الترمذي وحسنه (٢) حديث « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » أخرجه أحمد من حديث أسماء بنت يزيد بنحوه والخراطي في مكارم الأخلاق وهو عند الطبراني بهذا اللفظ من حديث أبي الدرداء وفيهما شهر بن حوشب (٣) حديث أنس « من ذكر عنده أخوه المسلم وهو يستطيع نصره فلم ينصره ولو بكلمة أذله الله عز وجل بها في الدنيا والآخرة ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت مقتصرًا على ما ذكره سنة وإسناده ضعيف

(٤) حديث « من حرم عن عرض أخيه المسلم في الدنيا بعث الله له ملكا يحميه يوم القيامة من النار » أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أنس بنحوه بسند ضعيف (٥) حديث جابر وأبي طلحة « ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه فلم ينصره أذله الله بها في الدنيا والآخرة ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره نصره الله تعالى في الدنيا والآخرة » أخرجه أبو داود مع تقديم وتأخير واختلف في إسناده (٦) حديث « يقول العاطس الحمد لله على كل حال ويقول الذي يشمت يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم » أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أبي هريرة ولم يقل البخاري « على كل حال » (٧) حديث أبي مسعود « إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله رب العالمين .. الحديث » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وقال حديث منكر ورواه أيضا أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله واختلف في إسناده

(٨) حديث : شمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عاطسا ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال « إنه حمد الله وأنت سكت » متفق عليه من حديث أنس (٩) حديث « شمتوا المسلم إذا عطس ثلاثا فإن زاد فهو زكام » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة « شمت أخاك ثلاثا ... الحديث » وإسناده جيد (١٠) حديث : أنه شمت عاطسا فعطس أخرى فقال « إنك مزكوم » أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١١) حديث أبي هريرة : كان إذا عطس غضض صوته وستر بثوبه أو يده . أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة « خمر وجهه وقام » (١٢) حديث أبي موسى : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يقول يرحمك الله فكان يقول « يهديكم الله » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

فلما سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال : من صاحب الكلمات ؟ فقال : أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيرا ، فقال لقد رأيت اثني عشر ملكا كلهم يبتدرونها أيهم يكتبها ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من عطس نده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته ^(٢) ، وقال عليه السلام : العطاس من الله والثائب من الشيطان فإذا ثاب أحدكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : هاها ، فإن الشيطان يضحك من جوفه ^(٣) ، وقال إبراهيم النخعي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله في نفسه . وقال كعب : قال موسى عليه السلام يارب أقرب أنت فأناجيك أم بعيد فأناذك ؟ فقال : أنا جليس من ذكرني فقال : فإذا تكون على حال نجلك أن نذكرك عليها كالجنة والغائط ، فقال : اذكرني على كل حال .

ومنها أنه إذا بلى بذي شر فينبغي أن يتحملة ويتقيه قال بعضهم : خالص المؤمن خالصة وغالقي الفاجر مخالفة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء : لنا لبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره قال الله تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة ﴾ قال ابن عباس في معنى قوله ﴿ ويدبرون بالحسنة السيئة ﴾ أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقال في قوله تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ قال بالرغبة والرغبة والحياء والمداراة . وقالت عائشة رضى الله عنها : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ، فلما دخل ألان له القول حتى أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له ، لما دخل قلت الذي قلت ، ثم ألتفت له القول فقال : يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء خشفه ^(٤) ، وفي الخبر : ما وقى الرجل به عرضه فهو له صدقة ^(٥) .

وفي الأثر . خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا .

ومنها أن يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم أحيى مسكينا وأمتى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين ^(٦) ، وقال كعب الأحبار . كان سليمان عليه السلام فى ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس إليه وقال : مسكين جالس مسكينا . وقيل ما كان من كلفة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له يامسكين . وقال كعب الأحبار : ما فى القرآن من ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فهو فى التوراة يا أيها المساكين ، وقال عبادة بن الصامت . إن للنار سبعة أبواب ثلاثة للأغنياء وثلاثة للنساء وواحد للفقراء والمساكين وقال الفضيل : بلغنى أن نبيا من الأنبياء قال : يارب كيف لى أن أعلم رضاك عني ؟ فقال . انظر كيف رضا المساكين عنك . وقال عليه الصلاة والسلام : إياكم ومجالسة الموتى ، قيل ومن الموتى يا رسول الله ؟ قال : الأغنياء ^(٧) ، وقال موسى : إلهى أين أبغيتك ؟ قال عند المكسرة قلوبهم . وقال صلى الله عليه وسلم ، لا تقبطن فاجرا

(١) حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة : ان رجلا عطس خلف النبي صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقال الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ... الحديث « أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه وإسناده جيد
(٢) حديث « من عطس عنده فسبق إلى الحمد لم يشتك خاصرته » أخرجه الطبراني فى الأوسط وفى الدعاء من حديث على بسند ضعيف
(٣) حديث « العطاس من الله والثائب من الشيطان ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله « العطاس من الله » فرواه الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وقال البخارى : لأن الله يحب العطاس ويكره التثائب ... الحديث
(٤) حديث عائشة : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ... الحديث » متفق عليه
(٥) حديث « ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة » أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث جابر وضعفه
(٦) حديث « اللهم أحيى مسكينا وأمتى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس سعيد والترمذى من حديث عائشة وقال غريب
(٧) حديث « إياكم ومجالسة الموتى قيل وما الموتى ؟ قال الأغنياء » أخرجه الترمذى وضعفه والحاكم وصححه وإسناده من حديث عائشة « إياكم ومجالسة الأغنياء »

بنعمة فإنك لا تدري إلى ما يصير بعد الموت فإن من ورائه طالبا حثيثا^(١) ، وأما اليتيم فقال صلى الله عليه وسلم « من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبتة »^(٢) ، وقال عليه السلام « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وهو يشير بأصبعيه »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تميز عليها يده حسنة »^(٤) ، وقال صلى الله عليه وسلم « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »^(٥) .

ومنها النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه »^(٦) وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئا فليمسحه عنه »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من قضى حاجة لأخيه فكأنما خدم الله عمره »^(٨) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين »^(٩) ، وقال عليه السلام « من فرج عن مؤمن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة »^(١٠) ، وقال صلى الله عليه وسلم « النصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فقليل كيف ينصره ظالما ؟ قال « يمنع من الظلم »^(١١) ، وقال عليه السلام « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن أو أن يفرج عنه غما أو يقضى عنه دين أو يطعمه من جوع »^(١٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من حمى مؤمنا من منافق يعتنه بعث الله إليه ملكا يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر لعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من البر الإيمان بالله والنفع لعباد الله »^(١٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم »^(١٤) ، وقال معروف الكرخي ، من قال كل يوم ، اللهم أرحم أمة محمد كتبته الله من الأبدال - وفي رواية

(١) حديث « لا تنبطن فاجرا بنعمة ... الحديث » رواه البخاري في التاريخ والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٢) حديث « من ضم يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنة ألبتة » أخرجه أحمد والطبراني من حديث مالك بن عمر وفيه على بن زيد بن جندب متسكلم فيه (٣) حديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد ومسلم من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تميز عليها يده حسنة » أخرجه أحمد والطبراني بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة دون قوله « ترحما » ولابن حبان في الضعفاء من حديث ابن أبي أوفى « من مسح يده على رأس يتيم رحمه له ... الحديث » (٥) حديث « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة وفيه ضعف (٦) حديث « المؤمن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه » تقدم بلفظ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ولم أره بهذا اللفظ . (٧) حديث « إن أحدكم مرآة أخيه .. الحديث » رواه أبو داود والترمذي وقد تقدم . (٨) حديث « من قضى لأخيه حاجة فكأنما خدم الله عمره » أخرجه البخاري في التاريخ والطبراني والخراطي كلاهما في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف مرسل . (٩) حديث « من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار قضاها أولم يقضها كان خيرا له من اعتكاف شهرين » أخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن عباس « لأن يمشى أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته - وأشار بأصبعه - أفضل من أن يعتكف في مسجد هذا شهرين » والطبراني في الأوسط « من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكافه عشرين » وكلاهما ضعيف . (١٠) حديث « من فرج عن مغموم أو أعان مظلوما غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة » أخرجه الخراطي في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وابن عدي من حديث أنس بلفظ « من أغاث مظلوما » (١١) حديث « النصر أخاك ظالما أو مظلوما ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

(١٢) حديث « إن من أحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المؤمن .. الحديث » أخرجه الطبراني في المعجم والأوسط من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (١٣) حديث « خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر الشرك بالله والضرر بعباد الله ... الحديث » ذكره صاحب الزردوس من حديث علي ولم يستدله ولده في مسنده . (١٤) حديث « من لم يهتم للمسلمين فليس منهم » أخرجه الحاكم من حديث حذيفة والطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر وكلاهما ضعيف .

أخرى - اللهم أصلح أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد - كل يوم ثلاث مرات - كتبته الله من الأبدال ، وبكى على بن الفضيل يوماً فقل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله تعالى وسئل عن ظله ولم تمكن له حجة .

ومنها أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب العائدخفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وفض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : من ؟ ولا يقول ، يا غلام ، ولكن يحمد ويسبح وقال صلى الله عليه وسلم ، تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو وتمايم تحياتكم المصافحة ، وقال صلى الله عليه وسلم « من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة حتى إذا قام وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل ^(١) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه ^(٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم ، إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبأت منزلاً في الجنة ^(٣) » ، وقال عليه السلام « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظرا ماذا يقول لعواده ؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعنا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدي على إن توفيته إن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحه ودماً خيراً من دمه وإن أكفر عنه سيئاته ^(٤) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يصب منه ^(٥) » ، وقال عثمان رضي الله عنه مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيدك بالله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شرماتج ، قالها مراراً ^(٦) » ودخل صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مريض فقال له « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خروجاً من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطي إحداهن ^(٧) » ، ويستحب للعليل أيضاً أن يقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر . وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا شكأ أحدكم بطنه فليسأل امرأته شيئاً من صداقها ويشترى به عسلاً ويشربه بماء السماء فيجتمع له الهنيء والمرى والشفاء

(١) حديث « من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن والحاكم من حديث علي « من أتى أخاه المسلم عائداً مضى في خرافة الجنة حتى يجلس فإذا جلس عمرته الرحمة فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن كان مساء ... الحديث » لفظ ابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي والمسلم من حديث ثوبان « من عاد مريضاً لم يزل في خرافة الجنة » . (٢) حديث « إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث جابر وقال « انفس فيها » قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر ، وذكره مالك في الموطأ بلافاً بلفظ « قرت فيه » ورواه الواقدي بلفظ « استقر فيها » وللطبراني في المعجم من حديث أنس « فإذا قعد عنده غمرته الرحمة » وله في الأوسط من حديث كعب بن مالك ومحمرو بن حزم « استنقع فيها » . (٣) حديث « إذا عاد المسلم أخاه أو زاره قال الله تعالى طبت وطاب ممشاك وتبأت منزلاً في الجنة » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة لا أنه قال « ناداه مناد » قال الترمذي غريب قلت فيه عيسى بن سنان القسلي ضعفه الجمهور . (٤) حديث « إذا مرض العبد بعث الله تعالى ملكين فقال انظرا ماذا يقول لعواده الحديث » أخرجه مالك في الموطأ ومرسل من حديث عطاء بن يسار ووصله ابن عبد البر في التمهيد من روايته عن أبي سعيد الخدري وفيه عباد بن كشير الثقفي ضعيف الحديث والبيهقي من حديث أبي هريرة قال الله تعالى « إذا ابتليت عبدي المؤمن فم يشكني إلى عواده أطلقته من أسارى ثم أبدله لحماً خيراً من لحه ودماً خيراً من دمه ثم يستأنف العمل » ولمسأله جيد : (٥) حديث « من يرد الله به خيراً يصب منه » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٦) حديث عثمان : مرضت فعادني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بسم الله الرحمن الرحيم أعيدك بالله الواحد الصمد ... الحديث » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة والطبراني والبيهقي في الأدعية من حديث عثمان بن عفان بإسناد حسن . (٧) حديث : دخل على علي وهو مريض فقال « قل اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أنس بسند ضعيف : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يشتكي ولم يسم علياً . وروى البيهقي في الدعوات من حديث عائشة : أن جبريل علمها للنبي صلى الله عليه وسلم وقال إن الله يأمرك أن تدمو بهؤلاء الكلمات .

والمبارك . وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار ، قلت : بلى يا رسول الله قال : يقول لا إله إلا الله يحيى ويميت وهو حي لا يموت سبحان الله رب العباد والبلاد والحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال . الله أكبر كبيرا إن كبرياء ربنا وجلاله وقدرته بكل مكان . اللهم إن أنت أمرضتنى لتقبض روحي في مرضى هذا فاجعل روحي في أرواح من سبقت لهم منك الحسنى وباعدنى من النار كما باعدت أوليائك الذين سبقت لهم منك الحسنى ^(١) ، وروى أنه قال عليه السلام : عيادة المريض بعد ثلاث فراق ناقة ^(٢) ، وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : عيادة المريض مرة سنة فما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث . وقال عليه السلام : أغبوا في العيادة وأربعوا فيها ^(٣) ، وجملة أدب المريض حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر والفرع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء ..

ومنها أن يشيع جنازتهم قال صلى الله عليه وسلم ، من شيع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان ^(٤) ، وفي الخبر : القيراط مثل أحد ^(٥) ، ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن في قرارات كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإننا راحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وخرج مالك بن دينار خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقتر عيني حتى أعلم إلى ما صرت ولا والله لا أعلم مادمت حيا . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلاندرى لمن نعزى لحزن القوم كلهم ؟ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق ، وخوف الخاتمة قد أمن . وقال صلى الله عليه وسلم : يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله ^(٦) .

ومنها أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال صلى الله عليه وسلم ، ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه ^(٧) ، وقال عمر رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقنى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكى وبكى ، فقال : ما يبكيكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك . قال : هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى على فأدركني ما يدرك الولد من الرقة ^(٨) ، وكان عمر رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبطل لحيته ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد ^(٩) وقال مجاهد . أول

(١) حديث أبي هريرة : ألا أخبرك بأمر هو حق من تكلم به في أول مضجعه من مرضه نجاه الله من النار . أخرجه ابن أبي الدنيا في الدعاء وفي المرس والسكفارات . (٢) حديث : عيادة المريض فراق ناقة . أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من حديث أسد باسناد فيه جهالة . (٣) حديث : أغبوا في العيادة وأربعوا . رواه ابن أبي الدنيا وفيه أبو يعلى من حديث جابر وزاد : إلا أن يكون منلوا . وإسناده ضعيف . (٤) حديث من تبع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة . (٥) حديث : القيراط مثل جبل أحد . أخرجه مسلم من حديث ثوبان وأبي هريرة وأصله متفق عليه . (٦) حديث : يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد . أخرجه مسلم من حديث أسد . (٧) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أفضح منه . أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن غريب . (٨) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقنى المقابر فجلس إلى قبر ... الحديث في زيارته قبر أمه . أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصراً وأحد من حديث بريدة وفيه : فقام إليه عمر ففداه بالأب والأم يقول يا رسول الله مالك ... الحديث . (٩) حديث عثمان بن عفان : إن القبر أول منازل الآخرة ... الحديث . أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه لإسناده

ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة . فهذا ما أعددت لك فأعددت لي ؟ وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع في قبري . كان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فيقول له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونني معادي وإن قت منهم لم يغتابوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر نفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم . وقال صلى الله عليه وسلم : ما من ليلة إلا وينادى مناد : يا أهل القبور من تغبطون ؟ قالوا : نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم ويصلون ولا نصلي ويذكرون الله ولا نذكره ^(١) ، وقال سفيان من أكثر ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خيثم قد حفر في داره قبرا فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع فيه ومكث ساعة ثم قال ﴿ رب ارجعون لعل أعمل صالحا فيما تركت ﴾ ثم يقول : ياربيع قد أرجعت فاعمل الآن قبل أن لا ترجع . وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى وقال ياميمون هذه قبور آبائي بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات وأصاب الهوام من أبدانهم ؟ ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا ألعم من صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله ؟ وآداب المعزى خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكير في الموت والاستعداد له وأن يمشى أمام الجنازة بقرعها والإسراع بالجنازة سنة ^(٢) فهذه جمل آداب تنبه على آداب المعاشرة مع عموم الخلق . والجملة الجامعة فيه أن لا تستصغر منهم أحدا حيا كان أو ميتا فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقا فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصالح ؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها . ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله . ولا تبدل لهم دينك لتتال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكرا في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم لحسبهم جهنم يصلونها ، فإلك تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحدا وربما لا تجده . ولا تشك إليهم أحوالك فيسلك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تعمل عليهم تكبرا لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخا منهم حاجة ففضاها فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوا تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك عرضا واسترسالا من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم كرامة وخيرا فاشكر الله الذي سخرهم لك واستعد بالله أن يكلك إليهم . وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شرا أو أصابك منهم ما يسوءك فكل أمرهم إلى الله واستعد بالله من شرهم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي .

(١) حديث « ما من ليلة إلا ينادى مناد يا أهل القبور من تغبطون ؟ فيقولون : نغبط أهل المساجد ... الحديث لم أجده أصلا .

(٢) حديث : الإسراع بالجنازة . متفق عليه من حديث أبي هريرة « أسرعوا بالجنازة ... الحديث » .

واعتمد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موصفا في قلوبهم فأنه المحبب والمبغض إلى القلوب وكن فيهم سميعا لحقهم أصم عن باطلهم نطوقا بحقهم صموتا عن باطلهم . واحذر صحة أكثر الناس فإنهم لا يقلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقيير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، يفتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنيمة والبهتان ، فصحة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحق لا يؤمنون في حقهم ولا يرجون في ملفهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ، ولا تعول على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدة فتحتاج إليه ، فإن رضيته في الأحوال فاتخذته أبالك إن كان كبيرا أو ابنا لك إن كان صغيرا أو أخاك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام . فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذوالرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك ^(١) ، فانظر كيف أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ^(٢) » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ^(٣) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ^(٤) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أول خصمين يوم القيامة جاران ^(٦) » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت ^(٧) » ، ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذيني ويشتمني ويضيق على فقال اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم ، هي في النار ^(٨) . وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (اصبر) ثم قال له في الثالثة أو الرابعة (اطرح متاعك في الطريق) قال : فجعل الناس يمزون به ويقولون مالك ؟ فيقال آذاه جاره قال فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له رد متاعك فوالله لا أعود ^(٩)

- (١) حديث « الجيران ثلاثة جار له حق وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق ... الحديث » أخرجه الحسن بن سفيان والبخاري في مسندهما وأبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية من حديث جابر وابن عدى من حديث عبد الله بن عمر وكلاهما ضعيف .
- (٢) حديث « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما » تقدم (٣) حديث « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » متفق عليه من حديث عائشة وابن عمر (٤) حديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » متفق عليه من حديث أبي شريح (٥) حديث « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه » أخرجه البخاري من حديث أبي شريح أيضا .
- (٦) حديث « أول خصمين يوم القيامة جاران » أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر بسند ضعيف .
- (٧) حديث « إذا أنت رميت كلب جارك فقد آذيت ^(٨) » لم أجده أصلا (٨) حديث : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها فقال صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له في الثالثة - أو الرابعة - اطرح متاعك في الطريق (٩) حديث : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره فقال اصبر ثم قال له في الثالثة - أو الرابعة - اطرح متاعك في الطريق ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم

وروى الزهري : أن رجلا أتى النبي عليه السلام فجعل يشكو جاره فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن ينادى على باب المسجد « ألا إن أربعين دارا جار ^(١) » ، قال الزهري : أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا . وقال عليه السلام « اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس ، فيمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها . ويمن المسكن سعته وحسن جوار أهله . وشؤمها ضيقه وسوء جوار أهله . ويمن الفرس ذله وحسن خلقه ، وشؤمه صعوبته وسوء خلقه ^(٢) » .

واعلم أنه ليس حق الجوار كفى الأذى فقط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضا قد كفى أذاؤه فليس في ذلك قضاء حق ، ولا يكتفى احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخبر والمعروف ، إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا لم منعى معروفه وسد باب دونه ؟

وبلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داره في دين ركه وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ماقت إذآ بجرمة ظل داره إن باعها معدما فدفعت إليه ثمن الدار وقال : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره ، فقيل له : لو اقتنيت هرا ؟ فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي .

وجملة حق الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهتبه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستتر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعه إذا نابتة نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاما ، ويفض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يحمله من أمر دينه ودنياه . هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعتته ، وإن استصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعته جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه مصيبة عزيتة ، ولا تستعمل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، وإذا اشتريت فأكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها ، ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلا من

(١) حديث الزهري « ألا إن أربعين دارا جار » أخرجه أبو داود في المراسل ووصله الطبراني من رواية الزهري عن ابن كعب بن مالك عن أبيه ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة وقال « أربعون ذراعا » وكلاهما ضعيف (٢) حديث « اليمن والشؤم في المرأة والمسكن والفرس فيمن المرأة خفة مهرها . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « الشؤم في الدار والمرأة والفرس » وفي رواية له « لمن يك من الشؤم شيء حقا » وله من حديث سهل بن سعد « لمن كان في الفرس والمرأة والمسكن » وللمزني من حديث حكيم ابن معاوية « لاشؤم وقد يكون الجن في الدار والمرأة والفرس » ورواه ابن ماجه فسماه محمد بن معاوية ولطبراني من حديث أسماء بنت عميس : قالت يا رسول الله ما سوء الدار ؟ قال « ضيق ساحتها وخبث جيرانها » قيل فما سوء الدابة ؟ قال « منعها ظهرها وسوء خلقها » قيل فما سوء المرأة ؟ قال « عقم رحمها وسوء خلقها » وكلاهما ضعيف ورويناه في كتاب الخيل للدمياطي من رواية سالم بن عبد الله مسندا « إذا كان الفرس ضروبا فهو مشؤم وإذا كانت المرأة قد عرفت زوجها قبل زواجها لخت إلى الزوج الأول فهي مشؤمة وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لا يسمع فيها الأذان والإقامة فهي مشؤمة » وإسناده ضعيف ووصله صاحب مسند الفردوس بذكر ابن عمر فيه .

رحمه الله ^(١) ، هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مرارا فقال له كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه ^(٢) وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأسا أن تطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك ، وقال أبو ذر رضي الله عنه . أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم وقال : إذا طبخت قدرا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها ^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل على بابه والآخر ناء ببابه عني ، وربما كان الذي عندي لا يسمعهما ، فأيهما أعظم حقا ؟ فقال : المقبل عليك ببابه ^(٤) ورأى الصديق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جارا له ، فقال لا تناص جارك ، فإن هذا يبق والناس يذهبون . وقال الحسن بن عيسى النيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك فقلت : الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى إليه أمرا والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله برىء وأكره أن أدعه فيجد على جاري ، فكيف أصنع ؟ قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثا يستوجب فيه الأدب فاحفظه عليه ، فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث ، وهذا تلتطف في الجمع بين الحقين .

وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة ^(٥) ، قال صلى الله عليه وسلم : إن من سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح والمركب الهني ^(٦) ، وقال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ، قال : إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهن يقولون قد أسأت فقد أسأت ^(٧) ، وقال جابر رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه ^(٨) وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى ^(٩) . وقال

(١) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أتهدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ولمن استقرضك أقرضته .. الحديث » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل وهو ضعيف . (٢) حديث مجاهد « كنت عند عبد الله بن عمر و غلام له يسلم شاة فقال يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي . الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب (٣) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم : إذا طبخت فأكثر المرق ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها » رواه مسلم (٤) حديث عائشة : قلت يا رسول الله إن لي جارين ... الحديث ، رواه البخاري (٥) حديث أبي هريرة « يا إساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » رواه البخاري (٦) حديث « إن من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهني » رواه أحمد من حديث نافع بن عبد الحارث وسعد بن أبي وقاص ، وحديث نافع أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد (٧) حديث عبد الله : قال رجل يا رسول الله كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال : إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت » رواه أحمد والطبراني وعبد الله هو ابن مسعود ، وإسناده جيد .

(٨) حديث جابر « من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه » أخرجه ابن ماجه والحاكم دون ذكر الجار ، وقال : صحيح الإسناد ، وهو عند الخرائطي في مكارم الأخلاق بلفظ المصنف ، وابن ماجه من حديث ابن عباس « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره » ورجاله رجال الصحيح (٩) حديث أبي هريرة : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى . رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق هكذا ، وهو متفق عليه بلفظ « لا يمنع أحدكم جاره أن يضرر خشيته في حائطه » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة .

ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره ، وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمينها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً عسله ، قيل : وما عسله ؟ قال : يحببه إلى جيرانه (١) » .

حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها يتته (٢) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه (٣) » ، وفي رواية أخرى « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » ، وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه . وأمرهم بالمعروف ونأهمهم عن المنكر (٤) » ، وقال أبو ذر رضى الله عنه « أوصاني خليلي عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا (٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمسكافي* ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها (٦) » ، وقال عليه السلام « إن أجعل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى إن أهل البيت ليكونون نجاراً ، فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم (٧) » ، وقال زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ، فقال عليه السلام « إن الله قدمني من بنى مدلج بصلتهم الرحم (٨) » ، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمي ، فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت على وهي مشركة أفأصلها ؟ قال : نعم (٩) . . وفي رواية : أفأعطيتها ؟ قال : نعم صليها . . وقال عليه السلام « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان (١٠) » ، ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمخاط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى ، ﴿ ان تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (١١) قال :

(١) حديث « من أراد الله به خيراً عسله » رواه أحمد من حديث أبي عتبة الخولاني ، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الزهد من حديث عمرو بن الحلق . زاد الخرائطي : قيل وما عمله ؟ قال « حبه إلى جيرانه » وقال البيهقي « يفتح له عملاً صالحاً قبل موته حتى يرضى عنه من حوله » وإسناده جيد .

(٢) حديث « يقول الله أنا الرحمن وهذه الرحم ... الحديث » متفق عليه من حديث عائشة . (٣) حديث « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسع له في رزقه فليتيق الله وليصل رحمه » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « فليتيق الله » وهو بهذه الزيادة عند أحمد والحاكم من حديث علي بن أسد . (٤) حديث : أى الناس أفضل فقال « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه » رواه أحمد والطبراني من حديث درة بنت أبي لهب بإسناد حسن . (٥) حديث أبي ذر : أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصلة الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا ، رواه أحمد وابن حبان وصححه . (٦) حديث « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمسكافي* ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها » أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث عبد الله بن عمرو ، وهو عند البخاري دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » فرواها مسلم من حديث عائشة . (٧) حديث « أجعل الطاعات ثواباً صلة الرحم ... الحديث » أخرجه ابن حبان من حديث أبي بكر ، والخرائطى في مكارم الأخلاق ، والبيهقي في الشعب من حديث عبد الرحمن بن عوف بسند ضعيف . (٨) حديث زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك ببنى مدلج ؟ فقال « إن الله منى من بنى مدلج بصلتهم الرحم » رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ، وزاد « وطعنهم في إibat الإبل » وهو مرسل صحيح الإسناد . (٩) حديث أسماء بنت أبي بكر : قدمت على أمي فقلت : يا رسول الله ، قدمت على أمي وهي مشركة أفأصلها ؟ قال « نعم صليها » متفق عليه . (١٠) حديث « الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة » أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من حديث سلمان ابن عامر الضبي (١١) حديث : لما أراد أبو طلحة أن يتصدق بمخاط كان يعجبه عملاً بقوله تعالى ﴿ ان تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ... الحديث أخرجه البخاري وقد تقدم .

يارسول الله ، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام « وجب أجرك على الله قسمه في أقاربك » ، وقال عليه السلام « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح ^(١) ، وهو في معنى قوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك » ، وتعطى من حرمك » ، وتصفح عن ظلمك ^(٢) ، وروى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاورا ولا يتجاورا ، وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن يحزى ولد والده حتى يحده مملوكا فيشتريه فيعتقه ^(٣) » ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله ^(٤) » ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ، ومن أمسى فثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما . ومن أصبح مسخطا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ، ومن أمسى مثل ذلك ، وإن كان واحدا فواحدا ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ^(٦) » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بر أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك ^(٧) » .

ويروى أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : يا موسى ، إنه من بر والديه وعقنى كتبته باراً ، ومن برنى وعق والديه كتبته عاقاً .

وقيل : لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له : فأوحى الله إليه : أتعظم أن تقوم لأبيك ، وعزى وجلالى لا أخرجت من صلبك نبيا .

وقال صلى الله عليه وسلم « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء ^(٨) » ، وقال مالك بن ربيعة : بيننا نحن

(١) حديث « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح » أخرجه أحمد والطبراني من حديث أنى أيوب ، رفيه الحجاج بن أرطاة ورواه البيهقي من حديث أم كلثوم بنت عقبة (٢) حديث « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ بن أنس بسند ضعيف والطبراني نحوه من حديث أنى أمامه وقد تقدم (٣) حديث « إن يحزى ولد والده حتى يحده مملوكا فيشتريه فيعتقه » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة (٤) حديث « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد » لم أجده هكذا . وروى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لى أشتى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : « هل بقى من والديك أحد ؟ » قال : أى . قال « قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » وإسناده حسن (٥) حديث « من أصبح مرضيا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ... الحديث » أخرجه البيهقي فى الشعب من حديث ابن عباس ولا يصح .

(٦) حديث « إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم » أخرجه الطبراني فى الصغير من حديث أبى هريرة دون ذكر القاطع ، وهى فى الأوسط من حديث جابر ، لا أنه قال « من مسيرة ألف عام » وإسنادهما ضعيف . (٧) حديث « بر أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » أخرجه النسائى من حديث طارق الخزازى ، وأخرجه أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة ، ولأبى داود نحوه من حديث كليب بن منقر عن جده ، وله وللترمذى والحاكم وصحبه من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : من أثر ؟ قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ثم أدناك ثم أدناك » وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : قال رجل : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » فمط مسلم .

(٨) حديث « ما على أحد إذا أراد أن يتصدق بصدقة أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند ضعيف « دون قوله « إذا كانا مسلمين » .

عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من برّ أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى الأب ^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : بر الوالدة على الولد ضعفان ^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : دعوة الوالدة أسرع إجابة . قيل : يا رسول الله ، ولم ذاك ؟ قال : هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط ^(٤) .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله من أبر ؟ فقال : « بر والدك » فقال : ليس لي والدان ، فقال : « بر ولدك ، كما أن لوالدك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق ^(٥) » ، وقال صلى الله عليه وسلم : رحم الله والدا أعان ولده على برّه ^(٦) ، أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله . وقال صلى الله عليه وسلم : ساووا بين أولادكم في العطية ، وقد قيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعة وخادمك سبعة ، ثم هو عدوك أو شريكك ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى ؛ فإذا بلغ ست سنين أدب ، فإذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة ، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ؛ ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلتكم وانكححتكم ، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة ^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : من حق الوالد على الولد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه ^(٨) .

وقال عليه الصلاة والسلام : كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ^(٩) ، وقال قتادة : إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل عنه مثل الخيط ثم يغسل رأسه ويحلق بعد .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم . قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن ، فقال : إنلى

(١) حديث مالك بن ربيعة . بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل من بني سلمة فقال هل بقي على من برّ أبوى شيء ... الحديث « أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٢) حديث « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) حديث « بر الوالدة على الولد ضعفان » غريب بهذا اللفظ وقد تقدم قبل هذا بثلاثة أحاديث من حديث بهز بن حكيم وحديث أبي هريرة وهو معنى هذا الحديث . (٤) حديث دعوة الوالدة أسرع إجابة .. الحديث « لم أقف له على أصل . (٥) حديث : قال رجل يا رسول الله من أبر ؟ قال « بر والدك » فقال ليس لي والدان فقال « ولدك فكما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق » أخرجه أبو عمر النوفلى في كتاب معاشر الأهلين من حديث عثمان بن عفان دون قوله « فكما أن لوالدك » الخ وهذه القطعة رواها الطبرانى من حديث ابن عمر قال الدارقطنى فى العلل ان الأصح وقفه على ابن عمر . (٦) حديث « رحم الله والدا أعان ولده على بره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث على بن أبى طالب وابن عمر بسند ضعيف ورواه النوفلى من رواية الشعبي مرسل .

(٧) حديث أنس : الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أدب فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه فإذا بلغ ثلاثة عشر ضرب على الصلاة والصوم فإذا بلغ ستة عشر زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال قد أدبتك وعلتكم وانكححتكم أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة الا أنه قال « وأدبوه لسبع وزوجوه لسبع عشرة ولم يذكر الصوم » وفى أسناده من لم يسم . (٨) حديث « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ويحسن اسمه » أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس وحديث عائشة وضعفهما .

(٩) حديث « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه » أخرجه أصحاب السنن من حديث سمرة قال الترمذى حسن صحيح .

عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام « إن من لا يرحم لا يرحم »^(١) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت اغسله وأنا أنفثه ، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية »^(٢) ، وتعتبر الحسن - والنبي صلى الله عليه وسلم على منبره - فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾^(٣) وقال عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلى بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه قد حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال « إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته »^(٤) ، وفي ذلك فوائد : لإحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا ، وفيه الرفق بالولد والبر ، وتعليم لامته . وقال صلى الله عليه وسلم « ريح الولد من ريح الجنة »^(٥) .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبي إلى الأخنف بن قيس ، فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول في الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسما ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة ؛ فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فارضهم ، ينجحوك ودهم ويحبوك جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا ، فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قربك ؛ فقال له معاوية : لله أنت يا أخنف ، لقد دخلت على وأنا مملوء غضبا وغيظا على يزيد . فلما خرج الأخنف من عنده رضي عن يزيد وبعث إليه بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب ؛ فأرسل يزيد إلى الأخنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب فقامه إياها على الشطر .

فهذه هي الأخبار الدالة على تأكيد حق الوالدين وكيفية القيام بحقوقهما تعرف بما ذكرناه في حق الأخوة ؛ فإن هذه الرابطة أكد من الأخوة بل يزيد ههنا أمران (أحدهما) أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات وإن لم تجب في الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنقصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل ، لأنه على التأخير . والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه السلام « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال « هل أذن لك ؟ » قال : لا ، فقال عليه السلام « فارجع إلى أبويك »

(١) حديث : رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن فقال إن لي عمرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة . (٢) حديث عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « اغسل وجه أسامة » فجعلت اغسله وأنا أنفثه ؛ فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبله ثم قال « قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية » لم أجده هكذا ولأحمد من حديث عائشة : أن أسامة عثر بعقبة الباب فدعى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصمه ويقول « لو كان أسامة جارية لحببتهما ولكسوتها حتى أنفقا » ولستأده صحيح . (٣) حديث : هثر الحسن وهو على منبره صلى الله عليه وسلم فنزل لحمله وقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة في الحسن والحسين معا بمعيان ويثران قال الترمذي حسن غريب . (٤) حديث عبدالله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلى بالناس إذ جاء الحسن فركب عنقه . رواه النسائي من رواية عبدالله بن شداد عن أبيه وقال فيه الحسن أو الحسين على المك ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « ريح الولد من ريح الجنة » أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وفيه منديل بن علي ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم : حق كبير الإخوة على صغيرهم بحق الوالد عن ولده (٤) .

وقال عليه السلام : إذا استصعبت على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه (١) .

اعلم أن ملك النكاح قد سبقت حقوقه في آداب النكاح ، فأما ملك البين فهو أيضا يقتضى حقوقا في المعاشرة لا بد من مراعاتها ، فقد كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : اتقوا الله فيما ملكت أيما نكم أطعموهم بما تأكلون واكسوهم بما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتهم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ولو شاء للملكهم إياكم ^(٦) ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق ^(٧) ، وقال عليه السلام : لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيى الملكة ^(٨) ، وقال عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهم : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كم لعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدري : هاجر رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن وأراد الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم « باليمن أبواك ؟ » قال : نعم ... الحديث . أخرجه أحمد وابن حبان دون قوله « ما استطعت » الخ . (٢) - حديث : جاء آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستشير في الغزو فقال « ألك والدة ؟ » فقال : نعم ، قال فالزمها فإن الجنة تحت قدميها » أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن جهمه : أن جاءته أنى النبي صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح الإسناد . (٣) حديث : جاء آخر فقال : ما جئتك حتى أبكيك والذى فقال « ارجع لأمهما فأضحكهما كما أبكيتهما » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح الإسناد . (٤) حديث « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ورواه أبو داود في المراسيل من رواية سعيد بن عمرو ابن العاص مرسلًا ووصله صاحب مسند الفردوس فقال عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده سعيد بن العاص ، وإسناده ضعيف . (٥) حديث « إذا استصعب على أحدكم دابته أو ساء خلق زوجته أو أحد من أهل بيته فليؤذن في أذنه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب بإسناد ضعيف نحوه . (٦) حديث : كان من آخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « اتقوا الله فيما ملكت أيما نكح أطعموهم مما تأكلون ... الحديث » الخ وهو مفرق في عدة أحاديث فروى أبو داود من حديث علي : كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيما نكح » وفي الصحيحين من حديث أنس : كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة الصلاة وما ملكت أيما نكح » ولها من حديث أبي ذر « أطعموهم مما تأكلون واللبسوم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلظهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » لفظ رواية مسلم وفي رواية لأبي داود « من يلايكم من مملوكيكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ومن لا يلايكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى » وإسناده صحيح . (٧) حديث « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٨) حديث « لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سيئ الملكة » أخرجه أحمد مجوعًا والترمذي مفرقًا وابن ماجه مقتصرًا على « سيئ الملكة » من حديث أبي بكر وليس عند أحد منهم متكبر وزاد أحمد والترمذي البخيل والمنان وهو ضعيف وحسن الترمذي أحد طريقه .

ثم قال « اعف عنه في كل يوم سبعين مرة ^(١) » وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العوالى في كل يوم سبت ، فإذا وجد عبدا في عمل لا يطيقه وضع عنه منه . ويروى على أبي هريرة رضى الله عنه أنه رأى رجلا على دابته وغلما معه يسمى خلفه فقال له : يا عبد الله احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك فحملة ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بعدا مامشى خلفه . وقالت جارية لأبي الدرداء : إني سمعتك منذ سنة فما عمل فيك شيئا فقال : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : أردت الراحة منك ، فقال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله . وقال الزهري : متى قلت للمملوك أخراك الله فهو حر . وقيل للأحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم ، فيل فما بلغ من حلمه ؟ قال : بينها هو جالس في داره إذا أتته خادمة له بسفود عليه شواء فسقط السفود من يدها على ابن له فعفره فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : ليس يسكن روع هذه الجارية إلا العتق فقال لها : أنت حرة لا بأس عليك . وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه قال : ما أشبهك بمولاك ؟ مولاك يعصى مولاه وأنت تعصى مولاك ، فأغضبه يوما فقال : إنما تريد أن أضربك اذهب فأنت حر . وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته بالعشاء فجاءت مسرعة ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت وأراقها على رأس سيدها ميمون ؛ فقال : يا جارية أحرقتني ، قالت : يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى قال : وما قال الله تعالى ؟ قالت : قال ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ قال : قد كظمت غيظي ، قالت ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : قد عفوت عنك ، قالت : زد فإن الله تعالى يقول ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال : أنت حرة لوجه الله تعالى . وقال ابن المنكدر : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ، فلم يعفه فسمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صياح العبد فاطلق إليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده فقال رسول الله « سألك بوجه الله فلم تعفه فلما رأيتني أمسكت يدك » قال : فإنه حر لوجه الله يا رسول الله ، فقال « لولم تفعل لسفعت وجهك النار ^(٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « العبد إذا نصح لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين ^(٣) » ولما اعتق أبو رافع بكى وقال : كان لي أجران فذهب أحدهما . وقال صلى الله عليه وسلم « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار ، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ، وعبدمملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته ، وعفيف متعفف ذو عيال ، وأول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط وذو ثروة لا يعطى حق الله وفقير نفور ^(٤) » وعن أبي مسعود الأنصاري قال : بينا أنا أضرب غلاما لي إذ سمعت صوتا من خلفي « اعلم يا أبا مسعود » مرتين فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقيت السوط من يدي فقال « والله الله أقدر عليك منك على هذا ^(٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه ^(٦) » رواه معاذ

(١) حديث ابن عمر : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كم نعو عن الخادم ؟ فصمت ثم قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث ابن المنكدر : أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له فجعل العبد يقول : أسألك بالله أسألك بوجه الله ؟ فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد... الحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد مسندا وفي رواية لمسلم في حديث أبي مسعود الآتي ذكره : فجعل يقول : أعوذ بالله . قال فجعل يضربه فقال : أعوذ برسول الله فتركه ، وفي رواية له : فقلت هو حر لوجه الله ، فقال « أما لأنك لو لم تفعل للفتحت النار » أو « لمستك النار » (٣) حديث « إذا نصح العبد لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » متفق عليه من حديث ابن عمر (٤) حديث « عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار : فأول ثلاثة يدخلون الجنة : الشهيد وعبدمملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيدته... الحديث » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن حبان من حديث أبي هريرة (٥) حديث أبي مسعود الأنصاري : بينا أنا أضرب غلاما لي سمعت صوتا من خلفي « اعلم يا مسعود » مرتين... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث معاذ : إذا ابتاع أحدكم الخادم فليكن أول شيء يطعمه الحلو فإنه أطيب لنفسه أخرجه الطبراني في الأوسط والخراشي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه وليأكل معه فإن لم يفعل فليتناوله لقمة ^(١) » وفي رواية : « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه : فكفاه حره ومؤنته وقربه إليه فليجلسه وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليتناوله أو ليأخذ أكلة فليروغها - وأشار بيده - وليضعها في يده وليقل كل هذه ودخل على سلمان رجل وهو يعجن فقال : يا أبا عبد الله ما هذا ؟ فقال : بعثنا الخادم في شغل فكرهنا أن نجتمع عليه عملين . وقال صلى الله عليه وسلم ، من كانت عنده جارية فصانها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران ^(٢) » وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ^(٣) » .

لجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته ، ولا يكلفه فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء وأن يعفو عن زلته ويتفكر عند غضبه عليه بهفوته أو بجنائته في معاصيه وجنائته على حق الله تعالى وتقصيره في طاعته مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته . وروى فضالة بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يسئل عنهم : رجل فارق الجماعة ، ورجل عصي إمامه فبات عاصيا فلا يسأل عنهما ، وأمرأة غاب عنها زوجها وقد كفأها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده فلا يسأل عنها . وثلاثة لا يسأل عنهم رجل ينازع الله رداؤه وردائه الكبرياء ولم يزره العز ، ورجل في شك من الله ، وقفوط من رحمة الله ^(٤) » .

تم كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق .

كتاب آداب العزلة

وهو الكتاب السادس من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته ، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمته ، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته « وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزائه كل من طويت الحجب عن مجارى فكرته فاستأنس بمطالعة سبجات وجهه تعالى في خلوته ، واستوحش بذلك عن الأئس بالأئس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحباته سادة الحق وأئمتهم .

أما بعد : فإن للناس اختلافا كثيرا في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداها على الأخرى ، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها ، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمؤاخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الاستيحاش والخلوة ، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم . ويحصل ذلك برسم بابين (الباب الأول) في نقل المذاهب والحجج فيها (الباب الثاني) في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل .

(١) حديث أبي هريرة « وليأكل معه » فإن أبي فليتناوله « وفي رواية « إذا كفى أحدكم مملوكه صنعة طعامه ... الحديث » متفق عليه مع اختلاف لفظ وهو في مكارم الأخلاق للخرائطى باللفظين اللذين ذكرهما المصنف غير أنه لم يذكر « علاجه » وهذه اللفظة عند البخارى (٢) حديث « من كانت عنده جارية فعلاها وأحسن إليها ثم أعتقها وتزوجها فذلك له أجران » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٣) حديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم . (٤) حديث فضالة بن عبيد « ثلاثة لا يسأل عنهم : رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا ... الحديث » أخرجه الطبراني وصححه .

الباب الأول في نقل المذاهب والآقاويل

وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين . فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائي ، وفضيل بن عياض ، وسليمان الخواص ، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ، وبشر الحافي

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار اسرف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا : سعيد بن المسيب ، والشعبي ، وابن أبي ليلى ، وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ، وابن عيينة ، وابن المبارك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة . والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل على الميل إلى أحد الرأيين ، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل . فلتنقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبيين المذاهب فيها ، وما هو مقرون بذكر العلة نوره عند التعرض للغوائل والفوائد ، فنقول ؛ قد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا . وقيل : اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً . وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي : عظمي ؛ قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفتر من الناس فرارك من الأسد . وقال الحسن رحمه الله : كلمات أحفظهن من التوراة ؛ قنع ابن آدم فاستغنى ، اعتزل الناس فسلم ، ترك الشهوات فصار حراً ، وترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتع طويلاً . وقال وهيب ابن الورد . بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس . وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار : ما أصبرك على الوحدة ؟ - وقد كان لزم البيت - فقال : كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا ؛ كنت أجالس الناس ولا أكلهم . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملزمة البيوت . وقال بعضهم : كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فكث معنا سبعة لا نسمع له كلاماً ؛ فقلنا له : يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تتخالطنا ولا تكلمنا ، فأنشأ يقول :

قليل الهم لا ولد يموت ولا أمر يحاذره يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً فغايتة التفرد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل ، وكذا قال الربيع بن خثيم . وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها ، وكان يقول : لا يتبها للبرم أن يحبر كل عذله . وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا ؟ فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل : إنى لأجد للرجل عندى يداً : إذا لقينى أن لا يسلم على ، وإذا مرضت أن لا يعودنى . وقال أبو سليمان الداراني . بينا الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك وجهه فشججه ، فجعل يمسح الدم ويقول : لقد وعظت ياربيع ، فقام ودخل داره فاجلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته . وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لزمابيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتیان المدينة لجمعة ولا غير هاتين مائتين بالعقيق . وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثوري يقول ، والله الذى لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله : أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة ، فإن تكن

ففضيحة كان من يعرفك قليلا . ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له . ألك حاجة ؟ قال : نعم ، قال : وما هي ؟ قال : أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني . وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر ؟ قال : الله قال : فليصحبه الآن . وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول لوددت أني في مكان أرى الناس ولا يروني ؛ فسبكي الفضيل وقال : يا ويح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يروني ؟ وقال الفضيل أيضا : من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى . فهذه أقاويل المسائلين إلى العزلة .

ذكر حجج المسائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ الآية وبقوله تعالى ﴿ فآلف بين قلوبكم ﴾ أمثن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف ؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة . والمراد بالآلفة نزاع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات ، والعزلة لا تنافي ذلك .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن ألف مألوف ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف »^(١) ، وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤلفة ، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلباً للسلامة من غيره .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه » ، وقال « من فارق الجماعة فمات ميتة جاهلية »^(٢) ، وبقوله صلى الله عليه وسلم « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه »^(٣) ، وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آراؤهم على إمام بعقد البيعة فالخروج عليهم بغى ، وذلك مخالفة بالرأى وخروج عليهم وذلك محظور لا يضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر ، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة .

واحتجوا بنهي صلى الله عليه وسلم عن الحجر فوق ثلاث إذ قال « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار »^(٤) ، وقال عليه السلام « لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصالح يدخل الجنة »^(٥) ، وقال « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه »^(٦) ، قالوا والعزلة هجره بالكلية . وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة ، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلا من غير غضب . مع أن الحجر فوق ثلاث جائز في موضعين ؛ أحدهما : أن يرى فيه إصلاحا للمهجور في الزيادة . الثاني . أن يرى لنفسه سلامة فيه .

كتاب العزلة

الباب الأول : في نقل المذاهب والحجج فيها

- (١) حديث « المؤمن ألف مألوف ... الحديث » تقدم في الباب الأول من آداب الصحبة . (٢) حديث « من ترك الجماعة فمات ميتة جاهلية » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في الباب الخامس من كتاب الحلال والحرام . (٣) حديث « من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام داج فقد خلع ربة الإسلام » أخرجه الطبراني والخطابي في العزلة من حديث ابن عباس بسند جيد . (٤) حديث « من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح . (٥) حديث « لا يحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصالح يدخل الجنة » موقوف عليه من حديث أسد دون قوله « والسابق بالصالح » زاد فيه الطبراني « والذي يبدأ بالصالح يسبق إلى الجنة » . (٦) حديث « من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه » أخرجه أبو داود من حديث أبي خراش السلمي واسمه حنظل بن أبي حنظل وإسناده صحيح .

والنهي وإن كان عاما فهو محمول على ماوراء الموضوعين المخصوصين بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها . أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر^(١) . وروى عن عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعا وعشرين يوما ؛ فلما نزل قيل له : إنك كنت فيها تسعا وعشرين ، فقال : الشهر قد يكون تسعا وعشرين^(٢) ، وروت عائشة رضي الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تقوم بوائقه^(٣) ، فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال : هجران الأحق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماقة لا ينتظر علاجها . وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات ؛ فقال : هذا شيء قدم تقدم فيه قوم ؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات ، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة . وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا . وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة .

واحتجوا بما روى : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاما^(٤) ، والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء ؛ فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته في أهله ستين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة^(٥) .

واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة وإياكم والشعاب وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد^(٦) ، وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام الغنم ، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة .

ذكر حجج المسائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني ﴾ الآية ثم قال تعالى ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾ إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة . وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا لدعوتهم إلى الدين . وعند اليأس من إجابتهم فلا وجه

(١) حديث : أنه صلى الله عليه وسلم هجر عائشة ذا الحجة والمحرم وبعض صفر . قلت : إنما هجر زينب هذه المدة كما رواه أبو داود من حديث عائشة وسكت عليه فهو منه صالح . (٢) حديث عمر : أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهرا ... الحديث . متفق عليه . (٣) حديث عائشة . لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إلا أن يكون ممن لا يأمن بوائقه أخرجه ابن عدى وقال غريب المتن والإسناد وحديث عائشة عند أبي داود دون الاستثناء بإسناد صحيح . (٤) حديث : أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تفعل . الحديث . أخرجه البيهقي من حديث عمار ابن سلامة قال ابن عبد البر يقولون إن حديثه مرسل وكذا ذكره ابن حبان في ثقات التابعين . (٥) حديث أبي هريرة : غزونا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فررنا بشعب فيه عينة طيبة الماء غزيرة فقال واحد من القوم : لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ... الحديث . أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم إلا أن الترمذي قال سبعة عاما .

(٦) حديث معاذ بن جبل : الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية . أخرجه أحمد والطبراني ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاعا .

إلا هجرهم وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من البركة لما روى أنه قيل : يا رسول الله الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس ؟ فقال : بل من هذه المطاهر التي تأسا ببركة أيدي المسلمين (١) ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها ؛ فإذا التمر المنقع في حياض الآدم وقد مغته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون ، فاستسقى منه وقال : اسقوني ، فقال العباس : إن هذا الكيد شراب قد مغث وخيض بالأيدي أولا آتيتك بشارب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت ؟ فقال : اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس أتمس ببركة أيدي المسلمين ، فشرب منه (٢) ، فإذا كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم ؟

واحتجوا أيضا بقول موسى عليه السلام ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ وأنه فزع إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أمرهم بالعزلة . وقد اعتزل نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة (٣) ، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته . وهذا أيضا اعتزال عن الكفار بعد اليأس منهم فإنه صلى الله عليه وسلم لم يعتزل المسلمين ولا من توقع إسلامه من الكفار . وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار ، وإنما انظر في العزلة من المسلمين .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله بن عامر الجهني لما قال : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وآبك على خطيئتك (٤) ، وروى أنه قيل له صلى الله عليه وسلم : أى الناس أفضل ؟ قال : مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى ، قيل : ثم من ؟ قال : رجل معتزل في شعب من الشعب يعبدربه ويدع الناس من شره (٥) ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب العبد التقي الخفي (٦) ،

وفي الاحتجاج بهذه الأحاديث نظر ، فأما قوله لعبدالله بن عامر فلا يمكن تنزيهه إلا على ما عرفه صلى الله عليه وسلم بنور النبوة من حاله ، وأن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة ، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك ، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لافي المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد ،

(١) حديث : قيل له صلى الله عليه وسلم الوضوء من جر مخمر أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يطهر منها الناس ؟ فقال : بل من هذه المطاهر ... الحديث « أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وفيه ضعف (٢) حديث : لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها فإذا التمر المنقع في حياض الآدم قد مغته الناس بأيديهم ... الحديث . وفيه فقال : اسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس » رواه الأزرقي في تاريخ مكة من حديث ابن عباس بسند ضعيف ومن رواية طاوس مرسل نحوه . (٣) حديث : اعتزل صلى الله عليه وسلم قريشا لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى الحبشة ... الحديث . رواه موسى بن عقبة في المنازى ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب مرسل ، ورواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن شهاب على بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام مرسل أيضا ، ووصله من رواية أبي سلمة الحضرمي عن ابن عباس إلا أن ابن سعد ذكر أن المشركين حصروا بني هاشم في الشعب ، وذكر موسى بن عقبة أن أبا طالب جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ومنازى موسى بن عقبة أصح المنازى وذكر موسى بن عقبة أيضا أنه أمر أصحابه حين دخل الشعب بالخروج إلى أرض الحبشة ، ولأبي داود من حديث أبي موسى : أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نطلق إلى أرض النجاشي . قال البيهقي وإسناده صحيح ولاحمد من حديث ابن مسعود : بشنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي . وروى ابن إسحق بإسناده جيد ومن طريقه البيهقي في الدلائل من حديث أم سلمة : إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالتقوا ببلاده ... الحديث (٤) حديث : سأله عقبة بن عامر : يا رسول الله ما النجاة ؟ فقال : ليسعك بيتك ... الحديث « أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال حسن (٥) حديث : أى الناس أفضل ؟ فقال : مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله . قيل : ثم من ؟ قال : رجل معتزل ... الحديث « متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري (٦) حديث : إن الله يحب العبد التقي الخفي » أخرجه مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص .

وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل . وفي مخالطة الناس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » (١) ، وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام « رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره ، فهذا إشارة إلى شرير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته . وقوله « إن الله يحب التقى الحق ، إشارة إلى إيثار الخول وتوق الشهرة . وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس ؟ وكم من مخالط حامل لا ذكر له ولا شهرة ؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة .

واحتجوا بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا أنبئكم بخير الناس ، قالوا : بلى يا رسول الله ، فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده ؟ ، وأشار بيده نحو الحجاز وقال « رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس » (٢) ، فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقاييسه بعضها ببعض ليتبين الحق فيها .

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغوائلها

وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة . وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده ، فكذلك القول فيما نحن فيه . فأنذكر أولا فوائد العزلة وهي تنقسم إلى فوائد دينية ودنيوية . والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم ، وإلى تخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة ، كالرياء والغيبة والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء . وأما الدنيوية فتتنقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة ؛ كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة ، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في الناس وطمع الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذى بسوء خلق المجلس في مرآته أو سوء ظنه أو نيمته أو محاسده أو التأذى بثقله وتشويه خلقته . وإلى هذا ترجع فواید العزلة فلنحصرها في ست فوائد .

الفائدة الأولى

التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق ، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض ، فإن ذلك يستدعي فراغا ولا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه . ولهذا قال بعض الحكماء : لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتسكك بكتاب الله تعالى . والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذي كرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله

(١) حديث : القدي يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم « أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر ولم يسم الترمذي صاحباني قال شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والطريق واحد (٢) حديث : ألا أنبئكم بخير الناس ؟ قالوا : بلى ، قال : فأشار بيده نحو المغرب وقال « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه » الحديث أخرجه الطبراني من حديث أم مبهر إلا أنه قال : نحو المشرق ، بدل : المغرب ، وفيه ابن مسحق رواء بالنعنة وللترمذي والنسائي نحوه مختصرا من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن .

بذكر الله . ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر فالعزلة أولى بهم . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة (١) فكان الخلق لا يجربونه عن الله فكان يبدنه مع الخلق وبقبله مقبلا على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليفه . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله (٢) . ولما سمع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سراً لإفاضة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيقطع في ذلك ، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه . فقد نقل عن الجنيد أنه قال : أنا أكلّم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلّمهم . وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبق لغيره فيه متسع وذلك غير منكر ، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخاطب الناس يبدنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبيه . بل الذي دهاه لم يشقّش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخاطب الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه . وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الاستعانة بالعزلة . ولذلك قيل لبعض الحكماء : ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة . وقيل لبعض الرهبان : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أناجيه صليت . . . وقيل لبعض الحكماء : إلى أي شيء أفضى بكم الزهد والخلوة ؟ فقال : إلى الانس بالله . وقال سفيان بن عيينة : لقيت إبراهيم ابن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له : يا إبراهيم تركت خراسان ؟ فقال : ماتنأت بالعيش إلا ههنا أفقر بدني من شاهق إلى شاهق ، فمن يراني يقول موسوس أو حمال أو ملاح . وقيل لغزوان الرقاشي : هبك لاتضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك ؟ قال : إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي . وقيل للحسن يا أبا سعيد : ههنا رجل لم تره قط جالسا إلا وحده خلف سارية . فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به ؛ فنظروا إليه ذات يوم فقالوا للحسن : هذا الرجل الذي أخبرناك به ؟ وأشاروا إليه ؛ ففضى إليه الحسن وقال له . يا عبد الله أراك قد حببت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمر شغلني عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه ؟ فقال أمر شغلني عن الناس ، وعن الحسن : فقال له الحسن وما ذاك الشغل . يرحمك الله ؟ فقال : إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والاستغفار من الذنب فقال له الحسن : أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أفت عليه . وقيل : بينما أويس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأنس بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ؛ وقال الفضيل : إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت أخلو بربي ، وإذا رأيت الصبح أدركتني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يحيمني من يشغلني عن ربي . وقال عبد الله بن زيد : طوي لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : يناجي الله في الدنيا ويحاوره في الآخرة . وقال ذو النون المصري : سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه . وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل عليه وعمي

الباب الثاني : في فوائد العزلة وغواطلها

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم في أول أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه . متفق عليه من حديث عائشة نحوه : فكان يخلو بئر حراء . يتحدث فيه . . . الحديث (٢) حديث : لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله . أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم .

قلبه وضيع عمره . وقال ابن المبارك : ما أحب حال من انقطع إلى الله تعالى ! ويرى عن بعض الصالحين أنه قال : بينا أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة وتستر بها فقلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال : هذا إنى أقمت في هذا الجبل دهرًا طويلًا أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمرى فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظي من أياحى في مجاهدة قلبي ، فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والانعزال ، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول فأليك عنى فأنى أعوذ من شرك رب العارفين وحبيب القانتين ، ثم صاح : واغمسه من طول المكث في الدنيا ، ثم حوّل وجهه عنى ، ثم نفّض يديه وقال : إليك عنى يا دنيا لغيرى فتزنى وأهلك فغرى ، ثم قال : سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسن ، وجمع همهم في ذكره فلا شيء ألد عندهم من مناجاته . ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس . فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل .

وإني لأستغشى وما بي غشوة لعل خيالاً منك يلقى خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خالها

ولذلك قال بعض الحكماء : إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلق ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقة الناس ويطرده الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الواحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة . وقد قيل الاستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جريئة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر بالإنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة . فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر . وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة وهي أربعة : الغيبة والنيمة ، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا .

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون . فإن عادة الناس كافة التضمض بأعراض الناس والتفكك بها والتفيل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة . فإن خالطتهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى ، وإن سكنت كنت شريكاً ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الاستخفاف والشتم .

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب - كما سيأتى بيانه في آخر هذا الربع - ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكنت عصي الله به ، وإن أنكرت تعرض لأنواع الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاصى هي أكبر مما نهى عنه ابتداء . وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق . وقدم قام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً وقال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها وإلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب »^(١) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبده حجته قال يارب رجوتك وخفت الناس »^(٢) ، وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق . ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر . وفي العزلة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل :

وكم سقت في آثارك من نصيحة وقد يستفيد . البغضة المنتصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ؛ فإذا سقط عليه يقول ياليتني تركته مائلاً . نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك .

وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه . وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فيه وهلك كاهلكوا . وأقل ما يلزم فيه النفاق فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً ، وإن جاملتهما كنت من شرار الناس . وقال صلى الله عليه وسلم : « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٣) ، وقال عليه السلام : « إن من شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »^(٤) ، وأقل ما يجب في مخالطة الناس لإظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلو ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة ، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك : كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض . قال سري : لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لحشيت أن أكتب في جريدة المنافقين . وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له : ما جاء بك؟ قال : المؤانسة يا أبا علي فقال : هي والله بالمواحشة أشبه هل تريد إلا أن تزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك . وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يشعر به . ودخل طاووس على الخليفة هشام فقال : كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال : لم لم تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال : لأن جميع المسلمين ما تفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذباً . فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز فليخالط الناس وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين . فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه . فكان سؤا لهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا . قال حاتم الأصم لحامد اللخاف : كيف أنت في نفسك؟ قال : سالم معافى : فكره حاتم جوابه وقال : يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة . وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت؟ قال أصبحت لأملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتها بعمل والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني

(١) حديث أبي بكر إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها ... الحديث . أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي : حسن صحيح . (٢) حديث . إن الله يسأل العبد حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ... الحديث . أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد . (٣) حديث « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٤) حديث « إن من شر الناس ذا الوجهين » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وهو الذي قبله .

وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفى أرزاقنا وننتظر آجالنا . وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن نجوت من النار . وكان سفيان الثوري إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا وأذم ذا إلى ذا وأفر من ذا إلى ذا ، وقيل لأويس القرني : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدرى أنه يصبح وإذا أصبح لا يدرى أنه يمسي ؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد . وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لأرضى حياقي لمأق ولا نفسي لربي . وقيل لحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت آكل رزق ربي وأطيع عدوه إبليس . وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة . وقيل لحامد اللفاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتى عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : ألسنت في عافية في كل الأيام ؟ فقال : العافية يوم لأعصى الله تعالى فيه . وقيل لرجل وهو يجود بنفسه : ما حالك ؟ فقال : وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حاجة . وقيل لحسان ابن أبي سنان : ما حالك ؟ قال : ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب . وقال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا وهو معيل ؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعتها إليه وقال : خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك . ولم يكن عنده غيرها - ثم قال : والله لأسأل أحدا عن حاله أبدا . وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مراثيا منافقا . فقد كان سؤالهم عن أمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة . وقال بعضهم : إني لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون حتى عن الدجاجة في البيت . ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق ؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت ؟ ويقول الآخر كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمستول يشتغل بالسؤال ولا يجيب ، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن رياء وتكلف . ولعل القلوب لا تغلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال . قال الحسن : إنما كانوا يقولون السلام عليكم ، إذا سلمت والله القلوب ، وأما الآن : فكيف أصبحت عافاك الله ؟ كيف أنت أصلحك الله ؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لاكرامة فإن شاموا غضبوا علينا ، وإن شاؤا لا . وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك : كيف أصبحت بدعة . وقال رجل لأبي بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فما أجابه . وقال دعونا من هذه البدعة . وقال : إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع ، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : كيف أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق ، وكل ذلك مدموم ، بعضه محذور وبعضه مكروه . وفي العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه وديناه في الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منسكرا عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستثقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هيئا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له ،

ولأنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أو شك أن نحل القوة الوازع ويذعن الطبع للميل إليه أولمادونه . ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحققر الصغائر من نفسه : ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر بحالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر بحالسة الفقراء في استعظام ما أتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظه أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتزهر عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار : وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتبها للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك . ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته . وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ^(١) ، ولأنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعثت الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير . ومبدأ الرحمة فعل الخير ومبدأ فعل الخير الرغبة ، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة . والمفهوم من لحوى هذا الكلام عند الفطن كالمفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي ، واللعنة هي البعد . ومبدأ البعد من الله هو المعاصي ، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لاعلى الوجه المشروع . ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب . ومبدأ سقوط الثقل وقوع الانس بها بكثرة السماع . إذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « مثل المجلس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشره علق بك من ريحه ^(٢) » فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به . وقال « مثل المجلس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه » ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين ، إحداهما : أنها غيبة ، والثانية وهي أعظمهما . أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد ؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام ، فكلم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتبالك على حب الرياسة وترينها ويهون على نفسه قبجها ويزعم أن الصحابة رضى الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ؟ وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصي . والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لاهفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعامل به وهو من دقائق مكاييد الشيطان ، ولذلك وصف الله المراعين للشيطان فيها بقوله « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلا وقال مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا لبشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعيا فقال له ياراعى اجررلى شاة من غنمك فقال اذهب نخذ خير شاة فيها فذهب

(١) حديث « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » ليس له أصل في الحديث المرفوع ولأنما هو من قول سفيان ابن عيينة كذا رواه ابن الجوزى في مقدمة صفة الصفوة .

(٢) حديث « مثل المجلس السوء كمثل الكير .. الحديث » متفق عليه من حديث أبى موسى .

فأخذ بأذن كلب الغنم^(١) ، وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا . وما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضي إلى اعتقادهم بكفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كفرتهم عن تأخير الصوم ، مع أن صلاة واحدة يقتضي تركها الكفر عند قوم وحز الرقة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سببه إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . ولذلك لولبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها ، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك . والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير ؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتفتطن لهذه الدقائق وفز من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يريد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة . فإن وجدت جليسا يذكرك الله رقيبته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستهقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن . وتحقيق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء . ومهما فهمت هذه المعاني ولاحظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التباعد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلاطة . وإياك أن تحكم مطلقا على العزلة أو الخلاطة بأن إحداها أولى إذ كل مفصل فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا التفصيل .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلبا تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات ، فالمعتزل عنهم في سلامة منها . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال : « إذا رأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - ، قلت : فما تأمرني ؟ فقال : « الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بامر الخاصة ودع عنك أمر العامة »^(٢) ، روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاهر إلى شاهر »^(٣) ، وروى عبدالله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ ، قيل له : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تدل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج ؟ قال : « إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى زوجته وولده فإن لم يكن فعلى قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعبرونه بضيق اليد فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة »^(٤) ، وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغنى المتأهل عن

(١) حديث « مثل الذي يسمع الحسكة ثم لا يعمل منها لا شر ما يسمع كمثل رجل آتى راعيا فقال يراعى اجر لي شاة من غنمك ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٢) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص « إذا رأيت الناس مرحت عهودهم وخفت أماناتهم ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن . (٣) حديث أبي سعيد الخدري « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » رواه البخاري . (٤) حديث ابن مسعود « سيأتي على الناس زمان لا يسلم لدى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهر إلى شاهر » تقدم في النكاح

المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعية الله تعالى ، ولست أقول : هذا أو أن ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان : والله لقد حلت العزلة . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ، قلت : فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال : كف نفسك ويدك وادخل دارك ، قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري ؟ قال : فادخل بيتك ، قلت : فإن دخل على بيتي ؟ قال : فادخل مسجدك واصنع هكذا ، وقبض على الكوع . وقال رب الله حتى تموت ^(١) ، وقال سعد - لما دعي إلى الخروج أيام معاوية - لا ... إلا أن تعطوني سيفه عينا بصرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على حجة بيضاء فبينما هم كذلك يسرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم ؛ فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا ، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فسافروا . فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخاطبوا إلا بعد زوال الفتن . وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له : أين تريد ؟ فقال : العراق . فإذا معه طوامير وكتب ؛ فقال : هذه كتبهم وبيعهم فقال : لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم ؛ فأبي ، فقال : إني أحدثك حديثا ؛ جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صر فيها عنكم إلا الذي هو خير لكم ، فأبي أن يرجع ، فاعتقه ابن عمرو بكى وقال : أستودعك الله من قتيلى أو أسير ^(٢) . وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا . وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال : فساد الزمان وحيف الأئمة . ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزم القصر وترك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية . فإذن الحذر من الخصومات ، ومشاراة الفتن إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بسوء الظن والتهمة بالافتراحت والاطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنسيئة أو الكذب فرما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك . ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم ؟ ما هما ؟ قال :

أخفص الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بحمال

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسىء الظن به ويتوهم أنه يستعد

(١) حديث ابن مسعود : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت : وما الهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه .. الحديث « أخرجه أبو داود مختصراً والمطاني في العزلة بتمامه وفي إسناده عند الخطابي انقطاع ووسله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . (٢) حديث ابن عمر : أنه لما بلغه أن الحسين توجه إلى العراق لحقه على مسيرة ثلاثة أيام ... الحديث . وفيه : أنه صلى الله عليه وسلم خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة . رواه الطبراني في معجمه على المرفوع رواه في الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل : على مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الزوار بنحوه وإسناده حسن .

لمعاداته ونصب المسكيدة عليه وتأسيس غائلة وراه فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾ وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها . قال المتنبي :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار . وأنواع الشر الذى يلقاه الإنسان من معارفه ومن يختلط به كثيرة : ولسنا نطول بتفصيلها ففينا ذكرناه إشارة إلى مجامعها ، وفي العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر من اختار العزلة . فقال أبو الدرداء : أخبر ثقلى ، يروى مرفوعا . وقال الشاعر :

من حمد الناس ولم يبلهم ثم بلاهم ذم من يحمد
وصار بالوحدة مستأنسا يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضى الله عنه : فى العزلة راحة من القرين السوء . وقيل لعبدالله بن الزبير : ألا تأتى المدينة ؟ فقال : مابقى فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة . وقال ابن السكيت : كتب صاحب لنا ، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففتر منهم فرارك من الأسد . وكان بعض الأعراب يلازم شجرا ويقول : هو نديم فيه ثلاث خصال ، إن سمع منى لم ينم على ، وإن تفلت فى وجهه احتمل منى ، وإن عربت عليه لم يغضب ، فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدنى فى التمداء ، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقيل له ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ، ولا جليسا أمتع من دفتر ، وقال الحسن رضى الله عنه : أردت الحج فسمع ثابت البناني بذلك - وكان أيضا من أولياء الله - فقال : بلغنى أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا لئلا نخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ماتماقت عليه . وهذه إشارة إلى فائدة أخرى فى العزلة وهو بقاء السر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات . وقد مدح الله سبحانه المستترين فقال ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ وقال الشاعر :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجميل

ولا يخلو الإنسان فى دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى فى الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها . وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه فالناس اليوم شولا لا ورق فيه . إذا كان هذا حكم زمانه وهو فى أواخر القرن الأول فلا ينبغى أن يشك فى أن الأخير شر . وقال سفيان بن عيينة : قال لى سفيان الثورى - فى اليقظة فى حياته وفى المنام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا أحسب أنى رأيت ما أكره إلا بمن عرفت : وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده ، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته . فذهب أطرده فقال : دعه ياهذا هذا لا يضر ولا يؤذى وهو خير من جليس السوء . وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس ؟ قال : خشيت أن أسلب دينى ولا أشعر . وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء . وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس فإنهم ماركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه . وقال بعضهم : أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع . وقال بعضهم : أنسك من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد ، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنائز وعبادة المريض وحضور الولائم والإملاكات ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض الآفات ، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا ، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل : من لم يعد مريضا في وقت العيادة انتهى موته خيفة من تحجيله إذا صح على تقصيره . ومن عم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ، ولو خصص استوحشوا . وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا ؟ قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء . وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعى رحمه الله : أصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام . وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة ، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تجر حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الحبيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك . ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ، انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ^(١) ، وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفقره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت . وحكى أن المزي رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة ﴾ ثم قال بلى أصبر وأرضى ، وكان فقيرا مقلا . فالذى هو في بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن . فإن من شاهد زينة الدنيا فلما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر - وهو أمر من الصبر - أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلك هلاكا مؤبدا ، أما في الدنيا فبالطمع الذى يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له ، وأما في الآخرة فإبشاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتفكرت إليه . ولذلك قال ابن الأعرابي :

إذا كان باب الدل من جانب الغنى سموت إلى العلياء من جانب الفقر

أشار إلى أن الطمع يوجب فى الحال ذلا .

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحقى ومقاساة حقهم وأخلاقهم ، فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر . قيل للأعمش : مم عشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى الثقلاء . ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال : فى الخبر « إن من

(١) حديث « انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .

سلب الله كريميته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما ^(١) ، فما الذى عوضك ؟ فقال - فى معرض المطابقة - عوضنى الله عنهما أنه كفى روية الثقلان وأنت منهم . وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول نظرت إلى ثقیل مرة فغشى على . وقال جالينوس : لكل شيء حمى وحمى الروح النظر إلى الثقلان . وقال الشافعى رحمه الله : ما جالست ثقیلا إلا رجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ماسوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضا تتعلق بالدين . فإن الإنسان مهما تأذى بروية ثقیل لم يأمن أن يعتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله ، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسبة أو نيمية أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته . وكل ذلك يجر إلى فساد الدين وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة . فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة ، وفوائده من آفات العزلة . فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعى إليها ما هي ، وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاسيئناس والإيناس ، ونيل الثواب وإنالته فى القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها . فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهى سبع :

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلها فى كتاب العلم وهما أعظم العبادات فى الدنيا . ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا . فالحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة . وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل . وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران . ولهذا قال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل فمن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري ، ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهاهم يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد . فالعلم هو أصل الدين فلاخير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادات فى الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها . فثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه ، فالمرضى الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لاحالة مرضه . فلا تليق العزلة إلا بالعالم وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم . ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والاتباع فهو هلاك الدين . وقد ذكرنا وجه ذلك فى كتاب العلم .

وحكم فى العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه . فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لاطالب لإللكلام مزخرف . يستميل به العوام فى معرض الوعظ أو الجدل - معقد يتوصل به إلى إلخام الأقران ويتقرب به إلى السلطان ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة ، وأقرب علم مرغوب فيه : المذهب ، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الأمثال وتولى الولايات واجتلاب الأموال . فهؤلاء كلهم يقتضى الدين والحزم الاعتزال عنهم ،

(١) حديث « من سلب الله كريمته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما » أخرجه الطبرانى بإسناد ضعيف من حديث جرير « من سلبت كريمته عوضته عنهما الجنة » وله ولاحد نحوه من حديث أبى أمامة بسند حسن ، وللبخارى من حديث أس « يقول الله تبارك وتعالى إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة » يريد عينيه .

فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله فأكبر الكبار الاعترال عنه وكتبان العلم منه ، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف .

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلى الله . وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا ، وهم هلـكى على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أوراغبون عنها وزاهدون فيها ، وليس الخبر كالمعاينة . واعلم أن العلم الذي أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل .

وأما الكلام والفقہ المجرد - الذى يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله ، بل لا يزال متباديا في حرصه إلى آخر عمره . ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه ، إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب . فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم ، فأفة العلم الخيلاء ^(١) كما قال صلى الله عليه وسلم . ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قطرا من كتب الأحاديث التي سمعها ، وكان لا يتحدث ، ويقول : إني أشتى أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتيمت أن لا أحدث لحدثت ، ولذلك قال « حدثنا » باب من أبواب الدنيا ، وإذا قال الرجل « حدثنا » فأنما يقول أوسعوا لى . وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري : نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا ، قال : وفيما ذا رغبتي ؟ قالت : في الحديث . ولذلك قال أبو سليمان الداراني : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا . فهذه آفات قد نهينا عليها في كتاب العلم ، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذى يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له إن كان غافلا في مثل هذا الزمان أن يتركه . فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال : دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر ، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقبيا وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونيمعة وغل وخديعة ، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلما إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارا في حاجاتهم ، إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبتهم وخادمهم ووليهم ، وتذتض لهم سفيها وقد كنت فقيها ، وتكون لهم تابعا خسيسا بعد أن كنت متبوعا رئيسا . ولذلك قيل : اعتزال العامة مروءة تامة . فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه ، وهو حق وصدق . فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة من يتردد إليهم فكأنه يهدى تحفه إليهم ويرى حقه واجبا عليهم . وربما لا يختلف إليه مالم يتكفل برزق له على الإدرار . ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله ، فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الدليل

(١) حديث « آفة العلم الخيلاء » المعروف مارواه مطين في مسنده من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف « آفة العلم النسيان وآفة الحمال الخيلاء » .

المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام ، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتدحه ويستندله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أحبابه إن سوى بينهم مقتته المميزون ونسبوه إلى الحق وقلة التميز والقصور عن درك مصارقات الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل ، وإن فوات بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والآساد ، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبي . والعجب أنه مع هذا البلاء كله يبنى نفسه بالباطيل ويدليها بجبل الغرور ويقول لها ، لا تفتري عن صنيعةك فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذبة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله ، وأموال السلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم ؟ فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله . ولولم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأذى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتلاحظهم أعين الجهال ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لأنارهم . ولذلك قيل : ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء ،

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع

أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة . وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه - كما ذكرناه في كتاب الكسب - فإن كان معه مال لو اكتفى به قائما لأفدعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلى من المعاصي ، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة . فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاستغلال بالنسالة ، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنهه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ؛ أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصرة لآعن أوهم وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببذنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة . ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة . ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلة إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية ، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبته .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب

ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسرا للنفس وقهرا للشهوات . وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة ، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تهذب أخلاقه ولم تدعن لحدود الشرع شهواته ، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهم إلى الله سبحانه . وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين ، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكشير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الاتباع ، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة : وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة : فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ

مركبا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يسكسرها جمحت به في الطريق ، فن اشغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها ، وهي لعمري فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميته ، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها ، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغي أن يقنع به كالراهب الذي قيل له : ياراهب ، فقال : ما أبا راهب إنما أنا كلب عقر حبست نفسي حتى لأعقر الناس : وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه ، فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس ، بل ينبغي أن يتشوف إلى الغاية المقصودة بها . ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة . فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا والعزلة آخرا .

وأما التأديب فإنما نعى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخالطتهم ، وحاله حال المعلم وحكمه ، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم ، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة . فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل ، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفي ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس

وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والآنس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال . وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح . وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالآنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى . وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتيسير دواعي النشاط في العبادة ، فإن القلوب إذا أكرهت عمت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروح القلب فهي أولى ، إذ الوفق في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يمل حتى تملوا ^(١) ، وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح ؛ وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلادا لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحدثته في اليوم واللييلة ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فليتنظر أحداكم من يخال ^(٢) ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشيد ، ففي ذلك متنفس ومترقح للنفس ، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة ، والراضى عن نفسه مغرور قطعا . فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص

(١) حديث « ان الله لا يمل حتى تملوا » تقدم . (٢) حديث « المرء على دين خليله » تقدم في آداب العجبة .

فليستفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس اقلا ثم ليجالس .

الفائدة الخامسة : في نيل الثواب وإنائه

أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلا بد منه . وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضا لا رخصة في تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادرا . وكذلك في حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث إنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إنائه فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس أو ليعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثوابا ، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكان هو بالتمكين سببا فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها التي ذكرناها ، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة . فقد حكى عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعيادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور ، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلل الجبال تفرغا للعبادة وفرارا من الشواغل .

الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع ، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا في اختيار العزلة . فقد روى في الإسرائيليات أن حكيمًا من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفا في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبيه : قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإني لا أقبل من نفاقك شيئا ، قال : فتخطى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال : الآن قد بلغت رضا ربى ، فأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك إن تبلغ رضاى حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم ، تخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه : الآن قد بلغ رضاى . فكم من معتزل في بيته وباعته الكبر ومآنه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم ، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأتقى لطراوة ذكره بين الناس ، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترا على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبدته من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر ، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا ، ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على نسيل التبرك ، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذى يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زيارتهم له ، كما حكينا عن الفضيل حيث قال : وهل جشنى إلا لأتزين لك وتزين لى . وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا ترانى . فمن ليس مشغولا بنفسه بذكر الله فاعتزله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس ، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام . والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه ، أحدها : أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان على رضى الله عنه يحمل التمر والمالح في ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ما جز من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضى الله عنهم يحملون حزم الخطب وجرب الدقيق على أكتافهم

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول - وهو والى المدينة والخطب على رأسه - طرقتوا لأميركم . وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه ؛ فيقول له صاحبه : أعطني أحمله فيقول : صاحب الشيء أحق بحمله (١) ، وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول ﴿إن الله لا يحب المستكبرين﴾ الوجه الثاني : أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً ؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، بل رضا الناس غاية لا تتال ، فرضا الله أولى بالطلب . ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا لأنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله ؟ ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز بالسنة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا - لشيء أمره به - فقال : يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين ؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه ، وأن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه . وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأى حال يرويه . وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنتيك بالسؤال ؛ فتبهم وقال للقاتل : هون على نفسك فإن حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأنى قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم . وقال موسى صلى الله عليه وسلم يارب احبس عني أسنة الناس فقال : يا موسى هذا شيء لم أصطفه نفسي فكيف أفعله بك ؟ وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزيز : إن لم تطب نفسا بأنى أجعلك علما في أقواه الماضين لم أكتبك عندى من المتواضعين . فإذا من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فإذا لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرا وفكرا وعبادة وعلما بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوش عليه عباداته . فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقن فإنها مهلكات في صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم . والعقل الغريزي ليس كافيا في تفهم مصالح الدين والدنيا . وإنما تفيدها التجربة والممارسة ، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب ؛ فالصبي إذا اعتزل بقى غمرا جاهلا بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك ، ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة . ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة ، فإن كل مجرب في الخلاء يسر ، وكل غضوب أو حقود أو حشود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبيثه وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إماطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يجر كها . فمثال القلب المشحون

(١) حديث : كان يشتري الشيء ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه أعطني أحمله فيقول « صاحب المتاع أحق بحمله » أخرجه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حله السراويل الذي اشتراه .

بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة وقد لا يحس صاحبه بألم يتحرك أو يمسه غيره ، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه وأعتقد فقده ، ولكن لو حركة محرك أو أصابه مشرط حجام لا نفجر منه الصديد وفار فوران الشيء المختلق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تتفجر منه خبائثه إذا حرك . وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة الطالبون لتركية القلوب يحربون أنفسهم . فمن كان يستشعر في نفسه كبرا سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه ويتردد في الأسواق لي تجرب نفسه بذلك ؛ فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أني كنت أصليها في الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر فوجدت موضعا في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء بمزوجة بلذة نظر الناس إلى ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين إلى الخير . فالحالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها . ولذلك قيل : السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل ، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة ، فإنا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه ، وقد قضى الشرع بتفضيل العلم على العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل على أذن رجل من أصحابي »^(١) ، فمعنى تفضيل العلم يرجع إلى ثلاثة أوجه (أحدها) ما ذكرناه (والثاني) عموم النفع لتعدى فائدته والعمل لا تتعدى فائدته (والثالث) أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل ، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق لتبعية بعد الانصراف إليه لمعرفة ومحبة ، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدن والعمل كالشرط له ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحال الرافع له إلى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع . وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام . فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته وإلى الفائم بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ، ويقاس الفائم بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل ، وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال يابونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانقباض إليهم مجلبة لقرناء السوء فكأن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك بالأحوال . وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل . هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر . وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال . والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل ، والعالم هو الذي يدرك الحق على ماهو عليه ولا ينظر إلى حال نفسه فيكشف الحق فيه ، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبدا ، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى . ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فإجابته من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضل على أذن رجل من أصحابي تقدم في العلم .

بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحدا . ولذلك قال أبو عبدالله الجلاء - وقد سئل عن الفقر - فقال : اضرب بكيميك الحائط وقل ربى الله فهو الفقر . وقال الجنيد : الفقير هو الذى لا يسأل أحدا ولا يعارض وإن عورض سكت . وقال سهل بن عبدالله : الفقير الذى لا يسأل ولا يدخر . وقال آخر : هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك . وقال إبراهيم الخواص : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى . والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه . ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم . وفور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف . ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال - بالنظر في الظل - فقال بعضهم هو في الصيف قدما ، وحكى عن آخر أنه نصف قدم ، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام ، وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه ؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم ، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذى رآه ببلد نفسه ، فصدق في قوله وأخطأ في تحطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده ، كما أن الصوفى لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه : والعالم بالزوال هو الذى يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل ، وفي بعضها يطول ، وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة .

ه فإن قلت : فمن أثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه في العزلة ؟ فنقول : إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة . وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن ينوى بعزله كشف نفسه عن الناس أولا ، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ، ثم التجرد بكنه المهمة لعبادة الله رابعا ؛ فهذه آداب نيته . ثم ليسكن في خلوته مواظبا على العلم والعمل والذكر والفكر ليحظى ثمرة العزلة ولينعم الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته فيشوش أكثر وقته . وليكف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به ، فإن كل ذلك ينغرس في القلب حتى يذبح في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب ، فوقع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض . وأحد مهمات المعتزل قطع الوسوس الصارفة عن ذكر الله . والأخبار ينابيع الوسوس وأصولها . وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضططره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم . وليكن صبورا على ما يلقاه من أذى الجيران وليسد سمعه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة ، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة ، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفا عن سيره إلى طريق الآخرة ، فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب ، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سمواته وأرضه ، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها . وكل ذلك يستدعى الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال . وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر . وليسكن له أهل صالحة أو جليس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات . ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا

وما الناس منهمكون فيه ، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمرا طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح ، فيسهل عليه صبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الأجل . وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة . وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشه الوحدة بعد الموت . وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزال الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه فرحا بفضل الله عليه ورحمته ، كما قال الله تعالى في الشهداء ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر « فالجهاد من جاهد نفسه وهواه ^(١) ، كما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يعنون جهاد النفس .

تم كتاب العزلة ، ويتلوه : كتاب آداب السفر ، والحمد لله وحده

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربح العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص همهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر ، فأصبحوا راضين بمجارى القدر منزهم قلوبهم عن التلفت إلى متنزهاات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسبح فى مسارح النظر ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر . والصلاة على محمد سيد البشر وعلى صحبه المقتفين لآثاره فى الأخلاق والسير وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه . والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والقلوات ، وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات . وأشرف السفرين السفر الباطن . فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة ، الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والاجناد ، لازم درجة القصور وقانع بمرتبة النقص ومستبدل بمتمتع فضاء ﴿جنة عرضها السموات والأرض﴾ ظلمة السجن وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنعقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه فى خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير ، فافتضى غموض السبيل وفقد الخفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل ، اندرس مسالكه . فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين متنزهاات الأنفس والملوك والآفاق . وإليه دعا الله سبحانه بقوله ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ﴾ وبقوله تعالى ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى ﴿ وإنكم لتتزون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وبقوله سبحانه ﴿ وكأين

(١) حديث « الجاهد من جاهد نفسه وهواه » أخرجه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله « وهواه » وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .

من آية في السموات والأرض يزرون عليها وهم عنها معرضون ﴿ فن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنزها في جنة عرضها السموات والأرض وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن . وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده ؛ فغنائمه دائمة غير بمنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا زاغوا أزاع الله قلوبهم وما الله بظلام للعبيد ، ولكنهم يظلمون أنفسهم ومن لم يؤهل للجولان في هذا الميدان والتطواف في متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه في مدة مديدة فراسخ معدودة مغتنيا بها تجارة الدنيا أو ذخيرة للآخرة ، فإن كان مطلبه العلم والدين أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة ، وكان له في سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن وازب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة ، ونحن نذكر آدابه وشروطه في بابين إن شاء الله تعالى . (الباب الأول) في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان . (الباب الثاني) فيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائدته وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فوائد السفر وفضله ونيتته

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد وله آفات كما ذكرناه في كتاب الصحبة والعزلة . والفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب . فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ولولاه لما كان له مقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهرب عنه إما أمر له نكاي في الأمور الدنيوية . كالطاعون والوباء إذا ظهر ببلد أو خوف سبيه فتنه أو خصومة أو غلاء سعر . وهو إما عام كما ذكرناه أو خاص كمن يقصد بأذية في بلدة فيهرب منها . وإما أمر له نكاي في الدين كمن ابتلى في بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخلو ويحتجب السعة والجاه ، أو كمن يدعى إلى بدعة قهرا أو إلى ولاية عمل لا تحل مباشرته فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه أو دينى ، والدينى إما علم وإما عمل .

والعلم إما علم من العلوم الدينية وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة ؛ وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذى القرنين وطوافه في نواحي الأرض .

والعمل إما عبادة وإما زيارة . والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد . والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس . والشغور فإن الرباط بها قربة . وقد يقصد بها الأولياء والعلماء وهم إما موق فتزار قبورهم وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوة الرغبة في الاقتداء بهم . فهذه هي أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام :

القسم الأول : السفر في طلب العلم ، وهو إما واجب وإما نفل وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا . وذلك

العلم لما علم بأمور دينه أو بأخلاقه في نفسه أو بآيات الله في أرضه . وقد قال عليه السلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع »^(١) ، وفي خبر آخر « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »^(٢) ، وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد . وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كفة تدله على هدى أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا . ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا في حديث بلغهم عن عبد الله أنيس الأنصاري يتحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعوه^(٣) وكل مذكور في العلم يحصل له - من زمان الصحابة إلى زماننا هذا - لم يحصل العلم إلا بالسفر وسافر لأجله ، وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك أيضا مهم فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكها إلا بتحسين الخلق وتهذيبه : ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها . وإنما السفر هو الذي يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخرج الله الخبء في السموات والأرض وإنما سمي السفر . سفرنا لأنه يسفر عن الأخلاق : ولذلك قال عمر رضي الله عنه للذي زكى عنده بعض اليهود : هل صحبتك في السفر الذي يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه . وكان بشر يقول : يا معشر القراء سيحوا تطيبوا فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه في موضع تغير . وبالجملة فإن النفس في الوطن مع موافاة الأسباب لا تظهر خباثت أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة وامتنعت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها ووقع الوقوف على عيوبها فيمكن الاشتغال بعلاجها . وقد ذكرنا في كتاب العزلة فوائد المخالطة والسفر مخالطة مع زيادة اشتغال واحتمال مشاق .

وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات وفيها الجبال والبراري والبحار وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شيء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد . وأما الجاحدون والغافلون والمعترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ وما أريد بالسمع السمع الظاهر - فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه - وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات . ويشترك الإنسان فيه سائر الحيوانات . فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذي هو نطق وراء نطق المقال يشبه قول القائل - حكاية لكلام الوجد والحائط - قال الجدار للوجد : لم تشقى ؟ فقال : سل من يدقني ، ولم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي . وما من ذرة في السموات والأرض إلا ولها أنواع شهادات لله تعالى بالوحدانية هي توحيدها ، وأنواع شهادات لصانعها بالتقدس هي تسبيحها ، واسكن لا يفقهون تسبيحها - لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ومن ركك لسان المقال

كتاب آداب السفر

الباب الأول . في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

(١) حديث « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال حسن غريب (٢) حديث « من سلك طريقا يلتمس فيه علما ... الحديث » رواه مسلم وفتح في العلم (٣) حديث : رحل جابر ابن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر في حديث بلغه عن عبد الله بن أنيس . أخرجه الخطيب في كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابي وقال البخاري في صحيحه : رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ، ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر في حديث ، وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أمير مصر في حديث آخر وكلاهما منقطع .

إلى فصاحة لسان الحال - ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذي يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات . ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر في موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسييحاح من آحاد الذرات ، فماله وللتردد في الفلوات وله غنية في ملكوت السموات ؟ فالشمس والقمر والنجوم بأمره مسخرات . وهى إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات في الشهر والسنة مرات ، بل هى دائبة في الحركة على توالى الأوقات . فمن الغرائب أن يدأب في الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به ، ومن الغرائب أن يطوف في أكناف الأرض من يطوف به أقطار السماء . ثم مادام المسافر مفتقرا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد في المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفرض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام في هذا المنزل إلا الجبن والقصور . ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إنَّ الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أنَّ الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثاني خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التي لا يطؤها إلا بخاطر بنفسه ؛ والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين وربما يأخذ التوفيق بيده فيرشده إلى سواء السبيل ، والهاكون في التيه هم الأكثر من ركاب هذه الطريق ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا فإنه يقل بالإضافة إلى كثرة الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد . ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك . ولا يتصدى لطلب الملك العاجز الجبان لعظيم الخطر وطول التعب :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك في الدين والدنيا إلا في حيز الخطر . وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل :

ترى الجبناء أنَّ الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله في الأرض .

فلنرجع إلى الغرض الذى كنا نقصده ولنبين القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه وأعماله الظاهرة والباطنة في كتاب أسرار الحج ، ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هذا قوله عليه السلام : لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ^(١) ، لأن ذلك في المساجد ، فإنما متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات . والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم

(١) حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... الحديث » تقدم في الحج .

فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة . وفيه أيضا حركة للرغبة في الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم ؛ هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم كيف وبمجرد زيارة الإخوان في الله فيه فضل ؟ كما ذكرناه في كتاب الصحبة . وفي التوراة : سر أربعة أميال زر أخا في الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها ، فالحديث ظاهر في أنه لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة . وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج .

وبيت المقدس أيضا له فضل كبير . خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس ثم كر راجعا من الغد إلى المدينة . وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل : أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه ؛ أن لا تصرف نظرك عنه مادام مقبيا فيه حتى يخرج منه ؛ وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه فأعطاه الله ذلك .

التقسيم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشقوش للدين . وذلك أيضا حسن فالفرار بما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين .

وبما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فلا يتصور أن يشتغل بالدين . ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ، ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها وقد نجا الخفون وهلك المثقلون . والحمد لله الذي لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء ، بل قبل الخف بفضله وشمله بسعة رحمته . والخف هو الذي ليست الدنيا أكبر همه ، وذلك لا يتيسر في الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علاقته ، فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والحنول وقطع العلائق التي لا بد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة . ثم ربما يمدّه الله بمعونته فينعم عليه بما يقوى به يقينه ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها فلا يصده شيء منها عما هو بصدد من ذكر الله ، وذلك مما يعز وجوده جدا بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للتخلق والخلق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء ، والوصول إليها بالكسب شديد وإن كان الاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا . ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء ، فرب رجل قوى ذى مرة سوى شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادة ما وإن كان ذلك لا يبلغه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال . وقد كان من عادة السلف رضى الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن . وقال سفيان الثوري : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف على المشتغلين ؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف في موضع تحول إلى غيره . وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد علق قلته بيده ووضع جرابه على ظهره فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقم بها ، فقلت له : وتفعل هذا ؟ قال : نعم إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها فإنه أسلم لدينك وأقل لهلك وهذا هرب من غلاء السعر . وكان سرى السقطي يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار وطاب الانتشار فانتشروا . وهذا كان الخواص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوما . وكان من المتوكلين ويرى الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا في التوكل . وسيأتي أسرار

الاعتدال على الأسباب في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون ، أو في المال كعلاء السعر أو ما يجرى مجراه . ولا حرج في ذلك بل ربما يجب الفرار في بعض المواضع ، وربما يستحب في بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه ، ولكن يستثنى منه الطاعون فلا ينبغي أن يفتر منه لورود النهي فيه . قال أسامة بن زيد : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الوجع - أو السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقي بعد في الأرض منه ^(١) » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون ؟ قال : غدة كعدة البعير تأخذهم في مرافهم ، المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالمرباط في سبيل الله ، والغاز منه كالغاز من الزحف ^(٢) » ، وعن مكحول عن أم أيمن قالت . أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ، لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت أو حرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فأخرج منه . ولا تترك الصلاة عمداً فإن من ترك الصلاة عمداً فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخمر فإنها مفتاح كل شر : وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ، ولا تفر من الزحف ، وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فائت بهم ، أنفق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أخفهم بالله ^(٣) » ، فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهى عنه وكذلك القدوم عليه . وسيأتى شرح ذلك في كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى مذموم وإلى محمود وإلى مباح . والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون . والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم . ومن هذه الأسباب تدبّر النية في السفر فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية . ولتسكن نيته الآخرة في جميع أسفاره ، وذلك ظاهر في الواجب والمندوب ؛ ومحال في المكروه والمحذور .

وأما للمباح فرجعه إلى النية . فهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة . ولو خرج إلى الحج وباعته الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ^(٤) » ، فقوله صلى الله عليه وسلم الأعمال بالنيات عام في الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر في إخراجها عن كونها من المحظورات : وقد قال بعض السلف : إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته . فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه ؛ وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله . ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له .

وأما النظر في أن السفر هو الأفضل أو الإقامة ، فذلك يضاهي النظر في أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ؟

(١) حديث أسامة بن زيد « إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ... الحديث » متفق عليه والله اعلم .
(٢) حديث عائشة « إن فناء أمتي بالطعن والطاعون ... الحديث » رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد .
(٣) حديث أم أيمن : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أهله « لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت بالنار » أخرجه البيهقي وقال فيه إرسال . (٤) حديث « الأعمال بالنيات » متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم .
(٣٢ - إحياء علوم الدين - ٢)

وقد ذكر منهاجه في كتاب العزلة فليشبههم هذا منه فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب في حق الأكثرين . والأفضل في هذا ما هو الأعون على الدين : ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى ، والآنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر . ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما . والسفر هو المعين على التعلم في الابتداء . والإقامة هي المعينة على العمل بالعلم في الانتهاء . وأما السياحة في الأرض على الدوام فمن المشوشات للقلب إلا في حق الأقوياء ، فإن المسافر وماله لعل قلبه إلا ما وفي الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله ، وتارة بمفارقة مآلفه واعتاده في إقامته . وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع . ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال ، فلا ينبغي أن يسافر المرید إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به في سيرته وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالكسبون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار - لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين - قد ألقوا البطالة واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلأنوا جانب السؤال والكدية ، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد ، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم واستخفوا عقولهم وأديانهم : من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسמعة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تحللاً بكثرة الاتباع ، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم ناقد ، ولا تأديب المریدین نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاهات منزهات ، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في خرقتهم وفي سياحتهم وفي لفظهم وعبارتهم وفي آداب ظاهرة من سيرتهم ، فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ويعتقدون أن كل سوداء ثمرة ، ويتوهمون أن المشاركة في الظاهر توجب المساهمة في الحقائق وهيئات ! فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم ؟ فهؤلاء بغضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ . ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ ، إلا من سافر لحج أو عمرة في غير رياء ولا سمعة ، أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به في علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن . والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت إلا التصوف فإنه قد انمحق بالكلية وبطل ، لأن العلوم لم تدرس بعد ، والعالم وإن كان عالم سوء فإنما فساده في سيرته لا في علمه ، فيبقى عالم غير عامل بعلمه ، والعمل غير العلم . وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى واستحقار ماسوى الله . وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح . ومهما فسد العمل فات الأصل . وفي أسفار هؤلاء نظر للفقهاء من حيث إنه إلتعاب للنفس بلا فائدة ، وقد يقال إن ذلك ممنوع . ولكن الصواب عندنا أن نحكم بالإباحة فإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة ، وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفس المتحركين لهذه الحظوظ أيضا خسيسة ، ولا بأس بإلتعاب حيوان خسيس لحظ خسيس يليق به ويعود إليه ، فهو المتأذى والمتلذذ . والفتوى تقتضى تشتيت العوام في المباحات التي لا نفع فيها ولا ضرر : فالساجون في غير مهم في الدين والدنيا بل لحض التفرج في البلاد كالبهايم المترددة في الصحارى فلا بأس بسياحتهم ما كفوا عن الناس شرهم ولم يلبسوا على الخاق حالهم ، ولما عصيانهم في التلبس والسؤال على اسم التصوف والأكل من الأوقاف التي وقفت على الصوفية ، لأن الصوفي عبارة عن رجل صالح عدل في دينه مع صفات أخر

وراء الصلاح ، ومن أقل صفات أحوال هؤلاء أكلهم أموال السلاطين ، وأكل الحرام من الكبار فلا تبق معه العدالة والصلاح ، ولو تصور صوفي فاسق لتصور صوفي كافر وفقهه يهودى . وكما أن الفقيه عبارة عن مسلم مخصوص فالصوفي عبارة عن عدل مخصوص لا يقتصر في دينه على القدر الذى يحصل به العدالة . وكذلك من نظر إلى ظواهرهم ولم يعرف بواطنهم وأعطاهم من ماله على سبيل التقرب إلى الله تعالى حرم عليهم الأخذ وكان مأكله سمياً ، وأعنى به إذا كان المعطى بحيث لو عرف بواطن أحوالهم ما أعطاهم : فأخذ المال بإظهار التصوف من غير اتصاف بحقيقته كأخذه بإظهار نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الدعوى ، ومن زعم أنه علوى وهو كاذب وأعطاه مسلم مالا لحبه أهل البيت ولو علم أنه كاذب لم يعطه شيئاً فأخذه على ذلك حرام ، وكذلك الصوفى . ولهذا احترز المحتاطون عن الأكل بالدين فإن المبالغ في الاحتياط لدينه لا ينفك في باطنه عن عورات لو انكشفت للراغب في مواساته لغرت رغبته عن المواساة . فلا جرم كانوا لا يشترون شيئاً بأنفسهم مخافة أن يساحوا لأجل دينهم فيكونوا قد أكلوا بالدين . وكانوا يوكلون من يشتري لهم ويشترطون على الوكيل أن لا يظهر أنه لمن يشتري . نعم إنما يحل أخذ ما يعطى لأجل الدين إذا كان الأخذ بحيث لو علم المعطى من باطنه ما يعمله الله تعالى لم يقتض ذلك فتوراً في رأيه فيه ، والعاقل المنصف يعلم من نفسه أن ذلك ممنوع أو عزيز ؛ والمغرور الجاهل بنفسه أخرى بأن يكون جاهلاً بامر دينه : فإن أقرب الأشياء إلى قلبه قلبه فإذا التبس عليه أمر قلبه فكيف ينكشف له غيره ؟ ومن عرف هذه الحقيقة لزمه لا محالة أن لا يأكل إلا من كسبه ليأمن من هذه الغائلة ، أو لا يأكل إلا من مال من يعلم قطعاً أنه لو انكشف له عورات باطنه لم يمنعه ذلك عن مواساته . فإن اضطر طالب الحلال ومريد طريق الآخرة إلى أخذ مال غيره فليصرح له ، وليقل إنك إن كنت تعطينى لما تعتقده في من الدين فلست مستحقاً لذلك ، ولو كشف الله تعالى سترى لم ترفى بعين التوقير ، بل اعتقدت أبى شر الخلق أو من شرارهم ، فإن أعطاه مع ذلك فليأخذ ، فإنه ربما يرضى منه هذه الخصلة وهو اعترافه على نفسه بركاكة الدين وعدم استحقاقه لما يأخذه . ولكن ههنا مكيدة للنفس بينة ومخادعة فليستفطن لها ، وهو أنه قد يقول ذلك مظهرًا أنه مثبته بالصالحين في ذمهم نفوسهم واستحقاقهم لها ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء ، فتكون صورة الكلام صورة القدح والازدراء وباطنه وروحه هو عين المدح والإطراء ، فكم من ذام نفسه وهو لها مباح بعين ذمه ، فدم النفس في الخلوة مع النفس هو الحمود . وأما الذم في المثل فهو عين الرياء إلا إذا أوردته إيراداً يحصل للمستمع يقيناً بأنه مقترف للذنوب ومعتزف بها . وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال ويمكن تليسه بقرائن الأحوال . والصادق بينه وبين الله تعالى يعلم أن مخادعته لله عز وجل أو مخادعته لنفسه محال ، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك . فهذا هو القول في أقسام السفر ونية المسافر وفضيلته .

الفصل الثانى

في آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهى أحد عشر آداباً

الأول : أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لمن تلزمه نفقته . وبرد الودائع إن كانت عنده ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب ، وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه . قال ابن عمر رضى الله عنهما من كرم الرجل طيب زاده في سفره . ولا بد في السفر من طيب الكلام ولطعام الطعام وإظهار مكارم الأخلاق في السفر ، فإنه يخرج خبايا الباطن . ومن صلح لصحبة السفر صلح لصحبة الحضر : وقد يصلح في الحضر من لا يصلح في السفر . ولذلك

قيل : إذا أتى على الرجل معاملوه في الحضر ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه . والسفر من أسباب الضجر ، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق ، وإلا فعند مساعدة الأمور على وفق الغرض قلما يظهر سوء الخلق .

وقد قيل ثلاثة لا يلامون على الضجر : الصائم والمريض والمسافر ، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكارى ومعاونة الرفقة بكل ممكن والرفق بكل منقطع بأن لا يجاوزه إلا بالإعانة بمركوب أو زاد أو توقف لأجله . وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاج ومطابقة في بعض الأوقات من غير نخش ولا معصية ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه .

الثاني : أن يختار رفيقا فلا يخرج وحده ، فالرفيق ثم الطريق . وليكن رفيقه ممن يعينه على الدين فيذكره إذا نسي ويعينه ويساعده إذا ذكر ، فإن المرء على دين خليله ولا يعرف الرجل إلا برفيقه . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن أن يسافر الرجل وحده ^(١) وقال : الثلاثة نفر ، ^(٢) وقال أيضا : إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمرُوا أحدكم ^(٣) ، وكانوا يفعلون ذلك ويقولون : هذا أميرنا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤) . وليؤمروا أحسنهم أخلاقا وأرفقهم بالأصحاب وأسرعهم إلى الإيثار وطلب الموافقة . وإنما يحتاج إلى الأمير لأن الآراء تختلف في تعيين المنازل والطرق ومصالح السفر ، ولأنظام إلا في الوحدة ولا فساد إلا في الكثرة . وإنما انتظم أمر العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ ومهما كان المدبر واحدا انتظم أمر التدبير . وإذا كثر المدبرون فسدت الأمور في الحضر والسفر ، إلا أن مواطن الإقامة لا تخلو عن أمير عام كأمر البلد . وأمير خاص كرب الدار . وأما السفر فلا يتعين له أمير إلا بالتأثير . فلهذا وجب التأثير ليجتمع شتات الآراء . ثم على الأمير أن لا ينظر إلا لمصلحة القوم وأن يجعل نفسه وقاية لهم ، كما نقل عن عبد الله المروزي أنه صحبه أبو على الرباطي فقال : على أن تكون أنت الأمير أو أنا ، فقال : بل أنت ، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي على ظهره فأمرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه وفي يده كساء ، يمنع عنه المطر فكلما قال له عبد الله : لا تفعل ، يقول ، ألم تقل إن الإمارة مسلبة لي ؟ فلا تتحكم على ولا ترجع عن قولك : حتى قال أبو على : وددت أني مت ولم أقل له أنت الأمير ، فهكذا ينبغي أن يكون الأمير . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، خيرا للأصحاب أربعة ^(٥) ، وتخصيص الأربعة من بين سائر الأعداد لا بد أن يكون له فائدة ، والذي ينقدح فيه أن المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه وعن حاجة يحتاج إلى التردد فيها ، ولو كانوا ثلاثة لكان المتردد في الحاجة واحدا فيبقى في السفر بلا رفيق ، فلا يخلو عن خطر وعن ضيق قلب لفقد أنس الرفيق ، ولو تردد في الحاجة اثنان لكان الحافظ للرحل واحدا ، فلا يخلو أيضا عن الخطر وعن ضيق الصدر . فإذا كان الأربعة لا يفي بالمقصود ، وما فوق الأربعة يزيد فلا تجمعهم رابطة واحدة فلا ينعقد بينهم الترافق ، لأن الخامس زيادة بعد الحاجة ، ومن يستغنى عنه لا تنصرف الهمة إليه فلا تتم المرافقة معه . نعم في كثرة الرفقاء فائدة للأمن من المخاوف

(١) حديث : النهي عن أن يسافر الرجل وحده . أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ « لو يعلم الناس ما في الوحدة ماسار راكب ليل وحده » . (٢) حديث « الثلاثة نفر » رواه من حديث علي في وميته الممهورة وهو حديث موضوع والمعروف « الثلاثة ركب » رواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٣) حديث « إذا كنتم ثلاثة فأمرُوا أحدكم » أخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن . (٤) حديث : كانوا يفعلون ذلك ويقولون هو أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم . أخرجه البخاري والحاكم عن عمر أنه قال : إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرُوا أحسنهم . أخرجه أحمد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين . (٥) حديث « خير الأصحاب أربعة » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث ابن عباس قال الترمذي حسن غريب وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولكن الأربعة خير للرفقة الخاصة لا للرفقة العامة . وكمن رفيق في الطريق عند كثرة الرفاق لا يكلم ولا يخالط إلى آخر الطريق للاستغناء عنه .

الثالث : أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء : وليدع عند الوداع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من مكة إلى المدينة حرسها الله ، فلما أردت أن أفارقه شيعني وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال لقمان إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك ^(١) ، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة ^(٢) ، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ودع رجلاً قال : زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك إلى الخير حيث توجهت ^(٣) ، فهذا دعاء المقيم للودع . وقال موسى بن وردان : أتيت أبا هريرة رضي الله عنه أودعه لسفر أردته . فقال ألا أعلمك يا ابن أخي شيئاً علمنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الوداع ، فقلت بلى قال قل : أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه ^(٤) ، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أريد سفراً فأوصني فقال له : في حفظ الله وفي كنفه زدك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث كنت أو أينما كنت ^(٥) ، شك فيه الراوى .

وينبغي إذا استودع الله تعالى ما يخلفه أن يستودع الجميع ولا يخصص . فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال له الرجل : أحدثك عنه يا أمير المؤمنين بأمر ، إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حاملة به فقالت : تخرج وتدعني على هذه الحالة ؟ فقلت : أستودع الله ما في بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه النار من قبر فلانة نراها كل ليلة ، فقلت : والله إنها كانت لصقامة قوامة ، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل لي إن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها ، فقال عمر رضي الله عنه : لهُو أشبه بك من الغراب بالغراب .

الرابع : أن يصلي قبل سفره صلاة الاستخارة كما وصفناها في كتاب الصلاة . ووقت الخروج يصلي لأجل السفر ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى ابني أم أخى أم أبى : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلهن في بيته إذا شدة عليه ثياب سفره ، يقرأ فيهن بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثم يقول : اللهم إني أتقرب بهن إليك فأخلفني بهن في أهلى ومالى فهى خليفته في أهله وماله وحرز حول داره حتى يرجع إلى أهله ^(٦) .

(١) حديث ابن عمر : قال لقمان إن الله إذا استودع شيئاً حفظه وإنى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك . أخرجه النسائي في اليوم واليلة ورواه أبو داود مختصراً ولسنا ندره جيد . (٢) حديث زيد بن أرقم : إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل له في دعائهم البركة . أخرجه الخرائط في مكارم الأخلاق بسند ضعيف . (٣) حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : كان إذا ودع رجلاً قال زدك الله التقوى . رواه الخرائط في مكارم الأخلاق والحاملى في الدعاء وفيه ابن لهيعة .

(٤) حديث أبي هريرة : أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه . أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة باسناد حسن . (٥) حديث أنس : أن رجلاً قال لى نذرت سفراً وقد كتبت وصيتي فإلى أى الثلاثة أدفعها ؟ إلى أبى أم أخى أم امرأتى فقال : ما استخلف عبد في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات . الحديث . أخرجه الخرائط في مكارم الأخلاق وفيه من لا يعرف .

الخامس : إذا حصل على باب الدار فليقل : بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على ، فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت اللهم أنت ثقة وأنت رجائي فاكفني ما أهمني وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك اللهم زدني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . وليدع بهذا الدعاء في كل منزل يرحل عنه . فإذا ركب الدابة فليقل : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . فإذا استوت الدابة تحته فليقل ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور .

السادس : أن يرحل عن المنزل بكرة . روى جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس وهو يريد تبوك وقال : اللهم بارك لأمتي في بكورها ^(١) : ويستحب أن يبتدئ بالخروج يوم الخميس ، فقد روى عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس ^(٢) . وروى أنس : أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم السبت ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرية بعثها أول النهار ^(٣) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها ^(٤) ، وقال عبد الله بن عباس : إذا كان لك إلى رجل حاجة فاطلبها منه نهارة ولا تطلبها ليلاً واطلبها بكرة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، اللهم بارك لأمتي في بكورها ^(٥) .

ولا ينبغي أن يسافر بعد طلوع الفجر من يوم الجمعة فيكون عاصياً بترك الجمعة ، واليوم منسوب إليها - فكان أوله من أسباب وجوبها . والتشجيع للوداع مستحب وهو سنة قال صلى الله عليه وسلم : لأن أشيع مجاهد في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو زوحة أحب إلى الدنيا وما فيها ^(٦) .

السابع : أن لا ينزل حتى يحمي النهار فهي السنة ويكون أكثر سيره بالليل . قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالدلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار ^(٧) ، ومهما أشرف على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلمن ورب الأرضين السبع وما أظلمن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر ما فيه اصرف عني شر شرارهم . فإذا نزل المنزل فليصل فيه ركعتين ثم ليقل : اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق . فإذا جن عليه الليل فليقل : يا أرض ! رب وربك الله أعوذ بالله من شرك ومن شر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله

(١) حديث جابر : أنه صلى الله عليه وسلم رحل يوم الخميس يريد تبوك وقال : اللهم بارك لأمتي في بكورها » رواه الخرائطي وفي السنن الأربعة من حديث صخر العامري « اللهم بارك لأمتي في بكورها » قال الترمذي حديث حسن . (٢) حديث كعب ابن مالك : قلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى سفر إلا يوم الخميس والسبت » أخرجه البزار مقتصراً على يوم خميسها والخرائطى مقتصراً على يوم السبت وكلاهما ضعيف . (٣) حديث : كان إذا بعث سرية بعثها أول النهار . أخرجه الأربعة من حديث صخر العامري وحسنه الترمذي . (٤) حديث أبي هريرة « اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها » أخرجه ابن ماجه والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له وقال ابن ماجه « يوم الخميس » وكلا الإسنادين ضعيف . (٥) حديث ابن عباس : إذا كانت لك إلى رجل حاجة فاطلبها إليه نهارة ... الحديث أخرجه البزار والطبراني في الكبير والخرائطى في مكارم الأخلاق واللفظ له وإسناده ضعيف . (٦) حديث « لأن أشيع مجاهد في سبيل الله فأكتنفه على رحله غدوة أو زوحة أحب إلى من الدنيا وما فيها » رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث معاذ بن أنس . (٧) حديث « عليكم بالدلة .. الحديث . تقدم » في الباب الثاني من الحجج .

من شر كل أسد وأسد وحية وعقرب ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد ﴿ وله ماسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ ومهما علا شرفا من الأرض في وفات السير فينبغي أن يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال ، ومهما هبط سبح ومهما خاف الوحشة في سفره قال : سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

الثامن : أن يحتاط بالنهار فلا يمشى منفردا خارج القافلة - لأنه ربما يغتال أو ينقطع - ويكون بالليل متحفظا عند النوم . كان صلى الله عليه وسلم إذا نام في ابتداء الليل في السفر افترش ذراعيه وإن نام في آخر الليل نصب ذراعيه نصبا وجعل رأسه في كفه (١) . والغرض من ذلك أن لا يستثقل في النوم فتطلع الشمس وهو نائم لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يطلبه بسفره .

والمستحب بالليل أن يتناوب الرفقاء في الحراسة فإذا نام واحد حرس آخر (٢) فهذه السنة . ومهما قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهادة الله وسور الإخلاص والمعوذتين . وليقل : بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ما شاء الله لا يأتي بالخيرات إلا الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى سمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولادون الله ملجأ ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ تحصنت بالله العظيم واستعنت بالحق القيوم الذي لا يموت اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكفنا بركتك الذي لا يرام اللهم ارحمنا بقدرتك علينا فلا تهلك وانت ثقتنا ورجاؤنا اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإمائك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين .

التاسع : أن يرفق بالدابة إن كان راكبا فلا يحملها مالا تطيق . ولا يضربها في وجهها فإنه منهي عنه ، ولا ينام عليها فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة : وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي (٣) ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وغشية يروحها بذلك (٤) فهو سنة وفيه آثار عن السلف .

وكان بعض السلف يكتري بشرط أن لا ينزل ويوفي الأجرة . ثم كان ينزل ليكون بذلك محسنا إلى الدابة فيوضع في ميزان حسناته لاني ميزان حسنات المسكاري . ومن آذى بهيمة بضرب أو حمل مالا تطيق طوبى به يوم القيامة إذ في كل كبده حراء أجر . قال أبو الدرداء رضي الله عنه لبعير له عند الموت : أيها البعير لا تخافني إلى ربك فأني لم أك أحملك فوق طاقتك . وفي النزول ساعة صدقتان ، إحداها : ترويح الدابة : والثانية : إدخال السرور على قلب المسكاري . وفيه فائدة أخرى وهي رياضة البدن وتحريك الرجلين . والحذر من خدر الأعضاء بطول الركوب . وينبغي أن يقرر مع المسكاري ما يحمله عليها شيئا شيئا ويعرضه عليه ، ويستأجر الدابة بعقد صحيح ثلاثين بينهما نزاع يؤذى القلب ويحمل على الزيادة في الكلام ، فلا يلفظ العبد من قول إلا لديه رقيب عتيد . فليحترز عن كثرة الكلام واللجاج مع المسكاري ، فلا ينبغي أن يحمل فوق المشروط شيئا وإن خف . فإن القليل يجر الكثير ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال رجل لابن المبارك وهو على دابة : حمل لي هذه الرقعة إلى فلان ، فقال : حتى استأذن المسكاري فأني لم أشاركه على هذه الرقعة . فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء إن هذا مما يتساح فيه ولكن

(١) حديث : كان إذا نام في ابتداء الليل في السفر انترس ذراعيه ... الحديث « تقدم في الحج . (٢) حديث تناوب الرفقاء في الحراسة . تقدم في الحج في الباب الثاني . (٣) حديث « لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي » تقدم في الباب الثالث من الحج . (٤) حديث : النزول عن الدابة غدوة وغشية : تقدم فيه .

سلك طريق الورع ؟

العاشر : ينبغي أن يستصحب ستة أشياء . قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول صلى الله عليه وسلم إذا سافر حمل معه خمسة أشياء . المرأة والمسكحة والمقراض والسواك والمشط ^(١) ، وفي رواية أخرى عنها ، ستة أشياء : المرأة والقارورة والمقراض والسواك والمسكحة والمشط . وقالت أم سعد الأنصارية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارقه في السفر المرأة والمسكحة ^(٢) . وقال صهيب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بالإئتمد عند مضجعكم فإنه مما يزيد في البصر وينبت الشعر » ^(٣) ، وروى أنه كان يكتحل ثلاثاً ثلاثاً ، وفي رواية : أنه اكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين ^(٤) . وقد زاد الصوفية الركوة والحبل . وقال بعض الصوفية : إذا لم يكن مع الفقير ركوة وحبل دل على نقصان دينه . وإنما زادوا هذا لما رأوه من الاحتياط في طهارة الماء وغسل الثياب ، فالركوة لحفظ الماء الطاهر ، والحبل لتجفيف الثوب المغسول ولزج الماء من الآبار . وكان الأقولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء . ولا يبالون بالوضوء من الغدران ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضع عمر رضى الله عنه من ماء في جرة نصرانية . وكانوا يكتفون بالأرض والجبال عن الحبل فيفرشون الثياب المغسولة عليها . فهذه بدعة إلا أنها بدعة حسنة ، وإنما البدعة المذمومة ما تضاد السنن الثابتة ، وأما ما يعين على الاحتياط في الدين فمستحسن .

وقد ذكرنا احكام المبالغة في الطهارات في كتاب الطهارة . وأن المتجرد لأمر الدين لا ينبغي أن يؤثر طريق الرخصة بل يحتاط في الطهارة ما لم يمنعه ذلك عن عمل أفضل منه .
وقيل كان الخواص من المتوكلين وكان لا يفارقه أربعة أشياء في السفر والحضر : الركوة والحبل والإبرة بخيوطها والمقراض ، وكان يقول : هذه ليست من الدنيا .

الحادى عشر : في آداب الرجوع من السفر : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة أو غيره يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ^(٥) ، وإذا أشرف على مدينته فليقل : اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً . ثم ليسل إلى أهله من يبشرهم بقدمه كيلاً يقدم عليهم بغتة فيرى ما يكرهه ، ولا ينبغي له أن يطرقهم ليلاً ^(٦) فقد ورد النهى عنه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت ^(٧) وإذا دخل قال « توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يقادر علينا حوباً » ^(٨) .

(١) حديث عائشة : كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء : المرأة والمسكحة والمدرى والسواك والمشط . وفي رواية : ستة أشياء . أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه والخرائطي في مكارم الأخلاق واللفظ له وطرقه كلها ضعيفة .
(٢) حديث أم سعد الأنصارية : كان لا يفارقه في السفر المرأة والمسكحة . رواه الخرائطي واسناده ضعيف .
(٣) حديث صهيب : عليكم بالإئتمد عند مضجعكم فإنه يزيد في البصر وينبت الشعر . أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق بسند ضعيف وهو عند الترمذي وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث ابن عباس وصححه ابن عبد البر وقال الخطابي صحيح الإسناد .
(٤) حديث : كان يكتحل لليمنى ثلاثاً ولليسرى ثنتين . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر بسند لين .
(٥) حديث : كان إذا قفل من حج أو غزو أو غيره يكبر ... الحديث تقدم في الحج . (٦) حديث : النهى عن طروق الأهل ليلاً . تقدم . (٧) حديث : كان إذا قدم من سفر دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين . تقدم . (٨) حديث : كان إذا دخل قال « توباً توباً لربنا أوباً أوباً لا يقادر علينا حوباً » أخرجه ابن السني في اليوم واليلة والحاكم من حديث ابن عباس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه فهو سنة . فقد روى : أنه إن لم يجد شيئاً فليضع في مخلاته حجراً (١) وكان هذا مبالغة في الاستحاثات على هذه المكرمة لأن الاعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به ، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكركم بما يستصحب في الطريق لهم فهذه جملة من الآداب الظاهرة

وأما الآداب الباطنة : ففي الفصل الأول بيان جملة منها . وجملة أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في السفر . ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فيقف ولا ينصرف ولا ينبغي أن يجاوز همه منزله بل ينزل حيث ينزل قلبه وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ويحتد أن يستفيد من كل واحد منهم أدياً أو كلمة لينتفع بها ، لا ليحكي ذلك ويظهر أنه لقي المشايخ . ولا يقيم ببلدة أكثر من أسبوع أو عشرة أيام إلا أن يأمره الشيخ المقصود بذلك . ولا يجالس في مدة الإقامة إلا الفقراء الصادقين . وإن كان قصده زيارة أخ فلا يزيد على ثلاثة أيام فهو حد الضيافة إلا إذا شق على أخيه مفارقتها . وإذا قصد زيارة شيخ فلا يقيم عنده أكثر من يوم وليلة . ولا يشغل نفسه بالعشرة فإن ذلك يقطع بركة سفره . وكلما دخل بلد لا يشتغل بشيء سوى زيارة الشيخ بزيارة منزله ، وإن كان في بيته فلا يدق عليه بابه ولا يستأذن عليه إلى أن يخرج ، فإذا خرج تقدم إليه بأدب فسلم عليه ، ولا يتكلم بين يديه إلا أن يسأله ، فإن سأله أجاب بقدر السؤال ، ولا يسأله عن مسألة مالم يستأذن أولاً . وإذا كان في السفر فلا يكثر ذكر أطعمة البلدان وأصحابها ولا ذكر أصدقائه فيها ، وليذكر مشايخها وفقراءها . ولا يهمل في سفره زيارة قبور الصالحين بل يتفقدتها في كل قرية وبلدة . ولا يظهر حاجته إلا بقدر الضرورة ومع من يقدر على إزالتها . ويلزم في الطريق الذكر وقراءة القرآن بحيث لا يسمع غيره . وإذا كلبه إنسان فليترك الذكر وليجبه مادام يحدثه ثم يرجع إلى ما كان عليه . فإن تبرمت نفسه بالسفر أو بالإقامة فليخالفها فالبركة في مخالفة النفس . وإذا تيسرت له خدمة قوم صالحين فلا ينبغي له أن يسافر تبرماً بالخدمة فذلك كفران نعمة . ومهما وجد نفسه في نقصان عما كان عليه في الحضر فليعلم أن سفره معلول وليرجع إذ لو كان لحق لظهر أثره . قال رجل لأبي عثمان المغربي : خرج فلان مسافراً ، فقال : السفر غربة والغربة ذلة وليس للمؤمن أن يذل نفسه ، وأشار به إلى أن من ليس له في السفر زيادة دين فقد أذل نفسه وإلا فمن الدين لا ينال إلا بذلة الغربة . فليكن سفر المرید من وطن هواه ومراده وطبعه حتى يعز في هذه الغربة ولا يذل فإن من اتبع هواه في سفره ذل لا محالة إما عاجلاً وإما آجلاً .

الباب الثاني : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات

أعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لندياه ولآخرته .

أما زاد الدنيا : فالطعام والشراب وما يحتاج إليه من نفقة . فإن خرج متوكلاً من غير زاد فلا بأس به إذا كان سفره في قافلة أو بين قرى متصلة . وإن ركب البادية وحده أو مسع قوم لا طعام معهم ولا شراب فإن كان من يصبر على الجوع - أسبوعاً أو عشرة مثلاً - أو يقدر على أن يكتفي بالحشيش فله ذلك . وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع ولا القدرة على الاجتزاء بالحشيش ففروجه من غير زاد معصية فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة ولهذا سر سياتي في كتاب التوكل .

(١) حديث لمطراق أهل عند القدوم ولو بحجر . أخرجه الدارقطني من حديث عائشة بإسناد ضعيف .

وليس معنى التوكل التبعاد عن الأسباب بالكلية ، ولو كان كذلك لبطل التوكل بطلب الدلو والحبل ونزع الماء من البئر ، ولوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكا أو شخصا آخر حتى يصب الماء في فيه . فإن كان حفظ الدلو والحبل لا يقدح في التوكل وهو آلة الوصول إلى المشروب فحمل عين المطعوم والمشروب حيث لا ينتظر له وجود أولى بأن لا يقدح فيه . وستأتى حقيقة التوكل في موضعها فإنه يلتبس إلا على المحققين من علماء الدين .

وأما زاد الآخرة : فهو العلم الذى يحتاج إليه في طهارته وصومه وصلاته وعبادته فلا بد وأن يتزود منه ، إذ السفر تارة يخفف عنه أمورا فيحتاج إلى معرفة القدر الذى يخففه السفر كالقصر والجمع والفطر ، وتارة يشدد عليه أمورا كان مستغنيا عنها في الحضر كالعلم بالقبلة وأوقات الصلوات ، فإنه في البلد يكتفى بغيره من محارب المساجد وأذان المؤذنين وفي السفر قد يحتاج إلى أن يتعرف بنفسه . فإذا ما يقتدر على تعلمه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : العلم برخص السفر

والسفر يفيد في الطهارة رخصتين : مسح الخفين والتيمم ، وفي صلاة الفرض رخصتين : القصر والجمع ، وفي النفل رخصتين : أدائه على الرحلة وأدائه ماشيا ، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر . فهذه سبع رخص .
الرخصة الأولى : المسح على الخفين ، قال صفوان بن عسال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفر أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن ^(١) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يمسح على خفيه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافرا ، أو يوما وليلة إن كان مقبلا ولكن بخمسة شروط :

الأول : أن يكون اللبس بعد كمال الطهارة فلو غسل الرجل اليمنى وأدخلها في الخف ثم غسل اليسرى فأدخلها في الخف لم يجوز له المسح عند الشافعى رحمه الله حتى ينزع اليمنى ويعيد لبسها .

الثاني : أن يكون الخف قويا يمكن المشى فيه ، ويجوز المسح على الخف وإن لم يكن منعلا إذا العادة جارية بالتردد فيه في المنازل لأن فيه قوة على الجملة ، بخلاف جورب الصوفية فإنه لا يجوز المسح عليه وكذا الجر موق الضعيف .
الثالث : أن لا يكون في موضع فرض الغسل خرق ، فإن تخرق بحيث انكشف محل الفرض لم يجوز المسح عليه . وللشافعى قول قديم إنه يجوز مادام يستمسك على الرجل ، وهو مذهب مالك رضى الله عنه . ولا بأس به لمسيس الحاجة إليه وتعذر الخرز في السفر في كل وقت . والمداس المنسوج يجوز المسح عليه مهما كان ساترا لا تبدو بشرة القدم من خلاله ، وكذا المشقوق الذى يرد على محل الشق بشرج لأن الحاجة تمس إلى جميع ذلك فلا يعتبر إلا أن يكون ساترا إلى ما فوق الكعبين كيفما كان . فأما إذا ستر بعض ظهر القدم وستر الباقي باللفافة لم يجوز المسح عليه .
الرابع : أن لا ينزع الخف بعد المسح عليه ، فإن نزع فالأولى له استئناف الوضوء ، فإن اقتصر على غسل القدمين جاز .

الخامس : أن يمسح على الموضع المحاذى لمحل فرض الغسل لا على الساق ، وأقله ما يسمى مسحاً على ظهر القدم

الباب الثانى : فيما لا بد للمسافر من تعلمه

(١) حديث صفوان بن عسال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنا مسافرين أو سفرأ أن لا نزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن . أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه والنسائى فى السكبرى وابن خزيمة وابن حبان .

من الخف . وإذا مسح بثلاث أصابع أجزأه ، والأولى أن يخرج من شبه الخلاف وأكمله أن يمسح أعلاه وأسفله دفعة واحدة من غير تكرار (١) كذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووصفه : أن يبذل يدي ويضع رءوس أصابع اليمنى من يده على رءوس أصابع اليمنى من رجله ويمسحه بأن يجر أصابعه إلى جهة نفسه ، ويضع رءوس أصابع يده اليسرى على عقبه من أسفل الخف ويمرها إلى رأس القدم . ومهما مسح مقيماً ثم سافر أو مسافراً ثم أقام غلب حكم الإقامة فليقتصر على يوم وليلة . وعدد الأيام الثلاثة محسوب من وقت حدثه بعد المسح على الخف ، فلو لبس الخف في الحضر ومسح في الحضر ثم خرج وأحدث في السفر وقت الزوال مثلاً مسح ثلاثة أيام ولياليهن من وقت الزوال إلى الزوال من اليوم الرابع ، فإذا زالت الشمس من اليوم الرابع لم يكن له أن يصلي إلا بعد غسل الرجلين فيغسل رجله ويعيد لبس الخف ، ويراعى وقت الحدث ويستأنف الحساب من وقت الحدث . ولو أحدث بعد لبس الخف في الحضر ثم خرج بعد الحدث فله أن يمسح ثلاثة أيام لأن العادة قد تقتضى اللبس قبل الخروج ثم لا يمكن الاحتراز من الحدث . فأما إذا مسح في الحضر ثم سافر اقتصر على مدة المقيمين .

ويستحب لكل من يريد لبس الخف في حضر أو سفر أن ينكس الخف وينفض ما فيه حذراً من حية أو عقرب أو شوك . فقد روى عن أبي أمامة أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفيه فلبس أحدهما ؛ فجاء غراب فاحتمل الآخر ثم رمى به فخرجت منه حية ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » (٢) .

الرخصة الثانية : التيمم بالتراب بدلا عن الماء عند العذر ؛ إنما يتعذر الماء بأن يكون بعيداً عن المنزل بعدا لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث ، وهو البعد الذي لا يعتاده أهل المنزل - في تردهم لقضاء الحاجة - التردد إليه . وكذا إن نزل على الماء عدو أو سبع فيجوز التيمم وإن كان الماء قريباً . وكذا إن احتاج إليه لعطشه في يومه أو بعد يومه لفقد الماء بين يديه فله التيمم . وكذا إن احتاج إليه لعطش أحد رفقاته فلا يجوز له الوضوء ، ويلزمه بذله إما بضمن أو بغير ثمن ولو كان يحتاج إليه لطبخ مرقاة أو لحماً أو لبل فتيت يجمعه به لم يجز له التيمم بل عليه أن يجتزى بالفتيت اليابس ويترك تناول المرقاة . ومهما وهب له الماء وجب قبوله ، وإن وهب له ثمنه لم يجب قبوله لما فيه من المنة . وإن بيع بضمن المثل لزمه الشراء وإن بيع بغير ثمن لم يلزمه . فإذا لم يكن معه ماء وأراد أن يتيمم فأول ما يلزمه طلب الماء مهما جاوز الوصول إليه بالطلب ، وذلك بالتردد حوالى المنزل وتفطيش الرحل وطلب البقايا من الأواني والمطاهر . فإن نسي الماء في رحله أو نسي بئراً بالقرب منه لزمه إعادة الصلاة لتقصيره في الطلب . وإن علم أنه سيجد الماء في آخر الوقت فالأولى أن يصلي بالتيمم في أول الوقت فإن العمر لا يوثق به . وأول الوقت رضوان الله .

تيمم ابن عمر رضي الله عنهما فقبل له : أتتيمم وجدرا ن المدينة تنظر إليك ؟ فقال : أو أبقي إلى أن أدخلها ؟ ومهما وجد الماء بعد الشروع في الصلاة لم تبطل صلاته ولم يلزمه الوضوء . وإذا وجده قبل الشروع في الصلاة لزمه الوضوء .

ومهما طلب فلم يجد فليقتصد صعيداً طيباً عليه تراب يثور منه غبار ، وليضرب عليه كفيه بعد ضم أصابعهما

(١) حديث : مسح على الخف وأسفله . أخرجه أبو داود والترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث المنيرة وهكذا ضعفه البخاري وأبو زرعة . (٢) حديث أبي أمامة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما » رواه الطبراني ، وفيه من لا يعرف .

ضربة فيمسح بها وجهه ، ويضرب ضربة أخرى - بعد نزع الخاتم - ويفرج الأصابع ويمسح بها يديه إلى مرفقيه فإن لم يستوعب بضربة واحدة جميع يديه ضرب ضربة أخرى ، وكيفية التلطف فيه ما ذكرناه في كتاب الطهارة فلا نعيده .

ثم إذا صلى به فريضة واحدة فله أن يتنفل ماشاء بذلك التيمم . وإن أراد الجمع بين فريضتين فعليه أن يعيد التيمم للصلاة الثانية ، فلا يصلي فريضتين إلا بتيممين . ولا ينبغي أن يتيمم لصلاة قبل دخول وقتها ؛ فإن فعل وجب عليه إعادة التيمم . ولينو عند مسح الوجه : استحابة الصلاة . ولو وجد من الماء ما يكفي لبعض طهارته فيستعمله ثم ليتيمم بعده تيمماً تاماً .

الرخصة الثالثة : في الصلاة المفروضة ، القصر : وله أن يقتصر في كل واحدة من الظهر والعصر والعشاء على ركعتين ولكن بشروط ثلاثة : (الأول) أن يؤديها في أوقاتها فلو صارت قضاء فلا يظهر لزوم الإتمام (الثاني) أي ينوي القصر فلو نوى الإتمام لزمه الإتمام ، ولو شك في أنه نوى القصر أو الإتمام لزمه الإتمام . (الثالث) أي لا يقتدى بمقيم ولا بمسافر متم ، فإن فعل لزمه الإتمام بل إن شك في أن إمامه مقيم أو مسافر لزمه الإتمام ، وإن تيقن بعده أنه مسافر لأن شعار المسافر لا تخفى فليكن متحققاً عند النية ، وإن شك في أن إمامه هل نوى القصر أم لا بعد أن عرف أنه مسافر - لم يضره ذلك ، لأن النيات لا يطلع عليها . وهذا كله إذا كان في سفر طويل مباح .

وحد السفر من جهة البداية والنهاية فيه إشكال فلا بد من معرفته . والسفر هو الانتقال من موضع الإقامة مع ربط القصد بمقصد معلوم ، فالهائم وراكب التعاسيف ليس له الترخص وهو الذي لا يقصد موضعاً معيناً ، ولا يصير مسافراً ما لم يفارق عمران البلد ولا يشترط أن يجاوز خراب البلدة وبساتينها التي يخرج أهل البلدة إليها للتنزه . وأما القرية فالمسافر منها ينبغي أن يجاوز البساتين المحوطة دون التي ليست بمحوطة . ولو رجع المسافر إلى البلد لأخذ شيء نسيه لم يترخص إن كان ذلك وطنه ما لم يجاوز العمران ، وإن لم يكن ذلك هو الوطن فله الترخص إذ صار مسافراً بالانزعاج والخروج منه .

وأما نهاية السفر فبأحد أمور ثلاثة : (الأول) الوصول إلى العمران من البلد الذي عزم على الإقامة به . (الثاني) العزم على الإقامة ثلاثة أيام فصاعداً إما في بلد أو في صحراء . (الثالث) صورة الإقامة وإن لم يعزم كما إذا أقام على موضع واحد ثلاثة أيام سوى يوم الدخول لم يكن له الترخص بعده ، وإن لم يعزم على الإقامة وكان له شغل وهو يتوقع كل يوم إنجازاً ولكنه يتعوق عليه ويتأخر فله أن يترخص وإن طالّت المدة - على أقيس القولين - لأنه منزع بلقبه ومسافر عن الوطن بصورته ولا مبالاة بصورة الثبوت على موضع واحد مع انزعاج القلب ، ولا فرق بين أن يكون هذا الشغل قتالاً أو غيره ، ولا بين أن تطول المدة أو تقصر ، ولا بين أن يتأخر الخروج لمطر لا يعلم بقاءه ثلاثة أيام أو لغيره ؛ إذ ترخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصر في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد ^(١) . وظاهر الأمر أنه لو تمادى القتال لتمادى ترخصه ؛ إذ لا معنى للتقدير بثمانية عشر يوماً . والظاهر أن قصره كان لكونه مسافراً لا لكونه غازياً مقاتلاً هذا معنى القصر .

وأما معنى التطويل فهو أن يكون مرحلتين : كل مرحلة ثمانية فراسخ ، وكل فرسخ ثلاثة أميال ، وكل ميل

(١) حديث : قصره صلى الله عليه وسلم في بعض الغزوات ثمانية عشر يوماً على موضع واحد . أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين في قصة الفتح : فأقام بمكة ثمانية عشر ليلة لا يصلي إلا ركعتين . والبخاري من حديث ابن عباس : أقام بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة . وأبو داود : سبعة عشر . بتقديم السين وفي رواية له : خمسة عشر .

أربعة آلاف خطوة ، وكل خطوة ثلاثة أقدام .

ومعنى المباح أن لا يكون عاقلاً لوالديه هارباً منهما ، ولا هارباً من ماله ، ولا تكون المرأة هاربة من زوجها ، ولا أن يكون من عليه الدين هارباً من المستحق مع اليسار ، ولا يكون متوجهاً في قطع طريق ، أو قتل لإنسان ، أو طلب لإدراج حرام من سلطان ظالم ، أو يسعى بالفساد بين المسلمين .

وبالجملة فلا يسافر الإنسان إلا في غرض ، والغرض هو المحرك . فإن كان تحصيل ذلك الغرض حراماً ولولا ذلك الغرض لكان لا يذبح سفره فسفره معصية ولا يجوز فيه الترخص . وأما الفسق في السفر بشرب الخمر وغيره فلا يمنع الرخصة . بل كل سفر ينهى الشرع عنه فلا يعين عليه بالرخصة ولو كان له باعثن أحدهما مباح والآخر محظور ، وكان بحيث لو لم يكن الباعث له المحظور لكان المباح مستقلاً بتحريكه ولكان لأحالة يسافر لأجله فله الترخص . والمتصوفة الطوافون في البلاد من غير غرض صحيح سوى التفرج لمشاهدة البقاع المختلفة في ترخصهم خلاف ، والمختار أن لهم الترخص .

الرخصة الرابعة ، الجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما ؛ فذلك أيضاً جائز في كل سفر طويل مباح ، وفي جوازه في السفر القصير قولان . ثم إن قدم العصر إلى الظهر فليجمع بين الظهر والعصر في وقتيهما قبل الفراغ من الظهر وليؤذن للظهر وليقيم ، وعند الفراغ يقيم العصر ، ويجدد التيمم أولاً إن كان فرضه التيمم ، ولا يفرق بينهما بأكثر من تيمم وإقامة ، فإن قدم العصر لم يجز ، وإن نوى الجمع عند التحريم بصلاة العصر جاز عند المزني ، وله وجه في القياس إذ لا مستند لإيجاب تقديم النية بل الشرع جاوز الجمع وهذا جمع ، وإنما الرخصة في العصر فتكفي النية فيها ، وأما الظهر فجاء على القانون . ثم إذا فرغ من الصلاتين فينبغي أن يجمع بين سنن الصلاتين ؛ أما العصر فلا سنة بعدها ولكن السنة التي بعد الظهر يصلحها بعد الفراغ من العصر إما راكباً أو مقبياً ، لأنه لو صلى راتبة الظهر قبل العصر لانقطع الموالة وهي واجبة - على وجه - ولو أراد أن يقيم الأربع المسنونة قبل الظهر والأربع المسنونة قبل العصر فليجمع بينهما قبل الفريضة فيصلي سنة الظهر أولاً ثم سنة العصر ، ثم فريضة الظهر ثم فريضة العصر ، ثم سنة الظهر الركعتان اللتان هما بعد الفرض : ولا ينبغي أن يهمل التوافق في السفر فما يفوته من بوابها أكثر مما يناله من الرج ؛ لاسيما وقد خفف الشرع عليه وجوز له أداءها على الراحلة كي لا يتعوق عن الرفقة بسببها . وإن أخر الظهر إلى العصر فيجوز على هذا الترتيب ولا يبالى بوقوع راتبة الظهر بعد العصر في الوقت المكروه لأن ماله سبب لا يكره في هذا الوقت ، وكذلك يفعل في المغرب والعشاء والوتر . وإذا قدم أو أخر فبعد الفراغ من الفرض يشتغل بجميع الرواتب ويختم الجميع بالوتر . وإن خطر له ذكر الظهر قبل خروج وقته فليعزم على أدائه مع العصر جميعاً فهو نية الجمع ؛ لأنه إنما يخلو عن هذه النية إما بنية الترك أو بنية التأخير عن وقت العصر ، وذلك حرام والعزم عليه حرام . وإن لم يتذكر الظهر حتى خرج وقته إما لنوم أو لشغل فله أن يؤدي الظهر مع العصر ولا يكون عاصياً ، لأن السفر كما يشغل عن فعل الصلاة فقد يشغل عن ذكرها . ويحتمل أن يقال إن الظهر إنما تقع أداءً إذا عزم على فعلها قبل خروج وقتها ، ولكن الأظهر أن وقت الظهر والعصر صار مشتركاً في السفر بين الصلاتين ، ولذلك يجب على الحائض قضاء الظهر إذا طهرت قبل الغروب . ولذلك ينقذ أن لا تشترط الموالة ولا الترتيب بين الظهر والعصر عند تأخير الظهر ، أما إذا قدم العصر على الظهر لم يجز لأن ما بعد الفراغ من الظهر هو الذي جعل وقتاً للعصر ، إذ يبعد أن يشتغل بالعصر من هو عازم على ترك الظهر أو على تأخيرها . وعذر المطر يجوز للجمع كعذر السفر . وترك الجمعة أيضاً من رخص السفر وهي متعلقة أيضاً بفرائض الصلوات . ولو نوى

الإقامة بعد أن صلى العصر فأدرك وقت العصر في الحضر فعليه أداء العصر ، وما مضى إنما كان مجزئاً بشرط أن يبقى العذر إلى خروج وقت العصر .

الرخصة الخامسة : التنفل راكباً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته ^(١) وأوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الراحلة . وليس على المتنفل الراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء . وينبغي أن يجعل سجوده أخفض من ركوعه ، ولا يلزمه الانحناء إلى حد يتعرض به لخطر بسبب الدابة . فإن كان في مرقد فليتم الركوع والسجود فإنه قادر عليه .

وأما استقبال القبلة فلا يجب إلا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها ، ولكن صوب الطريق بدل عن القبلة . فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في صوب الطريق لتسكون له جهه يثبت فيها ، فلو حرف دابته عن الطريق قصداً بطلت صلاته إلا إذا حرفها إلى القبلة . ولو حرفها ناسياً وقصر الزمان لم تبطل صلاته ، وإن طال ففيه خلاف وإن جمحت به الدابة فأنحرفت لم تبطل صلاته - لأن ذلك مما يكثر وقوعه - وليس عليه سجود سهو إذ الجماع غير منسوب إليه ، بخلاف ما لو حرف ناسياً فإنه يسجد للسهو بالإيماء .

الرخصة السادسة : التنفل للماشي جائز في السفر ويومئ بالركوع والسجود ، ولا يقعد للتشهد لأن ذلك يبطل فائدة الرخصة وحكمه حكم الراكب ؛ لكن ينبغي أن يتحرم بالصلاة مستقبلاً للقبلة ؛ لأن الانحراف في لحظة لا عسر عليه فيه بخلاف الراكب فإن في تحريف الدابة وإن كان العنان بيده نوع عسر ؛ وربما تكررت الصلاة فيطول عليه ذلك . ولا ينبغي أن يمشي في نجاسة رطبة عمداً ؛ فإن فعل بطلت صلاته بخلاف ما لو وطئت دابة الراكب نجاسة . وليس عليه أن يشوش المشي على نفسه بالاحتراز من النجاسات التي لا تخلو الطريق عنها غالباً . وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كما ذكرناه في التنفل .

الرخصة السابعة : الفطر ، وهو في الصوم . فللمسافر أن يفطر إلا إذا أصبح مقياً ثم سافر فعليه لإتمام ذلك اليوم . وإن أصبح مسافراً صائماً ثم أقام فعليه الإتمام . وإن أقام مفطر فليس عليه الإمساك بقية النهار . وإن أصبح مسافراً على عزم الصوم لم يلزمه بل له أن يفطر إذا أراد ، والصوم أفضل من الفطر . والقصر أفضل من الإتمام للخروج عن شبهة الخلاف ، ولأنه ليس في عهدة القضاء بخلاف المفطر فإنه في عهدة القضاء وربما يتعذر عليه ذلك بعائق فيبقى في ذمته ، إلا إذا كان الصوم يضر به فالإفطار أفضل .

فهذه سبع رخص تتعلق ثلاث منها بالسفر الطويل وهي القصر والفطر والمسح ثلاثة أيام . وتعلق اثنتان منها بالسفر طويلاً كان أو قصيراً وهما سقوط الجمعة وسقوط القضاء عند أداء الصلاة بالتيمم . وأما صلاة النافلة ماشياً وراكباً ففيه خلاف والأصح جوازه في القصير . والجمع بين الصلاتين فيه خلاف والأظهر اختصاصه بالطويل . وأما صلاة الفرض راكباً وماشياً للخوف فلا تتعلق بالسفر ، وكذا أكل الميتة ، وكذا أداء الصلاة في الحال بالتيمم عند فقد الماء ، بل يشترك فيها الحضر والسفر مهما وجدت أسبابها .

• فإن قلت . فالعلم بهذه الرخص هل يجب على المسافر تعلمه قبل السفر أم يستحب له ذلك فاعلم أنه إن كان عازماً على ترك المسح والقصر والجمع والفطر وترك التنفل راكباً وماشياً لم يلزمه علم شروط الترخص في ذلك ، لأن الترخص ليس بواجب عليه . وأما علم رخصة التيمم فيلزمه لأن فقد الماء ليس إليه ، إلا أن يسافر على شاطئ نهر

(١) حديث : كان يصلي على راحلته أينما توجهت به دابته وأوتر على الراحلة . متفق عليه من حديث ابن عمر .

يرثق ببقاء مائه ، أو يكون معه في الطريق عالم يقدر على استفتائه عند الحاجة ، فله أن يؤخر إلى وقت الحاجة .
لما إذا كان يظن عدم المساء ولم يكن معه فيلزمه التعلم لاحالة .

• فإن قلت : التيمم يحتاج إليه لصلاة لم يدخل بعد وقتها فكيف يجب علم الطهارة لصلاة بعد لم يجب وربما لا يجب ؟ فأقول : من بينه وبين الكعبة مسافة لا تقطع إلا في سنة ؛ فيلزمه قبل أشهر الحج ابتداء السفر . ويلزمه تعلم المناسك لاحالة إذا كان يظن أنه لا يجد في الطريق من يتعلم منه ؛ لأن الأصل الحياة واستمرارها . وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب . وكل ما يتوقع وجوبه توقعا ظاهرا على الظن وله شرط لا يتوصل إليه إلا بتقديم ذلك الشرط على وقت الوجوب فيجب تقديم تعلم الشرط لاحالة ، كعلم المناسك قبل وقت الحج وقبل مباشرته . فلا يحل إذن للمسافر أن يثني السفر ما لم يتعلم هذا القدر من علم التيمم . وإن كان عازما على سائر الرخص فعليه أن يتعلم أيضا القدر الذي ذكرناه من علم التيمم وسائر الرخص ؛ فإنه إذا لم يعلم القدر الجائز لرخصة السفر لم يمكنه الاقتصار عليه .

• فإن قلت : إنه إن لم يتعلم كيفية التنفل راكبا وماشيا ماذا يضره وغايته إن صلى أن تكون صلاته فاسدة ؟ وهي غير واجبة فكيف يكون عليها واجبا ؟ فأقول : من الواجب أن لا يصلي النفل على نعت الفساد ، فالتنفل مع الحدث والنجاسة وإلى غير القبلة ومن غير إتمام شروط الصلاة وأركانها حرام ، فعليه أن يتعلم ما يحترز به عن النافلة الفاسدة حذرا عن الوقوع في المحظورات . فهذا بيان علم ما خفف عن المسافر في سفره .

القسم الثاني : ما يتجدد من الوظيفة بسبب السفر

وهو علم القبلة والأوقات : وذلك أيضا واجب في الحضر ، ولكن في الحضر من يكفيه من محراب متفق عليه يغنيه عن طلب القبلة ومؤذن يراعى الوقت فيغنيه عن طلب علم الوقت .

والمسافر قد تشبه عليه القبلة وقد يلتبس عليه الوقت فلا بد له من العلم بأدلة القبلة والمواقيت . أما أدلة القبلة فهي ثلاثة أقسام : أرضية ، كالاستدلال بالجبال والقرى والأنهار . وهوائية ، كالاستدلال بالرياح شمالها وجنوبها وصباها ودبورها . وسماوية ، وهي النجوم .

فأما الأرضية والهوائية فتختلف باختلاف البلاد ، فرب طريق فيه جبل مرتفع يعلم أنه على يمين المستقبل أو شماله أو ورائه أو قدامه ، فليعلم ذلك وليفهمه . وكذلك الرياح قد تدل في بعض البلاد فليفهم ذلك . ولست أقدر على استقصاء ذلك إذ اسكل بلد وإقليم حكم آخر .
وأما السماوية فأدلتها تنقسم إلى نهائية وإلى ليلية .

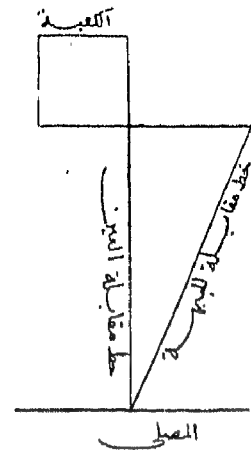
أما النهارية : فالشمس ، فلا بد أن يراعى قبل الخروج من البلد أن الشمس عند الزوال أين تقع منه ، أي بين الحاجبين ؟ أو على العين اليمنى ؟ أو اليسرى ؟ أو تميل إلى الجبين ميلا أكثر من ذلك ؟ فإن الشمس لا تعدو في البلاد الشمالية هذه المواقع . فإذا حفظ ذلك فهم عرف الزوال بدليله الذي سنذكره عرف القبلة به . وكذلك يراعى مواقع الشمس منه وقت العصر . فإنه في هذين الوقتين يحتاج إلى القبلة بالضرورة . وهذا أيضا لما كان يختلف بالبلاد فليس يمكن استقصاءه

وأما القبلة وقت المغرب فإنها تدرك بموضع الغروب . وذلك بأن يحفظ أن الشمس تغرب عن يمين المستقبل ، أو هي مائلة إلى وجهه ، أو قفاه . وبالشفق أيضا تعرف القبلة للعشاء الأخيرة .

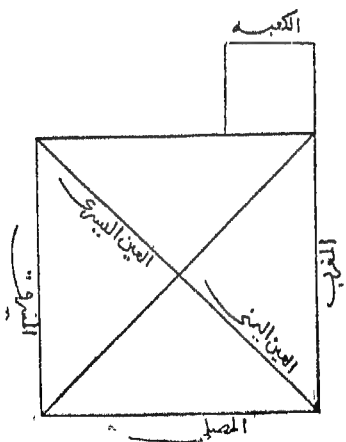
وبشرق الشمس تعرف القبلة لصلاة الصبح . فكأن الشمس تدل على القبلة في الصلوات الخمس ، ولكن يختلف ذلك بالشتاء والصيف . فإن المشرق والمغرب كثيرة وإن كانت محصورة في جهتين ، فلا بد من تعلم ذلك أيضا . ولكن قد يصل المغرب والعشاء بعد غيبوبة الشفق فلا يمكنه أن يستدل على القبلة به . فعليه أن يراعى موضع القطب . وهو الكوكب الذي يقال له : الجدى : فإنه كوكب كالنات لا تظهر حركته عن موضعه ، وذلك إما أن يكون على قفا المستقبل ، أو على منكب الأيمن من ظهره ، أو منكب الأيسر في البلاد الشمالية من مكة . وفي البلاد الجنوبية كالين وما والاها فيقع في مقابلة المستقبل ؛ فيتعلم ذلك ، وما عرفه في بلده فليقول عليه في الطريق كله إلا إذا طال السفر ، فإن المسافة إذا بعدت اختلف موقع الشمس وموقع القطب وموقع المشرق والمغرب ، إلا أن ينتهي في أثناء سفره إلى بلاد فينبغي أن يسأل أهل البصرة . أو يراقب هذه الكواكب وهو مستقبل محراب جامع البلد حتى يتضح له ذلك . فهما تعلم هذه الأدلة فله أن يقول عليها . فإن بان له أنه أخطأ من جهة القبلة إلى جهة أخرى من الجهات الأربع فينبغي أن يقضى . وإن انحرف عن حقيقة محاذاة القبلة ولكن لم يخرج عن جهتها لم يلزمه القضاء .

وقد أورد الفقهاء خلافا في أن المطلوب جهة الكعبة أو عينها ، وأشكل معنى ذلك على قوم إذ قالوا : إن قلنا إن المطلوب العين فتى يتصور هذا مع بعد الديار ؟ وإن قلنا : إن المطلوب الجهة فالواقف في المسجد إن استقبل جهة الكعبة وهو خارج بيده عن موازاة الكعبة لا خلاف في أنه لا تصح صلاته . وقد طولوا في تأويل معنى الخلاف في الجهة والعين . ولا بد أولا من فهم معنى مقابلة العين ومقابلة الجهة .

فمعنى مقابلة العين : أن يقف موقفا لو خرج خط مستقيم من بين عينيه إلى جدار الكعبة لاتصل به وحصل من جانبي الخط زاويتان متساويتان (وهذه صورته والخط الخارج من موقف المصلى يقدر أنه خارج من بين عينيه) وهذه صورة مقابلة العين :



وأما مقابلة الجهة . فيجوز فيها أن يتصل طرف الخط الخارجى من بين العينين إلى الكعبة من غير أن يتساوى الزاويتان عن جهتي الخط ، بل لا يتساوى الزاويتان إلا إذا انتهى الخط إلى نقطة معينة هي واحدة . فلو مد هذا الخط على الاستقامة إلى سائر النقط من يمينها أو شمالها كانت إحدى الزاويتين أضيق ، فيخرج



عن مقابلة العين ولكن لا يخرج عن مقابلة الجهة - كالخط الذى كتبنا عليه مقابلة الجهة - فإنه لو قدر الكعبة على طرف ذلك الخط لكان الواقف مستقبلا لجهة الكعبة لا لعينها .

وحد تلك الجهة ما يقع بين خطين يتوهمهما الواقف مستقبلا لجهة خارجين من العينين ، فيلتقى طرفاهما في داخل الرأس بين العينين على زاوية قائمة ، فما يقع بين الخطين الخارجين من العينين فهو داخل في الجهة . وسعة ما بين الخطين تزايد بطول الخطين وبالبعد عن الكعبة (وهذه صورته) :

فإذا فهم معنى العين والجهة فأقول . الذى يصح عندنا فى الفتوى أن المطلوب العين إن كانت الكعبة مما يمكن رؤيتها ، وإن كان يحتاج إلى الاستدلال عليها لتعذر رؤيتها فيكفى استقبال الجهة .
فأما طلب العين عند المشاهدة فجميع عليه . وأما الاكتفاء بالجهة عند تعذر المعاينة فيدل عليه الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضى الله عنهم والقياس .
أما الكتاب : فقوله تعالى ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ أى نحوه . ومن قابل جهة الكعبة يقال قد ولى وجهه شطرها .

وأما السنة : فما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأهل المدينة « ما بين المغرب والمشرق قبلة ^(١) » . والمغرب يقع على يمين أهل المدينة والمشرق على يسارهم . فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما يقع بينهما قبلة ومساحة الكعبة لا تنفى بما بين المشرق والمغرب وإنما يبنى بذلك جهتها . وروى هذا اللفظ أيضا عن عمر وابنه رضى الله عنهما .

وأما فعل الصحابة رضى الله عنهم : فما روى أن مسجد قباء كانوا فى صلاة الصبح بالمدينة مستقبلين لبيت المقدس مستدبرين الكعبة - لأن المدينة بينهما - فقيل لهم : الآن قد حوّلت القبلة إلى الكعبة . فاستداروا فى أثناء الصلاة من غير طلب دلالة ^(٢) ولم ينكر عليهم . وسمى مسجدهم « ذا القبلتين » ومقابلة العين من المدينة إلى مكة لا تعرف إلا بأدلة هندسية يطول النظر فيها ؛ فكيف أدركوا ذلك على البديهة فى أثناء الصلاة وفى ظلمة الليل ؟ ويدل أيضا من فعلهم أنهم بنوا المساجد حوالى مكة وفى سائر بلاد الإسلام ولم يحضروا قط مهندسا عند تسوية المحاريب ، ومقابلة العين لا تدرك إلا بدقيق النظر الهندسى .

وأما القياس : فهو أن الحاجة تمس إلى الاستقبال وبناء المساجد فى جميع أقطار الأرض ، ولا يمكن مقابلة العين إلا بعلوم هندسية لم يرد الشرع بالنظر فيها ، بل ربما يزجر عن التعمق فى عليها فكيف يبنى أمر الشرع عليها ؟ فيجب الاكتفاء بالجهة للضرورة .

وأما دليل صحة الصورة التى صورناها : وهو حصر جهات العالم فى أربع جهات فقوله عليه السلام فى آداب قضاء الحاجة « لا تستقبلوها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا ^(٣) » ، وقال . هذا بالمدينة - والمشرق على يسار المستقبل بها والمغرب على يمينه - فمنه عن جهتين ورخص فى جهتين . وبمجموع ذلك أربع جهات . ولم يخطر ببال أحد أن جهات العالم يمكن أن تفرض فى ست أو سبع أو عشر . وكيفما كان فما حكم الباقي ؟ بل الجهات تثبت فى الاعتقادات بناء على خلقة الإنسان ، وليس له إلا أربع جهات : قدام وخلف ويمين وشمال فكانت الجهات بالإضافة إلى الإنسان فى ظاهر النظر أربعا . والشرع لا يبنى إلا على مثل هذه الاعتقادات فظهر أن المطلوب الجهة ، وذلك يسهل أمر الاجتهاد فيها وتعلم به أداة القبلة . فأما مقابلة العين فإنها تعرف بمعرفة مقدار عرض مكة عن خط الاستواء ، ومقدار درجات طولها وهو بعدها عن أول عمارة فى المشرق . ثم يعرف ذلك أيضا فى موقف المصلى ، ثم يقابل أحدهما بالآخر . ويحتاج فيه إلى آلات وأسباب طويلة ، والشرع غير مبنى عليها قطعا . فإذا قدر الذى

(١) حديث : ما بين المشرق والمغرب قبلة . أخرجه الترمذى وصححه ، والنسائى وقال منكر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث : إن أهل قباء كانوا فى صلاة الصبح مستقبلين لبيت المقدس فقيل لهم ألا انقلبوا قد حوّلت إلى الكعبة فاستداروا ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث ألس واتفقا عليه من حديث ابن عمر مع اختلاف .

(٣) حديث : لا تستقبلوها القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا . متفق عليه من حديث أبى أيوب .

لابد من تعلمه من أدلة القبلة : موقع المشرق والمغرب في الزوال ، وموقع الشمس وقت العصر . فهذا يسقط الوجوب .

« فإن قلت : فلو خرج المسافر من غير تعلم ذلك هل يعصى ؟ فأقول : إن كان طريقه على قرى متصله فيها محاريب ، أو كان معه في الطريق بصير بأدلة القبلة موثوق بعبد الله وبصيرته ويقدر على تقليده فلا يعصى . وإن لم يكن معه شيء من ذلك عصى . لأنه سيتعرض لوجوب الاستقبال ولم يكن قد حصل عليه فصار ذلك كعلم التيمم وغيره . فإن تعلم هذه الأدلة واستبهم عليه الأمر بغير مظلم . أترك التعلم ولم يجد في الطريق من يقلده ، فعليه أن يصلي في الوقت على حسب حاله ، ثم عليه القضاء سواء أصاب أم أخطأ . والأعمى ليس له إلا التقليد فليقبل من يوثق بدينه وبصيرته إن كان مقلده مجتهدا في القبلة ، وإن كانت القبلة ظاهرة فله اعتماد قول كل عدل يخبره بذلك في حضر أو سفر وليس للأعمى وللجاهل أن يسافر في قافلة ليس فيها من يعرف أدلة القبلة - حيث يحتاج إلى الاستدلال - كما ليس للعالم أن يقيم ببلدة ليس فيها فقيه عالم بتفصيل الشرع ، بل يلزمه الهجرة إلى حيث يجد من يعلم دينه ، وكذا إن لم يكن في البلد إلا فقيه فاسق فعليه الهجرة أيضا إذ لا يجوز له اعتماد فتوى الفاسق ، بل العدالة شرط لجواز قبول الفتوى - كما في الرواية - وإن كان معروفا بالفقه مستورا الحال في العدالة والفسق فله القبول مهما لم يجد من له عدالة ظاهرة لأن المسافر في البلاد لا يقدر أن يبحث عن عدالة المفتين . فإن رآه لا بسا للحرير أو ما يغلب عليه الإبريسم أو راكبا لفرس عليه مركب ذهب فقد ظهر فسقه وامتنع عليه قبول قوله ، فليطلب غيره . وكذلك إذا رآه يأكل على مائدة سلطان أغلب ماله حرام أو يأخذ منه إدرارا أو صلة من غير أن يعلم أن الذي يأخذه من وجهه حلال ، فكل ذلك فسق يقدح في العدالة ويمنع من قبول الفتوى والرواية والشهادة .

وأما معرفة أوقات الصلوات الخمس فلا بد منها . فوقت الظهر يدخل بالزوال ، فإن كل شخص لابد أن يقع له في ابتداء النهار ظل مستطيل في جانب المغرب ، ثم لا يزال ينقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة في جهة المشرق ولا يزال يزيد إلى الغروب . فليقيم المسافر في موضع أو لينصب عودا مستقيما ، وليعلم على رأس الظل ، ثم لينظر بعد ساعة فإن رآه في النقصان فلم يدخل بعد وقت الظهر .

وطريقه في معرفة ذلك أن ينظر في البلد - وقت أذان المؤذن المعتمد - ظل قامته ، فإن كان مثلا ثلاثة أقدام بقدمه فهمما صار كذلك في السفر وأخذ في الزيادة صلى . فإن زاد عليه ستة أقدام ونصفا بقدمه دخل وقت العصر ، إذ ظل كل شخص بقدمه ستة أقدام ونصف بالتقريب . ثم ظل الزوال يزيد كل يوم إن كان سفره من أول الصيف . وإن كان من أول الشتاء فينقص كل يوم . وأحسن ما يعرف به ظل الزوال الميزان فليستصحبه المسافر . وليتعلم اختلاف الظل به في كل وقت . وإن عرف موقع الشمس من مستقبل القبلة وقت الزوال وكان في السفر في موضع ظهرت القبلة فيه بدليل آخر ، فيمكنه أن يعرف الوقت بالشمس بأن تصوير بين عينيه مثلا إن كانت كذلك في البلد .

وأما وقت المغرب فيدخل بالغروب ، ولكن قد تحجب الجبال المغرب عنه ، فينبغي أن ينظر إلى جانب المشرق فهما ظهر سواد في الأفق مرتفع من الأرض قدر ربح فقد دخل وقت المغرب .

وأما العشاء فيعرف بغيوبة الشفق - وهو الحرة - فإن كانت محجوبة عنه بجبال فيعرفه بظهور الكواكب الصغار وكثرتها ، فإن ذلك يكون بعد غيوبة الحرة .

وأما الصبح فيبدو في الأول مستطيلا كذنب السرحان فلا يحكم به إلى أن ينقضي زمان . ثم يظهر بياض

معتز لا يعسر إدراكه بالعين لظهوره ، فهذا أول الوقت . قال صلى الله عليه وسلم « ليس الصبح هكذا - وجمع بين كفيه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما - ^(١) » وأشار به إلى أنه معتز . وقد يستدل عليه بالمازلة وذلك تقريب لتحقيق فيه ، بل الاعتماد على مشاهدة انتشار البياض عرضا لأن قوما ظنوا أن الصبح يطلع قبل الشمس بأربع منازل ، وهذا خطأ لأن ذلك هو الفجر الكاذب . والذي ذكره المحققون أنه يتقدم على الشمس بمنزلتين وهذا تقريب ، ولكن لا اعتماد عليه فإن بعض المنازل تطلع معتزة منحرفة فيقصر زمان طلوعها ، وبعضها منتصب فيطول زمان طلوعها ، ويختلف ذلك في البلد اختلافا يطول ذكره . نعم تصلح المنازل لأن يعلم بها قرب وقت الصبح وبعده ، فأما حقيقة أول الصبح فلا يمكن ضبطه بمنزلتين أصلا . وعلى الجملة فإذا بقيت أربع منازل إلى طلوع قرن الشمس بمقدار منزلة يتيقن أنه الصبح الكاذب ، وإذا بقي قريب من منزلتين يتحقق طلوع الصبح الصادق ، ويبقى بين الصبحين قدر ثلثي منزلة بالتقريب يشك فيه أنه من وقت الصبح الصادق أو الكاذب ، وهو مبدأ ظهور البياض وانتشاره قبل اتساع عرضه . فمن وقت الشك ينبغي أن يترك الصائم السحور ، ويقدم القائم الوتر عليه ولا يصلي صلاة الصبح حتى تنقضي مدة الشك ، فإذا تحقق صلى . ولو أراد مريد أن يقتدر على التحقيق وقتا معينيا يشرب فيه متسحرا ويقوم عقيبته ويصلي الصبح متصلا به لم يقدر على ذلك ، فليس معرفة ذلك في قوة البشر أصلا ، بل لا بد من مهلة للنوقف والشك . ولا اعتماد إلا على العيان ، ولا اعتماد في العيان إلا على أن يصير الضوء منتشرا في العرض حتى تبدو مبادئ الصفرة . وقد غلط في هذا جمع من الناس كثير يصلون قبل الوقت . ويدل عليه ما روى أبو عيسى الترمذي في جامعه بإسناده عن طلق بن علي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر ^(٢) » ، وهذا صريح في رعاية الحرة . قال أبو عيسى - وفي الباب عن عدي بن حاتم وأبي ذر وسمرة بن جندب - وهو حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أهل العلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كلوا واشربوا مادام الضوء ساطعا . قال صاحب الغريبين : أي مستطيلا . فإذا لا ينبغي أن يقول إلا على ظهور الصفرة وكأنها مبادئ الحرة . وإنما يحتاج المسافر إلى معرفة الأوقات لأنه قد يبادر بالصلاة قبل الرحيل حتى لا يشق عليه النزول ، أو قبل النوم حتى يستريح . فإن وطن نفسه على تأخير الصلاة إلى أن يتيقن فسمح نفسه بفوات فضيلة أول الوقت ويتجشم كلفة النزول وكلفة تأخير النوم إلى التيقن استغنى عن تعلم الأوقات . فإن المشكل أوائل الأوقات لا أوساطها .

(١) حديث : ليس الصبح هكذا - وجمع كفه - وإنما الصبح هكذا - ووضع إحدى سبائتيه على الأخرى وفتحهما وأشار إلى أنه معتز - أخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح مختصر دون الإشارة بالكف والسبائتين ، ولأحمد من حديث طلق بن علي « ليس الفجر المستطيل في الأفق لكنه المعتز الأحمر » وإسناده حسن . (٢) حديث طلق بن علي : كلوا واشربوا ولا يهينكم الساطع المصعد وكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر . قال المصنف : رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه وقال : حسن غريب وهو كما فكر ، ورواه أبو داود أيضا .

كتاب آداب السماع والوجد

وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحرق قلوب أوليائه بنار محبته ، واسترق همهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته ، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته ، حتى أصبحوا من تفسم روح الوصال سكرى - وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى ، فلم يروا فى الكونين شيئاً سواه ، ولم يذكروا فى الدارين إلا إياه ، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم ، وإن قرعت أسماعهم نغمه سبقت إلى المحبوب سرائرهم ، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزون أو مبهج أو مشوق أو مهيج لم يكن انزعاجهم إلا إليه ، ولا طربهم إلا به ولا قلقهم إلا عليه ، ولا حزنهم إلا فيه ولا شوقهم إلا إلى ما لديه ، ولا انبعاثهم إلا له ولا تردددهم إلا حواله . فنه سماعهم ، وإليه استماعهم ، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم ، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايتهم ، واستخلصهم من بين أصفياؤه وخاصته . والصلاة على محمد المبعوث برسالته وعلى آله وأصحابه أئمة الحق وقادته ، وسلم كثيراً .

أما بعد : فإن القلوب والسرائر ، خزائن الأسرار ومعادن الجواهر ، وقد طويت فيها جواهرها كما طويت النار فى الحديد والحجر ، كما أخفى الماء تحت التراب والمدر ، ولا سبيل إلى استثارة خفاياها إلا بقوادح السماع ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع ، فالنغمات الموزونة المستلذة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساوئها ، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه . كما لا يشرح الإناء إلا بما فيه ، فالسماع للقلب محك صادق ، ومعيار ناطق ، فلا يصل نفس السماع إليه ، إلا وقد تحرك فيه ما هو الغالب عليه ، وإذا كانت القلوب بالطباع مطيعة للأسماع حتى أبدت بوارداتها مكائنها ، وكشفت بها عن مساوئها وأظهرت محاسنها ، وجب شرح القول فى السماع والوجد وبيان ما فيهما من الفوائد والآفات ، وما يستحب فيهما من الآداب والهيئات ، وما يتطرق إليهما من خلاف العلماء فى أنهما من المحظورات أو المباحات . ونحن نوضح ذلك فى باين . (الباب الأول) فى إباحة السماع . (الباب الثانى) فى آداب السماع وآثاره فى القلب والوجد وفى الجوارح بالرقص والزعق وتمزيق الثياب .

الباب الأول : فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويشمر السماع حالة فى القلب تسمى الوجد ، ويشمر الوجد تحريك الأظراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص . فلنبداً بحكم السماع وهو الأول : وننقل فيه الأقاويل المعربة عن المذاهب فيه . ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه .

فأما نقل المذاهب : فقد حكى القاضى أبو الطيب الطبرى عن الشافعى ومالك وأبى حنيفة وسفيان وجماعة من

العلماء ألفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب آداب القضاء : إن الغناء هو مكروه يشبه الباطل ومن استكثر منه فهو سفیه ترد شهادته .

وقال القاضي أبو الطيب : استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة وقال : قال الشافعي رضي الله عنه صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه ترد شهادته ، وقال : وحكى عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن . وقال الشافعي رحمه الله : ويكره من جهة الخبث اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشرطنج وأكره كل ما يلعب به الناس ؛ لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك رحمه الله فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان لهدمها . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا ابن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة : سفيان الثوري وحامد وإبراهيم والشعبي وغيرهم . فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

ونقل أبو طالب المكي إباحة السماع من جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان ، وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعون الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جاريثان يلحزان فكان لإخوانه يستمعون إليهما . قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطي وذواتون يستمعون ؟ فقال وكيف أنكر السماع وقد أجازته وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها نزداد إلّا قلة ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت في بعض الكتب هذا محكياً بعينه عن الحارث المحاسبي وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده في الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلّا أن يكون فيه سماع . وحكى غير واحد أنه قال : اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت منيع وأبو بكر ابن داود وابن مجاهد في نظرهم ، فحضر سماع فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع وكان أبي يكرهه وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم ابن بنت منيع : أما جدّي أحمد ابن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد أن أباه كان يسمع قول ابن الحُبّارة ، فقال ابن مجاهد لابن داود : دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع : دعني أنت من جدك أي شيء تقول يا أبا بكر فيمن أنشد بيت شعر أهو حرام ؟ فقال : ابن داود لا ، قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه لإنشاده ؟ قال : لا ، قال : فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومدّ منه المقصور أيجرم عليه ؟ قال : أنا لم أقو لشيطان واحد فكيف

أقوى لشيطانين ؟ قال : وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتابا ورد فيه على منكريه ، وكذلك جماعة منهم صنفوا في الرد على منكريه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : مات قول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء . وحكى عن عمشاد الدينوري أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت : يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن . وحكى عن طاهر بن بلال الهمداني الوراق - وكان من أهل العلم - أنه قال : كنت معتكفا في جامع جدّة على البحر فرأيت يوما طائفة يقولون في جانب منه قولا ويستمعون ، فأنكرت ذلك بقلبي وقلت : في بيت من بيوت الله يقولون الشعر ؟ قال : فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وإذا أبو بكر يقول شيئا من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجب بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع وأبو بكر يقول ؟ فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا حق بحق - أو قال حق من حق - أنا أشك فيه .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع ، عند الأكل لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا . وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ف قيل له : أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لافي الحسنات ولا في السيئات ، لأنه شبيه باللغو وقال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾

هذا ما نقل من الأقاويل . ومن طلب الحق في التقليد فهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهي ، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام ، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ومعرفة الشرعيات محصورة في النص أو القياس على المنصوص . وأعني بالنص ما أظهره صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله . فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول بتحريمه ، وبقي فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات . ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، ويتضح ذلك في جوابنا عن أدلة المسائلين إلى التحريم . ومهما تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا في إثبات هذا الغرض ، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على إباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغي أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب ، فالوصف الاعم أنه صوت طيب . ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالاشعار ، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم بل هو حلال بالنص والقياس أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به ، وللإنسان عقل وخمس حواس ولكل حاسة إدراك ،

وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجاري والوجه الحسن وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهي في مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشم الروائح الطيبة ، وهي في مقابلة الاتان المستكرهة . وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحوضة ، وهي في مقابلة المرارة المستبشعة . وللس لذة اللين والنعومة والملاسة ، وهي في مقابلة الخشونة والضراصة . وللعقل لذة العلم والمعرفة ، وهي في مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير ، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها . فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها ؟

أما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ فقل هو الصوت الحسن وفي الحديث « ما بعث الله نبيا إلا أحسن الصوت »^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقيته »^(٢) ، وفي الحديث في معرض المدح لداود عليه السلام « أنه كان حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته ، وكان يحمل في مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها في الأوقات »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم في مدح أبي موسى الأشعري « لقد أعطى زممارا من مزامير آل داود »^(٤) ، وقول الله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال إنما أبيع ذلك بشرط أن يكون في القرآن للزمره أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعاني الصحيحة ؟ وإن من الشعر لحكمة . فهذا نظر في الصوت من حيث أنه طيب حسن .

الدرجة الثانية : النظر في الصوت الطيب الموزون ؛ فإن الوزن وراء الحسن فكم من صوت حسن خارج عن الوزن وكم من صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة : فإما إما أن تخرج من جهاد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان ؛ وذلك الحيوان إما لإنسان أو غيره كصوت العنادل والقهارى وذات السبع من الطيور ؛ فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع فلذلك يستلذ سماعها . والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها ؛ فنه تعلم الصناعات وبه قصدوا الاقتداء وشرح ذلك يطول . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذهاب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور .

كتاب السماع والوجد

الباب الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحته

(١) حديث : ما بعث الله نبيا إلا أحسن الصوت « أخرجه الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله « وكان نبينا حسن الوجه حسن الصوت » ورويناه متصلًا في الزيلايات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بن أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(٢) حديث « لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقيته » تقدم في كتاب تلاوة القرآن .

(٣) حديث : كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور . الحديث . لم أجده أصلا . (٤) حديث « لقد أوتي زمماراً من مزامير آل داود » قاله في مدح أبي موسى ؛ تقدم في تلاوة القرآن .

ولافرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الاجسام باختيار آدمى كالذى يخرج من حلقة أو من القضيب والطبل والدف وغيره .

ولا يستثنى من هذه إلا الملهى والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ^(١) لا لذتها إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان . ولكن حرمت الخمر واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبل الاتباع كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأيتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو إلى السكر ، وما من حرام إلا وله حريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ليكون حمية للحرام ووقاية له وحظا ما نعا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم « إن لكل ملك حمية وإن حمية الله محارمه ^(٢) » فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل (لحداها) أنها تدعو إلى شرب الخمر فإن اللذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر . (الثانية) أنها في حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر مجالس الأنايس بالشرب فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق وانبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . ولهذا العلة نهى عن الانتباز في المرفق والحنتم والنكير ^(٣) ، وهي الأواني التي كانت مخصوصة بها . فمعنى هذا أن مشاهدة صورتها تذكرها وهذه العلة تفارق الأولى إذ ليس فيها اعتبار للذة في الذكر إذ لا لذة في رؤية القدينة وأواني الشرب لكن من حيث التذكر بها ، فإن كان السماع يذكر الشرب تذكره يشوق إلى الخمر عند من ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه . (الثالثة) الاجتماع عليها : لما أن صار من عادة أهل الفسق فيمنع من التشبه بهم ؛ لأن من تشبه بقوم فهو منهم . وبهذه العلة نقول بترك السنة مهما صارت شعارا لأهل البدعة خوفا من التشبه بهم . وبهذه العلة يحرم ضرب الكوبة - وهو طبل مستطيل دقيق الوسط واسع الطرفين - وضربها عادة الخنثين ولولا ما فيه من التشبه لسكان مثل طبل الحجييج والغزو ، وبهذه العلة نقول لو اجتمع جماعة وزينوا مجلسا وأحضروا آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكنجيين ، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساق ويشربون ويحيي بعضهم بعضا بكلماتهم المعتادة بينهم حرم ذلك عليهم ، وإن كان المشروب مباحا في نفسه ، لأن في هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء وعن ترك الشعر على الرأس قزعا في بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر لاعتیاد أهل الصلاح ذلك فيهم . فبهذه المعاني حرم المزامير العراقي والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها . وما عدا ذلك فليس في معناها كشاهين الرعاة والحجييج وشاهين الطباخين وكالطبل والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ولا يذكر بها ولا يشوق إليها ولا يوجب التشبه بأربابها

(١) حديث : المنع من الملهى والأوتار والمزامير . أخرجه البخاري من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري « ليكون في أمي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمعازف » صورته عند البخاري صورة تعليق ولذلك ضعفه ابن حزم ووصله أبو داود والاسماعيل . والمعازف : الملهى ؛ قاله الجوهرى ، ولأحمد من حديث أبي أمامة « أن الله أمرني أن أحق المزامير والكيارات - يعني البرابط - والمعازف » وله من حديث قيس بن سعد بن عباد « أن ربي حرم على الخمر والكوبة والفنين » وله في حديث لأبي أمامة باستحلالهم الخمر وضربهم بالدفوف . وكلها ضعيفة ، ولأبي الشيخ من حديث مراسلا « الاستماع إلى الملهى معصية ... الحديث » ولأبي داود من حديث ابن عمر : سمع من ماراً فوضع أصبعه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكر .

(٢) حديث « أن لكل ملك حمية وإن حمية الله محارمه » تقدم في كتاب الحلال والحرام

(٣) حديث : النهى عن الحنتم والمرفق والنكير . متفق عليه من حديث ابن عباس .

فلم يكن في معناها . فبقى على أصل الإباحة قياساً على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار من يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضاً . وبهذا يتبين أنه ليست العلة في تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها إلا ما في تحليله فساد . قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة وإنما تحرم بعارض آخر . كما سيأتى في العوارض المحترمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان فيقطع بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوماً . والكلام المفهوم غير حرام والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ؟ نعم ينظر فيما يفهم منه فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه وحرم النطق به سواء كان بالحن أو لم يكن ، والحق فيه ما قاله الشافعى رحمه الله إذ قال : الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح . ومهما جاز لإنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز لإنشاده مع الألحان . فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحاً . ومهما انضم مباح إلى مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظوراً لا تتضمنه الآحاد . ولا محظور ههنا وكيف ينكر لإنشاد الشعر وقد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) ؟ وقال عليه السلام : لأن من الشعر لحكمة ^(٢) ، وأنشدت عائشة رضي الله عنها :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

وروى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضي الله عنهما ، وكان بها وباء فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحول إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة رضي الله عنها : فأخبرت بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » ^(٣) ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

(١) حديث : إنشاد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة : أن عمر بن الخطاب وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ... الحديث ، ولمسلم من حديث عائشة لإنشاد حسان : هجوت محمداً فأجبت عنه وهذا الله في ذاك الجزاء ... القصيدة
ولإنشاد حسان أيضاً : وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بخت مخزوم ووالدك العبد
وللبخاري لإنشاد ابن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه . وإذا انشق معروف من الفجر ساطع .. الأبيات
(٢) حديث « لأن من الشعر لحكمة » رواه البخاري من حديث أبي بن كعب وتقدم في العلم . (٣) حديث عائشة في الصحيحين : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال ... الحديث . وفيه إنشاد أبي بكر :
كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحول إذخر وجليل
وهل أردت يوماً مياه مجنة وهل يدون لي شامة وطفيل
قالت : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم .

هذا الجمال لاحمال خير هذا - أبر - ربنا وأظهر

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة^(١)

وهذه في الصحيحين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد حسان بروح القدس مانافح أوفاجر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ولما أنشدته التابغة شعره قال له صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك^(٣) ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون عنده الأشعار وهو يتبسم^(٤) ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول : هيه هيه ، ثم قال : إن كاد في شعره ليسلم^(٥) ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدى له في السفر . وإن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير^(٦) ، ولم يزل الحداء وراه الجمال من عادة العرب في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان الصحابة رضي الله عنهم وما هو إلا أشعار تؤدي بأصوات طيبة وألحان موزونة ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون

(١) حديث : كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الجمال لاحمال خير هذا أبر - ربنا - وأظهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

لاهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف : والبيتان في الصحيحين . قلت : البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية هروة مرسل وفيه البيت الثاني أيضاً إلا أنه قال : الأجر بدل العيش تمثل بشعر رجل من المسلمين لم يسم لي؛ قال ابن شهاب : ولم يلفنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بيت شعر تام غير هذا البيت والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقولون :

الهم لاخير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وليس البيت الثاني موزوناً ، وفي الصحيحين أيضاً أنه قال في حفر الخندق بالفظ : فبارك في الأنصار والمهاجرة ، وفي رواية « فافخر » وفي رواية لمسلم « فأكرم » ولهما من حديث سهل بن سعد « فافخر المهاجرين والأنصار » .

(٢) حديث : كان يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ... الحديث . أخرجه البخاري تعليقا ، وأبو داود والترمذي والحاكم متصلا من حديث عائشة ، قال الترمذي : حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وفي الصحيحين أنها قالت : لأنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) حديث أنه قال للتابغة لما أنشدته شعرا : لا يفضض الله فاك . رواه البغوي في معجم الصحابة ، وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث البابنة واسمه قيس بن عبد الله قال : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم :

بلغنا السماء مجدا وجدودنا ولما نرجو فوق ذلك مظهرا ... الأبيات

ورواه البزار بالفظ : علونا العباد عفة وتكرما ... الأبيات وفيه : فقال : أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك ، ولما حكم من حديث خزيمة بن أوس : سمعت العباس يقول : يا رسول الله ذني أريد أن أمتدحك ، فقال : قل لا يفضض الله فاك ، فقال العباس : من قبلها طبت في الضلال وفي ... مستودع حيث يخصف الورق ... الأبيات

(٤) حديث عائشة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناشدون الأشعار وهو يتبسم . أخرجه الترمذي من حديث جابر بن سمرة وصححه ولم أقف عليه من حديث عائشة . (٥) حديث التبريد : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت كل ذلك يقول : هيه هيه ... الحديث . رواه مسلم . (٦) حديث أنس : كان يحدى له في السفر وإن أنجشة كان يحدو بالنساء وكان البراء بن مالك يحدو بالرجال ... الحديث . رواه أبو داود الطيالسي واتفق الشيخان منه على قصة أنجشة دون ذكر البراء بن مالك .

ذلك تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ . فلا يجوز أن يحرم من حيث إنه كلام مفهوم مستلذ مؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه يحرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه . فأقول : لله تعالى سر في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً . فمن الأصوات ما يفرح ، ومنها ما يحزن ، ومنها ما ينوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر ، بل جار في الأوتار حتى قيل من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك لفهم المعنى وتأثيره مشاهد في الصبي في مهده ؟ فإنه يسكنه الصوت الطيب عن بكائه وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه . والجل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة . ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه ، فتراها إذا طالت عليها البوادي واعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال إذا سمعت منادى الحداء تمتد أعناقها وتصفى إلى الحادي ناصية آذانها وتسرع في سيرها حتى تنزعزج عليها أحمالها ومحاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير وثقل الحمل وهي لا تشعر به لنشاطها . فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقى - رضى الله عنه قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل منهم وأدخلني خبائه ، فرأيت في الخباء عبداً أسود مقيداً بقيد ، ورأيت جمالا قدماء بين يدي البيت وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ولك حق فتشفع في إلى مولاي فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر ، فعساه يحل القيد عني ، قال . فلما أحضروا الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالي ، فقلت . ماذا فعل ؟ فقال . إن له صوتاً طيباً وإنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقي المساء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ووقعت أنا على وجهي ، فما أظن أنى سمعت قط صوتاً أطيب منه . فإذا تأمير السماع في القلب محسوس . ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة . ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته . ومهما كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلب لم يحز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص واختلاف طرق النغمات فحكمه حكم ما في القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل في القلب ما ليس فيه ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالسكبات المسجعة الموزونة معتاد في مواضع لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار في القلب وهي سبعة مواضع :

الأول : غناء الحجيج ، فإنهم أولاً يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء ، وذلك مباح لأنها أشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى واشتعال نيرانه إن كان ثم شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصل . وإذا كان الحج قربة والشوق إليه محموداً كان التشويق إليه بكل ما يشوق محموداً . وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه

في الوعظ ويزينه بالسجع ويشوق الناس إلى الحج بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع في القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد وقعه ، فإن أضيف إليه الطبل والشاهين وحركات الإيقاع زاد التأثير . وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التي هي من شعار الأشرار ، نعم إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذي أسقط الفرض عن نفسه ولم يأذن له أبواه في الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج . فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع بكل كلام يشوق إلى الخروج فإن التشويق إلى الحرام حرام . وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالباً لم يحز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثاني : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو . وذلك أيضاً مباح كما للحاج ، ولكن ينبغي أن تخاف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو - بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار وتحسين الشجاعة واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه - بالأشعار المشجعة . مثل قول المتنبي :
فإن لا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم
وقوله أيضاً :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم
وأما ذلك . وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة . وهذا أيضاً مباح في وقت يباح فيه الغزو . ومندوب إليه وقت يستحب فيه الغزو ، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .

الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس وللانصار وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق وصوت طيب كان أوقع في النفس ، وذلك مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في قتال مندوب ، ومحذور في قتال المسلمين وأهل الذمة . وكل قتال محذور ، لأن تحريك الدواعي إلى المحذور محذور . وذلك منقول عن شجيمان الصحابة رضي الله عنهم كعلي وخالد رضي الله عنهما وغيرهما . ولذلك نقول : ينبغي أن يمنع من الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة فإن صوته مرقق يحزن يحمل عقدة الشجاعة ويضعف صرامة النفس ويشوق إلى الأهل والوطن ويورث الفتور في القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرفقة للقلب ، فالألحان المرفقة الحزينة تبين الألحان المحركة المشجعة فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحذور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها وتأثيرها في تهيج الحزن والبكاء وملازمة الكتابة والحزن قسمان : محمود ومذموم .

فأما المذموم فكالحزن على ما فات قال الله تعالى ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف على ما لا تدارك له . فهذا الحزن لما كان مذموماً كان تحريكه بالنياحة مذموماً فلذلك ورد الهمي الصريح عن النياحة (١) .

وأما الحزن المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه ، وبكاؤه على خطايا . والبكاء والتباك

(١) حديث : التهي عن النياحة . متفق عليه من حديث أم عطية : أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة أن لا نتوح .

والحزن والتحازن على ذلك محمود وعليه بكاء آدم عليه السلام . وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محدودة إذ كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكى ويحزن حتى كانت الجناز ترفع من مجالس نياحته . وكان يفعل ذلك بالفاظه وألحانه : وذلك محمود لأن المفضى إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب الصوت أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة المرققة للقلب ولا أن يبكي ويتباكى ليتوصل به إلى تبكية غيره وإثارة حزنه .

الخامس : السماع في أوقات السرور تأكيداً للسرور وتهيجاً له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحاً كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب وفي وقت الولية والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه وعند حفظه القرآن العزيز . وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به . ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب فكل ما جاز السرور به جاز لإثارة السرور فيه . ويدل على هذا من النقل إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) .

طلع البدر علينا * من ثنيات الودع وجب الشكر علينا * مادعا لله داع

فهذا إظهار السرور لقدومه صلى الله عليه وسلم وهو سرور محمود ، فأظهاره بالشعر والغناء والرقص والحركات أيضاً محمود . فقد نقل عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم حججوا في سرور أصابهم ^(٢) - كما سيأتي في أحكام الرقص - وهو جائز في قدوم كل قادم يحوز الفرح به وفي كل سبب مباح من أسباب السرور . ويدل على هذا ما روى في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذى أسأله ^(٣) ، فأقروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو إشارة إلى طول مدة وقوفها . وروى البخارى ومسلم أيضاً في صحيحهما حديث عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها : أن أبابكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفغان وتضربان والنبي صلى الله عليه وسلم متعش بشوبه فانهزها أبوبكر رضى الله عنه فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبابكر فإنها أيام عيد ، وقالت عائشة رضى الله عنها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر رضى الله عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «أما يا بني أرفدة ^(٤) ، يعنى من الأمن ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه : تغنيان وتضربان ^(٥) . وفي حديث أبي طاهر

(١) حديث . إنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

طلع البدر علينا من ثنيات الودع وجب الشكر علينا مادعا لله داع

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث عائشة مفضلاً وليس فيه ذكر للدف والألحان . (٢) حديث : حججوا جماعة من الصحابة في سرور أصابهم . أخرجه أبو داود من حديث علي وسيأتي في الباب الثاني . (٣) حديث عائشة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ... الحديث . هو كما ذكره المصنف أيضاً في الصحيحين لكن قوله لأنه فيها من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر بل هو عند البخارى كما ذكر وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه .

(٤) حديث عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترنى بشوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «أما يا بني أرفدة» تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم ... إلى آخره . فرواه مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله «أما يا بني أرفدة» بل قال «دعهم يا عمر» زاد النسائي «فإنهم بنو أرفدة» ولها من حديث عائشة «دونكم بني أرفدة» وقد ذكره المصنف بعد هذا . (٥) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه وفيه «يشيان ويضربان» رواه مسلم وهو عند البخارى من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب .

عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرى والحبشة يلعبون بحراهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستترى بثوبه - أو بردائه - لئلا أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجل حتى أكون أنا الذى أنصرف^(١) ، وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وكان يأتينى صواحبي لى فكن يتقنعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لمجيئتهن إلى فيلعبن معى^(٢) وفى رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها يوما : ما هذا ؟ ، قالت : بناتى قال : فما هذا الذى أرى فى وسطهن ؟ ، قالت : فرس قال : ما هذا الذى عليه ؟ ، قالت : جناحان قال : فرس له جناحان ، قالت : أو ماسمعت أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ قالت فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجمه . والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته بدليل ما روى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقايع . وقالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعث فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر رضى الله عنه فأنهزنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا^(٣) . وكان يوم عيديلعب فيه السودان بالدرق والحرايب فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قال : تشتهين تنظرين ، فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه وخذى على خده ويقول : دونكم يا بنى أرفدة ، حتى إذا مللت قال : حسبك ، قلت : نعم ، قال : فاذهبى ، وفى صحيح مسلم : فوضعت رأسى على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا الذى انصرفت .

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليس بحرام . وفيها دلالة على أنواع من الرخص (الأول) اللعب : ولا يخفى عادة الحبشة فى الرقص واللعب . (والثانى) قتل ذلك فى المسجد (والثالث) قوله صلى الله عليه وسلم : دونكم يا بنى أرفدة ، وهذا أمر باللعب والتباس له فكيف يقدر كونه حراما ؟ (الرابع) منعه لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما عن الإنكار والتغيير وتعليله بأنه يوم عيد أى هو وقت سرور ؟ وهذا من أسباب السرور (والخامس) وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعه لموافقة عائشة رضى الله عنها . وفيه دليل على أن حسن الخلق فى تطيب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه (والسادس) قوله صلى الله عليه وسلم ابتداء لعائشة : تشتهين أن تنظرى ، ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا من غضب أو وحشة ، فإن الالتباس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة وهو محذور فيقدم محذور على محذور . فأما ابتداء السؤال فلا حاجة فيه (والسابع) الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين ، مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان وفيه بيان أن المزمار المحرم غير ذلك (والثامن) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالآوتار فى موضع لما جاوز الجلوس ثم لقرع صوت الآوتار سمعه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير بل إنما يحرم عند خوف الفتنة .

(١) حديث أبى طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على باب حجرى والحبشة يلعبون بحراهم ... الحديث . رواه مسلم أيضاً .

(٢) حديث عائشة : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وهو فى الصحيحين كما ذكر المصنف لكن مختصراً إلى قولها : فيلعبن معى . وأما الرواية المطولة التى ذكرها المصنف بقوله : وفى رواية - فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح . (٣) حديث عائشة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعث ... الحديث . هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف ، والرواية التى هزأها لمسلم انفرد بها مسلم كما ذكر .

فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص والضرب بالدف والعب بالدرق والحراب والنظر إلى رقص الحبشة والزواج في أوقات السرور كلها - قياسا على يوم العيد - فإنه وقت سرور ، وفي معناه يوم العرس والولية والعقيقة والختان ويوم القدوم من السفر وسائر أسباب الفرح وهو كل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم في موضع واحد على طعام أو كلام فهو أيضا مظنة السماع .

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق وتهيجا للعشق وتسلية للنفس . فإن كان في مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد الذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهيج الشوق . والشوق وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال فإن الرجاء لذيد واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق والحب للشيء المرجو . ففي هذا السماع تهيج العشق وتحريك الشوق وتحصيل لذة الرجاء المقدر في الوصال مع الإطنا ب في وصف حسن المحبوب . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه من يباح وصاله كمن يعشق زوجته أو سريته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته في لقائها . فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة . فهذه أنواع تتمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ﴾ وهذامنه . وكذلك إن غضبت منه جارية أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب فله أن يحرك بالسماع شوقه وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده . إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء . وأما من يتمثل في نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها وكان ينزل ما يسمع على ماتمثل في نفسه فهذا حرام لأنه محرك للفكر في الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب في وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك : وذلك ممنوع في حقهم لمافيهم من الدماء الدفين لا الأمر يرجع إلى نفس السماع . ولذلك سئل حكيم عن العشاق فقال . دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيج السماع .

السابع : سماع من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه ، فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ومورز ناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها يعرفها من ذاقها وينكرها من كل حسه عن ذوقها . وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجدا مأخوذ من الوجود والمصادفة أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع . ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدورات كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها فالملضى إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي والمباحات . وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغات الموزونة للأرواح وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقا وفرحا وحزنا وانقباضا وانقباضا . ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات . والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزنج ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ، وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته وعجائب صنعه . ولكل ذلك سبب واحد وهو أن اللذة نوع إدراك وإلادراك يستدعي مدركا ويستدعي قوة مدركة . فمن لم تسكن قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ؟ وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ؟ ولذة المعقولات من فقد العقل ؟ وكذلك ذوق السماع

بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يدرك بحاسة باطنة في القلب ، فمن فقدوها عدم لاحالة لذته ولعلك تقول : كيف يتصور العشق في حق الله تعالى حتى يكون السماع محركا له ؟ فاعلم أن من عرف الله أحبه لاحالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته . والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا فلا معنى للعشق إلا المحبة مؤكدة مفردة . ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه . لما رأوه يتخلى للعبادة في جبل حراء . واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال . ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر . وإن كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لسكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب . ولفظ الجمال قد يستعار أيضاً لها فيقال : إن فلاناً حسن وجميل ولا ترادصورته . وإنما يعني به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات حسن السيرة ، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحساناً لها كما تحب الصورة الظاهرة . وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا . وكمن من الغلاة في حب أرباب المذاهب كالشافعي ومالك وأبي حنيفة رضي الله عنهم ؟ حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة . ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته أجميل هو أم قبيح وهو الآن ميت ؟ ولكن لجمال صورته الباطنة وسيرته المرضية والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال . ثم لا يعقل عشق من ترى الخيرات منه . بل على التحقيق من لاخير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم ادرك بالعقول والأبصار والاسماع وسائر الحواس من مبتدئ العالم إلى منقرضه ومن ذروة الثريا إلى منتهى الأثرى فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرة ، فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ؟ وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه حتى يجاوز حداً يكون لإطلاق اسم العشق عليه ظلماً في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته ؟ فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجاً من نوره لأحرقت سبجات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرة ، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهت العقول ودهشت القلوب وتخاذلت القوى وتنافرت الأعضاء ، ولو ركب القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادئ أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش . وسيأتى تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة . ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل بل المستحق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس في الوجود تحقيقاً إلا الله وأفعاله . ومن عرف الأفعال من حيث إنها أفعال لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره . فمن عرف الشافعي مثلاً رحمه الله وعليه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه - لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية - فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وفعله وبديع أفعاله فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنف وجلالة قدره كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى غير مجاوزة إلى سواه . ومن حدّ هذا العشق أنه لا يقبل الشركه وكل ماسوى هذا العشق فهو قابل للشركه ؛ إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير إما في الوجود وإما في الإمكان . فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان لا في الإمكان ولا في الوجود . فكان اسم العشق على حب غيره مجازاً محضاً لا حقيقة . نعم الناقص القريب في نقصانه من البهيمية قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال الذي هو عبارة عن تماس

ظواهر الأجسام وقضاء شهوة الوقاع . فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يستعمل معه لفظة العشق والشوق والوصال والانس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب الهيبة الترجس والريحان وتخصص بالفت والحشيش وأوراق القضبان . فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه . والأوهام تختلف باختلاف الأفهام فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وجد غالب يقطع بسببه نياط القلب . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : إني لأسمع لله شأنا . ثم روى بنفسه من الجبل فتقطع (١) . وهذا كأنه سمع مادل على جلال الله تعالى وتبام قدرته فطرب لذلك ووجد فرمى بنفسه من الوجد . وما أنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم : رأيت مكتوبا في الإنجيل ؛ غنينا لكم فلم تطربوا وزمرنا لكم فلم ترقصوا . أى شوقناكم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا . فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته وقد ظهر على القطع إباحته في بعض المواضع والندب إليه في بعض المواضع .

❖ فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها ؟ فأقول إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض في السمع ، وعارض في آلة الإسماع ، وعارض في نظم الصوت ، وعارض في نفس المستمع أو في مواظبته ، وعارض في كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هي السمع والمستمع وآلة الإسماع .

العارض الأول ، أن يكون المستمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ، وفي معناها الصبي الأمر الذي تخشى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة وليس ذلك لأجل الغناء ؛ بل لو كانت المرأة بحيث يفتن بصوتها في المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها في القرآن أيضا ، وكذلك الصبي الذي تخاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسب الباب أو لا يحرم إلا حيث تخاف الفتنة في حق من يخاف العنت . فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلا ؛ أحدهما ؟ أن الخلوة بالاجنبية والنظر إلى وجهها حرام سواء خيفت الفتنة أو لم تخف لأنها مظنة الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور ؟ والثاني : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يباح للصبيان بالنساء في عموم الحسم بل يتبع فيه الحال : وصوت المرأة دأثر بين هذين الأصلين فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر في أول هيئتها ولا تدعو إلى سماع الصوت وليس تحريك النظر لشهوة الماسة كتحرريك السماع بل هو أشد . وصوت المرأة في غير الغناء ليس بعورة فلم تزل النساء في زمن الصحابة رضى الله عنهم يكلمن الرجال في السلام والاستفتاء والسؤال والمشاورة وغير ذلك . ولكن الغناء مزبدأثر في تحريك الشهوة . فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات . فينبغي أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه . هذا هو الأفيص عندي ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين في بيت عائشة رضى الله عنها ؛ إذ يعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتهما ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن

(١) حديث أبي هريرة : إن غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ فقالت : الله . الحديث . وفيه « ثم روى نفسه من الجبل فتقطع » رواه ابن حبان .

الفتنة بخوفة عليه فلذلك لم يحترز . فإذا نختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل في كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر في مثل هذا بالأحوال . فإننا نقول : للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك ؛ لأن القبلة تدعو إلى الوقوع في الصوم وهو محذور ، والسمع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثاني : في الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرف أو المخنثين وهي المزامير والأوتار وطبل الكوبة . وهذه ثلاثة أنواع ممنوعة . وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف - وإن كان فيه الجلاجل - وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : في نظم الصوت وهو الشعر فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضي الله عنهم ، كما رتبته الروافض في هجاء الصحابة وغيرهم ، فسمع ذلك حرام بالحن وغير أحن ، والمستمع شريك للقائل . وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها فإنه لا يجوز وصف المرأة بين الرجال . وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز . فقد كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك ^(١) فأما الذيب وهو التشبيه بوصف الحدود والاصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده باحن وغير احن . وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته : فإن نزله على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل وإحالة الفكر فيه . ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأسا فإن من غلب عليه عنق نزل كل ما يسمعه عليه ؛ سوء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن ، إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على معان بطريق الاستعارة ، فالذي يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الحد نور الإيمان ، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى في زمرة المردودين ، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفات المشوشة لدوام الانس بالله تعالى ، ولا يحتاج في تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكير ومهلة ، بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ .

كما روى عن بعض الشيوخ ، أنه مر في السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة فما قيمة الأشرار ؟ واجتاز بعضهم في السوق فسمع قائلا يقول : ياسعتر برى ، فغلبه الوجد فقيل له : على ماذا كان وجدك ؟ فقال : سمعته كأنه يقول اسع تر برى ، حتى إن العجمي قد يغلب عليه الوجد على الآيات المنظومة بلغة العرب فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان آخر . أنشد بعضهم :

« وما زارني في الليل إلا خياله »

فتواجد عليه رجل أعجمي . فسئل عن سبب وجده فقال ، إنه يقول : ما زاريم . وهو كما يقول فإن لفظ « زار » يدل في العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول : كنا مشرفون على الهلاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة .

والمحترق في حب الله تعالى وجده بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد

(١) حديث : أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين . متفق عليه من حديث البراء : أنه صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم وجبريل معك »

الشاعر ولغته . فهذا الوجد حق وصدق . ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فجدد بأن يتشوش عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه . فإذا لم يكن في تغيير أعيان الألفاظ كبير فائدة ، بل الذي غلب عشق مخلوق ينبغي أن يحتجز من السماع بأى لفظ كان ، والذي غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعاني اللطيفة المتعلقة بمجاري همته الشريفة .

العارض الرابع : في المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه وكان في غرة الشباب وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسمع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والحد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها في قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر . وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيّل للعقل المانع منه الذي هو حزب الله تعالى ، والقتال في القلب دائم جنود الشيطان وهي الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل ، إلا في قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية . وغالب القلوب الآن قد فتحتها جند الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لازعاجها فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشجيع سيوفها وأسنتها : والسمع مشحذ لأسلحة جند الشيطان في حق مثل هذا الشخص . فليخرج مثل هذا عن جمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوباً ، ولو غلبت عليه شهوة فيكون في حقه محظوراً . ولكنه أيسر في حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذ ديدنه وهجيره وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفه الذي ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية . وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة فكذلك بعض المباحات بالمداومة تصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعاً إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة . ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لمأفاه من ترويح القلب ، لإذراحة القلب معالجة له في بعض الأوقات لتنبعث دواعيه فيشتغل في سائر الأوقات بالجد في الدنيا كالكسب والتجارة ، أو في الدين كالصلاة والقراءة . واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الحد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوّهته فما أقبح ذلك ! فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة فاكل حسن يحسن كثيره ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام . فهذا المباح كسائر المباحات .

* فإن قلت : فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح في بعض الأحوال دون بعض فلم أطلقت القول أولاً بالإباحة إذ إطلاق القول في المفصل بلا أو بنعم خلف وخطأ ؟ فاعلم أن هذا غلط لأن الإطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين مأفاه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أننا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا ؟ قلنا : إنه حلال ، على الإطلاق مع أنه حرام على المحرور الذي يستضر به وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام . مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشرها مهما لم يجد غيرها ، ولكن هي من حيث إنها خمر حرام وإنما أبيحت لعارض الحاجة . والعسل من حيث إنه عسل حلال وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه فإن البيع حلال ويحرم بعارض الوقوع في وقت النداء يوم الجمعة ونحوه من العوارض ، والسمع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم وإنما تحريمه لعارض خارج

عن حقيقة ذاته . فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبألى بمن يخالف بعد ظهور الدليل .

وأما الشافعى رضى الله عنه فليس بتحريم الغناء من مذهبه أصلاً . وقد نص الشافعى وقال فى الرجل يتخذ صناعة : لا تجوز شهادته . وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صنعة كان منسوباً إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرماً بين التحريم . فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتى لأجله وإنما يعرف بأنه قد يطرب فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعى رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسماع فقال الشافعى . لا أعلم أحداً من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرايع وتحسين الصوت بألحان الأشعار فباح .

وحيث قال : إنه هو مكروه يشبه الباطل فقوله « هو » صحيح . ولكن اللهو من حيث إنه هو ليس بحرام فلعجب الحبشة ورقصهم هو وقد كان صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ولا يكرهه . بل اللهو واللغو لا يؤخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه فى اليوم مائة مرة فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى ﴿ لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه مع أنه لا فائدة فيه لا يؤخذ فكيف يؤخذ به بالشعر والرقص ؟ وأما قوله « يشبه الباطل » فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لوقال : هو باطل صريحاً . لما دل على التحريم وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه . فقول الرجل لامرأته مثلاً : بعثت نفسك منك ، وقولها : اشتريت ، عقد باطل مهما كان القصد للعب والمطايبة وليس بحرام إلا إذا قصد به التملك المحقق منع الشرع منه . وأما قوله « مكروه » فينزل بعض المواضع التى ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج وذكر أنى أكره لعب وتعليقه يدل عليه فإنه قال : ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة . فهذا يدل على التنزيه . ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضاً بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق وما يحرم المروءة ، بل الحياكة مباحة وليست من صنائع ذوى المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة فتعليقه يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه . وهذا هو الظن أيضاً بغيره من كبار الأئمة . وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجواب عنها

احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال ابن مسعود والحسن البصرى والنخعى رضى الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء . وروى عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها ^(١) » ، فنقول : أما القينة فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب . وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة . بدليل ما روى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة رضى الله عنها . وأما شراء لهو الحديث بالدين استبداله به عن سبيل الله

(١) حديث عائشة : إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها . أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقى ليس بمعفوظ .

فهو حرام مذموم ، وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلا عن الدين مشترى به ومضلا عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد في الآية . ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر بقتله ، ورأى فعله حراما لما فيه من الإضلال . فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم . واحتجوا بقوله تعالى ﴿ أفن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الغناء بلغة حمير - يعنى السمد - فنقول : ينبغي أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضا لأن الآية تشمل عليه .

* فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ؟ فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهم في معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ وأراد به شعراء الكفار . ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر في نفسه .

واحتجوا بما روى جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى » (١) ، فقد جمع بين النياحة والغناء ؟ قلنا : لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ونياحة المذنبين على خطاياهم فكذلك يستثنى الغناء الذي يراد به تحريك السرور والحزن والشوق حيث يباح تحريكه ، بل كما استثنى غناء الجاريتين يوم العيد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « مرفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمساك » (٢) ، قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذي قدمناه وهو الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق الخلقين ، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد أو حدوث الولد أو قدوم الغائب فهذا كله يضاد مراد الشيطان . بدليل قصة الجاريتين والحبشة والأخبار التي نقلناها من الصحاح فالتجوز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل . أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله إنما يحل بعارض الإكراه فقط ، وما أيسح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته » (٣) ، قلنا : فقوله « باطل » لا يدل على التحريم بل يدل على عدم الفائدة وقد يسلم ذلك . على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام ، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياسا كقوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث (٤) ، فإنه يلحق به رابع وخامس فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ . وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين وسماع أصوات الطيور وأنواع المداعبات مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها وإن جاز وصفه بأنه باطل .

(١) حديث جابر : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى . لم أجده أصلًا من حديث جابر وذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طالب ولم يخرج له ولده في مستنده . (٢) حديث أبي أمامة : ما رفع أحد عقيرته ببناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمساك . أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والطبراني في الكبير وهو ضعيف . (٣) حديث عقبة بن عامر « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته » أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب . (٤) حديث « لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

واحتجوا بقول عثمان رضى الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يمينى مذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلنا : فليكن التنى ومس الذكر باليمين حراما ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء فمن أين ثبت أن عثمان رضى الله عنه كان لا يترك إلا الحرام ؟

واحتجوا بقول ابن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت في القلب النفاق - وزاد بعضهم - كما ينبت الماء البقل ^(١) ورفع بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غير صحيح . قالوا : ومر على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله لكم ألا لا أسمع الله لكم . وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق ؛ فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا فأخرج أصبعيه وقال . هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع ^(٢) وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا . وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد الهجور . وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فليجسوه النساء فإن الغناء داعية الزنا . فنقول : قول ابن مسعود رضى الله عنه « ينبت النفاق ، أراد به في حق المغنى ، فإنه في حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا في غنائه ، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً . فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل الممهلجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع وغير ذلك ينبت في القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب في ظهور النفاق في القلب المعاصى فقط ، بل المباحات التي هي مواقع نظر الخلق أكثر تأميراً . ولذلك نزل عمر رضى الله عنه عن فرس هملج تحته وقطع ذنبه لأنه استشعر في نفسه الخيلاء لحسن مطيته . فهذا النفاق من المباحات . وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث ، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكراً بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام . وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال . وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن يزه سماعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه . وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع أنه لم يمنع ابن عمر - لا يدل أيضاً على التحريم . بل يدل على أن الأولى تركه . ونحن ترى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب . فقد خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه ^(٣) أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ فلعله صلى الله عليه وسلم كان في حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله عن تلك الحالة كما يشغله العلم عن الصلاة . بل الحاجة إلى استئثار الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كالا بالإضافة إلى غيره . ولذلك قال الحصرى : ماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من

(١) حديث ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل » قال المصنف والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم ، رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤى ورواه البيهقي صرفوا وموقوفاً . (٢) حديث نافع : كنت مع ابن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنيه ... الحديث . ورفع أبو داود وقال هذا حديث منكسر (٣) حديث : خلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . تقدم في الصلاة .

يسمع منه ؟ إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم . فالأنبياء عليهم السلام على الدوام في لذة السمع والشهود فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة . وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا . وكذلك ماعداء من الأقاويل القريبة منه . فهو منزل على سماع الفساق والمغتلبين من الشباب . ولو كان ذلك عاما لما سمع من الجاريتين في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق ، أويقال هو طوول لعب ، وهو كذلك ولكن الدنيا كلها طوول لعب . قال عمر رضي الله عنه لزوجته : إنما أنت لعبة في زاوية البيت . وجميع الملاعبة مع النساء طوول إلا الحراثة التي هي سبب وجود الولد . وكذلك المزج الذي لا يخش فيه حلال . نقل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، كما سيأتي تفصيله في كتاب آفات اللسان ، إن شاء الله (١) وأي طوول يزيد على طوول الحبشة والزنج في لعبهم وقد ثبت بالنص إباحته ؟ على أن أقول : اللهو مروق للقلب ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت وترويحها إغانة لها على الجدة ، فالمواظب على التفقه مثلاً ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة لأن عطلة يوم تبعث على النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات ، ولاجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل واللهو معين على الجدة ، ولا يصبر على الجدة المحض والحق المزل إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام . فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغي أن يكون مباحا ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا في حق من لا يترك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة ، فينبغي أن يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه . نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ومن أحاط بعلم علاج القلوب ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه .

الباب الثاني : آثار السماع وآدابه

اعلم أن أول درجة السماع فهم المسموع وتنزله على معنى يقع للمستمع ، ثم يثمر الفهم الوجد ، ويثمر الوجد الحركة بالجوارح . فليُنظر في هذه المقامات الثلاثة .

المقام الأول : في الفهم ، وهو يختلف باختلاف أحوال المستمع . والمستمع أربعة أحوال ، إحداها : أن يكون سماع بمجرد الطبع أي لاحظ له في السماع إلا استلذاذ الألحان والنغمات ، وهذا مباح وهو أخسر رتب السماع ، إذ الإبل شريكه فيه وكذلك سائر البهائم بل لا يستدعي هذا الذوق إلا الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة .

الحالة الثانية : أن يسمع بفهم ولكن ينزله على صورة مخلوق إما معيناً وإما غير معين ، وهو سماع الشباب وأرباب الشهوات ويكون تنزيلهم المسموع على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم ، وهذه الحالة أخس من أن نتكلم فيها إلا ببيان خستها والنهي عنها .

الحالة الثالثة : أن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله تعالى وتقلب أحواله في التمكن مرة والتعذر أخرى ، وهذا سماع المريدين لاسيما المتقدمين ، فإنَّ للريد لآحالة مراداً هو مقصده ، ومقصده معرفة الله سبحانه

(١) حديث مزاحه صلى الله عليه وسلم . يأتي في آفات اللسان كما قال المصنف .

ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهدة بالسرو وكشف الغطاء ، وله في مقصده طريق هو سالكه ، ومعاملاته هو مشاير عليها ، وحالات تستقبله في معاملاته . فإذا سمع ذكر عتاب أو خطاب أو قبول أو رد أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد أو تلهف على فائت أو تعطش إلى منتظر أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو استئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصول أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العبرات أو ترادف الحمرات أو طول الفراق أو عدة الوصال أو غير ذلك مما يشتمل على وصفه الأشعار فلا بد أن يوافق بعضها حال المريد في طلبه فيجرب ذلك مجرى القدر الذي يورى زناد قلبه ، فتشتعل به نيرانه ويقوى به انبعاث الشوق وهيجانه ويهجم عليه بسببه أحوال مخالفة لعاداته ويكون له مجال رحب في تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاة مراد الشاعر من كلامه ، بل اسكل كلام وجوه ، ولكل ذى فهم في اقتباس المعنى منه حظوظ . ولنضرب لهذه التنزيلات والفهوم أمثلة كي لا يظن الجاهل أن المستمع لأبيات فيها ذكر الفم والحد والصدغ إنما يفهم منها ظواهرها . ولا حاجة بنا إلى ذكر كيفية فهم المعاني من الأبيات ففي حكايات أهل السماع ما يكشف عن ذلك . فقد حكى أن بعضهم سمع قائلاً يقول :

قال الرسول غدا تزور فقلت تعقل ماتقول

فاستغزه اللحن والقول وتواجد وجعل يكرر ذلك ويجعل مكان التاء : نونا . فيقول : قال الرسول غدا تزور ، حتى غشى عليه من شدة الفرح واللذة والسرور . فلما أفاق سئل عن وجدهم كان ؟ فقال : ذكرت قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة يزورون ربهم في كل يوم جمعة مرة »^(١) ، وحكى الرقي عن ابن الدراج أنه قال : كنت أنا وابن القوطى مارين على دجلة بين البصرة والابلّة فإذا بقصر حسن له منظره وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

كل يوم تتسألون ؟ غير هذا بك أحسن

فإذا شاب حسن تحت المنظرة ويده ركوة وعليه مرقعة يستمع فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك إلا أعدت على هذا البيت . فأعادت فكان الشاب يقول : هذا والله تلونى مع الحق فى حالى ، فشيق شقة ومات . قال : فقلنا قد استقبلنا فرض . فوقفنا ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى قال ثم إن أهل البصرة خرجوا فصلوا عليه . فلما فرغوا من دفنه قال صاحب القصر : اشهدكم أن كل شيء لى فى سبيل الله ، وكل جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل . قال : ثم رمى بثيابه واتزر بإزار وارتدى بآخر ومر على وجهه والناس ينظرون إليه حتى غاب عن أعينهم ، وهم يسكون . فلم يسمع له بعد خبر . والمقصود أن هذا الشخص كان مستغرق الوقت بحاله مع الله تعالى ومعرفة عجزه عن الثبوت على حسن الأدب فى المعاملة وتأسفه على تقلب قلبه وميله عن سنن الحق ، فلما قرع سمعه ما يوافق حاله سمعه من الله تعالى كأنه يخاطبه ويقول له :

كل يوم تتسألون ؟ غير هذا بك أحسن

ومن كان سماعه من الله تعالى وحلى الله وفيه . فينبغى أن يكون قد أحكم قانون العلم فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته . وإلا خطر له من السماع فى حق الله تعالى ما يستحيل عليه ويكفر به . ففى سماع المريد المبتدى خطر إلا إذا

الباب الثانى : فى آداب السماع وآثاره

(١) حديث « إن أهل الجنة يزورون ربهم فى كل جمعة » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وفيه عبد الحميد ابن حبيب بن أبى العسر بن مختلف فيه وقال الترمذى . لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال : وقد روى سويد بن عمرو عن الأوزاعى شيئاً من هذا .

لم ينزل ما يسمع إلا على حاله من حيث لا يتعلق بوصف الله تعالى . ومثال الخطأ فيه هذا البيت بعينه فلو سمعه في نفسه وهو يخاطب به ربه عز وجل فيضيف التلؤن إلى الله تعالى فيكفر ، وهذا قد يقع عن جهل محض مطلق غير مزوج بتحقيق ، وقد يكون عن جهل ساقه إليه نوع من التحقيق ، وهو أن يرى تقلب أحوال قلبه بل تقلب أحوال سائر العالم من الله وهو حق ، فإنه تارة يبسط قلبه وتارة يقبضه وتارة ينوره وتارة يظلمه وتارة يقسيه وتارة يلينه وتارة يثبت على طاعته ويقويه عليها وتارة يسلط الشيطان عليه ليصرفه عن سنن الحق ، وهذا كله من الله تعالى . ومن يصدر منه أحوال مختلفة في أوقات متقاربة فقد يقال له في العادة : إنه ذو بداوات وإنه متلؤن . ولعل الشاعر لم يرد به إلا نسبة محبوبه إلى التلؤن في قبوله وردده وتقريبه وإبعاده وهذا هو المعنى . فسماع هذا كذلك في حق الله تعالى كفر محض بل ينبغي أن يعلم أنه سبحانه وتعالى يلون ولا يتلون ويغير ولا يتغير بخلاف عباد . وذلك العلم يحصل المرید باعتقاد تقليدي إيماني . ويحصل للعارف البصير بيقين كشفي حقيقي . وذلك من أعاجيب أوصاف الربوبية وهو المغير من غير تغير ، ولا يتصور ذلك إلا في حق الله تعالى ، بل كل مغير سواء فلا يغير مالم يتغير . ومن أرباب الوجد من يغلب عليه حال مثل السكر المدهش ، فيطلق لسانه بالعتاب مع الله تعالى ، ويستنكر اقتباره للقلوب ، وقسمته للأحوال الشريفة على تفاوت . فإنه المستصفي لقلوب الصديقين ، والمبعد لقلوب الجاحدين والمغرورين ، فلا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولم يقطع التوفيق عن الكفار لجناية متقدمة ، ولا أمد الأنبياء عليهم السلام بتوقيفه ونور هدايته لو سيلة سابقة ، ولكنه قال ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ فإن خطر ببالك أنه لم اختلفت السابقة وهم في ربه العبودية مشتركون نوديت من سرادقات الجلال لا تجاوز حد الأدب ﴿ فإنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون ﴾ ولعمري تأدب اللسان والظاهر بما يقدر عليه الأكثرون . فأما تأدب السر عن إضمار الاستبعاد بهذا الاختلاف الظاهر في التقريب والإبعاد والإشقاء والإسعاد مع بقاء السعادة والشقاوة أبد الآباد فلا يقوى عليه إلا العلماء الراسخون في العلم . ولهذا قال الخضر عليه السلام لما سئل عن السماع في المنام : إنه الصفو الزلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء لأنه محرك لأسرار القلوب ومكائنها ، ومشوش لها تشويش السكر المدهش الذي يكاد يحل عقدة الأدب عن السر إلا بمن عصمه الله تعالى بنور هدايته ولطيف عصمته . ولذلك قال بعضهم : ليتنا نجونا من هذا السماع رأساً برأس . ففي هذا الفن من السماع خطر يزيد على خطر السماع المحرك للشهوة ، فإن غاية ذلك معصية وغاية الخطأ ههنا كفر .

واعلم أن الفهم قد يختلف بأحوال المستمع فيغلب الوجد على مستمعين لبيت واحد وأحدهما مصيب في الفهم والآخر مخطئ ، أو كلاهما مصيبان وقد فهما معنيين مختلفين متضادين ، ولكنه بالإضافة إلى اختلاف أحوالهما لا يتناقض . كما حكى عن عتبة الغلام أنه سمع رجلاً يقول :

سبحان جبار السما إن المحب لني عنا

فقال : صدقت . وسمعه رجل آخر فقال : كذبت . فقال بعض ذوى البصائر : أصابا جميعا وهو الحق فالتصديق كلام محب غير ممكن من المراد بل مصدود متعب بالصمت والهجر . والتكذيب كلام مستأنس بالمحب مستلذ لما يقاسيه بسبب فرط حبه غير متأثر به ، أو كلام محب غير مصدود عن مراده في الحال ولا مستشعر بخاطر

الصد في المسأل . وذلك لاستيلاء الرجاء وحسن الظن على قلبه . فباختلاف هذه الأحوال يختلف الفهم .
وحكى عن أبي القاسم بن مروان - وكان قد صحب أبا سعيد الخراز رحمه الله وترك حضور السماع سنين كثيرة -
فحضر دعوة وفيها لإنسان يقول :

واقف في الماء عطشا ن ولكن ليس يسقى

فقام القوم وتواجدوا ، فلما سكنوا سألمهم عن معنى ماوقع لهم من معنى البيت ، فأشاروا إلى التعطش إلى الأحوال
الشريفة والحرمان منها مع حضور أسبابها ، فلم يقتنع ذلك فقالوا له : فماذا عندك فيه ؟ فقال : أن يكون في وسط
الأحوال ويسكرم بالكرامات ولا يعطى منها ذرة . وهذه إشارة إلى إثبات حقيقة وراء الأحوال ، والكرامات
والأحوال سوابقها ، والكرامات تسنح في مبادئها ، والحقيقة بعد لم يقع الوصول إليها . ولا فرق بين المعنى الذي
نهمه وبين ما ذكره إلا في تفاوت رتبة المتعطش إليه ، فإن المحروم عن الأحوال الشريفة أولا يتعطش إليها ،
فإن ممكن منها تعطش إلى ما وراءها ، فليس بين المعنيين اختلاف في الفهم بل الاختلاف بين الرتبتين . وكان الشبلي
رحمه الله كثيرا ما يتواجد على هذا البيت :

ودادكم هجر وحكم قلى ووصلكم صرم وسلمكم حرب

ومذا البيت يمكن سماعه على وجوه مختلفة بعضها حق وبعضها باطل ، وأظهرها : أن يفهم هذا في الخلق بل في
الدنيا بأسرها بل في كل ماسوى الله تعالى . فإن الدنيا مكاراة خداعة قتالة لأربابها معادية لهم في الباطن ومظهرة
صورة الود ، فما امتلأت منها دار حبرة إلا امتلأت عبرة ^(١) ، كما ورد في الخبر وكما قال الثعلبي في وصف الدنيا :

تنح عن الدنيا فلا تخطبها ولا تخطبن قتالة من تناكح
فليس يفرجوها بخوفها ومكروها أما تأملت راجع
لقد قال فيها الواصفون فأكثروا وعندى لها وصف لعمرى صالح
سلاف قصارها زعاف ومركب شهى إذا استدللته فهو جامع
وشخص جميل يؤثر الناس حسنه ولكن له أسرار سوء قبائح

والمعنى الثاني . أن ينزله على نفسه في حق الله تعالى فإنه إذا تفكر فعرفته جهل إذ ما قدروا الله حق قدره . وطاعته
رياء إذ لا يتق الله حق تقاته ، وحبه معلول إذ لا يدع شهوة من شهواته في حبه . ومن أراد الله به خيرا بصره
بعبوب نفسه فيرى مصداق هذا البيت في نفسه ، وإن كان على المرتبة بالإضافة إلى الغافلين ، ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ^(٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » ^(٣) ، وإنما كان استغفاره عن أحوال هي درجات بعد بالإضافة إلى ما بعدها ، وإن
كانت قربا بالإضافة إلى ما قبلها ، فلا قرب إلا ويبقى وراءه قرب لانهاية له ، إذ سبيل السلوك إلى الله تعالى غير
متناه ، والوصول إلى أقصى درجات القرب محال . والمعنى الثالث أن ينظر في مبادئ أحواله فيرتضيها ثم ينظر في
عواقبها فيزدريها لاطلاعها على خفايا الغرور فيها ، فيرى ذلك من الله تعالى فيستمتع البيت في حق الله تعالى شكاية
من القضاء والقدر وهذا كفر - كما سبق بيانه - وما من بيت إلا ويمكن تنزيله على معان ، وذلك بقدر غزارة علم

(١) حديث « ما امتلأت دار منها حبرة إلا امتلأت عبرة » أخرجه ابن المبارك عن عكرمة بن عمار عن يحيى بن أبي كثير
مرسلا . (٢) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » رواه مسلم وقد تقدم . (٣) حديث « إني لأستغفر الله
في اليوم والليلة سبعين مرة » تقدم في الباب الثاني من الأذكار .

المستمع وصفاء قلبه .

الحالة الرابعة : سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهم ماسوى الله تعالى حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في بحر عين الشهود الذى يضاهى حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام حتى دهشن وسقط إحساسهن . وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه قد فنى عن نفسه . ومهما فنى عن نفسه فهو عن غيره أفنى فكأنه فنى عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود . وفنى أيضا عن الشهود فإن القلب أيضا إذا التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن المشهود . فالاستمتر بالمرقى لا التفات له في حال استغراقه إلى رؤيته ولا إلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذى به لذته ، فالسكران لاخبر له من سكره ، والمتلذذ لا خبر له من التذاذ ، وإنما خبره من المتلذذ به فقط . ومثاله العلم بالشئ : فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشئ فالعالم بالشئ مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشئ كان معرضا عن الشئ . ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوق وتطرأ أيضا في حق الخالق ، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم ، وإن دام لم تطقه القوة البشرية ، فربما اضطرب تحت أعبائه اضطرابا تهلك به نفسه .

كما روى عن أبي الحسن النورى أنه حضر مجلسا فسمع هذا البيت :

مازلت أنزل من وداذك منزلا تتحير الالباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه . فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف ، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه ، حتى ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات رحمه الله . فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد فهى أعلى الدرجات لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال وهى متميزة بصفات البشرية وهونوع قصور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله ؛ أعنى أنه ينساها فلا يبقى له النفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى الأيدى والسكاكين . فيسمع لله وبالله وفى الله ومن الله وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق وعبر ساحل الأحوال والأعمال واتحد بصفاء التوحيد وتحقق بمحض الإخلاص ، فلم يبق فيه منه شيء أصلا ، بل خمدت بالكلية بشريته وفنى التفاته إلى صفات البشرية رأسا ، ولست أعنى بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه ، ولست أعنى بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفية وراها سر الروح الذى هو من أمر الله عز وجل - عرفها من عرفها وجهلها من جهلها - ولذلك السروجود . وصورة ذلك الوجود ما يحضر فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرأة المجلوة لاذ ليس لها لون فى نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها . وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصور ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ، ويعرب عن هذه الحقيقة - أعنى سر القلب بالإضافة إلى ما يحضر فيه - قول الشاعر :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابهها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وهذا مقام من مقامات علوم المكاشفة منه نشأ خيال من ادعى الحلول والاتحاد ، وقال أنا الحق وحوله يدندن كلام النصارى فى دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت أو تدرعها بها أو حلولها فيها على ما اختلف فيهم عباراتهم وهو غلط محض يضاهى غلط من يحكم على المرأة بصورة الحرة إذ ظهر فيها لون الحرة مقابلها وإذا كان هذا لا غير لائق

بعلم المعاملة فلنرجع إلى الغرض ؛ فقد ذكرنا تفاوت الدرجات في فهم المسموعات .

المقام الثاني : بعد الفهم والتنزيل ؛ الوجد : وللناس كلام طويل في حقيقة الوجد - أعنى الصوفية والحكام الناظرين في وجه مناسبة السماع للأرواح - فلننقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفية فقد قال ذو النون المصري رحمه الله في السماع : إنه وارد حق جاء يزعم القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق . فسكانه عبر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذي يجده عند ورود وارد السماع إذ سمى السماع وارد حق . وقال أبو الحسين الدراج مخبرا عما وجدته في السماع : الوجد عبارة عما يوجد عند السماع ، وقال : جال في السماع في ميادين البهاء فأوجدني وجود الحق عند العطاء فسقاني بكأس الصفاء فأدكت به منازل الرضاء وأخرجني إلى رياض التنزه والمضاء . وقال الشبلي رحمه الله : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ؛ فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية . وقال بعضهم : السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال ويدرك بركة الطبع لورقه وبصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله . وقال عمرو بن عثمان المسكي : لا يقع على كيفية الوجد عبارة لأنه سر الله عند عباده المؤمنين الموقنين وقال بعضهم : الوجد مكاشفات من الحق . وقال أبو سعيد بن الأعرابي : الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود ، وهو فناؤك من حيث أنت ، وقال أيضا : الوجد أول درجات الخصوص وهو ميراث التصديق بالغيب فلما ذاقوه وسطع في قلوبهم نوره زال عنهم كل شك وريب . وقال أيضا : الذي يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ؛ لأن النفس محجوبة بأسبابها فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفاء ونجحت الموعظة فيه وحل من المناجاة في محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن وإعانة وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا ؛ فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده . وقال أيضا : الوجد ما يكون عند ذكر مزيج أو خوف مقلق أو توبيخ على زلة أو محادثة بلطيفة أو إشارة إلى فائدة أو شوق إلى غائب أو أسف على فائت أو ندم على ماض أو استجلاب إلى حال أو داع إلى واجب أو مناجاة بسر ، وهو مقابلة الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن والغيب بالغيب والسر بالسر واستخراج مالك بما عليك مما سبق للسعى فيه فيكتسب ذلك لك بعد كونه منك ، فيثبت لك قدم بلا قدم وذكر بلا ذكر ، إذ كان هو المبتدئ بالنعم والمتولى وإليه يرجع الأمر كله فهذا ظاهر علم الوجد وأقوال الصوفية من هذا الجنس في الوجد كثيرة .

وأما الحكماء فقال بعضهم : في القلب فضيلة شريفة لم تقدر قوة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظهرت سرت وطربت إليها فاستمعوا من النفس وناجوها ودعوا مناجاة الظواهر . وقال بعضهم : نتائج السماع استنهاض العاجز من الرأى واستجلاب العازب من الأفكار وحدة السكال من الأفهام والآراء حتى يشوب ماعزب وينهض ما عجز ويصفو ما كدر ويمرح في كل رأى ونية ، فيصيب ولا يخطئ ويأتي ولا يبطئ . وقال آخر : كما أن الفكر يطرق العلم إلى المعلوم فالسماع يطرق القلب إلى العالم الروحاني . وقال بعضهم وقد سئل عن سبب حركة الأطراف بالطبع على وزن الألحان والإيقاعات فقال : ذلك عشق عقلى والعاشق العقلى لا يحتاج إلى أن يناغى معشوقه بالمنطق الجرمي بل يناغيه ويناجيه بالتبسم واللحظ والحركة اللطيفة بالحاجب والجنس والإشارة ، وهذه نواطق أجمع لإلتها روحانية ، وأما العاشق البهيمى فإنه يستعمل المنطق الجرمي ليعبر به عن ثمرة ظاهر شوقه الضعيف وعشقه

الزائف . وقال آخر : من حزن فليسمع الألحان . فإن النفس إذا دخلها الحزن خمد نورها وإذا فرحت اشتعل نورها وظهر فرحها فيظهر الحنين بقدر قبول القابل وذلك بقدر صفائه ونقاؤه من الغش والدنس .

والأقاويل المقررة في السماع والوجد كثيرة ولا معنى للاستكثار من إيرادها ، فلنشغل بتفهم المعنى الذي الوجد عبارة عنه فنقول : إنه عبارة عن حالة يشمرها السماع وهو وارد حق جديد عقيب السماع يحده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو عن قسمين : فإما إما أن ترجع إلى مكاشفات ومشاهدات هي من قبيل العلوم والتنبيهات ، وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوال ليست من العلوم بل هي كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقيص ، وهذه الأحوال يهيئها السماع ويقويها ؛ فإن ضعف بحيث لم يؤثر في تحريك الظاهر أو تسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرق أو يسكن عن النظر والطق والحركة على خلاف عادته لم يسم وجدا ، وإن ظهر على الظاهر سمي وجدا إما ضعيفا وإما قويا ، بحسب ظهوره وتغييره للظاهر وتحريكه بحسب قوة وروده ، وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوة الوجد وقدرته على ضبط جوارحه ؛ فقد يقوى الوجد في الباطن ولا يتغير الظاهر لقوة صاحبه ؛ وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحل عقد التماسك . وإلى معنى الأول أشار أبو سعيد بن الأعرابي حيث قال في الوجد : إنه مشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ، ولا يبعد أن يكون السماع سببا لكشف ما لم يكن مكشوفاً قبله ، فإن الكشف يحصل بأسباب : منها التنبيه والسماع منه ، ومنها تغير الأحوال ومشاهدتها وإدراكها فإن إدراكها نوع علم يفيد إيضاح أمور لم تكن معلومة قبل الورد ، ومنها صفاء القلب والسماع يؤثر في تصفية القلب والصفاء يسبب الكشف ، ومنها انبعاث نشاط القلب بقوة السماع فيقوى به على مشاهدة ما كان تقصر عنه قبل ذلك قوته ، كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله . وعمل القلب الاستكشاف وملاحظة أسرار المملوكات ، كما أن عمل البعير حمل الأثقال فبواسطة هذه الأسباب يكون سببا للكشف ، بل القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة ، وبالرؤيا إذا كان في المنام ، وذلك جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة . وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة وذلك كما روى عن محمد بن مسروق البغدادي أنه قال : خرجت ليلة في أيام جهاتى وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلاً يقول :

وفي جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له في الجوف أمعاء

قال : فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة . فانظر كيف أثر الغناء في تصفية قلبه حتى تمثل له حقيقة الحق في صفة جهنم في لفظ مفهوم موزون وقرع ذلك سمعه الظاهر ؟ .

وروى عن مسلم العباداني أنه قال ؟ قدم علينا صالح المري وعتبة الغلام وعبد الواحد بن زيد ومسلم الأسواري فنزلوا على الساحل ، قال : فهيات لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه فجأوا فلما وضعت الطعام بين أيديهم إذا بقائل يقول رافعا صوته هذا البيت :

وتلهيك عن دار الخلود مطاعم ولذة نفس غيا غير نافع

قال : فصاح عتبة الغلام صيحة وخر مغشيا عليه وبكى القوم ، فرفعت الطعام وماذاقوا والله منه لقمة .

وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب فيشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يتمثل لأرباب القلوب بصور مختلفة . وفي مثل هذه الحالة تتمثل الملائكة للأنبياء عليهم السلام إما على حقيقة صورتها وإما على مثال يحاكي صورتها بعض المحاكاة . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرتين في صورته وأخبر عنه بأنه سد الأفق ^(١) وهو المراد بقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ إلى آخر هذه الآيات . وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب ، وقد يعبر عن ذلك الاطلاع بالتفريس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(٢) ، وقد حكى أن رجلاً من المجوس كان يدور على المسلمين ويقول مامعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن ، فكان يذكر له تفسيره فلا يقنعه ذلك حتى انتهى إلى بعض المشايخ من الصوفية . فسأله ، فقال له معناه : أن تقطع الزنار الذى على وسطك تحت ثوبك . فقال : صدقت هذا معناه وأسلم ، وقال : الآن عرفت أنك مؤمن وأن إيمانك حق . وكما حكى عن إبراهيم الخواص قال : كنت ببغداد فى جماعة من الفقهاء فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه فقلت لأصحابي : يقع لى أنه يهودى ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم وقال : أى شىء قال الشيخ فى ؟ فاحتشموه فأخ عليهم فقالوا له : قال إنك يهودى ، قال : لجامنى وأكب على يدي وقبل رأسى وأسلم ، وقال : نجد فى كتبنا أن الصديق لا تخطى فراسته فقلت : أمتحن المسلمين فتأملتهم فقلت : إن كان فيهم صديق فى هذه الطائفة ؛ لأنهم يقولون حديثه سبحانه ويقروون كلامه ؛ فلبست عليكم فلما اطلع على الشيخ وتفريس فى علمت أنه صديق قال ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

وإلى مثل هذا الكشف الإشارة بقوله عليه السلام « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » ^(٣) ، وإنما تحوم الشياطين على القلوب إذا كانت مشحونة بالصفات المذمومة فإنها مرعى الشيطان وجنده . ومن خلص قلبه من تلك الصفات وصفاه لم يطف الشيطان حول قلبه . وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وبقوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ والسماع سبب لصفاء القلب وهو شبكة للحق بواسطة الصفاء .

وعلى هذا يدل ما روى أن ذا النون المصرى رحمه الله دخل بغداد فاجتمع إليه قوم من الصوفية ومعهم قوال ؛ فاستأذنه فى أن يقول لهم شيئاً . فأذن لهم فى ذلك فأنشأ يقول :

صغير هواك عذبنى فكيف به إذا اختسكا وانت جمعت فى قلبي
هوى قد كان مشتركاً أما ترى لمكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه ، ثم قام رجل آخر فقال ذو النون : الذى يراك حين تقوم . فجلس ذلك الرجل وكان ذلك اطلاعا من ذى النون على قلبه . أنه متسكف متواجد ، فعرفه أن الذى يراه حين يقوم هو الخصم فى قيامه لغير الله تعالى ولو كان الرجل صادقاً لما جلس . فإذا قد رجع حاصل الوجد إلى مكاشفات وإلى حالات واعلم أن كل واحد منهما ينقسم إلى ما يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا يمكن العبارة عنه أصلاً ، ولعلك تستبعد حالة أو علماً لا تعلم حقيقته ولا يمكن التعبير عنه عن حقيقته ، فلا تستبعد ذلك فإنك تجد فى أحوالك القريبة لذلك شواهد.

(١) حديث : رأى جبريل عليه السلام مرتين فى صورته فأخبر أنه سد الأفق . متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) حديث « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد وقال حديث عريب .

(٣) حديث « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » تقدم فى الصوم .

أما العلم فكمن فقيه تعرض عليه مسألتان منسابتان في الصورة ويدرك الفقيه بذوقه أن بينهما فرقا في الحكم ؟ وإذا كلف ذكر وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير وإن كان من أفصح الناس ، فبدرك بذوقه الفرق ولا يمكنه التعبير عنه ، وإدراك الفرق علم يصادفه في قلبه بالذوق ولا يشك في أن لوقوعه في قلبه سببا وله عند الله تعالى حقيقة ؛ ولا يمكنه الإخبار عنه لاقصود في لسانه بل لدقة المعنى في نفسه عن أن تناله العبارة . وهذا مما قد تفتن له المواظبون على النظر في المشكلات .

وأما الحال فكمن إنسان يدرك في قلبه في الوقت الذي يصبح فيه قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر إنسان في شيء فيؤثر في نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر في نفسه وهو يحس به ، وقد تكون الحالة التي يحسها سرورا ثبت في نفسه بتفكيره في سبب موجب للسرور ، أو حزنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيب . وقد تكون تلك الحالة حالة غريبة لا يعرب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مفصحة عن المقصود ، بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختص به بعض الناس دون بعض ، وهي حالة يدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها - أعنى التفرقة بين الموزون والمنزحف - فلا يمكنه التعبير عنها بما يتضح مقصوده لمن لا ذوق له . وفي النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعاني المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصل في السماع عن غناء مفهوم ، وأما الأوتار وسائر النغمات التي ليست مفهومة فإنها تؤثر في النفس تأثيرا عجيبا ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الآثار ، وقد يعبر عنها بالشوق ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه فهو عجيب ، والذي اضطرب قلبه بسماع الأوتار أو الشاهين وما أشبهه ليس يدري إلى ماذا يشفق ؟ ويجد في نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدري ما هو ؟ حتى يقع ذلك للعوام ومن لا يغلب على قلبه لاجب آدمي ولا حب الله تعالى . وهذا له سر وهو أن كل شوق فله ركنان :

أحدهما : صفة المشتاق وهو نوع مناسبة مع المشتاق إليه .

والثاني : معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة الوصول إليه ، فإن وجدت الصفة التي بها الشوق ووجد العلم بصورة المشتاق إليه كان الأمر ظاهرا ، وإن لم يوجد العلم بالمشتاق ووجدت الصفة المشوقة وحركت قلبك الصفة واشتعلت نارها أورت ذلك دهشة وحيرة لا محالة

ولو نشأ آدمي وحده بحيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحلم وغلبت عليه الشهوة لكان يحس من نفسه بنار الشهوة ولكن لا يدري أنه يشفق إلى الوقاع لأنه ليس يدري صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء : فكذلك في نفسه الآدمي مناسبة مع العالم الأعلى والذات التي وعد بها في سدرة المنتهى والفراديس العلاء ؛ إلا أنه لم يتخيل من هذا الأمور إلا الصفات والأسماء ، كالذي سمع لفظ الوقاع واسم النساء ولم يشاهد صورة امرأة قط ولا صورة رجل ولا صورة نفسه في المرأة ليعرف بالمقايسة ، فالسماع يحرك منه الشوق والجهل المفرط والاشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقره الذي إليه حنينه واشتياقه بالطبع ، فيتقاضاه قلبه أمرا ليس يدري ما هو ؟ فيدهش ويتحير ويضطرب ويكون كالمختنق الذي لا يعرف طريق الخلاص فهذا ، وأمثاله من الأحوال التي لا يدرك تمام حقائقها ولا يمكن المتصف بها أن يعبر عنها . فقد ظهر انقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره .

واعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلف ويسمى التواجد ، وهذا التواجد المتكلف فنه مذموم

وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ، ومنه ما هو محمود وهو التوصل إلى استدعاء الأحوال الشريفة واكتسابها واجتلابها بالحيلة ، فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتمحازن ^(١) فإن هذه الأحوال قد تتكلف مبادئها ثم تتحقق أواخرها . وكيف لا يكون التكلف سببا فى أن يصير المتكلف فى الآخرة طبعاً ، وكل من يتعلم القرآن أو لا يحفظه تكلفاً ، ويقرؤه تكلفاً مع تمام التأمل وإحضار الذهن ؛ ثم يصير ذلك ديدناً للسان مطرداً حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل ؛ فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد انتهائه إلى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته ؟ وكذلك الكاتب يكتب فى الابتداء بجهد شديد ثم تتمرن على الكتابة يده فيصير الكتاب له طبعاً فيكتب أوراقاً كثيرة وهو مستغرق القلب بفكر آخر ؛ فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولاً ثم يصير بالعادة طبعاً ، وهو المراد بقول بعضهم : العادة طبيعة خامسة . فكذلك الأحوال الشريفة لا ينبغي أن يقع اليأس منها عند فقدتها ، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره ، فلقد شوهده فى العادات من انتهى أن يعشق شخصاً ولم يكن يعشقه فلم يرل يردد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة والأخلاق الحمودة فيه حتى عشقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخاً خرج عن حد اختياره ، فاشتبه بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلص . فكذلك حب الله تعالى والشوق إلى لقائه والخوف من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة ؛ إذا فقدتها الإنسان فينبغى أن يتكلف اجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ومشاهدة أحوالهم وتحسين صفاتهم فى النفس والجلوس معهم فى السماع والدعاء والنضج إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحلة بأن ييسر له أسبابها .

ومن أسبابها السماع ومجالسة الصالحين والخائفين والمحسنين والمشتاقين والخاشعين . فمن جالس شخصاً سرت إليه صفاته من حيث لا يدري . ويدل على إمكان تحصيل الحب وغيره من الأحوال بالأسباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب من يقربنى إلى حبك » ^(٢) ، فقد فزع عليه السلام إلى الدعاء فى طلب الحب . فهذا بيان انقسام الوجد إلى مكاشفات وإلى أحوال وانقسامه إلى ما يمكن الإفصاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وانقسامه إلى المتكلف وإلى المطبوع .

« فإن قلت : فما بال هؤلاء لا يظهر وجدهم عند سماع القرآن وهو كلام الله ويظهر عند الغناء وهو كلام الشعراء ؟ فلو كان ذلك حقاً من لطف الله تعالى ولم يكن باطلاً من غرور الشيطان لكان القرآن أولى به من الغناء ؟ فنقول : الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حب الله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه ، وذلك يهيج بسماع القرآن أيضاً . وإنما الذى لا يهيج بسماع القرآن حب الخلق وعشق المخلوق . ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثاقيقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وكل ما يوجد عقيب السماع فى النفس فهو وجد . فالطمأنينة والاقشعرار والخشية ولين القلب كل ذلك وجد . وقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ فالوجل والخشوع وجد من قبيل الأحوال وإن لم يكن من قبيل المكاشفات . ولكن قد يصير سبباً للمكاشفات والتنبيهات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » ^(٣) ،

(١) حديث : البكاء عند قراءة القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا . تقدم فى تلاوة القرآن فى الباب الثانى . (٢) حديث « اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك ... الحديث » تقدم فى الدعوات . (٣) حديث « زينوا القرآن بأصواتكم » تقدم فى تلاوة القرآن

وقال لأبي موسى الأشعري « لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود عليه السلام ^(١) » .

وأما الحكايات الدالة على أن أرباب القلوب ظهر عليهم الوجد عند سماع القرآن فكثيرة فقولته صلى الله عليه وسلم « شيبتي هود وأخواتها ^(٢) » ، خبر عن الوجد ، فإن الشيب يحصل من الحزن والخوف وذلك وجد . وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال « حسبك » وكانت عيناه تذرفان بالدموع ^(٣) . وفي رواية أنه عليه السلام قرأ هذا الآية أو قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وجحima وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق ^(٤) وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى ^(٥) وكان عليه السلام إذا مر بآية رحمة دعا واشتبشّر ^(٦) والاستبشار وجد . وقد أثنى الله تعالى على أهل الوجد بالقرآن فقال تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل ^(٧) .

وأما ما نقل من الوجد بالقرآن عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين فكثير : فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات في غشيته . وروى أن زرارة بن أوفى - وكان من التابعين - كان يؤم الناس بالريقة فقرأ ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ فصعق ومات في محرابه رحمه الله . وسمع عمر رضى الله عنه رجلا يقرأ ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فحمل إلى بيته ، فلم يزل مريضاً في بيته شهرا . وأبو جرير - من التابعين - قرأ عليه صالح المري فشقق ومات . وسمع الشافعى رحمه الله قارئاً يقرأ ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فغشى عليه . وسمع على بن الفضيل قارئاً يقرأ ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ فسقط مغشيا عليه ، فقال الفضيل : شكر الله لك ما قد علمه منك . وكذلك نقل عن جماعة منهم .

وكذلك الصوفية : فقد كان الشبلى في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلى خلف إمام له فقرأ الإمام ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ فزعق الشبلى زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائضه ، وكان يقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، يردد ذلك مرارا . وقال الجنيد : دخلت على سري السقطى فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه فقال لى : هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه ، فقلت : اقرءوا عليه تلك الآية بعينها فقرئت فأفاق ، فقال : من أين قلت هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماء من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر ، ولو كان عماء من أجل الحق ما أبصر بمخلوق ، فاستحسن ذلك . ويشير إلى ما قاله الجنيد قول الشاعر :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال بعض الصوفية : كنت أقرأ ليلة هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فجعلت ارددها فإذاها تفهتفبى :

(١) حديث « لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود » قاله لأبي موسى تقدم فيه . (٢) حديث « شيبتي هود وأخواتها » أخرجه الترمذى من حديث أبي جعفر وله وإسحاق من حديث ابن عباس نحوه قال الترمذى حسن وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى (٣) حديث : أن ابن مسعود قرأ عليه فلما انتهى إلى قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال « حسبك » الحديث . متفق عليه من حديثه . (٤) حديث : أنه قرئ عنده ﴿ إن لدينا أنكالا وجحima وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ فصعق روى ابن عدى . فى السكائل والبيهقى فى الشعب من طريقه من حديث أبي حرب بن أبى الأسود مرسلا . (٥) حديث : أنه قرأ ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ فبكى . أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو . (٦) حديث : كان إذا مر بآية رحمة دعا واشتبشّر . تقدم فى تلاوة القرآن دون قوله : واشتبشّر . (٧) حديث : أنه كان يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل . أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى فى المعجم فى حديث عبد الله بن الشخير وقد تقدم .

كم تردد هذه الآية ؟ فقد قتلت أربعة من الجن ما رفعوا رموسهم إلى السماء منذ خلقوا . وقال أبو علي المغازلي للشبلي : ربما تطرق سمعي آية من كتاب الله تعالى فتجذبني إلى الإعراض عن الدنيا ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس فلا أبقى على ذلك ، فقال : ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبتك به إليه فذلك عطف منه عليك ولطف منه بك ، وإذاردك إلى نفسك فهو شفقة منه عليك فإنه لا يصلح لك إلا التبري من الحول والقوة في التوجه إليه . وسمع رجل من أهل التصوف قارئاً يقرأ ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ فاستعادها من القارئ وقال : كم أقول لها ارجعي وليست ترجع ؟ وتواجدوزعق زعقة فخرجت روحه . وسمع بكر بن معاذ قارئاً يقرأ ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية فاضطرب ثم صاح : ارحم من أنذرته ولم يقبل إليك بعد الإنذار بطاعتك ، ثم غشى عليه . وكان إبراهيم ابن آدم رحمه الله إذا سمع أحداً يقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ اضطربت أوصاله حتى كان يرتعد . وعن محمد بن صبيح قال : كان رجل يغتسل في الفرات فر به رجل على الشاطئ يقرأ ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فلم يزل الرجل يضطرب حتى غرق ومات . وذكر أن سلمان الفارسي أبصر شاباً يقرأ فألقى على آية فاقشعر جلده فأحبه سلمان وفقده ، فسأل عنه فقبيل له : إنه مريض ، فأناه يعوده فإذا هو في الموت ، فقال : يا عبد الله ! رأيت تلك القشعريرة التي كانت بي ؟ فإنها أتتني في أحسن صورة فأخبرتني أن الله قد غفر لي بها كل ذنب .

وبالجملة لا يخلو صاحب القلب عن وجد عند سماع القرآن فإن كان القرآن لا يؤثر فيه أصلاً ﴿ مثله كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ بل صاحب القلب تؤثر فيه الكلمة من الحركة يسمعهما . قال جعفر الخلدی : دخل رجل من أهل خراسان على الجنيد وعنده جماعة فقال للجنيد : متى يستوي عند العبد حامده وذامه ؟ فقال بعض الشيوخ : إذا دخل السيارستان وقيد بقيدين ، فقال الجنيد : ليس هذا من شأنك ؟ ثم أقبل على الرجل وقال : إذا تحقق أنه مخلوق فشق الرجل شهقة ومات ،

﴿ فإن قلت : فإن كان سماع القرآن مفيداً للوجد فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئین ؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القراء لاحقاً للمغنين ؟ وكان ينبغي أن يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئاً لا قوالاً ؟ فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لاحالة فاعلم أن الغناء أشد تهيجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه :

الوجه الأول : أن جميع آيات القرآن لا تناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له ، فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن أين يناسب حاله قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) وقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات) ؟ وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها ؟ وإنما المحرك لما في القلب ما يناسبه . والآيات إنما يضعها الشعراء إعراباً بها عن أحوال القلب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف . نعم من يستولى عليه حالة غالبة قاهرة لم تبق فيه متسعاً لغيرها ومعه تيقظ وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الالفاظ ، فقد يخرج وجده على كل مسموع كمن يخطر له عند ذكر قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) حالة الموت المحوج إلى الوصية وأن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه من الدنيا ، فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً فيغلب عليه الخوف والجزع أو يسمع ذكر الله في قوله (يوصيكم الله في أولادكم) فيدهش بمجرد الاسم عما قبله وبعده ، أو يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى قسم موارثهم بنفسه نظراً لهم في حياتهم وموتهم فيقول : إذا نظر لأولادنا بعد موتنا فلا نشك بأنه ينظر لنا فيهيح

منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشارا وسرورا ، أو يخطر له من قوله تعالى ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ تفضيل الذكر بكونه رجلا على الأنثى وأن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وأن من ألهاه غير الله تعالى عن الله تعالى فهو من الإناث لا من الرجال تحقيقا ، فيخشى أن يحجب أو يؤخر في نعيم الآخرة كما أخرت الأنثى في أموال الدنيا . فأمثال هذا قد يحرك الوجد ولكن لمن فيه وصفان (أحدهما) حالة غالبية مستغرقة قاهرة (والآخر) تفتن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور القريبة على المعاني البعيدة وذلك مما يعز ، فلاجل ذلك يفرغ إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال حتى يتسارع هيجانها . وروى أن أبا الحسين النورى كان مع جماعة في دعوى لجرى بينهم مسألة في العلم وأبو الحسين ساكت ثم رفع رأسه وأنشدهم :

رب ورقاء متوف في الضحى ذات شجور صدحت في فن
ذكرت لفسا ودعرا صالحا وبكت حزنا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها وبكاهها ربما أرقنى
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضا بالجوى تعرفنى

قال فما بقى أحد من القوم إلا قام وتواجد ، ولم يحصل لهم هذا الوجد من العلم الذى خاصوا فيه وإن كان العلم جدا وحقا .

الوجه الثانى : أن القرآن محفوظ للأكثرين ومتكرر على الاسماع والقلوب ، وكلما سمع أولا عظم أثره في القلوب ، وفي السكرة الثانية يضعف أثره ، وفي الثالثة يكاد يسقط أثره . ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان ، في يوم أو أسبوع لم يمكنه ذلك . ولو أبدل بيت آخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معربا عن عين ذلك المعنى . ولكن كون النظم واللفظ غريبا بالإضافة إلى الأولى يحرك النفس وإن كان المعنى واحدا . وليس يقدر القارئ على أن يقرأ قرآنا غريبا في كل وقت ودعوة فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر . وإلى ما ذكرناه أشار الصديق رضى الله عنه حيث رأى الأعراب يقدمون فيسمعون القرآن ويكفون فقال : كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا . ولا تظن أن قلب الصديق رضى الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب وأنه كان أخلى عن حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ، ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثير به لما حصل له من الألف بكثرة استماعه ، إذ محال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها قبل فيبكي ، ثم يدوم على بكائه عليها عشرين سنة ، ثم يرددها ويبكى ، ولا يفارق الأول الآخر إلا في كونه غريبا جديدا ؟ ولكل جديد لذة واسكل طارئ صدمة ، ومع كل مألوف أنس يناقض الصدمة . ولذا هم عمر رضى الله عنه أن يمنع الناس من كثرة الطواف وقال : قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أى يأنسوا به . ومن قدم حاجا فرأى البيت أولا بكى وزعق وربما غشى عليه إذ وقع عليه بصره ، وقد يقيم بمكة شهرا ولا يحس من ذلك في نفسه بأثر ، فإذا المغنى يقدر على الآليات الغريبة في كل وقت ولا يقدر في كل وقت على آية غريبة .

الوجه الثالث : أن لوزن الكلام بدوق الشعر تأثيرا في النفس فليس الصوت الموزون الطيب كالصوت الطيب الذى ليس بموزون ، وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات ، ولو زحف المغنى البيت الذى ينشده أو لحن فيه

أو مال عن حد تلك الطريقة في اللحن لاضطرب قلب المستمع وبطل جده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة . وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش ، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر .

الوجه الرابع : أن الشعر الموزون يختلف تأميره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والاستانات وإنما اختلاف تلك الطرق بمد المقصور وقصر المدود والوقف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها . وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل ، فقصره ومدّه والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتضيه التلاوة حرام أو مكروه . وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان وهو سبب مستقل بالتأثير وإن لم يكن مفهوما ، كما في الأوتار والمزامير والشاهين وسائر الأصوات التي لا تفهم .

الوجه الخامس : أن الألحان الموزونة تعضد وتؤكد بإيقاعات وأصوات أخر موزونة خارج الحلق كالضرب بالقضيب والدف وغيره ، لأن الوجد الضعيف لا يستثار إلا بسبب قوى ، وإنما يقوى بمجموع هذه الأسباب ولكل واحد منها حظ في التأثير ، وواجب أن يسان القرآن عن مثل هذه القرائن لأن صورتها عند عامة الخلق صورة اللهو واللعب ، والقرآن جد كله عند كافة الخلق ، فلا يجوز أن يمزج بالحق المحض ما هو لهو عند العامة . صورته صورة اللهو عند الخاصة ، وإن كانوا لا ينظرون إليها من حيث إنها لهو ، بل ينبغي أن يوقر القرآن فلا يقرأ على شوارع الطرق بل في مجلس ساكن ، ولا في حال الجنابة . ولا على غير طهارة ولا يقدر على الوفاء بحق حرمة القرآن في كل حال إلا المراقبون لأحوالهم ، فيعدل إلى الغناء الذي لا يستحق هذه المراقبة والمراعاة ، ولذلك لا يجوز الضرب بالدف مع قراءة القرآن ليلة العرس . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب الدف في العرس فقال « أظهروا النكاح ولو بضرب الغربال »^(١) ، وأبلفظ هذا معناه ، وذلك جائز مع الشعر دون القرآن . ولذلك لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فسمع إحداهن تقول : وفيما نبى يعلم ما في غد . على وجه الغناء ، فقال صلى الله عليه وسلم « دعى هذا وقولى ما كنت تقولين »^(٢) ، وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردّها إلى الغناء الذي هو لهو ، لأن هذا جد محض فلا يقرن بصورة اللهو . فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركا للقلب فواجب في الاحترام العدول إلى الغناء عن القرآن كما وجب على تلك الجارية العدول عن شهادة النبوة إلى الغناء .

الوجه السادس . أن المغنى قد يغنى ببيت لا يوافق حال السامع فيكرهه وينهاه عنه ويستدعى غيره فليس كل كلام موافقا لكل حال . فلو اجتمعوا في الدعوات على القارئ فربما يقرأ آية لا توافق حالهم إذ القرآن شفاء للناس كلهم على اختلاف الأحوال ، فأيات الرحمة شفاء الخائف ، وآيات العذاب شفاء المغرور الآمن . وتفصيل ذلك مما يطول . فإذا لا يؤمن أن لا يوافق المقروه الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلا إلى دفعه . فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتزيله على وفق حاله ولا يجوز تنزيل كلام الله تعالى إلا على ما أراد الله تعالى . وأما قول الشاعر فيجوز تنزيله على غير مراده ففيه خطر الكراهة أو خطر التأويل الخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله وصيانته عن ذلك ، وهذا ما يتقدح في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن .

وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي في الاعتذار عن ذلك فقال : القرآن كلام الله وصفة من

(١) حديث : الأمر بضرب الدف في العرس . تقدم في النكاح . (٢) حديث : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت الربيع بنت معوذ وعندها جوار فبين .. الحديث . أخرجه البخاري من حديثها وقد تقدم في النكاح .

صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية ، لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة . ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لتصدعت ودهشت وتحيرت . والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق ، والشعر نسبته نسبة الحظوظ . فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الآيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضا كان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكله المخلوق المخلوق . فما دامت البشرية باقية ونحن بصفتنا وحظوظنا نتنعم بالانغمات الشجية والأصوات الطيبة ، فانبساطنا لمشاهدة بقاء هذه الحظوظ إلى القصائد أولى من انبساطنا إلى كلام الله تعالى الذى هو صفته وكلامه الذى منه بدأ وإليه يعود . وهذا حاصل المقصود من كلامه واعتذاره . وقد حكى عن أبى الحسن الدراج أنه قال قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد للزيارة والسلام عليه فلما دخلت الرى كنت أسأل عنه فشكل من سأله عنه قال . أيش تعمل بذلك الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف . ثم قلت فى نفسى : قد جبت هذا الطريق كله فلا أقل من أن أراه . فلم أزل أسأل عنه حتى دخلت عليه فى مسجد وهو قاعد فى المحراب وبين يديه رجل ويده مصحف وهو يقرأ ، فإذا هو شيخ بهى حسن الوجه واللحية ، فسلمت عليه فأقبل على وقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من بغداد ، فقال : وما الذى جاء بك ؟ فقلت : قصدتك للسلام عليك ، فقال : لو أن فى بعض هذه البلدان قال لك إنسان أقم عندنا حتى نشترى لك دارا أو جارية أكان يقعدك ذلك عن الحجى ؟ فقلت : ما امتحننى الله بشئ من ذلك ولو امتحننى ما كنت أدرى كيف أكون ؟ ثم قال لى : أنتحسن أن تقول شيئا ؟ فقلت : نعم ، فقال : هات ! فأنشأت أقول :

رأيتك تبني دائما فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني

كأنى بكم والليت أفضل قولكم ألا ليتنا كنا إذ الليت لا يغنى

قال : فأطبق المصحف ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وابتل ثوبه ، حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال : يا بنى تلوم أهل الرى يقولون يوسف زنديق ، هذا أنا من صلاة الغداة أقرأ فى المصحف لم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت القيامة على لذين البيتين . فإذا القلوب وإن كانت محترقة فى حب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن ، وذلك لوزن الشعر ومشاكلته للطباع ، ولكونه مشاكلا للطبع اقتدر البشر على نظم الشعر ، وأما القرآن فنظمه خارج عن أساليب الكلام ومنهجه وهو لذلك معجز لا يدخل فى قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعه . وروى أن إسرائيل - أستاذ ذى التون المصرى - دخل عليه رجل فرآه وهو ينسكت فى الأرض بأصبعه ويترنم ببنت فقال : هل تحسن أن ترنم بشئ ؟ فقال : لا ، قال : فأنت بلا قلب - إشارة إلى أن من له قلب وعرف طباعه علم أنه تحركه الآيات والنفحات تحريكا لا يصادف فى غيرها فيتكلف طريق التحريك إما بصوت نفسه أو بغيره - وقد ذكرنا حكم المقام الأول فى فهم المسموع وتنزيله ، وحكم المقام الثانى فى الوجد الذى يصادف فى القلب ، فلنذكر الآن أثر الوجد أعنى ما يترشح منه إلى الظاهر من صعقة وبكاء وحركة وتمزيق ثوب وغيره فنقول :

المقام الثالث من السماع

نذكر فيه آداب السماع ظاهرا وباطنا وما يحمد من آثار الوجد وما يذم . فأما الآداب فهى خمس جمل :
الأول : مراعاة الزمان والمكان والإخوان . قال الجنيد : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . ومعناه أن الاشتغال به فى وقت حضور طعام أو خصام أو صلاة أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه فهذا معنى مراعاة الزمان فبراعى حالة فراغ القلب له . وأما المكان : فقد يكون

شارعا مطروقا أو موضعا كره الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيجتنب ذلك . وأما الإخوان : فسيببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهذا الظاهر مفلس من لطائف القلوب كان مستقلا في المجلس واشتغل القلب به . وكذلك إذا حضر متكبر من أهل الدنيا يحتاج إلى مراقبته وإلى مراعاته ، أو متسكف متواجد من أهل التصوف يرأى بالوجد والرقص وتمزيق الثياب ، فكل ذلك مشوشات . فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى ففي هذه الشروط نظر للمستمع .

الآداب الثاني : هو نظر الحاضرين أن الشيخ إذا كان حوله يريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والمريد الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة :

أقلهم درجة . هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فيتنعم بذوق السماع ، فليشتغل بذكر أو خدمة وإلا فهو تضييع لزمانه .

الثاني : هو الذي له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشرية ولم ينكسر بعد انكساراً تؤمن غوائله ، فربما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصدّه عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد انكسرت شهوته وأمنت غائلته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى ولكنه لم يحكم ظاهر العلم ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل ؛ فإذا فتح له باب السماع نزل المسموع في حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز فيكون ضرره من تلك الخواطر التي هي كفر أعظم من نفع السماع .

قال سهل رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هذا ولا لمن قلبه بعد ملوث بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء ، ولا لمن يسمع لأجل التلذذ والاستطابة بالطبع فيصير ذلك عادة له ويشغله ذلك عن عبادته ومراعاة قلبه وينقطع عليه طريقه . فالسماع مزلة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه . قال الجنيد : رأيت إبليس في النوم فقلت له هل تظفر من أصحابنا بشيء ؟ قال : نعم في وقتين ، وقت السماع ووقت النظر فإني أدخل عليهم به . فقال بعض الشيوخ : لو رأيت أنا لقلت له ما أحملك من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر كيف تظفر به ؟ فقال الجنيد : صدقت .

الآداب الثالث : أن يكون مصغياً إلى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل الالتفات إلى الجوانب ، متحرزاً عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد . مشغلاً بنفسه ومراعاة قلبه ومراقبة ما يفتح الله تعالى له من رحمته في سره ، متحفظاً عن حركة تشوش على أصحابه قلوبهم . يل يكون ساكن الظاهر ، هادئ الأطراف متحفظاً عن التنحنح والتشاؤب ، ويجلس مطرقاً رأسه ، كجلوسه في فكر مستغرق لقلبه ، متمسكاً عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجه التصنع والتسكف والمراعاة ، ساكناً عن النطق في أثناء القول بكل ما عنه بد فإن غلبه الوجد وحركه بغير اختيار فهو معذور غير ملوم . ومهما رجع إليه الاختيار فليعد إلى هدوئه وسكونه . ولا ينبغي أن يستديمه حياء من أن يقال انقطع وجده على القرب ولا أن يتواجد خوفاً من أن يقال هو قاسى القلب عديم الصفاء والرقّة .

حكى أن شاباً كان يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئاً من الذكر يزعق فقال له الجنيد يوماً ؛ إن فعلت ذلك مرة

أخرى لم تصحبنى فكان بعد ذلك يضبط نفسه حتى يقطر من كل شعرة منه قطرة ماء ولا يزرق ، فحكى أنه اختلق يوما لشدة ضبطه لنفسه فشقق شققة فانشق قلبه وتلفت نفسه . وروى أن موسى عليه السلام قص في بني إسرائيل فزق واحد منهم ثوبه أو قميصه فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل له : مزق لى قلبك ولا تمزق ثوبك . قال أبو القاسم النصرى بأذى لأبي عمرو بن عبيد أنا أقول : إذا اجتمع القوم فيكون معهم قوال يقول خيرا لهم من أن يقتابوا ؛ فقال أبو عمرو : الرياء في السماع وهو أن ترى من نفسك حالا ليست فيك شر من أن تغتاب ثلاثين سنة أو نحو ذلك .

• فإن قلت : الأفضل هو الذى لا يحرکه السماع ولا يؤثر في ظاهره أو الذى يظهر عليه ؟ فاعلم أن عدم الظهور تارة يكون لضعف الوارد من الوجد فهو نقصان ، وتارة يكون مع قوة الوجد في الباطن لكن لا يظهر لكمال القوة على ضبط الجوارح فهو كمال ، وتارة يكون لكون حال الوجد ملازما ومصاحبا في الأحوال كلها فلا يتبين للسماع مزيد تأثير وهو غاية الكمال . فإن صاحب الوجد في غالب الأحوال لا يدوم وجده فمن هو في وجد دائم فهو الم رابط للحق والملازم لعين الشهود ؛ فهذا لا تغيره طوارق الأحوال ولا يبعد أن تكون الإشارة بقول الصديق رضى الله عنه : كنا كما كنتم ثم قست قلوبنا ، معناه قويت قلوبنا واشتدت فصارت تطيق ملازمة الوجد في كل الأحوال فنحن في سماع معاني القرآن على الدوام فلا يكون القرآن جديدا في حقنا طارئا علينا حتى تتأثر به . فإذا قوة الوجد تحرك وقوة العقل والتماثل تضبط الظاهر . وقد يغلب أحدهما الآخر إما الشدة قوته وإما الضعف ما يقابله ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك فلا نظن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتم وجد من الساكن باضطرابه ، بل رب ساكن أتم وجد من المضطرب . فقد كان الجنيد يتحرك في السماع في بدايته ثم صار لا يتحرك فقليل له في ذلك فقال (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء) إشارة إلى أن القلب مضطرب جائل في الملكوت والجوارح متأدبة في الظاهر ساكنة . وقال أبو الحسن محمد بن أحمد وكان بالبصرة : صحبت سهل بن عبد الله ستين سنة فما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر أو القرآن ، فلما كان في آخر عمره قرأ رجل بين يديه (فالיום لا تخذمنكم فدية) الآية فرأيت أنه قد ارتعد وكاد يسقط ، فلما عاد إلى حاله سألته عن ذلك فقال : نعم يا حبيبي قد ضعفنا . وكذلك سمع مرة قوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) فاضطرب فسأله ابن سالم - وكان من أصحابه - فقال : قد ضعفت . فقليل له : فإن كان هذا من مضعف فما قوة الحال فقال : أن لا يرد عليه وارد إلا وهو ياتقيه بقوة حاله ، فلا تغيره الواردات وإن كانت قوية . وسبب القدرة على ضبط الظاهر مع وجود الوجد استواء الأحوال بملازمة الشهود . كما حكى عن سهل رحمه الله تعالى أنه قال : حالتى قبل الصلاة وبعدها واحدة ، لأنه كان مراعىا للقلب حاضر الذكر مع الله تعالى في كل حال . فكذلك يكون قبل السماع وبعده ، إذ يكون وجده دائما ، وعطشه متصلا ، وشربه مستمرا ، بحيث لا يؤثر السماع في زيادته . كما روى أن بمشاد الدينورى أشرف على جماعة فيهم قوال فسكنوا فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمعت ملاهى الدنيا في أذنى ما شغل همى ولا شفى بعض ما بى . وقال الجنيد رحمه الله تعالى : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم . وفضل العلم أتم من فضل الوجد .

فإن قلت : فشل هذا لم يحضر السماع ؟ فاعلم أن من هؤلاء من ترك السماع في كبره وكان لا يحضر إلا نادرا لمساعدة أخ من الإخوان وإدخاله للسرور على قلبه ؛ وربما حضر ليعرف القوم كمال قوته فيعلمون أنه ليس الكمال بالوجد الظاهر ؛ فيتعلمون منه ضبط الظاهر عن التكلف وإن لم يقدرُوا على الاقتداء به في صيرورته طبعاً

لهم . وإن اتفق حضورهم مع غير أبناء جنسهم فيكونون معهم بأبدانهم نائمين عنهم بقلوبهم وبواطنهم . كما يجلسون من غير سماع مع غير جنسهم بأسباب عارضة تقتضى الجلوس معهم . وبعضهم نقل عنه ترك السماع ويظن أنه كان سبب تركه استثناءه عن السماع بما ذكرناه . وبعضهم كان من الزهاد ولم يكن له حظ روحاني في السماع ولا كان من أهل اللهو ، فتركه لئلا يكون مشغولا بما لا يعنيه . وبعضهم تركه لفقد الإخوان . قيل لبعضهم لم لا تسمع ؟ فقال : ممن ومع من ؟

الآداب الرابع : أن لا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على ضبط نفسه ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة ؛ لأن التباكى استجلاب للحزن ، والرقص سبب في تحريك السرور والنشاط . فكل سرور مباح فيجوز تحريكه . ولو كان ذلك حراما لما نظرت عائشة رضي الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون ^(١) هذا لفظ عائشة رضي الله عنها في بعض الروايات . وقد روى عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنهم حجلوا لما ورد عليهم سرور أوجب ذلك ؛ وذلك في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي بن أبي طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله عنهم فمشاحوا في تربيتها فقال صلى الله عليه وسلم لعلي « أنت مني وأنا منك » فحجل علي وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلق » فحجل وراء حجل علي وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل زيد وراء حجل جعفر ، ثم قال عليه السلام « هي لجعفر لأن خالتها تحته والخالة والدة ^(٢) » وفي رواية أنه قال لعائشة رضي الله عنها « أتحيين أن تنظري إلى زفن الحبشة » والزفن والحجل هو الرقص . وذلك يكون لفرح أو شوق فحكه حكم مهيجه ، وإن كان فرحه محمودا والرقص يزيد ويؤكد فهو محمود ، وإن كان مباحا فهو مباح ، وإن كان مذموما فهو مذموم . نعم لا يليق اعتياد ذلك بمناسب الأكار وأهل القدوة لأنه في الأكثر يكون عن لهو ولعب ، وماله صورة اللعب واللهو في أعين الناس فينبغي أن يحتجبه المقتدى به لئلا يصغر في أعين الناس فيترك الاقتداء به .

وأما تمزيق الثياب فلا رخصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار ، ولا يبعد أن يغلب الوجد بحيث يمزق ثوبه وهو لا يدري لغلبة سكر الوجد عليه ، أو يدري ولكن يكون كالمضطر الذي لا يقدر على ضبط نفسه ، وتكون صورته صورة المكروه إذ يكون له في الحركة أو التمزيق متنفس ، فيضطر إليه اضطرار المريض إلى الأنيب ، ولو كلف الصبر عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختياري ، فليس كل فعل حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه ، فالتنفس فعل يحصل بالإرادة ، ولو كلف الإنسان أن يمسك النفس ساعة لا يضطر من باطنه إلى أن يختار التنفس . فكذلك الزعقة وتمزيق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم . فقد ذكر عند السري حديث الوجد الحاد الغالب فقال : نعم يضرب وجهه بالسيف وهو لا يدري . فراجع فيه واستبعد أن ينتهي إلى هذا الحد فأصر عليه ولم يرجع . ومعناه : أنه في بعض الأحوال قد ينتهي إلى هذا الحد في بعض الأشخاص .

• فإن قلت : فما تقول في تمزيق الثياب الجديدة بعد سكون الوجد والفراغ من السماع فإنهم يمزقونها قطعاً صغيراً ويفرقونها على القوم ويسمونها الخزقة ؟ فأعلم أن ذلك مباح إذا قطع قطعاً مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات . فإن الكرباس يمزق حتى يخاط منه القميص ، ولا يكون ذلك تضييعاً لأنه تمزيق لغرض . وكذلك ترقيع الثياب لا يمكن إلا بالقطع الصغير وذلك مقصود ، والتمزيق على الجميع ليعم ذلك الخير مقصود مباح . ولكل

(١) حديث : نظرت عائشة إلى رقص الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفنون . تقدم في الباب قبله .

(٢) حديث : اختصم علي وجعفر وزيد بن حارثة في ابنة حمزة فقال لعلي « أنت مني وأنا منك » فحجل وقال لجعفر « أشبهت خلقي وخلق » فحجل وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » فحجل ... الحديث أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد حسن وهو عند البخاري دون « فحجل » .

مالك أن يقطع كرباسه مائة قطعة ويعطيها لمائة مسكين ، ولكن ينبغي أن تكون القطع بحيث يمكن أن ينتفع بها في الرقاق . وإنما منعنا في السماع التمزيق المفسد للشوب الذي يهلك بعضه بحيث لا يبقى منتفعا به فهو قضيب يحض لايحوز بالاختيار .

الآداب الخامس : موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختيار من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصعبة . وكذلك إن جرت عادة طائفة بتحية العمامة على موافقة صاحب الوجد إذا سقطت عمامته . أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتمزيق ؛ فالموافقة في هذه الأمور من حسن الصعبة والعشرة ، إذا المخالفة موحشة ولكل قوم رسم ، ولا بد من مخالقة الناس بأخلاقهم^(١) كما ورد في الخبر ، لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن العشرة والمجاملة وتطبيب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إن ذلك بدعة لم يكن في الصحابة ؟ فليس كل ما يحكم بإباحته منقولا عن الصحابة رضي الله عنهم ، وإنما المحذور ارتكاب بدعة تراغم سنة مأثورة ، ولم ينقل النهي عن شيء من هذا .

والقيام عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب بل كان الصحابة رضي الله عنهم لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال^(٢) كما رواه أنس رضي الله عنه . ولكن إذا لم يثبت فيه نهى عام فلا يرى به بأسا في البلاد التي جرت العادة فيها بإكرام الداخل بالقيام ، فإن المقصود منه الاحترام والإكرام وتطبيب القلب به . وكذلك سائر أنواع المساعدات إذا قصد بها تطبيب القلب واصطلح عليها جماعة فلا بأس بمساعدتهم عليها ، بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نهى لا يقبل التأويل ، ومن الأدب أن لا يقوم للرقص مع القوم إن كان يستقل رقصه ، ولا يشوش عليهم أحوالهم إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح ، والمتواجد هو الذي بلوح للجميع منه أثر التكاف . ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محك للصدق والتكلف .

سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال : صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضداد .

فإن قلت : فما بال الطباع تنفر عن الرقص ويسبق إلى الأوهام أنه باطل وهو مخالف للدين فلا يراه ذو وجد في الدين إلا وينكره ؟

فاعلم أن الجد لا يزيد على جد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد رأى الحبشة يرفنون في المسجد وما أنكره لما كان في وقت لائق به وهو العيد ، ومن شخص لائق به وهم الحبشة . نعم نفرة الطباع عنه ، لأنه يرى غالباً مقرونا باللهو واللعب ، واللهو واللعب مباح ولكن للعوام من الزوج والحبشة ومن أشبههم . وهو مكروه لذوي المناصب لأنه لا يليق بهم ، وما كره لكونه غير لائق بمنصب ذي المنصب فلا يجوز أن يوصف بالتحريم ، فمن سأل فقيرا شيئا فأعطاه رغيفا كان ذلك طاعة مستحسنة ، ولو سأل ملكا فأعطاه رغيفا أو رغيفين لكان ذلك منكرا عند الناس كافة ، ومكتوبا في تواريخ الأخبار من جملة مساويه ويعير به أعقابه وأشياعه ، ومع هذا فلا يجوز أن يقال ما فعله حرام لأنه من حيث إنه أعطى خبزا للفقير حسن ، ومن حيث أنه بالإضافة إلى منصبه كالمنع بالإضافة إلى الفقير مستقبح ، فكذلك الراقص وما يجري مجراه من المباحات ، ومباحات العوام سيئات الأبرار ، وحسنات الأبرار

(١) حديث : مخالقة الناس بأخلاقهم ، أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر « خالقوا الناس بأخلاقهم ... الحديث » قال صحيح على شرط الشيخين : (٢) حديث : كانوا لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحوال . كما رواه أنس تقدم في آداب الصعبة .

سيئات المقربين ، ولكن هذا من حيث الالتفات إلى المناصب . وأما إذا نظر إليه في نفسه وجب الحكم بأنه هو في نفسه لا تحريم فيه والله أعلم ، فقد خرج من جملة التفصيل السابق أن السماع قد يكون حراما محضا ، وقد يكون مباحا ، وقد يكون مكروها ، وقد يكون مستحبا .

أما الحرام : فهو لأكثر الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه : فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ولكنه يتخذ عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح : فهو لمن لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب : فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ولم يحرك السماع منه إلا الصفات الحمودة والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله .

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو الكتاب التاسع : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده ، ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه ورفده ، والصلاة على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبيده ، وعلى آله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده .

أما بعد : فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد أندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالسكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ناهضا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها ، ومستقبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها ، وهانحن نشرح عليه في أربعة أبواب . (الباب الأول) في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته ، (الباب الثاني) في أركانه وشروطه ، (الباب الثالث) في مجاريه وبيان المنكرات المسالوفة في العادات (الباب الرابع) في أمر الأمراء والسلطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

الباب الأول : في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه وإشارات العقول السليمة إليه : الآيات والأكبار والآثار
أما الآيات : فقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم

المفلحون ﴿ ففي الآية بيان الإيجاب فإن قوله تعالى ﴿ ولتكن ﴾ أمر وظاهر الامر بالإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم أمرين بالمعروف بل قال ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ فإذا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة وقال تعالى ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ فلم يشهد لهم بالصالح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر حتى أضاف إليه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ﴾ فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فالذي هجر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية ، وقال تعالى ﴿ لمن الذي كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر ، وقال عز وجل ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ وهذا يدل على فضيلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس وقال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين يهتدون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعباد بئس بما كانوا يفسقون ﴾ فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء وبذل ذلك على الوجوب أيضا ، وقال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين وقال تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ وهو أمر جزم ومعنى التعاون الحث عليه وتسهيل طرق الخير وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان وقال تعالى ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ فبين أنهم آمنوا بترك النهي وقال تعالى ﴿ فلو لا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ الآية فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلا منهم كانوا ينهون عن الفساد وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ وذلك هو الامر بالمعروف للوالدين والأقربين وقال تعالى ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الآية والإصلاح نهى عن البغى وإعادة إلى الطاعة فإن لم يفعل فقد أمر الله تعالى بقتاله فقال ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله ﴾ وذلك هو النهي عن المنكر

وأما الأخبار : فمنها ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتقولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾^(١) لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴿ وإنى

كتاب الامر بالمعروف

الباب الأول : في وجوب الامر بالمعروف

(١) حديث أبي بكر : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتقولونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ﴾ .. الحديث . أخرجه أصحاب السنن وهم في العلة .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده » وروى عن أبي ثعلبة الخشني : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾^(١) فقال : « يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام إن من وراءكم فتناً كقطع الليل المظلم المتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجر خمسين منكم » قيل : بل منهم يارسول الله . قال : « لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا تجدون عليه أعواناً » وسئل ابن مسعود رضى الله عنه عن تفسير هذه الآية فقال : إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ، ولكن قد أوشك أن يأتي زمانها تأمرون بالمعروف فيصنع بكم كذا وكذا وتقولون فلا يقبل منكم لحيث أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطان الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم »^(٢) ، معناه تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم . وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم »^(٣) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لحي ، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لحي »^(٤) ، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال رب وثقت بك وفرقت من الناس »^(٥) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا ما لنا بتد إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال : « فإذا أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقها » قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٦) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف أو منكر أو ذكر الله تعالى »^(٧) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرين على أن ينكروه فلا ينكرونها »^(٨) ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ » قالوا : « وإن ذلك لكائن يارسول الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : وما أشد

(١) حديث أبي ثعلبة : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ . . . الحديث . أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه .

(٢) حديث : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطان الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف وللترمذي من حديث حذيفة نحو : إلا أنه قال : « أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » قال هذا حديث حسن . (٣) حديث : « يا أيها الناس إن الله سبحانه يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة بالنقل « مهروا وانهوا » وهو عند ابن ماجه دون عزوه الى كلام الله تعالى وفي اسناده ابن . (٤) حديث : « ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لحي » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الردوس مقتصرأ على الشطر الأول من حديث جابر بإسناد ضعيف ، وأما الشطر الأخير فرواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من رواية يحيى بن عطاء مرسلاً أو مفضلاً ، ولا أدري من يحيى بن عطاء ؟ (٥) حديث : « إن الله تعالى ليسأل العبد مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه وقد تقدم . (٦) حديث : « إياكم والجلوس على الطرقات . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي سعيد (٧) حديث : « كل كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا أمراً بمعروف . . . الحديث » تقدم في العلم .

(٨) حديث : « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يروا المنكر » . . . الحديث » أخرجه أحمد من حديث عدى بن عميرة وفيه من يسم والطبراني من حديث أخيه العرس بن عميرة وفيه من لم أعرفه .

منه يارسل الله ؟ « كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ » قالوا : « وكأن ذلك يارسل الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : « وما أشد منه ؟ كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكرا والمنكر معروفا ؟ » قالوا : « وكأن ذلك يارسل الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا : « وكأن ذلك يارسل الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى في حلفت لأنيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران (١) » وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه ، ولا تقفن عند رجل يضرب مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه (٢) » قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينبغي لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه إن يقدم أجله وإن يحرمه رزقا هو له (٣) » وهذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ولا حضور الموضع التي يشاهد المنكر فيها ولا يقدر على تغييره ، فإنه قال : « اللعنة تنزل على من حضر » ولا يجوز له مشاهدة المنكر من غير حاجة اعتذارا بأنه عاجز . ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة لمشاهدتهم المنكرات في الأسواق والأعياد والجامع وعجزهم عن التغيير ، وهذا يقتضي لزوم الهجر للخلق . ولهذا قال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : « ما ساحت السواح وخلوا دورهم وأولادهم إلا بمثل ما نزل بنا حين رأوا الشر قد ظهر والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لا يقبل من تكلم ، ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعذبهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلمون منه ؛ فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاوره هؤلاء في نعيمهم ثم قرأ ﴿ ففروا إلى الله إنكم منه نذير مبين ﴾ قال : ففروا قوم فلولاً ما جعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر لقلنا ما هم بأفضل من هؤلاء » فيما بلغنا أن الملائكة عليهم السلام ليلقاهم وتصافحهم ، والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبه ، ويسألها أين أمرت فتخبره ؟ وليس بنبي . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حضر معصية فكرها فكأنه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها (٤) » ومعنى الحديث أن يحضر لحاجة أو يتفق جريان ذلك يديه . فأما الحضور قصدا فممنوع بدليل الحديث الأول . وقال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى فيمسكك النبي بين أظهرهم ما شاء الله تعالى يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيه فإذا انقضوا كان من بعدهم قوم يركبون رموس المناير يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون فإذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك لإسلام (٥) » .

(١) حديث أبي أمامة : كيف بكم إذا طغى أساؤكم وفسق شبابكم وتركتم جهادكم قالوا وإن ذلك كائن يارسل الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » قالوا وما أشد منه ؟ قال : « كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ... الحديث » أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف دون قوله « كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف » ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصر على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها دون الآخرين وإسناده ضعيف .
(٢) حديث عكرمة عن ابن عباس « لا تقفن عند رجل يقتل مظلوما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه » أخرجه الطبراني بإسناد ضعيف والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد حسن . (٣) حديث « لا ينبغي لامرئ شهد مقاما فيه حق إلا تكلم به فإنه إن يقدم أجله وإن يحرمه رزقا هو له » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد الحديث الذي قبله وروى الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد « لا ينعن رجلا هيئة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .
(٤) حديث أبي هريرة « من حضر معصية فكرها فكأنه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها » رواه ابن عدى وفيه يحيى بن أبي سلمان قال البخاري منكر الحديث . (٥) حديث ابن مسعود « ما بعث الله عز وجل نبيا إلا وله حوارى ... الحديث » روى مسلم نحوه .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كان أهل قرية يعملون بالمعاصي وكان فيهم أربعة نفر يشكرون ما يعملون ، فقام أحدهم فقال : إنكم تعملون كذا وكذا فجعل ينههم ويخبرهم بقبائح ما يصنعون فجعلوا يردون عليه ولا يردون عن أعمالهم فسبهم فسبوه وقاتلهم فغلبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبونى وقاتلتهم فغلبوني ثم ذهب ثم قام الآخر فنههم فلم يطيعوه فسبهم فسبوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني وسببتهم فسبونى ولو قاتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الثالث فنههم فلم يطيعوه فاعتزل ثم قال اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ولو سببتهم لسبونى ولو قاتلتهم لغلبوني . ثم ذهب ثم قام الرابع فقال اللهم إني لو نهيتهم لعصوني ولو سببتهم لسبونى ولو قاتلتهم لغلبوني ثم ذهب قال ابن مسعود رضي الله عنه كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » ، قيل بم يا رسول الله قال « بها ومنهم وسكوتهم على معاصي الله تعالى ^(١) » ، وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوحى الله تبارك وتعالى إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال أقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط ^(٢) » ، وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء قالوا يا رسول الله كيف قال لم يكونوا يغيضون الله ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) » ، وعن عروة عن أبيه قال قال موسى صلى الله عليه وسلم يارب أى عبادك أحب إليك قال الذى يتسرع إلى هواى كما يتسرع النسر إلى هواه والذى يكاف بعبادى الصالحين كما يكاف الصبي بالثدي والذى يغضب إذا أتيت محارمى كما يغضب النمر لنفسه فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال قتل الناس أم كثروا وهذا يدل على فضيلة الحسبة مع شدة الخوف وقال أبو ذر الغفارى : قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزوقين يمشون على الأرض يباهى الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ومن هم ؟ قال « الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبون فى الله والمبغضون فى الله » ثم قال « والذى نفسى بيده إن العبد منهم ليسكون فى الغرفة فوق الغرفات فوق غرف الشهداء للغرفة منها ثلثائة ألف باب منها الياقوت والزمرد الأخضر على كل باب نور وإن الرجل منهم ليزوج بثلاثائة ألف حوراء قاصرات الطرف عين كلما التفت إلى واحدة منهم فنظر إليها تقول له : أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ؟ كلما نظر إلى واحدة منهم ذكرت له مقاما أمر فيه بمعروف ونهى فيه عن منكر ^(٤) » ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت : يا رسول الله أى الشهداء أكرم على الله عز وجل ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجرى

(١) حديث ابن عباس : قيل يا رسول الله أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال « نعم » قيل : بم يا رسول الله ؟ قال « بها ومنهم وسكوتهم على معاصي الله » أخرجه البزار والطبراني بسند ضعيف . (٢) حديث جابر « أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال فقال يارب إن فيهم عبدك فلانا ... الحديث » أخرجه الطبراني فى الأوسط والبيهقى فى الشعب وضعفه وقال المحفوظ من قول ملك بن دينار . (٣) حديث عائشة « عذب أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا عملهم عمل الأنبياء » لم أوفى عليه مرفوعا وروى ابن أبى الدنيا وأبو الشيخ عن إبراهيم بن عمر الصنعاني « أوحى الله إلى يوشع بن نون لى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال لهم لم ينضبوا انضى فسكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم » . (٤) حديث أبى ذر : قال أبو بكر يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين ؟ قال « نعم يا أبا بكر إن لله تعالى مجاهدين فى الأرض أفضل من الشهداء » فذكر الحديث وفيه فقال « هم الآمرون بالمعروف والنهي عن المنكر ... الحديث » بطوله لم أقف له على أصل وهو منكر .

عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش ^(١) ، وقال الحسن البصري رحمه الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر ^(٢) » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بثس القوم قوم لا يأمرن بالقسط وبثس القوم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ^(٣) » .

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجمل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه . وقال مالك بن دينار : كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشي الرجال والنساء منزله يعظهم ويذكرهم بأيام الله عز وجل فرأى بعض بنيهم يوما وقد غمز بعض النساء فقال : مهلا يا بني مهلا ، وسقط من سريره فانتطح نخاعة وأسقطت امرأته وقتل بنوه في الجليش ، فأوحى الله تعالى إلى نبي زمانه : أن أخبر فلانا الخبر أني لا أخرج من صلبك صديقا أبدا أما كان من غضبك لي إلا أن قلت : مهلا يا بني مهلا . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال : يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ، قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم . وقال بلال بن سعد : إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أعلنت ولم تغير أضرت بالعامّة ، وقال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك من قومك ؟ قال : حسنة . قال كعب : إن التوراة لتقول غير ذلك ؟ قال : وما تقول ؟ قال : تقول إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه ، فقال : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم . وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال ثم قعد عنهم فقيل له : لو أتيتهم فلعلهم يجردون في أنفسهم ، فقال : أهرب إن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي ، وإن سكنت رهبت أن آثم . وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع ويستتر عنه حتى لا يجري بمشهد منه . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بالسيوف ، ثم الجهاد بقلوبكم ؛ فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أيما عبد عمل في شيء من دينه بما أمر به أو نهى عنه وتعلق به عند فساد الأمور وتنكرها وتشوش الزمان فهو بمن قد قام لله في زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . معناه أنه إذا لم يقدر إلا على نفسه فقام بها وأنكر أحوال الغير بقابه فقد جاء بما هو الغاية في حقه وقيل للفضيل : ألا تأمر وتنهى ؟ فقال : إن قوما أمروا ونهوا فكفروا وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا وقيل للثوري . ألا تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فقال : إذا انبثق البحر فمن يقدر أن يسكبه . فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) حديث أبي عبيدة : قلت يا رسول الله أي الشهداء أكرم على الله ؟ قال « رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ... الحديث » أخرجه البزار مقتصرا على هذا دون قوله « فإن لم يقتله ... إلى آخره » وهذه الزيادة منكروه وفيه أبو الحسن غير مشهور لا يعرف . (٢) حديث الحسن البصري مرسل « أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر » لم أره من حديث الحسن ولا الحاكم في المستدرک وصحيح إسناده من حديث جابر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب « ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » . (٣) حديث عمر « بثس القوم قوم لا يأمرن بالقسط وبثس القوم قوم لا يأمرن بالمعروف ولا ينهون عن المنكر » رواه أبو الشيخ ابن حبان من حديث جابر بسند ضعيف وأما حديث عمر فأشار إليه أبو منصور الديلمي بقوله وفي الباب ورواه علي بن معبد في كتاب الصلاة والمصيبة من حديث الحسن مرسل .

المنكر واجب وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به . فلنذكر الآن شروطه وشروط وجوبه :

الباب الثاني : في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

أعلم أن الأركان في الحسبة التي هي عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أربعة : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب . فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شروطه .

الركن الأول : المحتسب

وله شروط ، وهو أن يكون مكلفا مسلما قادرا فيخرج منه المجنون والصبي والكافر والعاجز ، ويدخل فيه آحاد الرعايا وإن لم يكونوا مأذونين ، ويدخل فيه الفاسق والرفيق والمرأة . فلنذكر وجه اشتراط ما اشترطناه ووجه اطراح ما أطرحناه .

أما الشرط الأول ؛ وهو التكليف : فلا يخفى وجه اشتراطه فإن غير المكلف لا يلزمه أمر ، وما ذكرناه أردنا به شرط الوجوب ، فأما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعى إلا العقل ، حتى إن الصبي المراهق للبلوغ المميز - وإن لم يكن مكلفا - فله إنكار المنكر وله أن يريق الخمر ويسكر الملاهي ؛ وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ولم يكن لاحد منعه من حيث إنه ليس بمكلف . فإن هذه قرينة وهو من أهلها كالصلاة والإمامة وسائر القربات وليس حكم الولايات حتى يشترط فيه التكليف ؛ ولذلك اثبتناه للعبد وآحاد الرعية . نعم في المنع بالفعل وإبطال المنكر نوع ولاية وسلطنة ولكنها تستفاد بمجرد الإيمان كقتل المشرك وإبطال أسبابه وسلب أسلحته . فإن للصبي أن يفعل ذلك حيث لا يستتضر به فالمنع من الفسق كالمنع من الكفر .

وأما الشرط الثاني ؛ وهو الإيمان : فلا يخفى وجه اشتراطه لأن هذا نصرة للدين فكيف يكون من أهله من هو جاحد لأصل الدين وعدوله ؟

وأما الشرط الثالث ؛ وهو العدالة : فقد اعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق أن يحتسب ، وربما استدلوا فيه بالنكير الذي ورد على من يأمر بما لا يفعله مثل قوله تعالى ﴿ أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وبما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مرت ليلة أسرى بي يقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أتم ؟ فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتميه وننهي عن الشر ونأتميه ^(١) » ، وبما روى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى صلى الله عليه وسلم : عطف نفسك فإن تعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني . وربما استدلوا من طريق القياس بأن هداية الغير فرع للاهتمام ، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة ، والإصلاح ، زكاة عن نصاب الإصلاح ، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يصلح غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ وكل ما ذكره خيالات وإنما الحق أن للفاسق أن يحتسب وبرهانه هو أن نقول : هل يشترط في الاحتساب أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي كلها ؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع ثم حسم لباب الاحتساب إذ لا عصمة للصحابة فضلا عن دونهم ، والأنبياء عليهم السلام قد اختلفت في عصمتهم عن الخطايا . والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام إلى المعصية وكذا جماعة من الأنبياء . ولهذا قال سعيد بن

الباب الثاني . في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

(١) حديث « مرت ليلة أسرى بي يقوم تهرض شفاههم بمقاريض من نار . الحديث » . تقدم في العلم .

جبير : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء ؛ لم يأمر أحد بشيء ، فأعجب ما لساك ذلك من سعيد بن جبير . وإن زعموا أن ذلك لا يشترط عن الصغار حتى يجوز للابن الحرير أن يمنع من الزنا وشرب الخمر فنقول :

وهل لشارب الخمر أن يغزو الكفار ويحتسب عليهم بالمنع من الكفر ؛ فإن قالوا : لا ، خرقوا الإجماع إذ جنود المسلمين لم تزل مشتملة على البر والفاجر وشارب الخمر وظالم الأيتام ولم يمنعوا من الغزو ولا في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعده . فإن قالوا : نعم ، فنقول : شارب الخمر هل له المنع من القتل أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، قلنا . فما الفرق بينه وبين لابس الحرير ؟ إذ جاز له المنع من الخمر ، والقتل كبيرة بالنسبة إلى الشرب كالشرب بالنسبة إلى لابس الحرير ؛ فافرق . وإن قالوا : نعم ، وفصلوا الأمر فيه بأن كل مقدم على شيء فلا يمنع عن مثله ولا عما دونه وإنما يمنع عما فوقه فهذا تحكم فإنه كما لا يبعد أن يمنع الشارب من الزنا والقتل فمن أين يبعد أن يمنع الزاني من الشرب ؟ بل من أين يبعد أن يشرب ويمنع غلمانته وخدمته من الشرب ؟ ويقول يجب على الانتهاء والنهي فمن أين يلزم من العصيان بأحدهما أن أعصى الله تعالى بالثاني ؟ وإذا كان النهي واجبا على من أين يسقط وجوبه بإقدامي ؟ إذ يستحيل أن يقال يجب النهي عن شرب الخمر عليه ما لم يشرب فإذا شرب سقط النهي .

فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقول القائل الواجب على الوضوء والصلاة فأنا أتوضأ وإن لم أصل وأتسحر وإن لم أصم لأن المستحب لي السجود والصوم جميعا ولكن يقال : أحدهما مرتب على الآخر ، فكذلك تقويم الغير مرتب على تقويم نفسه فليبدأ بنفسه ثم بمن يعمل . والجواب أن التسخير يراد للصوم ولولا الصوم لما كان التسخير مستحبا ، وما يراد لغيره لا ينفك عن ذلك الغير ، وإصلاح الغير لا يراد لإصلاح النفس ، ولا لإصلاح النفس لإصلاح الغير فالقول بترتب أحدهما على الآخر تحكم .

وأما الوضوء والصلاة فهو لازم فلا جرم أن من توضأ ولم يصل كان مؤديا أمر الوضوء وكان عقابه أقل من عقاب من ترك الصلاة والوضوء جميعا فليكن من ترك النهي والانتهاه أكثر عقابا ممن نهى ولم ينته ، كيف والوضوء شرط لا يراد لنفسه ؟ بل للصلاة فلا حكم له دون الصلاة .

وأما الحسبة فليست شرطا في الانتهاء والائتمار فلا مشابهة بينهما .

• فإن قيل : فيلزم على هذا أن يقال إذا زنى الرجل بامرأة وهي مكرهة مستورة الوجه فكشفت وجهها باختيارها فأخذ الرجل يحتسب في أثناء الزنا ويقول : أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير محرم ، وهذا أنا غير محرم لك فاسترى وجهك ، فهذا احتساب شنيع يستنكره قلب كل عاقل ويستشنع كل طبع سليم ؟ فالجواب أن الحق قد يكون شنيعا وأن الباطل قد يكون مستحسنا بالطباع والمتبع الدليل دون نفرة الأوهام والخيالات فإننا نقول : قوله لها في تلك الحالة ، لا تكشفني وجهك ، واجب أو مباح أو حرام ؟ فإن قلتم : إنه واجب فهو الغرض لأن الكشف معصية والنهي عن المعصية حق . وإن قلتم : إنه مباح ، فإذن له أن يقول ما هو مباح ؟ فما معنى قولكم ليس للفاسق الحسبة ؟ وإن قلتم : إنه حرام ، فنقول ، وكان هذا واجبا فمن أين حرم بإقدامه على الزنا ؟ ومن الغريب أن يصير الواجب حراما بسبب ارتكاب حرام آخر .

وأما نفرة الطباع عنه واستنكارها له فهو لسببين :

أحدهما : أنه ترك الأهم واشتغل بما هو مهم . وكما أن الطباع تنفر عن ترك المهم إلى ما لا يعني فتتنفر عن ترك الأهم

والاشتغال بالمهم كما تنفر عن يتحرج عن تناول طعام مغصوب وهو مواظب على الربا ، وكما تنفر عن يتصاون عن الغيبة ويشهد بالزور لأن الشهادة بالزور أخش وأشد من الغيبة التي هي إخبار عن كائن يصدق فيه المخبر ، وهذا الاستبعاد في النفوس لا يدل على أن ترك الغيبة ليس بواجب ، وأنه لو اغتاب أو أكل لقمة من حرام لم تزد بذلك عقوبته ، فكذلك ضرره في الآخرة من معصيته أكثر من ضرره من معصية غيره ، فاشتغاله عن الأقل بالأكثر مستنكر في الطبع ، من حيث إنه ترك الأكثر لامن حيث إنه أتى بالأقل ، فمن غصب فرسه ولجام فرسه فاشتغل بطلب اللجام وترك الفرس نفرت عنه الطباع ويرى مسيئا ، إذ قد صدر منه طلب اللجام وهو غير منكر ، ولكن المنكر تركه لطلب الفرس بطلب اللجام فاشتد الإنكار عليه لتركه الأهم بما دونه ، فكذلك حسبة الفاسق تستبعد من هذا الوجه وهذا لا يدل على أن حسبته من حيث إنها حسبة مستنكرة .

الثاني : أن الحسبة تارة تكون بالنهي بالوعظ وتارة بالقهر ، ولا ينجع وعظ من لا يتعظ أولا ونحن نقول : من علم أن قوله لا يقبل في الحسبة لعلم الناس بفسقه فليس عليه الحسبة بالوعظ ؛ إذ لا فائدة في وعظه فالفسق يؤثر في إسقاط فائدة كلامه ، ثم إذا سقطت فائدة كلامه سقط وجوب الكلام ، فأما إذا كانت الحسبة بالمنع فالمراد منه القهر وتسام القهر أن يكون بالفعل والحجة جميعا ، وإذا كان فاسقا فإن قهر بالفعل فقد قهر بالحجة إذ يتوجه عليه أن يقال له : فأنت لم تقدم عليه ؟ فتنفر الطباع عن قهره بالفعل مع كونه مقهورا بالحجة وذلك لا يخرج الفعل عن كونه حقا كما أن يذب الظالم عن آحاد المسلمين ويحمل أباه وهو مظلوم معهم تنفر الطباع عنه ولا يخرج دفعه عن المسلم عن كونه حقا . نخرج من هذا أن الفاسق ليس عليه الحسبة بالوعظ على من يعرف فسقه لأنه لا يتعظ ؛ وإذا لم يكن عليه ذلك ، وعلم أنه يفضي إلى تطويل اللسان في عرضه بالإنكار فنقول : ليس له ذلك أيضا . فرجع الكلام إلى أن أحد نوعي الاحتساب وهو الوعظ قد بطل بالفسق وصارت العدالة مشروطة فيه : وأما الحسبة القهرية فلا يشترط فيها ذلك فلا حرج على الفاسق في إراقة الخمر وكسر الملاهي وغيرها إذا قدر ، وهذا غاية الإنصاف والكشف في المسألة وأما الآيات التي استدلو بها فهو إنكار عليهم من حيث تركهم المعروف لا من حيث أمرهم . ولكن أمرهم دل على قوة علمهم وعقاب العالم أشد لأنه لا عذر له مع قوة عليه وقوله تعالى ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ المراد به الوعد الكاذب وقوله عز وجل ﴿ وأنسون أنفسهم ﴾ إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم لامن حيث إنهم أمروا غيرهم ولكن ذكر أمر الغير استدلالا به على علمهم وتأكيذا للحجة عليهم . وقوله « يا ابن مريم عظم نفسك ... الحديث » هو في الحسبة بالوعظ . وقد سلينا أن وعظ الفاسق ساقط الجددى عند من يعرف فسقه . ثم قوله « فاستحي مني » لا يدل على تحريم وعظ الغير بل معناه استحي مني فلا تترك الأهم وتشتغل بالمهم كما يقال احفظ أباك ثم جارك وإلا فاستحي .

« فإن قيل . فليجز للكافر الذمى أن يحتسب على المسلم إذا رآه يزن لأن قوله لا تزن حق في نفسه فمحال أن يكون حراما عليه ، بل ينبغي أن يكون مباحا أو واجبا . قلنا : الكافر إن منع المسلم بفعله فهو تسلط عليه فيمنع من حيث إنه تسلط وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سيلا . وأما مجرد قوله « لا تزن » فليس بمحرم عليه من حيث إنه نهى عن الزنا ولكن من حيث إنه إظهار دالة الاحتكام على المسلم ، وفيه إذلال للمحتكم عليه ، والفاسق يستحق الإذلال ولكن لامن الكافر الذي هو أولى بالذل منه . فهذا وجه متعنا لما به من الحسبة وإلا فلسنا نقول إن الكافر يعاقب بسبب قوله : لا تزن ، من حيث إنه نهى بل نقول إنه إذا لم يقل لا تزن يعاقب عليه إن رأينا خطاب الكافر

بفروع الدين وفيه نظر استوفيناه في الفقهيات ولا يليق بغرضنا الآن .

الشرط الرابع : كونه مأذونا من جهة الإمام والوالى ، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يشبتوا للأحاد من الرعية الحسبة ، وهذا الاشتراط فاسد ؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرا فسكت عليه عصي إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم ، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكم لا أصل له . والعجب أن الروافض زادوا على هذا فقالوا : لا يجوز الأمر بالمعروف مالم يخرج الإمام المعصوم وهو الإمام الحق عندهم . وهؤلاء أخس رتبة من أن يكلموا بل جوابهم أن يقال لهم - إذا جاءوا إلى القضاء طالبين لحقوقهم في دماهم وأموالهم - إن نصرتمكم أمر بالمعروف واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم نهى عن المنكر وطلبكم لحقكم من جملة المعروف وما هذا زمان النهى عن الظلم وطلب الحقوق لأن الإمام الحق بعد لم يخرج .

• فإن قيل : في الأمر بالمعروف إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه ، ولذلك لم يثبت للمكافر على المسلم مع كونه حقا فينبغى أن لا يثبت لآحاد الرعية إلا بتفويض من الوالى وصاحب الأمر ؟ فنقول : أما الكافر فمنع لما فيه من السلطنة وعز الاحتكام ، والكافر ذليل فلا يستحق أن ينال عز التحكم على المسلم ، وأما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة ، ومافيه من عز السلطنة والاحتكام لا يحوج إلى تفويض كمن التعليم والتعريف ، إذ لا خلاف في أن تعريف التحريم والإيجاب لمن هو جاهل ومقدم على المنكر بجهله لا يحتاج إلى إذن الوالى ، وفيه عز الإرشاد وعلى المعرف ذل التجهيل ، وذلك يكفي فيه مجرد الدين وكذلك التهى .

• وشرح القول في هذا أن الحسبة لها خمس مراتب - كما سيأتى - (أولها) التعريف . (والثاني) الوعظ بالكلام اللطيف (والثالث) السب والتعنيف ، ولست أعنى بالسب الفحش بل أن يقول : يا جاهل ، يا أحمق ألا تخاف الله ، وما يجرى هذا المجرى (والرابع) المنع بالقهر بطريق المباشرة ككسر الملاهى ، وإراقة الخمر ، واختطاف الثوب الحرير من لابس ، واستلاب الثوب المغصوب منه ، وردة على صاحبه . (والخامس) التخويف والتهديد بالضرب ، ومباشرة الضرب له حتى يتمتع عما هو عليه كالمواظب على الغيبة والقذف فإن سلب لسانه غير ممكن ولكن يحمل على اختيار السكوت بالضرب . وهذا قد يحوج إلى استعانة وجمع أعوان من الجانبين ويحرج ذلك إلى قتال وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة فإن فيها نظرا - سيأتى - أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام ؟ وأما التجهيل والتحقيق والنسبة إلى الفسق وقلة الخوف من الله وما يجرى مجراه فهو كلام صدق ، والصدق مستحق بل أفضل الدرجات كلمة حق عند إمام جائر ^(١) كما ورد في الحديث فإذا جاز الحكم على الإمام على مراغمته فكيف يحتاج إلى إذنه ؟ وكذلك كسر الملاهى وإراقة الخمر فإنه يعطى ما يعرف كونه حقا من غير اجتهاد فلم يفتقر إلى الإمام . وأما جمع الأعوان وشهر الأسلحة فذلك قد يحرج إلى فتنة عامة ففيه نظر - سيأتى - واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض ، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالى راضيا به فذاك ، وإن كان ساخطا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه . ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة .

كما روى أن مروان بن الحكم خطب قبل صلاة العيد فقال له رجل : إنما الخطبة بعد الصلاة ، فقال له مروان : أترك ذلك يا فلان ، فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه . قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى

(١) حديث « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى .

منكم منكرأ فليُنكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان (١) ، فلقد كانوا فهموا من هذه العموما دخول السلاطين تحتها فكيف يحتاج إلى إذنههم ؟ وروى أن المهدي لما قدم مكة لبث بها ما شاء الله فلما أخذ في الطواف نحى الناس عن البيت فوثب عبد الله بن مرزوق فلبى بردائه ثم هزه وقال له : انظر ما تصنع ؟ من جعلك بهذا البيت أحق من أتاه من البعد ، حتى إذا صار عنده حلت بينه وبينه ؟ وقد قال الله تعالى ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ من جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه من مواليهم - فقال : أعبد الله ابن مرزوق ؟ قال : نعم ، فأخذ فجىء به إلى بغداد فكره أن يعاقبه عقوبة يشنع بها عليه في العامة ، فجعله في اصطبل الدواب ليسوس الدواب وضموأ إليه فرسا عضوضا سيي الخلق ليعقره الفرس قلين الله تعالى له الفرس ، قال : ثم صبروه إلى بيت وأغلق عليه ، وأخذ المهدي المفتاح عنده فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقل ، فأوذن به المهدي فقال له : من أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني ، فضج المهدي وصاح وقال : ما تخاف أن أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنت تملك حياة أو موتا ؟ فما زال يحوسا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذرا إن خلصه الله من أيديهم أن ينحر مائة بدنة فكان يعمل في ذلك حتى نحرها .

وروى عن حبان بن عبد الله قال : تنزه هرون الرشيد بالدوين ومعه رجل من بني هاشم وهو سليمان بن أبي جعفر فقال له هرون : قد كانت لك جارية تغني فتحسن لجثا بها ، قال : لجأت فغنت فلم يحمد غناءها ، فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : ليس هذا عودي ، فقال للخادم ، جثا بعودها ، قال : لجأت بالعود فوافق شيخنا يلقط النوى فقال : الطريق يا شيخ ، فرفع الشيخ رأسه فرأى العود فأخذه من الخادم فضرب به الأرض ؛ فأخذه الخادم وذهب به إلى صاحب الربيع فقال : احتفظ بهذا فإنه طلبه أمير المؤمنين ، فقال له صاحب الربيع : ليس ببغداد أعبد من هذا فكيف يكون طلبه أمير المؤمنين ؟ فقال له : اسمع ما أقول لك ، ثم دخل على هرون فقال : إني مررت على شيخ يلقط النوى فقلت له : الطريق ، فرفع رأسه فرأى العود فأخذه فضرب به الأرض فكسره ؛ فاستشاط هرون وغضب واحترت عيناه فقال له سليمان بن أبي جعفر : ما هذا الغضب يا أمير المؤمنين ؟ ابعت إلى صاحب الربيع يضرب عنقه ويرم به في الدجلة ، فقال : لا ، ولكن نبعت إليه وتناظره أولا ؛ فجاء الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : نعم ، قال : اركب ، قال : لا ، فجاء يمشى حتى وقف على باب القصر ، فقيل له هرون : قد جاء الشيخ ، فقال للتدما أي شيء ترون ؟ نرفع ما قدأنا من المنكر حتى يدخل هذا الشيخ أو نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر ؟ فقالوا له : نقوم إلى مجلس آخر ليس فيه منكر أصلح ، فقاموا إلى مجلس ليس فيه منكر ثم أمر بالشيخ فأدخل - وفي كنه الكيس الذي فيه النوى - فقال له الخادم : أخرج هذا من كملك وأدخل على أمير المؤمنين ، فقال : من هذا عشائي الليلة ، قال : نحن نعشيك . قال : لا حاجة لي في عشائكم ، فقال هرون للخادم : أي شيء تريد منه ؟ قال في كنه نوى قلت له اطرحه وأدخل على أمير المؤمنين فقال : دعه لا يطرحه ، قال : فدخل وسلم وجلس ، فقال له هرون : يا شيخ ما صنعت ؟ قال : وأي شيء صنعت ؟ وجعل هرون يستحي أن يقول كسرت عودي ، فلما أكثر عليه قال : إني سمعت أباك وأجدادك يقرءون هذه الآية على المنبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ وأنا رأيت منكرا فغيرته ، فقال : فغيره . فوالله ما قال إلا هذا ، فلما خرج

(١) حديث : إن مروان خطب قبل الصلاة في العيد ... الحديث . وفيه حديث أبي سعيد مرغوعا « من رأى منكرا ... الحديث » رواه مسلم .

أعطى الخليفة رجلا بدرة وقال . اتبع الشيخ فإن رأيته يقول : قلت لأمير المؤمنين وقال لي : فلا تعطه شيئا ؛ وإن رأيته لا يكلم أحدا فأعطه البدره . فلما خرج من القصر إذا هو بنواة في الأرض قد غاصت فجعل يعالجها ولم يكلم أحدا فقال له : يقول لك أمير المؤمنين خذ هذه البدره ، فقال : قل لأمير المؤمنين يردها من حيث أخذها . ويروى أنه أقبل بعد فراغه من كلامه على النواة التي يعالج قلعها من الأرض وهو يقول :

أرى الدنيا لمن هي في يديه هموما كلها كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغثت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

وعن سفيان الثوري رحمه الله قال : حج المهدي سنة ست وستين ومائة فرأته يرمى جرة العقبة والناس يخبطون يمينا وشمالا بالسياط ، فوقفت فقلت : يا حسن الوجه حدثنا أيمن عن وائل عن قدامة بن عبد الله السكابي قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك^(١) . وما أنت يخبط الناس بين يديك يمينا وشمالا . فقال لرجل : من هذا ؟ قال : سفيان الثوري . فقال : يا سفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا ؟ فقال : لو أخبرك المنصور لقي لقصرت عما أنت فيه . قال : فقيل له إنه قال لك يا حسن الوجه ولم يقل لك يا أمير المؤمنين فقال : اطلبوه فطلب سفيان فاختنى وقد روى عن المأمون أنه بلغه أن رجلا محتسبا يمشي في الناس يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ولم يكن مأمورا من عنده بذلك فأمر بأن يدل عليه . فلما صار بين يديه قال له : إنني بلغني أنك رأيت نفسك أهلا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير أن تأمر بك وكان المأمون جالسا على كرسي ينظر في كتاب أوقصة فأغفله فوقع منه فصار تحت قدمه من حيث لم يشعر به . فقال له المحتسب : ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت ؛ فلم يفهم المأمون مراده فقال ماذا تقول ؟ - حتى أعاده ثلاثا فلم يفهم - فقال : إما رفعت أو أذنت لي حتى أرفع . فنظر المأمون تحت قدمه فرأى الكتاب فأخذه وقبله وخجل . ثم عاد وقال : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا - أهل البيت - ونحن الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ فقال : صدقت يا أمير المؤمنين أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمسك غير أنا أعوانك وأولياؤك فيه . ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف ﴾ الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »^(٢) ، وقد مكنت في الأرض وهذا كتاب الله وسنة رسوله فإن انتقدت لها شكرت لمن أعانك لحرمتهما . وإن استكبرت عنهما ولم تنقد لما ألزمك منهما فإن الذي إليه أمرك وبيده عرك وذلك قد شرط أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا فقل الآن ما شئت ؛ فأعجب المأمون بكلامه وسر به وقال : مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف . فامض على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا . فاستمر الرجل على ذلك . ففي سياق هذه الحكايات بيان الدليل على الاستغناء عن الإذن

فإن قيل : أفتثبت ولاية الحسبة للولد على الوالد والعبد على المولى والزوجة على الزوج والتلميذ على الأستاذ

(١) حديث قدامة بن عبد الله : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمى الجرة يوم النحر على جبل لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك « رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه ، وأما قوله في أوله : إن الثوري قال حج المهدي سنة ست وستين . فليس بصحيح فإن الثوري توفي سنة إحدى وستين . (٢) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » متفق عليه من حديث أبي موسى وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلحة .

والرعية على الوالى مطلقا ، كما يثبت للوالد على الولد والسيد على العبد والزوج على الزوجة والاستاذ على التلميذ والسلطان على الرعية أو بينهما فرق ؟ فاعلم أن الذى نراه : أنه يثبت أصل الولاية ولكن بينهما فرق في التفصيل . ولنفرض ذلك في الولد مع الوالد فنقول : قد رتبنا للحسبة خمس مراتب ، وللولد الحسبة بالرتبتين الأوليين وهما : التعريف ثم الوعظ والنصح باللطف . وليس له الحسبة بالسب والتعنيف والتهديد ولا بمباشرة الضرب وهما الرتبتان الأخيرتان وهل له الحسبة بالرتبة الثالثة حيث تؤدي إلى أذى الوالد وسخطه ؟ هذا فيه نظر ، وهو بأن يكسر مثلاً عوده ويريق خمره ويحل الخيوط عن ثيابه المنسوجة من الحرير ويرد إلى الملاك ما يجده في بيته من المال الحرام الذى غصبه أو سرقه أو أخذه عن إدرار رزق من ضريبة المسلمين - إذا كان صاحبه معينا - ويبطل الصور المنقوشة على حيطانه والمنقورة في خشب بيته ويكسر أواني الذهب والفضة ؛ فإن فعله في هذه الأمور ليس يتعلق بذات الأب بخلاف الضرب والسب ، ولكن الوالد يتأذى به ويسخط بسببه ، إلا أن فعل الولد حق ، وسخط الأب مذموم حبه للباطل وللحرام والأظهر في القياس أنه يثبت للولد ذلك بل يلزمه أن يفعل ذلك ، ولا يبعد أن ينظر فيه إلى قبح المنكر وإلى مقدار الأذى والسخط . فإن كان المنكر فاحشا وسخطه عليه قريبا كإراقة خمر من لا يشتد غضبه فذلك ظاهر ، وإن كان المنكر قريبا والسخط شديدا كما لو كانت له آنية من بلور أو زجاج على صور حيوان وفي كسرهما خسران مال كثير ، فهذا مما يشتد فيه الغضب وليس تجرى هذه المعصية مجرى الخمر وغيره فهذا كله مجال النظر .

* فإن قيل : ومن أين قلتم ليس له الحسبة بالتعنيف والضرب والإرهاق إلى ترك الباطل ، والأمر بالمعروف في الكتاب والسنة ورد عاما من غير تخصيص ؟ وأما النهى عن التأنيف والإيذاء فقد ورد وهو خاص فيما لا يتعلق بارتكاب المنكرات ؟ فنقول : قد ورد في حق الأب على الخصوص ما يوجب الاستثناء من العموم لإذلاخلاف في أن الجلاد ليس له أن يقتل أباه في الزنا حدا ، ولا له أن يباشر إقامة الحد عليه ، بل لا يباشر قتل أبيه الكافر ، بل لو قطع يده لم يلزمه قصاص ولم يكن له أن يؤذيه في مقابله .

وقد ورد في ذلك أخبار وثبت بعضها بالإجماع ^(١) فإذا لم يحز له إيذاؤه بعقوبة هي حق على جنابة سابقة فلا يجوز له إيذاؤه بعقوبة هي منع عن جنابة مستقبلية متوقعة بل أولى . وهذا الترتيب أيضاً ينبغى أن يجرى في العبد والزوجة مع السيد والزوج فهما قريبان من الولد في لزوم الحق وإن كان ملك اليمين آكداً من ملك النكاح . ولكن في الخبر أنه « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ^(٢) ، وهذا يدل على تأكيد الحق أيضاً . وأما الرعية مع السلطان فالأمر فيها أشد من الولد فليس لها معه إلا التعريف والنصح : فأما الرتبة الثالثة ففيها نظر من حيث إن الهجوم على أخذ الأموال من خزانته وردها إلى الملاك وعلى تحليل الخيوط من ثيابه الحرير وكسر آنية الخمر في بيته يكاد يفضي إلى خرق هيئته وإسقاط حشمته ، وذلك محظور ورد النهى عنه كما ورد النهى عن السكوت على المنكر ^(٣) فقد تعارض فيه أيضاً محذوران والأمر فيه موكل إلى اجتهد مذموم النظر في تفاحش المنكر ومقدار

(١) الأخبار الواردة : في أن الجلاد ليس له أن يجلد أباه في الزنا ولا أن يباشر إقامة الحد عليه ولا يباشر قتل أبيه الكافر وأنه لو قطع يده لم يلزم القصاص ، ثم قال وثبت بعضها بالإجماع . قلت : لم أجده فيه إلا حديث « لا يقاد الوالد بالولد » رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمر قال الترمذى فيه اضطراب . (٢) حديث « لوجاز السجود لمخلوق لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » تقدم في النكاح . (٣) حديث : النهى عن الإنكار على السلطان جهرة بحيث يؤدي إلى خرق هيئته . أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث هياض بن غنم الأشعري : من كانت عنده نصيحة لدى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ يده فليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذى عليه والذي له . قال : صحيح الأسناد وللترمذى وحسنه من حديث أبي بكره « من أهان سلطان الله في الأرض أهان الله في الأرض » .

ما يسقط من حشمته بسبب الهجوم عليه وذلك مما لا يمكن ضبطه . وأما التلبذ والاستاذ فالأمر فيما بينهما أخف لأن المحترم هو الاستاذ المفيد للعلم من حيث الدين ولا حرمة لعالم لا يعمل بعلمه فله أن يعامله بموجب علمه الذي تعلمه منه . وروى أنه سئل الحسن عن الولد كيف يحتسب على والده فقال : يعظه ما لم يغضب فإن غضب سكت عنه .

الشرط الخامس : كونه قادراً ؛ ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حصة إلا بقلبه إذ كل من أحب الله يكره معاصيه وينكرها . وقال ابن مسعود رضي الله عنه جاهدوا الكفار بأيديكم فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفروا في وجوههم فافعلوا .

* وأعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروها يناله فذلك في معنى العجز ، وكذلك إذا لم يخف مكروها ولكن علم أن إنكاره لا ينفع فليتنف إلى معنيين ؛ أحدهما : عدم إفادة الإنكار امتناعاً ، والآخر : خوف مكروه . ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال (أحدهما) أن يجتمع المعنيان بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه ويضرب إن تكلم فلا تجب عليه الحسبة ، بل ربما تحرم في بعض المواضع . نعم يلزمه أن لا يحضر مواضع المنكر ويعتزل في بيته حتى لا يشاهد ولا يخرج إلا للحاجة مهمة أو واجب ولا يلزمه مفارقة تلك البلدة والهجرة إلا إذا كان يرهق إلى الفساد أو يحمل على مساعدة السلاطين في الظلم والمنكرات ؛ فيلزمه الهجرة إن قدر عليها فإن الإكراه لا يكون عذراً في حق من يقدر على الهرب من الإكراه . (الحالة الثانية) أن ينتفي المعنيان جميعاً بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروه فيجب عليه الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة . (الحالة الثالثة) أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره لكنه لا يخاف مكروها فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين . (الحالة الرابعة) عكس هذه وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله كما يقدر على أن يرمى زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ، ويريق الخمر ، أو يضرب العود الذي في يده ضربة محتطفة فيكسره في الحال ، ويتعطل عليه هذا المنكر ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه ، فهذا ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب . ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فضل « كلمة حق عند إمام جائر » ، ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف . ويدل عليه أيضاً ما روى عن أبي سليمان الداراني رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت من بعض الخلفاء كلاماً فأردت أن أنكر عليه وعلمت أني أقتل ، ولم يمنعني القتل ولكن كان في ملائمة الناس فخشيت أن يعتربنى التزني للخلق فأقتل من غير إخلاص في الفعل .

« فإن قيل : فما معنى قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ ؟ قلنا : لا خلاف في أن المسلم الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ، وهذا ربما يظن أنه مخالف لموجب الآية وليس كذلك ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس التهلكة ذلك ، بل ترك النفقة في طاعة الله تعالى ؛ أي من لم يفعل ذلك فقد أهلك نفسه . وقال البراء بن عازب : التهلكة هو أن يذنب الذنب ثم يقول لا يتاب علي . وقال أبو عبيدة : هو أن يذنب ثم لا يعمل بعده خيراً حتى يهلك . وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز أيضاً له ذلك في الحسبة ، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار كالأعمى يطرح نفسه على الصف أو العاجز فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة . وإنما جازله الإقدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل أو علم أنه يكسر قلوب الكفار بمشاهدتهم بجراهم واعتقادهم في سائر المسلمين قلة المبالاة وحبهم للشهادة في سبيل الله فتكسر بذلك شوكتهم ؛ فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب وللقتل إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو في كسر جاه الفاسق أو في

تقوية قلوب أهل الدين ، وأما إن رأى فاسقاً متغلباً وعنده سيف وبيده قدح ، وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح وضرب رقبتة فهذا مما لا يرى للحسبة فيه وجهاً وهو عين الهلاك . فإن المطلوب أن يؤثر في الدين أثراً ويفديه بنفسه ، فأما تعريض النفس للهلاك من غير أثر فلا وجه له بل ينبغي أن يكون حراماً . وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة ، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه . فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقاته فلا تجوز له الحسبة بل تحرم لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضى ذلك إلى منكر آخر ، وليس ذلك من القدرة في شيء . بل لو علم أنه لو احتسب لبطل ذلك المنكر ولكن كان ذلك سبباً لمنكر آخر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الأفكار الاظهر ، لأن المقصود عدم منكر الشرع مطلقاً لا مبنياً زيد أو عمرو ، وذلك بأن يكون مثلاً مع الإنسان شراب حلال - نجس بسبب وقوع نجاسة فيه - وعلم أنه لو أراقه لشرب صاحبه الخمر أو تشرب أولاده الخمر لإعوازهم الشراب الحلال فلا معنى لإراقة ذلك . ويحتمل أن يقال إنه يريق ذلك فيكون هو مبطلاً للمنكر . وأما شرب الخمر فهو المألوم فيه والمحتسب غير قادر على منعه من ذلك المنكر ، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون . وليس ببعيد ، فإن هذه مسائل فقهية لا يمكن فيها الحكم إلا بظن ، ولا يبعد أن يفرق بين درجات المنكر المغير والمنكر الذي تفضى إليه الحسبة والتغيير ، فإنه إذا كان يذبح شاة لغيره ليأكلها وعلم أنه لو منعه من ذلك لذبح إنساناً واكله فلا معنى لهذه الحسبة . نعم لو كان منعه عن ذبح إنسان أو قطع طرقة يحمله على أخذ ماله فذلك له وجه . فهذه دقائق واقعة في محل الاجتهاد وعلى المحتسب اتباع اجتهاده في ذلك كله وهذه الدقائق نقول : العاى ينبغي له أن لا يحتسب إلا في الجليات المعلومة كشرب الخمر والزنا وترك الصلاة فأما ما يعلم كونه معصية بالإضافة إلى ما يطيف به من الأفعال ويفتقر فيه إلى اجتهاد فالعاى إن خاض فيه كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وعن هذا يتأكد ظن من لا يثبت ولاية الحسبة إلا بتعيين الوالى ؛ إذ ربما ينتدب لها من ليس أهلاً لها لقصور معرفته أو قصور ديانتته فيؤدى ذلك إلى وجوه من الخلل وسيأتى كشف الغطاء عن ذلك إن شاء الله

* فإن قيل : وحيث أطلقتم العلم بأن يصيبه مكروه أو أنه لا تنفذ حسبته ؛ فلو كان بدل العلم ظن فما حكه ؟ قلنا : الظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم وإنما يظهر الفرق عند تعارض الظن والعلم إذ يرجح العلم اليقيني على الظن ويفرق بين العلم والظن في مواضع آخر ، وهو أنه يسقط وجوب الحسبة عنه حيث علم قطعاً أنه لا يفيد فإن كان غالب ظنه أنه لا يفيد ولكن يحتمل أن يفيد وهو مع ذلك لا يتوقع مكروها فقد اختلفوا في وجوبه ، والأظهر وجوبه إذ لا ضرر فيه وجدواه متوقعة ، وعموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضى الوجوب بكل حال ونحن إنما نستثنى عنه بطريق التخصيص ما إذا علم أنه لا فائدة فيه أما بالإجماع أو بقياس ظاهر وهو أن الأمر ليس يراد لعينه بل للمأمور ، فإذا علم اليأس عنه فلا فائدة فيه ، فأما إذا لم يكن يأس فينبغى أن لا يسقط الوجوب

* فإن قيل : فالمكروه الذى تتوقع إصابته إن لم يكن متيقناً ولا معلوماً بغالب الظن ولكن كان مشكوكاً فيه ، أو كان غالب ظنه أنه لا يصاب بمكروه ولكن احتمال أن يصاب بمكروه ، فهذا الاحتمال هل يسقط الوجوب حتى لا يجب إلا عند اليقين بأنه لا يصيبه مكروه أم يجب في كل حال إلا إذا غلب على ظنه أنه يصاب بمكروه ؟ قلنا : إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب ، وإن غلب أنه لا يصاب وجب . وبجود التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك

يمكن في كل حاسبة ، وإن شكك فيه من غير رجحان فهذا محل النظر ، فيحتمل أن يقال الأصل الوجوب بحكم العمومات وإنما يسقط بمكروه ، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعا ، وهذا هو الأظهر . ويحتمل أن يقال : إنه إنما يجب عليه إذا علم أنه لا ضرر فيه عليه أو ظن أنه لا ضرر عليه والأول أصح نظرا إلى قضية العمومات الموجبة للأمر بالمعروف .

• فإن قيل : فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة فالجبان الضعيف القلب يرى البعيد قريبا حتى كأنه يشاهده ويرتاع منه ، والمتهور الشجاع يبعد وقوع المكروه به بحكم ما جبل عليه من حسن الأمل حتى إنه لا يصدق به إلا بعد وقوعه ، فعلى ماذا التعويل ؟ قلنا : التعويل على اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج ، فإن الجبن مرض وهو ضعف في القلب سببه قصور في القوة وتفريط ، والتهور إفراط في القوة وخروج عن الاعتدال بالزيادة وكلاهما نقصان ، وإنما الكمال في الاعتدال الذي يعبر عنه بالشجاعة . وكل واحد من الجبن والتهور يصدر تارة عن نقصان العقل . وتارة عن خلل في المزاج بتفريط أو إفراط ، فإن من اعتدل مزاجه في صفة الجبن والجراءة فقد لا يتفطن لمدارك الشر فيكون سبب جرماته جهله ، وقد لا يتفطن لمدارك دفع الشر فيكون سبب جبنه جهله ، وقد يكون عالما بحكم التجربة والممارسة بمداخل الشر ودوافعه ، ولكن يعمل الشر البعيد في تخذيله وتحليل قوته في الإقدام بسبب ضعف قلبه ما يفعله الشر القريب في حق الشجاع المعتدل الطبع . فلا التفات إلى الطرفين . وعلى الجبان أن يتكلف إزالة الجبن بإزالة علته وعلمته جهل أو ضعف ، ويزول الجهل بالتجربة ، ويزول الضعف بممارسة الفعل المخفوف منه تكلفا حتى يصير معتادا ، إذ المهتدي في المناظرة والوعظ مثلا قد يجنب عنه طبعه لضعفه فإذا مارس واعتاد فارتفع الضعف ، فإن صار ذلك ضروريا غير قابل للزوال بحكم استيلاء الضعف على القلب لحكم ذلك الضعيف يتبع حاله فيعذر كما يعذر المريض في التقاعد عن بعض الواجبات ، ولذلك قد نقول على رأى : لا يجب ركوب البحر لأجل حجة الإسلام على من يغلب عليه الجبن في ركوب البحر ويجب على من لا يعظم خوفه . أنه فكذلك الأمر في وجوب الحسبة .

• فإن قيل : فالمكروه المتوقع ما حده ؟ فإن الإنسان قد يكره كلمة وقد يكره ضربة وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى وقد يكون منه أن يسعى به إلى سلطان أو يقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟ قلنا : هذا أيضا فيه نظر غامض وصورته منتشرة ومجاريه كثيرة ، ولكننا نجتهد في ضم نشره وحصر أقسامه .

فنقول : المكروه نقيض المطلوب ومطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور : أما في النفس فالعلم . وأما في البدن فالصحة والسلامة . وأما في المال فالثروة . وأما في قلوب الناس فقيام الجاه ؛ فإذا المطلوب العلم والصحة والثروة والجاه . ومعنى الجاه ملك قلوب الناس ، كما أن معنى الثروة ملك الدراهم لأن قلوب الناس وسيلة إلى الأغراض ، كما أن ملك الدراهم وسيلة إلى بلوغ الأغراض . وسيأتى تحقيق معنى الجاه وسبب ميل الطبع إليه في ربع المهلكات . وكل واحدة من هذه الأربعة يطلبها الإنسان لنفسه ولأقاربه والمختصين به . ويكره في هذه الأربعة أمران : أحدهما : زوال ما هو حاصل موجود . والآخر . امتناع ما هو منتظر مفقود ؛ أعني اندفاع ما يتوقع وجوده . فلا ضرر إلا في فوات حاصل وزواله ، أو تعويق منتظر ، فإن المنتظر عبارة عن الممكن حصوله والممكن حصوله كأنه حاصل وفوات إمكانه كأنه فوات حصوله : فرجع المكروه إلى قسمين : أحدهما : خوف امتناع المنتظر وهذا

لا ينبغي أن يكون مرخصاً في ترك الأمر بالمعروف أصلاً .

ولنذكر مثاله في المطالب الأربعة : أما العلم : فثاله تركه الحسبة على من يختص بأستاذة خوفاً من أن يقبح حاله عنده فيمتنع من تعليمه . وأما الصحة : فتركه الإنكار على الطبيب الذي يدخل عليه مثلاً وهو لا يس حريراً خوفاً من أن يتأخر عنه فتمتنع بسببه صحته المنتظرة . وأما المال : فتركه الحسبة على السلطان وأصحابه وعلى من يواسيه من ماله خيفة من أن يقطع إداره في المستقبل ويترك مواساته . وأما الجاه : فتركه الحسبة على من يتوقع منه نصرة وجاهاً في المستقبل خيفة من أن لا يحصل له الجاه أو خيفة من أن يقبح حاله عند السلطان الذي يتوقع منه ولاية .

وهذا كله لا يسقط وجوب الحسبة لأن هذه زيادات امتنعت ، وتسمية امتناع حصول الزيادات ضرراً مجاز . وإنما الضرر الحقيقي فوات حاصل ولا يستثنى من هذا شيء إلا ما تدعو إليه الحاجة ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر ، كما إذا كان محتاجاً إلى الطبيب لمرض ناجز والصحة منتظرة من معالجة الطبيب ويعلم أن في تأخره شدة الضنا به وطول المرض وقد يفضى إلى الموت . وأعني بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحسبة . وأما في العلم فثل أن يكون جاهلاً بمهمات دينه ولم يجد إلا معلماً واحداً ولا قدرة له على الرحلة إلى غيره وعلم أن المحتسب عليه قادر على أن يسد عليه طريق الوصول إليه لكون العالم مطيعاً له أو مستمعاً لقوله ، فإذا الصبر على الجهل بمهمات الدين محذور والسكوت على المنكر محذور ، ولا يبعد أن يرجح أحدهما ويختلف ذلك بتفاحش المنكر وبشدة الحاجة إلى العلم لتعلقه بمهمات الدين . وأما في المال فمكن يعجز عن الكسب والسؤال وليس هو قوى النفس في التوكل ولا منفق عليه سوى شخص واحد ولو احتسب عليه قطع رزقه وافتقر في تحصيله إلى طلب إدار حرام أو مات جوعاً فهذا أيضاً إذا اشتد الأمر فيه لم يبعد أن يرخص له في السكوت . وأما الجاه فهو أن يؤذيه شرير ولا يجد سبيلاً إلى دفع شره إلا بجاه يكتسبه من سلطان ، ولا يقدر على التوصل إليه إلا بواسطة شخص يلبس الحرير أو يشرب الخمر ، ولو احتسب عليه لم يكن واسطة ووسيلة له فيمتنع عليه حصول الجاه ويدوم بسببه أذى الشرير . فهذه الأمور كلها إذا ظهرت وقويت لم يبعد استثناءها ولكن الأمر فيها منوط باجتهاد المحتسب حتى يستفتى فيها قلبه ، ويزن أحد المحذرين بالآخر ، ويرجح بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع ، فإن رجح بموجب الدين سمى سكوته مداراة ، وإن رجح بموجب الهوى سمى سكوته مداهنة . وهذا أمر باطن لا يطلع عليه إلا بنظر دقيق ولكن الناقد بصير ، لحق على كل متدين فيه أن يراقب قلبه ويعلم أن الله مطلع على باعته وصارفه أنه الدين أو الهوى ، وتستجد كل نفس ما عملت من سوء أو خير محضراً عند الله ولو في فلتة خاطر أو فلتة ناظر من غير ظلم وجور فسا الله بظلام للعبيد .

وأما القسم الثاني ، وهو فوات الحاصل : فهو مكروه ومعتبر في جواز السكوت في الأمور الأربعة إلا العلم ، فإن فواته غير مخوف إلا بتقصير منه وإلا فلا يقدر أحد على سلب العلم من غيره وإن قدر على سلب الصحة والسلامة والثروة والمال ، وهذا أحد أسباب شرف العلم فإنه يدوم في الدنيا ويدوم ثوابه في الآخرة فلا انقطاع له أبد الآباد . وأما الصحة والسلامة ففواتهما بالضرب فكل من علم أنه يضرب ضرباً مؤلماً يتأذى به في الحسبة لم تلزمه الحسبة وإن كان يستحب له ذلك - كما سبق - وإذا فهم هذا في الإيلاء بالضرب فهو في الجرح والقطع والقتل أظهر . وأما الثروة فهو بأن يعلم أنه تنهب داره ويخرب بيته وتسلب ثيابه ، فهذا أيضاً يسقط عنه الوجوب ويبقى

الاستحباب إذ لا بأس بأن يفسد دينه بدينه ولشكل واحد من الضرب والنهب حد في القلة لا يكثر به كالحبة في المال واللطمة الخفيف ألها في الضرب وحد في الكثرة يتعين اعتباره ووسط يقع في محل الاشتباه والاجتهاد ، وعلى المتدين أن يجتهد في ذلك ويرجح جانب الدين ما أمكن . وأما الجاء ففواته بأن يضرب ضربا غير مؤلم أو بسبب على ملا من الناس أو يطرح منديله في رقبتة ويدار به في البلد أو يسود وجهه ويطاف به ، وكل ذلك من غير ضرب مؤلم للبدن وهو فادح في الجاء ومؤلم للقلب . وهذا له درجات فالصواب أن يقسم إلى ما يعبر عنه بسقوط المروءة ، كالطواف به في البلد حاسرا حافيا فهذا يرخص له في السكوت لأن المروءة مأمور بحفظها في الشرع ، وهذا مؤلم للقلب ألما يزيد على ألم ضربات متعددة وعلى فوات دريهمات قليلة فهذه درجة . الثانية : ما يعبر عنه بالجاه المحض وعلو الرتبة ، فإن الخروج في ثياب فاخرة تجمل ، وكذلك الركوب للخيل . فلو علم أنه لو احتسب لكلف المشي في السوق في ثياب لا يعتاد هو مثلها . أو كلف المشي راجلا وعادته الركوب . فهذا من جملة المزايا . وليست المواظبة على حفظها محمودة . وحفظ المروءة محمود فلا ينبغي أن يسقط وجوب الحسبة بمثل هذا القدر . وفي معنى هذا ما لوخاف أن يتعرض له باللسان إما في حضرته بالتجهيل والتحميق والنسبة إلى الرياء والبهتان . وأما في غيبته بأنواع الغيبة فهذا لا يسقط الوجوب إذ ليس فيه إلا زوال فضلات الجاه التي ليس إليها كبير حاجة . ولو تركت الحسبة بلوم لأنهم أو باغتيال فاسق أو شتمه وتعنيفه أو سقوط المنزل عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه إلا إذا كان المنكر هو الغيبة ، وعلم أنه لو أنكر لم يسكت عن المقتاب ولكن أضافه إليه وأدخله معه في الغيبة فتحرم هذه الحسبة لأنها سبب زيادة المعصية ، وإن علم أنه يترك تلك الغيبة ويقتصر على غيبته فلا تجب عليه الحسبة لأن غيبته أيضا معصية في حق المقتاب ، ولكن يستحب له ذلك ليفدى عرض المذكور بعرض نفسه على سبيل الإيثار . وقد دلت العمومات على تأكيد وجوب الحسبة وعظم الخطر في السكوت عنها فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره ، والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها فأما مزايا الجاء والحشمة ودرجات التجميل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له . وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكارة في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه لأن تأذيه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره ، ومن وجه الدين هو فوقه لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره . فإذا ينبغي أن يمتنع فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية كالضرب والنهب فليس له هذه الحسبة لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر ، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضا وليس له ذلك إلا برضاهم . فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان ولكنه يتصد أقاربه انتقاما منه بواسطته ، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور . نعم إن كان لا يبالغ في مال أو نفس ولكن يبالغ في الأذى بالثتم والسب فهذا فيه نظر ، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدحه في العرض .

• فإن قيل : فلو قصد الإنسان قطع طرف من نفسه وكان لا يمتنع عنه إلا بقتال ربما يؤدي إلى قتله فهل يقاتل عليه ؟ فإن قلتم : يقاتل ، فهو محال لأنه إهلاك نفس خوفا من إهلاك طرف وفي إهلاك النفس إهلاك الطرف أيضا ؟ قلنا : يمتنع عنه ويقاتله إذ ليس غرضنا حفظ نفسه وطرفه بل الغرض حسم سبيل المنكر والمعصية ، وقتله في الحسبة ليس بمعصية وقطع طرف نفسه معصية . وذلك كدفع الصائل على مال مسلم بما يأتي على قتله فإنه جائز لا على معنى

أنا نفدى درهما من مال مسلم بروح مسلم فإن ذلك محال ولكن قصده لأخذ مال المسلمين معصية وقتله في الدفع عن المعصية ليس بمعصية وإنما المقصود دفع المعاصي .

• فإن قيل : فلو علمنا أنه لو خلا بنفسه لقطع طرف نفسه فينبغي أن نقتله في الحال حسبا لباب المعصية ؟ قلنا : ذلك لا يعلم يقينا ولا يجوز سفك دمه بتوهم معصية ولكننا إذا رأيناه في حال مباشرة القطع دفعناه ، فإن قاتلنا قاتلناه ولم نبال بما يأتي على روحه .

فإذا المعصية لها ثلاثة أحوال : (إحداهما) أن تكون متصرمة فالعقوبة على ماتصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاية لا إلى الآحاد (الثانية) أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير ولمسا كالعود والخمر ، فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن مالم تؤد إلى معصية أخش منها أو مثلها ، وذلك يثبت للآحاد والرعية (الثالثة) أن يكون المنكر متوقعا كالذى يستعد بكس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعده لم يحضر الخمر ؛ فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق عنه عائق فلا يثبت للآحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح ، فأما بالتعنيف والضرب فلا يجوز للآحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس له فيه إلا الانتظار ، وذلك كوقوف الأحداث على أبواب حمامات النساء للنظر إليهن عند الدخول والخروج ، فإنهم وإن لم يضيقوا الطريق لسعته فتجوز الحسبة عليهم بإقامتهم من الموضع ومنعهم عن الوقوف بالتعنيف والضرب ، وكان تحقيق هذا إذا بحث عنه يرجع إلى أن هذا الوقوف في نفسه معصية وإن كان مقصد العاصي وراه كما أن الخلوة بالأجنبية في نفسها معصية لأنها مظنة وقوع المعصية ، وتحصيل مظنة المعصية معصية ونعني بالمظنة ما يتعرض الإنسان به لوقوع المعصية غالبا بحيث لا يقدر على الانكشاف عنها ، فإذا هو على التحقيق حسبة على معصية راهنة لأعلى معصية منتظرة .

الركن الثاني : للحسبة مافيه الحسبة

وهو كل منكر موجود في الحال ظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرأ بغير اجتihad فهذه أربعة شروط فلنبحث عنها :

الأول : كونه منكرا ، ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية ، إذ من رأى صبيا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا إن رأى مجنونا يزنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه . وليس ذلك لتفاحش صورة الفعل وظهوره بين الناس بل لوصادف هذا المنكر في خلوة لوجب المنع منه ، وهذا لا يسمى معصية في حق المجنون إذ معصية لاعاصي بها محال ، فلفظ المنكر أدل عليه وأعم من لفظ المعصية وقد أدرجنا في عموم هذا الصغيرة والكبيرة فلا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام والخلوة بالأجنبية واتباع النظر للنسوة الأجنبية كل ذلك من الصغائر ويجب النهي عنها وفي الفرق بين الصغيرة والكبيرة نظر سيأتي في كتاب التوبة :

الشرط الثاني : أن يكون موجودا في الحال وهو احتراز أيضا عن الحسبة على من فرغ من شرب الخمر ، فإن ذلك ليس إلى الآحاد وقد انقرض المنكر واحتراز عما سيوجد في ثاني الحال ، كمن يعلم بقرينة حال أنه عازم على الشرب في ليلته فلا حسبة عليه إلا بالوعظ ، وإن أنكر عزمه عليه لم يحز وعظه أيضا فإن فيه إساءة ظن بالمسلم وربما صدق في قوله . وربما لا يقدم على ما عزم عليه لعائق . وليتنبه للدقيقة التي ذكرناها وهو أن الخلوة بالأجنبية

معصية ناجزة وكذا الوقوف على باب حمام النساء ومايجرى مجراه .

الشرط الثالث : أن يكون المنكر ظاهرا للمحتسب بغير تجسس . فكل من ستر معصية في داره وأغلق بابها لا يجوز أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه . وقصة عمر وعبدالرحمن بن عوف فيه مشهورة - وقد أوردناها في كتاب آداب الصحبة - وكذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه تسلق دار رجل فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه فقال : يا أمير المؤمنين إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه . فقال وماهى ؟ فقال قد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست . وقال تعالى ﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ وقد تسورت من السطح وقال ﴿ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتساموا على أهلها ﴾ وما سلمت . فتركه عمر وشرط عليه التوبة . ولذلك شاور عمر الصحابة رضى الله عنهم وهو على المنبر وسألهم عن الإمام إذا شاهد بنفسه منكرا فهل له إقامة الحد فيه ؟ فأشار على رضى الله عنه بأن ذلك منوط بعدلين فلا يكفى فيه واحد . وقد أوردنا هذه الأخبار في بيان حق المسلم من كتاب آداب الصحبة فلا نعيدها .

❦ فإن قلت : فما حد الظهور والاستتار ؟ فاعلم أن من أغلق باب داره وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لنعرف المعصية إلا أن يظهر في الدار ظهورا يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والآوتار إذا ارتفعت بحيث جاوز ذلك حيطان الدار . فمن سمع ذلك فله دخول الدار وكسر الملاحى وكذا إذا ارتفعت أصوات السكارى بالسكيات المألوفة بينهم بحيث يسمعون أهل الشوارع فهذا إظهار موجب للحسبة . فإذا لم يدرك مع تحلل الحيطان صوت أو رائحة . فإذا فاحت روائح الخمر فإن احتمل أن يكون ذلك من الخمر المحترمة فلا يجوز قصدها بالإراقة . وإن علم بقرينة الحال أنها فاحت لتعاطيهم الشرب فهذا محتمل . والظاهر جواز الحسبة . وقد تستقر ضرورة الخمر في السكم وتحت الذيل وكذلك الملاحى فإذا رأى فاسق وتحت ذيله شيء لم يجز أن يكشف عنه مالم يظهر بعلامة خاصة . فإن فسقه لا يدل على أن الذى معه خمر . وإذا الفاسق محتاج أيضا إلى الخل وغيره . فلا يجوز أن يستدل بإخفائه وأنه لو كان حلالا لما أخفاه لأن الأغراض في الإخفاء مما تكسر . وإن كانت الرائحة فائحة فهذا محل النظر . والظاهر أن له الاحتساب لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم في أمثال هذه الأمور . وكذلك العود ربما يعرف بشكله إذا كان الثوب السائر له رقيقا . فدلالة الشكل كدلالة الرائحة والصوت وما ظهرت دلالاته فهو غير مستور بل هو مكشوف وقد أمرنا بأن نستر ماستر الله ونسكّر على من أبدى لناصفحته . والإبداء له درجات فتارة يبدونها بحاسة السمع . وتارة بحاسة الشم . وتارة بحاسة البصر . وتارة بحاسة اللمس ولا يمكن أن يخص ذلك بحاسة البصر بل المراد العلم . وهذه الحواس أيضا تفيد العلم . فإذا لم يجز أن يكسر ماتحت الثوب إذا علم أنه خمر . وليس له أن يقول : أرني لأعلم مافيه . هذا تجسس . ومعنى التجسس طلب الامارات المعرفة فالأمانة المعرفة إن حصلت وأورثت المعرفة جاز العمل بمقتضاها فأما طلب الأمانة المعرفة فلا رخصة فيه أصلا .

الشرط الرابع : أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهد فكل ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة . فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكله الضب والضبع ومتروك التسمية . ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شربه النبيذ الذى ليس بمسكر وتناوله ميراث ذوى الأرحام وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار إلى غير ذلك من مجارى الاجتهاد نعم لو رأى الشافعى شافعيًا يشرب النبيذ وينسكح بلا ولى ويطأ زوجته فهذا في محل النظر والأظهر أن له الحسبة والإنكار إذ لم يذهب أحد من المحصلين إلى أن المجتهد يجوز له أن يعمل بموجب اجتهد غيره . ولا أن

الذى أدى اجتماعه في التقليد إلى شخص رآه أفضل العلماء أن له أن يأخذ بمذهب غيره فيعتقد من المذاهب أطيبها عنده ، بل على كل مقلد اتباع مقلده في كل تفصيل ، فإذا خالفته المقلد متفق على كونه منكرا بين المحصلين وهو عاص بالمخالفة ، إلا أنه يلزم من هذا أمر أغضض منه ، وهو أنه يجوز للحنفى أن يعترض على الشافعى إذا نكح بغير ولى بأن يقول له : الفعل في نفسه حق ولكن لا في حقه فأنت مبطل بالإقدام عليه مع اعتقادك أن الصواب مذهب الشافعى ، وبخالفه ما هو صواب عندك معصية في حقه وإن كانت صوابا عند الله . وكذلك الشافعى يحتسب على الحنفى إذا شاركه في أكل الضب ومتروك التسمية وغيره ويقول له : إما أن تعتقد أن الشافعى أولى بالاتباع ثم تقدم عليه ، أو لا تعتقد ذلك فلا تقدم عليه ، لأنه على خلاف معتقدك . ثم ينبج هذا إلى أمر آخر من المحسوسات وهو أن يجمع الأصم مثلاً امرأة على قصد لزنا وعلم المحتسب أن هذه امرأته زوجته أبوه إياها في صغره ، ولكنه ليس يدري وعجز عن تعريفه ذلك لصممه أو لكونه غير عارف بلغته ، فهو في الإقدام مع اعتقاده أنها أجنبية عاص ومعاقب عليه في الدار الآخرة . فينبغى أن يمنعها عنه مع أنها زوجته وهو بعيد من حيث إنه حلال في علم الله قريب من حيث إنه حرام عليه بحكم غلظه وجهله . ولا شك في أنه لو علم طلاق زوجته على صفة في قلب المحتسب مثلاً من مشيئة أو غضب أو غيره وقد وجدت الصفة في قلبه وعجز عن تعريف الزوجين ذلك ، ولكن علم وقوع الطلاق في الباطن فإذا رآه يجمعها فاعليه المنع - أعنى باللسان - لأن ذلك زنا إلا أن الزانى غير عالم به والمحتسب عالم بأنها طالقت منه ثلاثاً ، وكونهما غير عاصيين لجهلهما بوجود الصفة لا يخرج الفعل عن كونه منكراً ولا يتقاعد ذلك عن زنا المجنون وقد بينا أنه يمنع منه ، فإذا كان يمنع عما هو منكراً عند الله وإن لم يكن منكراً عند الفاعل ولا هو عاص به لعذر الجهل ، فيلزم من عكس هذا أن يقال : ما ليس بمنكر عند الله إنما هو منكراً عند الفاعل لجهله لا يمنع منه ، وهذا هو الأظهر والعلم عند الله . فتحصل من هذا أن الحنفى لا يعترض على الشافعى في النكاح بلا ولى ، وأن الشافعى يعترض على الشافعى فيه لكون المعترض عليه منكراً باتفاق المحتسب والمحتسب عليه . وهذه مسائل فقهية دقيقة والاحتمالات فيها متعارضة ، وإنما أفتينا فيها بحسب ما ترجح عندنا في الحال . ولنا تقطع بخطأ ترجيح المخالف فيها إن رأى أنه لا يجرى الاحتساب إلا في معلوم على القطع ، وقد ذهب إليه ذاهبون وقالوا : لاحسبة إلا في مثل الخمر والخنزير وما يقطع بكونه حراماً ، ولكن الأشبه عندنا أن الاجتهاد يؤثر في حق المجتهد ؛ إذ يبعد غاية البعد أن يجتهد في القبلة ويعترف بظهور القبلة عنده في جهة بالدلالات الظنية ثم يستدبرها ، ولا يمنع منه لأجل ظن غيره لأن الاستدبار هو الصواب . ورأى من يرى أنه يجوز لكل مقلد أن يختار من المذاهب ما أراد غير معتمد به ولعله لا يصح ذهاب ذاهب إليه أصلاً ؛ فهذا مذهب لا يثبت وإن ثبت فلا يعتد به .

* فإن قلت : إذا كان لا يعترض على الحنفى في النكاح بلا ولى لأنه يرى أنه حق فينبغى أن لا يعترض على المعتزلى في قوله : إن الله لا يرى ؟ وقوله : وإن الخير من الله والشر ليس من الله ؟ وقوله : كلام الله مخلوق ؟ ولا على الحشوى في قوله : إن الله تعالى جسم وله صورة وإنه مستقر على العرش ؟ بل لا ينبغى أن يعترض على الفيلسوف في قوله : الأجساد لا تبعث وإنما تبعث النفوس ؛ لأن هؤلاء أيضاً أدى اجتهادهم إلى ما قالوه وهم يظنون أن ذلك هو الحق . فإن قلت : بطلان مذهب هؤلاء ظاهر فبطلان مذهب من يخالف نص الحديث الصحيح أيضاً ظاهر ، وكما ثبت بظواهر النصوص أن الله تعالى يرى والمعتزلى ينكرها بالتأويل فكذلك ثبت بظواهر النصوص مسائل خالف فيها الحنفى كمسألة النكاح بلا ولى ومسألة شفعة الجوار ونظائرها ؟ فاعلم أن المسائل تنقسم

إلى ما يتصور أن يقال فيه : كل مجتهد مصيب . وهى أحكام الأفعال فى الحل والحرمه وذلك هو الذى لا يعترض على المجتهدين فيه إذ لم يعلم خطوهم قطعاً بل ظناً ، وإلى ما لا يتصور أن يكون المصيب فيه إلا واحد كسأله الرؤية والقدر وقدم الكلام ونفى الصورة والجسمية والاستقرار عن الله تعالى ، فهذا مما يعلم خطأ المخطئ فيه قطعاً ولا يبق لخطئه الذى هو جهل محض وجه . فإذا البدع كلها ينبغى أن تحسم أبوابها وتنكر على المبتدعين بدعهم وإن اعتقدوا أنها الحق ، كما يرد على اليهود والنصارى كفرهم وإن كانوا يعتقدون أن ذلك حق لأن خطأهم معلوم على القطع بخلاف الخطأ فى مظان الاجتهاد .

هـ فإن قلت : فهما اعترضتا على القدرى فى قوله : الشر ليس من الله ، اعترض عليك القدرى أيضاً فى قولك : الشر من الله ، وكذلك فى قولك : إن الله يرى ، وفى سائر المسائل . إذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعى أنه محق وينكر كونه مبتدعاً . فكيف يتم الاحتساب ؟ فاعلم أنا لأجل هذا التعارض نقول : ينظر إلى البلدة التى فيها أظهرت تلك البدعة ؛ فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة فلهم الحسبة عليه بغير إذن السلطان ، وإن انقسم أهل البلد إلى أهل البدعة وأهل السنة وكان فى الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة فليس للأحاد الحسبة فى المذاهب إلا بنصب السلطان . فإذا رأى السلطان رأى الحق ونصره وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن اظهار البدعة كان له ذلك وليس لغيره . فإن ما يكون بإذن السلطان لا يتقابل ، وما يكون من جهة الأحاد فيتقابل الأمر فيه . وعلى الجملة فالحسبة فى البدعة أهم من الحسبة فى كل المنكرات ، ولكن ينبغى أن يراعى فيها هذا التفصيل الذى ذكرناه كيلا يتقابل الأمر ولا ينجر إلى تحريك الفتنة . بل لو أذن السلطان مطلقاً فى منع كل من يصرح بأن القرآن مخلوق ، أو أن الله لا يرى ، أو أنه مستقر على العرش عاس له ، أو غير ذلك من البدع لتسلط الأحاد على المنع منه ولم يتقابل الأمر فيه وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط .

الركن الثالث : المحتسب عليه

وشرطه أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكراً ، وأقل ما يكتفى فى ذلك أن يكون إنساناً ، ولا يشترط كونه مكلفاً ، إذ بينا أن الصبي لو شرب الخمر منع منه واحتسب عليه وإن كان قبل البلوغ ، ولا يشترط كونه مميزاً إذ بينا أن المجنون لو كان يزنى بمجنونة أو يأتى بهيمة منعه منه . نعم من الأفعال ما لا يكون منكراً فى حق المجنون كترك الصلاة والصوم وغيره . ولكننا لسنا نلتفت إلى اختلاف التفاصيل فإن ذلك أيضاً ما يختلف فيه المقيم والمسافر والمريض والصحيح . وغرضنا الإشارة إلى الصفة التى بها يتبها توجه أصل الإنكار عليه لاما بها يتبها للتفاصيل .

هـ فإن قلت : فاكثف بكونه حيواناً ولا تشترط كونه إنساناً ، فإن البهيمة لو كانت تفسد زرعاً لإنسان لكننا تمنعها منه كما تمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة ؟ فاعلم أن تسمية ذلك حسبة لا وجه لها ، إذ الحسبة عبارة عن المنع عن منكر لحق الله ، صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر ومنع المجنون عن الزنا وإتيان البهيمة لحق الله ، وكذا منع الصبي عن شرب الخمر . والإنسان إذا أتلف زرع غيره منع منه لحقين ، أحدهما : حق الله تعالى فإن فعله معصية ، والثانى : حق المثلث عليه ، فهما علتان تنفصل إحداها عن الأخرى . فلو قطع طرف غيره بإذنه فقد وجدت المعصية وسقط حق المجنى عليه بإذنه فتثبت الحسبة والمنع بإحدى علتين . والبهيمة إذا أتلفت فقد عدمت المعصية ولكن يثبت المنع بإحدى علتين . ولكن فيه دققة وهو أننا لسنا نقصد بإخراج البهيمة منع البهيمة بل حفظ مال

المسلم ؛ إذ البهيمة لو أكلت ميتة أو شربت من لبناء فيه خمر أو ماء مشوب بخمر لم تمنعها منه ، بل يجوز لإطعام كلاب الصيد الجيف والميتات ، ولكن مال المسلم إذا تعرض للضياع وقد رنا على حفظه بغير تعب وجب ذلك علينا حفظا للمال ، بل لو وقعت جرة لإنسان من علو وتحتها قارورة لغيره فتدفع الجرة لحفظ القارورة ، لالتمع الجرة من السقوط . فإننا لانقصد منع الجرة وحراستها من أن تصبح كاسرة للقارورة ، ونمنع المجنون من الزنا وإتيان البهيمة وشرب الخمر وكذا الصبي ، لاصيانة للبهيمة المأتمية أو الخمر المشروب : بل صيانة للمجنون عن شرب الخمر وتنزيهاه من حيث إنه لإنسان محترم . فهذه لطائف دقيقة لا يتفطن لها إلا المحققون فلا ينبغي أن يغفل عنها ثم فيما يجب تنزيه الصبي والمجنون عنه نظر ، إذ قد يتردد في معنهما من لبس الحرير وغير ذلك . وسنتعرض لما نشير إليه في الباب الثالث .

* فإن قلت : فكل من رأى بهائم قد استرسلت في زرع لإنسان فهل يجب عليه إخراجها ؟ وكل من رأى مالا لمسلم أشرف على الضياع هل يجب عليه حفظه ؟ فإن قلتم : إن ذلك واجب فهذا تكليف شطط يؤدي إلى أن يصير الإنسان مسخرا لغيره طول عمره ؟ وإن قلتم ، لا يجب فلم يجب الاحتساب على من يغصب مال غيره وليس له سبب سوى مراعاة مال الغير ؟ فنقول : هذا بحث دقيق غامض . والقول الوجيز فيه أن نقول : مهما قدر على حفظه من الضياع من غير أن يناله تعب في بدنه أو خسران في ماله أو نقصان جاهه وجب عليه ذلك ، فذلك القدر واجب في حقوق المسلم بل هو أقل درجات الحقوق ، والأدلة الموجبة لحقوق المسلمين كثيرة وهذا أقل درجاتها وهو أولى بالإيجاب من رد السلام ، فإن الأذى في هذا أكثر من الأذى في ترك رد السلام ، بل لاختلاف في أن مال الإنسان إذا كان يضيع بظلم ظالم وكان عند الشهادة لو تكلم بها لرجع الحق إليه وجب عليه ذلك وعصى بكتمان الشهادة ففي معنى ترك الشهادة ترك كل دفع لاضرر على الدافع فيه ، فأما إن كان عليه تعب أو ضرر في مال أو جاه لم يلزمه السعي في ذلك ولكن إذا كان لا يتعب بتدبيره صاحب الزرع من نوم أو بإعلامه يلزمه ، فإهمال تعريفه وتذنيه كأهماله تعريف القاضي بالشهادة ، وذلك لارخصة فيه ، ولا يمكن أن يراعى فيه الأقل والأكثر حتى يقال إن كان لا يضيع من منفعتة في مدة اشتغاله بإخراج البهائم إلا قدر درهم مثلا وصاحب الزرع يفوته مال كثير فيترجح جانبه لأن الدرهم الذي له هو يستحق حفظه كما يستحق صاحب الآلاف حفظ الآلاف ولا سبيل للمصير إلا ذلك ، فأما إذا كان فوات المال بطريق هو معصية كالغصب أو قتل عبد مملوك للغير ، فهذا يجب المنع منه وإن كان فيه تعب ما ، لأن المقصود حق الشرع ، والغرض دفع المعصية ، وعلى الإنسان أن يتعب نفسه في دفع المعاصي كما عليه أن يتعب نفسه في ترك المعاصي . والمعاصي كلها في تركها تعب وإتباع الطاعة كلها ترجع إلى مخالفة النفس وهي غاية التعب . ثم لا يلزمه احتمال كل ضرر بل التفصيل فيه كما ذكرناه من درجات المحذورات التي يخافها المحتسب .

وقد اختلف الفقهاء في مسئلتين تقربان من غرضنا ، إحداهما : أن الالتقاط هل هو واجب واللقطة ضائعة ؟ والملاقط مائع من الضياع وساع في الحفظ ؟ والحق فيه عندنا أن يفصل ويقال : إن كانت اللقطة في موضع لو تركها فيه لم تضع بل يلتقطها من يعرفها ، أو تترك كما لو كان في مسجد أو رباط يتعين من يدخله وكلهم أمناه فلا يلزمه الالتقاط ، وإن كانت في مضيق ، نظر ، فإن كان عليه تعب في حفظها كما لو كانت بهيمة وتحتاج إلى علف واصطبل فلا يلزمه ذلك ؛ لأنه إنما يجب الالتقاط لحق المالك . وحقه بسبب كونه إنسانا محترما ، والملاقط أيضا لإنسان وله حق في أن لا يتعب لأجل غيره كما لا يتعب غيره لأجله . فإن كانت ذهابا أو ثوبا أو شيئا لا ضرر عليه فيه إلا مجرد تعب

التعريف فهذا ينبغي أن يكون في محل الوجهين . فقائل يقول : التعريف والقيام بشرطه فيه تعب فلا سبيل إلى إلزامه ذلك إلا أن يتبرع فيلتزم طبقاً للثواب . وقائل يقول : إن هذا القدر من التعب مستصغر بالإضافة إلى مراعاة حقوق المسلمين ؛ فينزل هذا منزلة تعب الشاهد في حضور مجلس الحكم فإنه لا يلزمه السفر إلى بلدة أخرى إلا أن يتبرع به ، فإذا كان مجلس القاضي في جواره لزمه الحضور وكان التعب بهذه الخطوات لا يعدّ تعباً في غرض إقامة الشهادة وأداء الأمانة ، وإن كان في الطرف الآخر من البلد وأجوج إلى الحضور في الهاجرة وشدة الحر فهذا قد يقع في محل الاجتهاد والنظر ، فإن الضرر الذي ينال الساعي في حفظ حق الغير له طرف في القلة لا يشك في أنه لا يبالى به ، وطرف في الكثرة لا يشك في أنه لا يلزم احتماله ، ووسط يتجاذبه الطرفان ويكون أبداً في محل الشبهة والنظر ، وهي من الشبهات المزمعة التي ليس في مقدور البشر إزالتها ؛ إذ لا علة تفرق بين أجزائها المتقاربة ، ولكن المتقن ينظر فيها لنفسه ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، فهذا نهاية الكشف عن هذا الأصل .

الركن الرابع : نفس الاحتساب

وله درجات وآداب : أما الدرجات ، فأولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ، ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

أما الدرجة الأولى : وهي التعرف ؛ ونعني طلب المعرفة بمرئى المنكر وذلك منهى عنه - وهو التجسس الذي ذكرناه - فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزار ، ولا أن يستخير من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره . نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلانا يشرب الخمر في داره أو بأن في داره خمر أعدده للشرب ، فله إذ ذاك أن يدخل داره ولا يلزم الاستئذان ، ويكون تخطي ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ككسر رأسه بالضرب للنعم مهما احتاج إليه . وإن أخبره عدلان أو عدل واحد - وبالجمل كل من تقبل روايته لاشهادته - ففي جواز الهجوم على داره بقولهم ، فيه نظر واحتمال ، والأولى أن يمتنع لأن له حقاً في أن لا يتخطى داره بغير إذنه ، ولا يسقط حق المسلم عما ثبت عليه حقه إلا بشاهدين ؛ فهذا أولى ما يجعل مردداً فيه . وقد قيل إنه كان نقش خاتم لقمان : الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت .

الدرجة الثانية : التعريف ؛ فإن المنكر قد يقدم عليه المقدم بجهله وإذا عرف أنه منكر تركه ، كالسوادى يصلح ولا يحسن الركوع والسجود ؛ فيعلم أن ذلك لجهله بأن هذه ليست بصلاة ولو رضى بأن لا يكون مصلياً ترك أصل الصلاة ، فيجب تعريفه باللفظ من غير عنف ؛ وذلك لأن ضمن التعريف نسبة إلى الجهل والحق ، والتجهيل إيذاء وقلبا يرضى الإنسان بأن ينسب إلى الجهل بالأمور لاسيما بالشرع . ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب كيف يغضب إذا نه على الخطأ والجهل ؟ وكيف يجتهد في مجاهدة الحق بعد معرفته خيفة من أن تنكشف عورة جهله ؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر العورة الحقيقية ؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد في وجهه ، وصاحبه ملوم عليه ، وقبح السوأين يرجع إلى صورة البدن ، والنفس أشرف من البدن وقبحها أشد من قبح البدن . ثم هو غير ملوم عليه لأنه خلقة لم يدخل تحت اختياره حصوله ، ولا في اختياره إزالته وتحسينه . والجهل قبح يمكن إزالته وتبديله بحسن العلم ، فلذلك يعظم تألم الإنسان بظهور جهله ، ويعظم ابتهاجه في نفسه بعلمه

ثم لذته عند ظهور جمال علمه غيره . وإذا كان التعريف كشفا للعبادة مؤذيا للقلب فلا بد وأن يعالج دفع أذاه بلطف الرفق فنقول له : إن الإنسان لا يولد عالما ولقد كنا أيضا جاهلين بأمور الصلاة فعلينا العلماء ، ولعل قريبك خالية عن أهل العلم أو عالمها مقصر في شرح الصلاة وإيضاحها ، إنما شرط الصلاة الطمأنينة في الركوع والسجود . وهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ؛ فإن إيذاء المسلم حرام محذور كما أن تقريره على المنكر محذور ، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم أو بالبول ، ومن اجتنب محذور السكوت على المنكر واستبدل عنه محذور الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول على بالتحقيق . وأما إذا وقفت على خطأ في غير أمر الدين فلا ينبغي أن ترده عليه فإنه يستفيد منك علما ويصير لك عدوا ، إلا إذا علمت أنه يغتم العلم وذلك عزيز جدا .

الدرجة الثالثة : النهي بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ؛ وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكرا ، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكرا ، كالذي يواطىء على الشرب أو على الظلم أو على اغتياب المسلمين أو ما يجري مجراه ، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين ؛ وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه إذ المسلمون كنفس واحدة ، وهما آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مهلكة ، وهي أن العالم يرى - عند التعريف - عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل ؛ فربما يقصد بالتعريف الإذلال وإظهار التمييز بشرف العلم وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل . فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه ؟ ومثال هذا المحتسب مثال من يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية في الجهل . وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل إنسان إلا من عزفه الله عيوب نفسه وفتح بصيرته بنور هدايته ، فإن في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين ، أحدهما : من جهة دالة العلم ، والآخر : من جهة دالة الاحتكام والسلطنة . وذلك يرجع إلى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية إلى الشرك الخفي ، وله حكا ومعيان ينبغي أن يمتحن المحتسب به نفسه ، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحب إليه من امتناعه باحتسابه . فإن كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود أن يكفي بغيره فليحتسب فإن باعته هو الدين ، وإن كان اتعاض ذلك العاصي بوعظه وانزجاره بزجره أحب إليه من اتعاضه بوعظ غيره فما هو إلا متبع هوى نفسه ومتوسل إلى إظهار جاه نفسه بواسطة حسبته فليثق الله تعالى فيه وليحتسب أولا على نفسه . وعند هذا يقال له ما قيل لعيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستحى مني . وقيل لداود الطائي رحمه الله : أرايت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ؟ فقال أخاف عليه السوط ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه السيف ، قال : إنه يقوى عليه ، قال : أخاف عليه الداء الدفين وهو العجب .

الدرجة الرابعة : السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن ، وذلك يعدل إليه عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ ولسنا نعنى بالسب والفحش بما فيه نسبة إلى الزنا ومقدماته ، ولا الكذب بل أن يخاطبه بما فيه مما لا يعتد من جملة الفحش ، كقوله : يافاسق يا أحق يا جاهل ألا تخاف الله ، وكقوله : ياسواذى يا غبي وما يجري هذا المجرى . فإن كل فاسق فهو أحق وجاهل ، ولولا حمقه لما عصى الله تعالى بل كل من ليس

بكيس فهو أحق . والكيس من شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكياسة حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . والاحق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^(١) » .

ولهذه الرتبة أدبان ؛ أحدهما : أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف . والثاني : أن لا ينطق إلا بالصدق ولا يسترسل فيه فيطلق لسانه الطويل بما لا يحتاج إليه ؛ بل يقتصر على قدر الحاجة . فإن علم أن خطابه بهذه الكلمات الزاجرة ليست تزجره فلا ينبغي أن يطلقه . بل يقتصر على إظهار الغضب والاستحقار له والازدراء بمحله لأجل معصيته ، وإن علم أنه لو تسكلم ضرب ولو اكفهر وأظهر الكراهة بوجهه لم يضرب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب ، بل يلزمه أن يقطب وجهه ويظهر الإنكار له .

الدرجة الخامسة : التغيير باليد ؛ وذلك ككسر الملاهي وإراقة الخمر وخلع الحرير من رأسه وعن بدنه ومنعه من الجلوس عليه ودفعه عن الجلوس على مال الغير وإخراجه من الدار المغصوبة بالجر برجله وإخراجه من المسجد إذا كان جالسا وهو جنب وما يجرى مجراه ، ويتصور ذلك في بعض المعاصي دون بعض .

فأما معاصي اللسان والقلب فلا يقدر على مباشرة تغييرها ، وكذلك كل معصية تقتصر على نفس العاصي وجوارحه الباطنة .

وفي هذه الدرجة أدبان ، أحدهما : أن لا يباشر بيده التغيير مالم يعجز عن تكليف المحتسب عليه ذلك ، فإذا أمكنه أن يكلفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد فلا ينبغي أن يدفعه أو يجره ، وإذا قدر على أن يكلفه إراقة الخمر وكسر الملاهي وحل دروز ثوب الحرير فلا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه ، فإن في الوقوف على حد الكسر نوع عسر ، فإذا لم يتعاط بنفسه ذلك كفى الاجتهاد فيه وتولاه من لاحجر عليه في فعله .

الثاني : أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه ، وهو أن لا يأخذ بلحيته في الإخراج ، ولا برجله إذا قدر على جره بيده ؛ فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه ، وأن لا يمزق ثوب الحرير بل يحل دروزه فقط ، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر . وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوى تعب الاستئناف من الخشب ابتداء . وفي إراقة الخمر يتوقى كسر الأواني إن وجد إليه سبيلا ، فإن لم يقدر عليها إلا بأن يرمى ظروفها بحجر فله ذلك ، وسقطت قيمة الظرف وتقومه بسبب الخمر إذ صار حائلا بينه وبين الوصول إلى إراقة الخمر ، ولو ستر الخمر بيدنه لكننا نقصد بدنه بالجرح والضرب لتوصل إلى إراقة الخمر فإذا ن لا تزيد حرمة ملكه في الظروف على حرمة نفسه . ولو كان الخمر في قوارير ضيقة الرموس ولو اشتغل بإراقتها طال الزمان وأدركه الفساق ومنعوه فله كسرها ، فهذا عذر . وإن كان لا يحذر ظفر الفساق به ومنعهم ولكن كان يضيع في زمانه وتتعطل عليه أشغاله فله أن يكسرها فليس عليه أن يضيع منفعة بدنه وغرضه من أشغاله لأجل ظرف الخمر ، وحيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فكسره لزمه الضمان .

* فإن قلت : فهلا جاز الكسر لأجل الزجر ؟ وهلا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة ليكون ذلك أبلغ في الزجر ؟ فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل ، والعقوبة تكون على الماضي ، والدفع على الحاضر الراهن . وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو لإعدام المنكر ، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على

(١) حديث « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. الحديث » أخرجه الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

جريمة سابقة أو زجر عن لاحق . وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية . نعم الوالى له أن يفعل ذلك لإذارة المصلحة فيه وأقول : له أن يأمر بكسر الظروف التى فيها الخمر زجرا . وقد فعل ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأكيداً للزجر (١) ولم يثبت نسخه ولكن كانت الحاجة إلى الزجر والفظام شديدة . فإذا رأى الوالى باجتهاده مثل الحاجة جاز له مثل ذلك . وإذا كان هذا منوطاً بنوع اجتهاد دقيق لم يكن ذلك لآحاد الرعية .

* فإن قلت : فليجوز للسلطان زجر الناس عن المعاصى بإتلاف أموالهم وتخريب دورهم التى فيها يشربون ويعصون وإحراق أموالهم التى بها يتوصلون إلى المعاصى ؟ فاعلم أن ذلك لو ورد الشرع به لم يكن خارجاً عن سنن المصالح ولكننا لا نبتدع المصالح بل نتبع فيها . وكسر ظروف الخمر قد ثبت عند شدة الحاجة . وتركه بعد ذلك لعدم شدة الحاجة لا يكون نسخاً بل الحكم يزول بزوال العلة ويعود بعودها . وإنما جوزنا ذلك للإمام بحكم الاتباع ومنعنا آحاد الرعية منه لحفاء وجه الاجتهاد فيه . بل نقول لو أريق الخمر أولاً فلا يجوز كسر الأواني بعدها وإنما جاز كسرها تبعاً للخمر . فإذا خلت عنها فهو إتلاف مال إلا أن تكون ضاربة بالخمر لاتصلح إلا لها .

فكان الفعل المنقول عن العصر الأول كان مقروناً بمعنيين ؛ أحدهما : شدة الحاجة إلى الزجر ، والآخر : تبعية الظروف للخمر التى هى مشغولة بها . وهما معنيان مؤثران لا سبيل إلى حذفهما . ومعنى ثالث : وهو صدوره عن رأى صاحب الأمر لعل به شدة الحاجة إلى الزجر وهو أيضاً مؤثر فلا سبيل إلى إلغائه . فهذه تصرفات دقيقة فقهية يحتاج المحتسب لاحتمالها إلى معرفتها .

الدرجة السادسة : التهديد والتخويف ؛ كقوله دع عنك هذا أولاً كسر رأسك أو لأضرب رقبتك أو لأمرن بك وما أشبهه ، وهذا ينبغى أن يقدم على تحقيق الضرب إذا أمكن تقديمه . والأدب فى هذه الرتبة أن لا يهدده بوعيد لا يجوز له تحقيقه ، كقوله لأنهن دارك أو لأضرب ولدك أو لأسبين زوجتك وما جرى مجراه ، بل ذلك إن قاله عن عزم فهو حرام ، وإن قاله من غير عزم فهو كذب . نعم إذا تعرض لوعيده بالضرب والاستخفاف فله العزم عليه إلى حد معلوم يقتضيه الحال ، وله أن يزيد فى الوعيد على ما هو فى عزمه الباطن إذا علم أن ذلك يقمعه ويردعه . وليس ذلك من الكذب المحذور بل المبالغة فى مثل ذلك معتادة وهو معنى مبالغة الرجل فى إصلاحه بين شخصين وتأليفه بين الضرتين ، وذلك بما قد رخص فيه للحاجة وهذا فى معناه ، فإن القصد به إصلاح ذلك الشخص . وإلى هذا المعنى أشار بعض الناس أنه لا يقبح من الله أن يتوعد بما لا يفعل لأن الخلف فى الوعيد كرم ، وإنما يقبح أن يعد بما لا يفعل ، وهذا غير مرضى عندنا فإن الكلام القديم لا يتطرق إليه الخلف وعدا كان أو وعيدا ، وإنما يتصور هذا فى حق العباد ، وهو كذلك إذ الخلف فى الوعيد ليس بحرام .

الدرجة السابعة : مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ، وذلك جائز لآحاد بشرط الضرورة والاقتضار على قدر الحاجة فى الدفع ، فإذا اندفع المنكر فينبغى أن يكف . والقاضى قد يرهق من ثبت عليه الحق إلى الأداء بالحبس ، فإن أصر المحبوس وعلم القاضى قدرته على أداء الحق وكونه معانداً فله أن يلزمه الأداء بالضرب على التدريج كما يحتاج إليه . وكذلك المحتسب يراعى التدرج فإن احتاج إلى شهر سلاح وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح فله أن يتعاطى ذلك ما لم تثر فتنة . كالوقبض فاسق مثلاً على امرأة أو كان يضرب بزمارة

(١) حديث : نسكير الظروف التى فيها الخمر فى زمنه صلى الله عليه وسلم . أخرجه الترمذى من حديث أبى طلحة أنه قال : يا نبي الله إني اشتريت خراً لأيتام فى حجرى قال « اهرق الخمر واكسر الدنان » وفيه لىث بن أبى سليم والأصح رواية السدى عن يحيى بن عباد عن أنس أن أباً طلحة كان عنده قاله الترمذى .

معه وبينه وبين المحتسب نهر حائل أو جدار مانع فيأخذ قوسه ويقول له : خل عنها أو لارمينك . إن لم تخل عنها فله أن يرمى وينبغي أن لا يقصد المقتل بل الساق والفخذ وما أشبهه ويراعى فيه التدرج . وكذلك يسلم سيفه ويقول اترك هذا المنكر أو لا ضربتك . فكل ذلك دفع المنكر ودفعه واجب بكل ممكن . ولا فرق في ذلك بين ما يتعلق بخصوص حق الله وما يتعلق بالآدميين .

وقالت المعتزلة : ما لا يتعلق بالآدميين فلا حسبة فيه إلا بالكلام أو بالضرب ولكن للإمام لا الأحاد .
الدرجة الثامنة : أن لا يقدر عليه بنفسه ويحتاج فيه إلى أعوان يشهرون السلاح . وربما يستمد الفاسق أعباء بأعوانه ويؤدي ذلك إلى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا . . فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه إلى إذن الإمام . فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك لأنه يؤدي إلى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب البلاد .

وقال آخرون : لا يحتاج إلى الإذن - وهو الأقيس - لأنه إذا جاز للأحاد الأمر بالمعروف وأوأمل درجاته تجر إلى ثوان والثواني إلى ثوان . وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب . والتضارب يدعو إلى التعاون فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف . ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه . ونحن نجوز للأحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعاً لأهل الكفر . فكذلك قمع أهل الفساد جائز لأن الكافر لا بأس بقتله والمسلم إن قتل فهو شهيد . فكذلك الفاسق المناضل عن فسقه لا بأس بقتله . والمحتسب المحق إن قتل مظلوما فهو شهيد . وعلى الجملة فانتهاه الأمر إلى هذا من النواذر في الحسبة . فلا يغير به قانون القياس . بل يقال : كل من قدر على دفع منكر فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وب نفسه وبأعوانه . فالمسألة إذن محتملة - كما ذكرناه - فهذه درجات الحسبة فلنذكر آدابها والله الموفق .

باب آداب المحتسب

قد ذكرنا تفاصيل الآداب في آحاد الدرجات . ونذكر الآن جملها ومصادرها فنقول جميع آداب المحتسب مصدرها ثلاث صفات في المحتسب : العلم . والورع . وحسن الخلق .

أما العلم : فليعلم مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقصر على حد الشرع فيه .
والورع : ليردعه عن مخالفة معلومة فما كل من علم عمل بعله . بل ربما يعلم أنه مسرف في الحسبة وزائد على الحد المأذون فيه شرعاً ولكن يحمله عليه غرض من الأغراض . وليكن كلامه ووعظه مقبولاً فإن الفاسق يهزأ به إذا احتسب ويورث ذلك جراءة عليه .

وأما حسن الخلق : فليستمكن به من اللطف والرفق وهو أصل الباب وأسبابه . والعلم والورع لا يكتفيان فيه . فإن الغضب إذا هاج لم يكف بمجرد العلم والورع في قمع ما لم يكن في الطبع قبوله بحسن الخلق . وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق والقدرة على ضبط الشهوة والغضب . وبه يصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله . وإلا فإذا أصيب عرضه أو ماله أو نفسه بشتم أو ضرب نسي الحسبة وغفل عن دين الله واشتغل بنفسه . بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم .

فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات وبها تندفع المنكرات . وإن فقدت لم يندفع المنكر . بل ربما كانت الحسبة أيضاً منكراً لمجازة حد الشرع فيها ودل على هذه الآداب قوله صلى الله عليه وسلم « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه حلیم فيما يأمر به حلیم فيما ينهى عنه فقيه

فيما يأمر به فقيه فيما ينهى عنه ^(١) ، وهذا يدل على أنه لا يشترط أن يكون فقيها مطلقا بل فيما يأمر به وينهى عنه وكذا الحلم . قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : إذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به وإلا هلك وقد قيل :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأنت مثله فإنما يرمى على عقله

ولسنا نغني بهذا أن الأمر بالمعروف يصير ممنوعا بالفسق ولكن يسقط أثره عن القلوب بظهور فسقه للناس . فقد روى عن أنس رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نجتنبه كله . فقال صلى الله عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله ^(٢) ، وأوصى بعض السلف بنبيه فقال : إن أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطن نفسه على الصبر وليثق بالثواب من الله فمن وثق بالثواب من الله لم يجد مس الأذى ، فإذن من آداب الحسبة توطئ النفس على الصبر . ولذلك قرن الله تعالى الصبر : بالأمر بالمعروف . فقال حاكيا عن لقمان ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾ .

ومن الآداب تقليل العلائق حتى لا يكثر خوفه وقطع الطمع عن الخلائق حتى تزول عنه المداينة فقد روى عن بعض المشايخ أنه كان له سنور وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئا من الغدد لسنوره فرأى على القصاب منكرا ، فدخل الدار أولا وأخرج السنور ، ثم جاء واحتسب على القصاب فقال له القصاب : لا أعطيتك بعد هذا شيئا لسنورك ، فقال : ما احتسبت عليك إلا بعد إخراج السنور وقطع الطمع منك . وهو كما قال فمن لم يقطع الطمع من الخلق لم يقدر على الحسبة ومن طمع في أن تكون قلوب الناس عليه طيبة وألسنتهم بالشاء عليه مطلقة لم تيسر له الحسبة . قال كعب الأحبار لأبي مسلم الخولاني : كيف منزلتك بين قومك ؟ قال : حسنة ، قال : إن التوراة تقول ، إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه . فقال أبو مسلم : صدقت التوراة وكذب أبو مسلم .

ويدل على وجوب الرفق ما استدلل به المسلمون إذ وعظه واعظ وعنف له في القول فقال : يارجل ارفق فقد بحث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق فقال تعالى ﴿ فقولوا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ فليكن اقتداء المحتسب في الرفق بالأنبياء صلوات الله عليهم . فقد روى أبو أمامة : أن غلاما شابا أتى النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يانبي الله تأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : قزبوه ادن ، فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أتجبه لأملك ؟ ، فقال : لاجعاني الله فذاك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم أتجبه لأبنتك ؟ ، قال : لاجعاني الله فذاك ، قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم أتجبه لأختك ؟ ^(٣) ، وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول في كل واحد : لا ،

(١) حديث « لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه ... الحديث » لم أجده هكذا ولا يهتق في الشعب من روايته عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

(٢) حديث أنس : قلنا يا رسول الله لا تأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ولا تنهى عن المنكر حتى نجتنبه كله ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله وانها عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله » أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط وفيه عبد القدوس بن حبيب أجمعوا على تركه . (٣) حديث أبي أمامة : أن شابا قال : يا رسول الله أئذن لي في الزنا فصاح الناس به ... الحديث . رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح .

جعلني الله فداك . وهو صلى الله عليه وسلم يقول : كذلك الناس لا يحبونه ، وقالوا جميعا في حديثهما أغنى ابن عوف والراوى الآخر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعنى من الزنا .

وقيل للفضيل بن عباض رحمه الله : إن سفيان بن عيينة قبل جوائز السلطان فقال الفضيل : ما أخذ منهم إلا دون حقه ، ثم خلا به وعذله ووبخه فقال سفيان : يا أبا على إن لم نكن من الصالحين فإننا لنحب الصالحين . وقال حماد بن سلمة : إن صلة بن أشيم مر عليه رجلا قد أسبل لإزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : يا ابن أخي إن لي إليك حاجة قال : وما حاجتك يا عم ؟ قال : أحب أن ترفع من إزارك . فقال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدة لقال : لا ولا كرامة وشتمكم . وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبدالله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا في طريقه غلام من قریش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربونه ، فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخي ، ثم قال : إلى يا ابن أخي ؛ فاستجى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معي ، فضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه : بيته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستجى منه وبكى وهم بالانصراف ؛ فقال الغلام : قد أمر أن تأتيه ؛ فأدخله عليه فقال له . أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فائق الله وانزع عما أنت فيه فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة أني لأعود لشرب النبيذ ولا شيء مما كنت فيه وأنا تائب ، فقال : ادن مني ، فقبل رأسه وقال أحسنت يا بني فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث : وكان ذلك ببركة رفقته ثم قال : إن الناس يأمرسون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تتلون به ما تطلبون . وعن الفتح بن شحرف قال : تعلق رجل بامرأة وتعرض لها وبيده سكين لا يدنو منه أحد إلا عقره ، وكان الرجل شديد البدن ؛ فبينما الناس كذلك والمرأة تصيح في يده إذ مر بشر بن الحارث فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل فوقع الرجل على الأرض ؛ ومشى بشر فدنا من الرجل وهو يترشح عرقا كثيرا ومضت المرأة لحالها فسألوه ما حالك ؟ فقال : ما أدري ؛ ولكن حاكني شيخ وقال لي : إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل ؛ فضغفت لقوله قدمي وهبته هيبة شديدة ولا أدري من ذلك الرجل ؟ فقالوا له : هو بشر بن الحارث ، فقال : واسوأناه كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟ وحمل الرجل من يومه ومات يوم السابع ، فكذا كانت عادة أهل الدين في الحسبة . وقد نقلنا فيها آثارا وأخبارا في باب البغض في الله والحب في الله من كتاب آداب الصحبة فلا نطول بالإعادة . فهذا تمام النظر في درجات الحسبة وآدابها والله الموفق بكرمه والحمد لله على جميع نعمه .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة في العادات

فنشير إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها إذ لا مطمع في حصرها واستقصائها
فن ذلك منكرات المساجد

أعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة وإلى محظورة ، فإذا قلنا : هذا منكر مكروه . فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه وليس بجرام ، إلا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له لأن الكراهة حكم في الشرع

يجب تبليغه إلى من لا يعرفه . وإذا قلنا منكر محظور ، أوقلنا منكر مطلقا ، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظورا .

فما يشاهد كثيرا في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث فيجب النهي عنه إلا عند الحنفي الذي يعتقد أن ذلك لا يمنع صحة الصلاة ، إذ لا ينفع النهي معه . ومن رأى مسيئا في صلاته فسكت عليه فهو شريكه . هكذا ورد به الأثر . وفي الخبر ما يدل عليه ، إذ ورد في الغيبة أن المستمع شريك القائل ^(١) وكذلك كل ما يقدر في صحة الصلاة من نجاسة على ثوبه لا يراها ، أو انحراف عن القبلة بسبب ظلام أو غمى فمكل ذلك تجب الحسبة فيه .

ومنها قراءة القرآن باللحن يجب النهي عنه ويجب تلقين الصحيح . فإن كان المعتكف في المسجد يضعف أكثر أوقاته في أمثال ذلك ويشغل به عن التطوع والذكر فليشتغل به ، فإن هذا أفضل له من ذكره وتطوعه ، لأن هذا فرض وهي قرينة تتعدى فائدتها ، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه فائدتها . وإن كان ذلك يمنعه عن الورقة مثلا أو عن الكسب الذي هو طعمته ، فإن كان معه مقدار كفايته لزمه الاشتغال بذلك ولم يحز له ترك الحسبة لطلب زيادة الدنيا ، وإن احتاج إلى الكسب لقوت يومه فهو عذر له فيسقط الوجوب عنه لعجزه . والذي يكسر اللحن في القرآن إن كان قادرا على التعلم فليمتنع من القراءة قبل التعلم فإنه عاص به ، وإن كان لا يطاوعه اللسان فإن كان أكثر ما يقرؤه لحنًا فليتركه وليجتهد في تعلم الفاتحة وتصحيحها ، وإن كان الأكثر صحيحاً وليس يقدر على التسوية فلا بأس له أن يقرأ ، ولكن ينبغي أن يخفف به الصوت حتى لا يسمع غيره . ولنعه سرامنه أيضاً وجه ولكن إذا كان ذلك منتهى قدرته وكان له أنس بالقراءة وحرص عليها فلست أرى به بأساً والله أعلم .

ومنها تراسل المؤذنين في الأذان وتطويلهم بمد كلماته وانحرافهم عن صوب القبلة بجميع الصدر في الحيعلتين ، أو انفراد كل واحد منهم بأذان ولكن من غير توقف إلى انقطاع أذان الآخر ، بحيث يضطرب على الحاضرين جواب الأذان لتداخل الأصوات . فكل ذلك منكرات مكروهة يجب تعريفها . فإن صدرت عن معرفة فيستحب المنع منها والحسبة فيها . وكذلك إذا كان للمسجد مؤذن واحد وهو يؤذن قبل الصبح فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح ، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس إلا إذا عرف أنه يؤذن قبل الصبح حتى لا يعول على أذانه في صلاة وترك سحور ، أو كان معه مؤذن آخر معروف الصوت يؤذن مع الصبح .

ومن المكروهات أيضا تكثير الأذان مرة بعد أخرى بعد طلوع الفجر في مسجد واحد في أوقات متعاقبة متقاربة ، إماماً واحداً أو جماعة ، فإنه لا فائدة فيه ، إذا لم يبق في المسجد نائم ولم يكن الصوت مما يخرج عن المسجد حتى يذبه غيره فكل ذلك من المكروهات المخالفة لسنة الصحابة والسلف .

ومنها أن يكون الخطيب لابسا ثوب أسود يغلب عليه الإبريسم ، أو ممسكا لسيف مذهب فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وأما مجرد السواد فليس بمكروه لكنه ليس بمحبوب إذ أحب الثياب إلى الله تعالى البيض . ومن قال إنه مكروه وبدعة أراد به أنه لم يكن معهودا في العصر الأول ، ولكن إذا لم يرد فيه نهى فلا ينبغي أن يسمى بدعة ومكروها ولكنه ترك للأحب .

الباب الثالث : في المنكرات المألوفة

(١) حديث « المتتاب والمستمع شريكان في الإثم » تقدم في الصوم .

ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدعة . فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والإنكار عليه واجب ، وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه إلا على قصد إظهار الرد عليه ؛ إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواله فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع . قال الله تعالى لئنبيّه ﴿ فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ومهما كان كلامه مائلا إلى الإرجاء وتجربة الناس على المعاصي ، وكان الناس يرددون بكلامه جراءة وبعفو الله وبرحمته وثوقا يزيد بسببه رجائهم على خوفهم فهو منكر ، ويجب منعه عنه لأن فساد ذلك عظيم ، بل لو رجح خوفهم على رجائهم فذلك أليق وأقرب بطباع الخلق فإنهم إلى الخوف أحوج وإنما العدل تعديل الخوف والرجاء كما قال عمر رضي الله عنه : لو نادى مناد يوم القيامة : ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نادى مناد : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لحفت أن أكون أنا ذلك الرجل . ومهما كان الواعظ شابا متزينا للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والإشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه ، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح ، ويتبين ذلك منه بقرائن أحواله ، بل لا ينبغي أن يسلم الواعظ إلا لمن ظاهره الورع وهيئته السكينة والوقار وزيه زى الصالحين ، وإلا فلا يزداد الناس به إلا تماديا في الضلال . ويجب أن يضرب ببر الرجال والنساء حائل يمنع من النظر فإن ذلك أيضاً مظنة الفساد ، والعادات تشهد لهذه المنكرات ، ويجب منع النساء من حضور المساجد للصلوات ومجالس الذكر إذا خيفت الفتنة بهن فقد منعهن عائشة رضي الله عنها فقيل لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنه من الجماعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن بعده لمنعهن ^(١) وأما اجتياز المرأة في المسجد مستترة فلا تمنع منه إلا أن الأولى أن لا تتخذ المسجد مجازاً أصلاً . وقراءة القراء بين يدي الوعاظ مع التدبير والالخان على وجه يغير نظم القرآن ، ويجاوز حد التنزيل منكر مكروه شديد الكراهة أنكره جماعة من السلف .

ومنها الخلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات ، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه ، فهذه الأشياء منها ما هو محرم لكونه تلبيسا وكذبا ، كالكذابين من طريقة الأطباء وكأهل الشعبة والتلبيسات وكذا أرباب التعويذات في الأغلب يتوصلون إلى بيعها بتلبيسات على الصبيان والسوداء فهذا حرام في المسجد وخارج المسجد ويجب المنع منه . بل كل بيع فيه كذب وتلبيس وإخفاء عيب على المشتري فهو حرام .

ومنها ما هو مباح خارج المسجد كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة ، فهذا في المسجد أيضا لا يحرم إلا بعارض وهو أن يضيق المحل على المصلين ويشوش عليهم صلاتهم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليس بحرام والأولى تركه ولكن شرط لإباحته أن يجري في أوقات نادرة وأيام معدودة ، فإن اتخذ المسجد دكانا على الدوام حرم ذلك ومنع منه . فمن المباحات ما يباح بشرط القلة فإن كثرت صار صغيرة . كما أن من الذنوب ما يكون صغيرة بشرط عدم الإصرار فإن كان القليل من هذا لو فتح بابه لحيف منه أن ينجر إلى الكثير فليمنع منه ، وليكن هذا المنع إلى الوالي أو إلى القيم بمصالح المسجد من قبل الوالي لأنه لا يدرك ذلك بالاجتهاد ، وليس للأحاد المنع مما هو مباح في نفسه لخوفه أن ذلك يكثر .

(١) حديث عائشة : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدثن من بعده لمنعهن المساجد . متفق عليه . (٤٣ — ٤٤ — ٤٥ — ٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥٠ — ٥١ — ٥٢ — ٥٣)

ومنها دخول المجانين والصبيان والسكران في المسجد ، ولا بأس بدخول الصبي المسجد إذا لم يلعب ، ولا يحرم عليه اللعب في المسجد ولا السكوت على لعبه إلا إذا اتخذ المسجد ملعباً وصار ذلك معتاداً فيجب المنع منه ، فهذا مما يحل قليله دون كثيره ، ودليل حل قليله ما روى في الصحيحين « أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقف لأجل عائشة رضي الله عنها حتى نظرت إلى الحبشة يزفون ويلعبون بالدرق والحراب يوم العيد في المسجد ، ولا شك في أن الحبشة لو اتخذوا المسجد ملعباً لمنعوا منه ، ولم ير ذلك على الندرة والقلة منكرأ حتى نظر إليه ، بل أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبصرهم عائشة تطيبها لقلبها إذ قال دونكم « يابني أرفدة ، كما نقلناه في كتاب السماع . وأما المجانين فلا بأس بدخولهم المسجد إلا أن يخشى تلويثهم له ، أو شتمهم أو نطقهم بما هو خش ، أو تعاطيهم لما هو منكر في صورته ككشف العورة وغيره . وأما المجنون الهادئ الساكن الذي قد علم بالعادة سكونه وسكوته فلا يجب إخراجه من المسجد . والسكران في معنى المجنون فإن خيف منه القذف - أعنى القىء - أو الإيذاء باللسان وجب إخراجه . وكذا لو كان مضطرب العقل فإنه يخاف ذلك منه ، وإن كان قد شرب ولم يسكر والرائحة منه تفوح فهو منكر مكروه شديد الكراهة . وكيف لا ومن أكل الثوم والبصل (*) فقد نهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حضور المساجد ؟ ولكن يحمل ذلك على الكراهة والأمر في الخبر أشد .

هـ فإن قال قائل : ينبغى أن يضرب السكران ويخرج من المسجد زجراً قلنا : لا ، بل ينبغى القعود في المسجد ويدعى إليه ويؤمر بترك الشرب مهما كان في الحال عاقلاً ، فأما ضربه للزجر فليس ذلك إلى الأحاد بل هو إلى الولاة وذلك عند إقراره أو شهادة شاهدين ، فاما لمجرد الرائحة فلا . نعم إذا كان يمشى بين الناس متايلاً بحيث يعرف سكره فيجوز ضربه في المسجد وغير المسجد منعاً له عن إظهار أثر السكر ، فإن إظهار أثر الفاحشة فاحشة والمعاصي يجب تركها ، وبعد الفعل يجب سترها وستر آثارها ، فإن كان مستتراً مخفياً لأثره فلا يجوز أن يتجسس عليه . والرائحة قد تفوح من غير شرب ، بالجلوس في موضع الخمر وبوصوله إلى الفم دون الابتلاع ، فلا ينبغى أن يعول عليه .

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المراجعة ، وإخفاء العيب . فمن قال : اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأرجح فيها كذا وكان كاذباً فهو فاسق . وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه ، فإن سكنت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته . وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه وإلا كان راضياً بضيايع مال أخيه المسلم وهو حرام وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيره .

ومنها ترك الإيجاب والقبول والاكتفاء بالمعاطاة ، ولكن ذلك في محل الاجتهاد فلا ينكر إلا على من اعتقد وجوبه . وكذا في الشروط الفاسدة المعتادة بين الناس يجب الإنكار فيها فإنها مفسدة للعقود . وكذا في الرويات كلها وهي غالبية . وكذا سائر التصرفات الفاسدة .

ومنها بيع الملامى وبيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الصبيان ، فذلك يجب كسرها والمنع من بيعها كالملاهي وكذلك بيع الآواني المتخذة من الذهب والفضة وكذلك بيع ثياب الحرير ، وقلانس

(*) هذا الحديث لم يخرج في العراق وقد أخرجه الشارح عن البخاري ومسلم وغيرهما

الذهب والحرير أعنى التي لاتصلح إلا للرجال . أو يعلم بعادة البلد أنه لا يلبسه إلا الرجال ، فكل ذلك منكر محظور وكذلك من يعتاد بيع الثياب المبتذلة المقصورة التي يلبس على الناس بقصارتها وابتذالها ويزعم أنها جديدة فهذا الفعل حرام والمنع منه واجب . وكذلك تلبس انخراق الثياب بالرغو وما يؤدي إلى الالتباس . وكذلك جميع أنواع العقود المؤدية إلى التلبسات وذلك يطول إحصاؤه . فليقتس بما ذكرناه ما لم نذكره .

منكرات الشوارع

فن المنكرات المعتادة فيها : وضع الاسطوانات ، وبناء الدكاك متصلة بالابنية المملوكة . وغرس الاشجار ، وإخراج الرواشن والأجنحة ، ووضع الخشب وأحمال الجيوب والأطعمة على الطرق ، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضيق الطرق واستضرار المسارة وإن لم يؤدي إلى ضرر أصلا لسعة الطريق فلا يمنع منه نعم يجوز وضع الخطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت ، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة ولا يمكن المنع منه . وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المجتازين منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب . وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة والمرعى هو الحاجة التي ترد الشوارع لأجلها في العادة دون سائر الحاجات .

ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس فذلك منكر إن أمكن شدتها وضيقها بحيث لا تمرق ، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع ، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك . نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل . وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع الملاك منه . وكذلك ذبح القصاب إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت ويلوث الطريق بالدم فإنه منكر يمنع منه ، بل حقه أن يتخذ في مكانه مذبحا فإن في ذلك تضيقا بالطريق وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة ، وبسبب استنقار الطباع للقاذورات ، وكذلك طرح القمامة على جواد الطرف ، وتبديد قشور البطيخ . أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعثر كل ذلك من المنكرات وكذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط في الطريق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب . أو يضيق الطريق ، فلا يمنع منه في الطرق الواسعة إذ العدول عنه ممكن فأما ترك مياه المطر والأحوال والثلوج في الطرق من غير كسح فذلك منكر ، ولكن ليس يختص به شخص معين ، إلا الثلج الذي يختص بطرحه على الطريق واحد ، والماء الذي يجتمع على الطريق من ميزاب معين ، فعلى صاحبه على الخصوص كسح الطريق ، إن كان من المطر فذلك حسبة عامة فعلى الولاة تكليف الناس القيام بها ، وليس للأحاد فيها إلا الوعظ فقط وكذلك إذا كان له كلب عقور على باب داره يؤدي الناس فيجب منعه منه ، وإن كان لا يؤدي إلا بتنجيس الطريق وكان يمكن الاحتراز عن نجاسته لم يمنع منه ، وإن كان يضيق الطريق ببسطه ذراعيه فيمنع منه ، بل يمنع صاحبه من أن ينام على الطريق أو يقعد قعودا يضيق الطريق ، فكلبه أولى بالمنع .

منكرات الحمامات

منها الصورة التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام يجب إزالتها على كل من يدخلها إن قدر ، فإن كان الموضع مرتفعاً لاتصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة فليعدل إلى حمام آخر . فإن مشاهدة المنكر غير جائزة وبكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان .

ومنها كشف العورات والنظر إليها . ومن جملتها كشف الدلاك عن الفخذ وماتحت السرة لتنحية الوسخ بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها .

ومنها الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغميز الألفاظ والآجواز ، فهذا مكروه إن كان مع حائل ولكن لا يكون محظورا إذا لم يخش من حركة الشهوة . وكذلك كشف العورة للحجاء الذي من الفواحش . فإن المرأة لا يجوز لها أن تكشف بدنها للذمية في الحمام فكيف يجوز لها كشف العورات للرجال ؟

ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة ، وغسل الإزار والطاس النجس في الحوض وماؤه قليل ؛ فإنه منجس للماء ، إلا على مذهب مالك فلا يجوز الإنكار فيه على المالكية ويجوز على الحنفية والشافعية وإن اجتمع المالكي وشافعي في الحمام فليس للشافعي منع المالك من ذلك إلا بطريق الالتباس واللفظ ؛ وهو أن يقول له : إنا نحتاج أن نغسل اليد أولا ثم نغمسها في الماء ، وأما أنت فستغنى عن إيذائي وتفويت الطهارة على ، وما يجري مجرى هذا ، فإن مظان الاجتهاد لا يمكن الحسبة فيها بالقهر .

ومنها أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزقة يزلق عليها الغافلون فهذا منكر ، ويجب قلعه وإزالته وينكر على الحامي إهماله فإنه يفضي إلى السقطة ؛ وقد تؤدي السقطة إلى انكسار عضو أو انحلاعه وكذلك ترك الصدر والصابون المزلق على أرض الحمام منكر ؛ ومن فعل ذلك وخرج وتركه فزلق به لإنسان وانكسر عضو من أعضائه ، وكان ذلك في موضع لا يظهر فيه بحيث يتعذر الاحتراز عنه فالضمان متردد بين الذي تركه وبين الحامي ، إذ حقه تنظيف الحمام ، والوجه لإيجاب الضمان على تاركه في اليوم الأول ، وعلى الحامي في اليوم الثاني إذ عادة تنظيف الحمام كل يوم معتادة ، والرجوع في مواقيت إعادة التنظيف إلى العادات ، فليعتبر بها . وفي الحمام أمور آخر مكروهة ذكرناها في كتاب الطهارة فلتنظر هناك .

منكرات الضيافة

فنها فرش الحرير للرجال فهو حرام . وكذلك تبخير البخور في بحيرة فضة أو ذهب ، أو الشراب أو استعمال ماء الورد في أواني الفضة أو ما رموسها من فضة .

ومنها إسدال الستور وعليها الصور .

ومنها سماع الأوتار أو سماع القينات .

ومنها اجتماع النساء على السطوح للنظر إلى الرجال مهما كان في الرجال شباب يخاف الفتنة منهم ، فكل ذلك محظور منكر يجب تغييره . ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج ، ومن لم يحز له الجلوس فلا رخصة له في الجلوس في مشاهدة المنكرات . وأما الصور التي على النمارق والزرابي المفروشة فليس منكر . وكذلك على الأطباق والقصاصع ، لا الأواني المتخذة على شكل الصور ، فقد تكون رموس بعض الجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار الصورة منه . وفي المسكحة الصغيرة من الفضة خلاف ، وقد خرج أحمد بن حنبل عن الضيافة بسببها . ومهما كان الطعام حراما ، أركان الموضع مغصوبا أو كانت الثياب المفروشة حراما فهو من أشد المنكرات ، فإن كان من فيها من يتعاطى شرب الخمر وحده فلا يجوز الحضور ، إذ لا يحل حضور مجالس الشرب وإن كان مع ترك الشرب ، ولا يجوز مجالسة الفاسق في حالة مباشرته للفسق ، وإنما النظر في مجالسته بعد ذلك ، وأنه هل يجب بغضه في الله ومقاطعته كما ذكرناه في باب الحب والبغض في الله ؟ وكذلك إن كان فيهم من يلبس الحرير أو خاتم الذهب فهو فاسق لا يجوز

الجلوس معه من غير ضروره . فإن كان الثوب على صبي غير بالغ فهذا في محل النظر . والصحيح أن ذلك منكرو ويجب نزع عنه إن كان ميمرا لعموم قوله عليه السلام ، هذان حرام على ذكور أمتي ^(١) ، وكما يجب منع الصبي من شرب الخمر - لالكونه مكلفاً ، لكن لأنه يأنس به ، فإذا بلغ عسر عليه الصبر عنه - فكذلك شهوة التزين بالحرير تغلب عليه إذا اعتاده ، فيكون ذلك بذرا للفساد يبذر في صدره ، فتثبت منه شجرة من الشهوة راسخة يعسر قلعها بعد البلوغ . أما الصبي الذي لا يميز فيضعف معنى التحريم في حقه ولا يخلو عن احتمال والعلم عند الله فيه والمجنون في معنى الصبي الذي لا يميز ، نعم يحل التزين بالذهب والحرير للنساء من غير إسراف . ولأرى رخصة في تثقيب أذن الصبية لأجل تعليل حلق الذهب فيها ، فإن هذا جرح مؤلم ومثله موجب للقصاص فلا يجوز إلا الحاجة مهمة كالقصد والحجامة والختان : والتزين بالخلق غير مهم بل في التقريب بتعليقه على الأذن وفي المخاق والأسورة كفاية عنه . فهذا وإن كان معتادا فهو حرام والمنع منه واجب ، والاستتجار عليه غير صحيح ، والأجرة المأخوذة عليه حرام ؛ إلا أن يثبت من جهة النقل فيه رخصة ، ولم يبلغنا إلى الآن فيه رخصة .

ومنها أن يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته ، فيجوز الحضور لمن يقدر على الرد عليه على عزم الرد ؛ فإن كان لا يقدر عليه لم يجز فإن كان المبتدع لا يتكلم ببذعته فيجوز الحضور مع اظهار الكراهة عليه والاعراض عنه كما ذكرناه في باب البغض في الله . وإن كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور وعند الحضور يجب الإنكار عليه ، وإن كان ذلك بمنزلة لا كذب فيه ولا فحش فهو مباح - أعنى ما يقل منه - فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح . وكل كذب لا يخفى أنه كذب ولا يقصد به التلبيس فليس من جملة المنكرات ، كقول الإنسان مثلاً : طلبتك اليوم مائة مرة ، وأعدت عليك الكلام ألف مرة ؛ وما يجري مجراه مما يعلم أنه ليس يقصد به التحقيق فذلك لا يقدح في العدالة ولا ترد الشهادة به . وسيأتى حد المزاح المباح والكذب المباح في كتاب آفات اللسان من ربيع المهلكات .

ومنها الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر ، بل في المال منكران ؛ أحدهما . الإضاعة . والآخر : الإسراف . فالإضاعة : تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه ، وهدم البناء من غير غرض . والقاء المال في البحر ، وفي معناه صرف المال إلى النائحة والمطرب ، وفي أنواع الفساد لأنها فوائد محرمة شرعاً فصارت كالمعدومة .

وأما الإسراف : فقد يطلق لإرادة صرف المال إلى النائحة والمطرب والمنكرات ، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها ولكن مع المبالغة .

والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال فنقول : من لم يملك إلا مائة دينار مثلاً ومعه عياله وأولاده ولا معيشة لهم سواء فأنفق الجميع في .ولية فهو مسرف يجب منعه قال تعالى ﴿ ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوما محسورا ﴾ نزل هذا في رجل بالمدينة قسم جميع ماله ولم يبق شيئاً لعياله فطوب بالنفقة فلم يقدر على شيء وقال تعالى ﴿ ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ وكذلك قال عز وجل ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ فمن يسرف هذا الإسراف ينكر عليه ويجب على القاضي أن يحجر عليه ؛ إلا إذا كان الرجل وحده وكان له قوة في التوكل صادقة ؛ فله أن ينفق جميع ماله في أبواب البر . ومن له عيال أو كان عاجزاً عن التوكل فليس له أن يتصدق

(١) حديث « هذا حرامان على ذكور أمتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث علي وقد تقدم في الباب الرابع من آداب الأكل .

بجميع ماله . وكذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزيين بنيانه فهو أيضا إسراف محرم ، وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس بحرام لأن التزيين من الأغراض الصحيحة ، ولم تزل المساجد تزين وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه إلا مجرد الزينة ، فكذا الدور ، وكذلك القول في التجميل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه ، ويصير إسرافا باعتبار حال الرجل وثروته : وأمثال هذه المنكرات كثيرة لا يمكن حصرها . ففس بهذه المنكرات المجامع ومجالس القضاة ودواوين السلاطين ومدارس الفقهاء ورباطات الصوفية وخانات الأسواق فلا تخلو بقعة عن منكر مكروه أو محذور ، واستقصاء جميع المنكرات يستدعى استيعاب جميع تفاصيل الشرع أصولها وفروعها فلنقتصر على هذا القدر منها .

المنكرات العامة

اعلم أن كل قاعد في بيته - أينما كان - فليس خاليا في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف ، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبادي ؟ ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية وسائر أصناف الخلق ، وواجب أن يكون في مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم وكذا في كل قرية وواجب على كل فقيه - فرع من فرض عينه وتفرغ لفرض الكفاية - أن يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم ، ويستصحب مع نفسه زادا يأكله ولا يأكل من أطعمتهم فإن أكثرها مغصوب ، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الآخرين وإلا عم الحرج السكافة أجمعين .

أما العالم فلتقصيره في الخروج . وأما الجاهل فلتقصيره في ترك التعلم .

وكل عامى عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم . ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع وإنما يجب التبليغ على أهل العلم ، فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها . ولعمري الإثم على الفقهاء أشد لأن قدرتهم فيه أظهر وهو بصناعتهم أليق : لأن المحترفين لو تركوا حرفتهم لبطلت المعاش فهم قد تقلدوا أمرا لا بد منه في صلاح الخلق . وشأن الفقيه وحرفته تبليغ ما بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن العلماء هم ورثة الأنبياء . والإنسان أن يقعد في بيته ولا يخرج إلى المسجد لأنه يرى الناس لا يحسنون الصلاة ، بل إذا علم ذلك وجب عليه الخروج للتعليم والنهي . وكذا كل من تيقن أن في السوق منكرًا يجرى على الدوام أوفى وقت بعينه وهو قادر على تغييره فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت ، بل يلزمه الخروج ، فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محتزم عن مشاهدته ويقدر على البعض لزمه الخروج ، لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة ما لا يقدر عليه ، وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح لحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصاحبا بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ، ثم يعلم ذلك أهل بيته ، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه ، ثم إلى أهل محله ، ثم إلى أهل بلده ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ، ثم إلى أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم ، وهكذا إلى أقصى العالم ، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد ولا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أو بعيدا ، ولا يسقط الحرج مادام بقي على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه ، وهذا شغل شاغل لمن يعمه أردينه يشغله عن تجزئة الأوقات في التفرعات النادرة والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات ولا يتقدم على هذا إلا فرض عين أو فرض كفاية هو أهم منه .

الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر

قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وأن أوله التعريف ، وثانيه والوعظ ، وثالثه التخشين في القول ، ورابعه المنع بالقهر في الفعل على الحق بالضرب والعقوبة . والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرقبتيان الأوليان وهما : التعريف والوعظ . وأما المنع بالقهر فليس ذلك لأحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ، ويكون ما يتولد منه من المحذور أكثر ، وأما التخشين في القول كقوله : يا ظالم يا من لا يخاف الله وما يجري مجراه فذلك إن كان يحرك فتنة يتعدى شرها إلى غيره لم يحز ، وإن كان لا يخاف إلا على نفسه فهو جائز بل مندوب إليه . فلقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالإنكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لأنواع العذاب لعلهم بأن ذلك شهادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك ^(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ^(٢) ، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لأثم وتركه قوله الحق ماله من صديق ^(٣) ، ولما علم المتصلبون في الدين أن أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر ، وأن صاحب ذلك إذا قتل فهو شهيد كما وردت به الأخبار ، قدموا على ذلك . ووطنين أنفسهم على الهلاك ومحتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله . وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل علماء السلف ، وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين في كتاب الحلال والحرام ، ونقتصر الآن على حكايات يعرف وجه الوعظ وكيفية الإنكار عليهم .

فنها ماروى من إنكار أبي بكر الصديق رضى الله عنه على أكابر قريش حين قصدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء . وذلك ماروى عن عروة رضى الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عدواته : فقال : حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحجر فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : مارأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل سفه أحلامنا وشم أبائنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول قال فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه عليه السلام ثم مضى ، فرمى بهم الثالثة فغمزوه بمثلها حتى وقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش : أما والذي نفس محمد بيده نقد جثثكم بالذبح ، قال : فأطرق القوم حتى مامتهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك ليرفوة بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف

الباب الرابع: في أمر الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

(١) حديث : خير الشهداء حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى رجل فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك « أخرجه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الإسناد وتقدم في الباب قبله » (٢) حديث : أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر « تقدم (٣) حديث : وصفه صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بأنه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لأثم تركه قوله الحق ماله من صديق . أخرجه الترمذي بسند ضعيف مقتصر على آخر الحديث من حديث علي : رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق ماله من صديق . وأما أول الحديث فرواه الطبراني لأن عمر قال لكعب الأخبار كيف نجد نعتي ؟ قال : أجد نعتك قرنا من حديد قال . وما قرن من حديد ؟ قال : أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لأثم .

يا أبا القاسم راشدا فوالله ما كنت جهولا قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بدأكم بماتكروهن تركتموه ؛ فينبأهم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا ؟ أنت الذي تقول كذا ؟ لما كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم أنا الذي أقول ذلك ، قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجامع رداءه قال : وقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه دونه يقول - وهو يبكي - ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه وإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه ^(١) وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه في عنقه فخفقه خفقا شديدا فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ^(٢) ؟ وروى أن معاوية رضي الله عنه حبس العطاء فقام إليه أبو مسلم الخولاني فقال له : يا معاوية إنه ليس من كذا ولا من كذا أبوك ولا من كذا أمك . قال : فغضب معاوية ونزل عن المنبر وقال لهم : مكانكم ! وغاب عن أعينهم ساعة ثم خرج عليهم وقد اغتسل فقال : إن أبا مسلم كلني بكلام أغضبني وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الغضب من الشيطان والشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل ^(٣) ، وإني دخلت فاعتسلت وصدق أبو مسلم أنه ليس من كذا ولا من كذا أبي فهلوا إلى عطائكم . وروى عن ضبة بن محسن العنزي قال كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر رضي الله عنه قال : فغاضني ذلك منه ، فقممت إليه فقلت له : أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إلى عمر يشكوني يقول : إن ضبة بن محسن العنزي يتعرض لي في خطبتي . فكتب إليه عمر : أن أشخصه إلى . قال : فأشخصني إليه فقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا ضبة فقال لي : لا مرحبا ولا أهلا ، قلت : أما المرحب فمن الله ، وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال ، فبأذا استحللت يا عمر إشخاصي من مصرى بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيت به ؟ فقال : ما الذي شجر بينك وبين عاملي ؟ قال : قلت الآن أخبرك به ، إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنشأ يدعو لك فغاضني ذلك منه فقممت إليه فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟ فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكوني . قال : فاندفع عمر رضي الله عنه باشيا وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد ، فهل أنت غافر لي ذنبي يغفر الله لك ؟ قال : قلت غفر الله لك يا أمير المؤمنين . قال : ثم اندفع باشيا وهو يقول : والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بليته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال :

أما الليلة : فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من أفعالك ، فقال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب

(١) حديث : عروة قلت لعبد الله بن عمرو ما أكثر ما رأيت قريشا نالت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ... الحديث . أخرجه بطوله البخاري مختصرا وابن حبان تمامه (٢) حديث عبد الله بن عمرو : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث رواه البخاري . (٣) حديث معاوية : الغضب من الشيطان ... الحديث ، وفي أوله قصة رواء أبو نعيم في الحلية وفيه من لأعرفه .

فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك . قال : فشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ؛ فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك ، قال : فدخل فلم يرفيه شيئا فحمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه ، وجعلان يضربن أبا بكر في قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلته .

وأما يومه فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نركى فأتيته لا آله نصحا فقلت : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم . فقال لي : أجبنا في الجاهلية خوار في الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟ قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحي فوالله لو منعوني عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، قال : فقاتلنا عليه فكان والله رشيدا لأمر . فهذا يومه . ثم كتب إلى أبي موسى يلومه ^(١) .

وعن الأصمعي قال : دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان - وهو جالس على سريرته وحواليه الأشراف من كل بطن وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته - فلما بصر به قام إليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة ، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس ، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم ، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق بابك دونهم . فقال له : أجل أفعل ، ثم نهض وقام . فقبض عليه عبد الملك فقال : يا أبا محمد إنما سألنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال : مالي إلى مخلوق حاجة . ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف ! وقد روى أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما : قف على الباب فإذا مر بك رجل فأدخله على ليحدثني . فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال له : يا شيخ أدخل إلى أمير المؤمنين فإنه أمر بذلك ؛ فدخل عطاء على الوليد وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال : السلام عليك يا وليد اقال : فغضب الوليد على حاجبه وقال له : ويلك أمرتك أن تدخل إلى رجلا يحدثني ويسامرني فأدخلت إلى رجلا لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي . فقال له حاجبه : ما مررت أحد غيره ، ثم قال لعطاء : اجلس ، ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له : بلغنا أن في جهنم واديا يقال له ههب أعده الله لكل إمام جائر في حكمه . فصعق الوليد من قوله ، وكان جالسا بين يدي عتبة باب المجلس فوقع على قفاه إلى جوف المجلس مغشيا عليه ؛ فقال عمر لعطاء : قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع عمر ابن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له : يا عمر إن الأمر جد فجذ ، ثم قام عطاء وانصرف . فبلغنا عن عمر بن

(١) حديث ضبة بن محصن : كان علينا أبو موسى الأشعري أميرا بالبصرة وفيه من عمر أنه قال والله قليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك بيومه وأيلته ؟ فذكر ليلة الهجرة ويوم الردة بطوله رواه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد ضعيف هكذا وقصة الهجرة رواها البخاري من حديث عائشة بنير هذا السياق واتفق عليها الشيخان من حديث أبي بكر بلفظ آخر ولها من حديثه قال : قلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما . وأما قتاله لأهل الردة ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبي بكر كيف تقاتل الناس . . الحديث .

عبد العزيز رحمه الله أنه قال : مكثت سنة أجد ألم غمزته في ذراعي . وكان ابن أبي شميثة يوصف بالعقل والادب ؛ فدخل على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك : تسكلم ، قال : بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام تسكلم به المتكلم عليه وبال إلا ما كان لله ؟ فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله لم يزل الناس يتواضعون ويتواصون ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن الناس في القيامة لا ينجون من غصص مرارتها ومعاناة الردى فيها إلا من أرضى الله بسخط نفسه ؛ فبكى عبد الملك ثم قال : لا جرم لأجعلن هذه الكلمات مثالا فنصب عيني ما عشت . ويروى عن ابن عائشة أن الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ، ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل ، فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد إلى إلى ، ثم دعا بكرسى فوضع إلى جنب سريره فقعده عليه ؛ فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر على بن أبي طالب رضى الله عنه فقال منه ولمانا منه مقاربة له وفرقا من شره ، والحسن ساكت عاض على لسانه ؛ فقال : يا أبا سعيد مالي أراك ساكتا ؟ قال : ما عسيت أن أقول ؟ قال : أخبرني برأيك في أبي تراب ، قال : سمعت الله جل ذكره يقول ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ فعلى من هدى الله من أهل الإيمان ، فأقول : ابن عم النسي عليه السلام وختنه على ابنته وأحب الناس إليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله أن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه ولا يحول بينه وبينها . وأقول : إن كانت لعل هناة فآله حسبه والله ما أجد فيه قولا أعدل من هذا . فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير مغضبا فدخل بيتنا خلفه وخرجنا . قال عامر الشعبي : فأخذت بيد الحسن فقلت : يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره ، فقال : إليك عنى يا عامر ، يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة . أثبت شيطاننا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك يا عامر هلا اتقيت إن سئلت فصدقت ، أو سكت فسلمت ؟ قال عامر : يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها ، قال الحسن : فذاك أعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة . قال : وبعث الحجاج إلى الحسن فلما دخل عليه قال : أنت الذى تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال : نعم ، قال ماحملك على هذا ؟ قال : ما أخذ الله على العلماء من الموائيق ﴿ لبيدنه للناس ولا يكتمونه ﴾ قال يا حسن أمسك عليك لسانك وإياك أن يبلغنى عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . وحكى أن حطيطة الزيات جىء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال : أنت حطيطة ؟ قال : نعم ، سل عما بدا لك ، فإني عاهدت الله - عند المقام - على ثلاث خصال : إن سئلت لأصدقن ، وإن ابتليت لأصبرن ، وإن عوفيت لأشكرن . قال : فما تقول في ؟ قال : أقول إنك من أعداء الله في الأرض تلهتك المحارم وتقتل بالظنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول إنه أعظم جرما منك وإنما أنت خطيئة من خطاياهم . قال : فقال الحجاج ، ضعوا عليه العذاب . قال : فأنتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمسدون قصبه قصبه حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئا . قال : فقيل للحجاج إنه في آخر رمق فقال : أخرجوه فارموا به في السوق . قال جعفر : فأثبته أنا وصاحب له فقلنا له : حطيطة ألك حاجة ؟ قال : شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات ، وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمه الله عليه . وروى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام وقراؤها فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ، ثم أقبل على الحسن البصري فسأله ، ثم قال : هما هذان ، هذا رجل أهل الكوفة - يعنى الشعبي - وهذا رجل

أهل البصرة - يعنى الحسن - فأمر الحاجب فأخرج الناس وخلا بالشعب والحسن . فأقبل على الشعبي فقال : يا أبا عمرو إلى أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم مع النصيحة لهم ، وقد يبلغنى عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المسال ومن نيتى أن أردّه عليهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قد قبضته على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا إنفاذ كتابه ، وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة . فهل على في هذا تبعة وفى أشباهه من الأمور والنية فيها على ما ذكرت ؟ قال الشعبي : فقلت أصلح الله الأمير إنما السلطان والدي خطي ويصيب ، قال . فسر بقولى وأعجب به ورأيت البشر في وجهه وقال فله الحمد ، ثم أقبل على الحسن فقال : ما تقول يا أبا سعيد قال : قد سمعت قول الأمير يقول إنه أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية ولزمنى حقهم والنصيحة لهم والتعهد لما يصلحهم ، وحق الرعية لازم لك وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة وإلى سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة ^(١) ، ويقول : إلى ربما قبضت من عطائهم لإرادة صلاحهم واستصلاحهم وأن يرجعوا إلى طاعتهم ، فيبلغ أمير المؤمنين أنى قبضتها على ذلك النحو فيكتب إلى أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره ولا أستطيع إنفاذ كتابه ، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين والله أحق أن يطاع ولا طاعة لخلق في معصية الخالق ، فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه ؛ يا ابن هبيرة اتق الله فإنه يرشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك ؛ يا ابن هبيرة إن الله ليمنعك من يزيد ولا يمنعك يزيد من الله وإن أمر الله فوق كل أمر وإنه لا طاعة في معصية الله وإلى أحذرك بأسه الذى لا يرد عن القوم الجرمين . فقال ابن هبيرة : أربح على ظلمك أيها الشيخ وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين ؛ فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل وإنما ولاء الله تعالى ما ولاء من أمر هذه الأمة لعلمه به وما يعلمه من فضله ونيتة . فقال الحسن : يا ابن هبيرة ، الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد ، يا ابن هبيرة : إنك إن تلق من نصيح لك في دينك ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلق رجلا يفرك ويمنيك . فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه . قال الشعبي : فقلت يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته فقال : إليك عني يا عامر ، قال : فخرجت إلى الحسن التحف والطرف وكانت له المنزلة واستخف بنا وجفينا فكان أهلا لما أدى إليه وكنا أهلا أن يفعل ذلك بنا . فأرأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربى بين المقارف وما شهدنا مشهدا إلا برز علينا . وقال لله عز وجل وقلنا مقاربة لهم . قال عامر الشعبي : وأنا أعاهد الله أن لأشهد سلطانا بعد هذا المجلس فأحايه . ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة فقال له : ما تقول في القدر ؟ فقال : جيرانك أهل القبور فتفكر فيهم فإن فيهم شغلا عن القدر .

وعن الشافعى رضى الله عنه قال : حدثني عمى محمد بن على قال : إلى الحاضر مجلس أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور

(١) حديث الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة : من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة . رواء النبوى في معجم الصحابة باسناد لين وقد انفق عليه الشيخان بنحوه من رواية الحسن عن معقل بن يسار .

وفيه ابن أبي ذؤيب ، وكان والى المدينة الحسن بن زيد قال : فأتى الغفاريون فشكروا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن ابن زيد ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب قال : فسأله ، فقال : مات قول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ فقال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثير والأذى لهم . فقال أبو جعفر : قد سمعتم ، فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سل عن الحسن بن زيد . فقال : يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد ؟ فقال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه ، فقال : قد سمعت يا حسن ما قال فيك ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسأله عن نفسك . فقال : مات قول في ؟ قال : تعفيني يا أمير المؤمنين ، قال : أسألك بالله إلا أخبرني . قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني ، قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش . قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لولا أنى جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك ! قال : فقال ابن أبي ذؤيب يا أمير المؤمنين قد ولى أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسموا بالسوية وأخذوا بأقفاء فارس والروم وأصغروا آنا فهم ، قال : نخلى أبو جعفر قفصا وخلى سبيله وقال : والله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك ، فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إنى لأنصح لك من ابنك المهدي ، قال : فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري فقال له : يا أبا الحرث لقد سرني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن سامني قولك له ابنك المهدي ، فقال : يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدى كلنا كان في المهدي .

وعن الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته ، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة رد على واستجلسني ثم قال لي : ما الذى أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟ قال : قلت وما الذى تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخذ عنكم والاعتباس منكم ، قال : فقلت فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك ، قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك وأقدمت لك ؟ قال : قلت أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به ، قال : فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف فأنتهره المنصور وقال : هذا مجلس مشوبة لا مجلس عقوبة (١) فطابت نفسي وانبسطت في الكلام . فقلت : يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد بها إثما ويزداد الله بها سخطا عليه (٢) » ، يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة (٣) » ، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله . إن الله هو الحق المبين . إن الذى لين قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رءوفا رحيما مواسيا لهم بنفسه في ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق . وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ولعوراتهم سائرا . لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب . تبتجج بالنعمة عندهم . وتبتئس بما أصابهم من سوء . يا أمير

(١) حديث : الأوزاعي مع المنصور وموعظته له وذكر فيها عشرة أحاديث مرفوعة . والقصة بمجملتها رواها ابن الدنيا في كتاب مواظب الخلفاء ورويناها في مشيخة يوسف بن كامل الخفاف ومشيخة ابن طبرزد ، وفي إسنادها أحمد بن عبيد بن ناصح قال ابن عدى يحدث بمناكير وهو عندي من أهل الصدق وقد رأيت سرد الأحاديث المذكورة في الموعظة للذكر هل بعضها طريق غير هذا الطريق وليعرف صحابي كل حديث أو كونه مرسلًا فأولها (٢) حديث عطية بن بشر « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فإنها نعمة من الله ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا في مواظب الخلفاء (٣) حديث عطية بن ياسر « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وابن عدى في السكامل في ترجمة أحمد بن عبيد .

المؤمنين قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم - أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم - وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فقام وراءه فقام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له : يا محمد ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملاّت قلوبهم رعباً ^(١) ؟ فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرّب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيّهم الخوف منه ؟ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد عن حارثة عن حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً ولا متكبراً . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي فقال « اقتص مني » فقال الأعرابي : قد أحللتك ؛ بأبي أنت وأمي وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيت على نفسي . فدعا له بخير ^(٢) يا أمير المؤمنين رضى نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب في جنة عرضها السموات والأرض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها » ^(٣) ، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك . يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ قال الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فكيف بمأعملته الأيدي وحصدته الألسن ؟ يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لو ماتت سخلّة على شاطئ الفرات ضيعة لحشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك ؟ يا أمير المؤمنين أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ يادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ قال الله تعالى في الزبور : يادود إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلاح على صاحبه فأحوك عن نبوتك ثم لا تكون خلفتي ولا كرامة ، يادود إنما جعلت رسل إلى عبادى رعاء كرعاه الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليحبروا والكسيرو يدلووا الهزبل على الكلا والماء . يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والأرض والجبال لآيين أن يحملنه وأشفقن منه ، يا أمير المؤمنين حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الأنصارى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقبياً فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ؟ أما علمت أنّ لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله قال : لا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنه بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن وال يلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى به يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه لا يفكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسناً نجا

(١) حديث عروة بن رويم : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويروع بها المنافقين ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل وعروة ذكره ابن حبان في ثقات التابعين (٢) حديث حبيب بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابياً لم يتعمده ... الحديث . أخرجه ابن أبي الدنيا فيه ، وروى أبو داود والنسائي من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه . ولما كان من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه : طعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خاصرة أسيد بن حضير ، فقال أوجعتني قال اقتص .. الحديث . قال صحيح الإسناد (٣) حديث « لقيد قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها » أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية الأوزاعي معضلاً لم يذكر إسناده ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ « لغاب » .

بإحسانه وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوى به في النار سبعين خريفاً^(١) ، فقال له عمر رضي الله عنه عن سمعت هذا ؟ قال : من أبي ذر وسلمان فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : واعمرأه من يتولاها بما فيها ؟ فقال أبو ذر رضي الله عنه : من سلت الله أنفه وألصق خذّه بالأرض . قال : فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني . ثم قلت : يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس النبي صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال له النبي عليه السلام « يا عباس يا أعمى النبي نفس تحبها خير من إمارة لا تحسبها »^(٢) ، نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فقال « يا عباس وياصفية عمى النبي ويافاطمة بذت محمد إني لست أغني عنكم من الله شيئاً إني لى عملى ولكم عملكم »^(٣) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل أريب العقد لا يطالع منه على عورة ولا يخاف منه على حرّة ولا تأخذه في الله لومة لأجر . وقال : الأمراء أربعة ؛ فأمر قوى ظلف نفسه وعماله فذلك كالجاهد في سبيل الله يد الله بأسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله ، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده »^(٤) ، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً . وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن جبرائيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة ، فقال له : يا جبريل صف لى النار فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احترت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يضىء جمرها ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لمساتوا جميعاً ولو أن ذنوباً من شرابها صب فى مياه الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن ذراعاً من السلسلة التى ذكرها الله وضع على جبال الأرض جميعاً لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلاً أدخل النار ثم أخرج منها لمسات أهل الأرض من نبتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ؛ فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال : أتبكى يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبداً شكوراً ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه ، قال : أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبيكان حتى نوديا من السماء : يا جبريل ويا محمد إن الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما وفضل محمد على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة »^(٥) ، وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم إن كنت تعلم أنى أبالي إذا قعد

(١) حديث عبد الرحمن بن عمر : أن عمر استعمل رجلاً من الأنصار على الصدقة ... الحديث . وفيه صرفوعا « مامن والى بلى شيئاً من أمور الناس إلا أتى الله يوم القيامة معلولة يده إلى عنقه ... الحديث » أخرجه ابن أبى الدنيا فيه من هذا الوجه ورواه الطبراني من رواية سويد بن عبد العزيز عن يسار بن أبى الحكم عن أبى وائل : أن عمر استعمل بشر بن عاصم فذكر أخصر منه ، وأن بشراً سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم يذكر فيه : سلمان (٢) حديث « يا عباس يا أعمى النبي نفس تنجبها خير من إمارة لا تحسبها » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلاً بنهر لمساند ورواه البيهقي من حديث جابر متصلاً ومن رواية ابن المنكدر مرسلًا وقال هذا هو المحفوظ مرسلًا (٣) حديث « يا عباس وياصفية ويافاطمة لا أغني عنكم من الله شيئاً لى عملى ولكم عملكم » أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا معضلاً دون لمساند ورواه البخارى من حديث أبى هريرة متصلاً دون قوله « لى عملى ولكم عملكم » (٤) حديث « شر الرعاة الحطمة » رواه مسلم من حديث عائذ بن عمرو المزنى متصلاً وهو عند ابن أبى الدنيا من الأوزاعى معضلاً كما ذكره المصنف . (٥) حديث : بلغنى أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار وضعت على النار تسعر ليوم القيامة ... الحديث بطوله أخرجه ابن أبى الدنيا فيه هكذا معضلاً بنهر لمساند .

الخصمان بين يدي على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين . يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وأنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضع . فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك . ثم نهضت فقال لي : إلى أين ؟ فقلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله ، فقال : قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه . وبه أستعين وعليه أتوكل وهو حسيبي ونعم الوكيل فلا تخلي من مطالعتك إياي بمثل هذا فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال : أنا في غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك . وعن ابن المهاجر قال : قدم أمير المؤمنين المنصور مكة شرفها الله حاجا ، فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف في آخر الليل يطوف ويصلي ولا يعلم به ، فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلي بالناس ، فخرج ذات ليلة حين أسحر فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع . فأسرع المنصور في مذيبة حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأناه الرسول وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فصلي ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تقوله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع ؛ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني وأفلقني ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصررت على نفسي ففيها لي شغل شاغل ، فقال له : أنت آمن على نفسك فقال : الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الأرض أنت . فقال : وكيف يدخلي الطمع والصفراء والبيضاء في يدي والحلو والحامض في قبضتي ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجة معهم السلاح ، ثم سجن نفسك فيها منهم وبعثت عمالك في جمع الأموال وجبايتها واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة إن نسيت لم تذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكرام والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق فلما رأى هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وأثرتهم على رعييتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبي الأموال ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا ؟ فائتمروا على أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا وأن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقوا بهم على ظلم رعييتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعييتك لئلا يواظم من دونهم من الرعية فامتلات بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل ؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بظانك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وإن كانت للمتظلم به حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو

ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه ؛ فإذا جهد وأخرج وظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليسكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ؛ فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ؛ ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رفعت ظلامته إليهم فينصف ؛ ولقد كان الرجل يأتي من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى : يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينصف ؛ ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكي فقال له وزراؤه : مالك تبكي لا بكت عيناك ؟ فقال : أما إنى لست أبكى على المصيبة التى نزلت بى ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالبواب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إن كان قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس : ألا لا يلبس ثوبا أحمر إلا مظلوم فساكن يركب الفيل ويطوف طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه ؟ هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله وابن عم نبي الله لا تغلبك رأفتك بالمسلمين ورقتك على شح نفسك ؛ فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة ؛ إن قلت اجمعها لولدى فقد أراك الله عبدا فى الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال ، ومال لا ودونه يدشحيحة تحويه فما يزال الله تعالى يلفظ بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه ولست الذى تعطى بل الله يعطى من يشاء ، وإن قلت : أجمع المال لأشيد سلطاني . فقد أراك الله عبدا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكرار وما ضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد . وإن قلت أجمع المال . لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل ؟ قال : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم وهو الذى يرى منك ما عقد عليه قلبك وأضرته جوارحك ؟ فإذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغنى عنك عنده شيء مما كنت فيه مما شجحت عليه من ملك الدنيا ؟ فبكى المنصور بكاء شديدا حتى نحب وارفع صوته ثم قال : يا ليتنى لم أخلق ولم أك شيئا ، ثم قال : كيف احتيالى فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا ؟ قال : يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الاعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلماء ، قال : قد فروا منى ، قال : هربوا منك مخافة أن تحملهم على مظهر من طريقتك من قبل عمالك ، ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب واتصبر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشيء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن على أن من هرب منك أن يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل . وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسى : عليك بالرجل إن لم تأتني به لأضربن عنقك ، واغتاض عليه غيظا شديدا فخرج الحرسى يطلب الرجل فبينا هو يطوف فإذا هو بالرجل يصلى فى بعض الشعاب فقعده حتى صلى ثم قال : ياذا الرجل أمتتقى الله ؟ قال : بلى ، قال : أما تعرفه ؟ قال : بلى ، قال : فانطلق معى إلى الأمير فقد آلى أن يقتلنى إن لم آته بك ، قال : ليس لى إلى ذلك من سبيل ، قال : يقتلنى ، قال : لا ، قال : كيف ؟ قال : نحسن تقرأ ، قال : لا ، فأخرج من مزود كان معه رقما مكتوبا فيه شيء فقال : خذه فاجعله فى جيبك فإن فيه دعاء الفرج ، قال : وما دعاء الفرج ؟ قال : لا يرزقه إلا الشهداء ، قلت : رحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرنى ما هذا الدعاء وما فضله ؟ قال : من

دعابه مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياہ واستجيب دعاؤه وبسط له رزقه وأعطى أمه وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيدا ، تقول . اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ماتحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسية فيه فرجا ومخرجا . اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح على أطمعنى أن أسألك مالا أستوجه بما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وإنك المحسن إلى وأنا المسىء إلى نفسى فيما بينى وبينك تتودد إلى بنعمك وأتنبض إليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك فعد بفضلك وإحسانك على إنك أنت التواب الرحيم . قال . فأخذته فصيرته فى جيبى ثم لم يكن لى هم غير أمير المؤمنين فدخلت فسلمت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال . وبلك وتحسن السحر ؟ فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال . هات الرق الذى أعطاك ، ثم جعل يبكي وقال . وقد نجوت ، وأمر بنسخه وأعطاني عشرة آلاف ، ثم قال . أتعرفه ؟ قلت . لا ، قال ذلك الخضر عليه السلام .

وعن أبي عمران الجوني قال : لما ولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يمجيزهم بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري فديما فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هرون إلى زيارته لينخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبا بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أنى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وإنى منطورك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لآيتيتك ولو حبوا لما أجد لك فى قلبى من المحبة ، واعلم يا أبا عبد الله أنه مابقى من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأتى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى وإنى استبطأتك فلم تأتني ، وقد كتبت لك كتابا شوقا منى إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته ، فإذا ورد عليه كتابى فالعجل العجل . فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثوري وخشونته فقال : على برجل من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقاني . فقال : يا عباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثوري فإذا رأيته فآلق كتابى هذا إليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به . فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقبل له هو فى المسجد . قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائما وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة فى قلبى فخرحت ، فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما رفع أحد لى رأسه وردوا السلام على برؤوس الأصابع ، فبقيت واقفا فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة (٥٤ — إحياء علوم الدين — ٢)

ومددت عيني إليهم فقلت إن المصلى هو سفيان فرميت بالكتاب إليه . فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده في كفه ولفها بعباءته وأخذه ، فقلبه بيده ثم رماه إلى من كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فأني أستغفر الله أن أمس شيئاً منه ظالم بيده . قال عباد : فأخذه بعضهم فله كأنه خائف من فم حية تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ من قراءته قال : اقبلوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له : يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقي . فقال : اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يحجز به ، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصل به ولا يبقى شيء منه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان . أما بعد : فأني قد كتبت إليك أعترفك أني قد صرمت حبلك وقطعت ودك وقليت موضعك فإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقتسه في غير حقه وأنفدته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إلى تشهدني على نفسك . أما إنني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك وستودي الشهادة عليك غدا بين يدي الله تعالى ، ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلفة لقلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعييتك ؟ فشد يا هرون ميزرك وأعد للمسألة جواباً وللبلاء جلباباً ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزمت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيق القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً ، ياهرون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت سترآدون بابك وتشبهت بالحجبة رب العالمين ، ثم أقعدت أجنالك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ؟ يشربون الخمر ويضربون من يشربها ؟ ويزنون ويحدون الزاني ؟ ويسرقون ويقطعون السارق ؟ أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ أي الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنني بك يا هرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك ، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة ، فاحفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها ، واعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيحة غاية ، فاتق الله ياهرون في رعييتك واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تثقل بأهلها واحد بعد واحد فنههم من تزود زاد نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإنني أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فياك إياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام . قال عباد : فألقى إلى الكتاب منشوراً غير مطوى ولا محتوم فأخذه وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من قلبي فناديت : يا أهل الكوفة ، فأجابوني فقلت لهم : يا قوم من يشتري رجلاً هرب من الله إلى الله ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت : لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذي كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ،

وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذي كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هرون حافيا راجلا ، فهزأ بي من كان على باب الخليفة . ثم استؤذن لي فلما دخلت عليه وبصر بي على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل مالى وللدنيا مالى وللك يزل عني سريعا ؟ ثم ألقى الكتاب إليه منشورا كما دفع إلى . فأقبل هرون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشق فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجتأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأقتلته بالحديد وضيقك عليه السجن كنت تجعله عبدة لغيره . فقال هرون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه والشقي من أهلكتموه ، وإن سفيان أمة وحده فتركوا سفيان وشأنه . ثم لم يزل ككتاب سفيان إلى جنب هرون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمه الله . فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتفق الله فيما يقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يناسب وبه يجازى والله ولي التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ؛ إذ أقبلت هواذج هرون فكف الصبيان عن الولوع به فلما جاء هرون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين فكشف هرون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا بهلول فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حدثنا أمين بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقه له صهباء ؛ لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(١) وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك . قال : فبكى هرون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا بهلول زدنا رحمك الله قال : نعم يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجالا فأنفق من ماله وعف في جماله كسب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار . قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة : فقال : اردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال : يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال : يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاء الدين بالدين لا يجوز . قال : يا بهلول فنجري عليك ما يقوتك أو يقيمك ، قال : فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فحال أن يذكرك وينساني . قال : فأسبل هرون السجاف ومضى .

وعن أبي العباس الهاشمي عن صالح بن المأمون قال : دخلت على الحرث المحاسبي رحمه الله فقلت له : يا أبا عبد الله هل حاسبت نفسك ؟ فقال : كان هذا مرة ، قلت له : فاليوم ؟ قال : أكاتم حالي ؛ إني لأقرأ آية من كتاب الله تعالى فأضن بها أن تسمعها نفسي ولولا أن يغلبني فيها فرح ما أعلنت بها . ولقد كنت ليلة قاعدا في محرابي فإذا أنا بغنى حسن الوجه طيب الرائحة فسلم على ثم قعدت بيدي فقلت له من أنت ؟ فقال : أنا واحد من السياحين أقصد المتعبدين في محاريبهم ولا أرى لك اجتهدا فأى شيء عملك ؟ قال : قلت له : كتمان المصائب واستجلاب الفوائد ، قال : فصاح وقال : ما علمت أن أحدا بين جنبي المشرق والمغرب هذه صفته ؟ قال الحرث : فأردت أن أزيد عليه فقلت له : أما علمت أن أهل القلوب يخفون أحوالهم ويكتمون أسرارهم ويسألون الله كتمان ذلك عليهم فمن أين تعرفهم ؟ قال : فصاح صيحة غشى عليه منها فكث عندى يومين لا يعقل ، ثم أفاق وقد أحدث في ثيابه ، فعملت إزالة عقله فأخرجت له

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامري : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقه له صهباء لا ضرب ولا

طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وإنما قالوا : يرى الجرة ، وهو الصواب وقد تقدم في الباب الثاني .

ثوباً جديداً وقلت له : هذا كفى قد آثرتك به فاغتسل وأعد صلاتك فقال : هات الماء فاغتسل وصلى ثم التحف بالثوب وخرج فقلت له : أين تريد ؟ فقال لي ؟ قم معي ، فلم يزل يمشي حتى دخل على المأمون فسلم عليه وقال : يا ظالم أنا ظالم إن لم أقل لك يا ظالم ، أستغفر الله من تقصيري فيك ، أما اتقى الله تعالى فيما قد ملكك ؟ وتكلم بكلام كثير ثم أقبل يريد الخروج وأنا جالس بالباب فأقبل عليه المأمون وقال : من أنت ؟ قال : أنا رجل من السياحين فكرت فيما عمل الصديقون قبل فلم أجده لنفسى فيه حظاً فتعلقت بموعظتك لعل ألحقهم ، قال : فأمر بضرب عنقه ، فأخرج وأنا قاعد على الباب ملفوفاً في ذلك الثوب ومناد ينادى : من ولى هذا فليأخذ ، قال الحرث : فاخبتاً عنه فأخذه أقوام غرباء فدفنوه وكنيت معهم لأعلمهم بحاله . فأقمت في مسجد بالمقابر محزوناً على الفتى فغلبتني عيناي فإذا هوبين وصائف لم أر أحسن ممن هو وهو يقول : يا حارث أنت والله من الكاتمين الذين يخفون أحوالهم ويطيعون ربهم ، قلت : وما فعلوا ؟ قال الساعة يلقونك ، فنظرت إلى جماعة ركبان فقلت : من أنتم ؟ قالوا : الكاتمون أحوالهم حرك هذا الفتى كلامك له فلم يكن في قلبه مما وصفت شيء فخرج للأمر والنهي وإن الله تعالى أنزله معنا وغضب لبعده .

وعن أحمد بن إبراهيم المقرئ قال : كان أبو الحسين النوري رجلاً قليل الفضول لا يسأل عما لا يعنيه ولا يفتش عما لا يحتاج إليه ، وكان إذا رأى منكراً غيره ولو كان فيه تلفه ، فنزل ذات يوم إلى مشرعة تعرف بمشركة الفحامين يتطهر للصلاة إذ رأى زورقاً فيه ثلاثون دناء مكتوب عليها بالقار « لطف » فقرأه وأنكره لأنه لم يعلم في التجارات ولا في البيوع شيئاً يعبر عنه بلطف . فقال للملاح : إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك امض في شغلك ؟ فلما سمع النوري من الملاح هذا القول ازداد تعطشا إلى معرفته فقال : أحب أن تخبرني إيش في هذه الدنان ؟ قال : وإيش عليك أنت والله صوفي فضولي ، هذا خمر للمعتضد يريد أن يتم به مجلسه ؟ فقال النوري : وهذا خمر ؟ قال : نعم ، فقال : أحب أن نعطيني ذلك المدري ، فاغتاط الملاح عليه وقال لغلامه : أعطه حتى انظر ما يصنع ، فلما صارت المدري في يده صعد إلى الزورق ولم يزل يكسرها دناء حتى أتى على آخرها إلا دناء واحداً ، والملاح يستغيث ، إلى أن ركب صاحب الجسر وهو يومئذ ابن بشر أفلح فقبض على النوري وأشخصه إلى حضرة المعتضد - وكان المعتضد سيفه قبل كلامه ولم يشك الناس في أنه سيقتله - قال أبو الحسين : فأدخلت عليه وهو جالس على كرسي حديد ويده عمود يقبله فلما رأى أني قال : من أنت ؟ قلت : محتسب ، قال : ومن ولاك الحسبة ؟ قلت : الذي ولاك الإمامة ولا في الحسبة يا أمير المؤمنين ، قال : فأطرق إلى الأرض ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ فقلت : شفقة مني عليك إذ بسطت يدي إلى صرف مكروه عنك فقصرت عنه . قال فأطرق مفكراً في كلامي ثم رفع رأسه إلى وقال : كيف تخلص هذا الدن الواحد من جملة الدنان ؟ فقلت : في تخلصه علة أخبر بها أمير المؤمنين إن أذن ، فقال : هات خبرني ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنني أقبلت على الدنان بمطالبة الحق سبحانه لي بذلك وغمر قلبي شاهد الإجلال للحق وخوف المطالبة فغابت هيبة الخلق عني فأقدمت عليها بهذه الحال إلى أن صرت إلى هذا الدن « فاستشعرت نفسي كبراً على أني أقدمت على مثلك فمنعت ولو أقدمت عليه بالحال الأول وكانت ملء الدنيا دنان لكسرتها ولم أبال ، فقال المعتضد : اذهب فقد أطلقنا يدك غير ما أحببت أن تغيره من المنكر . قال أبو الحسين فقلت : يا أمير المؤمنين بغض إلى التغيير لأنني كنت أغير عن الله تعالى وأنا الآن أغير عن شرطى فقال المعتضد : ما حاجتك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين تأمر يا خراجي سالماً فأمر له بذلك وخرج إلى البصرة ، فكان أكثر أيامه بها خوفاً من أن يسأله أحد حاجة يسألها المعتضد ، فأقام بالبصرة إلى توفي المعتضد ثم رجع إلى بغداد .

فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكونهم اتكّلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة ، فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فليتها وأزال قساوتها . وأما الآن فقد قيدت الاطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا . ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال .

تم كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحمد الله وعونه وحسن توفيقه

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وهو الكتاب العاشر : من ربيع العادات الثاني من كتب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه ، وأدب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذته صفيه وحييه ، ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه ؛ وحرّم عن التخلّق بأخلاقه من أراد تخذيبه وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحرّكات الجوارح ثمرات الخواطر ، والأعمال نتيجة الأخلاق والآداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها ، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزيئها وتجليها ، وتبدل بالمحاسن مكارهها ومساوئها . ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه . ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلهية لم يفيض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، ولقد كنت عزمت على أن أختم ربيع العادات من هذا الكتاب بكتاب جامع لآداب المعيشة لئلا يشق على طالبيها استخراجها من جميع هذه الكتب ، ثم رأيت كل كتاب من ربيع العادات قد أتى على جملة من الآداب فاستغنيت تكريرها وإعادتها ، فإن طلب الإعادة ثقيل والنفوس مجبولة على معاداة المعادات ، فرأيت أن أقصر في هذا الكتاب على ذكر آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه المأثورة عنه بالإسناد فأسردها بمجموعة فصلا فصلا محدوفة الأسانيد ليجتمع فيه مع جميع الآداب تجديد الإيمان وتأكيده بمشاهدة أخلاقه الكريمة التي شهد آحادها على القطع بأنه أكرم خلق الله تعالى وأعلام رتبة وأجلهم قدرا فكيف بمجموعها ؟ ثم أضيف إلى ذكر أخلاقه ذكر خلقته ثم ذكر معجزاته التي صحت بها الأخبار ليكون ذلك معربا عن مكارم الأخلاق والشيم ، ومنزعا عن آذان الجاحدين لنبوته صمام الصمم . والله تعالى ولي التوفيق للاقتداء بسيد المرسلين في الأخلاق والأحوال وسائر معالم الدين فإنه دليل المتحيرين ومجيب دعوة المضطرين . ولندكر فيه أولا بيان تأديب الله تعالى إياه بالقرآن ، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه ، ثم بيان جملة من آدابه وأخلاقه ، ثم بيان كلامه وضحه ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في الطعام ، ثم بيان أخلاقه وآدابه في اللباس ، ثم بيان عفوه مع القدرة ثم بيان إغضائه عما كان يكره ، ثم بيان سخاوته وجوده ، ثم بيان شجاعته وبأسه ، ثم بيان تواضعه ، ثم بيان صورته وخلقته ، ثم بيان جوامع معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم .

بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الضراعة والابتهال دائم السؤال من الله تعالى أن يرزقه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقى ^(١) » ، ويقول « اللهم جنبني منكرات الأخلاق ^(٢) » ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ^(٣) .

ولما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ وقوله ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ وقوله ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وقوله ﴿ فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ وقوله ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ وقوله ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ وقوله ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجهه نبيهم بالدم وهو يدعونهم إلى ربهم ^(٤) ، فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ تأديبا له على ذلك .

وأمثال هذه التآديبات فى القرآن لا تحصر وهو عليه السلام المقصود الأول بالتأديب والتهديب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ^(٥) » ، ثم رغب الخلق فى محاسن الأخلاق بما أوردناه فى كتاب رياضة النفس وتهديب الأخلاق فلا نعيده ، ثم لما أكمل الله تعالى خلقه أثنى عليه فقال تعالى ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه ثم انظر إلى عظيم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى ؟ فهو الذى زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويغض سفسافها ^(٦) قال على رضى الله عنه يا عجا لرجل مسلم يحيمه أخوه المسلم فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا فلو كان لا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق فإنها بما تدل على سبيل النجاة . فقال له رجل : أسمعته من رسول الله

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

- (١) حديث : كان يقول فى دعائه « اللهم حسن خلقي وخلقى » أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود ومن حديث عائمة ولفظهما « اللهم أحسن خلقي فأحسن خلقي » وإسنادهما جيد وحديث ابن مسعود رواه ابن حبان (٢) حديث « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه واللفظ له من حديث قطبة بن مالك وقال الترمذى « اللهم أوفى أعوذ بك » (٣) حديث سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتهما عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن . رواه مسلم وروى الحاكم فى قوله لهما لم يخرجاه . (٤) حديث : كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم يوم أحد ... الحديث ، فى نزول « ليس لك من الأمر شيء » أخرجه مسلم من حديث أنس وذكره البخارى تعليقا (٥) حديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أخرجه أحمد والحاكم والبيهقى من حديث أبى هريرة قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وقد تقدم فى آداب الصحبة . (٦) حديث « إن الله يحب معالى الأخلاق ويغض سفسافها » أخرجه البيهقى من حديث سهل بن سعد متصلا ومن رواية طلحة بن عبيد الله بن كرز مرسل ورأى لهما ثقات .

صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ فقال نعم وما هو خير منه لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ولا تشمت بي أحياء العرب فأني بذت سيدي قومي وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشى السلام ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائي . فقال صلى الله عليه وسلم « يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مسلما لترحنا عليه خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق » فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ؛ الله يحب مكارم الأخلاق ؟ فقال « والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق ^(٢) » وعن معاذ بن جبل عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حفي الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ^(٣) » ، ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعبادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا وتشجيع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت - مسلما كان أو كافرا - وتوقير ذي الشبهة المسلم وإجابة الطعام والدعاء عليه والعفو والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسماحة والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها وكل ذي وتر وكل ذي دخل والغابة والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغى والعدوان والظلم . قال أنس رضي الله عنه . فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشيا - أو قال عيبا ، أو قال شيئا - إلا حذرناه ونهاانا عنه ^(٤) . ويكفي من ذلك كله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية وقال معاذ : أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجورع من الحساب وخفض الجناح ، وأنهاك أن تسب حكيما أو تكذب صادقا أو تطيع آثما أو تعصى إماما عادلا أو تفسد أرضا وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لسكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية ^(٥) ، فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ^(٦) وأشجع الناس ^(٧) وأعدل الناس ^(٨) وأعف الناس لم تمس يده قط

(١) حديث على قوله : وأعجباً لرجل مسلم يحببه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ... الحديث . وفيه مرفوعاً « لما أتى بسبايا طي^(١) وقفت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عني ... الحديث أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف (٢) حديث معاذ « حب الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ... الحديث » بطوله لم أقفله على أصل وينفي عنه حديث معاذ الآتي بعده بحديث (٣) حديث أنس : لم يدع صلى الله عليه وسلم نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها . لم أقف له على إسناد وهو صحيح من حيث الواقع (٤) حديث « يا معاذ أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد وقد تقدم في آداب العجبة (٥) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس . أخرجه أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الرحمن بن أبيزى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس ... الحديث . وهو مرسل . وروى أبو حاتم بن حبان من حديث عبد الله بن سلام في قصة إسلام زيد بن شعث من أخبار اليهود وقول زيد لعمر بن الخطاب : يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً فقد اختبرتتهما .. الحديث » (٦) الحديث : أنه كان أشجع الناس . متفق عليه من حديث أنس (٧) حديث : كان أعدل الناس . أخرجه الترمذي في المعالم من حديث علي بن أبي طالب في الحديث الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : لا يتصر عن الحق ولا يجاوزه . وفيه :

يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ^(١) وكان أسخى الناس ^(٢) لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ^(٣) لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله ^(٤) لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ^(٥) ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأتته شيء ^(٦) وكان يخفف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ^(٧) ويقطع اللحم معهم ^(٨) وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ^(٩) ويحيب دعوة العبد والحر ^(١٠) ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها ^(١١)

== قد وسع الناس بسطه وخافه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء .. الحديث . وفيه من لم يسم (١) حديث : كان أعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقبها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم له . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : ما سمعت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة إلا أعطاه ما يسألها (٢) حديث : كان صلى الله عليه وسلم أسخى الناس . أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس « فضلت على الناس بأربع . بالسخاء والشجاعة ... الحديث . ورجاله ثقات . وقال صاحب الميزان إنه منسكرو في الصحيحين من حديثه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس وافقاً عليه من حديث ابن عباس . وتقدم في الزكاة (٣) حديث : كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم قط وإن فضل ولم يجد من يعطيه وجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه . أخرجه أبو داود من حديث بلال في حديث طويل فيه : أهدى صاحب فداك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركائب عليهن كسوة وطعام ويبيع بلال لذلك ووفاء دينه ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد وحده . وفيه : قال « فضل شيء » قلت : نعم ، ديناران قال « انظر أن تريعنئ منهما فليست بداخل على أحد من أهلي حتى تريعنئ منهما » فلم يأتنا أحد فأت في المسجد حتى أصبح وظل في المسجد اليوم الثاني حتى إذا كان في آخر النهار جاء راكباً فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما حتى إذا صلى العتمة دعاني فقال « ما فعل الذي قبلك ؟ » قلت : قد أراحك الله منه ؛ فكبر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك ثم اتبعته حتى جاء أزواجه ... الحديث . وللبخاري من حديث ثقة بن الحارث : ذكرت وأنا في الصلاة فسكرت أزيمنئ وبيت عندنا فأمرت بقسمته . ولأبي عبيد في غريبه من حديث الحسن بن محمد مرسل : كان لا يقبل مالا عنده ولا يبيته (٤) حديث : كان لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله . متفق عليه بنحوه من حديث عمر بن الخطاب وقد تقدم في الزكاة .

(٥) حديث : كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه . أخرجه الطيالسي والدارمي من حديث سهل بن سعد والبخاري من حديثه : في الرجل القمئ سأل الشمة فقيل له سألته لماها وقد علمت أنه لا يرد سائلاً ... الحديث . ولمسلم من حديث أنس : ما سأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه . وفي الصحيحين من حديث جابر : ما سأل شيئاً قط فقال : لا (٦) حديث : أنه كان يؤثر مما ادخر لعياله حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام . هذا معلوم ويدل عليه ما رواه الترمذئ والنسائئ وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذاه لأهله . وقال ابن ماجه بثلاثين صاعاً من شعير . وإسناده جيد والبخاري من حديث عائشة : توفي ودرعه مرهونة عند يهودئ بثلاثين وفي رواية البيهقي : بثلاثين صاعاً من شعير .

(٧) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم يخفف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله . أخرجه أحمد من حديث عائشة : كان يخفف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته . ورجاله رجال الصحيح ورواه أبو الشيخ بلفظ : ويرقع الثوب . وللبخاري من حديث عائشة : كان يسكون في مهنة أهله .

(٨) حديث : أنه كان يقطع اللحم . أخرجه أحمد من حديث عائشة : أرسل لما لنا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت وقطم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أوقات - فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطعت . وفي الصحيحين من حديث عبد الرحمن ابن أبي بكر في أثناء حديث : وإيم الله مامن الثلاثين ومائة إلا حزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من سواد بطنها .

(٩) حديث : كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد . أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها (١٠) حديث : كان يحيب دعوة العبد والحر . أخرجه الترمذئ وابن ماجه والحاكم من حديث أنس : كان يحيب دعوة الملوك . قال الحاكم صحيح الإسناد . قلت : بل ضعيف والدارقطني في غرائب مالك وضعفه والخطيب في أسماء من روى عن مالك من حديث أبي هريرة : كان يحيب دعوة العبد إلى أي طعام دعي ويقول « لودعيت إلى كراع لأجبت » . وهذا بمومه دال على إجابة دعوة الحر وهذه القطعة الأخيرة عند البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم وروى ابن سعد من رواية حمزة بن عبد الله بن عتبة : كان لا يدعو أحمر ولا أسود من الناس إلا إجابة ... الحديث . وهو مرسل (١١) حديث : كان يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو نخذ أرنب ويكافئ عليها أخرجه البخاري من حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها . وأما ذكر : جرعة اللبن ، ونخذ الأرنب . ففي الصحيحين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت بقدح لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة فصر به . ولأحمد من ==

ويأكلها ولا يأكل الصدقة ^(١) ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمساكين ^(٢) يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ^(٣) وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك ^(٤) وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحى بل وداه بمائة ناقة وإن بأصحابه لحاجة إلى بغير واحد يتقون به ^(٥) وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ^(٦) ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمر أدون خبز أكله ^(٧) وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبز بر أو شعير أكله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله ، لا يأكل متكئا ^(٨) ولا على خوان ^(٩) منديل به باطن قدميه ^(١٠) لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ^(١١) حتى لقي الله تعالى إشارا على نفسه لافقرا ولا بتخلا يحيب الولية ^(١٢)

= حديث عائشة : أهدت أم سلمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ... الحديث . وفي الصحيحين من حديث أنس : أن أباطلحة بعث بورك أرنب أو غنظا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله ^(١) حديث : كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة . متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم ^(٢) حديث : كان لا يستكبر أن يعمى مع المسكين . أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن أبي أوفى بإسناد صحيح وقد تقدم في الباب الثاني من آداب الصحبة ورواه الحاكم أيضا من حديث أبي سعيد الخدري وقال صحيح على شرط الشيخين ^(٣) حديث : كان يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند ابن أبي هالة وفيه : وكان لا تنضبه الدنيا وما كان منها فإذا تمضى الحق لم يبق له نصيبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . وفيه من لم يسم ^(٤) حديث : وينفذ الحق وإن عاد ذلك بالضرر عليه وعلى أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : أنا لا أنتصر بمشرك ^(٥) أخرجه مسلم من حديث عائشة : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان بحجرة البقرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرج به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما أدركه قال جئت لأتبعك وأصيب معك فقال له : أتؤمن بالله ورسوله ، قال : لا . قال : فأرجع فلن أستعين بمشرك ... الحديث ^(٥) حديث : وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم فوداه بمائة ناقة . الحديث . متفق عليه من حديث سهل بن أبي حنيفة ورافع بن خديج والرجل الذي وجد مقتولا هو عبد الله ابن سهل الأنصاري .

(٦) حديث : كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع . متفق عليه من حديث جابر في قصة حفر الخندق وفيه : فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم شد على بطنه حجرا : وأغرب ابن حبان فقال في صحيحه لما عسا هو المجز - بضم الميم وآخره زاي - جمع حجرة وليس يحتاج على ذلك . ويرد على ذلك ما رواه الترمذي من حديث أبي طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفقنا عن بطونا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . ورجاله كلهم ثقات

(٧) حديث : كان يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد خبز أكله وإن وجد شعير أو شعير أكله وإن وجد حلوا أو عسلا أكله وإن وجد بطيخا أو رطبا أكله . انتهى . هذا كله معروف من أخلاقه في الترمذي من حديث أم هانئ دخل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « عندك شيء ؟ » قلت : لا ، إلا خبز يابس وخل فقال « هات » الحديث ، وقال حسن غريب وفي كتاب الشمائل لأبي الحسن بن الضحاك بن المقرئ من رواية الأوزاعي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أبالي ما رددت به الجوع » وهذا معضل ، واسلم من حديث جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهله الأدم فقالوا : ما عندنا إلا خل ، فدعا به ... الحديث . وله من حديث أنس : رأيته مغميا يأكل تمرات والترمذي وصححه من حديث أم سلمة أنها قربت لأمه جبا مشويا فأكل منه ... الحديث . ولشيخين من حديث عائشة : ماشي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا خبز بر حتى مضى لسبيله . لفظ مسلم وفي رواية له : ماشي من خبز شعير يومين متتابعين . والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث ابن عباس : كان أكثر خبزهم الشعير . ولشيخين من حديث عائشة : كان يحب الخلواء والعسل . ولها من حديث ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبنا فدعا بماء فضمض . والنسائي من حديث عائشة كان يأكل الرطب بالبطيخ وإسناده صحيح ^(٨) حديث : أنه كان لا يأكل متكئا . تقدم في آداب الأكل من الباب الأول ^(٩) حديث : أنه كان لا يأكل على خوان . تقدم في الباب المذكور ^(١٠) حديث : كان منديل به باطن قدميه . لا أعرفه من فعله ولأنما المعروف فيه ما رواه ابن ماجه من حديث جابر : كنا زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم قليلا ما نجد الطعام فإذا وجدناه لم يسكن لنا مناديل إلا أكفنا وسواعدنا . وقد تقدم في الطهارة ^(١١) حديث : لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله . تقدم في جملة الأحاديث التي قبله بثلاثة أحاديث ^(١٢) حديث : كان يحيب الولية . هذا معروف ويهدم قوله « لودعيت إلى كراع لأجبت » وفي الأوسط للعباسي من حديث ابن عباس : أنه كان الرجل من أهل العوالي ليدع رسول الله =

ويعود المرضى ^(١) ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ^(٢) أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر ^(٣) وأبلغهم في غير تطويل ^(٤) وأحسنهم بشرا ^(٥) لا يهوله شيء من أمور الدنيا ^(٦) ويلبس ما وجد فرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس ^(٧) وخاتمه فضة ^(٨) يلبسه في خنصره الأيمن ^(٩) والأيسر ^(١٠) يردف خلفه عبده أو غيره ^(١١) يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ويعود المرضى في أقصى المدينة ^(١٢) يحب الطبيب ويكره الراحة

صلى الله عليه وسلم بنصف الليل على خبز التمر فيجيب : ولما سئل عن حديث : كان يعود المريض ويشهد الجنائز أخرجه الترمذي وضعفه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أنس ورواه الحاكم من حديث سهل بن حنيف ، وقال صحيح الإسناد وفي الصحيحين عدة أحاديث من عيادته للمرضى وشهوده للجنائز (٢) حديث : كان يمشي وحده بين أعدائه بلا حارس . أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فأخرج رأسه من القبة فقال « انصرفوا فقد عصمتني الله » قال الترمذي غريب وقال الحاكم صحيح الإسناد .

(٣) حديث : كان أشد الناس تواضعا وأسكنهم من غير كبر . رواه أبو الحسن بن الضحاك في السمائل من حديث أبي سعيد الخدري في صفته صلى الله عليه وسلم : هين المؤنة ابن الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه - إلى أن قال - متواضع في غير ذلة - وفيه - ذائب الإطراق . وإسناده ضعيف وفي الأحاديث الصحيحة الدالة على شدة تواضعه غنية عنه منها عند النسائي من حديث ابن أبي أوفى : كان لا يأنف ولا يستكبر أن يعشى مع الأرملة والمسكين ... الحديث . وقد تقدم وعند أبي داود من حديث البراء : جلس وجلسنا كأن على رؤوسنا الطير .. الحديث . ولما صاحب السنن من حديث أسامة بن شريك : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير (٤) حديث : كان أبلغ الناس من غير تطويل . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : كان يحدث حديثا لو عدده العاد لأحضاه . ولها من حديثها : لم يسكن يسرد الحديث كسر دكم علقه البخاري ووصلة مسلم زاد الترمذي : ولا كنه كان يتكلم بكلام يبينه فصل يحفظه من جالس لديه وله في السمائل من حديث ابن أبي هالة : يتكلم بمجوامع الحكم فصل لأفضول ولا تقصير (٥) حديث : كان أحسنهم بشرا . أخرجه الترمذي في السمائل من حديث علي بن أبي طالب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم البشر سهل الخلق ... الحديث وله في الجامع من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت : وفيه ابن لهيعة .

(٦) حديث : كان لا يهوله شيء من أمور الدنيا . أخرجه أحمد من حديث عائشة : ما أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا لا ذو تقى وفي لفظ له : ما أعجب النبي صلى الله عليه وسلم شيء من الدنيا إلا أن يكون فيها ذو تقى . وفيه ابن لهيعة (٧) حديث : كان يلبس ما وجد فرة شملة ومرة حبرة ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : جاءت امرأة بريدة . قال سهل : هل تدرون ما البردة ؟ هي الشملة منسوجة في حاشيتها وفيه : نخرج لنا ولينا وإزاره . . الحديث ولا بن ماجه من حديث عباد بن الصامت . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في شملة قد عقد عليها . فيه الأحوص بن حكيم يخالف فيه وللشيعين من حديث أنس : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلبسها الحبرة . ولها من حديث المغيرة بن شعبه وعليه جبة من صوف (٨) حديث : خاتمه فضة . متفق عليه من حديث أنس : اتخذ خاتما من فضة (٩) حديث : لبسه الخاتم في خنصره الأيمن أخرجه مسلم من حديث أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس خاتم فضة في يمينه ، وللبخاري من حديثه : فإني لأرى بريقه في خنصره (١٠) حديث : تختمه في الأيسر أخرجه مسلم من حديث أنس : كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم في هذه - وأشار إلى الخنصر من يده اليسرى -

(١١) حديث : لردفه خلفه عبده أو غيره : أردف صلى الله عليه وسلم ابن زيد من عرفة . كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ومن حديث أسامة ، وأردفه مرة أخرى على حمار وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة وهو مولاه وابن مولاه ، وأردف الفضل بن عباس من المزدلفة وهو في الصحيحين أيضاً من حديث أسامة ومن حديث ابن عباس والفضل بن عباس وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة .

(١٢) حديث : كان يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة راجلا ومرة حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة . ففي الصحيحين من حديث أنس : ركوبه صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة . ولمسلم من حديث جابر بن سمرة ركوبه الفرس عربا حين انصرف من جنازة ابن الدحداح ولمسلم من حديث سهل بن سعد : كان للنبي صلى الله عليه وسلم فرس يقال له : اللاحيف . ولها من حديث ابن عباس : طاف النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على بعير . ولها من حديث البراء : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم على بقلته البيضاء يوم حنين . ولها من حديث أسامة : أنه صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على لكاف .. الحديث . ولها من حديث ابن عمر : كان يأتي قبا راكبا وماشيا . ولمسلم من حديثه في عيادته صلى الله عليه وسلم لسعد بن عباد : فقام وقفا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلاص ولا قمص نحمي في السباخ ... الحديث .

الرديئة (١) ويجالس الفقراء (٢) ويؤاكل المساكين (٣) ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم (٤) يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم (٥) لا يجفو على أحد (٦) يقبل معذرة المعتذر إليه (٧) يمزح ولا يقول إلا حقا (٨) يضحك من غير قهقهة (٩) يرى اللعب المباح فلا ينكره (١٠) يسابق أهله (١١) وترفع الأصوات عليه فيصبر (١٢) وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها (١٣) وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في

(١) حديث : كان يحب الطبيب والرائحة الطيبة ويكره الروائح الرديئة . أخرجه النسائي من حديث أنس . حبيب إلى النساء والطبيب وأبو داود والحاكم من حديث عائشة : أنها صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف فلبسها فلما عرق وجد ربح الصوف نخلعها وكان يعجبه الربح الطيبة . لفظ الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وابن عدى من حديث عائشة كان يكره أن يوجد منه إلا ربح طيبة . (٢) حديث : كان يجالس الفقراء . أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد : جلست في عصابة من ضعماء المهاجرين ولأن بعضهم ليستر بعضا من العري . الحديث . وفيه : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطا ليعدل بنفسه فينا . الحديث . وابن ماجه من حديث خباب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا . الحديث في نزول قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ لساندهما حسن (٣) حديث : مؤاكلة المساكين أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأتون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها . (٤) حديث : كان يكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . أخرجه الترمذي في المعاني من حديث علي الطويل في صفته صلى الله عليه وسلم : وكان من سيرته لم يثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين . وفيه . ويؤلفهم ولا ينفهم ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم . الحديث . وللطبراني من حديث جرير في قصة إسلامه . فألقى إلى كساءه ثم أقبل على أصحابه ثم قال إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه . ولسانده جيد ورواه الحاكم من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه نحوه وقال صحيح الإسناد (٥) حديث . كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . أخرجه الحساكم من حديث ابن عباس . كان يحل العباس لجلال الوالد والوالدة . وله من حديث سعد بن وقاص . أنه أخرج عمه العباس وغيره من المسجد فقال له العباس تخرجنا ونحن عصبتك وعمومتك واتسكن عليا فقال « ما أنا أخرجكم وأسكنه وأسكن الله أخرجكم وأسكنه » قال في الأول صحيح الإسناد وسكت عن الثاني وفيه مسلم الملائ ضيف . فآثر عليا لفضله بتقديمه لإسلامه وشهوده بدره والله أعلم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد لا يقين في المسجد باب للأسد إلا باب أبي بكر . (٦) حديث . كان لا يجفو على أحد . رواه أبو داود والترمذي في المعاني والنسائي في اليوم والليلة من حديث أنس كان قلما يواجه رجلا بشيء يكرهه . وفيه ضعف ولا يثبت من حديث أبي هريرة : أن رجلا استأذن عليه صلى الله عليه وسلم فقال « بش أخو العذرة فلما دخل ألان له القول ... الحديث »

(٧) حديث . يقبل معذرة المعتذر إليه . متفق عليه من حديث كعب بن مالك في قصة الثلاثة الذين خلفوا وفيه : طلق المخلفون يعتذرون إليه فقبل منهم ثلاثتهم . الحديث . (٨) حديث : يمزح ولا يقول إلا حقا . أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة وهو عند الترمذي بلفظ : قالوا انك تداعبنا : قال « لا ولا أقول إلا حقا » وقال حسن . (٩) حديث : يضحك من غير قهقهة أخرجه الشيخان من حديث عائشة : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعا ضاحكا حتى أرى لهواته انما كان يتبسم . والترمذي من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما كان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسما . قال صحيح غريب وله في المعاني من حديث هند بن أبي هالة : جل ضحكه التبسم . (١٠) حديث : يرى اللعب المباح ولا يكرهه . أخرجه الشيخان من حديث عائشة : في لعب الحبشة بين يديه في المسجد وقال لهم « دونكم يا بني أرفدة » وقد تقدم في كتاب السماع . (١١) حديث : مسابقته صلى الله عليه وسلم أهله . أخرجه أبو داود والنسائي في السكبري وابن ماجه من حديث عائشة : في مسابقته لها : وتقدم في الباب الثالث من النكاح . (١٢) حديث : ترفع الأصوات عنده فيصبر . أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن الزبير : قدم ركب من بني تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأفرع بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلاقي ؟ وقال عمر : ما أردت خلافتك . فتأريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ . (١٣) حديث : وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث أم سلمة : كان عيشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اللين - أوقات أكثر عيشنا - كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاح بالذابة . الحديث . وفي رواية له : كانت لنا أعز سبع فكان الراعي يبلغ بهن مرة الحى ومرة أحدا ويروح بهن علينا وكانت لقاح بذى الحبل فيؤب ألبانهم بالليل . الحديث . وفي لساندهما محمد بن عمر الواقدي ضيف في الحديث ، وفي الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع : كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذى فرد . الحديث . ولأبي داود من حديث لقيط بن صبرة . لنا غنم مائة لا نريد أن تزيد فإذا ولد الراعي بهمة ذبحنا مكانها شاة . الحديث

مأكل ولا ملبس^(١) ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد له منه من صلاح نفسه^(٢) يخرج إلى بساتين أصحابه^(٣) لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويا^(٤) قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقره وفي رعاية الغنم يتيم لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول^(٥) . وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه

عما رآه أبو البحتري قال : ما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة^(٦) وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة^(٧) وقيل له وهو في القتال : لو لعنتم يارسول الله فقال : إنما بعثت

(١) حديث : كان له عبيد وولاء فلا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس . أخرجه محمد بن سعد في الطبقات من حديث سلمى قالت : كان خدم النبي صلى الله عليه وسلم أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد أعتقهن كلهن . وإسناده ضعيف ، وروى أيضا أن أبا بكر بن حزم كتب إلى عمر بن عبد العزيز بأسماء خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر : بركة - أم أيمن - وزيد ابن حارثة وأبا كبشة وأنسة وشقران وسفينة وثوبان ورباحا وبسارا وأبا رافع وأنا موهبة ورافعا ، أعتقهم كلهم ، وفضالة ومدعما وكركرة . وروى أبو بكر بن الضحاك في المناهل من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد ضعيف : كان صلى الله عليه وسلم يأكل مع خادمه . ومسلم من حديث أبي اليسر « أطمعهم مما تأكلون وألبسهم مما تلبسون . . . الحديث » (٢) حديث : لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . أخرجه الترمذي في المناهل من حديث علي بن أبي طالب : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزأ لله وجزأ لأهله وجزأ لنفسه ، ثم جزأ جزأ بينه وبين الناس فرد ذلك بالخاصة على العامة . . . الحديث . (٣) حديث : يخرج إلى بساتين أصحابه . تقدم في الباب الثالث من آداب الأكل (خروجه صلى الله عليه وسلم إلى بستان أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وغيرهما) .

(٤) حديث : لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا للملكه يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء واحدا . أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد : مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ماتقولون في هذا ؟ » قالوا : خرى إن خطب أن ينسكح . . . الحديث . وفيه : فر رجل من فقراء المسلمين فقال « ماتقولون في هذا ؟ » قالوا : خرى إن خطب أن لا ينسكح . . . الحديث . وفيه « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا » ومسلم من حديث أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . (٥) حديث : قد جمع الله له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أعمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ في بلاد الجهل والصحارى وفي فقر وفي رعاية الغنم لأب له ولا أم فعلمه الله جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول . هذا كله معروف معلوم فروى الترمذي في المناهل من حديث علي بن أبي طالب في حديثه الطويل في صفته : وكان من سيرته في جزء الأمة لئلا أهل الفضل يباذنه وقسمه . . . الحديث . وفيه : فسألته عن سيرته في جلسائه فقال كان دائم البصر سهل الخلق لين الجانب . . . الحديث . وفيه : كان يخزن لسانه لا فيما يعنيه . وفيه : قد ترك نفسه من ثلاث ؛ من المراء والإكثار وما لا يعنيه . . . الحديث . وقد تقدم بعضه ، وروى ابن مردويه من حديث ابن عباس في قوله « وما كنت تتلون من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب . وقد تقدم في العلم والبخاري من حديث ابن عباس قال : لما سرك أن تعلم جهل العرب فقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام « قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » وأحمد وابن حبان من حديث أم سلمة في قصة هجرة الحبشة : أن جمعها قال للنجاشي أيها الملك كننا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة . . . الحديث . ولاحمد من حديث أبي بن كعب : لما في صحراء ابن عشر سنين وأشهر فإذا كلام فوق رأسي . . . الحديث والبخاري من حديث أبي هريرة : كنت أراها - أي النعم - على ترابط لأهل مكة ولأبي يعلى وابن حبان من حديث حليمة : لما نرجو كرامة الرضاة من والد المولود وكان يتيم . . . الحديث . وتقدم حديث « بعثت بمكارم الأخلاق » (٦) حديث « ما شتم أحدا من المؤمنين إلا جعلها الله كفارة ورحمة » متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه « فأى المؤمنين لنته شتمته جلده فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة » وفي رواية « فاجعلها زكاة ورحمة » وفي رواية « فاجعلها له كفارة وقربة » وفي رواية « فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة » (٧) حديث : ما لعن امرأة قط ولا خادما قط . المعروف : ماضرب . مكان ما لعن . كما هو متفق عليه من حديث عائشة والبخاري من حديث أنس : لم يكن خاشا ولا لانا . وسيأتي الحديث الذي بعده في هذا المعنى =

رحمة ولم أبعث لعانا ^(١) ، وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له ^(٢) وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تذهب حرمة الله ، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ^(٣) وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته ^(٤) وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه ، لم فعلته ؟ ، ولألمني نسأوه إلا قال : دعوه إنما كان هذا بكتاب وقد ر ^(٥) قالوا : وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعا ، إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ^(٦) وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال : محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام يأنزر على وسطه هو ومن معه دعاة للقرآن والعلم يتوضأ على أطرافه . وكذلك نعمته في الإنجيل . وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام ^(٧) ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ^(٨) وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ^(٩) وكان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته عليها ^(١٠) وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ^(١١) وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال : ألك حاجة ؟

(١) حديث : إنما بعث رحمة ولم أبعث لعانا ، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث : كان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه ودعاه . أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة : قالوا يا رسول الله إن دوسا قد كسفت وأبت قاذع عليهم فقيل : هلكت دوس ، فقال : اللهم اهد دوسا وانت بهم (٣) حديث : ما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب في سبيل الله وما انتقم من شيء صنع إليه إلا أن تذهب حرمة الله ... الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مع اختلاف وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصلوة (٤) حديث : ما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته أخرجه البخاري تعليقا من حديث أنس : إن كانت الأمة من لمام أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتقل به حيث شاءت ووصله ابن ماجه وقال : فأنزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها . وقد تقدم وتقدم أيضاً من حديث ابن أبي أوفى : ولا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين حتى يقضى لها حاجتهما (٥) حديث أنس : والذي بعثه بالحق ما قال في شيء قط كرهه ، لم فعلته ؟ ، ولألمني أحدا من أهله إلا قال : دعوه إنما كان هذا بكتاب وقد ر ^(٦) أخرجه الشيخان من حديث أنس : ما قال لشيء صنته ؟ ، لم صنته ، ولألمني تركته ، لم تركته : ، وروى أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث له قال فيه : ولا أصرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني أحد من أهله قال : دعوه فلو قدر شيء كان ، وفي رواية له : كذا قضى (٦) حديث : ما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض . لم أجده بهذا اللفظ والمعروف . ما عاب طاماً . ويؤخذ من عموم حديث على بن أبي طالب . ليس بفظ ، إلى أن قال . ولا عياب رواه الترمذي في الشمائل والعلاني وأبو نعيم في دلائل النبوة ، وروى ابن أبي عاصم في كتاب السنة من حديث أنس . ما علمه عاب شيئا قط . وفي الصحيحين من حديث عمر . اضطجعا على حصير والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود نام على حصير فقام وقد أثر في جنبه . . الحديث (٧) حديث : كان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام . أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة (٨) حديث : ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف أخرجه العلبراني ومن طريقه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي بن أبي طالب وهو من حديث أنس كان إذا لقي الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون هو المنصرف . ورواه الترمذي نحوه وقال غريب (٩) حديث : وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر . أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أنس الذي قبله : كان إذا استقبل الرجل فصاحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل ينزع . لفظ الترمذي وقال غريب .

(١٠) حديث : كان إذا لقي أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته . أخرجه أبو داود من حديث أبي ذر : وسأله رجل من عنزة هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصالحكم إذا لقيتموه ؛ قال : ما لقيته قط إلا صالحني ... الحديث ، وفيه الرجل الذي من عنزة ولم يسم وسماء البيهقي في الأدب عبد الله وروينا في يوم الحديث لجام من حديث أبي هريرة قال : شبك بيدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وهو عند مسلم بلفظ : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده (١١) حديث : كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل أخرجه الترمذي في الشمائل من حديث علي في حديثه الطويل في صفته قال : على ذكر - بالتأنيب -

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ^(١) وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ^(٢) ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه ^(٣) لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ^(٤) وما روى قط ما دارجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المسكان واسعا لا يضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ^(٥) وكان يسكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه ^(٦) وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل ^(٧) وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه ^(٨) حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة قال الله تعالى ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكنائهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ^(٩) ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كنائه به ^(١٠) ويكنى أيضا النساء اللاتي هن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى ^(١١)

- (١) حديث : كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال « ألك حاجة ؟ » فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته لم أجده أصلا (٢) حديث : كان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة . أخرجه أبو داود والترمذي في الدلائل من حديث أبي سعيد الخدري : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في المجلس احتج بيديه وإسناده ضعيف والبخاري من حديث ابن عمر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة محتجاً بيديه .
- (٣) حديث : لأنه لم يكن يعرف مجلسه من مجالس أصحابه . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر : قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجئ ، النريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل ... الحديث (٤) حديث : لأنه حينما انتهى به المجلس جالس . رواه الترمذي في الدلائل في حديث علي الطويل .
- (٥) حديث : ما روى قط ما دارجليه بين أصحابه حتى يضيق بها على أحد إلا أن يكون المسكان واسعا لا يضيق فيه أخرجه الدارقطني في غرائب مالك من حديث أنس وقال باطل والترمذي وابن ماجه لم ير مقدما ركبته بين يدي جليس له ، زاد ابن ماجه قط ، وإسناده ضعيف . (٦) حديث . كان يسكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه . أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث أنس . دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه . فأخذ برده فألقاهما عليه فقال « اجلس عليهما يا جرير » الحديث وفيه « فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقد تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة . ولطبراني في الكبير من حديث جرير . فألقى إلى كساء . ولأبي نعيم في الحلية . فبسط إلى رداءه .
- (٧) حديث كان يؤثر الداخل بالوسادة التي تكون تحته ... الحديث تقدم في الباب الثالث من آداب الصحبة .
- (٨) حديث . ما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة . أخرجه الترمذي في الدلائل من حديث علي الطويل وفيه . ويعطى كل جلسائه نصيبه لا يحسب جلسه أن أحداً أكرم عليه منه . مجلسه مجلس حلم وخياء ومبر وأمانة .
- (٩) حديث . كان يدعو أصحابه بكنائهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم . في الصحيحين في قصة النار من حديث أبي بكر . يا أبا بكر ما ظلك بائنين الله نائهما . ولما حكم من حديث ابن عباس . أنه قال لعمر يا أبا حفص أبصرت وجههم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر . أنه لأول يوم كناني فيه بأبي حفص . وقال صحيح على شرط مسلم وفي الصحيحين أنه قال لعلي . قم يا أبا تراب . ولما حكم من حديث رفاعة بن مالك : أن أبا حسن وجد مفضا في بطنه فتخلقت عليه - يريد عليا - ولأبي يعلى الموصلي من حديث سعد ابن أبي وقاص فقال من هذا ؟ أبو اسحق ؟ فقلت . نعم ، ولما حكم من حديث ابن مسعود . أن النبي صلى الله عليه وسلم كنائه أبا عبد الرحمن ولم يولد له . (١٠) حديث . كان يكنى من لم يكن له كنية وكان يدعى بكنائهم به أخرجه الترمذي من حديث أنس . قال كناني صلى الله عليه وسلم بقبلة كنت أختليها - يعني أبا حمزة - قال حديث غريب وابن ماجه . أن عمر قال لصحاب ابن مالك تسكتني وليس لك ولد ؟ قال كناني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي يعقوب . ولطبراني من حديث أبي بكر . تدليت بيكرة من الطائف فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم فأنت أبو بكر . (١١) حديث . كان يكنى النساء اللاتي هن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتدئ لهن الكنى . أخرجه الحاكم من حديث أم أيمن في قصة شربها بول النبي صلى الله عليه وسلم . فقال « يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة » . الحديث « وابن ماجه من حديث عائشة . أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم كل أزواجك كنيته غیری قال « فأنت أم عبد الله » والبخاري من حديث أم خالد . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها « يا أم خالد هذا سنان » وكانت صغيرة وفيه مولى الزبير لم يسم ولأبي داود بإسناد صحيح أنها قالت . يا رسول الله كل صواحي لهن كنى قال « فاكنتي بانبك عبد الله ابن الزبير » .

ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم ^(١) وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ^(٢) وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ^(٣) ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ^(٤) وكان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول « عليهن جبريل عليه السلام » ^(٥) .

بيان كلامه وضحكه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما ويقول ^(٦) :

أنا أفصح العرب ^(٧) وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ^(٨) وكان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه حُرزات نظم ^(٩) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : كان لا يسرد الكلام كسر دكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرون الكلام نثرا ^(١٠) قالوا : وكان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد ^(١١) وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه ببعضين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه ^(١٢) وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ^(١٣) وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير

(١) حديث . كان يكنى الصبيان . ففي الصحيحين من حديث أنس . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخ له صغير « يا أبا عمير ما فعل الصغير » . (٢) حديث . كان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا . هذا من المعلوم ويدل عليه خبره صلى الله عليه وسلم أن بني آدم خيرهم بطيئ الغضب سريع الغنى . رواه الترمذى من حديث أبي سعيد الخدرى وقال حديث حسن وهو صلى الله عليه وسلم خير بني آدم وسيدهم وكان صلى الله عليه وسلم لا ينضب لنفسه ولا ينتصر لها . رواه الترمذى في المعجمين من حديث هند ابن أبي هالة . (٣) حديث . كان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس . هذا من المعلوم ورويناه في الجزء الأول من فوائد أبي الدرداء من حديث علي بن فضال عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان أرحم الناس بالناس . الحديث بطوله . (٤) حديث : لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات . أخرجه الترمذى في المعجمين من حديث علي الطويل . (٥) حديث : كان إذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك » الحديث . أخرجه النسائى في اليوم والليلة والحاكم في المستدرک من حديث رافع ابن خديج وتقدم في الأذكار والدعوات . (٦) حديث : كان أفصح الناس منطقا وأحلام كلاما . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في كتاب الثماني وابن الجوزى في الوفاء بإسناد ضعيف من حديث بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفصح العرب وكان يتكلم بالكلام لا يدرون ما هو حتى يخبرهم ؟

(٧) حديث « أنا أفصح العرب » أخرجه الطبرانى في الكبير من حديث أبي سعيد الخدرى : أنا أعرب العرب . وإسناده ضعيف والحاكم من حديث عمر قال : قلت يا رسول الله ما بالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ الحديث : وفي كتاب الرد والمطر لابن أبي الدنيا في حديث مرسل : أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما رأيت أفصح منك ؟

(٨) حديث : إن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وصححه : كلام أهل الجنة عربى (٩) حديث : كان نزر الكلام سمح المقالة إذا نطق ليس بمهذار وكان كلامه حُرزات نظم أخرجه الطبرانى من حديث أم عبد وكان منطق خرزات نظم يتحدرون حلول المنطق لأنزرا ولا هذر . وقد تقدم وسيأتى في حديث عائشة بعده : كان إذا تكلم تكلم نورا وفي الصحيحين من حديث عائشة : كان يحدثنا حديثا لو عدده العادل أحصاه . (١٠) حديث عائشة : كان لا يسرد كسر دكم هذا كان كلامه نورا وأنتم تنثرونه نثرا . اتفق الشيخان على أول الحديث وأما الجملتان الأخيرتان فرواه الحديث في فوائده بإسناد منقطع .

(١١) حديث : كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد أخرجه عبيد بن حميد من حديث عمر بسند منقطع والدارقطنى من حديث ابن عباس بإسناد جيد : أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصارا . وشطره الأول متفق عليه - كما سيأتى - قال البخارى بلنى في جوامع الكلم أن الله جمع له الأمور الكثيرة في الأمر الواحد والأميرين ونحو ذلك . وللعلم من حديث عمر المتقدم : كانت لغة اسمعيل قد درست لجاء بها جبريل لحفظها . (١٢) حديث : كان يتكلم

بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كلام يتبع بعضه بعضا بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه . رواه الترمذى في المعجمين من حديث هند بن أبي هالة وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : بعث بجوامع الكلم . ولأبي داود من حديث جابر : كان في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب أو ترسيل . وفيه شيوخ لم يسم له وللترمذى من حديث عائشة : كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم كلاما فصلا يفهمه كل من سمعه . وقال الترمذى : يحفظه من جلس إليه وقال الترمذى في اليوم والليلة : يحفظه من سمعه وإسناده حسن . (١٣) حديث : كان جهير الصوت أحسن الناس نغمة . أخرجه الترمذى والنسائى في الكبرى من حديث صفوان بن عسال قال :

كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر بيننا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوته جهورى : يا محمد فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم =

حاجة (١) ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق (٢) - ويعرض عن تكلم بغير جميل (٣) ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره (٤) وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده (٥) في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة (٦) ويقول « لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض فإنه أنزل على وجوه (٧) ، وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم (٨) ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه (٩) وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له (١٠) قالوا : ولقد جاءه أعرابي يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي فإننا نسكر لونه فقال : دعوني فوالذي بعثه بالحق نبيا لأدعه حتى يتبسّم ، فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هرا لا أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به ؟ قالوا : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال « لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين (١١) » قالوا : وكان

= وسلم على نحو من صوته « هاؤم » الحديث . وقال أحمد في مسنده : وأجابه نحووا مما تسكلم به ... الحديث ، وقد يؤخذ من هذا أنه صلى الله عليه وسلم كان جهورى الصوت ولم يكن يرفعه دائما ، وقد يقال لم يكن جهورى الصوت وإنما رفع صوته رفقا بالأعرابي حتى لا يكون صوته أرفع من صوته وهو الظاهر وللشيوخ من حديث البراء : ما سمعت أحدا أحسن صوتا منه .

(١) حديث : كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . أخرجه في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة .

(٢) حديث : لا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قریش وقالوا تسكتب كل شيء ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن السكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال « اكتب فوالذي نفسى بيده ما يخرج منه إلا حق » رواه الحاكم وصححه . (٣) حديث : يعرض عن تكلم بغير جميل . أخرجه الترمذى في الشمائل من حديث على الطويل : يتناقل عما لا يشتهى الحديث . (٤) حديث : يكنى عما اضطره الكلام بما يكره فن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لامرأة رفاعة « حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » رواه البخارى من حديث عائشة : ومن ذلك ما انفقا عليه من حديثها في المرأة التي سألتها عن الاغتسال من الحيض « خذى فرصة ممسكة فتطهري بها ... الحديث » . (٥) حديث : كان إذا سكت تسكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث أخرجه الترمذى في الشمائل من حديث على الطويل . (٦) حديث يعظ بالجد والنصيحة . أخرجه مسلم من حديث جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم ... الحديث . (٧) حديث « لا تضربوا القرآن بعرضه ببعض وأنه أنزل على وجوه » أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن « لمن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تسكذبوا بعضه ببعض » وفي رواية للهروى في ذم الكلام « إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض » وفي رواية له « أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض » وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب « لمن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » . (٨) حديث : كان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخطا لنفسه بهم أخرجه الترمذى من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء : ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي الصحيحين من حديث جرير : ولا رأى إلا تبسم . والترمذى في الشمائل من حديث على : يضحك مما تضحكون منه ويتعجب مما تعجبون منه . ومسلم من حديث جابر بن سمرة : كانوا يتحدثون في أمور الجاهلية فيضحكون ويتبسم .

(٩) حديث : ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه : متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود في قصة آخر من يخرج من النار وفي قصة الخبر الذي قال . لمن الله يضع السموات على أصبع . ومن حديث أبي هريرة في قصة الحجاج في رمضان وغير ذلك

(١٠) حديث : كان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . أخرجه الترمذى في الشمائل من حديث هند بن أبي هالة في أثناء حديثه الطويل : جل ضحكك التبسم (١١) حديث : جاءه أعرابي يوما وهو متغير ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي ، فإننا نسكر لونه فقال : دعوني والذي بعثه بالحق نبيا لأدعه حتى يتبسّم . فقال : يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ... الحديث . وهو حديث منكر لم أف له على أصل ويرده قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المثيرة بن شعبة المتفق عليه حين سأله : أنهم يقولون لمن معه جبل خبز ونهر ماء قال « هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم . أنهم يقولون معه جبلا من خبز ولحم . الحديث . نعم في حديث حذيفة وأبي مسعود المتفق عليهما . لمن معه ماء ونارا الحديث ...

من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة (١) وكان إذا سرور رضى فهو أحسن الناس رضا فإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - وليس يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء وكذلك كان في أموره كلها (٢) وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشقه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٣) » .

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما وجد (٤) وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (٥) والصف ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة (٦) » وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصل إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد (٧) » ، وكان لا يأكل الحار ويقول « إنه غير ذي

(١) حديث : كان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة . تقدم حديث عبد الله بن الحارث : ما رأيت أحدا أكثر تبسما منه . ولطبراني في معارج الأئمة من حديث جابر : كان إذا نزل عليه الوحي قلت : نذير قوم ، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا . . . الحديث . ولأحمد من حديث علي أو الزبير : كان يخطب فيذكر بأيام الله حتى يعرف ذلك في وجهه وكأه . نذير قوم يصعبهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديث عهد بمجرب لم يتبس ضاحكا حتى يرتفع عنه ورواه أبو يعلى من حديث الزبير من غير شك وللحاكم من حديث جابر : كان إذا ذكر الساعة أحمرت وجنتاه واشتد غضبه . وهو عند مسلم باللفظ : كان إذا خطب (٢) حديث : كان إذا سرور رضى فهو أحسن الناس رضا وإن وعظ وعظ بجد وإن غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء . وكذلك كان في أموره كلها ، أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف غضبه ورضاه بوجهه كان إذا رضى فكأنما ملاحك الجدر وجهه ، ولإسناده ضعيف والمراد به المرأة توضع في الشمس فيرى ضوءها على الجدار ، وللشيخين من حديث كعب بن مالك قال : وهو يرق وجهه من السرور . وفيه : وكان إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قر وكننا نعرف ذلك منه . . . الحديث ، ومسلم : كان إذا خطب أحمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه . . . الحديث ، وقد تقدم والترمذي في الشمائل في حديث هند بن أبي هالة : لا تغضب الدنيا وما كان منها فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وقد تقدم (٣) حديث : كان يقول « اللهم أرني الحق حقا فأتبعه وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه وأعذني من أن يشقه على فأتبع هواي بغير هدى منك واجعل هواي تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » لم ألق لأوله على أصل ، وروى المستنفر في الدعوات من حديث أبي هريرة . كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم انك سألنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يرضيك هنا » ومسلم من حديث عائشة فيما كان يفتتح به صلاته من الليل « اهدني لما اختلف فيه » إلى آخر الحديث

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

(٤) حديث : كان يأكل ما وجد تقدم (٥) حديث : كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرت عليه الأيدي أخرجه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وابن عدى في الكامل من حديث جابر بسند حسن : أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي . ولأبي يعلى من حديث أنس : لم يجتمع له غذاء وعشاء خبز ولحم إلا على ضفف . ولإسناده ضعيف (٦) حديث : كان إذا وضعت المائدة قال « بسم الله اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » أما التسمية فرواها النساء من رواية : من خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثمان سنين : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرب إليه طعاما يقول « بسم الله . . . الحديث » ولإسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده (٧) حديث : كان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وقدميه كما يفعل المصل إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ويقول « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » أخرجه عبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب معصلا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أحقر وقال « آكل كما يأكل العبد . . . الحديث » وروى ابن الضحاك في الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف : كان إذا تعد على الطعام استوفى على ركبته =

بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه ^(١) » وكان يأكل بما يليه ^(٢) ، ويأكل بأصابه الثلاث ^(٣) ، وربما استعان بالرابعة ^(٤) ولم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان ^(٥) » وجاءه عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالودج فأكل منه وقال « ما هذا يا عبد الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقلبه على السمن والعسل في البرمة ، ثم نسوطة حتى ينضج فيأتي كما ترى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الطعام طيب ^(٦) » وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ^(٧) وكان يأكل القثاء بالرطب ^(٨) وبالمالح ^(٩) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب ^(١٠) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر ^(١١) وربما أكله

= اليسرى وأقام اليمنى ثم قال « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأفعل كما يفعل العبد » وروى أبو الشيخ في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بسند حسن من حديث أبي بن كعب : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجثو على ركبتيه وكان لا يتكبر . أورده في صفة أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبرار من حديث ابن عمر « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » ولأبي يعلى من حديث عائشة « آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وسندهما ضعيف (١) حديث : كان لا يأكل الحار ويقول « لأنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً » أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح : أن النبي صلى الله عليه وسلم يوماً بطعام سخن فقال « ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم » ولأحمد بإسناد جيد والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث خولة بنت قيس : قدمت له حريرة فوضع يده فيها فوجد حرها فقبضها . لفظ الطبراني والبيهقي وقال أحمد : فأحرقت أصابعه فقال : حس . وللطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة « أبردوا الطعام فإن الطعام الحار غير ذى بركة » وله فيه وفي الصغير من حديثه أتى بصحفة ثور فرفع يده منها وقال « إن الله لم يطعمنا ناراً » وكلاهما ضعيف (٢) حديث : كان يأكل مساميليه . أخرجه أبو الشيخ ابن حبان من حديث عائشة وفي إسناده رجل لم يسم وسماء في رواية له وكذلك البيهقي في روايته في الشعب عبيد بن القاسم لسبب سفیان الثوري ، وقال البيهقي تفرد به عبيد هذا وقد رماه ابن معين بالكذب ، ولأبي الشيخ من حديث عبد الله بن جعفر نحوه (٣) حديث : أكله بأصابه الثلاث . أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك (٤) حديث : استمأنته بالرابعة . وروناه في الغيلانيات من حديث عامر بن ربيعة وفيه القاسم بن عبد الله العمري هالك وفي مصنف ابن أبي شيبة من رواية الزهري مرسل : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل بالخنس (٥) حديث : لم يأكل بأصبعين ويقول « إن ذلك أكلة الشيطان » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف « لأننا كل بأصبع فإنه أكل الملوك ولا تأكل بأصبعين فإنه أكل الشياطين... الحديث » .

(٦) حديث : جاءه عثمان بن عفان بفالودج .. الحديث ، قلت : المعروف أن القدي صنع عثمان : الخبيص رواء البيهقي في الشعب من حديث ليث بن أبي سليم قال : إن أول من خبص الخبيص عثمان بن عفان ، قدمت عليه غير تحمل النقي والعسل .. الحديث . وقال هذا منقطع وروى الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبد الله بن سلام : أقبل عثمان ومعه راحلة عليها غرارتان . وفيه : فإذا دقيق وسمن وعسل . وفيه : ثم قال لأصحابه كلوا هذا الذي تسميه فارس الخبيص . وأما خبر الفالودج فرواه ابن ماجه بإسناد ضعيف من حديث ابن عباس قال : أول ما سمعنا بالفالودج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لمن أمتك فتفتح عليهم الأرض ويفاض عليهم من الدنيا حتى إنهم لياكلون الفالودج ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما الفالودج ؟ قال : يخلطون السمن والعسل جميعاً . قال ابن الجوزي في الموضوعات هذا حديث باطل لأصله (٧) حديث : كان يأكل خبز الشعير غير منخول ، أخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد (٨) حديث : كان يأكل القثاء بالرطب . متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر (٩) حديث : كان يأكل القثاء بالمالح . أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هاشم كذبه ابن معين وغيره ورواه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك (١٠) حديث : كان أحب الفاكهة الرطبة إليه البطيخ والعنب . أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي من رواية أمية بن زيد العيسى : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب من الفاكهة العنب والبطيخ . وروى أبو الشيخ وابن عدى في السكامل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس : كانت يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره ويأكل الرطب بالبطيخ ؛ وكان أحب الفاكهة إليه . فيه يوسف ابن عطية الصغار يجمع على ضعفه وروى ابن عدى من حديث عائشة : كان أحب الفاكهة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرطب والبطيخ . وله من حديث آخر لها . فإن خير الفاكهة العنب . وكلاهما ضعيف (١١) حديث . كان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر . أما أكل البطيخ بالخبز فلم أره وإنما وجدت أكل العنب بالخبز فيها رواه ابن عدى من حديث عائشة صرفوا « عايكم بالمرامة » قيل يا رسول الله وما المرامة ؟ قال « أكل الخبز مع العنب . فإن خير الفاكهة العنب وخير الطعام الخبز » وإسناده ضعيف . وأما أكل البطيخ بالسكر فإن أريد بالسكر نوع من الخمر والرطب مفهوف فهو الحديث الآتي بعده وإن أريد به السكر الذي هو الطابزد فلم أر له أصلاً إلا في حديث منسك مفضل رواه أبو هريرة التوفاني في كتاب البطيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين . أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل بطيخاً بسكر . وفيه موسى =

بالرطب ^(١) ويستمتعين باليدين جميعاً ، وأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة ^(٢) وكان ربما أكل العنب خرطاً يرى زوانه على لحيته كحرز اللؤلؤ ^(٣) وكان أكثر طعامه المساء والتمر ^(٤) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين ^(٥) وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول : هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفعل ^(٦) ، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع ^(٧) وكان يحب القرع ويقول : إنها شجرة أخى يوسف عليه السلام ^(٨) ، قالت عائشة رضى الله عنها وكان يقول : يا عائشة إذ طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين ^(٩) ، وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد ^(١٠) وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتي به فيأكله ^(١١) وكان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم يتهشه انتهاشا ^(١٢) وكان يأكل الخبز والسمن ^(١٣) وكان يحب من الشاة الذراع والكف ، ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخلل ومن التمر

= ابن ابراهيم المروزي كذبه يحيى بن معين ^(١) حديث . أكل البطيخ بالرطب أخرجه الترمذى والنسائى من حديث عائشة وحسنه الترمذى وابن ماجه من حديث سهل بن سعد . كان يأكل الرطب بالبطيخ . وهو عند الدارمى بلفظ . البطيخ بالرطب ^(٢) حديث . استعانت به باليدين جميعاً فأكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فرت شاة فأشار إليها بالنوى فجعلت تأكل من كفه اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة . أما استعانت به يديه جيما فرواه أحمد من حديث عبد الله بن جعفر قال . آخر ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى يديه رطبات وفي الأخرى قناء يأكل من هذه وبعض من هذه . وتقدم حديث أنس في أكله بيديه قبل هذا بثلاثة أحاديث وأما قصته مع الشاة فرويناها في فوائد أبي بكر الشافعى من حديث أنس بإسناد ضعيف .

^(٣) حديث . ربما أكل العنب خرطاً ... الحديث . أخرجه ابن عدى في الكامل من حديث العباس والعقلى في الضعفاء من حديث ابن عباس هكذا مختصراً وكلاهما ضعيف . ^(٤) حديث . كان أكثر طعامه المساء والتمر . أخرجه البخارى من حديث عائشة . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شبعنا من الأسودين التمر والمساء . ^(٥) حديث . كان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين . أخرجه أحمد من رواية اسماعيل بن أبي خالد عن أبيه قال . دخلت على رجل وهو يجمع لبنا بتمر وقال . ادن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها الأطيبين ورجاله نقات ولبهاهم لا يضر . ^(٦) حديث : كان أحب الطعام إليه اللحم ويقول : هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفعل . أخرجه أبو الشيخ من رواية ابن سمان قال : سمعت من علمائنا يقولون كان أحب الطعام لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحم ... الحديث . والتزمى في الدلائل من حديث جابر : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فذبنا له شاة فقال : كأنهم علموا أنا نحب اللحم . ولم يناده صريح وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف : سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم . ^(٧) حديث : كان يأكل الثريد باللحم والقرع أخرجه مسلم من حديث أنس . ^(٨) حديث : كان يحب القرع ويقول : إنها شجرة أخى يوسف . أخرجه النسائى وابن ماجه من حديث أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب القرع . وقال النسائى : الدباء ، وهو عند مسلم بلفظ : تعجبه وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي هريرة في قصة يوسف : فلفظته في أصل شجرة ، وهى الدباء . ^(٩) حديث : يا عائشة إذا طبختم قدراً فأكثروا فيها من الدباء فإنها تشد قلب الحزين . رويناه في فوائد أبي بكر الشافعى . ^(١٠) حديث : كان يأكل لحم الطير الذى يصاد . أخرجه الترمذى من حديث أنس قال : كان عند النبي صلى الله عليه وسلم طير فقال : اللهم ائتني بأحب الخلق لمالك يأكل معى هذا الطير . فجاء على فأكل معه ، قال حديث غريب قلت وله طرق كلها ضعيفة . وروى أبو داود والترمذى واستنبره من حديث سفينة قال : أكلت مع النبي صلى الله عليه وسلم لحم حبارى . ^(١١) حديث : كان لا يتبعه ولا يصيده ويجب أن يصاد له فيؤتي به فيأكله . قلت هذا هو الظاهر من أحواله فقد قال من تبع الصيد غفل رواه أبو داود والنسائى والترمذى من حديث ابن عباس وقال : حسن غريب وأما حديث صفوان بن أمية عند الطبرانى : قد كانت قبلى لله رسل كلهم يصطاد ويطلب الصيد فهو ضعيف جدا . ^(١٢) حديث : كان إذا أكل اللحم لم يطأطى رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعا ثم تهشه . أخرجه أبو داود من حديث صفوان بن أمية قال : كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فآخذ اللحم من العظم فقال : أدن اللحم من فمك فإنه أهنا وأمرأ . والترمذى من حديثه : انهش اللحم نهشاً فإنه أهنى وأمرأ . وهو منقطع والذي قبله منقطع أيضاً ولا يشيخ من حديث أبي هريرة : فتناول الذراع فنهش منها نهشة ... الحديث . ^(١٣) حديث : كان يأكل الخبز والسمن . متفق عليه من حديث أنس في قصة طويلة فيها : فأنت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقت وعصرت أم سليم عكة فآدمته ... الحديث . وفيه : ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم . وفي رواية ابن ماجه : فصنعت فيها شيئاً من سمن ولا يصح وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عمر : وددت أن عندى خبزة بيضاء من بر سمراء مابغة بسمن ... الحديث . قال أبو داود منكر .

العجوة^(١) ودعا في العجوة بالبركة وقال « هي من الجنة وشفاء من السم والسحر »^(٢) وكان يحب من البقول الهندباء والباذرورج والبقلة الحفقاء التي يقال لها الرجلثة^(٣) : وكان يكره السكيتين لمكانهما من البقول^(٤) وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدد والحيا والدم ، ويكره ذلك^(٥) وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات^(٦) وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره^(٧) وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرهما^(٨) وكان يلعق بأصابعه الصحيفة ويقول : آخر الطعام أكثر بركة^(٩) : وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر^(١٠) وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول : إنه لا يدري في أي الطعام البركة^(١١) :

(١) حديث : كان يحب من الثمار العجوة . وروى الشيخان من حديث أبي هريرة قال : وضعت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكانت أحب الشاة لمليه ... الحديث . وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس : كان أحب اللحم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السكتف . وإسناده ضعيف ومن حديث أبي هريرة : لم يكن يعجبه من الشاة إلا السكتف . وتقدم حديث أنس : كان يحب الدباء . قبل هذا بسة أحاديث ولأبي الشيخ من حديث أنس : كان أحب الطعام لمليه الدباء . وله من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : كان أحب الصباغ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخل . وله بالإسناد المذكور : كان أحب الثمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة .

(٢) حديث : دعا في العجوة بالبركة وقال « هي من الجنة وشفاء من السم والسحر » أخرجه الزوار والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن الأسود قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد سدوس فأهدينا له تمرًا . وفيه : حتى ذكرنا تمر أهلنا هذا الجذائي فقال « برك الله في الجذائي وفي حقيقة خرج هذا منها ... الحديث » قال أبو موسى المديني : قيل هو تمر أحر والتمر مذى والذائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة « العجوة من الجنة وهي شفاء من السم » وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص « من أصبح تبرأت من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر » . (٣) حديث : كان يحب من البقول الهندباء والباذرورج والبقلة الحفقاء - التي يقال لها الرجلثة - أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس « عليكم الهندباء فإنه ما يوم لا ويقطر عليه قطرة من قطار الجنة » وله من حديث الحسن بن علي وأنس بن مالك نحوه وكلها ضعيفة وأما الباذرورج فلم أجد فيه حديثاً وأما الرجلثة فروى أبو نعيم من رواية ثوير قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلة وفي رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « برك الله فيك أنبى حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناء الصداق » وهذا مرسل ضعيف

(٤) حديث : كان يكره السكيتين لمكانهما من البقول . رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبيد الله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سميد الحسن بن علي العدوي أحد الكذابين . (٥) حديث : كان لا يأكل من الشاة الذكر والأنثيين والمثانة والمرارة والغدة والحيا والدم . أخرجه ابن عدى ومن طريقه البيهقي من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقي من رواية مجاهد مرسلًا . (٦) حديث : كان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا السكرات . أخرجه مالك في الموطأ عن الزهري عن سليمان بن يسار مرسلًا ووصله الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري عن أنس وفي الصحيحين من حديث جابر : أتى بقدر فيه خضرات من بقول فوجد لها ريحا ... الحديث . وفيه : قال فاني أناجي من لاتأجي . وسلم من حديث أبي أيوب في قصة بعثه لمليه بطعام فيه ثوم فلم يأكل منه وقال « لني أكرهه من أجل ريحه » . (٧) حديث : ما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره . تقدم أول الحديث وفي الصحيحين من حديث ابن عمر في قصة الضب فقال « كلوا فإنه ليس بحرام ولا بأس به ولا سكره ليس من طعام قومي » (٨) حديث : كان يعاف الضب والطحال ولا يحرهما أما الضب ففي الصحيحين عن ابن عباس « لم يكن بأرض قومي فأجذني أعافه » ولها من حديث ابن عمر « أحلت لنا ميتتان ودمان » وفيه « أما الدمان : فالسكب والطحال » والبيهقي موقوفاً على زيد بن ثابت « لني لا كل الطحال وما بي إليه حاجة إلا ليعلم أهلي أنه لا بأس به »

(٩) حديث : كان يلعق الصحيفة ويقول « آخر الطعام أكثر بركة » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث جابر في حديث قال فيه : ولا ترفع القصعة حتى تلعقها - أو تلعقها - فإن آخر الطعام فيه البركة . وسلم من حديث أنس : أمرنا أن نسلط الصحيفة وقال « إن أحدكم لا يدري أي طعامه يبارك له فيه ؟ » . (١٠) حديث : كان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر . أخرجه من حديث كعب بن مالك دون قوله حتى تحمر فلم أقف له على أصل . (١١) حديث كان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول « إنه لا يدري في أي أصابعه البركة » أخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك . أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمسح يده حتى يلعقها وله من حديث جابر . فإذا فرغ فليلق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تسكون البركة ؟ والبيهقي في الشعب من حديثه « لا يمسح أحدكم يده بالمنديل حتى يلعق يده فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه » .

وإذا فرغ قال « الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعيت وسقيت فأروبت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ^(١)، وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه ^(٢) وكان يشرب في ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفي أواخرها ثلاث تحميدات ^(٣) وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبا ^(٤) وكان يدفع فضل سورة إلى من على يمينه ^(٥) فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه « السنة أن تعطى فإن أحببت آثرتهم ^(٦)، وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ ^(٧) وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه ^(٨) وأتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ^(٩)، ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا أحرمه ولكني أكره الفخر والحساب بفضل الدنيا غداً وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله » وكان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب ^(١٠) وكان ربما قام فأخذ ماياً كل بنفسه أو يشرب ^(١١) .

(١) حديث : وإذا فرغ قال « اللهم لك الحمد أطعمت وأشبعيت وسقيت وأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » أخرجه الطبراني من حديث الحارث بن الحارث بسند ضعيف ولا يخفى من حديث أبي أمامة : كان إذا فرغ من طعامه قال « الحمد لله الذي كفانا وآوانا غير مكفى ولا مكفور » وقال مرة « الحمد لله ربنا غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » (٢) حديث : كان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلًا جيدًا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه » أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف من أكل من هذه الأجر شيئاً فليغسل يده من ريح وضربه لا يؤذى من هذا » . (٣) حديث : كان يشرب في ثلاث دفعات له فيها ثلاث تسميات وفي آخرها ثلاث تحميدات » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورجاله ثقات ومسلم من حديث أنس : كان إذا شرب تنفس ثلاثاً . (٤) حديث : كان يمص الماء مصا ولا يعبه عبا . أخرجه الباقون والطبراني وابن عدى وابن قانع وابن مندو وأبو نعيم في الصحابة من حديث بهز : كان يستاك عرضاً ويشرب مصا . والطبراني من حديث أم سلمة : كان لا يعب . ولأبي الشيخ من حديث ميمونة : لا يعب ولا يلهث . وكلها ضعيفة . (٥) حديث : كان يدفع فضل سورة إلى من عن يمينه . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : استئذنه من على يمينه إذا كان من على يساره أجل رتبة . متفق عليه من حديث سهل بن سعد . (٧) حديث : شربه بنفس واحد . أخرجه أبو الشيخ من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف وللحاكم من حديث أبي قتادة وصححه « إذا شرب أحدكم فليشرب بنفس واحد » ولعل تأويل هذين الحديثين على ترك التنفس في الإناء والله أعلم . (٨) حديث : كان لا يتنفس في الإناء حتى ينحرف عنه . أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة « ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا شرب منه ولكن إذا أراد أن يتنفس فليؤخره عنه ثم ليتنفس » وقال حديث صحيح الإسناد .

(٩) حديث : أتى بإناء فيه عسل ولبن فأبى أن يشربه وقال « شربتان في شربة وإدامان في إناء واحد ... الحديث » رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله « شربتان في شربة » إلى آخره وسنده ضعيف . (١٠) حديث : كان في بيته أشد حياء من العاتق لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل وما سقوه شرب » رواه الشيخان من حديث أبي سعيد : كان أشد حياء من العذراء في خدرها ... الحديث . وقد تقدم ، وأما كونه كان لا يسألهم طعاماً فإنه أراد أى طعام يعينه من حديث عائشة : أنه قال ذات يوم « يا عائشة هل عندكم شيء ؟ » قالت : فقلت ما عندنا شيء ؟ الحديث وفيه : فلما رجع قلت : أهديت لنا هدية ، قال « ما هو ؟ » قلت : حيس ، قال « هاتيه » وفي رواية « قريبه » وفي رواية « لانسأى » أصبح عندكم شيء تطعمني ؟ » ولأبي داود « هل عندكم طعام ؟ » والترمذي « أعندك غداء ؟ » وفي الصحيحين من حديث عائشة : فدعا بطعام فأبى بغير وأدم من آدم البيت فقال « ألم أر برمة على النار فيها لحم ؟ .. الحديث » وفي رواية لمسلم « لو صنعت لانا من هذا اللحم ... الحديث » فليس في قصة بريرة إلا الاستفهام والرضا . والحكمة فيه بيان الحكم لا التمسى والله أعلم . ولشيخين من حديث أم الفضل : أنها أرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه . ولأبي داود من حديث أم هانئ : لجأت الوليدة بإناء فيه شراب فتناوله فشرب منه . وإسناده حسن . (١١) حديث : وكان ربما قام فأخذ ماياً كل أو يشرب بنفسه . أخرجه أبو داود من حديث أم المنذر بنت قيس . دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب ومعه على - وعلى ناقه - ولنا دوال معلقة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منها ... الحديث . وإسناده حسن وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث كبشة : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرب من في قربة معلقة قائماً ... الحديث .

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

كان صلى الله عليه وسلم يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك ^(١) وكان يعجبه الثياب الخضراء ^(٢) وكان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب ^(٣) وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه ^(٤) وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق السكعين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق ^(٥) وكان قميصه مشدوداً لإزاره وربما حل الأزار في الصلاة وغيرها ^(٦) وكانت له ملحفه مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ^(٧) وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ^(٨) وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » ^(٩) وكان له ثوبان

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

(١) حديث : كان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك . أخرجه الشيخان من حديث عائشة . أنها أخرجت إزاراً مما يصنع باليمن وكساء من هذه الملبدة فقالت في هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية : لإزاراً غليظاً . ولها من حديث أنس : كنت أمتي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الخاشية ... الحديث . لفظ مسلم وقال البخاري برد نجراني . وابن ماجه بسند ضعيف من حديث ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قميصاً قصير اليدين والطول . وأبو داود والترمذي وحسنه . والنسائي من حديث أم سلمة : كان أحب الثياب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص . ولأبي داود من حديث أسماء بنت يزيد : كانت يد قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرسغ . وفيه شهر ابن حوشب مختلف فيه وتقدم قبل هذا الحديث حديث : الجبة والشملة والخبرة . (٢) حديث : كان أكثر لباسه البياض ويقول « ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عباس « خير ثيابكم البياض فألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » قال الحاكم : صحيح الإسناد وله لأصحاب السنن من حديث سمرة « عليكم بهذه الثياب البياض فليلبسها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم » انظر الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وقال الترمذي حسن صحيح .

(٣) حديث « كان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب » أخرجه الشيخان من حديث المسور بن مخرمة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أفيهة من ديباج مزرر بالذهب ... الحديث . وليس في طرق الحديث لبسها إلا في طريق علقما البخاري قال : نزع عليه قباء من ديباج مزررة بالذهب ... الحديث ومسلم من حديث جابر : لبس النبي صلى الله عليه وسلم يوماً قباء من ديباج أهدى له ثم نزع ... الحديث . (٤) حديث كان له قباء سندس فيلبسه ... الحديث « أخرجه أحمد من حديث أنس : أن أكيذر دومة أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم جبة سندس أو ديباج قبل أن ينهى عن الحرير فلبسها . والحديث في الصحيحين وليس فيه أنه لبسها وقال فيه : وكان ينهى عن الحرير وعند الترمذي وصححه النسائي أنه لبسها ولكنه قال : بحجة ديباج منسوجة فيها الذهب (٥) حديث : كان ثيابه كلها مشمرة فوق السكعين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق رواه أبو الفضل محمد بن طاهر في كتاب صفوة التصوف من حديث عبد الله بن يسر : كانت ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإزاره فوق السكعين وقميصه فوق ذلك ورداؤه فوق ذلك ولإسناده ضعيف والحاكم وصححه من حديث ابن عباس : كان يلبس قميصاً فوق السكعين ... الحديث وهو عنده بلفظ : قميصاً قصير اليدين والطول وعندهما والترمذي في الشمائل من رواية الأشعث قال : سمعت عمتي تحدث عن عمها وذكر النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : فإذا إزاره إلى نصف ساقه ورواه النسائي وسمى الصحابي عبيد بن خالد واسم عمه الأشعث وهم بيت الأسود ولا يعرف (٦) حديث : كان قميصه مشدوداً لإزاره وربما حل الأزار في الصلاة وغيرها أبو داود والبيهقي والترمذي في الشمائل من رواية معاوية بن قررة بن إياس عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في رهط من مزينة وبإيعاء وإن قميصه لمطابق الأزار . ولا يهتق من رواية زبد بن أسلم قال : رأيت ابن عمر يصلي بحلولة أزاره فسألتهم عن ذلك فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله . وفي العلل للترمذي أنه سأل البخاري عن هذا الحديث فقال : أنا أتقي هذا الشيخ كأن حديثه موضوع يعني زهير بن محمد راويه عن زيد بن أسلم قلت تابعه عليه الوليد بن مسلم عن زيد رواه ابن خزيمة في صحيحه ، والطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي محتبياً محلل الأزار (٧) حديث : كان له ملحفه مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قيلة بنت مخرمة قالت : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملاءتين كانتا يزعفران قال الترمذي لا نعرفه إلا من عهد الله بن حسان . قلت ورواته موثقون وأبو داود من حديث قيس بن سعد فاغتسل ثم ناوله أبي سعد ملحفه مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها الحديث ورجاله ثقات .

(٨) حديث : ربما لبس الكساء وحده ليس عليه غيره رواه ابن ماجه وابن خزيمة من حديث ثابت بن العاصم : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في بني عبيد الأشمل وعليه كساء متلف به ... الحديث . وفي رواية البزار في كساء (٩) حديث : كان له كساء ملبد يلبسه ويقول « أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » أخرجه الشيخان من رواية أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة كساء ملبد

لجمعيته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة ^(١) وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ^(٢) وربما أم به الناس على الجنائز ^(٣) وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ ^(٤) وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ^(٥) ولقد كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء الأسود ؟ فقال « كسوته » فقالت ما رأيته شيئا قط كان أحسن من بياضك على سواده ^(٦) وقال أنس : وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه ^(٧) وكان يتختم ^(٨) وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء ^(٩) وكان يختم به على الكتف ويقول الخاتم على الكتاب خير من التهمة ^(١٠) وكان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة ، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها ستره بين يديه ثم يصلي ليلها ^(١١) وربما لم تكن العمامة فيشد العصاة

= وإزارا غليظا فقالت : في هذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللبخاري من حديث عمر « إنما أنا عبد » ولعبد الرزاق في المصنف من رواية أيوب السخيتاني مرفوعا مضافا « إنما أنا عبد أكمل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » وتقدم من حديث أنس وابن عمر وعائشة . متصلا .

(١) حديث : كان له ثوبان لجمعيته خاصة ... الحديث . أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف زاد : فإذا انصرف طويناها إلى مثله . ويردده حديث عائشة عند ابن ماجه : ما رأيته يسب أحدا ولا يطوى له ثوب .

(٢) حديث : ربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه . أخرجه الشيخان من حديث عمر في حديث اعزله أهله : فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره . وللبخاري من رواية محمد بن المنكدر صلى بنا جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه وثيابه موضوعه على المشجب وفي رواية له وهو يصلي في ثوب ملتصقا به ورداؤه موضوع فيه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يصلي هكذا (٣) حديث : ربما أم به الناس على الجنائز . لم أقف عليه (٤) حديث : ربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتصقا به مخالفا بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ أخرجه أبو يعلى بإسناد حسن من حديث معاوية قال : دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في ثوب واحد فقلت : يا أم حبيبة أيعلى النبي صلى الله عليه وسلم في الثوب الواحد ؟ قالت : نعم ، وهو الذي كان فيه ما كان - تعني الجماع - ورواه الطبراني في الأوسط .

(٥) حديث : ربما كان يصلي بالليل ويرتدى ببعض الثوب مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه . أخرجه أبو داود من حديث عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في ثوب بعضه على . ولمسلم : كان يصلي من الليل وأنا إلى جنبه وأنا حائض وعلى مرط بعضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللطبراني في الأوسط من حديث أبي عبد الرحمن حاضن عائشة : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة يصليان في ثوب واحد نصفه على النبي صلى الله عليه وسلم ونصفه على عائشة . وسنده ضعيف .

(٦) حديث : كان له كساء أسود فوهبه فقالت له أم سلمة : بأبي أنت وأمي ما فعل ذلك الكساء ؟ ... الحديث . لم أقف عليه من حديث أم سلمة . ولمسلم من حديث عائشة : خرج النبي صلى الله عليه وسلم وعليه مرط مرسل أسود . ولأبي داود والنسائي : صنعت للنبي صلى الله عليه وسلم بردة سوداء من صوف فلبسها ... الحديث . وزاد فيه ابن سعد في الطبقات : فذكرت بياض النبي صلى الله عليه وسلم وسوداها ورواه الحاكم بلفظ : جبة . وقال صحيح على شرط الشيخين (٧) حديث أنس . وربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة عاقدا بين طرفيه . أخرجه البراء وأبو يعلى بلفظ : صلى بثوب واحد وقد خالف بين طرفيه . وللبزار : خرج في مرضه الذي مات فيه مرتديا بثوب قطن فصلى بالناس ولمسناده صحيح . وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت : صلى في شملة قد عقد عليها . وفي كامل ابن عدي : قد عقد عليها هكذا - وأشار سفيان إلى قفاه - وفي جزء النظريف : فقدها في عنقه ما عليه غيرها . ولمسناده ضعيف (٨) حديث : كان يتختم . أخرجه الشيخان من حديث ابن عمر وأنس (٩) حديث : ربما خرج وفي خاتمه خيط مربوط يتذكر به الشيء . أخرجه ابن عدي من حديث واثلة بسند ضعيف : كان إذا أراد الحاجة أوثق في خاتمه خيطا . وزاد الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث ابن عمر : ليذكره به . وسنده ضعيف .

(١٠) حديث : كان يختم به على الكتف ويقول « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » أخرجه الشيخان من حديث أنس : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الروم قالوا : لمنهم لا يقرءون إلا كتابا محتوما فاتخذ خاتما من فضة ... الحديث . والنسائي والترمذي في الشمائل من حديث ابن عمر : اتخذ خاتما من فضة كان يختم به ولا يلبسه . وسنده صحيح وأما قوله « الخاتم على الكتاب خير من التهمة » فلم أقف له على أصل . (١١) حديث : كان يلبس القلانس تحت العمامة وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها ستره بين يديه ثم يصلي ليلها . أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس قلنسوة بيضاء . ولأبي الشيخ من حديث ابن عباس : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث قلانس . قلنسوة بيضاء مضرية وقلنسوة برد حبرة وقلنسوة ذات آذان يلبسها في السفر وربما وضعها بين يديه إذا صلى =

على رأسه وعلى جبهته ^(١) وكانت له عمامة تسمى : السحاب ، فوهبها من على فريما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم « أتاكم على في السحاب ^(٢) » وكان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه ^(٣) ويقول « الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس ^(٤) » وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ^(٥) وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « مامن مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ماواراه حيا وميتا ^(٦) » وكان له فراش من آدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ^(٧) وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ثنئ طاقين تحته ^(٨) وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ^(٩) وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته : العقاب . واسم سيفه الذي يشهده بالحروب : ذو الفقار . وكان له سيف يقال له : المخدّم . وآخر يقال له : الرسوب : وآخر يقال له : القضيّب . وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة ^(١٠)

= وإسنادهما ضعيف ولأبى داود والترمذى من حديث ركّانة « فرقى ما بيننا وبين المشركين العلماء على الفلاس » قال الترمذى : غريب وليس إسنادهما بالقائم . (١) حديث : ربما لم تكن العمامة فيشد المصاغة على رأسه وعلى جبهته . أخرجه من حديث ابن عباس سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر وقد عصب رأسه بمصاغة دسما . الحديث . (٢) حديث : كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على فريما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم « أتاكم على في السحاب » أخرجه ابن عدى وأبو الشيخ من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده وهو مرسل ضعيف جدا ولأبى نعيم في دلائل النبوة من حديث عمر في أثناء حديث : عمامته السحاب . . الحديث . (٣) حديث . كان إذا لبس ثوبا يلبسه من قبل ميامنه . أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ورجاله رجال الصحيح وقد اختلف في رفعه . (٤) حديث « الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس » أخرجه الترمذى وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر بن الخطاب . (٥) حديث : كان إذا نزع ثوبه خرج من مياسره . أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان إذا لبس شيئا من الثياب بدأ بالأيمن وإذا نزع بدأ باليسر . وله من حديث أنس : كان إذا ارتدى أو ترجل أو اتعل بدأ يمينه وإذا خلع بدأ بيساره . وسندهما ضعيف وهو في الاعتلال في الصحيحين من حديث أبى هريرة من قوله لا من فعله . (٦) حديث : كان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « مامن مسلم يكسو مسلما . . الحديث » أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب من حديث عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بثيابه فلبسها فلما بلغ تراقيه قال « الحمد لله الذي كساني ما أتجمل به في حياتي وأوارى به عورتى » ثم قال « مامن مسلم يلبس ثوبا جديدا . . الحديث » دون ذكر : تصدقه صلى الله عليه وسلم بثيابه وهو عند الترمذى وابن ماجه وروى ذكر لبس النبي صلى الله عليه وسلم لثيابه وهو أصبح وقد تقدم قال البيهقي وهو غير قوى .

(٧) حديث : كان له فراش من آدم حشوه ليف . . الحديث . متفق عليه من حديث عائشة مقتصر على هذا دون ذكر : عرضه وطوله . ولأبى الشيخ من حديث أم سلمة . كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم نحو ما يوضع الإنسان في قبره . وفيه : من لم يسم . (٨) حديث : كانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تفرش طاقين تحته . أخرجه ابن سعد في الطبقات وأبو الشيخ من حديث عائشة : دخلت على امرأة من الأنصار قرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية . . الحديث . ولأبى سعيد عنها : أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنين . . الحديث وكلاهما لا يصح والترمذى في الشرائع من حديث حفصة : وسئلت ما كان فراشه ؟ قالت : مسح نثنيه ثنتين فينام عليه . . الحديث . وهو منقطع (٩) حديث : كان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره . متفق عليه من حديث عمر : في قصة اعتزال النبي صلى الله عليه وسلم نسائه . (١٠) حديث : كان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه وكان اسم رايته العقاب واسم سيفه الذي يشهده بالحروب ذو الفقار وكان له سيف يقال له المخدّم وآخر يقال له الرسوب وآخر يقال له القضيّب وكان قبضة سيفه محلاة بالفضة . أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم سيف قائمته من فضة وقيبعته من فضة وكان يسمى ذات الفضول وكانت له حربة تسمى النبعة وكانت له بجن تسمى الدفن وكان له ترس أبيض يسمى موجزا وكان له فرس أدم يسمى السكب وكان له سرج يسمى الداج المؤخر وكان له بئلة شهباء يقال له الدلدل وكانت له ناقة تسمى الفصواء وكان له حمار يسمى ينفور وكان له بساط يسمى السكرو وكانت له عنزة تسمى الثمر وكانت لها ركوة تسمى الصادر وكانت له امرأة تسمى المرأة وكان له مقرض يسمى الجامع وكان له قضيب شوحط يسمى المشوق . وفيه عن ابن جرير الدمشقي نسب إلى وضع الحديث ورواه ابن هدى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف : كانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء تسمى العقاب . ورواه أبو الشيخ من حديث الحسن مرسل وله من حديث علي بن أبي طالب : كان اسم سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذو الفقار . أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس : أنه صلى الله عليه وسلم تنقل سيفه ذو الفقار يوم بدر =

وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة ^(١) وكان اسم قوسه : السكتوم . وجعبته الكافور ^(٢) وكان اسم ناقته : القصواء ، وهي التي يقال لها : العضباء - واسم بغلته : الدليل : وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة ^(٣) وكان له مطهرة من غبار يتوضأ فيها ويشرب منها ^(٤) فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا فيدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدفعون عنه فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا على وجوههم وأجسادهم ويبتغون بذلك البركة .

بيان عفوه صلى الله عليه وسلم مع قدرته

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ^(٥) وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل : فقال : ويحك فمن يعدل عليه بعدى ، فلما ولي قال : ردوه على رويدها ^(٦) ، روى جابر : أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : يا رسول الله أعدل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل ، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي ^(٧) : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرب فراؤا من المسلمين غزاة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : « الله » فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير أخذ قال : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله : فقال : لا ، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك

= والحاكم من حديث علي في أثناء حديث وسيفه ذو الفقار وهو ضعيف ولا بن سعد في الطبقات من رواية مروان بن أبي سعيد ابن الملقى مرسلًا قال : أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاح بني قينقاع ثلاثة أسياف : سيف قلبي وسيف يدعي ابتارا وسيف يدعي الخنز ، وكان عنده بعد ذلك الخنز ورسوب أصحابها من القلنس وفي سنده الواقدي وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه : أنه يقال أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ومعه سيفان يقال لأحدهما العضب شهد به بدرًا ولأبي داود والترمذي وقال حسن والنسائي وقال منكر من حديث أنس : كانت قبضة سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فضة . ^(١) حديث : كان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة لم أقف له على أصل : ولا بن سعد في الطبقات وأبي الشيخ من رواية محمد بن علي بن الحسين مرسلًا : كان في درع النبي صلى الله عليه وسلم حلقتان من فضة . ^(٢) حديث : كان اسم قوسه السكتوم وجعبته الكافور . لم أجد له أصلاً وقد تقدم في حديث ابن عباس : أنه كانت له قوس تسمى السداد وكانت له كنانة تسمى الجمع وقال ابن أبي خيثمة في تاريخه : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد من سلاح بني قينقاع ثلاثة قوس : قوس اسمها الروحاء ، وقوس شوخط يدعي البيضاء ، وقوس صفراء تدعى الصفراء ؟ من سبع .

^(٣) حديث : كان اسم ناقته القصواء وهي التي يقال لها العضباء واسم بغلته الدليل واسم حماره يعفور واسم شاته التي يشرب لبنها عينة . تقدم بعضه من حديث ابن عباس عند الطبراني ، وللبخاري من حديث أنس : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة يقال لها العضباء . وللسلم من حديث جابر في حجة الوداع : ثم ركب القصواء والحاكم من حديث علي : ناقته القصواء وبغلته دليل وحماره عفير ... الحديث . ورويناه في فوائد ابن الدحداح فقال : حماره يعفور وفيه شاته بركة والبخاري من حديث معاذ : كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له : عفير ، ولا بن سعد في الطبقات من رواية إبراهيم بن عبد الله من ولد عتبة بن غزوان : كانت مناج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنم سبعة : بحوة وزمزم وسقيا وبركة ورشة واهلال وأطراف . وفي سنده الواقدي وله من رواية مكحول مرسلًا : كانت له شاة تسمى قر ^(٤) حديث : كانت له مطهرة من غبار يتوضأ منها ويشرب فيها : الحديث . لم أقف له على أصل .

بيان عفوه مع القدرة

^(٥) حديث : كان أحلم الناس . تقدم ^(٦) حديث : أتى بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه . الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر بإسناد جيد ^(٧) حديث جابر : أنه كان يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال فقال له رجل : ياني الله أعدل ... الحديث . رواه مسلم

ولأكون مع قوم يقتلوك ، نغلي سبيله ، فجاء أصحابه فقال : جئتمكم من عند خير الناس ^(١) وروى أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ليأكل منها فجئ بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك فقالت . أردت قتلك ؛ فقال : ما كان الله ليسلطك على ذلك : قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال . لا ^(٢) : وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحل العقد فوجد لذلك خفة وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط ^(٣) وقال علي رضي الله عنه : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا الزبير والمقداد فقال : اطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب نخذوه منها : فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا أخرجي الكتاب فقالت : مامعى من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمرا من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل على أنى كنت امرأ ملصقا في قومي وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعل ذلك كفرا ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتدادا عن ديني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم : فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ^(٤) : وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه وقال : رحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ^(٥) : وكان صلى الله عليه وسلم يقول : لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ^(٦) .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما كان يكرهه

كان رسول الله رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف في وجهه غضبه ورضاه ^(٧) وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ^(٨) وكان لا يشافه أحد بما يكرهه دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم : لو قلتم لهذا أن يدع هذه ^(٩) : يعني الصفرة . وبأل أعرابي في المسجد بحضرته ففهم به

(١) حديث : كان في حرب فرؤى في المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف ... الحديث متفق عليه من حديث جابر بنحوه وهو في مسند أحمد أقرب إلى لفظ المصنف وسمى الرجل غورث بن الحارث .

(٢) حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة ... الحديث رواه مسلم وهو عند البخاري من حديث أبي هريرة (٣) حديث : سحره رجل من اليهود ، أخبره جبريل بذلك حتى استخرجه ... الحديث . أخرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث زيد بن أرقم وقصة سحره في الصحيحين من حديث عائشة بلفظ آخر (٤) حديث علي : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال « اطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ » ... الحديث « متفق عليه » (٥) حديث : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود (٦) حديث « لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود وقال غريب من هذا الوجه .

بيان إغضائه صلى الله عليه وسلم عما يكرهه

(٧) حديث : كان رقيق البشرة لطيف الظاهر بعرف في وجهه غضبه أخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف رضاه وغضبه بوجهه ... الحديث . وقد تقدم . (٨) حديث : كان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ... الحديث . وقد تقدم أخرجه أبو الشيخ من حديث عائشة بإسناد حسن (٩) حديث : كان لا يشافه أحد ما يكرهه . دخل عليه رجل وعليه صفرة فكرهه فلم يقل شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم « لو قلتم لهذا أن يدع هذه » يعني الصفرة أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي في اليوم واليلة من حديث أنس وإسناده ضعيف .

الصحابه فقال صلى الله عليه وسلم « لا تزرموه » أى لا تقطعوا عليه البول ثم قال له « إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء ^(١) » وفى رواية « قربوا ولا تنفروا » . وجاءه أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه صلى الله عليه وسلم ثم قال له « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت ، قال : فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال « أحسنت إليك ؟ » قال : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابي شيء من ذلك فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك قال : نعم ، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا الأعرابي قال ما قال فردناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ » فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرا ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقةي فإنى أرفق بها وأعلم فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ^(٢) » .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئا ^(٣) وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته لم أرقبه ولا بعده مثله ^(٤) . وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ^(٥) . وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئا قط فقال لا ^(٦) . وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسّمها فما رد سائلا حتى فرغ منها ^(٧) . وجاء رجل فسأله فقال « ما عندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاء ما شيء قضيناه » فقال عمر : يا رسول الله ما لك فلك الله ما لا تقدر عليه ففكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل : أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلا ، فتبسم النبي صلى الله

- (١) حديث : بال أعرابي فى المسجد بحضرته فقال صلى الله عليه وسلم « لا تزرموه ... الحديث » متفق عليه من حديث أنس .
(٢) حديث : جاء أعرابي يوما يطلب منه شيئا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « أحسنت إليك » فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملت . الحديث . بطوله أخرجه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم

- (٣) حديث : كان أجود الناس وأسخاهم وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة . أخرجه الشيخان من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس . ولها من حديث ابن عباس : كان أجود الناس بالخير وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان . وفيه : فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة . (٤) حديث : كان على إذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأجراً الناس صدرا ... الحديث . رواه الترمذى وقال ليس له سند متصل .
(٥) حديث : ما سئل شيئا قط على الإسلام إلا أعطاه ... الحديث . متفق عليه من حديث أنس . (٦) حديث : ما سئل شيئا قط فقال : لا ، متفق عليه من حديث جابر . (٧) حديث : حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . أخرجه أبو الحسن بن الضحاك فى الممائل من حديث الحسن مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال من البحرين ثمانون ألفا لم يقدم عليه مال أكثر منه ، لم يسأله يومئذ أحد إلا أعطاه ولم يمنع سائلا ولم يبط ساكتا فقال له العباس ... الحديث . وللبخارى تعليقا من حديث أنس : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث . وفيه : فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس ... الحديث ووصله عمر بن محمد البحرى فى صحيحه .

عليه وسلم وعرف السرور في وجهه ^(١) ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاء نعماً لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » ^(٢) .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أنجد الناس وأشجعهم ^(٣) قال علي رضي الله عنه : لقد رأيته يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ^(٤) وقال أيضاً : كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ^(٥) قيل : وكان صلى الله عليه وسلم قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر الناس بالقتال تشمر وكان من أشد الناس بأساً ^(٦) وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو ^(٧) وقال عمران بن بن حصين : مابق رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب ^(٨) وقالوا : كان قوى البطش ^(٩) ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب : فما روى يومئذ أحد كان أشد منه ^(١٠) »

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم أشد الناس تواضعاً في علو منصبه ^(١١) قال ابن عامر : رأيته يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك ^(١٢) وكان يركب الحمار وكفاه عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف ^(١٣) وكان يعود

(١) حديث : جاءه رجل فسأله فقال « ما عندي شيء ولكن ابته على فإذا جاءنا شيء قضينا » فقال عمر : يا رسول الله ما كف لك الله . . . الحديث أخرجه الترمذي في المعجم في حديث عمر وفيه موسى بن علقمة القروي لم يروه غير ابنه هرون .
(٢) حديث : لما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه . . . الحديث . أخرجه البخاري من حديث جابر بن مطعم .

بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم

(٣) حديث : كان أنجد الناس وأشجعهم . أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بسند صحيح : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وللشيخين من حديث أنس : كان أشجع الناس وأحسن الناس . . . الحديث
(٤) حديث علي : لقد رأيته يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد جيد (٥) حديث علي أيضاً . كنا إذا حمى البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . الحديث . أخرجه النسائي بإسناد صحيح ولمسلم نحوه من حديث البراء . (٦) حديث . كان قليل الكلام قليل الحديث فإذا أمر بالقتال تشمر . . . الحديث أخرجه أبو الشيخ من حديث سعد بن عياض التميمي مراسلاً (٧) حديث . كان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب . . . الحديث . أخرجه مسلم من حديث البراء : والله إذا حمى الوطيس تنق به وإن الشجاع منا الذي يخاذي به (٨) حديث عمران بن حصين . مابق كتيبة إلا كان أول من يضرب . أخرجه أبو الشيخ أيضاً وفيه من لم أعرفه .
(٩) حديث . كان قوى البطش . أخرجه أبو الشيخ أيضاً من رواية أبي جعفر معضلاً والمعبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن عمرو « أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع » وسنده ضعيف . (١٠) حديث . لما غشيه المشركون نزل فجعل يقول « أنا النبي لا كذب . . . الحديث » متفق عليه من حديث البراء دون قوله . فما روى أحد يومئذ أشد منه . وهذه الزيادة لأبي الشيخ وله من حديث علي في قصة بدر . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً .

بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم

(١١) حديث : كان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه أخرجه أبو الحسن بن الضحاك في المعجم في حديث أبي سعيد الخدري في حديث طويل في صفته قال فيه : متواضع في غير مذلة . وإسناده ضعيف (١٢) حديث : قال ابن عامر رأيته يرمى الجرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث قدامة بن عبد الله بن عمار قال الترمذي حسن صحيح وفي كتاب أبي الشيخ قدامة بن عبد الله بن عمار كما ذكره المصنف . (١٣) حديث : كان يركب الحمار =

المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ^(١) ويخفف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم ^(٢) وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ^(٣) وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ^(٤) وأتى صلى الله عليه وسلم برجل فأرعد من هيئته فقال له : هون عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ^(٥) وكان يجلس بين أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه ^(٦) وقالت له عائشة رضي الله عنها كل - جعلني الله فداك - متسكئا فإنه أهون عليك قال : فأصغى رأسه حتى كاد أن تضيق جبهته الأرض ثم قال : بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ^(٧) : وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى ^(٨) وكان لا يدعو أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك ^(٩) : وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضع لهم ^(١٠) وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيتهبسم هو إذا ضحكوا ولا يجرهم إلا عن حرام ^(١١) .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

وكان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، ومع ذلك فلم يكن يمشي به أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولها فإذا فارقه نسب إلى الطول ونسب هو عليه السلام إلى الربعة ويقول صلى الله عليه وسلم : جعل الخير كله في الربعة ^(١٢) .

= موكفا عليه قطيفة وكان مع ذلك يستردف . متفق عليه من حديث أسامة بن زيد . (١) حديث : كان يعود المريض ويقبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك . أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وتقدم منقطعاً . (٣) حديث : كان يخفف النعل ويرقع الثوب ويصنع في بيته مع أهله في حاجته . هو في المسند من حديث عائشة وتقدم في أوائل آداب المديشة . (٣) حديث : كان أصحابه لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك : هو عند الترمذي من حديث أنس وصححه وتقدم في آداب الصحبة . (٤) حديث : كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم . متفق عليه من حديث أنس وتقدم في آداب الصحبة . (٥) حديث : أتى برجل فأرعد من هيئته فقال « هون الله عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » أخرجه الحاكم من حديث جرير وقال صحيح على شرط الشيخين . (٦) حديث : كان يجلس مع أصحابه محتلطا بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ ... الحديث . أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي ذر وقد تقدم . (٧) حديث : قالت عائشة كل - جعلني الله فداك - متسكئا فإنه أهون عليك ... الحديث . أخرجه أبو الشيخ من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عنها بسند ضعيف . (٨) حديث : كان صلى الله عليه وسلم لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لقي الله أخرجه البخاري من حديث أنس وتقدم في آداب الأكل . (٩) حديث : وكان صلى الله عليه وسلم لا يدعو أحد من أصحابه ولا من غيرهم إلا قال « لبيك » أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة وفيه حسين بن علوان منهم بالكذب وللعبراني في الكبير بإسناد جيد من حديث محمد بن حاطب في أبناء حديث : أن أمة قالت يا رسول الله فقال « لبيك وسعديك » الحديث (١٠) حديث : كان صلى الله عليه وسلم إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم ... الحديث . أخرجه الترمذي في المعجم من حديث زيد بن ثابت دون ذكر : الدراب ، وفيه سليمان بن خارجة تفرد عنه الوليد بن أبي الوليد وذكره ابن حبان في الثقات . (١١) حديث : كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ... الحديث . أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون قوله : ولا يجرهم إلا عن حرام .

بيان صورته وخلقته صلى الله عليه وسلم

(١٢) حديث : كان من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ... الحديث بطوله . أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من حديث عائشة بزيادة ونقصان دون شعر أبي طالب والآتي ودون قوله : وربما جعل شعره =

وأما لونه فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ، ونعته عنه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه . وكان عرقه صلى الله عليه وسلم في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر .

وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القطط وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل . وقيل : كان شعره يضرب منكبيه وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . وربما جعله غداثا أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . وكان شبيهه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، مازاد على ذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهها وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته ، وكانوا يقولون هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول :

أمين مصطفي للنخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان صلى الله عليه وسلم واسع الجبهة أزج الحاجبين سابغهما وكان أبلج ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه فجلاوين أدعجهما وكان في عينيه تمزج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقنى العينين - أي مستوى الأنف - وكان مفلج الأسنان - أي متفرقها - وكان إذا افتقر ضاحكا افتقر عن مثل سنا البرق إذا تلألاً ، وكان من أحسن عباد الله شفيتين وأطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدين صلبهما ليس بالطويل الوحه ولا المكثم ، كث اللحية ، وكان يعني لحيته ويأخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عنقا لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألاً في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ، وكان صلى الله عليه وسلم عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرآة في استوائها وكالقمر في بياضه موصول ما بين لبتة وسرته بشعر منقاد كالقضيبي لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخماً الكراديس - أي رموس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين - وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه اليمين فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل

= على أذنيه فتبدو سوائفه تتلألاً . ودون قوله : وربما كان واسع الجبهة - إلى قوله - وكان سهل الخدين وفيه صبيح بن عبد الله الفرغاني منكر الحديث قاله الخطيب . وفي الصحيحين من حديث البراء : له شعر يبلغ شحمة أذنيه وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أم هانئ : قدم إلى مكة وله أربع غداثر والترمذي من حديث علي في صفته صلى الله عليه وسلم : أدعج العينين أهدب الأشفار ... الحديث . وقال إيسر لمسانده بمحصل وله في الثمائل من حديث ابن أبي هالة : أزهر اللون واسع الجبين أزج الخواجب سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب . أقنى العينين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية سهل الخدين ضامع الفم مفلج الأسنان ... الحديث

(١) حديث : لعنه عنه أبو طالب فقال : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل .

ذكره ابن مسحاق في السيرة وفي المسند عن عائشة : أنها تملك بهذا البيت وأبو بكر يقضي فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه . وأخرجه البخاري تعليقا من حديث ابن عمر : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستسقى فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب فأنشده . وقد وصله بإسناد صحيح .

الزندان رحب الراحتين سائل الاطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيبا - مسها بطيب أو لم يمسها - يصالحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عبل ماتحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان ممتدل الخناق في السمن بدن في آخر زمانه وكان لحه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مشيه صلى الله عليه وسلم فكان يمشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صلب يخطو تكفيا ويمشى الهوينى بغير تبختر - والهوينى تقارب الخطأ - وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « أنا أشبه الناس بآدم صلى الله عليه وسلم وكان أبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خلقا وخاقا » وكان يقول : « إن لى عند ربى عشرة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماسح الذى يمحو الله بي الكفر وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد » ، وأنا الحاشى يحشر الله العباد على قدمى ، وأنا رسول الرحمة ورسول التوبة ورسول الملاحم والمقضى قضيت الناس جميعا وأنا قسّم^(١) ، قال أبو البحتري والقثم الكامل الجامع ، والله أعلم .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

اعلم أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وبجاياته وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده لإياهم إلى طاعته مع ما يحكى من عجائب اجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم ، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية ، بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية ، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس ، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه حتى أن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا وجه كذاب فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده ؟ وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق وليتنبه لصدقه عليه الصلاة والسلام وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله ؛ إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيا ضعيفا مستضعفا ، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم فضلا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى ؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك ؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لسكان فيه كفاية . وقد ظهر من آياته ومعجزاته مالا يستريب فيه محصل ، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل .

فقد خرق الله العادة على يده غير مرة ؛ إذ شق له القمر بمكة لما سأله قريش آية^(٢) وأطعم النفر الكثير في

(١) حديث : إن لى عند ربى عشرة أسماء ... الحديث . أخرجه ابن هدى من حديث على وجابر وأسامة بن زيد وابن عباس وعائشة بإسناد ضعيف ، وله ولأبي نعيم في الدلائل من حديث أبي الطفيل : لى عند ربى عشرة أسماء . قال أبو الطفيل : حفظت منها ثمانية . فذكرها بزيادة ونقص وذكر سيف بن وهب : أن أبا جعفر قال : إن الاسمين طه ويس . وإسناده ضعيف وفى الصحيحين من حديث جبير بن مطعم : لى أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الحاشى وأنا العاقب . وللمسلم من حديث أبي موسى : والمضى ونبي التوبة ونبي الرحمة . ولأحمد من حديث حذيفة : ونبي الملاحم . وسنده صحيح .

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه

(٢) حديث : انشق القمر : متفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس .

منزل جابر ^(١) وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق ^(٢) ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق ^(٣) وهو من أولاد المعز فوق العتود ، ومرة أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده ^(٤) ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بذت بشير في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم ^(٥) ونبع الماء من بين أصابعه عليه السلام فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش ، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن يسط عليه السلام يده فيه ^(٦) وأهراق عليه السلام وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ، ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء ؛ فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهم ألوف حتى رووا وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء ^(٧) وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربةضة البعير - وهو موضع بروكة - فزودهم كلهم منه وبقي منه فخبسه ^(٨) ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ^(٩) وأبطل الله تعالى السكاهة بمبعثه صلى الله عليه وسلم فعدمت وكان ظاهرة موجودة ^(١٠) وحن الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل فضمه إليه فسكن ^(١١) ودعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه ^(١٢) وهذا مذکور في سورة يقرأ بها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة

- (١) حديث : لطعام النفر الكثير في منزل جابر . متفق عليه من حديثه .
 (٢) حديث : لطعامه النفر الكثير في منزل أبي طلحة . متفق عليه من حديث أنس .
 (٣) حديث : لطعامه ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق . أخرجه الإسماعيلي في صحيحه ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة من حديث جابر وفيه أنهم كانوا ثمانمائة أو ثلاثمائة وهو عند البخاري دون ذكر العدد وفي رواية أبي نعيم في دلائل النبوة وهم ألف . (٤) حديث : لطعامه أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده . أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه : حتى فعل ذلك ثمانين رجلاً ثم أكل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً . وفي رواية لأبي نعيم في الدلائل : حتى أكل منه بضع وثمانون رجلاً . وهو متفق عليه لفظ : والفوم سبعون أو ثمانون رجلاً .
 (٥) حديث : لطعامه أهل الجيش من تمر يسير ساقته بذت بشير في يدها ... الحديث . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن إسحق حدثنا سعيد بن ميناء عن ابنة بدير بن سعد ولسانه جيد . (٦) حديث : نبع الماء من بين أصابعه فشرب أهل العسكر وهم عطاش وتوضؤوا .. الحديث . متفق عليه من حديث أنس في ذكر الوضوء فقط ولأبي نعيم من حديثه : خرج إلى قباء فأني من بعض أيوتهم بقدح صغير . وفيه : ثم قال « هلم إلى الشرب » قال أنس : بصريعي نبع الماء من بين أصابعه ولم يرد القدح حتى رووا منه . ولسانه جيد وللبزار واللفظ له والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس . كان في سفر فشكا أصحابه العطش فقال « اتنوني بماء » فأتوه بإناء فيه ماء فوضع يده في الماء فنبع من بين أصابعه ... الحديث .
 (٧) حديث : لمراقه وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشت بالماء ... الحديث وأخرجه مسلم من حديث معاذ بقصة عين تبوك ومن حديث سلمة بن الأكوع بقصة عين الحديبية وفيه : فإذا دعا ولما بقي فيها لجاشت ... الحديث . والبخاري من حديث البراء : أنه توضأ وصبه فيها . وفي الحديثين معا : أنهم كانوا أربعة عشر مائة وكذا عند البخاري من حديث البراء وكذلك عندهما من حديث جابر ، وقال البيهقي إنه الأصح ولهما من حديثه أيضاً : ألف وخمسمائة . ولمسلم من حديث ابن أبي أوفى : ألف وثلثمائة (٨) حديث : أمر عمر أن يزود أربعائة راكب من تمر كان كربةضة البعير .. الحديث . أخرجه أحمد من حديث النعمان بن مقرن وحديث دكين بن سعيد بإسنادين صحيحين وأصل حديث دكين عند أبي داود مختصراً من غير بيان لعددهم (٩) حديث : رميه الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم ... الحديث أخرجه مسلم من حديث سلمة بن الأكوع دون ذكر نزول الآية فرواه ابن مردويه في تفسيره من حديث جابر وابن عباس (١٠) حديث : لبطل السكاهة بمبعثه أخرجه الخرائطي من حديث مرداس بن قيس الدوسي قال : حضرت النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت عنده السكاهة وما كان من تغييرها عند مخرجي .. الحديث . ولأبي نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس في استراق الجن السمع فيلقونه على أوليائهم : فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم دحروا بالنجوم وأصله عند البخاري بغير هذا السياق (١١) حديث : حنين الجذع أخرجه البخاري من حديث جابر وسهل بن سعد (١٢) حديث : دعا اليهود إلى تمنى الموت وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه ... الحديث أخرجه البخاري من حديث ابن عباس : لو أن اليهود تمنا الموت لما أتوا ... الحديث . والبيهقي في الدلائل من حديث ابن عباس لا يقولوا رجل منكم إلا غص بريقه فأت مكانه فأبوا أن يفعلوا ... الحديث . ولسانه ضعيف .

جهرًا - تعظيما للكية التي فيها .

وأخبر عليه السلام بالغيوب وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة ^(١) وبأن عمارا تقتله الفئة الباغية ^(٢) وأن الحسن يصلح الله به فئتين من المسلمين عظيمتين ^(٣) وأخبر عليه السلام عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار ^(٤) فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخطط ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه . واتبعه سراقه بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض وأتبعه دحان حتى استغاثه فدعا له فانطلق الفرس ، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى ^(٥) فكان كذلك وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن وأخبر بمن قتله ^(٦) وخرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه ^(٧) وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له ^(٨) وقال لنفر من أصحابه مجتمعين : أحذركم في النار ضرسه مثل أحد فأتوا كلهم على استقامة وارتد منهم واحد فقتل مرتدا ^(٩) ، وقال لآخرين منهم : آخركم موتا في النار ؛ فسقط آخرهم موتا في النار فاحترق فيها فئات ^(١٠) ودعا شجرتين فأتياه واجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . وكان عليه السلام نحو الربعة فإذا مشى مع الطوال طالمهم ^(١١) ودعا عليه السلام النصارى إلى المباهلة فامتنعوا فعرفهم صلى الله عليه وسلم أنهم إن فعلوا ذلك هلكوا فعملوا صحة قوله فامتنعوا ^(١٢) وأتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهما عازمين على قتله عليه السلام فحبل بينهما وبين ذلك ودعا عليهما فهلك عامر بغدة وهلك أربد بصاعقة أحرقتة ^(١٣) وأخبر عليه السلام أنه يقتل

(١) حديث : أخبره بأن عثمان تصيبه بلوى بعدها الجنة . متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري . (٢) حديث : أخبره بأن عمارا تقتله الفئة الباغية . أخرجه مسلم من حديث أبي قتادة وأم سلمة والبخاري من حديث أبي سعيد .

(٣) حديث : أخبره أن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . أخرجه البخاري من حديث أبو بكر .

(٤) حديث : أخبره عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار . متفق عليه من حديث أبي هريرة وسهل بن سعد .

(٥) حديث : اتباع سراقه بن مالك له في قصة الهجرة فساخت قدما فرسه في الأرض . الحديث . متفق عليه من حديث أبي بكر الصديق (٦) حديث : أخبره بمقتل الأسود العنسي ليلة قتل وهو بصنعاء اليمن ومن قتله . وهو مذكور في السير والذي قتله فيروز الديلمي وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « بيا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأمنيت شأنهما فأوحى لي في المنام أن أنفخهما فنفختهما فطارا ، فتأولتهما كذايين يخرجان بدمي » فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء . . . الحديث (٧) حديث : خرج على مائة من قريش ينتظرونه فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه . أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن عباس وليس فيه : أنهم كانوا مائة . وكذلك رواه ابن مسعود من حديث محمد بن كعب القرظي مرسل .

(٨) حديث : شكأ إليه البعير وتذلل له . أخرجه أبو داود من حديث عبد الله بن جعفر في أثناء حديث وفيه : فإنه شكأ لي أنك تحببه وتدنيه . وأول الحديث عند مسلم دون ذكر قصة البعير (٩) حديث : قال لنفر من أصحابه « أحذركم ضرسه في النار مثل أحد . . . الحديث » ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة بنير إسناد في ترجمة الرجال بن عثرة وهو الذي ارتد - وهو بالجيم - وذكره عبد الغني - بالمهمله - وسبقه إلى ذلك الواقدي والمدائني والأول أصح وأكثر كما ذكره الدارقطني وابن ماكولا ووصله الطبراني من حديث رافع بن خديج بلفظ : أحد هؤلاء النفر في النار . وفيه الوافى عن عبد الله بن نوح متروك (١٠) حديث : قال لآخرين منهم « آخركم موتا في النار » فسقط آخرهم موتا في نار فاحترق فيها فئات أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل من حديث ابن مخذومة وفي رواية البيهقي : أن آخرهم موتا سمرة بن جندب ، لم يذكر أنه احترق ورواه البيهقي من حديث أبي هريرة نحوه ورواه ثقات وقاله ابن عبد البر : لأنه سقط في قدر مملوء ماء حارا فئات . روى ذلك بإسناد متصل إلا أن فيه داود بن المخبر وقد ضعفه الجمهور (١١) حديث : دعا شجرتين فأتياه فاجتمعتا ثم أمرهما فافترقتا . أخرجه أحمد من حديث علي بن حمزة بسند صحيح (١٢) حديث : دعا النصارى إلى المباهلة وأخبرلن فعلوا ذلك هلكوا فامتنعوا أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في أثناء حديث : ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يبعدون مالا ولا أهلا (١٣) حديث : أتاه عامر بن الطفيل بن مالك وأربد بن قيس وهما فارسا العرب وفاتكاهما عازمين على قتله فحبل بينهما وبين ذلك . الحديث . أخرجه الطبراني في الأوسط والأكبر من حديث ابن عباس بطوله بسند ابن

أبي بن خلف الجمحي ثغده يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته فيه (١) .

وأطعم عليه الصلاة والسلام السم فأت الذي أكله معه وعاش هو صلى الله عليه وسلم بعده أربع سنين ، وكله الذراع المسموم (٢) .

وأخبر عليه السلام يوم بدر بمصارع صناديد قريش ووقفهم على مصارعهم رجالا رجلا فلم يتعدوا واحد منهم ذلك الموضع (٣) وأذعر عليه السلام بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك (٤) وزويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها فكان كذلك فقد بلغ ملكهم من أول المشرق : من بلاد الترك إلى آخر المغرب من بحر الأندلس وبلاد البربر ولم يتسعوا في الجنوب ولا في الشمال - كما أخبر صلى الله عليه وسلم سواء بسواء (٥) . وأخبر فاطمة ابنته رضى الله عنها بأنها أول أهله لحاقا به (٦) فكان كذلك . وأخبر نسائه بأن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يدا بالصدقة وأولهن لحوقا به رضى الله عنها (٧) .

ومسح ضرع شاة لابلن لها فدرت (٨) وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود رضى الله عنه . وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية . وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه السلام بيده فكانت أصح عينيه وأحسنهما (٩) وتفل في عين على رضى الله عنه وهو أرمذ يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية (١٠) وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم (١١) وأصيب رجل بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم فمسحها بيده فبرأت من حينها (١٢) وقل زاد جيش كان معه عليه السلام فدعا بجميع ما بقى فاجتمع شيء يسير جدا فدعا فيه بالبركة ، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر إلا ملئ من ذلك (١٣) وحكى الحكيم بن العاص بن وائل (*) مشيئته

(١) حديث . لخباره أنه يقتل أبي بن خلف الجمحي ثغده يوم أحد خدشا لطيفا فكانت منيته . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من رواية سعيد بن المسيب ومن رواية عروة بن الزبير مرسل (٢) حديث : أنه أطعم السم فأت الذي أكله معه وعاش هو بعده أربع سنين ، وكله الذراع المسموم . أخرجه أبو داود من حديث جابر في رواية له مرسل : أن الذي مات بشر بن البراء ، وفي الصحيحين من حديث أنس : أن يهودية أتت النبي صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها .. الحديث . وفيه : فإزات أعرفها في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) حديث : لخباره صلى الله عليه وسلم يوم بدر بمصارع صناديد قريش .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٤) حديث : إخباره بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك . متفق عليه من حديث أم حرام (٥) حديث : زويت له الأرض مشارقها ومغاربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوى له منها .. الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٦) حديث : إخباره فاطمة أنها أول أهله لحاقا به . متفق عليه من حديث عائشة وفاطمة أيضاً (٧) حديث : أخبر نسائه أن أطولهن يدا أسرعهن لحاقا به فكانت زينب الحديث . أخرجه مسلم من حديث عائشة وفي الصحيحين : أن سودة كانت أولهن لحوقا به قال ابن الجوزي وهذا غلط من بعض الرواة بلا شك .

(٨) حديث : مسح ضرع شاة لابلن لها فدرت فكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود . أخرجه أحمد من حديث ابن مسعود بإسناد جيد (٩) حديث : ندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها فكانت أصح عينيه وأحسنهما . أخرجه أبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عنه ففي رواية للبيهقي : أنه كان يهدر . وفي رواية أبي نعيم : أنه كان بأحد : وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي فيه من حديث أبي سعيد الخدري .

(١٠) حديث : تفل في عين على وهو أرمذ يوم خيبر فصيح من وقته وبعثه بالراية . متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهل بن سعد أيضاً . (١١) حديث : كانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه . أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود .

(١٢) حديث : أصيبت رجل بعض أصحابه فمسحها بيده فبرأت من حينها . أخرجه البخاري في قصة قتل أبي رافع

(١٣) حديث : قل زاد جيش معه فدعا بما بقى فاجتمع شيء يسير فدعا فيه بالبركة ... الحديث . متفق عليه من حديث سلمة ابن الأكوع .

(*) قوله : الحكيم بن العاص بن وائل هكذا في النسخ وصوابه كما في الشارح الحكيم بن العاص بن أمية بن عبد شمس اهـ مصححه .

عليه السلام مستهزئاً فقال صلى الله عليه وسلم : كذلك فكان : فلم يزل يرتس حتى مات ^(١) وخطب عليه السلام امرأة فقال له أبوها : إن بها برصاً - امتناعاً من خطبته واعتذاراً - ولم يكن بها برص فقال عليه السلام : فلتكن كذلك : ^(٢) فبرصت وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر . إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وإنما اقتصرنا على المستفيض . ومن يستريب في انخراق العادة على يده - يزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً بل المتواتر هو القرآن فقط كمن يستريب في نجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم الطائي ومعلوم أن آحاد وقائعهم غير متواترة ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضرورياً ثم لا يتبارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق : وليس لنبي معجزة باقية سواه صلى الله عليه وسلم إذ تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغاء الخلق وفصحاء العرب وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم والفصاحة صنعتهم وبها منافستهم وبها هاتهم . وكان ينادى بين أظهرهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وقال ذلك تعجيزاً لهم فمجزوا عن ذلك وصرفوا عنه حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذرايعهم للسبي ، وما استطاعوا أن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً قرناً بعد قرن وعصرًا بعد عصر وقد انقضى اليوم قريب من خمسمائة سنة فلم يقدر أحد على معارضته .

فأعظم بغاوة من ينظر في أحواله ، ثم في أقواله ، ثم في أفعاله ، ثم في أخلاقه ، ثم في معجزاته ، ثم في استمرار شرعه إلى الآن ، ثم في انتشاره في أقطار العالم ، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه ثم يتبارى بعد ذلك في صدقه .

وما أعظم توفيق من آمن به وصدقته واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده .

(١) حديث : حكى الحكم بن العاص مشيئة مستهزئاً به فقال « كذلك فكان » الحديث « أخرجه البيهقي في الدلائل من حديث هند بن خديج بإسناد جيد وللعلم في المستدرک من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد (٢) حديث : خطب امرأة فقال أبوها لمن بها برصاً امتناعاً من خطبته واعتذاراً ولم يكن بها برص فقال « فلتكن كذلك » فبرصت المرأة . ذكرها ابن الجوزي في التلخيص وسماها جرة بنت الحرث بن هوف المزني وتبعه على ذلك الديلمی

تم الجزء الثاني من كتاب إحياء علوم الدين
ويليه الجزء الثالث ويشتمل على ربيع المهاسكات

فهرس

الحجرات

من كتاب إحياء علوم الدين
لحجة الإسلام الإمام الغزالي

صحيحة	صحيحة
٤٢ الباب الثالث في آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة	٢ كتاب آداب الأكل وهو الأول من ربيع العادات
٥٦ القسم الثاني من هذا الباب النظر في حقوق الزوج عليها	٣ الباب الأول فيما لا بد للمنفرد منه وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه
٦٠ كتاب آداب الكسب والمعاش وهو الكتاب الثالث من ربيع العادات	القسم الأول في الآداب التي تتقدم على الأكل وهي سبعة
٦١ الباب الأول في فضل الكسب والحسب عليه	٥ القسم الثاني في آداب حالة الأكل
٦٤ الباب الثاني في علم الكسب بطريق البيع الخ وبيان شروط الشرع في صحة هذه التصرفات التي هي مدار المكاسب في الشرع	٦ القسم الثالث ما يستحب بعد الطعام
العقد الأول البيع	٧ الباب الثاني فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل وهي سبعة
٦٨ العقد الثاني عقد الربا	٨ الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان والزائرين
٦٩ العقد الثالث السلم	١٢ الباب الرابع في آداب الضيافة
٧٠ العقد الرابع الإجارة	١٨ فهل يجمع آداباً ومنهاهي طيبة وشرعية متفرقة
٧١ العقد الخامس القراض	٢١ كتاب آداب النكاح وهو الكتاب الثاني من ربيع العادات
٧٣ العقد السادس الشركة	٢١ الباب الأول في الترغيب في النكاح والترغيب عنه
٧٢ الباب الثالث في بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة	الترغيب في النكاح
القسم الأول فيما يعم ضرره وهو أنواع	٢٤ ما جاء في الترهيب عن النكاح
٧٤ القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل	٢٥ آفات النكاح وفوائده
٧٩ الباب الرابع في الإحسان في المعاملة	٢٦ الباب الثاني فيما يراعى حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد
٨٣ الباب الخامس في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته	

صحيفة	صحيفة
١٤٢ الباب السادس فيما يحل من مخالطة السلاطين	٨٨ كتاب الحلال والحرام
الظلمة ويحرم وحكم غشيان بحالهم	وهو الكتاب الرابع من ربيع العادات
والدخول عليهم والإكرام لهم	٨٩ الباب الأول في فضيلة الحلال ومذمة
١٥٣ الباب السابع في مسائل متفرقة بكثر مسيس	الحرام وبيان أصناف الحلال ودرجاته
الحاجة إليها قد مثل عنها في الفتاوى	وأصناف الحرام ودرجات الورع فيه
١٥٧ كتاب آداب الألفة والأخوة	وفضيلة الحلال ومذمة الحرام
والصحة والمعاشرة مع أصناف الخلق وهو	٩٢ أصناف الحلال ومداخله
الكتاب الخامس من ربيع العادات الثاني	القسم الأول الحرام لصفة في عينه الخ
وفيه ثلاثة أبواب	٩٣ القسم الثاني ما يحرم لحال في جهة لإثبات
١٥٧ الباب الأول في فضيلة الألفة والأخوة	اليده عليه
وفي شروطها ودرجاتها وفوائدها	٩٤ درجات الحلال والحرام
فضيلة الألفة والأخوة	٩٥ أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهد
١٦١ بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها من	٩٨ الباب الثاني في مراتب الشبهات ومثارها
الأخوة في الدنيا	وتمييزها عن الحلال والحرام
١٦٦ بيان البعض في الله	٩٩ المثار الأول الشك في السبب المحلل والمحرم
١٦٨ بيان مراتب الذين يبخسون في الله وكيفية	١٠٢ المثار الثاني للشبهة شك مذمومة الاختلاط
معاملتهم	١١٠ المثار الثالث للشبهة أن يتصل بالسبب المحلل
١٥٧ بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته	معصية
١٧٣ الباب الثاني في حقوق الأخوة والصحة	١١٥ المثار الرابع الاختلاف في الأدلة
الحق الأول في المال	١١٨ الباب الثالث في البحث والسؤال والمهجوم
١٧٥ الحق الثاني في الإعانة بالنفس الخ	والإهمال ومظانها
١٧٦ الحق الثالث في اللسان بالسكوت الخ	المثار الأول أحوال المالك
١٨٠ الحق الرابع على اللسان بالنطق	١٢١ المثار الثاني ما يستند الشك فيه إلى سبب
١٨٣ الحق الخامس العفو عن الزلات والمفوات	المال لا في حال المالك
١٨٦ الحق السادس الدعاء للأخ في حياته الخ	١٢٧ الباب الرابع في كيفية خروج التائب عن
١٨٧ الحق السابع الوفاء والإخلاص	المظالم المالية وفيه نظران
١٨٨ الحق الثامن التخفيف وترك التكلف الخ	النظر الأول في كيفية التمييز والإخراج
١٩٢ خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة الخ	١٣٠ النظر الثاني في المصرف
١٩٣ الباب الثالث في حق المسلم والرحم والجوار	١٣٥ الباب الخامس في إدارات السلاطين
والمالك وكيفية المعاشرة مع من يدلى بهذه	وما يحل منها وما يحرم وفيه نظران
الأسباب	١٣٥ النظر الأول في جهات الدخول للسلطان
١٩٤ حقوق المسلم	١٣٩ النظر الثاني من هذا الباب في قدر المأخوذ
٢١٢ حقوق الجوار	وصفة الآخذ

صحيحة	صحيحة
٢٤٥ الباب الأول في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفي نية السفر وفائده وفيه فصلان الفصل الأول في فوائد السفر وفضله ونيته	٢١٥ حقوق الأقارب والرحم
٢٥١ الفصل الثاني في آداب المسافرين من أول نهوضه إلى آخر رجوعه وهي أحد عشر أدبا	٢١٦ حقوق الوالدين والولد
٢٥٧ الباب الثاني فيما لا بد للسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات الخ	٢١٩ حقوق المملوك
٢٦٣ القسم الأول العلم برخص السفر	٢٢١ كتاب آداب العزلة
٢٦٣ القسم الثاني ما يتجدد من الوظيفة الخ	وهو الكتاب السادس من ربيع العادات وفيه بابان
٢٦٨ كتاب آداب السماع والوجد	٣٢٢ 'باب الأول في نقل المذاهب والأويل
وهو الكتاب الثامن من ربيع العادات وفيه بابان : الأول في ذكر اختلاف العلماء في إباحة السماع وكشف الحق فيه ببيان أقوال العلماء والمتصوفة في تحليله وتحريمه	وذكر حجج الفريقين في ذلك
٢٧٠ بيان الدليل على إباحة السماع	٢٢٣ ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها
٢٨٤ بيان حجج القائلين بتحريم السماع والجراب عنها	٢٢٤ ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة
٢٨٧ الباب الثاني في آثار السماع وآدابه وفيه مقامات ثلاث	٢٢٦ الباب الثاني في فوائد العزلة وغوائرها وكشف الحق في فضائها
٢٨٧ المقام الأول في الفهم	الفائدة الأولى التفرغ لعباده والفسكر الخ
٢٩١ المقام الثاني بعد الفهم والتزبل الوجد	٢٢٨ الفائدة الثانية التخاص بالعزلة عن المداص التي يتعرض الإنسان لما الخ
٣٠١ المقام الثالث من السماع نذكر فيه آداب السماع ظاهرة وباطنة الخ	٢٣٢ الفائدة الثالثة الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس الخ
٣٠٦ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو الكتاب التاسع من ربيع العادات الثاني وفيه أربعة أبواب	٢٣٣ الفائدة الرابعة الخلاص من شر الناس
٣٠٦ الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته	٢٣٥ الفائدة الخامسة أن ينة طمع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس
٣١٢ الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه ، وأركانه أربعة	٢٣٥ الفائدة السادسة الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحق ومقاساة حقهم وأخلاقهم الخ
الركن الأول المحتسب	٢٣٦ آفات العزلة المبينة على فوات فوائد المخالطة السبعة الآتية .
٣٢٤ الركن الثاني للحسبة ما فيه الحسبة	الفائدة الأولى التعليم والتعلم
٣٢٧ الركن الثالث المحتسب عليه	٢٣٨ الفائدة الثانية النفع والانتفاع
٣٢٩ الركن الرابع نفس الاحتساب	الفائدة الثالثة التأديب والتأدب
	٢٣٩ الفائدة الرابعة والاستئناس والإيناس
	٢٤٠ الفائدة الخامسة في فضل الثواب وإزالته
	الفائدة السادسة من فوائد المخالطة التواضع
	٢٤١ الفائدة السابعة التجارب
	٢٤٤ كتاب آداب السفر
	وهو الكتاب السابع من ربيع العادات وفيه بابان

صحيحة	صحيحة
صلى الله عليه وسلم بالقرآن	٢٣٣ باب آداب المحقق
٣٦٤ بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار	٢٣٥ الباب الثالث في المنكرات المألوفة في العادات منكرات المساجد
٣٦٤ بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه	٢٣٨ منكرات الأسواق
٢٧٧ بيان أخلاقه وآدابه في الطعام	منكرات الشوارع
٢٧٤ بيان أخلاقه في اللباس	٢٣٩ منكرات الحمامات
٢٧٧ بيان عفوّه صلى الله عليه وسلم مع القدرة	٢٤٠ منكرات الضيافة
٣٧٨ بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه	٢٤٢ المنكرات العامة
٢٧٩ بيان سخاوته وجوده صلى الله عليه وسلم	٢٤٣ الباب الرابع في أمرا الأمراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر
٣٨٠ بيان شجاعته صلى الله عليه وسلم	٣٥٧ كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة
بيان تواضعه صلى الله عليه وسلم	وهو الكتاب العاشر من ربيع العادات من كتاب إحياء علوم الدين
١٨١ بيان صبرته وخلاته صلى الله عليه وسلم	٣٥٨ بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً
٣٨٣ بيان معجزاته وآياته لدالة على صدقه	

